وزارة التربية والتعليم
قسم الترجمة والألف كتاب
الإدارة العامة للثقافة

الشباب

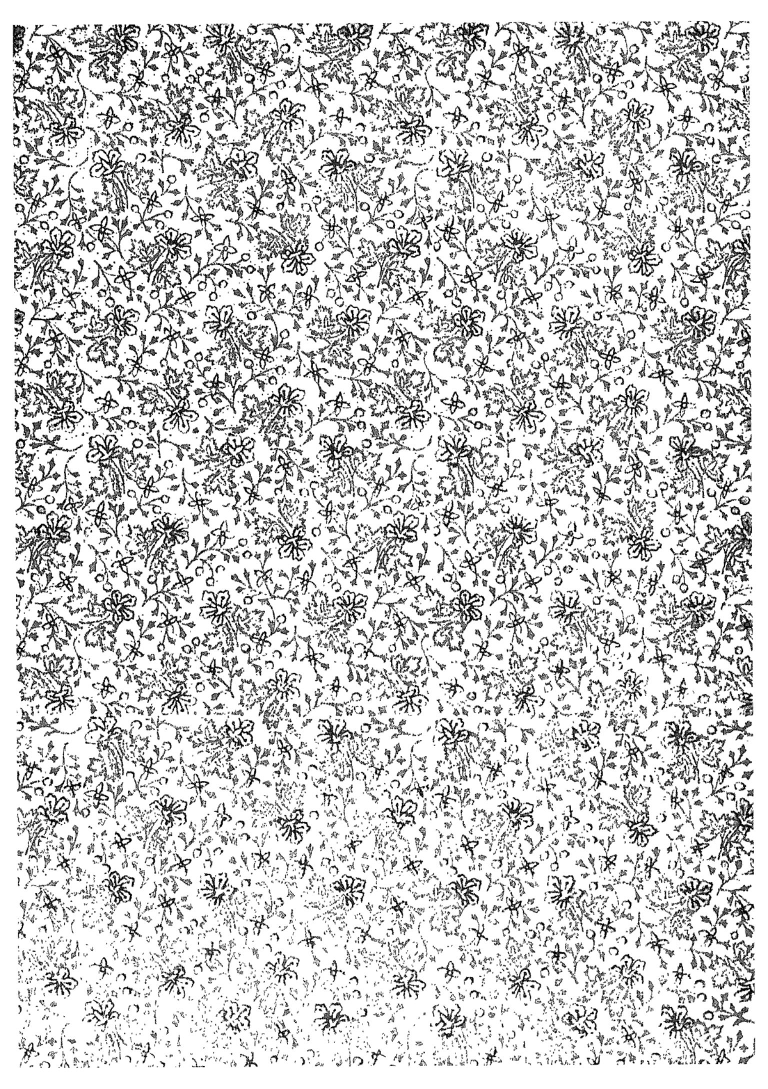
من ١٠-١٦

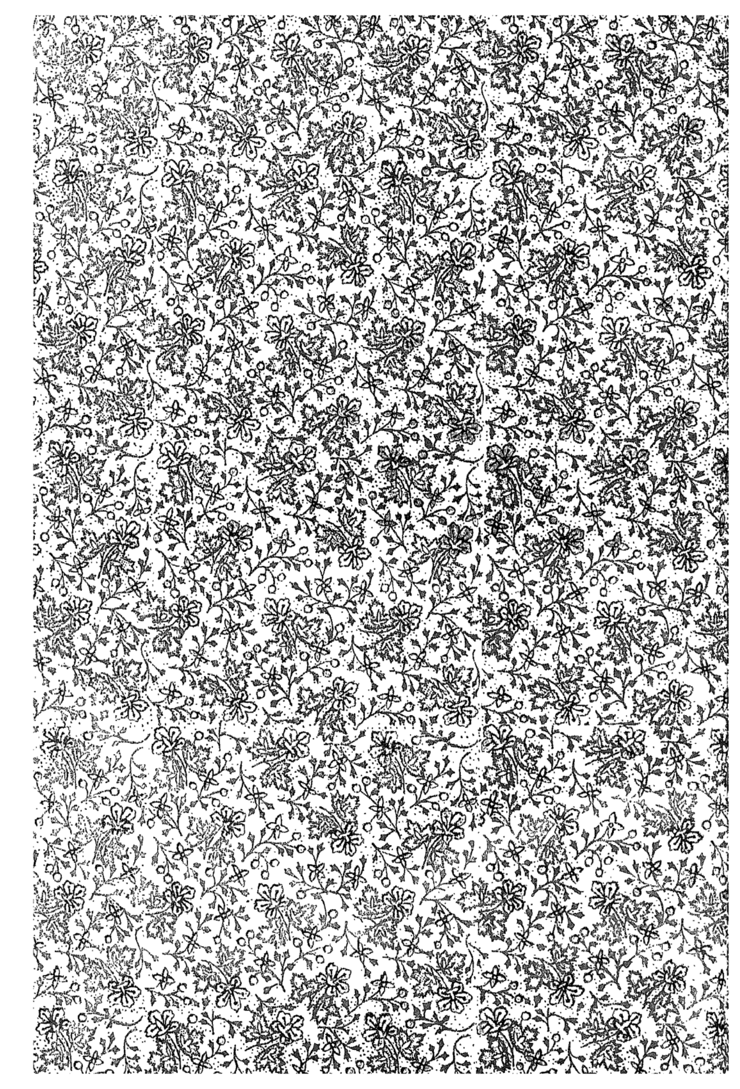
تأليف
أرنولد جزل (وآخرين)

ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد

راجعه: دكتور مصطفى فهمي









الشباب

من العاشرة إلى السادسة عشرة

تأليف

أرنولد جزل (وآخرين)

ترجمه

عبد العزيز توفيق جاويد

وكيل مدرسة مصر الجديدة الثانوية

راجعه

دكتور مصطفى فهمي

أستاذ علم النفس بجامعة عين شمس

الجزء الأول

نشرته إدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم

بإذن من المؤلف والناشر

دار الطباعة الحديثة

Youth : The years from
Ten to Sixteen.

By

ARNOLD GESELL, M. D.
FRANCES L. ILG, M D.
LOUISE BATES AMES, Ph. D.
From the Gesell Institute of Child Development
and From the Yale Clinic of Child Development

محتويات الكتاب

صفحة

القسم الثانى

مصورات النضج وسماته

الفصل الرابع ـ سن العاشرة

الفصل الخامس ـ سن الحادية عشرة

الفصل السادس ـ سن الثانية عشرة .

الفصل السابع ـ سن الثالثة عشرة

الفصل الثامن ـ سن الرابعة عشرة

الفصل التاسع ـ سن الخامسة عشره

الفصل العاشر ـ سن السادسة عشرة

كلمة المترجم

هذا هو السفر الثالث من ثالوث جزل عميد علم نفس الطفل فى العالم غير منازع . نقلته إلى العربية مواصلة منى لخدمة الآباء والأمهات والمعلمين ورغبة فى خلق اهتمام بينهم بالطفولة، تلك الوديعة المباركة التى استودعهم الله إياها وفرض عليهم الاهتمام بها والرعاية لها والحدب عليها، وبث فيهم من الحنان والمحبة ما كفل به عنايتهم بالنشء واهتمامهم به . على أن الحنان والمحبة شىء وسياسة الطفل وتفهمه والمقدرة على التفاهم معه فضلا عن تنشئته على الوجه العلمى الصحيح شىء آخر بل ربما أدى فرط الحنان إلى الافساد وأورثت المحبة فى غير موضعها المضرة . لأن كل عمل لا يقوم على الخبرة الصحيحة والإدراك الصائب والعلم اليقين قد يضل دليله فما بالك إذا استحكمت فيه غريزة عمياء من غرائز الأمومة أو سوء فهم من معلم غير دارس أو هائجة غضب من أب محنق .

من أجل ذلك أقبل على الولد رجال العلم فى العالم وذوو البصيرة المستشفة للطبيعة البشرية يدرسونه ويتقصون طرق معالجته . فقديما كتب فى هذا الشأن المصريون ومن بعدهم اليونان ثم العرب. حتى إذا انبثق فجر القرن التاسع عشر عن نور علم النفس كان فى مقدمة الرعيل الأول من علمائه وليم جيمس صاحب كتاب المراهقة وغيره من كتب علم النفس ، ثم مالبث العلماء أن ترادفوا كابراً بعد كابر ومنهم فى هذا القرن ألفريد بينيه الذى اهتم بدراسة الطفولة من حيث العقل واللغة والفكر واهتم خاصة بالذكاء . على أن أحداً من علماء الماضى والحاضر لم يتوفر على دراسة الطفولة كما توفر عليها مؤلف هذا الكتاب . فبفضله أنشأت جامعة ييل معهدا سيكولوجيا لدراسات الطفولة ودارا للحضانة وعيادة نفسية وغيرها . وأخذ يدرس حياة الطفل فى مدارج حياته يوما بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع وعاما إثر عام مستعينا بما اسعفته به الحضارة العصرية من وسائل التسجيل الصوتى والتصوير السينمائى ، كما استحدث ما أسماه بغرفة المراقبة مستخدما فيها الزجاج المشف من ناحية واحدة . وأخذ يلاحظ

ويشاهد متواريا مرة وظاهرا مرة ، ومتباحثاً مع الوالدين أحيانا ومع الأطفال [illegible] ومع معلميهم طورا وبذا تيسر له الحصول على معلوماته فى كل من طرق المشاهدة السادية والتجريب العلمى المتعمد . وأحرز فى هذا المضمار من الحقائق ما لم يسبقه إليه عالم قبله . فلا عجب أن صار الحجة الثقة الذى يرجع إليه فى كل ماله اتصال بسيكولوجية الناشئين وطرق معالجة مشكلاتهم فى الحيـاة ولا عجب أن يتوج القائمون بالأمر معهده باسمه . وهو فى هـذا الكتاب كما يدل عليه عنوانه يدرس الحياة العقلية والفكرية والنفسية لهؤلاء الأطفال الذين بدأ بهم رضعاء حتى أوصلهم بكتابيه الأولين إلى العاشرة من سنى حياتهم . وهو هنا يعاود دراستهم فى أخطر مرحلة من مراحل الحياة . فلئن قال علماء التحليل النفسى : إن أبكر أيام الطفولة أخطرها على صحة الطفل العقلية والنفسية فهى الباب الذى يلج منه الطفل إلى العقد وأنواع المركبات وإلى ما يصيبه فيما يلى ذلك من مراحل العمر من فصام ونواب ومن سوائية تتمشى مع الطبيعة السليمة أولاسوائية تتمرغ فى أوضار الشذوذ؛ فإنى لعلى يقين بأن المراهقة كما يسميها الناس جميعا أو الشباب كما سماها جزل أو الفتوة كما جنحنا نحن إلى تسميتها بادىء الرأى ، إنما هى أخطر سن يمر بها الإنسان ، فهو إما منفلت منها بسلامة عقل توصله إلى البر الطبيعى وتخرج منه مواطناسليم البنية مدرب العقل قد أخذ نفسه بالمنطق وضبط النفس وطبعها بالخلق الكريم والتمسك بالمثل واتباع ما يفرضه المجتمع من المبادىء القويمة ، أو هو منقلب منها هائما على وجهه خارجا على مجتمعه يتقلب فى دركات الإثم ويتلطخ بأدران الجناح . هى مرحلة يشقى من ورائها الفتى أو يسعد ويقر به المجتمع عينا ، أو يقاسى منه الويلات .

أفعجيب إذن أن يقضى « جزل » ومعاونوه وجميع المخلصين له الشطر الأعظم من حياتهم فى دراسة هذه الفترة الخطيرة فى عمر الشباب ، عماد الأمم ودعامة المستقبل؟ على أن « جزل » كما يتبين القارىء لم يدرس فى الكتاب على ضخامته إلا الطبيعيين خلقا وخلقا ، الطبيعيين منشأ وسلوكا ، فليس بين من سيحدثك عنهم هنا شاذ أو منحرف.. وهو يدرسهم على طريقته فى كتاب الطفل من الخامسة إلى العاشرة دراسة طولية

وأخرى عرضية . فالأولى تدرس الطفل سنا سنا وتستعرض سجاياه وتصرفاته فى تلك السن نوعا نوعا ، والثانية دراسة تمسك بنوع واحد من السلوك والتصرفات وتطبقه على الطفل فى سن بعد سن ، بادئة بالعاشرة ومنتهية بالسادسة عشرة . ولا يغيبن عن بال القارىء أن هذه الدراسات وما تنطوى عليه الأعمار من أنواع السلوك والتصرفات ومن مراحل النمو ومراتبه ودرجاته إنما هى متوسطات عامة ترشد الوالدين والمعلمين إلى ما يحدث عادة وعلى وجه الجملة فى السن المدروسة ـ لذا لا يجوز لهم أن ينزعجوا إن وجدوا طفلهم متخلفا عن المستويات المذكورة فيه أو يفرحوا لأن طفلهم سابق لما هو مدرج به أو متمش معه ، إذ المعول هو الناحية العامة والعلم بأن طفلك يسير فى الاتجاه على الجملة وليس بالتفصيل . أما التفاصيل فتختلف من طفل إلى طفل ومن ولد إلى بنت وتختلف عندنا من بيئة إلى بيئة ، خاصة والبيئات عندنا لا تزال متباعدة تعظم الشقة الفاصلة بينها أحيانا . فثمة بيئة شرقية تؤمن بالمحافظة والرجعية وأخرى تؤمن بالنزعات الأوربية والأمريكية ، وثالثة تعد هذه النزعات الأخيرة نزعات من الشيطان والعياذ بالله ؟ فليطالع المعلم والأب والأم هـذا الكتاب مهتدين مسترشدين طالبين فيه الدرجات السوية الوسطى منتفعين بما حواه من أبحاث وما ضمه من دراسات وما حله لهم من مشكلات وما وجهه إليهم من ارشادات فإنها نتيجة خبرة أعظم رجل تخصص فى دراسة الطفولة وعاشر الأطفال معاشرة العالم المتمكن والدارس المتفحص ، فانه يمنح القراء بصيرة بسيكولوجية الطفل لن تتهيأ لهم عند غيره ويعطيهم الأسس التى يجب عليهم معاملته على أساسها .

« وجزل » فلسفة لعلم نفس الطفولة هدفه منهـا خلق وعى بالطفولة ذى أساس سيكولوجى سليم وكلتا السر فيها هما « النمو أو (التطور) ـ والنضج » . فالنمو حركة الحياة نحو الأمام . والنضج مرتبة استقرار الحياة وتطامنها إلى أداء واجبها وبلوغهـا بالفرد إلى المرتبة التى ترضاها له . فهو لا ينفك ينظر إلى الطفل من حيث نموه محللا ذلك النمو مقسما له إلى أنواع وأبواب وفصول وفصوص . ولايزال فى دراسته هذه حتى يصل بالطفل إلى مراحل النضج متتابعة فيبرزها ويوضحها ويشرحها وهو يقدم لـكل مرحلة من عمر الشاب بدراسة فلسفية ضافية يلخص فيها السمات العامة الغالبة فى تلك

المرحلة مع شرح تحليلى تفصيلى بحيث لا تجد بين المراحل تكرارا ولا تراكبا وترى كل فكرة فيها مرتبة كالألوان المتسقة فى لوحة رائعة أبدعها مرقاش مصور ماهر وفنان بارع .

ولما كان من حق المتفضل أن يحظى بما هو جدير به من عرفان الجميل ، فإنى أتقدم بأطيب الثناء على قراء كتاب الطفل من الخامسة إلى العاشرة الذين شجعونى برسالاتهم كما أذكر بالامتنان شدة اهتمام الدكتور جزل مؤلف الكتاب ودار هارپر التى نشرته بأمريكا وحرصهما الكريم على نشره بلغة الضاد حيث تفضلوا بالسماح بترجمته دون مقابل . كما أذكر بالثناء الجميل الجهود المخلصة والمعاونة الصادقة التى بذلها مراجعه الدكتور مصطفى فهمى ، كما أكرر الشكر للسيد الأستاذ الجليل أحمد نجيب هاشم وزير التربية والتعليم حيث كان صاحب الفضل الأول فى تعريفى بجلال قدر المؤلف وتوجيهى إلى ضرورة نقل مؤلفاته إلى العربية . وإنى لأزجى إليهم جميعا آيات الشكر وعرفان الجميل .

وبعد فإنا إذ نحيى الهام لهذا المؤلف النابغة نرجو أن يفيد القارىء من جهوده الفائدة التى تصل بمجتمعنا إلى الغاية النبيلة التى نشدها بأبحاثه القيمة .

والله ولى التوفيق . عبد العزيز توفيق جاويد

مصر الجديدة فى ٢٧ يونية ١٩٥٩ .

مؤلف هذا الكتاب

أرنولدجزل ، دكتور فى الفلسفة (Ph. D.) ، دكتور فى العلوم (D. Sc.)، دكتور فى الطب (M. D.) ، أخصائى أمريكى فى طب الأطفال .

ولد فى سنة ١٨٨٠ ودرس بجامعة وسكنسن وكلار وييل (Wesconsin,Clark & Yale) . وعمل أستاذا مساعدا للتربية بجامعة ييل من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٥ ، وأستاذا لعلم صحة الأطفال بمدرسة الطب بجامعة ييل من سنة ١٩١٥ إلى سنة ١٩٤٨ ، وأخصائيا فى طب الأطفال بمستشفى نيوهافن من سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٤٨ . وهو مؤسس عيادة ييل النفسية لتطور الطفل ونموه ورعايته ومديرها من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩٤٨ . وقد ظل مدير شرف لها بعد إحالته إلى المعاش وتقاعده عام ١٩٤٨ . وهو زميل بالجمعية الأمريكية للنهوض بالعلوم . وزميل بالأكاديمية الأمريكية للاخصائيين فى طب الأطفال . وهو عضو بالأكاديمية الأهلية للعلوم ، وزميل بالأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم والأكاديمية الأمريكية للشلل المخى (ورئيس لها عام ١٩٥٢) — وهو عضو فى جماعة الباحثين فى الدراسات المتصلة بطب الأطفال بهارفارد ، كما أنه مستشار للأبحاث بمعهد جزل لدراسة تطور الطفل ونموه ورعايته من سنة ١٩٥٠ .

مؤلفـــاته

« Manual on Defective Children » 18, « Handicapped Children in School and Court » 21, « The Retarded Child » 25, « Infancy and Human Grow 2 .

« An Atlas of Infant Behavior » (with others) 34, « Infant Behavior - Its Genesis and Growth» (with Thompson) 34, «Feeding Behavior of Infants » with Ilg) 37. « The Psychology of Early Growth» 38, « Biographies of Child Development : The Mental Growth Careers of Eighty- four Infants and Children (with others) 38.

« The First Five Years of Life » (with others) 40, « Wolf Child and Human Child » 41, « Developmental Diagnosis » (with Anatruda) 41, « Infant and Child in the Culture of to - day » (with Ilg) 43, « Embryology of Behavior » (with Anatruda) 45, « How a baby grows » 45.

« The Child From Five to Ten » (with Ilg) 46. « Studies in Child development » 48 , « Vision : Its development in Infant & Child » (with Ilg & Bullis) 49, « Infant development» (a manual to accompany film with author's narration on the « Embryology of Human Behavior ») 52, and films on child development.

وإلى القارىء أسماء ثالوث جزل :

١ — الجنين والطفل فى ثقافة اليوم . [تحت الطبع للمترجم]

٢ — الطفل من الخامسة إلى العاشرة. [للمترجم. نشرته لجنة التأليف في مشروع الألف كتاب١٩٥٧]

٣ — الشباب : من العاشرة إلى السادسة عشرة . [للمترجم]

الشبـــــــاب

تصدير وتقـــدير

منذ أكثر من نصف قرن بقليل كتب ج . ستانلى هول كتابا ممتازاً جعل له عنوانا هاما هو : « المراهقة : تكوينها النفسى وعلاقاتها بعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجناس البشرية وعلم الاجتماع والدراسات الخاصة بالجنس والجريمة والتربية [1] » . وكاد هذا السفر الجليل بجزئيه أن يكون موسوعة علمية فى مجاله ومحتوياته ، ذلك لأنه كان منهلا زاخرا بالمعرفة الواقعية التى تخالطها تأملات جريئة عن التطور التاريخى لمفهوم النفس وتأثير تاريخ الجنس البشرى على نفسية الإنسان الحـديث . وكانت المراهقة فى نظر هول مولدا جديدا للفرد تظهر فيها إلى الوجود أعلى السمات الإنسانية وأحدثها . وقد اقترح بكتاباته القوية أن توضع مرحلة المراهقة موضعاً تكون فيه ميدانا ممتازا للتفسيرات والبحوث العلمية .

ومن جهة أخرى ، اهتم مؤسسو التحليل النفسى وباحثوه اهتماما خاصا بالأسس التطورية والمصادر التى استقى منها الجنس عملياته العقلية الشعورى منها واللاشعورى . وقد قامت أسس مشاهداتهم ودراساتهم بوجه خاص على الدراسات الكلينيكية لعلم النفس المرضى لدى البالغين ، تلك الدراسات التى تكملها الحقائق المشتقة من الحضارات البشرية القديمة . وغنى عن البيان أن آراء فرويد المتعلقة بالـ«هى» (id) والأنا (ego) والأنا الأعلى (Super — ego) تتبوأ مكانا بارزا فى تفسير ظواهر المراهقة ، بالإضافة إلى تأكيد أهمية دور الدوافع الغريزية .

وقد اجتمع للناس عدد ضخم ومتنوع من المؤلفات فى موضوع المراهقة ، منذ أن أصدر ج . ستانلى هول كتابه الذى يعتبر رائدا فى هذا الميدان . وقد نوهنا إلى

---

(1) G. Stanley Hall: «Adolescence: Its Psychology and its Relations to Physiology, Anthropology, Sociology, Sex, Crime and Education.

بعض تلك المؤلفات فى باب « قراءات ومراجع » بموضع آخر من الكتاب . وكثير من الدراسات المتداولة إنما هى من موضوعات الساعة ، كما أنها تعالج نواحى بدنية وفسيولوجية وسلوكية خاصة . وكما أن بها قدرا وفيرا من البحوث الجماعية الشاملة والممثلة لقطاعات عرضية ، والعديد من التقارير الحافلة بالمقاييس والإحصاءات . هذا وقد أكدت ضرورة الدراسات ذات المقطع الطولى تأكيداً متزايداً .

وسيجد القارئ المعالجة البيولوجية سائدة فى كثير من ميادين البحث . ولا شك أن التقدم الملحوظ لعلوم الطب والحياة فى العصر الحديث سيزيدنا أملا فى التعمق فى فهم المراهق على أنه كائن له وظيفة

إن مشاكل المراهقة متداخلة ومعقدة بسبب العوامل البيئية التى تؤثر بقوة خاصة على فتيان اليوم . وقد أصبحت الدراسة المقارنة للثقافات والمذاهب البعيدة الاختلاف نوعا من الضرورة الملحة من الناحية الاجتماعية والعلمية على السواء . وبناء على ذلك أخذت المعالجة الاجتماعية لدراسة شخصية المراهق أهمية جديدة فى عصر تغشاه صراعات حضارية وحرب عالمية باردة (١) .

وقد فصلنا فى الفصول الأولى من هذا الكتاب موقفنا من دراسة المراهقة . وهذا الجزء يكمل أسفارا ثلاثة بدأت بنشر كتاب (الحضين والطفل فى ثقافة اليوم) ، الذى نشر فى عام ١٩٤٣ ، ثم أعقبناه بكتاب (الطفل من الخامسة إلى العاشرة ١٩٤٦)(٢) . والكتب الثلاثة تؤلف مجتمعة السنوات الستة عشر الأولى فى دورة النمو . وقد خصص كل كتاب لمرحلة فى الدورة يمكن تمييزها . ومع ذلك فإن السلسلة كلها تكون

---

(١) إن رمت تقديرا مضبوطا لمختلف المناهج التى بها تعالج دراسة المراهقة أنظر كتاب
Theory and Problems, of Adolescent Development
لمؤلفه D. P. Ausubel وانظر أيضا The Psychology of Ego Involvements
لمؤلفيه M. Sherif and H. Cantril

وقد ترجمه كاتب هذه السطور إلى العربية .

من حيث المحتوى والتكوين عملا واحدا يقوم على بحث منظم لأنماط السلوك المختلفة وتتابعها ، كما درست فى جماعات متجانسة نسبيا من الأفراد السويين . وقد أفضى بنا تناولنا لموضوع النمو خطوة فخطوة إلى تصوير أشكال السلوك التى تكشفت لنا فى مراحل النضج المتعاقبة . واجتمع لنا عدة آلاف من المظاهر السلوكية وضعت لها قوانين معينة للتقييم المقارن فى ميادين متنوعة وسبل مختلفة للنمو . كما لخصت فى الكتاب سمات واتجاهات للنضج فى أربع وعشرين فترة متعاقبة من فترات العمر .

ولا شك أن سيكولوجية النمو عند الحضين والطفل والفتى ينبغى أن تبدأ بالضرورة بنوع معين من الوصف المنظم . إن علم النفس الوظيفى البحت لاينجح فى تفسير الطبيعة البشرية عامة أو تفسيرها عند الفتى المراهق خاصة ، فالوظائف لاتتم فى فراغ ، كما أن دراسة سيكولوجية النمو عند الشاب يجب أن تأخذ فى الاعتبار أنماط السلوك الواقعية التى تتشكل داخل ثقافة معلومة . ومن ثم تعقبنا نهج النمو عند جماعة من الفتيان السويين داخل أوضاع مادية ملموسة فى بيوتهم ومدارسهم ومجتمعهم الحضرى .

وتعكس أنماط السلوك النامية ، التفاعل الحادث بين الكائن الحى والبيئة . وقد كان الغرض الأول لدراستنا هو تحديد الخبرات المتتابعة التى تشكل مظاهر السلوك ؛ وذلك لأنها تحتوى على مفاتيح آليات * النمو التى تختفى وراء تلك المظاهر كما تحتوى على اتجاهات النمو . ونحن نستخدم لفظى النمو growth والتطور development بعضهما مكان بعض . وكلتاهما تنطبق بالتساوى على الخصائص العقلية والبدنية جميعا . وهما تنطبقان من حيث معناهما الموحد على المظهرين السابقين ، وذلك لأن العقل جزء لايتجزأ من الكائن الحى . فهوجزء من جهاز يتأثر بأنماط السلوك ويؤثر فيها ، فالفرد يتطور كوحدة .

ووفقا لذلك يصبح التطور فكرة جوهرية . وللفكرة أهمية خاصة فى تفسير سنوات المراهقة وذلك لأنها تحدد بالدقة مرحلة الانتقال من الطفولة إلى الرجولة .

---

* وقد سميت الآليات فى كتاب « الطفل من ٥ — ١٠ » باسم السكنيات .

والتطور فكرة تكاملية ، وهو يساعد على تأكيد أهمية الازدواج بين الكائن الحى والبيئة ، والوراثة والعادة ، والتكوين والوظيفة ، والعقل والجسم . وهو يتيح لنا أن نفكر فى الفتى المراهق على ضوء خصائص نموه الفردية واستعداداته الخاصة للنمو . وهو يفضى إلى اعتراف أدق بأثر العوامل الاستعدادية فى مستقبل النمو . وهو يعترف بأهمية الوراثة .

وبحسبك هذا القدر من الحديث عن الأسس النظرية العامة للموضوع ، على أن مجرد فكرة التطور وحدها لاتغنينا كثيرا . إذ أن الفكرة تظل خداعة ومبهمة إن هى لم ترتبط بالمواقف الملموسة للحياة التى تحدث من يوم إلى يوم فى شئون البيت والمدرسة والمجتمع. وقد استعرضنا بطريقة منتظمة مراحل السلوك التطورى من الميلاد إلى سن العاشرة . وكانت المكتشفات الأولى أساسا وحافزا لما أعقبها من دراسات . واجتمعت لنا ظروف سعيدة مكنتنا من المحافظة على اتصالاتنا المستمرة بكثير من الأطفال أنفسهم الذين تعقبنا نموهم منذ الحضانة أو الطفولة المبكرة بعيادة (ييل) لنمو الأطفال . وقد تمت معظم دراستنا للفتيان من العاشرة إلى السادسة عشرة تحت رعاية معهد (جزل) للطفولة الذى أسس فى ١٩٥٠ .

وسيتبين القارىء من متن الكتاب تفصيليا كيف توسعنا فى كل مجال مهما كان مداه للحصول على صورة دقيقة عن الطريقة التى يتم بهـا نمو الصبيان والبنات فى المدنية الحاضرة المعقدة . فقد حدثونا بلغتهم الخاصة بالشىء الكثير إما من تلقاء أنفسهم أو استجابة لنا ، وأفاضوا الحديث عن ميولهم ونشاطهم ومشاكلهم ومصاعبهم وتحصيلهم واتجاهاتهم وطموحهم . وقدم إلينا أولياء الأمور خاصة الأمهات — بأريحية كبيرة — معلومات إضافية حافلة بالخبرة . واستقى المعلمون بمختلف سنى الدراسة من معين خبرتهم الخاصة لمعاونتنا على استكشاف خصائص المراحل المختلفة للسن . وزاد من أهمية الحقائق Data التى أتاحتها الاختبارات المقننة والمشاهدات الدورية وما قدمه الكثير من المشتركين فى برنامج البحث المتبادل للنمو . فنحن مدينون لهم جميعا بدين عظيم من الشكر الجزيل . فإذا ظهر أن بمكتشفاتنا قدرا من الحيوية فلن يكون ذلك إلا بفضل الإخلاص الذى أبداه المشتركون فى مساهمتهم .

ورغبة فى تسهيل الرجوع إلى نتائج البحث لخصت تحت فئات ثلاث أولاها : سمات النضج (وهى أنماط السلوك ومشاكل الإرشاد التى تحدث فى سن معينة) ؛ وثانيتها : اتجاهات النضج (ونعنى بها مراتب النمو وتتابعها فى دورة مكونة من سبع مراحل عمرية) ؛ وثالثتها : منحنيات مصورات النضج (وهى سلسلة من الخصائص التى تميز كل مرحلة من حيث أهميتها فى التطور) . ومن المفروض أن هذا الترتيب الثلاثى سيستخدم كإطار يرجع إليه لا كجدول من المعايير يقاس عليه . فإن هو استعمل على هذه الشاكلة وجب أن تكون له قيمة توجيهية . فإن كثيرا من المشاكل التى يواجهها الآباء والمعلمون بل المجتمع نفسه فى شباب اليوم تتخذ شكلا مختلفا لا يصعب حله إن نظر إليها فى ضوء أنماط التغير التى تحدث غالبا أو بصورة سوية مع تكشف دورة النمو .

على أن مراتب النمو لها مع ذلك حدود تحددها . فلا بد من تفسيرها بحكمة ، نظرا لشدة تنوع التغيرات الفردية وكثرتها . وليست المراتب مقياسا من المقاييس النفسية ؛ ولكنها تتيح لنا دليلا مفيدا على الطريقة التى تتجه بها عملية النماء نحو أهدافها .

وعندى أن الاهتمام بعملية النمو هو الخطوة الأولى فى سبيل الإرشاد المؤسس على الفهم . ومثل هذا الاهتمام يكون كذلك عونا على الاستبصار بالنفس . وهو أمر ينطبق على الفتيان انطباقه على الكبار . وطبقا لذلك وجهنا إلى الشباب حاشية موجزة عن موضوع « قيمة فلسفة النمو » (الفصل التاسع عشر) .

وقد بلغت المؤلفات التى تبحث فى النواحى البيولوجية والاجتماعية للتطور البشرى درجة هائلة من التقدم . لذا فإن باب « القراءات والمراجع » المسجل فى اللحق حـ لا يعكس إلا بصورة جزئية فقط مدى ما وصلت إليه المؤلفات فى هذا الموضوع . وإنا لمدينون هنا خاصة للدراسات الحديثة فى النمو البدنى والفسيولوجى . وتولى الاستاذ ريتشارد ووكر الحائز للقب ماجستير فى الآداب عملية المقابلة بين مكتشفات الأبحاث التى نشرت قبلنا ، وبين الحقائق التى وصلنا نحن إليها ، فأسدى إلينا بذلك مساعدة ثمينة فى إعداد هذا الكتاب . وقد بنيت الحقائق النوعيــة فى موضوع الإبصار على أساس مكتشفات ريتشارد . ج . أبل الحائز للقب الدكتوراه فى طب العيون (O. D.) الذى

يتولى الإشراف على الدراسات التطورية للسلوك البصرى التى تعتبر جزءاً من الدراسة العضوية من برنامج أبحاث معهد جزل . وقد فصلت المناهج والمبادىء التى يعتمد عليها هذا البحث الخاص فى كتاب عنوانه « الإبصار : تطوره فى الحضين والطفـل » (١٩٤٩)[1] . ولقى البحث الأساسى فى هذا الميدان عونا كريما من مكتب العلوم البصرية التابع لشركة البصريات الأمريكية .

ومن الاعتراف بالجميل أيضا أن نعيد الى الأذهان فى هذا المقام أن الأبحاث الأولى لعيادة ييل (١٩١١ — ١٩٤٨) مهدت الطريق للدراسة الراهنة للمراهقين . فنحن مدينون بالشىء الـكثير لجميع أعضاء هيئة الموظفين وللطـلاب الذين ساهموا فى تلك الأبحاث التى أعانتها بسخاء منح روكفلر المالية وإعانة مؤسسة كارنيجى بنيويورك .

ونحن إذ نستعرض ذكرياتنا نحس من جديد تلك المودة التى كنا نلقاها عند كل منعطف من منعطفات بحثنا المديد . ونحب أن نعـبر عن إعجابنا الخاص بالآباء الذين حظينا بمباحثتهم فى تطور أبنائهم وبناتهم . وإنا لشاكرون لهم روح المعاونة التى تجلت فى استبصاراتهم الوالدية وروح البحث عن الحقيقة . أما بناتهم وأبناؤهم فكانوا والحق يقال مما لا يمكن الاستغناء عنه فى دراستنا . وإنا لنشكرهم على تعاونهم وصراحتهم معنا . كما أننا مدينون لهم ببعض الفضل فى حصولنا على فهم أحسن لطبيعة المراهقة وحاجاتها .

معهد جزل لتطور الطفولة

310 Prospect Street. New Haven, Connecticut.

---

1 — A. Gesell, F.L.Ilg, and G. E. Bullis New yorky Paul B.Hoeber Inc. Medical Book Department of Harper & Brothers, 1949, p. p. 329.

« إنه بأجمعه مولد عجيب جديد ، وإن أولئك الذين يعتقدون أنه ليس هناك شيء أجدر بالحب ولا بالتوقير ولا بالخدمة من جسم الشباب وروحه ، والذين يؤمنون أرسخ الإيمان أن خير امتحان لكل نظام إنسانى هو مدى ما يسهم به فى سبيل البلوغ بالشباب إلى أقصى ما يمكن من التطور ، ربما كان من الأجدر بهم أن ينظروا فى أنفسهم وفى الحضارة التى تتفيأ ظلالها لكى يروا إلى أى حد تشبع حاجة هذا الامتحان السامى » .

ج . ستانلى هول

إبريل ١٩٠٤

القسم الأول

معـــالم البحث

الفصل الأول

التوجيه

مصدر البحث

البحث الأساسى لهذا الكتاب هو النمو : نمو العقل والشخصية . والكتاب فى حد ذاته ثمرة للنمو الذى ترجع أصوله إلى دراسات سابقة ، ذلك أن مؤلفيه ظلوا فترة تزيد على العشرين سنة يقومون بمشاهدات منظمة للنمو السوى للطفل . وقد قضوا ذلك الزمن المديد لمسايرة الموكب الدائم التغير لأنماط السلوك التى تبدأ فى التكشف حتى قبل الميلاد نفسه والتى تتخذ مثل تلك الأشكال المنوعة المتقلبة طوال فترتى الحضانة والطفولة .

والكتاب الحاضر الذى أسميناه : « مرحلة الشباب ونعنى بها السنوات من العاشرة إلى السادسة عشرة » هو ثالث ثلاثة بدأت بإصدار كتاب « الحضين والطفل فى ثقافة اليوم » (١٩٤٣) ، الذى أعقبه كتاب « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » (١٩٤٦) . وتتضمن هذه الكتب الثلاثة مجتمعة دراسة السنوات الستة عشر الأولى للحياة العقلية والنمو . والسلسلة تكون من حيث محتواها وتركيبها سفراً واحداً يقوم على فكرة التطور الموحدة .

فبعد أن رسمنا صورة الخصائص السلوكية للحضين فى مستويات عمرية متقدمة ، أدخلنا مناهج أخرى مماثلة من مناهج البحث لاستكشاف تطور طفل ما قبل المدرسة وطفل المدرسة واليافع (قبل المراهقة) والمراهق الصغير . والنمو عملية تصوغ أنماط السلوك فى أشكال معينة وهى تحتاج إلى وقت . واهتممنا بوجه خاص بتحديد أثر العمر فى تنظيم السلوك فى ظل أحوال الثقافة الأمريكية المعاصرة .

وكانت خطوات تقدم دورة النمو تجذبنا خطوة خطوة بمتابعتها من مرحلة إلى التى تليها . وقد وجدنا على الرغم من تدرج النمو السلوكى للطفل أن كل سنة من سنوات النضج كانت تظهر سمات واتجاهات مميزة . فالاتزان النسبى لسن الخامسة يخلى مكانه لاندفاع الخامسة والنصف والدفعات الابتكارية فى السادسة ، وهذه بدورها تفضى إلى اتجاه طفل السابعة نحو الانكماش (الذاتية) ، وإلى اتساع الدائرة فى سن الثامنة ، وإلى الحفز الذاتى فى التاسعة وإلى الرزانة والاتزان فى العاشرة .

ويعتبر سن العاشرة نقطة تحول فى طريق التطور المتغير . وتظهر بدايات سلوك المراهقة قرب سن الحادية عشرة . ثم تستمر دورة المراهقة خلال العقد الثانى حتى بداية العقد الثالث . لذا فإن السنوات من العاشرة إلى السادسة عشرة سنوات انتقال لها دلالتها وأهميتها فى الطريق الطويل المؤدى إلى النضج . ولعل الناس بالغوا فى نعت هذه السنوات بالإزعاج والشغب والتمرد كأنما المراهقة فترة من عدم الاستقرار دخيلة على حياة الفرد . ولا شك أن دراساتنا للسنوات العشر الأولى من الحياة مهدت أذهاننا إلى الظن بأن الفتى إنما هو طفل يحصل على قسط أكبر من النمو ، وأن المراهقة على الرغم من شذوذها الظاهرى عملية إنضاج خالية من التناقض . وكنا قد استنتجنا آنفا أن أساس الجهاز الحركى الإنسانى ومعظم إطاره إنما يتم وضعهما أثناء الحلقة الأولى من الحياة .

وزاد الترتيب الأساسى لأنماط وتتابعات السلوك من الحضانة إلى الطفولة من شدة رغبتنا فى بحث خصائص النمو أثناء المراهقة . وإذا بنا نحس بدافع متزايد يدفعنا إلى تعقب دورة التطور حتى صميم العقد الثانى مستخدمين مناهج بحث منظمة من نوع تلك التى طبقت فى بحث المستويات العمرية المتتابعة منذ الميلاد إلى العاشرة .

وكان هذا البحث الأساسى يحتوى على ما يقارب الأربعين مجالا من مجالات السلوك فى الميادين الهامة من ميادين تطور الطفولة : — (١) الخصائص الحركية ؛ (٢) الصحة الشخصية (٣) التعبير الانفعالى (٤) المخاوف والأحلام (٥) الذات والجنس (٦) العلاقات بالناس (٧) اللعب والتسلية

(٨) الحياة المدرسية (٩) الخاصة الخلقية (١٠) النظرة الفلسفية . فتم التعرف على عدة آلاف من أنماط السلوك وتقنينها فى مراتب نمو ذات قطاع طولى لإظهار تتابع النمو ولتوضيح اتجاهاته أيضا فى سلسلة من مصورات السلوك لتبين فى قطاع عرضى خصائص النضج لسبعة عشر مستوى عمريًا متتالية كالآتى : ٤ أسابيع ، ١٦ ، ٢٨ ، ٤٠ ، ٥٢ أسبوعا ؛ ١٥ ، ١٨ شهرا ؛ ٢ ، ٢½ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ سنوات .

كيف تـكشف آليات وأنماط وقوانين النضج عن نفسها أثناء سنوات الفترة الانتقالية المعقدة بين العاشرة والسادسة عشرة ؟ لقد أصبحت الإجابة عن هذا السؤال هدف بحثنا الجديد ، الذى هو فى جوهره استمرار للاستعراض التطورى الذى تحدثنا عنه فى الكتابين السابقين .

وقد عكست الفقرة الختامية للتمهيد الذى عقد لكتاب « الطفل من الخامسة إلى العاشرة » نوع اتجاهنا من الدراسة الحاضرة حيث قلنا : « ... على أن لنا كلمة نضيفها عن الأطفال أنفسهم . . . . . ولا يزال عندهم حتى اليوم الكثير مما يمكن أن نتعلمه منهم لو دققنا فى ملاحظتهم التدقيق الكافى . والحق أن ابن الخامسة عندما يبلغ العاشرة ، يكون من القدرة على التعبير بحيث يستطيع فعلا أن يخبرنا بشىء عن نفسه وعن أنفسنا مباشرة. ولعله من الواجب علينا فى هذه السن الانتقالية ذات الدلالة الهامة — سن العاشرة — إذ الطفل على حافة المراهقة — أن نشرع فى الثقة به ثقة تامة ! » .

وضع خطة البحث

كان من حسن الحظ أن تضافرت بعض الظروف تضافرا مكننا من مواصلة اتصالاتنا المتعلقة بالبحث مع عدد جم من الأطفال أنفسهم الذين تتبعنا تطورهم من قبل حتى سن العاشرة . وكان هؤلاء الأطفال ومعهم إخوتهم وأترابهم يكونون نواة لجماعة عدتها ١١٥ مفحوصا ، كانوا موضع الملاحظة المتكررة طوال المراهقة . وكان يضاف

إلى هؤلاء خمسون طفلا كانوا يلاحظون فى عمر واحد فقط . وعلى الجملة كان عدد الأطفال المفحوصين الذين قمنا بملاحظتهم فى كل مستوى عمرى يتراوح بين ستين وثمانية وثمانين . وقد لخصنا فى « ملحق » الكتاب التفصيلات الاحصائية وغيرها مما يتعلق بالمفحوصين ووأسرهم ومجال البحث . وكانت الأسر باستثناء عدد طفيف تسكن نيوهافن وضواحيها بولاية (كونكتيكت) . وكان بعض الذين رحلوا عن تلك الجهة يعودون إليها فى أوقات دورية لمدة يوم كامل للزيارة التى يقتضيها البحث . وقد أظهروا جميعا اهتماما كبيرا بمناهج البحث وأهدافه .

وكانت الحالة الاجتماعية الاقتصادية للأسر مرضية على وجه العموم ، وكان المنهج فى حد ذاته — بما يتطلبه من اتصالات فى مدى فترة من السنين — يستوجب انتقاء أسر ذات وضع مستقر فى المجتمع . وكانت كثرة عظمى من الآباء من أصحاب الحرف أو أشباههم أو الإداريين أو أصحاب المهن التى تتطلب مهارة ما . وكان الأطفال يمثلون بين تلاميذ المدارس طبقة تتراوح بين الوسطى الراقية والممتازة الفائقة فى جماعة ناجحة. وجملة القول أننا أجرينا حوالى ٥٥٠ اتصالا بهؤلاء الأطفال ، تمت فى فترة اثنتى عشرة سنة . وقد قمنا بأولى مشاهداتنا فى العيادة الأولى لتطور الطفولة بمدرسة الطب بجامعة ييل ؛ ثم استؤنفت ابتداء من ١٩٥٠ بمعهد جزل لتطور الطفولة بنيوهافن .

وظل البرنامج بأكمله منذ البداية ينفذ فى وضع مناسب متجانس كان يجمع بين البحث التعاونى والخدمة التوجيهية . وعاون الآباء والأمهات خاصة معاونة لا تقدر بثمن بفضل المقابلات الدورية التى كان يحدد فيها تقدم كل طفل ويبحث من ناحية نضجه كما يعكسه سلوكه بالبيت والمدرسة . واكتسب الآباء كنتيجة لهذه الاستعراضات المتكررة استبصاراً تطوريا متعمقا فى طبيعة الطفل وحاجاته المتغيرة . ومن البديهى أننا كنا نتناول بأبحاثنا الأطفال السويين ، كما أننا شاركنا الوالدين فى اهتمامهم الحيوى بسلوك الطفل كما تدل عليه فرديته وخصائص نموه . وكان الآباء تواقين إلى مشاهدة الامتحان التطورى عن طريق وسائل الرؤية من ناحية واحدة . وكان المؤتمر الذى يعقد بعد ذلك مع (الفاحصة) الدكتورة فرنسيس ل . إلج يتحول الى موقف من الأخذ

والعطاء ، كان الآباء فيه والممتحنة يستطيعون تبادل الأسئلة والتعليقات المبنيـة على الامتحان الذى شوهد لتوه .

وكان الامتحان التطورى أيضا هو المحك الذى يذكر بالسلوك السابق والذى يتنبأ به بطريق المحاولة والتحسس بمحمر السلوك اللاحق الذى يحتمل أن يميز الطفل فى السنوات التالية . وهكذا كان للطريقة التطورية فى البحث الفضل فى توحيد مشروعنا وتثبيته . ومن ثم كان البحث والتفسير والإرشاد يقوى بعضها بعضا . وكانت الدوافع التى تـكمن وراء ذلك كله متبادلة .

الأفراد الذين فحصوا فى البحث

استجاب الفتيان أنفسهم على طريقتهم الخاصة لأغراض البحث وروحه . ذلك أنهم أدركوا — مع تعبير بعضهم عن ذلك صراحة — أنهم كانوا يسهمون فى جهد جمعى خطير ، وقل منهم من أبدى أى قلق . كما أن كثيرين منهم قد عـــبروا عن فخرهم وحبهم للاستطلاع . وكان يحـدث بين حين وحين أن بعضهم كان يظهر التراخى فى المحافظة على المواعيد أو المقاومة الصريحة لها . وكنا نحترم هذا الاتجاه عالمين أن الأيام ستظهر أنه وقتى . وإنا لمـدينون دينا خاصا لمفحوصينا الصغار — أولئك الصبيان والبنات الذين كانوا عنصرا جوهريا فى مشروعنا . ولسنا بحاجة إلى أن نؤكد لهم أننا أخذناهم مأخذ الجد ، وأن إسهامهم فى البحث يلقى تقديرا لا يعدله تقدير .

كان المفحوصون فى هذا البحث يمثلون عينة متناسبة من قسم محدد من سكان الولايات المتحـدة . وقد تجلى لنا أن معظم أطفاله ينتمى من حيث مجال الذكاء إلى مرتبة تتراوح بين المتوسط العالى والممتاز كما قيست بالمقاييس المقننة . وكانت الجمـاعة متجانسة نسبيا من حيث حالتها الثقافية أو الاجتماعية — الاقتصادية — والوالدية .

ولو كان هدف دراستنا تصوير طفل فرضى متوسط وتحديده تحديدا إحصائيا لـكل من الأعمار المتصاعدة لاخترنا جماعة أكثر تباينا وتغايرا . ولـكننا كنا على

نقيض ذلك نهتم بنوع خاص بتحديد التتابعات والاتجاهات الأساسية للتطور كما تبدو فى السلوك المتغير للأطفال الواقعيين . وقد افترضنا أن تلك التتابعات ليست عارضة وأنها سوف تكشف عن علاقة هامة بينها وبين مستويات النضج والعمر الزمنى على الرغم من الاختلافات الفردية الموزعة .

وقد أصبح مفحوصونا بفضل ذكائهم وفهمهم واهتمامهم حلفاء مهمين فى جميع الحقائق المتعلقة بذوات أنفسهم ، لذا جعلنا المقابلة الشخصية المتسعة المجال بيننا وبين كل طفل جزءاً معياريا من البحث . ورغبة فى المحافظة على السرية التامة والثقة المتبادلة كانت المقابلة تتم بمعزل تام عن الامتحان التطورى ، وكانت تقصر (مع عدم وجود الشاهدين) على مختبر واحد منا هو الدكتورة لوسى باتس ايمز . وينعكس مجال تلك المقابلة على مراحل النمو المختلفة وتفسيرها .

وهنا أيضا كان بحثنا واقعيا وليس صارما فى اتباع منهج علمى للبحث . وكنا نعتمد على تلقائية الطفل المختبر وروحه التعاونية ؛ ولم نكن نضغط ولا نتسلل إلى ما وراء الحواجز الخصوصية . وجعلت الأسئلة والأجوبة فى مستوى المحادثة الخالية من الرسميات . وغالبا ما كانت عبارة أو إشارة واحدة تطلق فيضا من الاستجابات . وكان جو المقابلة يستدر الإخلاص والصراحة .

وعاد ذلك بالفائدة على نتائج البحث . وكم تأثرنا وأعجبنا بكفاءة المراهق واليافع (قبل المراهقة) فى إدراك سمات سلوكه هو وتعرفه مشا كله التطورية الخاصة . وربما وجب علينا أن نولى هذا النوع من التنبه قدرا أكبر من الالتفات . فإن له مدلولات تفيد البحث كما تنفع النواحى العقلية من صحة الأفراد .

منهج البحث

لا شك أن قوة أثر المنهج العلمى فى أى بحث للسلوك الإنسانى المعقد تعتمد بالضرورة على الطريقة التى تجمع بها الحقائق . لذلك زاد اهتمامنا بالدوافع والاتجاهات

الـكامنة لـكل المشتركين فى هذه الدراسة ــ الآباء منهم والصبيان والبنات والباحثين. فلو لم يتح لنا الوضع المناسب والعلاقات المواتية بالناس ، لما أمكننا أن نحد مبررا لقيامنا بهذا البحث القيم الذى أجرى على مدى طويل . كان تناولنا للموضوع تناولا واقعيا يجعل فى المقام الأول التزام الألفة اللطيفة مع المفحوصين لضمان أنسب أنواع السلوك سواء منه التلقائى أو ما كان استجابة لإجراءات الاختبارات الموضوعة .

والعادة أن نصف يوم كان فيه الـكفاية لمشاهدة وتسجيل استجابات السلوك أثناء مواقف الاختبارات الموضوعة . وكان الصبى (أو البنت) يجىء عادة بصحبة أحد والديه أو كليهما ، أو كان يؤثر فى أعمار معينة أن يحضر بمفرده . وكانت التحيات والعبارات الافتتاحية خالية تماما من الـكلفة ، ولـكنها لم تـكن تغفل كأدلة على الفردية والقدرة على التـكيف من عمر إلى عمر . واتخـــذت اختبارات السلوك المقننة (standardized) شـكل بحث تطورى موزع على سنوات . وكانت الامتحانات تشاهد من موقف يسمح بالرؤية من جانب واحد للوالدين وهيئة العمل وسكرتيرة مدربة كانت تسجل السلوك تسجيلا متواصلا .

ولم يكن هذا الامتحان الشامل إلى حد ما يجرى فى صورة سلسلة من الاختبارات التى تهدف لإستخراج عدد مرات النجاح والفشل . بل إنه وضع بالحرى لإماطة اللثام عن طرائق السلوك المميزة التى تقدم مفاتيح ملائمة لحالة النضج وتغيرات النضج . وكانت الزيارة بأكملها فى كل من صورتيها ذات الخطة المرسومة وغير المرسومة ينظر إليها كموقف من مواقف الحياة ، يمكن أن يظهر فى جملته وتفصيله معلومات حيوية ذات دلالة تطورية هامة . وكانت التأثيرات المباشرة للاجابة عن الامتحان التطورى تناقش ثم تصاغ بصيغة دقيقة فى مؤتمر يضم المشاهدين المشتركين فى العملية . على حين كانت المقابلات الشخصية والوالدية تعقد على حدة كما أشرنا آنفا .

استعراض التطور

امتد الاستعراض التطورى لخصائص السلوك فى مجال متسع ، وكان يجمع بين شكلى المشاهدات العرضية والمتحكم فيها . وكانت الملاحظة تبدأ منذ اللحظات الأولى

للزيارة وترحيب الممتحن بالمفحوص . ثم تجرى بعد ذلك محادثة قصيرة ربما أعادت إلى الأذهان ذكرى الزيارة السابقة . وكان تكيف الفتى لهذه العبارات الافتتاحية الخالية من الكلفة يسجل فى حينه . ثم أنه كان يحول عند ذلك إلى غرفة الامتحان ، حيث يجلس إلى منضدة عادية ويجيب لمدة ساعة أو أكثر من الزمان على سلسلة متنوعة ينتقل فيها من موقف إلى موقف من مواقف الاختبار كان ينظمها فى تتابع لطيف هين ممتحن يجلس بالقرب منه . ولم يكن المشاهدون ظاهرين للعيان كما أن الامتحان كان يسير فى جو ودى هادىء ، لاتشوبه شائبة من الحث أو الضغط . فإذا تم الامتحان الأول سارت الإجراءات سيرا طبيعيا مع شعور برفع الكلفة لأن كثيرا من مواقف الاختبار كانت تتكرر من سنة لأخرى لتمييز دلائل التغير التطورى والفردية الملحة تمييزا واضحا .

وكان الامتحان يبدأ بعدد قليل من الأعمال البسيطة بالقلم والورق . وكان مفحوصنا يسأل فى بساطة — ودون أية مقدمات رسمية — أن يكتب اسمه وعنوانه والتاريخ وذلك بينما الامتحان يسير قدما . وكان يفصح عن نفسه فى الدقيقتين الأوليين بأنماط متنوعة من الاستجابة : كأوضاع الجسم واليدين وتوافقهما وحركات العينين وتعبيرات الوجه ومتنفسات التوتر ؛ وتحريك الورقة وإعادة توجيه الرأس نحو الورقة ؛ والحديث التلقائى والإلتجاء الشخصى إلى الممتحن وما إلى ذلك .

وكانت هناك اختبارات أخرى كتابية ككتابة سلاسل من الأرقام المتتالية والكتابة باليد الأخرى ورسم الأشكال الهندسية وتكميل رسم تخطيطى غير كامل لإنسان . ولم تكن هذه الأعمال مرهقة ، ولكنها كانت تمدنا بسجلات موضوعية مستديمة كانت تدرس دراسة مقارنة من حيث السن وأنماط السلوك المرتبطة بها .

وهناك مواقف أخرى للاختبار يجمعها « الملحق » تحتوى على الآتى : (ا) تفسير بقع حبر رورشاخ (Rorshach) ؛ (ب) تقليد حركات أصابع اليد والتوجيه يمينا أو يسارا ؛ (حـ) اللوحة ذات الخمسة أشكال ؛ (ء) مقياس وكسلربلفو (Wechsler - Bellevue) لذكاء الكبار وغيره من اختبارات الذكاء ؛

(ﻫ) الترابط اللفظي الحر والمنطق ؛ (و) نقل التصميمات المرسومة ؛ (ز) تفهم الموضوعات التصورية ؛ (ح) تكوين حر لأشكال من الموزيكو ؛ (ط) تجميع أجزاء الجسم.

ولم نكن في جميع هذه الاختبارات المنوعة نعنى أولا وقبل كل شيء بالنتيجة النهائية من نجاح أو فشل ، بل كانت مواقف الاختبارات تستخدم بدلا من ذلك في تسجيل طرائق الأداء وأنماط السلوك التي كانت تعبر عن مرحلة نضج الطفل تعبيرا مميزا كما كانت تستخدم فيما بعد في التعرف عليها . وستوضح أعراض السلوك المميزة في فصول تالية وتجمع في حينها كسمات للنضج . وستساعدنا أيضا على تحديد اتجاهات التطور في مستويات عمرية متعاقبة .

المقابلات

كانت المقابلة الشخصية بيننا وبين المفحوص ومقابلتنا لوالديه جزءا جوهريا لبرنامج البحث . وكانت كل من المقابلتين تتم مستقلة عن الأخرى . كما كان يقلل عدد الأسئلة الرئيسية إلى أقصى حد لحكمة اقتضت ذلك . وكان الاجراء بعيدا عن الشكلية ويشجع المحادثة الحرة السهلة . ولم يكن هناك تقنين جامد ، ولكن الأسئلة كانت تتضمن الميادين التطورية الأساسية التسعة التي يبحثها هذا الكتاب تحت العناوين التالية : جهاز الحركة الكلي — العناية بالذات ونمط الحياة الروتيني — الانفعالات — النفس النامية — العلاقات بالناس — الميول وأوجه النشاط — الحياة المدرسية — الحاسة الخلقية — النظرة الفلسفية .

المقابلة الشخصية : كان المفحوص يطمأن فور وصوله بإخباره أن الأسئلة ليست اختبارات عقلية وأننا لا نبحث عن إجابات صحيحة أو خاطئة . وأن كل ما نهتم به أن نعرف كيف يفكر ويشعر ؛ وأنه لا حاجة به إلى الإجابة إن شاء ذلك ، وفي إمكانه أن يضيف أي شيء يريد التحدث عنه . وكانت الأسئلة أثناء سياق المقابلة في جملتها تصاغ صياغة موجزة ومباشرة . مثال ذلك أنه حينما كان الحديث يدور حول الانفعالات

كان المفحوص يسأل بصراحة مباشرة «ماذا تصنع حين تغضب ؟» « هل يحدث أنك تبكى وما الداعى لبكائك ؟ » « وما رأيك فى المنـــافسة ؟ » وما إلى ذلك . وكانت المجالات العقلية ترتاد إجمالا بمثل هذه الصورة المباشرة . وكان الطفل يدلى إلينا بأفكاره عن الزمان والمكان والحرب وعلم الأخلاق ، حتى إذا كبرت سنه (فى أعمار ١٤، ١٥، ١٦) جاز أن ينقلب وجه المقابلة ، وإذا بالطفل يسأل الممتحن آراءه . وعلى الجملة ، كان الأطفال يجدون أن المقابلة خبرة مشوقة . وكانوا يسرون إذ يحسون أن أفكارهم كانت من الأهمية بحيث تسجل .

وقد سئلنا فى بعض الأحيان عما إذا كان اهتمامنا بهذه الأمور له أثر فى تشويه استجابات مراهقينا ؟ وهل كانوا يقولون الحق فعلا ؟ والواقع — لقد كان مفحوصونا يستجيبون لمقابلاتنا بالصدق على ما خبروه وأحسوه ، وكان كل منهم يستجيب طبقا للصورة الذاتية لدخائل نفسه . وكنا نستطيع أن نعد كل استجابة « وحدة للسلوك » لها دلالتها فى حد ذاتها بغض النظر عن رأى أى فرد آخر ولها دلالتها أيضا من حيث صلتها بتقرير الآباء ومشاهداتنا نحن . فالاستجابة كانت تعكس إلينا آراء المفحوص فى كل من العالم ونفسه على حد سواء .

مقابلة الوالدين : كانت هذه المقابلة ناحية هامة فى كل زيارة سنوية . وكانت ترتب ترتيبا ذا شعبتين يستدعى أسئلة وتعليقات متلهفة . وكانت تقوم بين الوالد والمختبر أسباب متبادلة تدعوهما إلى تحديد فردية وتقدم الصبى أو البنت ، الذى شوهد سلوكه من قبل فى الوضع المقنن لأحد الامتحانات التطورية .

وكان بحثنا مرتبطا ارتباطا أساسيا بإحدى هيئات الإرشاد . لذا أطلق للآباء العنان فى أن يبلغوا مشاهداتهم ويذكروا أهم نوادرهم ومشاكلهم ، وأية حادثة جديرة بالذكر حدثت أثناء العام المنصرم . لهذا كان هذا الاستفسار والتفسير المتبادل المزدوج يقوم على دوافع متبادلة . ولما كنا نتعامل مع والدى أطفال سويين ، كان فى إمكان المؤتمر أن يسلم بكل من المسائل المنزلية الفكهة منها والجدية . وكان ما يتكشف عنه الامتحان التطورى يؤدى إلى مناقشات ملموسة لسمات سلوك الطفل واستعداداته .

وكانت سمات طفولته البـاكرة تؤضع أحيانا تحت البحث ، وذلك لأن هيئة الإرشاد التطورى لدينـــا كثيرا ما كانت تتعقب الطفل متراجعة إلى الحضانة وسنوات ما قبل المدرسة .

وكان لهيئة الإرشاد الدورية الفضل فى تثبيت البحث ، إذ أنها كانت تركز اهتمامها على طبيعة وحاجات تطور الطفل . ولم يكن الآباء بأى حال يتخذون موقف التأهب للدفاع أو التحدى ، بل إنهم ساهموا فى بحثنا مساهمة طيبة بفضل استبصارهم الإنشائى . ولم يكن يقف فى سبيلنا أى تحفظ لا لزوم له ولا أى نقص فى الصراحة ، وهما أمران ربما قيدا على الفور إمكانيات البحث .

تحليل الحقائق

يتضح من البيان السالف عن الخطة الأساسية لدراسة المراهق أننا كنا نبسط شبكة واسعة لنجمع بها الحقائق . ولقد كانت السجلات ضخمة الحجم . وذلك لأن ملفات الوثائق للفرد الواحد من الأطفال الذين تتبعنا تطورهم منذ أبكرسنى عمرهم كان حجمها يبلغ من الضخامة والتفصيل حجم ترجمة وافية للحياة . فالنتائج الغنية بالحقائق التى تجمعت لدينا من خمسمائة اتصال مثلا كانت كتلة مهولة من الموضوعات الملموسة التى كانت تغرينا بالتحليل والتفسير . وكانت الحقائق المتعلقة بالنمو البدنى والنضج تستكملها فى بعض نواحيها الكشوف التى تحتويها الأبحـاث المنشورة (أنظر الملحق ا) .

وكانت مهمتنا هى تحويل هـذه المفردات العديدة إلى أسلوب له معنى . وكان منهجنا ينطوى على رسم سلسلة من مراتب النمو ومصورات النضـج . ثم تعود هذه بدورها — وهى فى شـكل رسوم تخطيطية للسلوك — فتنتظم فى صورة تتابـع يكون فى حد ذاته نمطا معيناً : وهو خلاصة أشبه بالمنظر البارز لعملية النمو . ولم يكن فى الإمكان أن ننمى مثل هذه المخططات الكروكية بواسطة الرسوم البيانية والعمليات الحسابية وحدها ، وذلك لأنها لا تدل على متوسطات وليس لهـا وضع زمنى محـدد .

وربما كان الأصح أن يقال إن كل مصور يقدم نوعاً من المثال المركب الذى يوضح مظاهر السلوك المتصل اتصالا له أهميته بفترة تطورية معينة . وقل من مفحوصينا من ظهرت فيه جميع ما وصفنا من الصور المتطرفة للسلوك — بل الواقع — إن الغالبية مالت إلى هذه الاتجاهات المتطرفة مع التقدم فى طريق النمو ، ومن ثم كان تناولنا للأمر (إكلينيكيا) فى جزء منه وقائما على المشاهدة الواقعية وعلى التقدير المقارن للقوائم السنوية المطردة التقدم .

هذا وإن مناقشتنا للنمو تتوسع فى استخدام مصطلحى « العمر والسنة » ؛ أما عناوين مصورات النضج نفسها عندنا فقد جعلت « السنة العاشرة » و « السنة الحادية عشرة » و « السنة الثانية عشرة » الخ . وهذا أمر طبيعى تماماً لأننا نبدأ بالعمر . ولكن ينبغى أن لا يخطىء القارىء فى تلك المصطلحات ويزعم أنها مطابقة لزمن التقويم مطابقةدقيقة ؛ فما كان لنا أن نحاول فى بحثنا أن نكون أكثر دقة من الطبيعه فى التزامزمن التقويم .

وكان منهجنا فى تميز أنماط النمو الكامنة وراء الحقائق ينطوى على عملية ذات خطوتين . أما الخطوة الأولى فموازنة مستعرضة . فإن جميع سجلاتنا فرزت حسب العمر . وكان هذا الفرز دقيقاً - فإن جميع المفحوصين الذين تجاوزوا الثانية عشرة ولم يتخطوا الثالثة عشرة قد جمعوا معاً . ثم درست هذه المجاميع العمرية — وكان ذلك فى الأغلب الأعم بوساطة مناهج التصنيف والعد - لتقرير أبرز أنواع السلوك وأثبتها حدوثاً فى العمر المدروس. وكانت هذه هى عملية التقريب الأولى التى استخدمت لتحديد حالة من النضج ، كسن « الثانية عشرة » مثلا .

وينبثق من هذا التقريب الأول أحد الأنماط ؛ إذ يصبح التتابع العام للنمو واضحا من سن إلى سن . ولكن ذلك لا يكفى . فإن مصورات النضج تصبح غامضة المعالم وذلك لأن من لدينا من أبناء الثانية عشرة ليسوا جميعا فى هذه السن بالمعنى السلوكى. فإن البنت (ا) التى بلغت الثانية عشرة وعشرة أشهر ربما ظهرت عليها مظاهر السلوك الانطوائى الذى يغلب ظهوره بين بنات الثالثة عشرة ، على حين أن البنت (ب) من نفس السن

ربما لم تزل تتجلى فيها حيوية الثانية عشرة . كما أن الولد (حـ) قد تظهر عليه مظاهر أكثر مما يرجع إلى أنماط السلوك التى تميز السن الأحدث . وقد اضطررنا أن نمنح المفحوصين شيئا من التسامح رغبة منا فى تصوير معالم الثانية عشرة تصويراحيا . فكان الطفل يقارن بطريقة منتظمة بنفسه وهو فى مراحل متعاقبة للتطور . ولذا كان فى الإمكان استخدام البنت (ء) لتعاوننا على تحديد الثالثة عشرة مقارنة بالثانية عشرة . وكان تقرير مستوى نضج الطفل يزيد من أهمية استبصارات الباحثين (الاكلينيكية) ولكنه استبصار مؤسس على كل من المكتشفات الأولية للخطوة الأولى وعلى مدى معرفة الممتحن بتاريخ الطفل وبمميزاته الفردية فى السلوك .

ورغبة فى تنظيم مجموعة المواد العظيمة الوفيرة وجدنا من الضرررى فى كل من تحليلاتنا المستعرضة القطاع والطولية ، أن نجمع التتابعات التطورية فى أكثر من أربعين ميدانا من ميادين السلوك ، تتراوح بين الأكل والنوم وبين علاقات الوالد والطفل والأفكار المتعلقة بالزمان والمكان . ففحصت بدقة مظاهر لا حصر لها من مفردات السلوك وقورنت بالمصادر المتعددة للمعلومات مثل : تقرير الوالدين واختبارات السلوك ومقابلة الطفل ورأىالعيادة النفسية . واستلزم ذلك عملية مضنية من المضاهاة والمواءمة ومن التركيز والغربلة .

ومن حسن الحظ أن الحقائق التطورية التى ظهرت كانت تصحح نفسها بنفسها إلى حد كبير . وينبغى أن تنتظمها تتابعات طبيعية ثابتة ليكون لها معنى معقول ، وذلك لأنها تعكس الترتيب المترابط لعملية النمو عينها . وهى تعكس أيضا الأثر الملموس للعوامل الثقافية من حيث علاقتها بمراحل النضج المتقدمة .

مجال الكتاب وخطته

إن هذا الكتاب يدعو القارىء أن يفسر مظاهر المراهقة على ضوء سيكولوجية النمو . ومن أجل بلوغ تلك الغاية صغنا بعبارة علمية دقيقة المكتشفات التى توصل إليها بحثنا من ثلاث زوايا متقابلة وذلك على النحو الآتى :

(١) مصورات النضج .

وهى تصويرات لخصائص النضج لسبعة مجالات عمرية زمنية فيما بين العاشرة والسادسة عشرة .

(٢) سمات النضج

وهى أنماط السلوك وأعراضه فى تسعة ميادين كبرى لكل مجال عمرى وهى :

(١) جهاز الحركة الكلى (٢) أنماط الحياة الرتيبة اليومية والعناية بالنفس (٣) الانفعالات (٤) النفس النامية (٥) العلاقات بالناس (٦) الميول ومظاهر النشاط (٧) الحياة المدرسية (٨) الحاسة الخلقية (٩) النظرة الفلسفية .

(٣) إتجاهات النضج .

وهى تتابعات النضج ومراتبه خلال قطاع السنوات من أول العاشرة إلى آخر السادسة عشرة .

ولو تناولنا المصورات والسمات والاتجاهات مجتمعة لكونت إطاراً مرناً يمكن الرجوع إليه لاستخدامه فى دراسة حالة النضج والتقدم التطورى لطفل ما فى سن معين .

وغنى عن البيان أن هذا الإطار الذى نرجع إليه ليس مقياسا لقياس الذكاء . وإنما هو يختص باتجاهات التطور وأشكاله أكثر منه بالقدرات من حيث هى . والفكرة المتحكمة فى الأمر كله هى فكرة النمو . النمو كعملية صوغ لأنماط السلوك . فإنه حتى المراهق الصغير يصبح فهمه أكثر سهولة إن هو بحث من وجهة نظر النمو أو تأخر النضج أو النضج النسبى

ولكن النمو شىء خفى مستور ، وكثيرا ما يكون خادعاً . وهو عملية تحتاج إلى شىء من الوقت . ولا نكاد ندركه دون ملاحظة التتابع الذى يظهر بمرور الوقت .

وتيسيراً لغايتنا هذه رحنا نستخدم السنة كوحدة أساسية للزمن رغبة منافى وضع تنظيم ثابت لمشاهداتنا لنمو المراهق . والنمو والعمر يرتبطان ارتباطاً لا انفصام له ، وليس ذلك بطريقة جامدة آلية ، بل على صورة تفاعل ديناميكى .

إن كل سنة تنقضى بين العاشرة والسادسة عشرة لها أثر عميق فى اتجاه التطور وأبعاده. وكل سنة تترك أثراً له أهميته فى سمات السلوك واتجاهاته ، وذلك لأن العقل والشخصية ينموان تبعاً لقوانين ودورات راسخة متغلغلة ، فكل طفل يتطور بطريقة تعبر عن فرديته . ومع ذلك فإن الآليات الأساسية للنمو من التغلغل الوطيد بحيث يتخذ كل مجال عمرى لنفسه حالة معينة من الاتصاف بخصائص مميزة عندما يقارن بالمجالات العمرية القريبة لها . ومهمتنا الآن هى تحديد هذه الخصائص المميزة عمراً فعمرا ، بطريقة تجعل التتابعات الأساسية لتطور المراهقة أقرب إلى الأفهام .

وسنبحث هـذه التتابعات مستدلين عليها بالمجالات العمرية الزمنية لا تاريخ الميلاد الدقيق . فالسنة الثانية عشرة بوصفها وحدة سلوكية ليست مجرد نقطة فى الزمان ، بل إن لها امتدادا ومدة بقاء . وليس ثمة ثغرة تفصل بين الثانية عشرة والثالثة عشرة ، بل ليس هناك فاصل يبين متى تنتهى إحداهما وتبدأ التالية ؛ بل إنهما تنتقلان إحداهما إلى الأخرى انتقالا تدريجيا . فإن آثارا من سلوك الثالثة عشرة ربما بدأت فى الظهور سريعاً بعد عيد الميلاد الثانى عشر بمدة وجيزة فى بعض المراهقين (وذلك عند البنات بوجه خاص). على حين أنه ربما لا يظهر فى آخرين أى نقص فى حيوية الثانية عشرة إلا بعد عيد الميلاد الثالث عشر . وتنطوى فكرة تقسيم السن إلى مراحل على مجال متسع يسمح بوجود كثير من التغيرات الفردية والفروق الجنسية . وهى فكرة تركز الاهتمام كله على مستويات النضج وأنماطه أكثر منه على التوقيت المضبوط . فالأعمار والمراحل تنساب كألوان الطيف التى يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولكن كل منطقة تالية تجلب قدرا من سمات النضج واتجاهاته التى يمكن تمييزها .

وقد أفردنا فصلا خاصاً لكل (منطقة) عمرية (الفصول ٤ — ١٠) . والتماسا لتيسير الرجوع إلى الكتاب جعل بحث سمات النضج لفترة عمرية معلومة فى قسم مطبوع

على عمودين تحت عناوين تسعة ، ترتبط بتسع ميادين تطورية كبرى . وتحوى هذه الميادين كلا من النواحى الفردية والاجتماعية للسلوك من حيث علاقته بالبيت والمدرسة والمجتمع . وقد سطرت البحوث بطريقة ملموسة بعيدة عن الشكلية ونظمت بطريقة توضح للقارىء مناهج للارشاد فضلا عن زوايا لتفسير السلوك .

وتقوم أهمية سمات النضج المميزة على علاقتها بالمستوى العام والنمط التطورى لمجال عمرى معين. فاذا اعتبرت مجموعة كلية من السمات كلا متكاملا بدأ ذلك النمط فى الظهور . وقد وجدنا أن مكونات النضج لابن الحادية عشرة المثالى تختلف حقا عنها لطفل الثانية عشرة النموذجى ، الذى يختلف هو أيضا بدوره عن طفل الثالثة عشرة وكل عمر له من حيث النضج محور من الخصائص المميزة ، التى نحاول نلمسها بوساطة أحد مصورات النضج . والمصور إنما هو بحكم الضرورة قطاع مستعرض لخلاصة عامة ، ولكنه مؤسس على المشاهدات الواقعية والتفصيلات الإيضاحية المستمدة من سجلات البحث . ونحن ننقل للقارىء فى أحيان كثيرة أقوال مفحوصينا بالحرف الواحد وذلك لأنهم يكشفون الستار عن أشياء كثيرة بما يقولونه تلقائيا ، وبالطريقة التى يقولونه بها .

وتهدف سلسلة مصورات النضج إلى تبيان خصائص سمات النضج التى تمثل بدرجة معقولة المجالات العمرية السبعة فى ظل الأحوال الثقافية التى يتضمنها بحثنا . ومن ثم يمكن أن تؤدى المصورات إلى توجيه القارىء . فهى لا تقدم إليه كمعايير للقياس النفسى. وليس من أهدافنا أن نصف طفلا متوسطا فى العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة من العمر . فإن مثل ذلك الطفل السوى المتوسط والمثالى من الناحية الإحصائية لا وجود له ، — وذلك على الأقل بمدينة نيوهافن . على أن المصورات تتصف مع ذلك بدرجة من الصحة تكفل منحنا الوسائل التى نفهم بواسطتها طبيعة العمليات التى تنظم النمو النفسانى . فلو قرئت المصورات لسلسلة متعاقبة الحلقات لصورت تيارات التطور العامة والخطوط المحددة لها أثناء دورة تلك السنوات السبع . وبهذه الطريقة نحصل على فكرة مجسمة بارزة عن تقدمات الدورة .

والقسم الثالث من هذا الكتاب (الفصول من ١١ — ١٩) يمدنا بمدخل آخر يمكن أن تفحص عن طريقه اتجاهات النضج بتفصيل أوفى . وقد أفرد فصل خاص لكل ميدان من الميادين التسعة الكبرى لتطور السلوك . وبدلا من تركيز اهتمامنا على مجال عمرى مفرد ، ننظر إلى تتابعات النمو فى شكل تناسبى طولى ، وتوضع مراتب النمو على صورة جداول النضج لحوالى الأربعين ميدانا مميزا من ميادين السلوك . ومرتبة النمو إنما هى سلسلة المراحل أو درجات النضج التى يتقدم بها طفل نحو مستوى أعلى من مستويات السلوك الوظيفى .

وقد سبق أن ذكرنا أن تحليلنا للمادة الأولية يقع على مرحلتين . وكان أول ماوجب جمعه هو مراتب النمو ، وهى التى تقنن النتائج التى حصلنا عليها لعمل التقسيمات العمرية الدقيقة . ثم إن عرض سمات النضج يعكس إلينا المرحلة الثانية التى أفدنا فيها من المعلومات المكتسبة فى المرحلة الأولى فى إعادة غربلة النتائج الأصلية — مع قدر أكبر من التوجيه من العيادة النفسية . وربما ظهرت بين القسمين فوارق طفيفة فى التشديد على التبليغ عن بعض مفردات السلوك ، ولكنهما يتطابقان من حيث الاتجاهات الجوهرية والأنماط الكلية .

والمراتب المقسمة إلى جداول تكشف لنا عن التتابعات والنواحى النسبية لسمات السلوك كما نلاحظها . وبهذا المعنى النسبى يمكن تعميم مكتشفاتنا حتى تتجاوز المجموعة الخاصة من المفحوصين الذين درسناهم . ولو أننا ذكرنا متوسطات إحصائية عن مجاميع عمرية تقريبية لوجب أن يقصر تطبيق مكتشفاتنا قصراً ضيقا حقا على المراهقين الذين شاهدناهم . ولكن مراتبنا لم تصمم لتستخدم مقياسا نستنتج منه درجة عقلية . وإنما هى تقدم كأداة لتقديم الحالة التطورية . هذا وإن معالجة النمو كعملية ، أى بوصفه تتابعا لتغيرات تسير فى اتجاه ما ، يسمح بوجود مجال لتغيرات واسعة النطاق فى الأفراد والثقافات . وستتغير المظاهر النوعية للسلوك من مجموعة إلى أخرى ؛ وتبدو فى التتابعات وفيما يكمن فيها من آليات النمو أوجه تشابه لها دلالتها . ولم نهتم من أول الأمر إلى آخره بالقدرات المطلقة للطفل بل بمراحل نضجه وطريقة ذلك النضج . ورغبة فى التوجيه الابتدائى ، نلخص للقارىء هذا الاهتمام على النحو التالى . .

لايجوز أن تعتبر مظاهر النضج ولا سمات النضج ولا اتجاهات النضج معايير عمرية جامدة ولا نماذج تحتذى . فهى ببساطة إنما توضح أنواع السلوك — المرغوب فيه وغير المرغوب — التى تنزع إلى الظهور فى مراحل وأعمار معينة فى ظل الأحوال الثقافية المعاصرة . فلكل طفل نمط فريد للنمو خاص به .

وقد صممت الصورات والسمات والاتجاهات بحيث تدل على مستويات النضج المتنوعة التى يعمل الطفل بمقتضاها وفى حدودها . و « الأعمار » تدل على مناطق تقريبية أكثر منها على لحظات محددة من الزمن .

الفصل الثانى

التطور : فكرة جوهرية

لم يتكون الإنسان فى يوم واحد . بل استغرق الوصول بقدراته على النمو والتعلم إلى شكلها الحاضر عصورا مديدة . ويجب على الحضين والطفل والشاب أن يمروا من جديد وبطريقة مركزة بهذه العصور الخوالى الهائلة . فلا بد للكائن الحى من أن يجمع وينشط ميراثا من القوى (Potentials) استجابة لثقافة تحيط به من كل جانب ، وهى المهمة التطورية للفرد .

لقد تطور الجنس البشرى ؛ أما الفرد فإنه ينمو . وسيرته فى النمو ليست بأى حال تلخيصا حرفيا لتاريخ جنسه ، ولكنها تكشف فعلا عن مراحل وتتابعات متغلغلة وطيدة . وإظهار هذه المراحل يستغرق عقدين كاملين من عقود العمر ، حيث يتقدم الفرد من الحضانة والطفولة عابرا مرحلة الشباب إلى النضج . ويضم مجموع الفترة الكلية من العاشرة إلى السادسة عشرة القسم الأخير من الحقبة الوسطى الطويلة من حياة الفرد لم يكن فيها قد تم نضجه . ولكى نتمكن من تقدير الأهمية الجامعة لهذه السنوات الانتقالية ، لابد من الاهتمام بدورها النسبى فى عملية التطور * الكلية .

دورات النمو البشرى

يهبط الطفل العصرى إلى أديم هذا العالم مزودا بقدرات هائلة على النمو . وتنعكس على جهازه العصبى الكثير التعقيد ضخامة ماضيه النشوئى الارتقائى . وهى تتضمن قدراته على النمو وتعبر عنها . وقبل أن يولد بخمسة أشهر قمرية ، يصبح بالفعل مالكا لنصيبه الكامل من الخلايا العصبية . وتواصل هذه البلايين من خلايا الأعصاب عملها فى

---

* قد استخدمت لفظتا النمو والتطور فى هذا الكتاب كله كمترادفين .

تنظيم أنماط سلوكه والتداخل فيها طيلة نصيبه من العمر . ثم إنه يصبح فى مدى مايقارب خمسا وعشرين سنة بالغا رشيدا ، ولكن ذلك لا يضع حداً لنموه العقلى ، الذى قد يمتد إلى العقود التالية للعقد الثالث .

ومع ذلك فإن «الكبار البالغين» يختلفون اختلافا بالغا فى عمق ومدى أثر الأنماط النفسية لعملية النضج . وهذه الحقيقة جديرة بأن تكون موضع اعتبار الآباء والمعلمين ، وهم الذين قد يبلغ من شدة انشغالهم أحيانا بمسائل تطور الطفولة أن يغفلوا مسائلهم الشخصية المتعلقة بتطور البالغين . ومن يمن الطالع أن المعرفة بعمليات نمو الحضين والطفل والفتى يمكن أن تؤدى إلى تحسين فهم الذات . وعندئذ تتخذ عبارة « نمونا ونضجنا مع طفلنا » ظلا من الحقيقة متزايد القدر . وهى تعنى أن التوجيه فى النمو النفسى إنما هو عملية ذات شعبتين تحتاج إلى تنبه مزدوج إلى اتجاهات الطفل النامى فى تفاعلها مع اتجاهات البالغ النامى . وهكذا تدخل دورتان للنمو فى عملية تفاعل تتغير تغيراً عميقا مع تقدم سن الطفل — وسن الوالدين أيضا .

وهاتان الدورتان لا تسيران متوازيتين توازيا مطردا دقيقا . فهما تكونان على أشد تباعد بينهما أثناء حضانة الطفل . ولكنهما تتدانيان كلما كبرت سنه ، وذلك لأن سرعة النمو تبلغ أقصاها فى الصغير جدا وتأخذ سرعتها فى التناقص مع تزايد السن . وهكذا تصل الدورة الصغرى إلى درجة كمالها . ويلوح أن هذا هو تنظيم « الطبيعة » لإيجاد علاقات متبادلة بين جيلين ، وهو أمر عاد على النوع الإنسانى بإطالة فترة التواكل الممتدة من الميلاد إلى النضج .

هذا وإن دورتى التطور تنطبقان على كل من النواحى البدنية والعقلية للكائن الحى على السواء . فالطفل يصل إلى مستوى عقله وجسمه عن طريق عمليات النمو المنظمة . ويمكننا أن نحكم عليه بدلالة تكوينه الجثمانى وبنيته وخلاياه العصبية ومخه وعضلاته . ويمكننا أن نستدل على عقله وشخصيته كما يتجليان فى خصائصه السلوكية . فالعقل والجسم والبيئة والخبرة تتحد وتتكامل بطريقة ما بواسطة قوى تطورية عميقة تنتج دائما فرداً له مميزاته الذاتية .

وفى الإمكان تصور الـكيان العضوى الـكلى للطفل فى صورة جهاز للحركة تام من ناحيتيه التـكوينية والوظيفية . ويستمتع جهاز الحركة هذا بخاصية عجيبة هى التغير بتغير الزمن ، مع الاحتفاظ دائما بمحور الفردية . ولـكى نحس بكيفية اتخاذ هذا الجهاز المعقد شكله ، ينبغى لنا أن نتأمل مراحل التطور الـكامنة فيـه . وهكذا نـكون قد استعرضنا الآن فى أبحاثنا المنظمة اتجاهات السلوك فما يقرب من أربعين مستوى تطوريا من أول الميلاد حتى العام السادس عشر . فإذا فحصت هذه المناطق العمرية المتعاقبة فحصاً يبين أهميتها النسبية ، ظهر جلياً كيف أنها تحتفظ بنغمة واحدة ، ذلك أن هناك منهجا معينا يكمن وراء ذلك ويحاول أن يتـكرر من منطقة لأخرى .

والجنين البشرى يكشف بطريقة أخاذة عن أنماط للسـلوك وطرائق للنمو تماثل تلك التى تظهر فى سنوات الطفولة والفتوة (الشباب) . مثال ذلك أن الجنين يكون وهو فى سن ٢٨ أسبوعا فى حالة مثالية من الاتزان النسبى ؛ فهو ينزع إلى أن يكون محصوراً فى ذاته ومنبسطا للخارج ومتوافقا توافقا لطيفا مع الأسرة . وعنـدما يبلغ أسبوعه الثانى والثلاثين يصير فى مرحلة أكثر تقلقلا ، فهو حساس إزاء بيئته يخاف الغرباء . وهو من الناحية الانفعالية أكثر اعتزالا ؛ كما أن اتزانه يصبح أقل ثباتا . ويتعرض جهازه الحركى لتغيرات لا مراء فيها متجهة نحو أهداف أبعد . فإذا هو بلغ الأربعين أسبوعا أظهر من جديد أنه فى حالة اتزان أحسن . فإن مظاهر الحياة اليومية المعتادة قد أصبحت (بصفة مؤقتة) أكثر استقرارا . فهو قادر على أن يلعب وحده مدة ساعة أو أكثر . وهو يحب أن يلتف الناس من حوله .

هذا التتابع عينة لقطاع فى نمط متسع ، نمط يظهر مرة بعد أخرى أثناء سنوات التطور . فلو استعرضنا فترة ما قبل المدرسة — وهى السن من الثانية إلى الخامسة — كـكل تام لرأيناها توضح لنا دورانا تاما قامت به دورة صغرى واحـدة . والسنتان الثانية والخامسة متماثلتان فى بعض النواحى . ولسنا نقصد أن القـدرات فى العمرين متماثلة ؛ فإن الفرق بين المهارات هائل . ولـكن ابن الخامسة يظهر من طرائق التوافق مع العالم المحيط به نوعاً من التوازن وتمالك السكينة يذكرنا به فى سن الثانية . فإذا أصبح من فى الثانية فى الثانية والنصف وابن الخامسة فى الخامسة والنصف أو السادسة ،

حدث تغير يتجه فى الحالين فى نفس الاتجاه . فالسلوك « يتفكك » بل لقد يبلغ به الأمر أن « يتمزق إربا » . وتصبح الحياة مثقلة مشحونة بالبدائل المزدوجة المتساوية فى جاذبيتها ولو أنها غير متعادلة تماماً بعضها مع بعض ؛ فإن لفظتى « لا و ملكى » تصبحان مفردات بارزة فى الحديث . ويظل الطريقان متوازيين إبان السنوات التالية . فإن سن الثالثة والسادسة والنصف تمتازان بسهولة الانقياد والقدرة على المساومة ونظرة إلى الحياة أكثر إشراقا ؛ فتستعمل لفظتا « نعم ونحن » فى أغلب الأحيان . ثم تمتاز الثالثة والنصف والسابعة باندفاعات انكماشية تتجه نحو الداخل وقد تجلب الاكتئاب بل والقلق أحيانا ؛ وتقلب الرابعة والثامنة هذه الاندفاعات لتوجهها نحو الخارج فى صورة توسع فى العلاقات الاجتماعية والضجيج الصاخب . وتحاول كل من الرابعة والنصف والتاسعة أن توحد بين الاندفاعات الداخلية والخارجية ، وأن تركز توجيه القدرات وتهذبها على صورة تجعلها أكثر تحديداً ، وذلك بغية الحصول على قسط أكبر من الاكتفاء الذاتى . فاذا وافى سنا الخامسة والعاشرة أحرز الطفل استقراراً مؤقتا ، وذلك نظرا لأن قوى النمو تكون قد تكاملت . فإن الدورة الثانوية تتم لفة كاملة أخرى عند نقطة من العمر هى فى الواقع نهاية وبداية جديدة فى نفس الوقت . فالثانية والخامسة والعاشرة من أمثال تلك الأعمار المتسمة بالسكون والقرار ، فهى تعكس ما يتسم به التطور من اقتصاد وادخار للمستقبل .

ومما له مغزى عظيم أن هذه الدورات لا تشابه إحداها الأخرى بمحض الصدفة . فلو أنك تأملت مجرى التطور قبل سن الثانية ، لرأيت أن تتابعا مماثلا ظهر أكثر من مرة أثناء الحضانة فى صورة اللفات السريعة فى الدورة الباكرة . واشخص ببصرك أماما بعد سن العاشرة تجد التقدم التطورى يكرر نفسه مرة أخرى من السنة العاشرة إلى السنة السادسة عشرة . فلو شوهد المنظر العام من بعد عظيم يكفى أن يخفى نقاط الفروق الكثيرة الصغرى ، لظهرت الصورة المجسمة شديدة المماثلة للأولى . ولظهرت معالم النمو فى نفس تتابعها . فالحادية عشرة — شأن الخامسة والنصف إلى السادسة — سن تتراخى فيه الروابط القديمة وتنفصم ؛ أما الثانية عشرة فحالتها المزاجية أكثر إيجابية ، وعلاقاتها أسلس وألين ؛ وتجذب الثالثة عشرة الطفل نحو ذاتيته ؛ على حين تتجه

الرابعة عشرة باندفاعها نحو الخارج ، بينما الخامسة عشرة تعتبر سناً مميزة بالتخصص وتنظيم الميول ؛ على حين أن السادسة عشرة هى السن التى ينجح فيها الطفل فى الوصول إلى الاعتدال والتوسط أى المرحلة الذهبية . (وذلك أننا قد نتجاسر بأن نحدس أن العملية لا تقف عند سن السادسة عشرة ، وأن السادسة عشرة سن أخرى للسكون والاستقرار .)

وهذه التتابعات المتشابهة تجعل للأمر معنى مفهوما . فمنها تتألف العملية التى يتم عن طريقها النمو — لا بالإضافة والزيادة جزءا لجزءا ، ولا بالتوسيع السلس المتجانس ، كما يحدث فى بالون ينتفخ . ولكن النمو يجمع بين التكامل والتفاضل . وهو أقرب شبها بعملية نسج وجدل معقدة تنتسج فيها كمية وفيرة من الجدائل بعضها مع بعض مكونة أنماط سلوك متناسقة . ومن البديهى أننا نستخدم ألفاظا من أمثال الجدائل والنسج استخداما مجازيا بحتا . ولكنها تمكننا مع ذلك من تمثل النمو كعملية لصوغ الأنماط تنطوى على بدائل مختلفة ذات درجات من الأهمية متنوعة . والعملية فى حد ذاتها معقدة تعقيداً لا يتصوره العقل ، بيد أن المبدأ الذى تنطوى عليه سهل الفهم .

وقد بنى تكوين الإنسان على خطة مزدوجة : فإن أعضاءه — الأعين والأيدى والمخ والقلب — مزدجة التركيب أى ذات جانبين ؛ وحركاته تعتمد على القدرة على التحكم التام فى القبض والبسط . وكذلك شأن انفعالاته وتوافقه الحسى الحركى وأنماط سلوكه البصرى ولغته وفكره وعلاقاته بغيره من الأشخاص ، فإنها تنطوى على عدد لا حصر له من المثنيات التى تستدعى التوافق والتنظيم . وطريق التطور تعترضه البدائل المتعارضة من أوله لآخره . ومصدر هذه الميول المزدوجة هو الثقافة إلى حد كبير . ولكن مركز التوتر والاختيار إنما هو الكائن نفسه . أجل إن الثقافة تعدل وتدفع فى مسالك خاصة ، ولكنها لا تخلق وتوجد تقدمات التطور واتجاهاته .

ومشكلة التطور وهى مهمة جهاز الحركة هى وضع الأضداد تحت هيمنة (ضبط) وموازنة فعالة . وليست هذه الهيمنة (الضبط) توازنا استاتيكيا ، بل هى دفع لتوترات وصراعات متعارضة فى مسالكها بطريقة يحصل بواسطتها الفرد على التكامل

والاختيار والتوجيه . وهذا يتم عن طريق آلياته الخاصة بالتناسج المتبادل ، وهى آليات تتخلل كل نواحى النمو ، سواء أكان تكوينيا أم وظيفيا : وعملية النمو توازن أحد طرفى السلوك بمقابلته بضده أو ضمه إليه أو مطابقته عليه .

اللاعب على الحبل يحافظ على توازنه بالميل ناحية اليسار أولا ثم ناحية اليمين ، ثم يساراً فى تناوب سريع . وإنه ليعود بعد كل حركة إلى حالة الاعتدال المتوسطة ، وهذا من شأنه أن يمكنه من السير أماماً وإن تأرجح من جانب لآخر . فهو يجعل عضلاته القابضة والباسطة فى حالة موازنة متكررة ؛ وهو يوائم حركاته . فإذا لم يكن قادراً على تلك المواءمة لم يستطع أن يسير على حبل ولا حتى على لوح . وهذا التحليل البسيط للضبط الحركى يشير إشارة عابرة إلى النمو الطويل الذى للأشكال العليا من ضبط النفس . وهو يساعدنا على فهم السبب الذى من أجله يمر الفرد النامى خلال أطوار متعاقبة تتسم باتجاهات متنوعة للسلوك — فتكون انبساطية فى فترة وانطوائية فى أخرى ومتزنة نسبيا فى ثالثة . وتتماسك مكتسبات النمو بعضها مع بعض أثناء فترات من التوازن النسبى متكررة العودة . بيد أن هناك ميلا إلى مراحل من التوازن الزائد التى تعقبها مراحل يقل فيها التوازن عندما يوجه الكائن الحى اندفاعات جديدة نحو الداخل أو الخارج مصوباً إياها نحو ذاته أو العالم وكلاهما مجهول لديه . وهذا هو المنهج الأساسى للنمو العادى منه والزائد .

وهذه الآلية من الأهمية الجوهرية بحيث تتحكم فى الأحداث العابرة للنمو فى اليوم الواحد ، وفى تعاقب المظاهر السلوكية على ممر الأعوام ، بل حتى فى نقط التشابه العظمى فى الدورة الكبرى للنمو البشرى . والدورة تسير أماما فى الزمان والفضاء . وإن مراحل التماسك التى يزداد فيها التوازن لتبرز كلما تكررت على فترات مطردة التقدم ، كأنما الدورة تسير فى طريق يشبه اللولب .

فلو أتيحت لنا معرفة أدق بهذه المراحل المتقدمة فى منحنيات التغير لحصلنا على استبصار أعمق بخطة النمو الأساسية العامة ، ولأصبحنا أيضا فى مركز أحسن يخول لنا أن نقارن أحد الأطفال أو الفتيان بنفسه وهو يجتاز القطاعات الفترية للدورة

المتصاعدة . والتطور إنما هو فى كل الأعمار فكرة جوهرية لاغنى عنها للتفسير والفهم الأحسن .

مراحل وأعمار

إذا نحن شئنا أن نصف ونناقش تتابعات التغير فى السلوك ، التى تتحكم فيها — أولا وقبل كل شىء — عوامل توقيت فردية داخلية ، وجب علينا أن نربط بشكل ما بين الأحداث وبين المقاييس العامة الخارجية . . وأعظم هذه المقاييس أهمية جوهرية هو مقياس الزمن الميقاتى : — « زمن الساعات أو زمن التقويم » . وليست وحدات ذلك المقياس مطابقة بأى حال للزمن التطورى : — الذى هو طول المراحل الباطنية للنمو . مثال ذلك أن سلوك سن الثانية عشرة لايبدأ بطريقة آلية فى يوم عيد الميلاد الثانى عشر . فزمن التقويم لا يقيس الزمن التطورى ، ولكنه يقربه . والوحدات التى تحت البحث تتغير وذلك لأنه لابد لها أن تختلف مع زيادة سن الفرد . ونحن إذ نصف التغيرات التى يجلبها النمو على الحضين نستطيع أن نستخدم ألفاظ الأيام ثم الأسابيع ثم الأشهر ؛ ونتحدث عن طفل ما قبل المدرسة مستخدمين فترات الثلاثة أشهر ثم انصاف السنوات ؛ ونستخدم العقود وعشرات السنوات فى الحديث عن الفرد البالغ . وللسنة كوحدة عمرية أهمية خاصة أثناء المراهقة لأسباب فردية وثقافية .

والعمر يعد مفهوما بيولوجيا واجتماعيا ، فقد انقضت آلاف الملايين من السنين ومعاودة الفجر والغسق وتقلبات الفصول تظهر آثارها فى حياة النبات والحيوان ونموها . حتى إذا تقدم إدراك الإنسان فأحس بتحرك الأيام والفصول ، أخذ يفكر على أساس العمر والأعياد السنوية . وتناهى به الأمر أنه استطاع فى الوقت المناسب أن يلحظ أن كل سنة من النمو تمر بالشجرة تسجل فيها على صورة حلقات نمو سنوية . كما أنه وجد حلقات نمو أخرى مماثلة ومتحدثة بأبلغ عبارة فيما عثر عليه من قشور السمك ودرقات السلاحف وقرون الوعول فى الجبال .

وأصبحت دورة الأرض السنوية حول الشمس — وهى سنة التقويم — مقياسا جوهريا للزمن فى تقديره للشئون البشرية وتسجيله لها . وإن الفكرة العامة عن السنة لراسخة فى توجهاته واتجاهاته رسوخا جعلها تدخل فى القوانين والعادات والأخلاق المرعية المتعددة الجوانب . والعمر هو الذى يتحكم ويحدد ما لا سبيل إلى حصره من أنواع المباحات والمحظورات فى حياة العائلة والمجتمع .

وعلى هذا الأساس تبنى الجماعة الإنسانية معايير العمر السنوية بها وأسس الأهلية فيها على امتداد الطريق إلى النضج : — فكذلك شأن الدخول إلى روضة الأطفال وإلى السنة الأولى والانضمام إلى الأندية والمعسكرات ، وإلى تنظيمات الكشافة المدرجة رتبا للصبيان والبنات ؛ والوصول إلى سن المناولة[1] ؛ والحصول على شهادات العمل ؛ ورخصة قيادة السيارات ؛ وحق إبرام العقود والزواج ؛ وحق الانتخاب والمواطنة والخدمة العسكرية . وتتمشى مؤهلات السن المعبر عنها بالسنين فى كل ما يتعلق بالإدارة والضمانات القانونية وتقاليد ثقافتنا .

ومن عجيب المفارقات ، أنه يظهر أن المجتمع قد جمع فى نفس الحين بين المبالغة فى قيمة الوحدة السنوية والتقليل من قدرها كميزان للنمو . غير أن أهمية السنة الفردية ينبغى أن تفحص فحصا دقيقا بالنسبة لفترة المراهقة . أما الخطر من التقليل من قدرها فيتضح تماما عندما تخضع الحقبة بأكملها لتعميمات سائبة وشاملة ، وهى حقبة تقارب العشر سنوات طولا وتشمل ضروبا خطيرة من التغيرات ، وقد أوشك مصطلح « ابن العقد الثانى » (Teen - ager) أن يكون سبة مرتبطة بتسمية خاطئة ، ويعتبر وصمة ترتبط ارتباطا شديدا بالانحرافات والاندفاع الذى يعرف عن السبع سنوات من الثالثة عشرة إلى التاسعة عشرة ، وربما اتخذت لفظة « المراهق » هذه الشاملة صورة جامدة تخفى عن نواظرنا التغيرات التقدمية السنوية المعروفة تحت النمو السوى عموما ، غير أننا سنستخدمه بقصد واعتدال .

---

(١) وهى شعيرة التثبيت الدينى عند المسيحيين Confirmation وفيها يضع الأسقف يده على من بلغوا سن الرشد لتأكيد التعميد الذى أجرى لهم أطفالا .

وفضلا عن ذلك ، فإن الدقة فى تحديد المميزات التى يدل عليها العمر غالبا ماتكون دقة زائفة . ذلك أن الأحداث التطورية لا تحدث دائما عند نقطة مناسبة من التقويم : وإلى جانب هذا فإن إخفاق أحداث النمو فى التلاقى مع المواعيد السنوية للتقويم عند زمن الحدوث المثالى ، يقوم إلى جواره إخفاق الكائنات البشرية فى أن تكون مثالية هى نفسها ذلك أن الأفراد قد يختلفون عند زمن المراهقة اختلافا بعيد المدى من حيث السن التى يبلغون فيها أى وضع أو مهارة خاصة . فالقانون الذى يقرر أن من بلغ سناً زمنية قدرها ستة عشر عاما يكون مستعدا لقيادة سيارة ، لا يتفق تماما مع الحقيقة الواقعية . أجل أن الاختبارات السلوكية الأضافية تكون بالفعل ضمانا آخر لوجود الحد الأدنى من المعرفة والمهارة ، ولكنها تفشل بصفة عامة دون تقدير النضج ومدى تحمل المسئولية . لذا فإن تحسين اجراءات الاختيار اللازمة لهـذا النوع وغيره من الصلاحية ينبغى أن يعترف به كموضوع لا يزال بحاجة إلى مزيد من البحث .

ومن ثم فإننا سنلتزم فى الفصول التالية الحديث عن « الوحدات » التطورية فى لغة الزمن الطبيعى . ومن المحقق أن تناولنا للموضوع ومناهجنا فى ذلك كانت تعتمد على الزمن . وهى إنما تقوم على أساس « المقدمة المنطقية » القائلة بأن كل سنة من سنوات النمو إبان المراهقة تحدث فرقا تطوريا مميزاً يستدعى نوعا ما من الصياغة العلمية الدقيقة . ومع أن السنة التطورية — على نقيض السنة الميقاتية — لا يمكن قياسها بحساب دقيق ، فإنه من الممكن معذلك بواسطة مناهج المقارنة المنظمة تعقب الاتجاهات التطورية فى غضون سلسلة من السنوات والتحقق من الاتجاهات المميزة إلى حد ما لكل فترة تالية . وليس فى الإمكان رسم حـدود فاصلة دقيقة تفصل مناطق التطور العمرية بعضها عن بعض ولابد بطبيعة الحال من القدر الكافى من التجاوز لإباحة مجال للاختلافات الفردية والجنسية . ومع ذلك فإن حقائق دراستنا يقصد منها قبل كل شىء أن تضع أمام الأبصار بصورة مناسبة وجهات التطور وتناسب العمر مع النضج وعدم النضج . من أجل ذلك قدمتللقارىء فى صورة فصول عمرية سنوية .وفى مراتب عناوينها (الأعمارالسنوية — من العاشرة إلى السادسة عشرة . وربما كان فى الإمكان جعل عناوين المراحل التطورية أبجدية بالفعل — هى المراحل ا و ب و حـ و ء و هـ

و و و ز — بيد أن المزايا العلمية العائدة من تحديد تلك الأعمار من حيث علاقتها المرنة بالأعمار الميقاتية أمر واضح لا يحتاج إلى بيان .

الفردية والخبرة والنمو

إن عملية التطور عملية موحدة ؛ بينما مفهوم التطور هو توحيد العوامل . وتدخل فى التطور العوامل الوراثية : عوامل البنية الفردية والتتابع النضجى الفطرى، كما تدخل فيه العوامل البيئية المتراوحة بين البيت والمدرسة وبين الوضع الثقافى الكلى . وفيما يتعلق بالعوامل الفطرية ، نفترض فرضين وثيقى الترابط : (ا) أن كل فرد يتطور وفق نمط للنمو خاص به ؛ (ب) أن هذا النمط الفريد هو صورة متغيرة من خطة أساسية عامة للنمو هى من خصائص النوع الإنسانى إلى حد ما . والمسألة الثانية وأعنى بها الخطة العامة الأساسية الفطرية ، هى فى المقام الأول مدار البحث فى هذا الكتاب .

ومن البديهى أن أحدا لم يشاهد فعلا هذه الخطة الأساسية العامة . فإننا قد سجلنا السلوك ـ كما شاهدناه بأنفسنا وكما أبلغ إلينا من الغير . كما أننا قارنا ما سجل من سلوك نفس الأفراد فى فترات متعاقبة من الزمان بعضه ببعض . وبذا نكون — فى حدود معنى خاص معين — قد لاحظنا التطور . وقد بحثنا فى الخبرة والفردية والنمو ـ ووجدناها تعتمد إحدها على الأخرى . ومن الجلى أن الخبرة ترتبط بالبيئه ، ولكنها تعتمد أيضا على عوامل فطرية ، فردية ، وذلك لأنه ليس ثم فردان يخبران موقفا واحدا بطريقة واحدة ، كما أن الفرد الواحد لا يخبر الموقف الواحد نفسه بالطريقة الواحدة نفسها فى أوقات مختلفة من حياته . وبالمثل تنشأ الفردية عن أحد التفاعلات ، وذلك حين تجد القوى الفطرية فى البيئة فرصة تتفتح فيها كما أن النمو نفسه هو القوة السببية صاحبة الصدارة . وهو عملية متواصلة الحدوث فى الزمان ؛ والمنبهات الجديدة سواء انبثقت أولا عن مصادر فطرية أم بيئة لا تقف عند مجرد إضافة بعض المميزات الجديدة إلى الكائن الحى ، بل إنها هى نفسها تنتقها وتغير صورتها الحالة الراهنة للكائن العضوى .

وتهتم دراستنا بصفة رئيسية بعوامل النمو — أى بانبثاق وتفتح سمات السلوك كمفتاح لتقييم حالة النضج . وما كانت لتستطيع بلوغ هذه الغاية إلا بالتحكم فى عوامل الفردية والخبرة أو منحها شيئا من التسامح . ويناقش الفصل التالى (الفصل الثالث) بعض مظاهر للفردية التى تبدو ذات مغزى خاص . ومصورات النضج والفصول المعقودة حول سمات النضج تشير إشارة عابرة إلى العلاقات الملموسة القائمة بين الفردية والبيئة وبين التطور . ولم يعد النضج يعد فكرة غامضة عندما يستخدم لتحديد التتابعات المنظمة لنمو السلوك . وطوعا لقوانين الطبيعة ، وتنقسم أنماط السلوك إلى مجموعات نزاعة للحركة (ديناميكية) تدل دلالة واضحة على وجود خطة أساسية عامة .

ولسنا ننكر أنه ليس هناك قياس مدرج تقاس به أنمـــاط السلوك أو الخطة الأساسية العامة الكامنة وراءها . ومع ذلك فإن فى إمكاننا أن نجمع عينات للأنماط جمعاً منتظما ، ونضاهيها بعضها ببعض لمعرفة أحسن درجات تطابقها ، وننظمها فى سـلاسـل ذات معنى تقوم على التشـابه والتتابع . وإذا أعوزتنا وحـدات القياس المطلقة ، يمكننا أن نستخدم منهاجا من المقارنة المنظمة ، يمكننا من أن نستكشف القيم السلوكية للعمر والقيم العمرية للسلوك . وهـذا من شأنه أن يؤدى إلى صوغ مراتب النمو لمظاهر معينة للسلوك وللدورة الموحدة الشاملة .

إن مراتب النمو تقنين لسلسلة مراحل النضج التى يتقدم بهـا الفرد (وهو هنا ، الشـاب) نحو مستوى أعلى للأداء . والمراتب تسرد الأعراض السلوكية «السلبية» منها و «الإيجابية» جميعاً . وهى تذكر أيضاً الاختلافات الفردية عن الاتجاه المركزى . واللغة الوصفية المستخدمة لا يمكن على الدوام أن تصاغ صوغا علمياً دقيقاً — فلا بد لها من أن تجمع بين الإشارة والعبارة . ومن حسن الحظ أن المراتب يمكنها فى غالب الأحيان أن تشمل نص تعليقات الصبيان والبنات أنفسهم . وهذه التعليقات أفيد كثيراً من أى قول نجمل به نوع الاستجابة فى مستوى معلوم .

وغير خاف مع ذلك أن مراتب النمو ومصورات النضج تلك ليست متوسطات للقياس النفسى . فهى لا تقيس القدرات النوعية . ولذا لا يجوز أن تفسر كمتوسطات

معيارية ولا كموازين تشخيصية[١] ، ما لم يتم ذلك تحت الرعاية والضمانات الا كلينيكية . ومع ذلك فإنها عبارة عن نوع من « محك المقارنة » — أى أداة لمقارنة شىء بآخر يماثله . فهى وسائل توجيهية تسمح لنا بأن نتعرف مستويات النضج ونقدرها .

وقد شددنا التأكيد على تتابعات النضج وأنماطه لا على مميزات السن وعلاماته . وكان محور الاهتمام فى بحثنا هو الحصول على فهم أجود للاتجاهات الديناميكية لعملية النمو أثناء عملها فى فترة محددة من الزمن .

وإزاء جميع هذه الاحتياطات وهذه التحفظات ، نأمل أن يعد القارىء مراتب النمو ملخصات مناسبة نظمت فى صورة جداول ، وأن تومىء تلك الملخصات إليه كيف يمكن أن تتغير خصائص السلوك بتغير مراحل النضج وتقدمها . ولا شك أن حصافة القارىء ستقى المراتب شر سوء التأويل وسوء الاستعمال . وإذا طبقت المراتب تطبيقا إنشائيا لأدت إلى شحذ وتعميق الصورة التناسبية العامة وزيادتها وضوحا . وهى تتيح للناظر أن يلقى نظرة سريعة إلى القوى الخفية التى تصوغ أنماط التطور ، وهى تضع فى بؤرة الاهتمام المراحل التى تسبق السلوك المشاهد والتى تعقبه ؛ وتكشف الستر عن اتجاه شامل نحو نضج مطرد . ويحتاج تناول المسائل المتعلقة بسلوك المراهقة إلى نظرة تطورية وإلى إيمان بصير مدرك بقوى النمو السوية .

---

(١) تشخيصية Diagnostic : التشخيص هو تعرف الأمراض بواسطة أعراضها Symptoms

الفصل الثالث

الفردية

يكشف الطفل والفتى النامى عن فرديتهما بواسطة الخصائص المميزة للطريقة التى يتقدمان بها من مرحلة نضج إلى أخرى . والنمو هو عملية صوغ الأنماط تلك العملية التى يستطيع بها التناغم المتبادل بين الكائن الحى والبيئة أن يتحقق تحقيقا تقدميا . والموروثات (الجينات genes) هى التى تقوم أولا وقبل كل شىء بتعيين وتحديد قوى النمو . من أجل ذلك نرى القوى الموجودة فى الكائن الحى الفرد تعين أيضا قوى البيئة وتحددها بطريقة انتقائية .

ويتسع مدى الفوارق الفردية اتساع البشرية نفسها . وتكون كثير من هذه الفوارق مستورة خداعة فى طور الحضانة ، ولكنها تكون حتى فى ذلك الطور نفسه واضحة الأثر من حيث مجالها فاذا وافى وقت المراهقة تزلزل كل وصف إزاء الفوارق التى أصبحت واضحة . ومع ذلك فلا ينبغى لضخامة مسألة الفوارق الفردية أن تهولنا أو تثبط همتنا أكثر مما ينبغى . فإنا نستطيع على الأقل أن نلحظ الطريقة التى يكشف بها المراهق عن فرديته ويطورها أثناء انتقاله من مرحلة للنضج إلى أخرى ، وذلك لأننا نستطيع أن نتناول دراسة الفردية من وجهة نظر الخصائص التطورية .

والفصول التالية من هذا الكتاب تتناول عملية تقريب أولى لما أسميناه باسم «الخطة الأساسية العامة» للنمو . وهى تعالج السمات والاتجاهات الملموسة للسلوك ، كما تعالج مراتب تفصيلية للنضج ترتبط فى صورة تتابع مصوغ أنماطا — بنضج المراهقة النفسى . فالفرد النامى ينزع إلى تقريب هذا النمط التتابعى ، ولكنه يميل أيضاً إلى الابتعاد عنه وإلى إظهار فرديات للتوقيت والأسلوب حتى فى أثناء ممارسته لأنواع السلوك المثالية

لسنه . وتصبح الخطة الأساسية على أعظم جانب من الأهمية حين يتجاوز عن التغير ، أى حين تلطف عوامل الفردية عوامل العمر .

وبديهى أن عدد ما فى الإمكان من طرق المقارنة والمباينه (المناقضة) بين الأفراد عظيم عظم عدد السمات التى تملكها الكائنات البشرية. ولسنا نستطيع أن نتجاوز حد اقتراح بضعة أوجه للمقارنة لها أهميتها ، نستخدمها كأمثلة على الكيفية التى يشكل بها النمو الفطرى للنضج الفردية ويتشكل بواسطتها .

البنية والثقافة : تتحد السمات الجسمية والمزاجية بطرق هى من الوفرة بحيث يصعب تحديد صنف أى فرد بوساطة قاعدة واحدة ، وأعمق نواحى الفردية هى النواحى الكيميائية الحيوية والأيضية[1] والفسيولوجية . ولكل فرد نمط توازنى فريد فى بابه تقريبا ، ينعكس فى كيمياء بدنه وفى وظائف غدده الصماء . ومما له مغزاه القوى أن بعض هذه الأحوال التوازنية والكيميائية الحيوية (كالعمى اللونى) أشياء يمكن وراثتها فإذا لم تكن كثير من الخصائص الوظيفيه قابلة للانتقال بطريقة من نوع خاص ، فقد يمكن أن تكون مع ذلك بدنية .

والبنية هى التكوين الثابت نسبيا والفطرى للفرد كما تحده الاستعدادات الفطرية ومجرى النمو .

ولما كان الكائن الحى وحدة لاسبيل إلى تقسيمها فإن المعنى العام للبنية ينطبق بدرجة سواء على الخصائص الصحية والبدنية جميعاً . وتعبر عوامل البنية عن نفسها فى كل من طورى تطور الفرد السابق منها للميلاد واللاحق . ذلك أنه يكتسب فرديته تماما كما يكتسب عقله وجسمه ، وذلك بوساطة عمليات النمو المنظمة .

---

(1) الأيض : لفظة أقرها المجمع اللغوى (ص ٥٣٩ من قاموس مصطلحاته) ترجمة للفظة Metabolism ومعناها عملية البناء والهدم الدائمة الحدوث فى الكائنات الحية

وهـذا أمر يحصنه من أن يصبح مجرد مخلوق خلقته الثقافة التي ولد فيها . وقد وصفت الثقافة فيما وصفت بأنها جهاز ضوغ يعمل على نطاق واسع « ينتج في كل جيل طرازه من الأفراد » . وهي « تتـكون من أنماط من السلوك المتفق عليه » . وسواء أكانت الثقافة استبدادية أو ديموقراطية ، فإنها بأثرها الذي لا يقف عند حد وبتسلطها الجماعي تحدد مالا حصر له من الأمور الموحدة الصورة في السلوك الإنساني . وعلى الرغم من جميع القوى الثقافية التي تسعى إلى التقنين ، فإن الفرد يحتفظ بقدر من الفردية التي هو مزود بها .

وهـذه الموهبة تجيء بصفة خاصة عن طريق الموروثات (الجينات) . والطفل بوصفه عضواً في النوع البشري يتطور طبق خطة أساسية عامة وهو يتطور ـ بوصفه فرداً منحدراً من والديه وأجداده ـ طبق اختلافات مميزة عن الخطة الأساسية . فهو يضم سمات عقلية وبدنية انتقلت إليه عن أسلافه . وكثير من هذه السمات غير محدودة ، ولـكن بعضها مدهشة في تشابهها العائلي . فالفرد يصل إلى هذه العينات المختلطة من ميراث النوع والعائلة عن طريق عمليات فطرية للنمو تسمى بالنضج . والوسيط في الإنضاج هو الموروثات . كذلك يتكيف لبيئته الثقافية عن طريق التعلم والخـبرة بواسطة عملية تثقيف . والعمليتان تتفاعلان وتنصهران بعضهما في بعض : ولـكن آليات الإنضاج من الأهمية بحيث لا يفوقها شيء .

والنمو مفهوم يعني التوحيد بين عوامل البيئة والوراثة ومحو الفوارق بينهما . فالعوامل البيئية تدعم وتعدل وتوفق التقدمات الأساسية في تطور الجنين والطفل والفتى ، بيد أنها لا تخلقها خلقاً .

والبنية الوراثية تحدد إلى حد كبير هـذه التقدمات . وترتيب التقدم أقل تعرضا للتغير من معدل التطور . ومن هنا يجيء تشديدنا المتكرر على تتابعات المراحل التطورية فإن سرعة الإيقاع الذي تسير عليه النغمة العامة للنمو والتوقيت النوعي لدورة المراحل تختلفان باختلاف الأفراد . فقد تـكون سرعة الإيقاع الإجمالية بطيئة أو زائدة ؛ وقد يكون التقدم ثابتاً أو غير منتظم مع وجود انبجاسات وهضبات ؛ وقد يكون التقدم

متوازنا فى ميادين السلوك الكبرى وقد يكون غير متوازن . والعوامل البنيوية شاملة متغلغلة ولكنها ليست ساكنة (استاتيكية) ؛ وذلك لأنه بينما يتمثل الفرد الخبرة ويجعلها قطعة منه ، إذا هى تصبح جزءاً من جهاز حركته البنيوى .

وفى الإمكان إيجاز بحث بعض أنواع الاختلافات فى الشخصية تحت عناوين عديدة على النحو التالى : (١) فوارق الجنس ، (٢) الطبيعة الجثمانية والمزاج ، (٣) السمات العقلية ، (٤) الذكاء ، (٥) الموهبة ، (٦) أسلوب النمو .

فوارق الجنس

هناك عامل بنيوى هو أبعد العوامل أثراً يقسم البشرية بأجمعها إلى طائفتين تكادان تتساويان حجما . ذلكم هو عامل الجنس . ولا يخفى أن كثيرا من ألوان السلوك المرتبطة عادة بكون الفرد ذكرا أو أنثى ، إنما هى من حيث تعبيرها الخارجى على الأقل ثمرة للثقافة : — أى للعادات والآمال وكذلك لأنواع مستورة من الضغط تصدر عن الوالدين والأتراب والمجتمع فى جملته . بيد أن تبكير واستمرار كثير من الفوارق الجنسية تدل على أن للسمات أساسا بنيوياً ، وأن تشجيعات الثقافة وتحريماتها لا تتسبب فى تلك السمات قدرما تعززها . والمجتمع هو الذى يحدد نمط التعبير عن تلك السمات ، بيد أن مصادرها وأصولها تستكن فى أعماق الكائن الحى .

فالبنات مثلا ينضجن عادة قبل الصبيان فى الناحية البدنية عامة ، كما أنهن يبكرن بإظهار الاهتمام بالجنس المقابل . فالبنات أكثر اهتماما بالأشخاص أى بالعلاقات الاجتماعية على حين أن الأولاد أكثر اهتماما بالحقيقة الموضوعية objective أى بالميكانيكا وبالعلوم والهندسة والألعاب الرياضية . وتنزع البنات إلى إيثار أنواع النشاط والتسلية المنزلية ؛ ويؤثر الأولاد الهواء الطلق . ويتجلى هذا الفارق بوضوح فى قراءة المجلات ، إذ يقبل الصبيان على موضوعات الألعاب والعلوم ، بينما يقبل البنات على موضوعات الأزياء والحب . والبنات يبدأن فى اتخاذ الخلان فى سن أبكر . وهن يعبرن فى كل عمر من أعمارهن عن اهتمام بالزواج وترتيب لخططه أكثر من الصبيان ، ويوجهن قدرا أعظم من الاهتمام الواضح بسمات شخصية أى عريس محتمل . فهن يبدون كما لو كان

لهن صفة معينة من اتجاه عقلى نسائى مفترق تماما عن مدى قدرتهن العقلية ، وهو أمر يجعلهن أرهف حساً بالمسائل الخلقية والشخصية . وكان البنات فى مجموعتنا أبكر من الصبيان وأكثر إفصاحا فى التعبير عن التمييز الخلقى بين الصواب والخطأ . وهن يبدون أعرف منهم بتقدير المعانى الضمنية للحياة والخلق والاستجابة لها .

وغنى عن البيان أن فى الإمكان المبالغة فى فوارق الجنس بسهولة ؛ ذلك أن الحدود الفاصلة ليست واضحة دقيقة . إذ أن بكل فرد خليطاً من كل مما يسمونه سمات الذكوزة والأنوثة — وذلك فى كل من كيمياء البدن والسلوك . وهناك كثير من مثل تلك السمات المركبة ، وهى تختلف اختلافا بالغاً بين فرد وآخر . وعلى الجملة ، فإن غالبية الصبيان والبنات يمرون بأغلب مراحل التطور بطريقة تختلف من فرد لآخر بدرجة ملحوظة يمكن معها مقارنة الأفراد بسهولة ، ولكن البنات بصفة عامة أكثر حرصاً إذا قورن بالصبيان ، خاصة من حيث النمو البدنى والتطور الاجتماعى ، وإن سبقنهم أيضاً فى نواح أخرى كثيرة . ومن ثم أصبح لزاما علينا أن نثبت هنا تعديلا لمراتب هذا الكتاب يدعونا إلى أن نتوقع شيئا طفيفا من زيادة السرعة فى البنات وقدراً يسيراً من التأخر فى الصبيان — فذلك أمر يساعد على جعل نصيب كل عمر مناسبا أكثر .

الطبيعة الجثمانية والمزاج : يتناول و . ه . شلدن مسألة الفروق والانحرافات الفردية عند البالغين من وجهة نظر الأضرب المختلفة للطبيعة البدنية والمزاج . وهناك أنواع بدنية كبرى ثلاثة : (أ) البدين المستدير المنبعج البطن endomorph (جسم لين وعنق قصير ويدان وقدمان صغيرتان) ؛ (ب) الربعة mesomorph عريض العظام بارز العضلات (جسم راسخ متين له عضلات مفتولة وبارزة) ؛ (حـ) الصنارى ectomorph رفيع العظام طويلها (وتكوينه نحيل دقيق) . ويندر أن نعثر على هذه الأنواع نقية . والفروق الفردية فى البدن تتجلى عادة فى صورة مخاليط من طراز البدن الأساسية . وهناك بالمثل ثلاثة طرز مزاجية . وذلك لأن السمات المزاجية تمتزج فى مختلف الأفراد بدرجات متفاوتة تفاوتا بعيدا . فالبدين المستدير المتطرف يميل عادة أن يكون له قدرة هضمية جيدة . وهو طيب القلب متراخ اجتماعى ميال للاتصال

بالناس . والربعة البارز فى صفته تلك يكون نشيطاً ذا همة معتدا بذاته عدوانيا ، أما الصنارى الهش فهو متحفظ متوتر متمنع : وهو ربما فضل العزلة على الجلبة وصحبة الناس . وهو مرهف الحس وعرضة للأصابة بأنواع الرهاف (١) . فالمزاج يدل على السمة العقلية المميزة للشخص .

والأفراد جميعا وإن تجلت فيهم مخاليط مركبة من القومات ، إلا أن المثاليين من أنواع البدين المستدير والربعة والصنارى يغلب عليهم الميل إلى التعبير عن نقطة النماء الأساسية المميزة لكل منهم بطرائق مميزة تبحث الآن عن مستويات الطفولة والفتوة (الشباب) . ففى ميدان الانفعالات مثلا ، يكون البدين المستدير ميالا إلى إظهار مشاعره بسهولة فى أية سن ؛ فإن الناس من الأهمية لديه بحيث لا يطيق الإسراف فى الابتعـــاد عنهم ، وإن كان فى أشد أطوار تباعده . كما أن الربعة لا يكون — عديم المنافسة إلا بمعنى مقارن فقط حتى وهو فى سن توصف عادة بأنها « أقل منافسة » — أعنى بالمقارنة مع نفسه فى أسنان أخرى ، والصنارى أسرع إلى التباعد إذا لقى المتاعب ، وأحرص على إخفاء مشاعره . وربما كان على يقظة وسرعة استجابة ، ولكنه أميل فى كثير من الميادين إلى إظهار ألوان من عدم النضج . وهو يبدو كأنما هو بحاجة إلى قدر أكبر من الزمن للنمو : وتدل مشاهداتنا أن مراتب النمو تزداد معانيها قوة إذا هى فسرت على ضوء الفردية البنيوية .

السمات العقلية : سنسرد هنا كيفما اتفق بعض المتغيرات النفسية ، بقصد الإشارة إلى شدة اتساع مجال الفوارق الفردية . فمنها : الطاقة والقدرة العقلية الفطرية ؛ وأنواع ودرجات التصور العقـلى : البصرى منه والسمعى والحركى ؛ واليد المتسلطة واليد الماهرة واتجـاهات الأوضاع الجسمية ثم التصرفات ؛ الصوت ؛ متنفسات التوتر ؛ والتعبير الانفعالى ؛ ردود الأفعال إزاء أى جديد ، الإحباط والنجاح ؛ طرائق التعلم

---

(١) الرهاف ALLergy بوزن صداع حالة من الحساسية تحدث فى الجسم رد فعل غير سوى إزاء مواد تـكون غير ضارة فى الحالة السوية .

والاستفادة من الخبرة ، أنماط السلوك البصرى كما تتجلى فى السيطرة على حركات الأعين والرؤية البعيدة والقريبة والتنبه البؤرى والمحيطى ؛ المهـارة البصرية فى البحث عن الصور والرموز والعثور عليها والاستمساك بها وتمييزها وتفسيرها ؛ والإدراك الشخصى للقيم الجمالية والخلقية . ومن هذه السمات ما ينطوى على التميز القوى .

مثال ذلك أن توازن التنبه المحيطى والبؤرى ، له أثر شامل نفاذ فى السلوك — حيث يكون الفرد ذو التنبه المحيطى الأكبر ، الذى يستجيب بسرعة لعـدد جم من المنبهات فى الملابسات المحيطة به — قابلا لأن يشغل انتباهه « لأتفه الأسباب » ؛ ويكون الفرد البؤرى أكثر ، هو الذى يطبق طاقاته على منطقة تركيز مفردة وضيقة . وأن النسبة الفردية بين نوعى التنبه المحيطى والبؤرى لتتجلى فى نطاق مجال رحب للسلوك يتراوح بين الاتجاهات المحددة للادراك البصرى وبين أنماط ردود الأفعال فى العلاقات الاجتماعية .

الذكاء : كان اختلاف الذكاء البشرى ميدان اهتمام خاص لدى علمـاء النفس والتربية . ولعلهم بذلوا فى هذه الناحية من نواحى الفردية جهدا فى البحث يفوق ما بذل فى كل النواحى مجتمعة ، ولا تزال أمثال تلك الدراسات مستمرة إلى اليوم — بعـد أن أصبحت متركزة الآن لا على الذكاء العام وحده بل أيضا على فروع الذكاء الأكثر تخصصا ونوعية : كالقدرات الشفوية والعددية والمكانية وإدراك الأشكال ، وعدد من أمثال تلك العوامل . لقد أوتيت هـذه الجهود ثمارا عظيمة ، وذلك لأنه ظهر أن للذكاء أهمية فى كل ناحية من نواحى الجهود البشرية تقريبا . ولو أن الذكاء لم تظهر له علاقة بمجرى التطور السكلى لكان ذلك مثار العجب ، ومن ثم فإن مناهج القياس النفسى تـكثر من استخدام عامل العمر .

أجل إنه جاء وقت كان فيه النمو الفـكرى نفسه يعتبر أنه مجرى التطور ، مع اتخاذ « العمر العقلى » وسيلة قياسه الرئيسية . ولا شك أن قصور مثل هذا الضرب من التناول كثيرا ما يتجلى بوضوح تام فى المواقف الحقيقية للحياة . « فالعمر العقلى » ، كما يستخدم ذلك المصطلح بصفة عامة — إنما هو فى الواقع عدد الدرجات التى يحصل

عليها فى أحد الاختبارات ؛ فهو دليل قيم على النباهة وإشراق العقل ؛ ولكن ليس من الضرورى أن ابن عشر سويا عمره العقلى أربعة عشر عاما سيتصرف كابن الرابعة عشرة ؛ فإنه ينزع إلى التصرف تصرف الأذكياء من أبناء العاشرة . والذكاء لا يكون فى مجال الحالات السوية مرتبطا بسرعة مجرى التطور قدر ارتبـــاطه باكتمال ذلك المجرى . فالطفل الممتاز أميل إلى تصوير خصائص عمره التطورية بدرجة خاصة من الحيوية . ولا يتأثر نمو الذكاء العام تأثرا ملحوظا بالفوارق الجنسية ولا بفوارق طبيعية كنوع البدن أو سن ابتداء البلوغ . والنمو الكلى أكثر شمولا ومحافظة على القديم من أى دليل مفرد كالعمر العقلى مثلا . والنضج كدليل له أهمية خاصة لكل من الحالة الراهنة والقوى المستقبلة .

المواهب . من أعظم دلائل الفردية جاذبية . كما أنها أيضا من أعظم تلك المظاهر أهمية من وجهة نظر الصالح الاجتماعى . وهى تمثل منهلا بشريا من قوى النماء يحتاج إلى الاستكشاف والتشجيع والمحافظة عليه . وذلك أمر يمكن أن يتم داخل إطار ثقافة ديموقراطية ، خالية من كل تحيز لذوى المواهب المتوسطة . والحق أن بذل المزيد من العناية بذوى المواهب سيؤدى إلى نفع الأطفال جميعا . ويضم امتلاك المواهب ميادين كثيرة للسلوك منها : الاستعدادات المرجوة والمواهب الاستثنائية والذكاء المفرط والزعامة والشخصية الابتكارية والاستبصار الاجتماعى ومرتبة عالية من القدرة على مواصلة النمو. وليس من الضرورى أن ينطوى الفتى الموهوب على جميع هذه الصفات ، ولكنه من المحتمل أن يكون متعدد الجوانب والمزايا وليس موجهاً توجيها ضيقاً وأن يكون له مجال متسع من الميول والرغبة فى البحث . ولعله قد أظهر أمارات غير عادية تبشر بالخير فيما أظهر من الصفات الديناميكية لسلوكه التلقائى أثناء سنوات ماقبل المدرسة والحضانة . والمواهب تقوم على أساس من الوراثة ينزع إلى الكشف عن نفسه فى صورة زيادة سرعة النمو الذهنى كما يقاس بواسطة نسب الذكاء .

وربما أمكن التكهن فى باكورة العمر بالقوى الفائقة فى كل من ناحيتى الفنون والعلوم، فى الموسيقى واللغة والهندسة ، وذلك لأن الموهبة والنبوغ خاضعان لقوانين التطور .

إذ أن العلاقات المبشرة التى تلحظ فى سنوات التعليم الأولية غالبا ما تتجلى تجليا أوفى فى سنوات المدرسة الثانوية . والموهبة ظاهرة نمائية ، وهى بوصفها كذلك ، تستجيب للتهذيب عن طريق الإرشاد والفهم . غير أن دراسات ترمان وكوكس قد أوضحت أن « الشبان الذين يبلغون منزلة التبريز . لا يتصفون فقط بسمات ذهنية عالية ، بل بثبات الدافع والجهد أيضا وبالثقة فى قدراتهم وبقوة عظيمة فى خلقهم » . وهذا ولامراء ينطبق إلى حد ما على جميع ميادين التبريز — أى على الشعراء والكتاب والفنانين ورجال العلم انطباقه على زعماء الصناعة والحكم .

والثقافة الراهنة تشجع بطبيعة الحال الموهوبين فى النواحى العلمية . وقد أوضحت النشرة السنوية لأبحاث المواهب العلمية Annual Science Talent Search التى يعاونها اليوم خمسة عشر ألف ناد علمى بأمريكا إيضاحا نهائيا أن رجل العلم المفطور على هذه الهبة يمكن التعرف عليه عند سن السادسة عشرة . فإن أعراض الميل والمقدرة تتجلى بقوة عند سن العاشرة ، بل أبكر فى غالب الأحيان . فإلى أى حد ينبغى استثارة هذه التكهنات وتقويتها ؟ — تلك دائما مسألة من مسائل التربية ، تحتاج إلى تقدير لسمات النضج من حيث علاقتها بشواهد وبينات القدرة الاستثنائية .

أسلوب النمو : لكل فرد أسلوب نموه الخاص المميز الذى يتكشف عندما ينظر إلى المجرى التقدمى للتطور نظرة تناسب عامة شاملة مدركة للأهمية النسبية . فإن بعض الأفراد يتطورون مثلا بطريقة سلسة تدريجية خطوة فى إثر خطوة ؛ على حين يلوح أن بعضهم الآخر يتحركون فى انبجاسات ، حيث لا يكادون يتغيرون أمد فترات طويلة من الزمن ، ثم يكتسبون ضروبا جديدة من السلوك فى صورة فيض فجائى . وهناك من ناحية أخرى بعض أفراد يتأرجح سلوكهم تأرجحات بعيدة أثناء تقدمهم من مرحلة نضج إلى أخرى متخذين موضع الصدارة من الحالات المتطرفة لكل طور ، على حين أن آخرين على النقيض من هؤلاء لا يبدو عليهم إلا النذر اليسير من الانجذاب نحو المثال النموذجى من السلوك أثناء شوط مسيرهم الكلى . ومثل هذه الأنواع من أنماط النمو غالبا ما تكون هى الخصائص المميزة للفرد من أبكر أيام الحضانة إلى آخر العمر .

ثم أن هناك بعداً آخر يتجلى للناظرين إذا هم نظروا إلى منهج سير النمو إبان فترة زمنية أطول مدى . فإن الشطر الأعظم من الأفراد يبدو عليهم التمشى بعضهم مع بعض من حيث سرعة التطور العامة ، إذ يظهرون مقداراً ثابتا إلى حد ما من التبكير أو التأخر فى الوصول إلى نقاط حاسمة أو نقاط سكون وقرار (nodal) فى دورة النمو . على أن هناك آخرين تتجلى فيهم اختلافات فى هذا الصدد . فهناك نمط التطور السريع المبكر الذى لا يفى فيما بعد بما بشر به من أمل ظاهرى . وكأنما الفرد قد أخفق دون الوصول إلى حل لمشكل بالغ منتهى الدقة فى مراحل التطور المبكرة ، ومع أن نموه قد استمر فى نواحى كثيرة ، فإنه يظل مغلول اليدين لشىء يعوزه فى ناحية خاصة من نواحى التنظيم . وثمة اختلاف آخر يمثله الفرد غير الناضج . فإن بطء التطور قد يكون أحيانا مظهراً من مظاهر التأخر الشامل ، الذى لا يصل فيه الفرد أبدا إلى مستوى أداء البالغين . ولكنها قد تكون أحيانا حالة عدم نضج أبر وأرحم ، تكون فيها مراحل النمو التالية إما أزيد سرعة أو أطول أمداً ، وتسمح فى النهاية ببلوغ حالة متوسطة بل حتى ممتازة . والفرد « الفائق رغم عدم نضجه » ، أى الطفل الذى ذكاؤه فوق المتوسط والذى يكون أداؤه أقرب إلى أداء من يصغرونه — يثير مشاكل خاصة ويتطلب حلولا خاصة من الهيئات التربوية ويتحداها للحل تحديا خاصا .

لقد قللنا من استخدام لفظة الشخصية أثناء بحثنا السالف للفردية . وليس هذان المصطلحان بمترادفين تماما . فالشخصية هى المجموع النفسى الكلى للفرد ، كما يتجلى فى الأعمال والمواقف والاتجاهات . فهى الثمرة التى تتوج بها عملية النمو البشرى لأنها تجمع كل الخبرات التى تمثلها الفرد سواء منها المتذكر والمنسى والمكبوت . وهى تمثل تاريخ حياة ؛ وترجمة حقة لإنسان . وكتابنا هذا أشد اهتماما بالفردية الكامنة الفطرية التى تصوغ شكل الشخصية المتطورة وتاريخ حياتها وتضع لها أساسها . فكل فتى مراهق يتطور وفق نمط للنمو فذ فريد ، هو مفتاح فرديته . وسيلقى تكوين هذه الفردية المزيد من البحث فى الفصل الذى جعلنا عنوانه « جهاز الحركة الكلى » . وستبين مراتب النمو وما يتصل بها من متن الكتاب ، طبيعة واتجاهات الفوارق الفردية التى قد تحدث عند مراحل النضج المتقدمة .

والفردية تـكون دائماً تحت الصنع ، وإن كانت ثابتة مستديمة فى نفس الحين . فنحن عند كل مرحلة تتقابل مع عامل السن ، وذلك لأنه لا سبيل إلى الفصل بين الزمن والنمو . فالزمن على حد تعبير لغة شكسبير الشعرية — حاضنة ومربية ومنجبة تتمخض عن

« .... سانحات الفرص للأشياء
التى لم تدب فيها بعد انتفاضة الحيـــاة
ولم تزل فى بذورها وواهنا كامنا مكنونة
تلــكم هى التى تغدو على الأيام نقف الزمان وفرخه »

والآن نعود لبحث ما يحدث أثناء سنوات العاشرة والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة .

القسم الثانى

مصورات النضج وسماته

تقوم سلسلة من مصورات النضج بتصوير خصائص النضج لكل منطقة عمر سنوية باعتبارها كلا كاملا (الفصول ٤ — ١٠) .

تناقش النصوص ذات العمودين سمات النضج من حيث علاقتها الملموسة بميادين وظيفية تسعة (وهى المذكورة فى الصفحة ~~المقابلة~~ التالية) .

قد خصص فصل خاص بالقسم الثالث لكل من هذه الميادين ، رغبة فى وضع «اتجاهات النمو» فى صورة تتابع طولى لدورة السنوات من العاشرة حتى السادسة عشرة (الفصول ١١ — ١٩) .

تصنيف سمات النضج (الفصول ٤ — ١٠)

ومراتب النمو (الفصول ١١ — ١٩) (*)

(١) جهاز الحركة الكلي : النمو البدني ، الميول الجنسية ، الصحة ، متنفسات التوتر ، الاستجابة لامتحاننا ومقابلتنا (مع ريتشارد . ج . آبل O . D ، وريتشارد . ن . ووكر M. A.) .

(٢) العناية بالذات ونهج الحياة اليومية : الأكل ، النوم ، الحمام ، الثياب ، العناية بالغرفة ، النقود والشغل .

(٣) الانفعالات : بوجه عام ، الغضب ، القلق والمخاوف ، الفكاهة ، الحالة الوجدانية ، إثبات الذات ، التعبير عن المشاعر .

(٤) النفس النامية : بوجه عام ، تقديرات الذات ، الرغبات والميول ، المستقبل .

(٥) العلاقات المتبادلة مع الناس : بين الأم والطفل ، بين الأب والطفل ، الأخوة ، العائلة ، الأصدقاء من نفس الجنس ، الأصدقاء من الجنس الآخر ، الخلافات ، الحفلات . .

(*) أنظر تفاصيل سمات النضج ومراتب النمو المماثلة لهذه ما بين السنة الأولى والعاشرة في كتابين سابقين من تأليف جزل وإيلج هما :

(2) The child from Five to Ten (Harper) ,(1) Infant & Child in the Culture of to-day (Harper)

وقد ترجم مترجم هذا الكتاب تحت اسم « الطفل من الخامسة إلى العاشرة . » (لجنة التأليف) .

(٦) النشـاط والاهتمامات : خارج المنزل ، النشاط المنزلى ، الأندية والمخيم ، القراءة ، الراديو والتليفزيون والحاكى (الفونوجراف) ، السينما .

(٧) الحياة المدرسية : بوجه عام ، المواد الدراسية والعمل المدرسى ، علاقة المعلم بالطفل .

(٨) الحاسة الخلقية : الصواب والخطأ ، حاسة العـدالة ، الاستجابة للعقل ، الأمانة ، السباب ، الشرب والتدخين .

(٩) النظرة الفلسفية : الزمان والمـكان ، الموت والآله .

الفصل الرابع

سن العاشرة

مصور النضج

تتبوأ السنة العاشرة مكانا هاما وعظيم المغزى فى خطة النمو البشرى . فهى تؤذن بأن عقدا من التطور الجوهرى بدأ بفترة ما قبل الميلاد ، — قد بلغ ذروته ، وأخذ يتبدى فى الأفق أمام الناظرين عقد لتطور المراهقة .

ففى أثناء السنة العاشرة تلف الدورة التى نستعملها على سبيل المجاز رمزا للنمو — لفة متمهلة إلى حد ما نحو نضج البالغين التام المتكامل . فالعاشرة سنة إتمام وانتهاء مثلما هى سنة تحول — هى فاصل لطيف متراخ نسبيا ، يتمثل فيه الكائن الحى ما حصله وما اكتسبه من خبرات ويحكم تماسك أجزائها وتوازنها بعضها ببعض . ومن هنا كان ابن العاشرة المثالى ممثلا لكل من صفات الطفولة النوعية والموروثة الشاملة . فهو لا يرمز إلى توترات الشطر المتأخر من الشباب إلا بصورة معتدلة وادعة . فتراه يجنح بطريقة صريحة لاتنطوى على أى استحياء — إلى تقبل الحياة والعالم على علاتهما مع سهولة ويسر فى الأخذ والعطاء . فهى حقبة ذهبية قوامها التعادل فى ميادين التطور .

ومن البديهى أن هذا الطور وقتى عابر وأنه ليس خاليا تماما من الكدر كما سنرى الآن . على أننا سنعمد أثناء تخطيطنا أى مصور للنضج إلى تشديد التأكيد على السمات البارزة الممثلة لنوعها ، مفترضين أن القارىء سيتجاوز بدرجة كافية عن الفوارق والمميزات الفردية . ولسنا نحاول هنا أن نصف طفلا معينا ، بل فردا توضيحيا مركبا يعكس إلينا من داخل منطقته العمرية وجماعته الثقافية اتجاهات التطور وتكاملاته . وغايتنا من ذلك هى تبيان خصائص عمليات النضج وأنماطها . كما أننا

نمنح أنفسنا شيئا من التحرر الأدبى لبث الحيوية فى الحقائق المرونة — لا المبالغة فيها .
وتيسيرا للأداء ، سنستخدم مصطلحات يمكن تبادلها تبادلا منوعا ومتناسبة مع الأعمار والمراحل ، كقولنا مستوى العمر والمنطقة العمرية ومستوى النضج وسن العاشرة وبلوغ العاشرة أو العاشر مجرداً . وكثيرا ما سترون ضمير المذكر « هو » يشير إلى الجنسين . والغرض الاجمالى من المصورات هو الدلالة على أنواع السلوك التى ترينا كيف يتشكل العقل والشخصية فى سنوات النمو بين العاشر والسادسة عشرة .

والتطور عملية لا ينفرد بها عام على حدة فكل عام يرتبط ارتباطا ديناميكيا بالأعوام المتاخمة له . ولذا تصبح السنة العاشرة أقوى معنى إذا نظر إليها من حيث علاقتها بالسمات والاتجاهات التى تتجلى فى التاسعة والحادية عشرة . والعادة أن الانتقال من التاسعة إلى العاشرة يكون على وجه الإجمال سلسا تدريجيا ثابتا . والتغيرات اليومية تمر فى معظم الأحوال دون أن يلحظها أحد . وربما حدثت بضع تحولات عنيفة قليلة بصورة فجائية وأخاذة . على أن التقدم فى النضج يصبح فى الوقت المناسب ظاهراً فى المسلك والاتجاهات والانفعالات والأفكار . فالمملوكات التى كانت مناط الاعتزاز يوماً ما تنبذ وتلقى جانبا ، فقد يطرح الصبيان بنادقهم وكتبهم الهزلية التى سبق استعمالها ؛ وينبذ البنات عرائسهن الورقية . وأن هناك لشمولا وتحررا متزايدا فى الأذواق والميول يلحظ أثره بصورة عامة فى العلاقات المتبادلة مع الأفراد بالبيت والمدرسة ويشاهد بصورة فردية أخص فى النفس النامية الباطنية للطفل .

وابن العاشرة مغرم ببيته مخلص له . وهو من بعض النواحى أوثق تعلقا بعائلته منه يوم كان فى التاسعة . وتمتد جذور المحبة متشبثة تشبثا عميقا بكل من الوالدين . وللأم مكانة خاصة فالصبيان يعترفون بسلطتها ويطيعونها بانشراح وتهلل أكثر من ذى قبل . والبنات يستودعنها أسرارهن ويتقبلن إرشادها . وفى معظم الأحيان تكون علاقة كل من الصبيان والبنات حسنة مع الأب ويستمتعون بمصاحبته . فالصبى يحب أن يخرج فى رحلة مع أبيه منفردين تظللهما رابطة من الزمالة .

وابن العاشرة يبادر إلى المساهمة فى نواحى النشاط العائلية المشتركة كالرحلات

والنزهة بالسيارات ، وتهدف ميوله الطيبة نحو الانسجام العائلى . وهو أسوأ ما يكون فى علاقته بإخوته الذين يتراوحون بين السادسة والتاسعة . فإنهم يخلقون مشا كل أعقد من أن تطيقها طبيعته الخيرة الساذجة . ومع ذلك فإنه يظهر إزاء أطفال فى سن ما دون المدرسة أنه إنسان لطيف المعشر يستطيع أن يعنى بهم ويحميهم. ذلك أن له قدرة على التربيب والرعاية يتجلى تعبيرها الطبيعى فى مواقفه التفهمة الرشيدة إزاء طفل صغير — ونحو حيوان مستأنس يربيه . وتظهر البنات اتجاهات مماثلة لهذه · فهن يحلمن بأن سيصرن أمهات أو مربيات أو مدرسات أو طبيبات بيطريات. ويحب صبى فى العاشرة أن يقرأ لابن خمس . والطريقة الفاتنة التى تتجلى بها هذه العلاقة المتبادلة تتناسب تماماً مع كل من المستويين العمريين : ذلك أن ابن الخامسة والعاشرة تجمعهما سجايا أساسية مشتركة .

وابن العاشرة مغرم بالأصدقاء . فهو يحب أن يقول للناس من هم ويذكر محاسنهم المميزة . وقد يتحدث عنهم مقررا اسمهم الكامل وعمرهم ومولدهم ومهنة أبيهم . وهو يجمع بين الاهتمام الدقيق بالتفاصيل الملموسة وبين تنوع الاهتمام . وهذا أمر يكاد يميز الحالة النفسية العامة لابن العاشرة كما ينعكس فى طرائقه واتجاهاته الفكرية وميوله بالمدرسة ونظرته إلى الحياة .

ونواحى النشاط عند الأشبال والكشافة تجد منه إقبالا عظيما ، بيد أنه يجمع أيضاً بين الجماعات التلقائية (والشلل) الوقتية غير المتماسكة · وهو فى علاقته بعضوية هذه الجماعات ، أميل إلى التسامح والقبول منه إلى اعتزالها والبعد عنها .

وبالبنات فيما أبلغنا ميل أكبر إلى « ثورات الغضب » : — « أنا مخاصماك » ، «أنا لن ألعب» . كما أنهن يفضلن أيضاً الجماعات الأصغر حجما والأوثق ارتباطا . ولمعظم البنات صديقة حميمة واحدة تدوم علاقتها بها فترة مديدة . والعلاقات المتبادلة فى مثل هذه الصداقات غالبا ما تكون كثيرة التعقيد قوية . وهى تنطوى على أضرب متعددة من القيم الاجتماعية والثقافية التى تبحث فى جوودى . وقد تقوم التفاعلات المتبادلة فى هذه الصداقات بمهمة آلية نافعة فى تكوين الشخصية . إذ يتطور « الأنا » Ego عن طريق هذه التوافقات المتبادلة بين الأصدقاء. وربما كانت البنات أكثر تقدما من هذه الناحية

فى هذا العمر . وهن على أقل تقدير مختلفات عن الصبيان . وذلك أن الصبيان فى صداقتهم بعضهم لبعض يميلون لتوسيع دائرة أصدقائهم أكثر من ميلهم لشدة الارتباط وتوثيق العلاقات وتضييق العدد .

وصبيان العاشرة يعبرون بصراحة ولكن فى غير حدة إما عن عدم اهتمامهم بالبنات أو عدم استلطافهم الفعال لهن . فإن أحد كارهى النساء من هؤلاء قال فى إيجاز : « أنا لا أحب البنات فترة . » وثمة آخر كان يتكلم باعتدال أكثر بلسان زملائه أبناء العاشرة ، فلخص الأمر بقوله : « نحن نكره البنات كرها من نوع ما » .

والبنات فى نفس هـذه السن يقلن فى نغمة مختلفة قليلا ، « آه ، نحن لا نحب الصبيان ، فإنهم يمكن أن يكونوا سفلة جداً . » (شد الشعر والمطاردة والدفع والخشونة ورمى الطعام أثناء الحفلات) وتحدثت متحدثة أخرى أكثر اعتدالا فقالت : «لسنا نهتم بالصبيان بعد » .

ومع أنه ليست هناك عداوة مستديمة بين الجنسين ، فإنهما كثيراً ما يفترقان اختياراً أثناء الألعاب الجماعية والرقص الشعبى — وإذا بالصبيان يجتمعون فى جماعة والبنات فى أخرى .

ويميل ابن العاشرة إلى التأديب . وليس فى ذلك ما يدهش بالنظر إلى خصائصه العامة : سهولة الانقياد ، وسهولة الأخذ والعطاء انفعاليا ، والنزعة الواقعية الملموسة . وهو يحب أن يتعلم . وهو ليس مسرفا فى انشغاله بالمسائل الشخصية الخاصة لمعلمته إذا هى كانت عادلة فى إدارتها للفصل سخية بالمعلومات فى تعليمها إياه . وهو يتقبل قدراً من الواجب المنزلى دون امتعاض .

وعلى الرغم من موقفه المتحيز لشخص معين فى أغلب التصرفات ، فإنه يفضل كثيراً وجود جو ودى فى غرفة دراسته . وإليكم الأشياء التى يحبها فى معلمته : « إذا مزحنا ضحكت » . « تسمح لنا بالهمس » ، « لا تصرخ إذا ثارت » ، « معتدلة المزاج » ، « صبورة » .

والقدرة على التمثل سمة تربوية أساسية فى منطقة نضج العاشرة . وهى حالة مزاجية

ومقدرة فى نفس الحين . وتبعا لذلك يحب ابن العاشرة أن يستظهر ، ولو بالتطويل ؛ وهو يحب تعرف الحقائق وتقمصها ، كأن يضع المدن على الخريطة ، ويجمع المفردات المألوفة فى سلاسل ، ويكتبها عن طريق الإملاء . وهو أقل ميلا إلى الربط وإلى تصور ما لديه من حقائق وتعميمها . والظاهر أن حسن تقبله للحقائق المنفصلة واستظهاره للمواد ظاهرة تطورية تنهض فى النهاية بسلامته العقلية . وربما كانت فترات انتباهه قصيرة متقطعة غير منتظمة كالجمل التى يكتبها فى الإنشاء : ولكنها فترات كثيرة متعددة ، ومتنوعة مختلفة الأشكال ، كما أنها تنبىء عن رغبة ملحة فى المعرفة الواسعة . وتوسيع المجال مقدمة وسابقة تطورية للتعمق فى الغوص . فلا غرو إذن أنه يريد أن يتكلم وأن ينظر ويقرأ ويصغى أكثر مما يريد العمل . وهذه هى القابلية لا ستقبال المعرفة . والعاشرة أفضل الأعمار للتربية بالتلفزيون T.V. .

ويكاد يكون فى إمكاننا تسمية العاشرة سنا رياضية ، لا بسبب اهتمامها بالتنافس فى الألعاب ، بل من أجل ابتهاجها المحض بالنشاط الجثمانى البحت فى الجرى والانزلاق والتسلق والنط وركوب الدراجة . ذلك بأنه يحس كما لم يحس من قبل أبداً بدافع جهازه العضلى الكبير . فقوته الحيوية فى مستوى أعلى . ولكنه — تمشيا مع طبيعته المتعادلة — يستمتع أيضا بالتمرينات الأقل إجهادا . فهو مغرم بمجرد تضييع الوقت هنا وهناك مع الأطفال الآخرين فى المنطقة المجاورة . إذ يشعر بأشد الأنس والألفة بالقرب من منزله . ويلوح أغلب هذا النشاط الأكثر هدوءاً كأنه أعمال بلا هدف ، بيد أن له منطقا اختص به تماما يتجلى فى التوافقات المتبادلة المتنقلة التى يثيرها .

وحياته الجماعية المنظمة أكثر جدية . فإنه يبجل رموز جمعية الكشافة التى يشترك فيها . وهو يكون بوقار وجدية الأندية السرية والغامضة . أجل ربما لم تدم طويلا ، ولكن قد تمسها مسحة من المثالية والتزمت . فبذلك تشهد الشعارات حيث تقول . « لتكن لك قوة إرادة » — « تحملوا المتاعب معا . » ومع ذلك فإن التجربة تظهر أن الأندية محاولة غير ثابتة فهى أمل جميل أكثر منها أمد طويل .

والدافع لارتباطاته الجماعية إنما هو الزمالة البسيطة لا المنافسة . فهو يحاول أن

يكون حسنا كالآخرين ولـكنه لا يجعل همه الأكبر أن يبز أقرانه . وهو فى المدرسة لا يحب أن يفرد بالثناء . فهو يقول : « إنى أشعر بالحرج إذا كنت أحسنهم » . وينشغل باله إذا أخفق صديق حميم فى الحصول على درجة النجاح . وفى نفس الحين لا يريد أن يحصل على درجة أعلى من درجة صديقه .

وإن التعادل التطورى الأساسى للعاشر ليعكس نفسه فيما يغلب عليه من اتجاهات ، أى فى جوه وحالاته الانفعالية . قال أحد مفحوصينا : « لا أحب أن أكون متكدرا . » وهذا شىء طرازى يصدق بدرجة ما على أبناء العاشرة جميعاً على وجه الإجمال ، لأن الواحد منهم راض عن نفسه وعن نصيبه وعن عاله ؛ وقد يبلغ رضاه هذا حدا يجعله يشعر بشىء من الانزعاج حين يعلم أنه مضطر أن يلجأ إلى انفجارات الغضب الحادة وربما ضرب من أمامه بعنف طفلى بدائى . وهذه النوبات أميل أن تـكون قصيرة وتفجرية وضحلة . ولـكنها تنتهى سريعاً ؛ إذ لا تلبث طيابة تـكوين العاشر الأساسية أن تبرز نفسها فى صورة عودة سريعة إلى التعادل النسبى . وستظهر الأيام أن حوادث الغضب فى الأعمار التالية بها قدر أعظم من التعقيد وذلك بسبب اختلاف حالة نضج الـكائن الحى . ففى العاشرة لا يبرح الصبيان والبنات جميعا يكونون وهم فى آلام الغضب، ولـكنهم لا يكنون الضغائن بأنفسهم ولا يغذون المشاعر المجروحة بلبان الحقد .

وهناك انبجاسات للسعادة وأخرى للمحبة الصريحة ، لهما نمط يماثل نمط الغضب كما يتجلى فيهما نفس الميل إلى التبدد بفعل نزوع عام متعادل للتثبيت والاتزان . وبالمثل تقل المخاوف الأولى وألوان الضجر والقلق . ولـكن سرعة تبخر مشاعره هى نفسها الحارس الذى يضمن صيانة صفاته المحبوبة : الرضا النفسى وعدم الاهتمام بالحالات العابرة والصلاحية للصحبة والعشرة . ولـكن ربما زادت بالفعل مشاكله الانفعالية كلما كبرت سنه . على أنه إذا كان فى الحين نفسه نزاعاً إلى الخجل فربما أحس بشعور الارتياح لذلك التعادل التطورى الذى أخذ يقويه الآن ضد صدمات المستقبل .

ومع أن ابن العـاشرة من خصائصه المميزة أن يكون راضيا وذا حالات عابرة فى مسلـكه وتصرفاته ، فإنه ليس بأى حال إنسانا لا يأبه بالمسئوليات الخلقية . وهو أقرب

أن يتناول المسائل المتعلقة بالضمير بصورة ملموسة ؛ وهو أكثر تنبها إلى ما هو خطأ منه إلى ماهو صواب — فهو يعترض اعتراضا جديا على الغش ويستمسك بوجوب إيجاد القوانين الصارمة ضد عدم الأمانة . وربما كان مقتنعا بآراء قوية تتعلق بالسباب وشرب الخمر . وهو ينزع فى حله لمسائله الخلقية إلى الإذعان لأمه ، وذلك لأن ضميره لم يبلغ بعد من صلابة العود ما يؤهله لتولى ذلك بنفسه . ومع ذلك فإن ضميره ينمو فعلا ، وذلك لأنه سيرهق أمه بالأسئلة الاستكشافية والاختبارات لكى يستقرىء فى عقله ويستكشف ما إذا كان شىء صوابا أو خطأ وما درجة الخطأ .

ولابد من تغذية الضمير بالمعلومات لكى ينمو ، وذلك لأنه فى حالة عدم نضج نسبى . ومن هنا جاء انشغال ابن العاشرة بالخطأ كنقيض للصواب . وكثيرا ما يسير التطور من السلبى إلى الإيجابى مع وضع التشديد الأول على السلبى . ومن هنا أيضا جاء ميله القوى إلى التنصل وإلى إلقاء اللوم على أخ له فى حالة الخطأ . وهو فى العادة صادق فى المسائل الكبيرة ، وأقل صدقا فى المسائل الصغيرة . فهو يعلن أنه يمقت مقتا خاصا الحرب والشيوعية ، وكلها أمور تنبىء أن ضميره سينطوى فى الوقت المناسب على المسائل العامة والخاصة معا . وفضلا عن ذلك فإنه يعيش تماما وتلقائيا فى الزمان والمكان الحاضر « هنا والآن » ، حتى لم يعد لديه إلا أعباء قليلة يلقيها على الضمير .

وهو يجنح لأسباب مماثلة لهذه أن يكون واقعيا فى أفكاره واتجاهاته الفلسفية المتصلة بالزمان والمكان والموت والآله . وتفكيره محسوس كما أن أفكاره ساكنة (استاتيكية) أو تكاد . وحاسته الزمنية هى فى معظم الأمر إحساس بالأوقات كما تسجلها عقارب الساعة . « الفضاء مكان لوضع البيوت عليه » . وهو يظهر قدرة متزايدة على التصرف فى الوقت فى شئونه اليومية . والزمن الآن أقل سوقا ومطاردة له . ويساعد تعلقه بالبيت والمنطقة المجاورة على الاحتفاظ به داخل حدود معينة ناحية المكان . والحق أن « ذهابه إلى وسط المدينة بمفرده » لمقابلة أمه بناء على موعد سابق — ينطوى لديه على شىء من المغامرة . وهو يستمتع بضرب من الشعور بالنجاح فى غزوه هذا للفضاء النفسى والجغرافى ، وإن لم يكن بعد قادرا على القيام بمهمة أكثر تعقيدا . وهو لايزال بحاجة إلى تحذيرات مشددة حول أخطار المرور فى الطريق .

ولما كان ابن العاشرة صريحا سمح النفس ، فإنه يكشف عن غير وعى منه عن أنماط نضجه بمسلكه وإشارته وطريقة حديثه وبما يقول . فهو يقرر : « أكون سعيداً إذا خرجت للعب بعد العشاء » . وهو يستمتع باللعب البسيط بالمنطقة المجاورة ؛ وذلك بعد أن يكون قد حصل على إذن والديه . وهو سعيد بقربه من البيت .

وإذا هو سئل أن يفاضل أو يختار بين بديلين ، هز كتفيه وقال : « أحيانا نعم وأحيانا لا » . — « قد يكون أحسن وقد يكون أسوأ » . وهو ليس مستبدا برأيه ولا محايداً . وهو يميل أن يكون متحرراً فى أحكامه . وهز الكتفين من خصائصه المميزة . وكأنى به يشير إلى أنه يستطيع أن يتصرف على الوجه الذى يريحه . وهو شىء لا ينطوى على التملص بل التسامح الذى طبع عليه . فإن الطفل ينفض عنه النقد بهزة كتف . وهذا أيضا تعبير عن مزاجه المألوف .

وإشاراته المتعددة والمحسوسة إلى معلمته وأصدقائه وإلى أمه خاصة تحدثنا بالشىء الكثير عن اتجاهاته نحو الناس . فهو ليس متمركزا حول نفسه . ومع ذلك فإنه فى المواقف الخلقية قد شرع يتنبه إلى الضمير . « إنى أطيع أمى ، ولكنى أشعر بنوع من المعرفة بما ينبغى فعله » . ولامراء أن هذا التفحص الذاتى سوف يعمق فى المستقبل القريب . فالسنة الحادية عشرة ستحمل معها أعراضا جديدة من التنبه الذاتى والتغلغل فى الذات وإبراز الذات .

وتتغير أنماط التنبه الذاتى ودرجاته من سنة لأخرى — وليس ذلك بطبيعة الحال فى مطابقة جامدة مع التقويم الزمنى بل طوعا لآليات النمو . ولن نستطيع أن نقدر ماهية عملية النضج لدى الطفل والمراهق إلا بمقارنة التحولات الكلية الشاملة فى النفس المتطورة من سنة إلى سنة تالية . ومع أنه ليس هناك انتقال فجائى من عمر لآخر ، إلا أن كل سنة تنتج تغيراتها المشروعة فى سمات النضج واتجاهاته . وتتجلى طبيعة التغيرات ومنطقها عندما تقارن الأعمار المتجاورة بعضها ببعض .

ولنقارن الآن حالة نضج العاشرة بالتاسعة . فإن ابن العاشرة ليس فقط ابن تاسعة

مع زيادة فى الطول وبسطة فى الجسم ، بل هو أكثر تقدما من حيث ديناميكيات وتنظيم جهازه الحركى الكلى . ومصور النضج يلخص التغيرات الناتجة عن ذلك التقدم فى خصائص سلوكه . ذلك أنه كان عند مستوى التاسعة ميالا إلى الحدة بينما هو الآن وهوفى العاشرة متراخ؛ كان يسعى ويكدح جاهدا بينما هو الآن ارتجالى بشكل مدهش . وقد حل الاتزان الذى يحمل فى طياته عدم المبالاة والاطمئنان إلى الذات محل الجدية السابقة والاهتمام الذاتى إلى اكتساب المهارة . وهو فى العاشرة أقل توجها وضيقا وأقل انشغال بال وأقل معاودة وتكرارا لأعماله وتصرفاته . وهو بدلا من ذلك أكثر سهولة ويسرا ، وأكثر ميلا إلى الانتقاء والاختيار مع ميول متعددة ومتنوعة وخاصة مقترنة بتحرر وشمول فى الأذواق . وهو يبدو فى الوقت الحاضر أقل طموحا .

وهو اليوم كما كان فى التاسعة غالبا ما ينغمس فى ألوان من تقييم الذات وفى أضرب من النقد الذاتى بل حتى المنافسة الذاتية يختلف مدى تحكيمه للضمير فيها . أما الآن وهو فى العاشرة فإن جوه الانفعالى الشخصى والمتبادل مع الناس قد تغير بعض الشىء . فهو غير خجول نسبيا . ولعله الآن أحب إلى من يكبرونه منه أثناء أطوار عمره وهو التاسعة — أجل هو أحب إليهم ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون أكثر جدارة واستحقاقا .

وهنا نحب أن نؤكد أن سمات النضج التطورية التى تنسب إلى التاسعة ليست سمات تنتقص من قدره ولاهى بالضرورة مضرة ما لم توجد بدرجة مبالغ فيها . بل على العكس ، إذ قد يكون لها وظيفة جوهرية فى ديناميكيات التطور . فالثقافة القادرة على التميز ستحسن استخدام الصفات الطبيعية لابن التاسعة . فان ابن العاشرة كان لابد له أن يمر بسن التاسعة قبل العاشرة . وكانت منطقة السنوات التسع هى الفترة العمرية التى يجب التنبه لها فى التوجيه الدقيق للفرد . ثم يجىء الاتزان فيما بعد ، وذلك لأنه على الدوام قوة مضادة . وكيف يمكن للمرء أن يكون غير خجول دون أن يكون أيضاً قادراً على الخجل والاستحياء ؟ فالاتزان والضبط (التحكم) يتضمنان معنى التعديل الميول المتعارضة . والقوى الكامنة التطورية تجىء أزواجا من النقائض تنسج باطراد فى نسيج من التوازن المتبادل . ويظهر مع السنة الحادية عشرة متعارضات جديدة تحتاج بدورها إلى اختبارات جديدة من جانب الطفل والثقافة .

سمـــات النضج

١ — جهاز الحركة الكلى

أخـــذت مظاهر التوتر فى سن التاسعة تخلى مكانها فى العاشرة لتركيب أكثر ليونة واسترخاء. وهذا شىء يعبر عنه السلك العام لابن العاشرة كما تدل عليه التغيرات الحادثة فى تكوين جسمه . فهو يواجه المواقف بجرأة مع الأخلاص ودون أى ارتباك. وهو لا يخاف توجيه الأسئلة رغبة منه فى وضع نفسه فى طريق الصواب . وهو مستعد لبذل الجهود الطيبة بغير قلق مفرط .

وهو يتحلى بقدر معين من الاتزان عندما يعمل على منضدته أو يجلس فى كرسيه . وحركات رأسه ملحوظة واضحة ، وهو ينتقل من جنب لآخر إما بسبب نقله لنظرته الفاحصة أو على الراجح بسبب انتقاله من فكرة لأخرى .

وهو يفضل أن يكون نشيطا ، ولذا فالهواء الطلق هـو أحب ما يحبه . وأحب الأشياء لديه ألعاب العراء الحركية الخشنة وركوب دراجته . ولكنه ليس مفرطاً فى النشاط . فإن بنشاطه تجانسا ينطق مفصحا عن سلاسة كل ما يفعله .

الصحة

تتجه الصحة العامة الآن نحو الجودة أو التحسن عما كانت عليه قبلا . فمنهم من يستمتعون بصحة جيدة جداً أو ممتـــازة ويظهر شىء من التحسن القاطع فى الأطفال المصابين بالربو أو حمى الربيع . وهنا تقل أو تختفى تماما كثير من الشكايات البدنية الكثيرة الانتشار فى التاسعة (كآلام المعدة والصداع المصحوب بالغثيان والدوار وآلام الأرجل) . ومع أن بعض هذه الاحساسات قـد تدوم ، فإن دافع الخروج للعب يتغلب على ما يحتمه المرض من اعتكاف . وقد يصاب قليل من الصبيان الذين يغلب عليهم تأخر النضج (وهو أمر أكثر شيوعا بين الذكور) بسعال طويل الأمد .

متنفسات التوتر

ربما حدثت زيادة فى النشاط الذاتى المتعلق « بالأصابع والفم » بما فى ذلك قضم الأظـافر أو العبث بالشعر ،

ولكن متنفسات التوتر تكون على وجه الإجمال أقل ظهوراً فى العاشرة مما كانت عليه فى التاسعة . وسحب الشفاه للداخل الذى كان منتشراً فى التاسعة كثيرا يصبح الآن أقل ظهورا ليحل محله فى القريب العاجل ميل أكبر إلى مط الشفاه أو زمها . فإذا كان مص الإبهام لا يزال موجودا — وهو أمر يحدث للصبيان أحيانا — فقد يبذل الولد نفسه جهدا حقيقيا لمحو هذه العادة . وربما تكون العادة قد أصبحت أوتوماتيكية بصورة تجعلها لا تحدث إلا أثناء النوم . وقد اخترع أحد من كانوا يشكون مص الإبهام طريقة لمقاومته هى ارتداء قفاز وتثبيته تماما بالدبابيس بكم بيجامته . وزيادة التململ والنط على قدم واحدة ، وعدم القرار لا تحدث عادة إلا فى منتصف السنة العاشرة ، وتكون عندئذ أكثر شيوعا بين البنات منها بين الصبيان .

الإبصار

• يحدثنا السلوك البصرى لابن العاشرة بالشىء الكثير عن طريقة أدائه وظائفه الباطنية . ويتقبل ابن العاشرة امتحانا بصريا يدوم ساعة أو أكثر ، دون أن يمسه تعب — ودون إدراك كبير لما يمر به . وقد يقال أنه يتعاون دون أن يكون متعاونا . وهو رضى البال من الناحية البصرية وقلما يشكو أعراضا مرضية يبصره (كالزغللة والازدواج ومسيل الدموع) ، وذلك مع أن الاختبارات تدل على أن غالبية أبناء العاشرة بعيدون بطريقة ما عن الإبصار النموذجى من الناحية النظرية . غير أن من الضرورى لنا دائما أن نفرق بين الأمراض الحقيقية وبين طور عابر من أطوار النمو (كثيرا ما يكون ضروريا) .

وابن العاشرة يجيد إلى أقصى حد آلية التحديق . فهو يستطيع أن يركز بصره فى أحد المواضع . ولعينيه طريقة للتجول حول غرفة أو منظر طبيعى ، ملتقطا ببصره هذا أو ذاك من الأشياء بيد أن سلوكه العام كثيرا ما يلوح أنه لا يرغب فى التغلغل ببصره فى الأشياء بعمق ولا فى تحديدها بدقة . ومن المحقق أن آلية تركيزه البؤرى البصرى تكشف عن عدم استعداده للقيام بهذه الخطوة التالية من التحديد والتغلغل ذلك أن آلية هيكله البدنى

أى آلية تثبيت البصر هى التى تتحكم ولكن جهازه الحشوى أى الخاص بالتركيز البؤرى متفكك (مرهرط) كالهلام . ولابد من انقضاء سنة أخرى حتى تأخذ آلية هذا الإحكام الشديد الدقيق حظها من النمو . فلا وجه للعجب إذا كان ابن العاشرة يبدو فى أثناء تفكيره أقدر على الاستظهار منه على إحراز الاستبصارات الشديدة . ولا عجب أنه يفضل الأوضاع القديمة المستقرة «وهنا والآن» ولا يريد أن يتقدم نحو آفاق جديدة . ولا يريد بوجه خاص أن يلبس نظارة . أجل إنه سيلبسها إذا اضطر ، ولكنه يفضل أن لا يلبسها .

وابن العاشرة أحسن إستعمالا لعينيه كلتيهما منه لعين واحدة . إذ أنه لا يملك ذلك التهذيب ولا التوجيه الذى يمنحه له نمط العين الواحدة المتمايز . كما أن آليته البصرية لا تسمح له بحرية الإسقاط البعيد المدى فى الفضاء . وربما كان لذلك أثر فى ميله إلى البقاء قريبا من البيت وإلى اللعب مع جماعة أبناء المنطقة المجاورة . وربما كان ذلك أيضا هو السبب فى احتياجه إلى مثير يدفعه إلى الحركة أو ركوب الدراجة والجرى فيقذف ذلك المثير جسمه إلى آفاق الفضاء فى الخارج ، بينما لا تستطيع آليته البصرية أن تقوم بذلك العمل وهو ما سيقدر لها أن تفعله وشيكا .

التطور البدنى والتنبيه الجنسى ـ البنات

البنات تظهرن عند تاريخ ميلادهن العاشر كأنما تعادلن الصبيان تقريباً فى الحجم والنضج الجنسى . ولكن غالبية البنات ستبدى ـ على العكس من الصبيان ـ أول وأبسط العلامات التى لاشك فيها والدالة على إقترابهن من المراهقة أثناء سنتهن العاشرة إلى الحادية عشرة . فى هذه السن تتعرض أجسامهن الطفلية

لليونة واستدارة طفيفة ، خاصة بمنطقة الأرداف . وتكتسى جميع منطقة الصدر بدثار ألين كما يحدث فى الحلمات غالبا بروز يسير . ويصبح الخصر أكثر تميزاً والأذرع أكثر استدارة وأقل إستواء فى شكلها العام . وحتى البنات الأكثر نحافة اللائى قد لا يبدو فيهن لين الجسد يحدث لهن إمتلاء بمنطقة الوجه يضفى عليه شكلا

بيضاويا أكثر وضوحا . وتلوح القسمات ولاسيما الذقن أقل قليلا فى الحدة والتدبيب وأبعد عن هيئة الشبح (العفريت)[١] الذى عرفت به فى سن التاسعة .

وقد أوشكت غالبية البنات على البدء فى نموهن الطولى الأكثر سرعة فى غضون هذه السنة ، ويبدأ شىء من شعر العانة الخفيف الزغبى فى الظهور عند عدد من البنات ، ولكن قل منهن جدا من يبدأ عليهن ظهور الحيض قبل الحادية عشرة .

والبنات أكثر من الصبيان تنبها للجنس بكثير ، وإن كن أقل تصريحاً به منهم ، وذلك يعود من ناحية إلى سرعة تطورهن الجنسى (والاجتماعى) والبنات أقل ميلا إلى القاء « النكات المكشوفة » التى تقوم على الإشارات إلى الجنس أو قضاء الضرورة ، فإنهن من التنبه بحيث أصبحن كتومات فى الحديث عن الجنس حتى مع أمهاتهن أنفسهن ومع ذلك فإن حب الاستطلاع قد يدفعهن للبحث عن علاقة آبائهن بأمهاتهن ، بحيث يسألن أسئلة تمس المسائل الشخصية وتكاد كقولهن هل فعل أبوهن « ذلك الفعل » حقاً بأمهن . والبنات لأكثر تنبها يرتبكن عندما يشير إليهن أخوتهن بأعينهم خفية ، أو عندما يرين آباءهن وهم يرتدون ثيابهم أو يخلعونها .

والبنات بين العاشرة والحادية عشرة شديدات التنبه جدا إلى تطور أثدائهن ، وربما انزعجن إذا لم يجدن أى شاهد على ذلك التطور . وكثيراً مايشكون من حرقان وتنميل بمنطقة الحلمة . وتشعر المتقدمات فى تطور الصدر بالارتباك وعدم التأكد من أنفسهن ولا يدرين إن كن يردن أن يرفعن اكتافهن إلى الخلف أو يتقبضن ليخفين ذلك البروز الجسمى المتغير .

والبنات أكثر من الصبيان تعرضا للارتباك حيال تلقى المعلومات عن الجنس . ويبدو على الكثيرات منهن نسيان المعلومات التى تلقينها فى سن أصغر — بيد أنهن عظيمات الاهتمام بالحصول على الكتب التى تبحث فى الجنس والأطفال . وهن

(١) يشير المؤلف هنا إلى أن الرسامين الغربيين يرسمون العفاريت بوجه بيضاوى مدبب الذقن حاد القسمات .

يجنحن إلى إخفاء تلك الكتب ، وإلى الاعتراف فيما بعد بأنهن قرأنها مرات كثيرة .

وتتلقى البنات معلوماتهن عن مسألة الحيض بطرق مختلفة . فبعضهن يمر بها مروراً عابراً . وبعضهن ينتظرنها مترقبات ويشرن إلى أنهن سيكن فخورات عندما يبلغهن الحيض . ولكن هناك أيضا من يذعرن لمجرد الفكرة ، ولا يتقبلنها إلا عندما يتحققن أنهن لا يستطعن أن يلدن الأطفال ما لم يحضن . وكثيرا ما تسأل البنات عن الفوط الصحية ، ويلاحظن أن الناس يبالغون فى إخفاء شأنها .

التطور البدنى والتنبه الجنسى — الصبيان

يكون طول الصبيان والبنات متماثلا متعادلا ، ولكن سرعة نمو الصبيان أقل . ولا يظهر على الصبيان تغير كثير فى الحالة البدنية . ولكن البحث الدقيق والمقارنة بالطفل نفسه وهو فى التاسعة يكشفان عن ظهور تغيرات مستترة بكل صبى فى العاشرة . فهيئة ابن العاشرة أكثر صلابة ؛ وإن لم يظهر ذلك بالضرورة على وزن جسمه . وتحدث فى الأشكال العامة للبدن استدارة طفيفة وليونة ، وخاصة حول الذقن والعنق وبمنطقة الصدر ولا تبدو أية آثار ظاهرة للنضج الجنسى فى هذه السن إلا فى نسبة ضئيلة جدا من الصبيان

وليس التنبه الجنسى لدى صبى العاشرة بمتقدم كثيرا عن نضجه الجسمانى . فهو قليل الأسئلة جداً ، وإذا سأل كان سؤاله مرتجلا غير متعمل وكان استفساره فى الغالب فى وقت غير مناسب . ومع أن المعلومات المتعلقة بالجنس تؤخذ بشكل عرضى جدا ، فإن معظم الصبيان يميلون لقراءة الكتب ذات الأسلوب السهل التى تصف ابتداء الطفل ونموه ومولده .

وكثير من الصبيان يعرفون آنفا أشياء عن الاختلاط الجنسى ، كما أن عددا كبيرا منهم يصلون إلى العلم به أثناء سنتهم العاشرة . وهم يهتمون بدور الأب ، ويدركون أن فى الإمكان أن يصبحوا هم أيضا آباء فى يوم ما . وهم يشيرون إشارة عابرة إلى أطفالهم فى المستقبل ، ذاكرين ماذا يرغبون أن يحدثوهم به أو يدخروا لهم .

وقل من الصبيان من هو شديد التنبه الذاتى والاستحياء . وهؤلاء هم الصبيان الذين يفضلون إغلاق الباب عندما يأخذون حماما . فهم لا يميلون بعد أن يرتدوا ثيابهم أمام أم أو أخت ، ولكن حب الاستطلاع يحملهم على التجسس على أخواتهم كلما أمكنهم ذلك. وغالبا مايكون هؤلاء هم الصبيان الذين يلتقطون الألفاظ النابية والاشارات المقتضبة المشيرة إلى الجنس أو قضاء الضرورة . وهم يبادرون إلى التقاطها ممن هم أكبر منهم من الصبيان وإلى اكتشافها على حوائط حمامات (مراحيض) المدرسة . ومع ذلك فالصبيان الذين يستعملون هذه الكلمات كثيرا مايفعلون ذلك دون معرفة معناها، وقد ينزعجون كل الانزعاج عندما يعلمون بكنه مايقولون. فإن قدرتهم على الاستظهار تجعلهم يسارعون إلى اختزان الهراء من الأسجاع ، التى كثيرا جدا ما تنطوى على ما يتعلق بالجنس أو قضاء الضرورة. ويأخذ الأولاد الأكثر معرفة فى التفريق بين ما يمكن ذكره منها أمام الأمهات أو السيدات عامة ، وما لا يمكن ذكره.

وهناك قلة من هؤلاء تظهر كلفاً قويا بإحدى البنات. وقد ترغب هذه الأزواج النادرة فى التماسك بالأيدى أو تبادل رسائل المحبة ، ولكنهم يضطربون فى العادة إذا لمح الناس إلى « الصديق » أو « الصديقة » . إذ الظاهر أن معظم أبناء العاشرة يشعرون أن مثل هذه العلاقات إنما فرضت لمن هم من أعمار أصغر أو أكبر منهم .

٢ — العناية بالذات ونهج الحياة اليومية

الأكل

الشهية: يدرك حتى أقل صبيان العاشرة أكلا أنهم يأكلون الآن أكثر مما اعتادوا وبعضهم تتراوح عنده الشهية من «جيدة جدا» إلى «غير جيدة كما ينبغى». ولكن غيرهم تختلف شهيته باختلاف أنواع الطعام الذى يقدم إليه : فهناك مثلا شهية عظيمة للفتيك وشهية ضعيفة للسمك . والصفات التى تستخدم لوصف شهية العاشرة هى «كبيرة» و«هائلة» و«مفرطة الجودة» ويستطيع كثير من أبناء العاشرة تناول الطعام فى أى وقت من النهار، وقلما فقدوا شهيتهم إلى العشاء بسبب أخذهم وجبة خفيفة

بعد المدرسة . وإن مجرد ذكر الطعام لينتج استجابة قوية إليه أو ضده. وقليل من أبناء العاشرة وخاصة البنات ضعيفو الشهية إلى الافطار، ولكنهم قد يعوضونه بوجبة خفيفة عند النوم . وتزداد الشهية أثناء النهار ، وكم من عاشر يحب أن يعرف مقدماً ماذا سيأكل فى العشاء .

مايفضلونه من الطعام ومايكرهونه :

يحب ابن العاشرة من الأطعمة أكثر مما يكره ، بل الواقع أنه ربما أحب كل شيء تقريبا . فإن عينيه تلتمعان وهو يتحدث عن أطعمته المفضلة بقوله : «إنى أحب .... » . وبعضهم ليس لهم فقط أطعمة مفضلة بل وجبات مفضلة . فإن اللحوم (كالبفتيك) والشواء وكفتة اللحم والسجق تتصدر قائمة طعامه المفضل ، ويليها مباشرة البطاطس سواء منه المطهى بالفرن أو المهروس أو المقلى بالطريقة الفرنسية يعتبر من صميم ما يأكله ابن العاشرة. وهناك خضروات مطبوخة خاصة كالبسلة تلقى التفضيل . وقد نفضل أكثر من ذلك الخضروات النيئة كالجزر والكرفس والطماطم . وهنا يأخذ قليل من أبناء العاشرة فى التحول نحو اذواق البالغين أى نحو سرطان البحر[1] وغيره من الأطعمة البحرية . وهم متنبهون إلى أن أذواقهم أصبحت كبيرة النفقة حتى لقد يقلق بعضهم من جراء ذلك .

وأحب أنواع الحلو لديهم هو الكعك والفطائر والمثلجات. وهناك من يتلهفون على الحلوى والحلو ، وهناك آخرون لا يكادون يمسون الحلو. فأما من يتلهفون على الحلوى فهم لا يتورعون عن أن يشحذوها أو يستلفوها أو يسرقوها . والعاشرة هى السن التى يستشهد فيها الطفل على ما اشتراه من الحلوى بواسطة أوراق لف الحلوى التى يحشو بها جيوبه.

وهم يعبرون عن رفضهم للأطعمة المكروهة بصورة مسرحية بقولهم: «إنى أكره وكنى... » أو بحركة قوية الدلالة هى التظاهر بالقيء .ومع أن ابن العاشرة قابل للتكيف ومستعد لتجربة أشياء جديدة ، فإنه حاسم جدا فيما يرفض رفضا حقيقيا . فالكبدة والبصل والسمك على رأس قائمة أطعمته المكروهة ، وإن لم تنبذ النبذ القاطع الذى يلقاه الهليون (كشك ألماظ) والسبانخ بل حتى الطماطم المطبوخة. وقد أصبحت صلصة تحمير اللحم

---

(١) وهو ضرب من الحيوانات البحرية القشرية يشبه الجمبرى الضخم .

(gravy) مقبولة الآن بل حتى محبوبة ، ولكن الأشياء « المخلطة كالخضر المسلوقة باللحم » (stew) لا تزال بعيدة عن منزلة القبول لدى ابن العاشرة .

الوجبات الخفيفة : تستمرئ غالبية أبناء العاشرة الأكل بين الوجبات . فتفضل الفطائر والخبز بالزبد والفاكهة مع شراب الصودا أو الكوكا كولا . واللبن يشربه القليلون .

السلوك على المائدة : تقل الشكوى كثيرا حول آداب ابن العاشرة على المائدة . فهى كما قرر أحدهم . « لا أستطيع أن أقول إنها رديئة ولا أن أقول إنها حسنة . » وأهم الشكاوى وأخصها تدور حول سوء الوضع الجسمى ، كأن تكون المرفقان مرتكزتين على المنضدة وأن تمسك الشوكة بيد متقبضة عليها . والوضع الأخير أكثر شيوعا بين الصبيان ويعطيك فكرة عن جميع الأيدى والأذرع . ولديهم ميل إلى الإغارة على الجار بمرفق مرفوع وقد تنسى الفوطة مؤقتا ، ولكن فى الإمكان إعادتها إلى الذاكرة برقة بواسطة العاشر المخطىء نفسه مصحوبة بعبارة غامضة خفية يستتر وراءها كقوله . « الملعقة تمطر أكلا !! » ومن أسباب نقص الحديث عن آداب المائدة أن ابن العاشرة قد أظهر أن مستوى سلوكه ارتفع إلى مرتبة صالحة خارج المنزل أو عند استقبال الضيوف فيه . وبذلك يكون قد بلغ هدفا يخول له الحق فى شيء من التساهل حين تكون العائلة بمفردها .

النوم

موعد النوم : لم يتنبه ابن العاشرة بعد إلى الوقت الذى يكون فيه متعبا ومستعداً للنوم . فهو لا يزال بحاجة إلى التذكير . وكما هو شأن ابن العاشرة دائما — تكون استجابته لذلك التذكير شاملة ؛ ولكن فى الإمكان استبدال ذلك ببدائل أخرى . « فى معظم الأحوال أذهب لفراشى على أحسن وجه ، وأحيانا لا » — أو « إن كنت متعبا ذهبت للفراش فورا وإن لم أكن متعبا تلكأت » وعلى وجه العموم يكون وقت النوم من الثامنة إلى التاسعة والأغلبية تنام فى الثامنة والنصف .

والصبيان يذهبون إلى فراشهم بسهولة أكثر من البنات ويستغرقون فى النوم بسرعة أكثر منهن . على أنهم مع ذلك أكثر تدقيقا وتمسكا بما ألفوا من عادات فى الاستعداد للنوم ، وكثيرا

مايحبون أن تدخلهم أمهاتهم فى الفراش. والأغلب أن تجد البنات صعوبة فى الاستغراق فى النوم. فمن مظاهر النشاط الشائعة قبل النوم عندهن، الإصغاء إلى برنامج الاذاعة والقراءة أو حتى مجرد الاستلقاء واليقظة مع إطلاق العنان للتفكير. وليست أفكارهن آنئذ أفكاراً سارة تماما، وإن أخذت قلة منهن تسرح بأخيلتها فى حياة ملؤها البطولة والنجاح. ومعظمهن يكن مستغرقات تماما فى النوم عند التاسعة والنصف، مع أن نوم الصبيان أبكر من ذلك ونوم بعض البنات بعد ذلك.

وعلى الجملة ينام ابن العاشرة الليل كله. إذ أن لديه حاسة النوم الجيد. ويأخذ فى هذا الوقت فى تقصير مدة نومه إلى عشر ساعات ونصف أو تسع ونصف، وذلك مع نوم الصبيان أكثر من البنات.

النوم : لايزال ابن العاشيرة يتعرض للكابوس وإن ظهر انخفاض ملحوظ فى عددها، أو لم يعد يراها أبداً. والواقع أنه يروى من الأحلام السارة قدر ما يروى من الكريه منها. وغالبا ما يتعادل النوعان، «هى أحيانا طيبة وأحيانا أخرى رديئة» وهو يلاحظ أن الرديئة منها تلم به بالأكثر عند اصابته بالبرد، أو بعد عملية جراحية، أو عندما تخيفه أشياء قرأها أو رآها. وكثيرا ما تذكره الأحلام الطيبة بالحياة الحقيقية، كأنما هو موجود فيها حقا يقوم بأعمال حبيبة إلى نفسه.

الصباح : ليس الاستيقاظ أو القيام من النوم بالأمر العسير لدى ابن العاشرة عادة. بل إن الكثيرين منهم قد يكونون من المبكرين فى الاستيقاظ وخاصة الصبيان. والسابعة صباحا هى ساعة استيقاظ الشائعة. ويستطيع ابن العاشرة أن يتولى بنفسه شئونه الخاصة — كارتداء الثياب وإخراج الكلب وعمل إفطاره — بقدر من التذكير أقل كثيرا من الذى احتاجه للذهاب إلى فراشه. وبعض البنات وهن فى العادة نفس من قاومن الذهاب إلى الفراش من قبل، قد يقاومن النهوض منه. فهن يتأخرن فى النوم وربما احتجن أن يسحبن من الفراش سحباً.

الاستحمام والعناية بالشعر.

يأبى سن العاشرة أن يأتلف بتاتا

مع الماء والصابون . فان ابن العاشرة اللطيف المتعاون في غير هذا من الشئون يقف صامدا كالجلمود اذا انطوت المسألة على أخذ حمام . ذلك أنه يكره الماء كرهاً إيجابيا ، وخاصة اذا وضع على الوجه لأغراض النظافة . بل لقد يبلغ به الأمر أن يعد النظافة شيئا مزعجاً ، وربما ازدرى صديقا نظيف اليدين أو عيره بذلك ساخرا .

على أن هناك مع ذلك من أبناء العاشرة من بنين وبنات — وإن كانو قلة — من هم نظيفون مدققون دائما . وهناك أيضا من يميلون الى تكرار تصرفاتهم والمحافظة على أنماط مناشطهم بحيث لا يتصورون أن يمر عليهم يوم دون أن يأخذوا حماما .

(فاحذروا هؤلاء الأطفال أنفسهم ! فإنهم عرضة عندما يتحررون في النهاية من العادة أن يتحرروا منها تماما .) وهناك آخرون يبدو عليهم في هذا الوقت من الدلائل ما يدل على أن النظافة لديهم ستصبح في المستقبل ذات أهمية اجتماعية. وربما ألمت بهم نوبة من الاهتمام بالاغتسال واذا بهم ينقلبون بعد ذلك إلى كراهية ومقاومة للاستحمام لم تعرف عنهم من قبل .

فإذا اعترف الآباء بكراهية ابن العاشرة للاغتسال ، فربما أمكنهم أن يبادروا إلى اتخاذ إجراءات مناسبة . إذ أنهم سيعلمون أن ابن العاشرة يحتاج إلى تذكيره بالاستحمام بل ربما وجب أن يساق إلى الحمام ، وأن ملء (البانيو) وتنظيفه ربما كان من واجباتهم لا واجبه هو . وقد يقبل ابن العاشرة أحيانا عمل جدول وخطة لاستحمامه إذا لم يتعارض ذلك مع نواحي نشاطه الأخرى ، ولاسيما برامج الإذاعة أو التلفزة الخاصة به . وإذا هو ترك وشأنه لراوغ لمدة ثلاثة أو أربعة أسابيع دون أن يفكر قط في الاستحمام . وإذا راعينا عدم قدرة العاشر على معرفة الوقت الذي يحتاج فيه أو يعترف بحاجته إلى حمام ، وجب على الآباء أن يدرسوا حكمة العودة إلى نظام حمام ليل السبت أو ينتهوا إلى خطة تقوم على الاستحمام مرتين أسبوعياً . ومع أن ابن العاشرة يقاوم بشدة إلى هذا الحد ، إلا أنه يستمتع بحمامه بمجرد دخوله فيه ، وربما ظل يلعب في (البانيو) ساعة كاملة .

وهو يفضل حمام (البانيو) على حمام الدش وإن كان (الدش) غالبا ما يسهل على البنات عملية غسل الشعر الأسبوعية ، إذ يحتجن إلى أعظم قدر من المساعدة فى تنظيف شعورهن .

أما من حيث العناية بالذات فى نواح أخرى — كتمشيط الشعر ودلك الأسنان بالفرشة والعناية بالأظافر — فهذه كلها أمور لا يوجه إليها ابن العاشرة عناية كبيرة . وربما كان الشعر القصير غير المستديم التثبيت[1] Unpermanented وسيلة لحل مشكلة البنت . وربما كان مضغ الجزر والكرفس هاما فى العناية بالاسنان أهمية الدلك بالفرشة. أما الذين لا يحلون مشكلة أظافرهم بقضمها ، فسيضطرون إلى الاستسلام لعملية تقليم أظافرهم بيد أحد الوالدين بعد الحمـــام الأسبوعى .

الثياب والعناية بالغرفة

أخذ اختيار الثياب وخاصة الثياب اليومية يدخل دائرة اهتمام معظم أبناء العاشرة . ولا يزال قليل من الأمهات من يخترن للطفل ملابسه ، فإذا لم يستحسن ابن العاشرة ما اختارته له أمه غير ذلك. وابن العاشرة — وإن كان لا بأس بقدرته على الاختيار ، فإنه ربما لا يضع فى حسبانه أثناء الاختيار القدر الكافى من الاهتمام بالجو أو بنظافة الثوب . فهو عرضة أن يرتدى نفس البدلة أياما كثيرة متعاقبة . ولذا وجبت مراجعته ، ومن حسن الحظ أنه يستجيب للاقتراحات استجـــابة لا بأس بها .

ويتسلط عليه حب الملابس القديمة ، كما أن الملابس المتأنقة قد يبلغ من كره ابن العاشرة لها أنه ربما رفض الذهاب إلى مدرسة الأحد لأنه (ويالأسفه) قد ألزم أن يرتدى قميصا أبيض !

ولا يريد ابن العاشرة أن يسترعى إليه الالتفات لا بالثياب المتأنقة ولا بالألوان الزاهية. واللونان الأزرق والأصفر يغلب أن يقع عليهما اختيار الجنسين كليهما مفضلين إياهما على الألوان الزاهية .

---

(١) غير المستديم التثبيت Unpermanented — وتثبيت الشعر بالمكواه أمر معروف لدى حلاق السيدات .

وبعض أبناء العاشرة يبلغ من شدة كرههم للثياب الجديدة أن لا يرتدونها أبدا . وتبلغنا الأمهات آسفات أن . « الثياب الجديدة ترد دون أن تلبس » . على أن دولاباً مملوءاً بملابس قابلة للتوسيع فى التاسعة ربما حل مشكلة كراهية الثياب الجديدة فى العاشرة .

والعناية بالملابس الآن ضئيلة ضآلة محزنة . فإن الملابس الخارجية ترمى وتقذف هنا وهناك . فالحال كما تقرر إحدى البنات : « نحن نطوح أشياءنا فى أى مكان » ثم تستطرد فتقول بروح تعاون أبناء العاشرة : « ولكنا نضطر إلى تعليقها بنظام فيما بعد » . وقد أجمع الوالدون تقريبا على قولهم أنه : « يرمى ثيابه حيث يخلعها بالضبط » . ترى — هل تكون هذه الحال جزءا من نزعة ابن العاشرة إلى التركيز البؤرى فى مكانه الراهن ، تلك النزعة التى لم تخلق فيه بعد تنبها إلى الأثر الذى يتركه بنفوس الآخرين ؟ فهل خلة « اللطافة » فيه مرتبطة أيضا بسلوكه الذاتى والتركز البؤرى ؟ ذلك هو ما قد يدور بخلدنا ونحن نجمع ما أسقط من ثياب وبذلك نقلل ما عقدنا عليه من آمال كبار وما نطالبه به من مطالب لا ثمرة لها . وربما مرت بالطفل فيما بعد / لحالة تلقائية من حب الترتيب والنظافة . وإلى أن يحين أوان ذلك ، ربما جاز لنا أن نسد الثغرة مؤقتا باستخدام كرسى واحد فقط ليكون مستودعا لثيابه ، بالإضافة إلى تنظيف غرفته تنظيفا أسبوعيا للتحقق من القيام ببداية دورية جديدة .

شراء الثياب. يشرع ابن العاشرة فى الاشتراك فى انتقاء وشراء الثياب الجديدة. والبنات أكثر من الصبيان استمتاعا بالخروج إلى السوق وشراء الحاجيات مع أمهاتهن . والصبيان أكثر استعداداً لكراهية ارتداء الثياب الجديدة وقياسها عليهم . وسواء أذهب الطفل إلى المتجر مع أمه أم لم يذهب ، فإنها بحاجة إلى الاستعانة بذوقه هو . ولا تحدث هناك خلافات خطيرة فى هذا الشأن كما أن فى الامكان الوصول عادة إلى نوع من التفاهم. ومع ذلك فالأم لها حق الفصل النهائى فى الأمر .

والجزء الوحيد من الملبوسات الذى يرغب الطفل أن يستأثر فيه بحريته الكاملة فى الاختيار هو حذاؤه . ومع

أنه قد لا يخرج إلى المتاجر إلا لتلك الغاية، فإنه يريد أن ينتقي حذاءه بغاية العناية .

والعادة أن الثياب الجاهزة لا ينظر إليها بازدراء ؛ بل الواقع أن الطفل قد يعتز بها لأنها تبعث فيه ذلك الاحساس الشائع بأنها تلائمه . والبنات يفضلن أن تصنع لهن أمهاتهن ثيابهن ويشعرن بالفخر بقدرة الأم وكفايتها .

العناية بالغرفة : أعتقد أنه لا يجوز لنا ونحن نرى اهتمام ابن العاشرة بكل قديم ومستعمل وعرضى من الثياب ، أن نتوقع منه أن يعيش فى نظام مفرط بغرفته. فإنه هو نفسه يقول : «إن غرفتى مشوشة (ملخبطة) . ولو أنها كانت منظمة لما أمكننى أن أعرف مكان أى شىء . فإن الكتب جميعا مكومة فوق أعالى الأشياء. وأحس وهى بحالتها هذه أنها أقرب إلى نفسى وإلى الوضع الطبيعى» ولكن سيجىء ذلك الوقت الذى لا مفر منه والذى سيقضى فيه التشويش (اللخبطة) على نفسه بنفسه حين يشتد ويصبح مفرطا وحين لا تبقى هناك من وسيلة لإمكان العيش من جديد فى إحدى الغرف إلا انبجاس نوبة فجائية من النظافة والترتيب فتتناوب على الغرفة نوبات اللخبطة والترتيب

ولكن ابن العاشرة لا يجد البتة أماكن تكفى لحفظ كنوزه جميعا أو اختزان مالا فائدة فيه من الفضلات والنفايات .

وابن العاشرة بحاجة إلى غرفة خاصة له يستطيع فيها أن يتفاهم مع ما يسودها من عدم نظام ، ويحرز إحساساً بالذات أو فى وأكمل عن طريق ممتلكاته المنتقاة انتقاء خاصاً والملابسات المألوفة لديه . وسترونه يخلق النظام فى إبانه، وسينبذ عن نفسه الأوضار ؛ وسيتوسع منساحا فى طرائق جديدة. فإن أعلام السفن والرايات أو الصور (صور أبطال كرة القدم وكرة القاعدة (baseball) لدى الصبيان والخيل لدى البنات تأخذ فى تزيين الجدران ، والطفل لم يتجاوز العاشرة بعد .وربما ترك السرير دون تسوية فى حين يوضع علم السفينة بدقة تامة على زاويته المضبوطة تماما

النقـــود :

قد تجاوز ابن العاشرة فى المعتاد حالة الولع بالمال التى كثيراً ما تعتريه فى الثامنة والتاسعة. وهو ينفق من نقوده قدراً أقل على الكتب الهزلية: وهى التى كانت غرامه المتوقد فى التاسعة . ولا يزال اهتمامه بالمال حتى الآن فى المرحلة الإبتدائية الهزيلة .

إذا استطاع الآباء أن يرجعوا بذاكرتهم إلى استجابة ابن العاشرة للمال بعد أن يتقدم ذلك العاشر فى مدارج المراهقة التالية ، فربما أدركوا حتى فى هذه السن الباكرة جداً دلالة واضحة على فرديته فى إحساسه بالمال . فإن فى قناعة أحد العواشر راضيا بمصروف قدره ١٥ سنتا ، بينما يستطيع آخر أن يتصرف فى دولار وربع ، — لأمراً يدل على مدى تفاوت الاختلاف الفردى من حيث الاهتمام بالنقود .

ويكون مقدار مصروف الطفل مرتبطا فى أى سن بحاسته النقدية . والعادة أنه فى العاشرة يحتاج إلى أكثر من ٢٥ سنتا ، ويندر أن يصل إلى حد المطالبة بخمسين سنتا . وتقف المطالب فى كثير من العائلات عند رقم ٣٥ سنتا . وأحيانا يعلق رفع المصروف على تنفيذ الأعمال بنجاح أو على إتمام التنظيف الأسبوعى للغرفة فعلا .

وبعض أبناء العاشرة لا يقتصدون شيئاً . وبعضهم الآخر يدخر كل شىء . وربما تراوح الهدف المقصود من الادخار بين شراء الدراجة وبين رحلة إلى أوربا. ولذة الإحساس بامتلاك النقود دلالة تدل على الطفل الذى يرجى له أن يحسن التصرف فى المال .

والصرف يدل بالمثل على تفاوت بعيد فإن كثيراً من العواشر يبددون مصروفهم فى أشياء لا قيمة لها يشترونها لأنفسهم أو لغيرهم . وشهية ابن العاشرة أو حبه للحلوى تجذبه إلى دكان بائع الحلوى أو الفطائر . وهو يحب فعلا أن « يكرم جميع زملائه » . ولكن كرمه قد يتجلى فيه أيضاً عامل التدبر عندما يختار الهدايا للغير كما أنه لا ينسى البتة مسئولياته فى عيد الميلاد .

العمـــل

ليس ابن العاشرة بالفرد الذى تسميه عاملا . فانه يحس بدافع ضعيف نحو العمل . وهو إن تقاضى أجراً على عمل يعمله ، كتفريغ سلال المهملات ، فإن استجابته فى الأسبوع الأول قد تكون هائلة ، ولكن يحل بعد ذلك التراخى الذى لا مفر منه . ويستطيع ابن العاشرة أن يساعد فى أعمال كثيرة — كإعداد المدفأة واحراق الأوراق وقص النجيل وجرف الثلج ومجالسة الأطفال بالمنزل —

ولـكن ليس لديه إحساس بالرغبة فى مواصلة أى عمل . وهو فى بعض الأيام يحسن عمـــلا ما ، وفى بعضها الآخر لا يحسنه . فاذا تعرض ابن العاشرة للضغط والإلحاح فربما حجبت صفاته الطيبة بإحساسات التعب والاستياء . وينبغى للوالدين أن يكونوا مرنين تماما فى طلباتهم من ابن العاشرة وأن يدركوا أنه أجود ما يكون عملا عندما يعمل مع بالغ منسجم معه .

٣ – الانفعالات

يا لها من طائفة جمة من نعوت الثناء والاطراء تلك التى تتواثب إلى رؤوس أصدقاء ابن العاشرة أو والديه عندما يصفونه : ظريف وسعيد ومتساهل وغير خجول ومستقيم ومخلص ومتراخ وعشرى ومتزن ، وشديد اللطف ودود وصريح لا يخفى شيئا — وكلها صور تدل على سيرة واحدة .

والتغير من السنة التاسعة إلى العاشرة يخفى على كثير من الناس . فإنه يجىء بتدريج شديد بحيث لا يتيسر اكتشاف صفة العهد الحاضر إلا عن طريق استعراض الماضى . ولـكن يحدث أحيانا أن الانتقال إلى هذه المنطقة السارة يجىء فجأة . يقول الوالدون : « لقد انتزعت نفسها فجأة من براثن كثير من المصاعب ؛ كأنما انسلخت من طور إلى طور » — أو « إنه فى هذه السنة على الجانب السعيد . وكان على الجانب الآخر فى العام الماضى » وكأنما كان هناك تقريبا فارق حقيقى بين التاسعة والعاشرة ، وكأنما ابن العاشرة قد بلغ أولى درجات مرتقى منطقة جديدة للنمو : فى الدورة الكاملة الجديدة للنمو من العاشرة إلى السادسة عشرة . ولبعض أبناء العاشرة موقف مقلقل جدا بتلك المنطقة العمرية الجديدة ؛ ولعلهم يستعدون للدخول إليها ولـكنهم لا يدخلونها فعلا ، وقد دعا أحد الصبيان ربه أن يجعله طيبا ولطيفا ، ولـكن لم يكن بد من أن يمر وقت قبل أن يبلغ سؤله . وثمة آخر وجد موطئا لأصبع واحد بقدمه بأن قال « إنه آسف » لأول مرة فى حياته .

والحياة على الجملة رغدة طيبة لابن العاشرة ، بل يبلغ من طيبها أنه لا يضطر البتة إلى التفـكير فيها . وقد يبهت قليلا إذا سئل أسئلة من نوع خاص حول حالته الانفعاليـــة ، وكثيرا ما يجيب بأنه « لا يدرى » وأنه « لا يستطيع أن

يجيب » ، وأنه « لم يفكر قط فى ذلك » .
وغالبا ما يقيد أقواله أو يدخل فيها طائفة من الإمكانيات بقوله « حسنا ، ذلك على حسب الظروف » أو « أحيانا أفعل وأحيانا لا أفعل » ، وعلى الجملة فالحياة فى العاشرة أحسن منها قبلا ، وخاصة وأنه « يستطيع أن يقوم بأعمال أخرى كثيرة لم يكن يستطيع القيام بها قبلا » . فهو رجل أفعال أكثر منه رجل أفكار . والمناسبات البسيطة تبعث فيه عند سنوحها سعادة عظيمة . فان فترة لعب فى العراء بعد العشاء وعدم وجود أى واجب منزلى والقيام بزيارة لحديقة ملاهى ، كل واحدة من هذه تستثير فى ابن العاشرة شعورا بالسعادة والخفة . والحظ السعيد يسانده إلى حد كبير ، وإن أمكن أن تحل به أيام الحظ السىء بين حين وآخر ، ولكن « الأمر كله يتوقف على الظروف » .

والمخاوف الآن فى فترة نقص وتقلص . والمخاوف القديمة من الكلاب والظلام ربما ظهرت تباشير تبددها حين يصرح ابن العاشرة تلقائيا أنه لا يخافها . على أنه يعترف بصراحة أكثر أنه يخاف من الثعابين . وربما لا يحب بطبيعة الحال أن يلتقى بأسد فى الظلام ، أو أن ينفرد تماما فى قلعة قديمة — كما يقول . وهو يكاد يقلق قدر ما يخاف . فهناك دائما دروس وواجبات منزلية يقلق من أجلها فضلا عن الوصول إلى المدرسة فى الموعد . ولكن قلقه يكون بوجه الإجمال من نوع خاص وفرديا . فان صبيا قد يقلق على احتمال فقدانه محفظته فى يوم ما ؛ ويقلق آخر من أن لا يكون بسيارة العائلة ما يكفيها من الوقود .

ومما يدعو للعجب أن أكثر التعبيرات الانفعالية شيوعا هو الغضب . فإن ذلك العاشر الصغير القانع المتعاون اللطيف ينفجر فجأة غاضبا غضبا لا لبس فيه . وهو يسارع إلى توجيه اللكمات والرفس بل حتى العض . فإن كان أكثر ضبطا لشعوره أخذت مراجله تغلى شفويا ، وقد يبكى أو يذهب لغرفته صاخبا وهو فى حالة غاضبة من السباب والدق بالأقدام . بيد أن ابن العاشرة انتقائى فى طرائق تعبيره عن غضبه وهو نفسه يقول : « يختلف الوضع باختلاف من أغضب منه . فان غضبت من أختى ألقيت عليها قصاصات الورق وأربطة المطاط . وإن عاقبنى أحد والدى ولم أر عقوبته لى عادلة ،

اكتفى بالذهاب إلى الغرفة المجاورة وأغلى فى نفسى . أما فى المدرسة فأنت تأخذ العقوبة وكفى — وأحيانا أحس أن هناك ظلما بالمدرسة . وأتحدث فى ذلك مع صديقى » . وليس ابن العاشرة انتقائيا فقط فى تعبيراته عن الغضب ، بل وأيضاً فى الطرق التى يرد بها الاتزان إلى نفسه . وفى الإمكان إيجاد «تنفس لغضبه ولو عن طريق التحدث إلى كلبه ، أوتدبير انتقام منه لاينفذ أبداً . والشىء الذى يميز ابن العاشرة من غيره هو اتصافه بالحدة والحرارة . فإنه ينتهى أسرع من لمح البصر . وذلك لأن لديه طريقة ناجحة لإخراج الطاقة الزائدة .

ومع أن ابن العاشرة قد يبكى عندما يغضب ، فإنه يحس على الجملة أنه أكبر كثيرا من أن يفعل ذلك . وهو يقول بغير اهتمام وباستهانة أنه لايبكى إذا « جرح أو لم يسمح له بالذهاب إلى أحد الأمكنة » ، ولكنه ربما بكى أن مات أبوه . وإن نفس الأفراد الذين كانوا فيما سلف ينفجرون باكين « يضبطون أعصابهم الآن ويتحدثون بهدوء » . ومع أن الصبيان قد يبكون فى السنوات الأولى قدر ماتفعل البنات أو أكثر ، فإن زيادة ميل البنات إلى ذرف الدموع تصبح واضحة تماما فى سن العاشرة . وقد يكون الحزن من حين لآخر سبباً فى البكاء ، ولكن ذلك لايحدث دائماً . والغضب دافع أكثر احتمالا . وليس ابن العاشرة شديد الاهتمام بجرح إحساساته هو . وربما جرحت إحساساته ولكنه جرح غير عميق . فإذا هى جرحت ، فإن كثيرا منهم من الصغر بحيث لايسعهم إلا أن ينطلقوا إلى منازلهم باكين ولكن بعضهم يستطيع التظاهر بأن ذلك لم يحدث . ويعود ابن العاشرة إلى استقراره سريعاً . وربما أتاح وربما لم يتح لغيره من الناس أن يعلموا بما يحس ، ولكنه على العموم يميل إلى مداراة أية صعوبة تصادفه .

أما من حيث التعبير عن الغضب أو السعادة ، فإن لابن العاشرة انفجارات فجائية من المحبة نحو والديه ؛ وهى من نوع تلك التعبيرات البدنية البسيطة عن المحبة كالأحضان والقبلات . وهو يقول بشكل طبيعى جداً إنه يحب والديه أكثر من أى شىء فى العالم ، وهو يستطيع فى الغالب أن يتقبل طلباتهم أو اقتراحاتهم

بدون منازعة . وهو من السعادة والرضا بعائلته وداره بحيث يندر أن يرغب أن يتبدل نصيبه منهما مع غيره من الناس وإن كانت لهم أملاك أكثر مماله . ولكن ربما كان به توق إلى دراجة كدراجة أحد أصدقائه أو إلى راديو صديق آخر . وبعض الصبيان يحسد غيره من الصبيان على قوتهم .

ولعل أعظم مايواجه ابن العاشرة من صعوبات هو مايتصل بأخوته الصغار — وهى المشكلة الأبدية ، مشكلة المقارنة بين متقاربين . ولكن من حسن الحظ أن حياته الناشطة الكثيرة المشاغل تتيح له فرص الابتعاد عن إخوته وأخواته .

وثمة مشاعر تتناقض تناقضا ملحوظا مع إحساساته نحو إخوته الأصاغر ، هى مشاعره عن المنافسة مع أنداده وأترابه . ومع أنه يحب ما فى القتال من جذب وشد ، فإنه لايحب أن يكون الأحسن . فهو يشعر بالخجل إذا أفرد بالمديح دون الآخرين جميعاً وهو يفكر فى الطريقة التى « سيحس بها الأطفال الآخرون » ذلك الأمر وهو يبغى أن يذل قصاراه ، ويتمنى لو كان مجيداً كالآخرين جميعاً — على أن لايفوز عليهم .

وابن العاشرة المتوسط ليس ماهراً جداً فى الفكاهة المتازة . ولكنه يقظ للتوريات الممكنة ، ولديه رصيد محفوظ من « النكات الخشنة » . وأكثر مايضحكه يدخل فى دائرة نكات كذبة أبريل ، والغالب أن لايكون مضحكا للكبار . وهو ينقض انقضاضا (وذلك بثقل شديد أحيانا) على الكلمات التى يمكن أن يكون لها معنى مزدوج — كقوله : « إنث إسمك فرجينيا — إذا فلا بد أنك ولاية » . وإلقاء النكتة فن أدق من أن يستطيع ابن العاشرة غالباً أن يتقنه . فإنه قد يقول النقطة الأساسية فى النكتة أسرع مما يجب أوقد تفلت منه تلك النقطة ، وأسوأ من ذلك أنه ربما لم تكن فى نكتته أية نقطة . ومع ذلك فإنه يسأل والأمل ملء فؤاده ، « أفهمتها ؟ » . ولا بد لفكاهته من أن تتغير تغيراً عظيما قبل أن تجد التقدير من البالغ .

٤ - النفس النامية

بلغ ابن العاشرة تلك الحالة السعيدة التى يكون فيها المرء متأكداً من نفسه تأكداً عابراً ويكون راضيا فى قرارة نفسه ، فإنه

يستطيع أن يجول فى فلك متسع من الميول ، ومع ذلك ففى إمكانه أن يتركز على كل ميل يسنح له. وهو يستطيع أن يفكر مقدما فى الزواج على أعم صورة للتفكير: « إن الموضوع كله يتوقف على الحرب أو السلم » ، ومع ذلك يصر على توفر صفات من نوع خاص فى زوجته — «أريدها طباخة ماهرة» . ولديه ميول جمة متعددة . وهو واسع الحيلة دائماً أبداً . وهو يتنقل من نقطة اهتمام إلى تاليتها ، معطيا كلا منها كامل التفاته طوال الوقت الذى يستطيع أن يحتفظ بها فيه . وهو يحب أن يتم مهمة ما ولكنه لا يرغب أن يتوسع فيها أو يدخل فى التفاصيل .

وهو يفضل أن يملأ كل ما لديه من أرض بنباتات قصيرة الجذور . إذ ليس هذا أوان النماء العميق الجذور . بل هو زمن التوسع الرحيب ، والتجريب فى حقول الخبرات المنوعة وهو راغب أن يجرب كل شىء .

ويتحرك ابن العاشرة فى جنبات عالم الفكر الأكثر سرعة وحدة وسطحية. لا فى عالم الوجدانات الأكثر عمقا ، رغم أن لديه بالفعل إحساسا عاما بالإنشراح . وهو يقول بنفسه إن ذاته «هى طريقة تفكيرك الداخلى، لا ما تقوله» وهو ينسب هذه الأفكار لرأسه أو لمخه أو امقله ، وهى المواطن التى يشتد جنوحه للزعم بأنها هى موطن ذاته، ومع أنه متنبه لقلبه ، فإنه ليس بعد مستعدا للغوص فى أعماقه .

ولديه فكرة ما عن أحسن مميزاته وأخطائه على السواء ؟ فإن قدرات من نوع خاص كالقراءة أو التهجئة أو التزحلق على الثلج قد تعد فى نظره أعظم ميزة له وإن كانت حاسة العدالة لديه ومهارته فى الرياضة تتبوآن أسمى مقام فى عقل كثير من أبناء العاشرة . وهو يقص أخطاءه بصورة أخص وأضبط مما يقص مزاياه : كإخراجه لسانه وهو يتمرن على البيانو، وأنه ينسى دلك أسنانه بالفرشة ويلتقط قشرة الكعك السكرية ، أو أنه ينسى ويكتب ١٩٥٢ بينما هى ١٩٥٣ .

وهو على الإجمال سعيد فى نفسه ، سعيد بعمره وبوالديه وببيته . وخير الأوقات لدى معظم أبناء العاشرة هى « اللحظة الراهنة » : سن العاشرة ، « لأنك لست صغيرا جدا ولا كبيراً

جدا » . وربما ودت قلة غير راسخة القدم تماما فى هذه الفترة العمرية ، لو كانت أصغر كثيراً أو أكبر كثيراً . وكما هو الحال غالبا مع ابن العاشرة تكون أسباب الرغبة فى الرجوع لسن أصغر ذات نوع خاص جداً كقوله (« لأن ثياب الأطفال الصغار لطيفة وسارة ظريفة ») وكذلك الرغبة فى بلوغ سن أكبر كبقوله : (فعندئذ تستطيع أن تشترى أشياءك بنفسك) وقد فكر أحدأبناء العاشرة فى تجميع المدى الكامل للماضى والمستقبل دفعة واحدة : « خير أوقاتك هو الفترة من الرضاعة حتى السنة الثامنة ومن الحادية والعشرين إلى الثلاثين فأنت من سن سنة إلى الثامنة تكاد تستطيع أن تعمل كل ماتحب ، ولاتضطر أن تلتزم قواعدمقررة ومن الحادية والعشرين إلى الثلاثين تذهب حيث شئت وترى الدنيا وتمكث فى الخارج زمنا أطول ثم أنت لاتذهب إلى الجامعة، ثم أنت لاتضطر إلى العمل للحصول على نقودك حتى تقارب الثلاثين . وأنت ابن الحادية والعشرين والثلاثين تحصل على النقود من أمك » .

ورغبات ابن العاشرة شبيهة بسائر نواحيه واتجاهاته . فهو إما يفكر على أسس إجمالية عامة حول السلام العالمى أو الصحة الطيبة والسعادة ، أو يفكر تفكيراً مرتبطا بممتلكات مادية من نوع خاص كالدراجة أو الجرار . وربما استهوت كثيرا من أبناء العاشرة متع العيش بإحدى المزارع مع كلاب وخيول يملكها كلها وحده . ومن البنات اللواتى لم يتهيأ لهن البتة بلوغ هذه الحالة المرموقة من يستعن على تأجيلها بوضع خطة للزواج من أحد المزارعين . والرغبة فى إنجاب الأطفال أو العناية بهم هى أيضا من الرغبات القوية لدى البنات .

ولطالما سمع كثير من أبناء العاشرة وفكروا بما فيه الكفاية فى الحياة الجامعية ومستقبل الحياة العملية والزواج بحيث أوشكوا أن يكونوا فكرة محددة عما يختارونه . بيد أن اختيارهم ذاك متأثر تأثراً قويا بوالديهم — وليس ذلك عن طريق اقناع الوالدين لهم ، بل لأن ابن العاشرة غالبا ما يتقمص شخصيتهم ويعجب بهم ويرغب فى محاكاتهم . ومن ثم فالكلية التى يقع عليها الاختيار غالبا ما تكون كلية الأم أو الأب ؛ كما ينبغى أن يكون الزوج المفضل مثل « دادى » (أبى) أو فى مثل سماته الأبويه ، وأن تكون مهنته هى مهنة والد ابن العاشرة نفسها . والصبيان بوجه عام أقل إفصاحا عن رغباتهم فى ذلك الموضوع ، وبخاصة

فيما يتعلق بزوجاتهم فى المستقبل، اللائى لعلهم لم يفكروا فيهن من قبل .

أما عن نوع المهنة فى المستقبل ، فإن ابن العاشرة ربما اختار مهنة أبيه أو أمه. ومع ذلك فغالبا ما يكون من العسير على ابن العاشرة أن يختار مهنة من بين الاحتمالات الكثيرة التى تعرض لعقله . ولكن كلا من الجنسين يتأثر فى اختياره بنفس الدافع إلى مساعدة النـــاس والحيوانات . ولذا فإن من الاختبارات الممكنة التى ترتسم لخيلاتهم قوية وضخمة مهنة الطب والتمريض والأمومة والطب البيطرى . ثم إن ميل أبناء العاشرة إلى الشمول يجعل البنات يرغبن فى القيام بدور مزدوج فى الحياة بأن يجمعن بين العمل والزواج . وذلك لأنه كما قررت إحدى بنات العاشرة : « لست أرغب فقط أن أتزوج وأصبح زوجة » .

٥ ـ العلاقات بالناس

لو قيض للفظة العائلة يوم تكتسب فيه معناها الحق ، لكان ذلك عندما يصبح الطفل فى العاشرة من عمره . وابن العاشرة لا يتقبل فحسب ما قسم له من عائلة ، بل ويحبه أيضا . والواقع أنه ليس هناك البتة أب أو أم يفوقان والديه فى نظره . أما بيته فهو أحسن مكان ، بل إن إخوته الصغار أنفسهم إذا لم يكونوا مقاربين له جدا فى السن ولم يكونوا يستثيرونه طول الوقت ، فإنهم يصبحون لديه من المميزات العائلية. وهذه هى آخر سن ، ولفترة طويلة بعدها — يشترك فيه الطفل فى رحلة للعائلة مع التفكير الارتجالى العارض والقابلية للتكيف والاستمتاع الكامل !

وقد عادت الأم فأصبحت بالنسبة له من جديد مركز الكون كما كانت وهو فى الخامسة . وتسير العلاقات طيبة بينها وبين كل من الصبيان والبنات فى هذه السن . فإنهم لا يعتمدون عليها فحسب ، بل يشخصون إليها ويعجبون بها . والبنات بوجه خاص يثقن بها ويبحن لها بأسرارهن . وربما أكثرن من إخبارها بأنهن متهمات بالوشاية . ولكن مرد ذلك أنهن يردن أن يشعرن أن أمهن صديقة لهن وأنهن يستطعن أن يثقن بها .

وهم يتقبلون رغبتها فى رفع مستواهم وإصلاحهم على أنها حقيقة

مسلمة ويحاولون أن يستجيبوا لها دون تفكير . فهم بدورهم يعاونون الأسرة بشكل تلقائى ، كما أن الصبيان يرغبون بوجه خاص أن يفاجئوا أمهاتهم بعمل ينطوى على الرعاية كإحضار صينية فطور لها . وكل من الصبيان والبنات شديد الرغبة فى إظهار المحبة للأم ، والصبيان يحبون فعلا أن تدثرهم أمهاتهم فى الفراش ليلا .

والآباء على طريقتهم الخاصة لهم أهميتهم الكبرى أيضا . فالبيت فى نظر ابن العاشرة لا يمكن فى الحق أن يكون بيتاً بدون أب ، وإن كان فى إمكانه فى سنى حياته المبكرة أن يمضى فى حياته على خير ما يرام دون أب . وربما كانت مكانة الأب أرفع من مكانة الأم فى عين ابن العاشرة ، وكثيراً ما يكون موضع كلفه وبالغ إعجابه . والبنات بوجه خاص يبدين مشاعر قوية نحو أبيهن ، وربما جرحت إحساساتهن جرحا بليغا من أى توبيخ يصدر منه .

ومصاحبة الأب هى التى تصبح الآن مصدر مسرة كبيرة جدا . وفى إمكان الوالد أن ينعم بها بقدر ما ينعم بها طفله ابن العاشرة . فالخروج إلى النزهات أو المعسكرات أو لعب الكرة أو مشاهدة ألعاب الكرة أو السباحة أو الانزلاق أو حتى مجرد التجوال — تلك هى ألذ ما ينعم به ابن العاشرة من أنواع النشاط مع أبيه .

وابن العاشرة لا يحترم والديه فقط بل ويحترم أيضا مركزهما كوالدين . فإن ما يتردد به لسانه كثيراً من قوله : « تقول لى ماى » — يدل على أنه يتقبل كلمة أمه بوصفها قانوناً . وهو يعتقد أن الوالدين ينبغى لهم أن يحبوا أطفالهم ، ولكن لا يقر مبالغة الوالدين فى تدليل أطفالهم . « فما داموا عادلين » . — فذلك كل ما يبغى . على أن لا يكونوا « متشددين جداً ولا متساهلين جداً . » وربما حاول أن يختبر والديه ، فإذا رآهما لا ينويان الإذعان له تقبل طلباتهما وسره حقا أن لا يسمح له بالمغالاة .

وربما حدث أحيانا بين بنات العاشرة وأمهاتهن شقاق كالذى يحدث فى الحادية عشرة . ومع أن حججهن على أطراف ألسنتهن ، فإن تهدئة الأمور هامة جدا . وتظهر الحادثة التالية بين بنت فى العاشرة وأخرى فى الحادية عشرة

الصفات المؤكدة التى يتميز بها ابن العاشرة :

ماري (وهى فى الحادية عشرة) — « ألا تكرهين أمك ؟ إن أمى اليوم زى الزفت — أتمنى أن أراها ميتة . »

بربارة (وهى فى العاشرة) — « ألا تدركين أنك لن ترينها ثانية ؟ تستطيعين أن تغضبى من أمك ، ولكن هذا لا يقتضى كرهها » .

ومع ماعليه ابن العاشرة من ظرف ، فليس لديه فى العادة القوة الحيوية ولا النظرة النسبية الشاملة التى تتيح له مسايرة إخوته الصغار ، وبخاصة أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والتاسعة . حقا إنه ليس لديه رغبة حقيقية أن يكون طفلا وحيدا فى العائلة ، ولكنه قد يأثم أحيانا حين يتمنى لأخيه الأصغر المتعب « أن يزول من أمامه » ، أو يذهب للعيش بمكان آخر مدة من الزمن » .

سله عن علاقته ومسايرته لإخوته وأخواته يجبك بقوله : « أحيانا نسير بسلام وأحيانا لا . » والعادة أن الأخ الأصغر هو الذى يؤذيه ويضجره حتى يضطر ابن العاشرة فعلا إلى إيقاع الانتقام البدنى به . فإذا تدخل الوالد لإيقاف الشجار ، فالعادة أن ابن العاشرة المسكين هو الذى يتلقى اللوم لأنه هو الأكبر . وغالبا ما يشعر بحق أن الأحكام ليست « عادلة » .

وخير من يستطيع ابن العاشرة أن يسايرهم إخوته الأصغر منه كثيرا ، وهو يجيد العناية بمن هم دون الخامسة منهم والمعاونة فى شئونهم . والقول فى الغالب عن هؤلاء الصغار أنهم يكلفون كلفا بالغا بأبناء العاشرة . وابن العاشرة يستمتع بوجه خاص بالمطالعة لهم .

وتتحسن علاقة ابن العاشرة بإخوته الكبار قليلا عما كانت عليه ، بل هى تصبح أحسن منها فى المستقبل — حتى يتسع أفق الأخ الأكبر عند ما يبلغ سن الخامسة عشرة وقد يلعب الإخوة الكبار مع أبناء العاشرة ويصطحبونهم إلى مختلف الأماكن ، ولكنهم غالبا ما يعدون ابن العاشرة شيئا مضايقا ، خاصة إن هو وشى بهم . وربما لم يكن ابن العاشرة المسكين يشى فعلا — وكل مافى الأمر شعوره بأن من واجبه أن يخبر أمه بكل شىء .

أما الأصدقاء فهو يريد أن يصطحب إلى منزله واحـدا منهم فى كل يوم ، ولكن أحبهم إليه زملاؤه من أبناء الجيران . فهو يريد الصديق الذى يستطيع أن يجده فى كل آن . وذلك لأنه يريد أن يكون خارج المنزل بأية طريقة ، ومن الطبيعى أنه يجد فى طلب أصدقائه . ومن حسن الحظ أنه من شدة القابلية للتكيف بحيث يستطيع أن يلعب كرة القاعدة مع صديق واحد ، ويذهب راكبا الدراجة مع آخر ، ويعمل داخل المنزل مع ثالث . وهناك دائما موضوعات كثيرة جدا يتحدث فيها معهم . ومن المدهش لنا أن نسمع كم يعرف ابن العاشرة عن أصدقائه . فإنه يتحدث ببيانات وافية عن كل واحد منهم ، ذاكرا اسمه بالكامل وعمره وسنته الدراسية ويوم ميلاده وعيوبه البدنية وساعة نومه ومهنة والده وغير ذلك من الحقائق الشائقة . ومن الصفات التى يحبها ابن العاشرة إلى أقصى حد فى أصدقائه أن يكونوا موضع ثقة .

والبنـات يكثر بينهن « الغضب والشقاق » أو « الامتناع عن اللعب » أكثر من الصبيان ، وإن كان التعبير عن ذلك الغضب بالخصـام « وعـدم الـكلام » لايدوم طويلا جدا . ويخبرنا بعض أبناء العـاشرة أنه كان من عادتهم المشاجرة مع أصدقائهم ، ولكن لم يحدث بينهم منذ أمد بعيد حتى مجرد مناقشة واحدة . ويستطيع ابن العاشرة أن يكون ديبلوماسيا تماما . وقد عرف عن إحدى بنات العاشرة أنها كانت تضيف ملحوظة فى أسفل بطاقة الدعوة لعيد ميلادها نصها : « أرجو أن لاتخبرى أحدا . إذ لم يكن فى إمكانى أن أدعو جميع الناس ولا أريد أن أفقد أى صديق » .

والصبيان أكثر من البنات ميلا لتكوين جماعات كبيرة للعب . والعـادة أن تـكون هذه الجماعات ضعيفة التماسك غير محددة ويستطيع أحد الأطفال منهم أن ينتقل بملء حريته من جماعة إلى أخرى حسب نوع النشاط الذى يميل إليه . فإن ألعابا معينة كلعبة كرة القاعدة تحتاج إلى التجمع . ويتجمع العواشر تلقائيا كذلك لتكوين ناد سرى أو ما يسمى باسم « ناديك ونادينـا » (U & R) ويشتركون بشغف فى الهيئات الرسمية كمنظمات الكشافة . على أن ابن العاشرة يحاول عادة فى تجمعاته التلقائية الخاصة أن لايستبعد أى شخص آخر

يعرف أنه قد يرغب في الانضمام إليها. وهو لا يريد أن يحرم الآخرين من الانضمام بإقامة سياج من السرية (كما سيفعل في الحادية عشرة). وإنما يقتصر بطريقته البسيطة المعروفة على عدم السماح للآخرين أن يعرفوا بوجود ناديه.

حقا إن غالبية البنات «لم يأخذن بعد في الاهتمام بالصبيان»، أو كما يقول الصبيان: «لم نرق في أعين البنات بعد». ومع ذلك فان الجنسين إذ يستخدمان لفظة «بعد» متنبهان تماما إلى أن أمامهما مستقبلا من العلاقة بين الصبيان والبنات.

ولا يزال بعض البنات يشتركن في لعب الصبيان، وذلك فقط إذا كن رياضيات ماهرات. وهؤلاء هن في الغالب البنات الخشنات المتشبهات بالصبيان — ولكن هؤلاء البنات أنفسهن غالبا ما يصبحن أشد البنات أنوثة في أول العقد الثاني من عمرهن. والصبيان يقومون فعلا «بالتصرفات الخشنة» كأن يطاردوا البنات ويشدوا شعورهن ويوقعوهن على الأرض. فلا عجب أن يتجنبهم البنات. على أن الرقة ستجيء مع الزمن.

٦ — الميول وأوجه النشاط

للعب الصدارة المطلقة في حياة كثير من أبناء العاشرة. وتكاد المدرسة وأنماط الحياة اليومية أن تعد أشياء تقطع السبيل على حياة اللعب التي تفوقها أهمية. وابن العاشرة منشغل بسعادة في كل ما يعمل، كما أن لديه الآن المهارة والقوة الحيوية، والقدرة على الكر والفر اللازمة في أنواع النشاط الحركية الخشنة. ويكاد يومه ونواحي نشاطه ينظمان خطتهما بنفسيهما. وكأن أبناء العاشرة يجدون باعثا سعيدا للتجمع والالتقاء حين يدعوهم داعي الاستمتاع بمنشطة واحدة.

ويحب الصبيان أن ينظموا أنفسهم استعدادا للعبة كرة القاعدة بل لقد يرحبون بالفتيات الخشنات المتشبهات بالصبيان رغبة في إنشاء فرقة كبيرة. وهم يستمتعون في الأغلب بركوب الدراجات جماعات من اثنين أو أكثر. والآن وقد حذقوا تماما ركوب دراجاتهم، ويمكنهم ركوبها دون تعب، فانهم يستطيعون أن يقوموا برحلات أطول بل لقد ينتقون الطرق الوعرة لكي يستمتعوا «بالمخاطرة»

وإن جذلهم الخالص بتمرينهم لأجسامهم ليتبدى فى أشياء أخرى يفضلونها كالانزلاق على الجليد والجرى بقبقاب العجل والعوم والتسلق والتجديف وفوق كل شىء — الجرى . وبعض بنات العاشرة يعرفن بأنهن أسرع عداءات فى مدارسهن . والسباق لذيذ ممتع سواء أ كان بالقدم أو بالدراجة .

والصبيان والبنات تختلف أذواقهم عند اختيارهم لنواحى النشاط فى الهواء الطلق . فالبنات ينشغلن باللعب بالكرة والبكيكا ، ونط الحبل (وهى الآن تلعب بحبلين) والجرى بقبقاب العجل . وربما انضم إليهن الصبيان أحيانا ، بيد أن ميلهم الأقوى كذكور سيدعوهم فى الغالب إلى تفضيل طريق القنص وصيد السمك وهو الاتجاه الذى يصاحبهم فى السنوات المستقبلة . والصبيان والبنات يشتركون فى الميل إلى ركوب الخيل (سواء أ كانت لديهم فعلا فرصة الركوب أم لم تكن) ، ولكن البنات غالبا مايظهرن رغبة أعظم كثيراً بل حتى كلفا عظيما بتلك الرياضة . وذلك كما عبرت إحدى بنات العاشرة حيث قالت :

ضل أن أحصل على مهر خير من حصولى على طفل » .

والحيوانات بوجه عام والأليفة منها خاصة تثير عظيم الاهتمام لدى معظم أبناء العاشرة . فإن كثيراً منهم يظهرون مقدرة واهتماما فى العناية بقط أو كلب ، ولكن قلما جاز أن يتوقع منهم تحمل المسئولية كاملة . وإن « العودة إلى المزرعة » لهى رغبة غالبا ما تتردد على الفكر وستزداد شدة فى الحادية عشرة يوم تشتد رغبة الطفل فى أن تكون له مزرعة خاصة .

وابن العاشرة مدرك لعملية الكبر والنضج ويحس نفسه مقبلا على ميول أكثر نضجا ومستعداً لنبذ مناشطه السابقة التى لم تكتمل نضجها . وهذا التحول من الحداثة بحيث أنه غالبا مايحس بسببه أنه متفوق قليلا . وهكذا تراه يقول : « لا أعتقد أن هؤلاء الصبيان (أبناء التاسعة) سيشبون يوما عن اللعب بالبنادق » . وكانت أمه تحس حياله نفس الإحساس قبل ذلك بستة أشهر فقط . أو قد يحدث أن نفس البنات اللاتى كن يسعدن بلعبة العرائس إلى أقصى حد قد ينعتنها اليوم بأنها لعبة أطفال » .

ومع ذلك فلا يزال هناك صبيان

كثيرون يواصلون لعبة رعاة البقر ، أو لعبة سكان المناطق الغربية الموحشة أو أية لعبة بالبنادق تكون شائعة . وهناك بنات لعلهن أقلعن عن اللعب بعرائس الورق ، ولكنهن يحببن أن يلعبن لعبة البيت بعرائس حقيقية ، يلبسنها ويدخلنها فى نشاط لعب يماثل خبراتهن كبنات عاشرة . وهذا اللعب يكون متقطعا تتخلله فترات قصيرة أمدها يومان أو طويلة تمتد إلى شهرين ، بيد أن هذه المنشطة تنطوى على حاسة جديدة أكثر نضجا ، حاسة تتعلق بإدارة عائلة فى هذا النوع من النشاط .

ومع أن اللعب داخل المنزل يلى عادة لعب العراء فى المنزلة ، فإن ابن العاشرة يستطيع أن يشغل نفسه بسعادة داخل المنزل وخاصة إذا كان معه أصدقاء ، والصبيان والبنات يستمتعون باللعب معا بألعاب المنضدة من أمثال الشرك الهندى ، ولعبة الموتوبولى Monopoly, (parcheesi) ويستنفد ابن العاشرة فى جمع مجموعاته شطرا عظيما من الوقت والجهد ، فهو يجمع أى شىء تقريبا ، وربما كان لديه عدد من المجموعات ، فقد أجابت بنت سئلت عما إذا كان لديها أى مجموعات : « أتسأل هل أنا ! — لدى مجموعات !! ...... حسنا ...... عندى طوابع بريد وتذاكر بريد وكتب وحداوى خيل وما ماثلها من أشياء غريبة » . وبالإضافة إلى هذه قد يجمع ابن العاشرة النقود والمحار وعرائس كتب الحكايات وحيوانات من الصينى وصناديق (فابن العاشرة يحب الصناديق) وأحجارا وصور الأحجار وعشوش طيور وثعابين ونماذج طائرات ونماذج جنود أو حتى مجرد أوراق لف الحلوى واللبان ، فهو ليس بعد انتقائيا يدقق فى الاختيار ولا هو مستعد لعرض أشيائه وتصنيفها ، وأغلب أمره أنه يريد فقط المزيد فالمزيد مما يجمع .

وأشد ما يشغل البنات كتابة لتمثيليات والتأنق فى الملبس ، ثم إخراج التمثيليات . وبعضهن يخطن الثياب إما لعرائسهن أو لأنفسهن أحيانا ، ومنهن قليلات يشتغلن فى حبك الصوف . [التريكوه] .

أما الأولاد ذوو المهارة اليدوية فينشغلون فى رسم العدد وتصميمات

رسوم المنـــازل والطائرات النفـاثة والصواريخ .

وهناك آخرون يرسمون صورا متقنة للمعارك أو مشاهد العنف أو السيارات أو القطارات ، مع تعليقات سهـلة . وهؤلاء ربمـا كانوا صـبيانا أقل نضجاً بقليل لا يزالون يحاولون أن يخرجوا بأنفسهم من أعماق سن التاسعة . ويحب ابن العاشرة أن ينشىء ويشيد ، سواء أ كان يصنع نمـاذج طائرات أو زوارق أو يعمل مستخدما جهاز البنائين الذى يملـكه أو منشئا ما يشتهى من أشـكال عن طريق أعمال النجارة . وهو يحتاج إلى مكان بيدروم المنزل . أو (ورشة) يستطيـع أن يضع بها العدد اللازم لآلاته ، كما يحتاج خاصة إلى مكان لمجموعاته الـكيميائية إذا تجـاوز شغفه بالـكيمياء حد تجهيز المفرقعات . واللعب بالقطار الـكهربى عند الصبيان يمـاثل اللعب بالعرائس عند البنات . وهو قد يكون قويا عنـد بعضهم . وقد يعاود بعضهم الآخر على فترات أقصر أو قد لا يعود البتة .

والصبى « الذى تنقصه المهارة اليدوية » ربمـا كان هو نفسه ذلك الصبى الذى لا يزال يستمتع بقطاراته . وهو لا يزال شـغوفا (مهتما) بأشياء أخرى ممـا يشغل الصبيان ، ولـكنه يتناولها من أعماق مملـكة الخيال وليس عن طريق حقيقة الانشاء والتركيب . وذلك كما قال أحـد الصبيان : « نحن نتظاهر بأن لنا عددا خاصة لعلها حتى لم تخرج وربما لن تخترع إلى مئة سنة قادمة أو حتى لن تستحدث أبدا » .

والأندية بجميع أنواعها قوية السلطان والعاشرة بين جميـع الأعمار من أشدها مسارعة إلى الاستجابة لنداء الجماعـة . فابن العاشرة أشد أفراد الـكشافة تحمسا وهو ينشىء أندية خاصة به ، منها الأندية السرية أو أندية الخفايا الغامضة المصوغة على غرار مكتب الأبحاث الاتحادى FBI أو غير ذلك ممـا يشغل أذهان الناس فى عصرهم . ومثل هذه الأندية تستلزم أن يكون أعضاؤها ذوى مستويات عالية . وابن العاشرة منطلق نحو تحسين نفسه . فربمـا كان شعار أحد الأندية « ممنوع التـكشير » ويـكون شـعار ناد آخر « لتـكن لك قوة إرادة » — أو

« تقاسموا الضراء معا . » ومع ذلك فإن ابن العاشرة ينم عن عمره باختياره لفظة « بطاطس » كلمة السر لناديه .

ولكن الأندية ضعيفة التماسك غير محددة — فهى موجودة اليوم وزائلة غدا ؛ بل إن بعضها ليظل خطة مرسومة لا تخرج إلى حيز التنفيذ قط . ولم يصبح الكوخ أو بيت فروع الأشجار حتى الآن دارا للنادى وإن بدأ فى النفوس شعور بالاحتياج إلى مكان للاجتماع . وربما تجلى فى النهاية أن الأكل هو أقوى دافع لإنشاء النادى . أو ربما أنشىء ناد خصيصا لاستبعاد طفل آخر باستخدام اسم تحت ستار من السرية لجعل الاستبعاد قانونيا ومشروعا .

المناشط المستقرة كالمشاهدة والاستماع

يحدث أحيانا أن حياة ابن العاشرة النشطة نسبيا تلزم السكون التام . فإنه يحظى فى عصرنا هذا بفيض عظيم من وسائل الترفيه والمجالات التى تمده بالمعلومات أو تنبه فكره كالتليفزيون والراديو والكتب والسينما . وهو يتناولها فى الأغلب الأعم على هذا الترتيب من التفضيل ، وإن أمكن أن ينبذها جميعا مفضلا عليها اللعب الناشط فى العراء . ومع ذلك فإنه ربما أصغى أو جلس يرقب برنامجا طول يومه تقريبا ، وذلك لأنه كما أخبرنا أحد أبناء العاشرة : « لقد حفظت جميع البرامج عن ظهر قلب ، لذا فإنى أعرف بالضبط أين ومتى يكون كل برنامج . فأنا أقرر أن أفتحه بالضبط وأسيره بسرعه وأحصل على أى برنامج وعلى الجملة أخذت تتناقص قليلا شدة كلفه بالتلفزيون التى أظهرها فى التاسعة أو على حد قول إحدى الأمهات : « لم يعد التلفزيون أمر حياة أو موت » أو كما تقول أخرى « لقد أخذ ولعه يتناقص بالتدريج — ولله الحمد ! » . أو لعله هو نفسه يؤكد أنه لا يشاهد التلفزيون ولا يستمع إليه : « بتاتا تقريبا » . فإن هو شاهد واستمع فعلا لبرنامج ما ، اختار برامج القصص الميلودرامية المثيرة أو الخفايا الغامضة أو قصص رعاة البقر أو الكوميديات أو البرامج العائلية . وبعضهم سواء منهم الصبيان والبنات يعرفون أنهم ربما أزعجهم الكابوس ليلا إذا هم شاهدوا أو استمعوا إلى قصص الخفايا الغامضة ولذا يتجنبونها .

وربما حدثت أثناء النقاهة زيادة ملحوظة فى الشغف بالتمثيليات الإذاعية المسلسلة شغفا يلازمه طول النهار ، كما يتناقص عدد من يهتمون من أبناء العاشرة ببرامج المساء : القصص الميلودراميه للثيرة أو قصص رعاة البقر . فإنهم أخذوا يقلعون عن هذه وعن الكتب الهزلية أيضا . ثم إن عددا منهم — متدرج الزيادة — يظهر اهتماما ببرامج الخفايا فى المساء التأخر ، وهو أمر قد يتعارض مع ساعة نومهم من الثامنة والنصف إلى التاسعة . وربما فضل التلفزيون على الراديو أو لم يفضل .

والقراءة يتجلى فى الاهتمام بها من شدة الاختلاف ما يتجلى فى الاهتمام بالراديو والتلفزيون ، وإن كان عدد المولعين بالقراءة من أبناء العاشرة أكثر من عدد غير المهتمين . أما المتلهفون على القراءة فهم الذين كانوا كذلك منذ أن كانوا فى السابعة ، كما أن غير المهتمين بالقراءة قد لا يقرأون البتة إلا ما يضطرون إلى قراءته .

وما دامت كلمة « سر » أو « خفايا » أو « خيل » موجودة فى العنوان ، فإن ذلك لابد أن يسترعى اهتمام ابن العاشرة وربما اقتصر اهتمامه الشديد على ناحية واحدة . فإن إحدى البنات سئلت عما تقرأ فأجابت : « الجواد الأسود — ابن الجواد الأسود — الجواد الأسود والشيطان — جواد الجزيرة » وهكذا لم يكن ثم شك فى ميلها القوى .

وفضلا عن قصص الخيل والكلاب وحتى « القصص المحزنة التى تنتهى بنهاية سعيدة » . يحب ابن العاشرة تراجم المشاهير من الناس وكتب المغامرات والخفايا . وبعضهم يقتصرون على القصص التى تدور حول الأطفال أبناء عمرهم وعصرهم . وثم آخرون يحبون أن يلمسوا بأنفسهم قصص أطفال من أترابهم وهم يكبرون ويصبحون من المشاهير . وكتب التاريخ موضع الاهتمام ولكن يعوزها فى نظرهم القدر الكافى من المغامرة أحيانا .

ولا تزال الصحف تتلقى من ابن العاشرة لمحة عابرة فقط . فإنه يكتفى بالتقاط العناوين الكبيرة ويبحث عن صور الحوادث والحروب . كما أنه يتتبع النكات ، وتهتز مشاعره عندما يقرأ فى

فى أبواب الإعلانات أعمدة « أشياء فقدت » و « أشياء وجدت » .

وقد أخـــذت الـكتب والصحف الهزلية لحسن حظ كثير من الوالدين تفقد لأول مرة تأثيرها عليه . وربما تجلى ذلك منه بإقلاعه عن الحصول على عرم عالية منها وعـدم مواصـلة تعقبها ، وعدم صرفه لجميع نقوده فى شرائها . ولـكن هنـاك كثيرين يزيدون فيما يكدسونه منها ، ويعرفون كل واحدة منها وكيف امتلـكوها أو استعاروها أو أعاروها ، ولا يزالون يبـددون فى سـبيل شرائها كل قرش فى جعبتهم . وهناك قلة — ضعيفة الميل إلى إنفاق نقودها — فهى لذلك تنفق زمنا طويلا طولا غير مألوف بالقرب من رفوف الـكتب الهزلية بالمـكتبات أثناء محاولتهم القراءة لاختيار كتاب هزلى . فاذا قرأوها من أولها لآخرها أو كادوا ، فربما لم يجـدوا بهم حاجة كبيرة إلى شرائها . وربما أحب الأطفال عيادات الأطباء وأطباء الأسنان لهـذه الميزة وهى وجـود الـكتب الهزلية بغرفة الاستقبال .

ولعل مما يدهشنا أن نجـد ابن العاشرة قليل الاهتمام بالسينما . وربمـا تجلى ذلك منه فى عدم تدقيقه الشديد فى اختيار الفلم ، وعدم اهتمامه بما يشهده ، أو تفضيله عدم الذهاب مطلقا إلا إذا ظن أنه سيكون فيلما جيداً . وربما مل من طول الجلوس . وربمـا أثرت رواية محزنة فيه أثراً عميقا وجعلته يبكى بكاء مراً . بل ربما لم يطقها البتة ، أو قد يضطر إلى إخفاء وجهه فى حجر أمه . وهو يفضل أحيانا أن يذهب مع أمه ، ولـكنه قد يذهب أيضا مع أصدقاء من نفس جنسه — مرة فى الأسبوع أو مرة كل أسبوعين . بيد أن معظم أبناء العاشرة لا يذهبون إلا بين الفينة والفينة . وأحب الأشياء لديه أفـــلام الرسوم المتحركة (cartoons) وأفـــلام رعاة البقـر والـكوميديات الخشنة مع ظهور شىء من المحبة المتزايدة لأفلام الجريمة الخفية . وهناك عدد من أبناء العاشرة لا يطيقون روايات الجرائم الغامضة فى أية صورة من الصور ، سواء أجاءت على الراديو أو التليفزيون أو فى شريط سينمائى ولـكن ما يجتمع بالفلم المفرد من الروح الواقعية الجارفة وشدة الهول وطول المدة قد

يكون شديد الوقع على طفل فى العاشرة إذا كانت مشاعره حساسة.

٧ — الحياة المدرسية

لو أعطى ابن العاشرة الفرصة ، لأمكنه أن يحب معلمته ويحب أن يتعلم ولـكنه فضلا عن رغبته فى التعليم يريد أن يستثار اهتمامه ودوافعه على الدوام وقد تسمعه يقول لمعلمته : « بيه ، إليك عنى ! » لقد تعلمت منك مقدار فظيعا ! » وهو يكره أن تفوته المدرسة لأنه يشعر أن قدراً عظيما جدا سيتم تدريسه بحيث « لن يستطيع أن يلحق بزملائه » .

وابن العاشرة يتحكم فى الوقت تحكما حسنا . فالوقت لا يدفعه الآن مثلما كان يدفعه فى سن التاسعة . فهو يتم استعداداته الصباحيـــة بأناة وسهولة وتمهل . إنه هو الشخص المسئول وهو ليس متحكما فى الوقت فقط ، بل ومهيمنا على جميع أشيائه ومتعلقاته أيضا . فهو لا يفقدها ولا يسىء وضعها كما كان يفعل فى التاسعة . وذا كراته المتعلقة بحياته اليومية قد تحسنت تحسنا عظيما . وهو يستطيع أن يحضر أشياء إلى المدرسة كطيارة صنعها أو بعض مجموعاته — ويستطيع أن يعرضها على الآخرين دون أن يشوش على الفصل ونظامه .

ومعلمته هامة لديه ، وإنه يركز كل همه عليها . وهو عادة يحترم معلمته وكثيرا ما يتقبل كلمتها كقانون أكثر مما يتقبل كلمة والديه تقريبا . وهو يقتبس أقوالها بالمنزل ويتمسك بما لديه من بينات ربما لم تكن إلا شيئا نقله خطأ عما كتبته معلمته على السبورة . وهو أشد الناس تنبها إلى مظهر معلمته البدنى الخارجى فهو يتحدث عن هيئتها وشعرها . وغالبا ما تعلق البنات للمعلمة نفسها عن جمال شعرها وكم يبدو لطيفا .

وأبناء العاشرة لا يحبون معلمة متحيزة . بل يريدون منها أن تحب جميع الأطفال ، وأن تكون صديقة لهم . وهم يعبرون بصورة طبيعية عن محبتهم لمعلمتهم وربما أمسك الصبيان بيد المعلمة . وربما عبرت المعلمة أيضاً عن محبتها أو قدمت العون اللازم بوضعها ذراعها حول وسط أحد الأطفال فى بعض الأوقات . وفى إمكان المعلم أن يضع إلى الآن ذراعه حول إحدى البنات بطريقة أبوية فى هذه السن . والمعروف عن أبناء العاشرة أنهم غالبا ما ينادون المعلمة « مامى » بغير قصد

دون أن يدركوا أنهم فعلوا ذلك . وهم يستجيبون استجابة حسنة للحزم بالمدرسة والبيت على السواء ، وإن طالبوا بحقوقهم. وإذا كانت هناك عقوبة ، أرادوها أن توقع فوراً وفي نفس المكان،وهم يكرهون الحرمان الطويل كرهاعظيما ، و إذا تصادف وجود مجموعة من ابناء العاشرة يستلزم الأمر أخذها بالحزم الشديد فمن الأفضل أن يكون المعلم رجلا .

وابن العاشرة يحب أن تقوم معلمته بوضع جدول ينظم له الوقت ونواحى النشاط . وعندئذ يكون هو أول من يذكر معلمته إذا نسيت شيئا فى ذلك الجدول . وبدلا من أن يبدأ ابن العاشرة يومه بطريقة أكثر شكلية ، تراه يحب بدأه بالحكايات.ويجوز للمعلمة أن تطالع لهم من قصة محبوبة كقصة ربنسون كروزو أو جزيرة الكنز . أو حول طفولات عظماء الرجال التى تصورها سلسلة مطبوعات The Land mark Series أجود تصوير . ويريد ابن العاشرة أن يعرف شيئا عما قام به العظماء من أعمال عظيمة وكم جدوا فى عملهم واجتهدوا . وسينشىء بينه و بين هؤلاء الرجال رابطة حقيقية عندما يدرك مثلا أن جورج وشنطون كان يجد صعوبة فى هجاء الكلمات .

ولا يحب ابن العاشرة أن يستمع إلى الحكايات فقط ، بل ويحب أيضاً أن يروى حكاياته هو عن شىء رآه أو سمعه أو قرأ عنه . وهو يستطيع أن يتكلم ويتكلم «ويفيض فى الحديث» عما يشغل باله . والكلام قد يكون فعلا إحدى مناشطه التى يؤثرها . وبعض أبناء العاشرة يتفقون مع معلمتهم على الحضور إلى المدرسة يوم السبت لمجرد المجالسة والحديث ، وذلك لأنهم لا يحصلون منهما البتة على ما يكفيهم .

ويحب ابن العاشرة القراءة أيضا . ومن أحب وسائل الاستجمام والراحة اليه إعطاؤه فترة للمطالعة مدتها ثلاثون دقيقة بعد الغداء . وهو يكون من الهدوء والانهماك أثناء قراءته لنفسه لدرجة أنه يستطيع سماع رنين الإبرة عند سقوطها على الأرض .

وأمد اهتمام ابن العاشرة وجيز . وهو يحتاج إلى قدر معين من الحرية فى

حركته بأرجاء الغرفة . وهو يستطيع أن يتحرك بهدوء . ويريد أن ينهض ليبرى قلمه أو للذهاب إلى طفل آخر أو إلى المكتبة . وهو يتصرف في هذه الانتقالات تصرفا محمودا دون ما حاجة إلى إذن . وتتبادل الرسائل الصغيرة وخاصة بين البنات . وكثيرا ما تدور موضوعات تلك الرسائل حول عملهن أو ما ينوين عمله في الفسحة، ولكن يحدث أحيانا من بعض الأطفال ذوى التنبه الاجتماعى الأشد الإشارة إلى قضاء الضرورة (وليس إلى الجنس) أو بصفة خاصة إلى «الأرداف» .

وعلى الجملة يتقبل كل من الجنسين الجنس الآخر قبولا حسنا نوعا ما . فإنهما يعاونان بعضهما بعضا ، ويتضاحكان ويتحادثان معاً دون أن يتنبها أنهما من جنسين متضادين . ويتقبل الصبيان البنات إن لم يضايقوهم . والبنات على الجملة لديهن دواع أكثر لبغض الصبيان أو حبهم ، ولكنهن يبنين أحكامهن على بعض الأسباب السطحية نسبيا . فإنهن قد يكرهن صبيا لأنه وقح ويهزأ بهن . ولكن لا توجد هنا أية عداوة جنسية حقة . وفي الألعاب الجماعية كما هو الحال فى الرقص الرباعى أو رقصة فرجينيا[1] يجنح الصبيان للانفصال فى مجموعة واحدة والبنات فى مجموعة أخرى .

ويقوم ابن العاشرة بدراسته بسهولة ودون ما جهد خاص ، بيد أن لديه موضوعات من نوع خاص يفضل الإقبال عليها . فهو يحب الجغرافيا التى تدرس الواقع . وربما عرف الولايات الثمانى والأربعين وعواصمها ، ولكن قد يبدو مبهما عليه أمر الحكومة والمحاصيل والتربة ؛ وهو كلف بوضع أسماء الولايات والأنهار والجبال والمدن والمحيطات فى مواقعها على الخريطة .

ويحب أن يعطى إملاء . وكثيرا ما يكون خطه مفككا ليس به تماسك ولا عناية . ذلك أنه فقد الدقة التى كانت له فى التاسعة . وعندما يكتب تقريرا عن كتاب يصوغ أفكاره فى جمل قصيرة متقطعة ، ولكن مع القدر الكافى من قوة الحيوية اللازمة للاحتفاظ باهتمام القارىء ، وتدور

---

(١) وهى رقصة ريفية أمريكية .

تقارير الـكتب حول الخيل والـكلاب فى غالبية الأمر .

وكم يحب أن يحفظ عن ظهر قلب ! فهو يتقن قصـائد طويلة كقصيدة : Paul Reverès Ride ويتلوها بتعبير حسن .

وينبغى أن يوجه قدر أكبر من الزمن إلى الحفظ ، وأقل إلى التعمق فى التفـكير . وذلك لأن ابن العاشرة يجد صعوبة فى مزج حقيقتين ، أو ربط إحداها بالأخرى . وهو يحب أن يأخذ الأشياء ببساطة على علاتها . وستنفعه فيا بعد مجموعته الشتى من المواد المحفوظة — وذلك لأن التعمق النفاذ لا بد أن يجىء فى إبانه .

والصعوبة التى يجـدها فى ربط الحقائق بعضها ببعض تتجلى بوجه خاص فى علم الحساب . فهو — وإن صورت له حقيقتان أوضح تصوير — لا يستطيع أن يدرك العلاقة بينهما . ومع ذلك فإنه يريد أن يتصور الأشياء التى لهـا عنده حقيقة واقعـة . فيلذ له الشراء من الدكاكين ودفع النقود . ويحب قرب نهاية سنته الدراسية الخامسة حل مسائل الحساب العقلى متحديا . وحقائق الحساب طوع يمينه تماما ، ويلذ له التمرين على استخدام تلك الحقائق فى مسألة حسابية طويلة مترابطة مع سهولة الانتقال من خطوة إلى أخرى (٥ + ٦ — ٢ + ٣ × ٥ = ؟) .

والواقع أن ابن العـاشرة يحب العمل الشفوى على وجه الجملة . أو أنه يحب أن يفهم الأمر بطريقـة بصرية بواسطة المواد التصويرية . وهـذا من أنسب الأعمـار لبرامج التليفزيون التعليمية . فهو يجيـد النظر ويجيـد الإصغاء . ثم يريد بعد ذلك أن يتـكلم عما رأى وسمع . وقد يـكون حبـه للاستطلاع عظيما جدا فى بعض الأحيان وإصغاؤه مرنا جـدا كذلك حتى لقد يصبح أكثر اهتماما بنشاط جمـاعة مجاورة منه بنشاطه هو . والجمـاعات تـكون أثناء اشتغال الفصل بعمله أحسن حالا إن فصل بينها فصلا جزئيا بواسطة بعض الحواجز المادية .

ولا بد لابن العاشرة من قضاء قدر كاف من الزمن فى الهواء الطلق

أو فى الجنازيوم ، وذلك لأنه يريد أن يمرن عضلاته . والصبيان يريدون الألعاب المنظمة أكثر مما يريدها البنات . فلو أعطيت البنات الفرصة لآثرن التجمع مثنى مثنى أو ثلاث ثلاث للرغى والدردشة بدلا من الاشتراك فى الألعاب .

ونظرا لأن أمد اهتمام ابن العاشرة قصير ، فإن معلمته يجب عليها تدبير الخطط للانتقالات فى الوقت المناسب ، والتدخل خاصة لإحداث التغيير فى أنواع النشاط الاستقرارية الساكنة .

والغناء أحد أنواع النشاط التى تستخدم وسيلة للتغيير وهى محببة لديه ، فهو يحب أن يغنى ، وهو متأكد من صوته مطمئن إليه ، ويستطيع أن يجيد مشاركة الجماعة فى الغناء ، على أن بعض مثل هذه الأغانى ربما كان يحق دلالة قوية على أن أبناء العاشرة قد أخذوا يتنبهون إلى رجولتهم .

٨ ـ الحاسة الخلقية

لم يعد ابن العاشرة بعد محصورا فى عالم الطفولة. فإنه آخذ فى الخروج إلى عالم البالغين ، عالم الكبار والمواطنين ومع أنه ارتجالى فى حد ذاته فإنه متنبه لبعض المسئوليات التى يستلزمها الخروج إلى معترك الحياة . ولكن تنبهه يكون من الحداثة بحيث يجنح للتفكير الشديد الجمود دون أى تسليم أو تساهل .

ويبلغنا والداه بأن لديه قانونا خلقيا دقيقا وحاسة قوية بالعدالة والنبل ، قد تبلغ حد الغضبة لتلك الأمور أو الصلاح الذاتى المتزمت . ويغشاه الهم إذا دفع أحد صغار الأطفال على مرأى منه (إلا أن يكون ذلك الطفل أخا صغيراً ويكون هو فاعل ذلك) . وربما لم يقبل تكريما إذا شعر أنه غير جدير به .

ومع أن أباه وأمه هما المصدران الرئيسيان للقانون فى نظره ، فإنه لا يقتصر تماما على ما تعلم من والديه . فهو رجل حر نسبيا ، مستعد للبت فى بعض أموره . وربما أصبح البت فى أمر لعبة ممتعة له ، لعبة تنطوى على شىء من

المجازفة مع مجال لبعض الفرص . وهو يستطيع أن يغتنم فرصة تسنح لأنه راغب أن يتحمل عاقبتها . وهو يصل إلى جزء من قدرته على تقرير الأمور عن طريق ما تعلم من والديه أى ما يعرف أنهما يتوقعانه . وقد يكون الجزء الآخر الذى يصل إليه عن طريق « تفكيره هو العميق فى الأمور » . وهناك دائما ضميره الذى يقف مستعدا للتدخل السريع وتنبيهه عندما يكون قراره قرارا غير سليم .

واهتمام ابن العاشرة بما هو خطأ أشد من انشغاله بما هو صواب ، فإن الناحية السلبية تسبق الإيجابية . وغالبا ماتراه متميزاً ، ويعجب كيف ينبغى للانسان أن يبت فى أمر . ولكن نظراً لأن ابن العاشرة قد يتحكم فيه مايريده أكثر مما يتحكم فيه ما يمليه عليه ضميره ، فإنه يرغب فى أن يفعل ما يشاء ويختار ويتلقى صيحة استهجان منكرة ، ثم يحكم بعد ذلك ما إذا كان ضميره مصيبا أو مخطئاً .

ومع أن ابن العاشرة يبدو متمسكا جدا بالأخلاق ، فإنه إذا بلغ الأمر حد التطبيق العملى والممارسة الفعلية ، نراه لا يرقى دائما إلى هذا المستوى المنشود ولكنه على الإجمال صادق ، ولاسيما فيما يتعلق بالأمور الجسام ، بيد أنه يستطيع أن يتخذ طريقاً وسطا بين الصدق الحق والكذب المحض بمجرد الامتناع عن الكلام . أو ربما استطاع أن يتنصل أو يعاكس قليلا . وأحياناً يكون الكذب الأبيض فى رأيه ضرورياً لإنقاذ إحساسات الآخرين أو للحصول على ما يريد . ولكن عندما تكون أمه موجودة وعلاقته بها طيبة ، فإنه يقول الحق بصورة طبيعية تماما . وهو لا يكاد يستطيع إعانة نفسه . وكأنى بالأفكار التى يبوح بها لأمه حمامة تتجه نحو بيتها تريد أن تجثم فيه وتقر عينا . ويصبح الإخبار بالحقائق أو الاعتراف بها أسهل عليه عندما يكون معها بمفرده — وذلك بعد أن يتباعد الزمن قليلا بالجرم الذى اقترفه .

أما تقبل اللوم فذلك أمر لا يكون بمثل هذه السهولة . وأم ابن العاشرة تلقى منه لوما أقل من ذى قبل ، بل

يكاد اللوم يكون معدوما . أما إخوته فإن أى واحد منهم يكون على مقربة منه يكون عرضة للوم .

ومن المحقق أن ابن العاشرة يهتم بالعدالة ، وخاصة فى معاملة والديه له ولإخوته . وهو فى معظم الأمر مؤدب ومطيع ، ولكنه متى شعر بأن بعض الأمور التى يحتم عليه أداؤها ليست عدلا ، تهيأ لمناقشة الأمر مع والديه . غير أنه يحدث أحيانا أن لايوجد فاصل واضح بين ماهو عدل وما يريده ابن العاشرة . وهو يحكم على الغش والسرقة بأنهما جريمتان مزعجتان ويندر أن يحفزه حافز إلى إتيان أحداهما ، وذلك نظرا لقناعته بنفسه وعدم رغبته فى التفوق .

ولديه عن السباب أفكار أشد تحديد منها عن احتساء الخمر . فهو لا يهتم بشرب الكبار الخمر ماداموا لايسرفون فى الشراب . (إلا أن يكون ابن العاشرة من أبناء البيوريتان المتزمتين الذين يصرحون أن آباءهم وأمهاتهم لايذوقون الخمر أبدا ولو أن ذلك قد يكون مخالفاً للحقيقة تماما) . أما السباب فيلقى منه انتقادا أكثر . والبنات صريحات بوجه خاص فى هذا الصدد . فهن يعتبرن السباب شيئا غير لطيف ، كما أنه يجعلهن « يشعرن بالفظاعة » عندما يسمعنه . والصبيان أيضا يذمونه ولكنهم لايعترفون إلا بما صدر عنهم منه فى الماضى كما يعترفون فى بعض الأحيان برغبة جامحة فى إتيان شىء قليل من السباب هم أنفسهم .

٩ ـ النظرة الفلسفية

الزمان والفضاء :

إن الاتجاه الارتجالى لابن العاشرة يدل أنه قد قبض على ناصية الأمور بيديه جيداً ، وأن لديه مصدراً داخلياً للحفز وقوة أساسية للعمل . وهذه القدرة على التحصيل تتجلى بوجه خاص فى تحكمه فى الزمان والمكان . فهو الآن الحاكم لا المحكوم ، وهو يهيمن على الزمن أكثر مما يهيمن الزمن عليه .

ولا تزال المفهومات (concepts) ثابتة استاتيكية ودقيقة مضبوطة أو تكاد ، بيد أنها تؤدى له المطلوب على أحسن وجه . والزمن لديه هو ساعة الحائط بنوع خاص . والزمن فى نظره ساعات ودقائق وثوان . وربما فكر

أيضا فى مدد زمنية أكبر ، ولكن الزمن يكون مرتبطا بنوع خاص بالأيام ماضيها ومستقبلها. أى الزمن كما تدل عليه السماء أو الشمس ، الزمن من السنة كما تسجله الفصول ، الزمن من القرن الراهن . ويلخص لنا أحد أبناء العاشرة ذلك الرأى الأرحب : « إنى أحاول أن أتصور ماحدث منذ سنوات خلت واختلاف الأحوال اليوم عنها قبلا وكيف ستكون تلك الفروق بعد عدة آلاف من السنين » . ومن الجلى أن المتكلم صبى ، — ومن يدرى ؟ — فلعله سيكون أحد رجال العلم مستقبلا

والزمن فى العاشرة غالباً ما يكون مرتبطا بالأحداث — « زمن حدوث الأشياء » — « وهو ماتصنعه أنت » . وقد تجتاح حاسة بالنسبية حاسة الزمن . وابن العاشرة يعبر عن نفسه وجدانيا بما هوموشك أن يفعله . ولهذا فربما اختار أن يبكر فى الذهاب إلى المدرسة ، أوأن يذهب إلى عيادة الطبيب متأخراً ، أو أن يبدأ اللعب مع صديقه فى الموعد المحدد تماماً .

ومع أن ابن العاشرة ليس لديه حتى الآن إحساس قوى بمرور الزمن ، فإنه قد يدرك الفكرة القائلة بأن الزمن قد يتغير ، وأنه أحيانا لا يكون هناك زمن كاف ، وأحيانا أيضا يكون هناك زمن أكثر مما ينبغى . فربما يكون لديه زمن كثير جداً أثناء الأجازة ولم يكن لديه قدر كاف من الزمن لعمل واجباته المنزلية . وهكذا تمر به الخبرة المتغيرة : — « أكون أحيانا مزحوما مثقلا متعجلا وأحيانا لا أكون كذلك » .

وقد بلغ من تحسن معالجة ابن العاشرة للوقت أن يحس كل من يهمه الأمر ، ولا سيما الوالدان بارتياح عظيم . وهو ماهر إلى حد ما فى الوصول إلى الأماكن فى الموعد المحدد ، وبخاصة الوصول إلى المدرسة والعودة إلى المنزل بعد العصر . وهو لايستخدم ساعته كما كان يستخدمها فى سن مبكر ، وذلك لأنه يكون قد فقدها عادة . وربما فضل أن ينظر إلى ساعة حائط أو أن يسأل شخصا آخر عن الوقت . ولعل الذى ينبهه ويرشده هو اقتراب النسق ولكن قد أخذ ينمو فيه تعرف للزمن وتقدير له وهى حاسة جديدة بالمسئولية ، نحو مطالب الآخرين ، نحو المدرسة أو نحو

البيت . وإذا هو طولب بأداء عمل فكثيرا ما يعاند بالإصرار على التساؤل عن القدار المضبوط من الزمن المطلوب منه . وإذا هو تدرب على البيانو مدة نصف ساعة بدأ عند نقطة من الزمن وانتهى عند النقطة المقررة بالضبط . فالتدريب الذى بدأ فى الساعة ٦ر١٧ ينتهى عند الساعة ٦ر٤٧ بالضبط .

ويلقى غزو ابن العاشرة للمكان المجاور له نفس النجاح الذى يلقاه غزوه للزمن المباشر . وربما بدا ذلك عملا سهلا ، ولكن قدرته على مقابلة أمه فى وسط المدينة بمكان معين إنما هى نجاح كبير الأهمية لدى طفل فى تلك السن . وهى مسألة تعلن على الملأ ابتداء عهد حرية جديدة . وهو لايزال بحاجة إلى أن يقيد برباط « المكان المعين » و« الطلب المفرد » ، ولكنه يصل إلى مقصده ويتم مهمته .

والمكان يكاد يكون شيئا من نوع خاص فى عقل ابن العاشرة وذلك لأن « المكان هوحيث توجد الأشياء » — أو «الفضاء موجود لوضع البيوت عليه» وابن العاشرة الذى أوتى ميلا إلى هندسة المبانى واتجاها نحو المنزل ، غالبا مايتردد على لسانه ذكر المنازل والبيت . وحتى وهو يفكر فى الفضاء الخارجى البعيد ، فإنه قد يربط بينه وبين « مكان لايوجد به شىء — فلا مبان — لاشىء » .

وكما أن ابن العاشرة يستطيع تعريف الزمن بأنه البعد الفاصل بين نقطتين على ساعة الحائط ، فكذلك الفضاء يمكن تعريفه بأنه « المسافة بين شيئين مختلفين » وهو يضيف إلى كل ما عرف من نوع تفكير ابن العاشرة كلا من التحديد الدقيق للزمان والمكان (أى ما يعبر عنه بلفظى هنا والآن) ، والإدراك العام لهما كمفهومين عامين غير [illegible] محددين وهكذا يلخص ابن العاشرة الأمر بإيجاز فيقول : « الفضاء يشغله شىء من الأشياء أو لايشغله شىء ما ، ففيه الهواء أو أى شىء » .

الموت والإله :

يرتبط تفكير ابن العاشرة « بالزمان والمكان » الراهنين « هنا والآن » مثله فى ذلك مثل ابن الخامسة . فهو يفكر على أساس من الواقع . وهو يريد الحقائق . فلا الموت ولا الإله يشغل اهتمامه ويستغرقه . وهو يتقبل الحقيقة الواقعة من أن الناس جميعا يموتون وأن

الموت كما أظهرت له مشاهدته وخبرته يجيء بعد سنه بزمن طويل . فأنت بصفة خاصة تموت عندما تكبر سنا . لذا فإنه يتساءل : « لماذا أفكر فيه الآن بينما هناك أشياء كثيرة جدا ينبغي التفكير فيها ؟ » وإنه ليلخص الأمر بألفاظه هو فيقول : « حسنا . . . . أظن أنه أمر لا بد من حدوثه ، لذا فأنا لا أقلق من جرائه »

وأهم الحقائق لدى ابن العاشرة هي أن المرء يموت ويدفن . « فكل هذا الحداد ووضع الأزهار على أحد القبور » أمور ربما لا يكون لها عند ابن العاشرة إلا معنى ضئيل . « لقد مات رجل وهذا هو كل ما في الأمر » .

وكان من عادته أن يهتم بالموت وما قد يحدث بعد الموت عندما كان أصغر سنا ، ولكنه الآن يتقبل ما يعرف ، وإن كان ما سيحدث بعده يثير اهتمامه . وهو يعرف أن الجسم يتحلل بعد الموت بمضى الوقت ، أو يجف ويصبح « كالمومياء » ، ولكنه لا يطيل التفكير في ذلك . أما التغيرات الأخرى التي يمكن أن تحدث بعد الموت فإنه قد يحاول التأمل في شأنها . فربما ظن ابن العاشرة أن الموتى « إنما يجلسون هناك وحسب ويرقبون ما يحدث » . وربما حدس : « أنهم غير محتاجين إلى الطعام . وأنهم لا يتكلمون » . وربما شغل باله لأن الموتى « لا يحسون بأى شيء . وأنهم لا يستطيعون فهم إحساسات بعضهم بعضا » أما الجنة فهي شيء أعلى من إدراكه قليلا لأنه « لم يذهب إلى هناك » . وإذا كانت هناك جنة فإن معظم ابناء العاشرة يميلون إلى الظن بأن كلا من الأخيار والأشرار يستطيعون الذهاب إلى هناك . وذلك لأن ابن العاشرة يرى « أن الأشرار ليسوا من الشر كما يظهرون لنا » .

وقد أخذت خبرة ابن العاشرة الخاصة والحقائق المعلومة لديه تمحص فكراته عن الله كما محصت من قبل فكراته عن الموت . ومع ذلك فإن كثيرا من أبناء العاشرة لا يزالون متأثرين بقوة بمفهوم والديهم عن الله وبالثقافة الدينية التي تأثروا بها .

وابن العاشرة وإن آمن بالله ، فإنه لا « يطيل التفكير في ذلك » . بل لقد يعزل الله بمفرده كحقيقة عندما يقول : « أعلم أنه موجود سواء فكرت في ذلك أم لم أفكر » . وابناء العاشرة الذين يؤمنون بالله أميل إلى الظن بأن الله

روح أو رجل غير مرئى أكثر منه شخص حقيقى . وهم لا يستمرون فى لوم الله على ما يحدث لهم من أمور لا بوصفه سببا فى المرض أو فى سوء الحظ .

وعلى نقيض ذلك ، يمكن أن يصبح الله نداً ورفيقا . فالله قد يصبح كائنا يستطيع ابن العاشرة أن يتحادث وإياه . وربما واصل تلاوة صلواته العادية ، ولكنه مع ذلك اذا « أراد أن يتكلم مع امرىء بوجه خاص فى أحد الأمور » صاغ لنفسه صلواته هو . وإذا عثر ابن العاشرة أثناء تفكيره فى الله على شىء فقد منه مثل كراسة الموسيقى الضائعة أمكن أن يكون ذلك برهانا حقيقيا لدى ابن العاشرة على وجود الله . ومهما تكن الحال فانه يشعر فعلا أن الله يجعله أحسن حالا ، وأنه يؤثر فيه تأثيراً شخصيا .

ومع ذلك فإن إيمانه بالله لا يستلزم دائماً تحمسه لمدرسة الأحد . فإن بعض من اعتادوا الذهاب إليهما ، لم يعودوا يذهبون . كما أن بعضهم ربما واظبوا على الحضور ، لأن والديهم يحملونهم على ذلك ، أو لأنهم ينعمون بالترتيل مع مجموعة المرتلين (الكورس) . ومع ذلك فان هناك كما هو الحال فى جميع الأعمار تلك القلة الضئيلة من البنات اللائى يحببن مدرسة الأحد حباً خاصاً كما أنهن مواظبات عليها عن إخلاص .

الفصل الخامس

سن الحادية عشرة

مصور النضج

يكون ابن العاشرة وهو فى أحسن صوره المثالية فى حالة من التوازن الكامل تجعله يبدو كأنما هو ثمرة كاملة التكوين صنعتها يد الطبيعة . وهذا القول صادق إلى حد ما ، وذلك لأن الطفولة فى العاشرة تصل إلى نوع من التمام والاكتمال .

ولكن سرعان ما تبرز قوى جديدة للنمو طاقتها التكوينية ، وتحل محل الطفولة تغيرات جديدة يطلقون عليها اسم المراهقة . والسنة الحادية عشرة تؤذن حقاً ببداية المراهقة وذلك لأنها تتمخض عن عدد جم من علامات عملية النضج ، التى لن تلبث فى مدى عقد آخر من الزمن أن تحمل الطفل إلى مشارف النضج .

فما هى تلك العلامات ؟ إنها أنماط جديدة للسلوك وقوى جديدة فيه . فإن ابن العاشرة الذى كان منذ هنيهة وديعاً لين الجانب يشرع فى إظهار أشكال غير مألوفة من الاعتداد بالذات وحب الاستطلاع ولطف المعشر ، أصبح الآن عنيداً جامحاً وباحثاً منقبا ومتكلما ثرثارا . وهو يتلوى — أجل يتلوى إلى حد كبير . وليس ذلك منه عن قلق ، ولكن لأنه يحب أن يكون فى حركة دائمة وذهاب وغدو . وإحساسه بالجوع لا ينقطع . على أن شهيته إلى الخبرة تضاهى شهيته الهائلة إلى الطعام . وهو دائم الاستعلام والتساؤل عن أحوال الكبار تساؤلا متزايداً ، وذلك لأنه يكبر وينضج ليكون يوما ما أحد أولئك الكبار . وهو يرقبهم بنوع جديد من التوقد ؛ بل لقد يقلدهم ساخراً ليزداد تعمقا فى فهمه لهم . وهو لا يحب أن يبقى بمفرده . ولديه جميع الوسائل والحيل اللازمة لتذوق العلاقات الشخصية المتبادلة مع والديه وأقرانه .

وهو محب للجدل ، ولكن « الجدل معه غير ممكن » كما عقبت إحدى الأمهات ؛ فإنه لن يسمح لك . وراحت أم أخرى فى فكاهة ملؤها الخير ، تلخص الوقف بقولها إن طفلتها ابنة الحادية عشرة لها « هوايتان فى الحياة — الأكل ، والكلام » . كما أن فكاهتها طوعت لها أن تقول أيضاً : « إنها صعبة ، ولكنها مدهشة ! » ذلك أنها أدركت بحسن استبصارها أن حالة الاعتداد بالذات هذه ربما لم تكن مجرد وقاحة بحتة ، بل محاولة فجة للوصول إلى قدر ضئيل آخر من النضج والمكانة .

وإن حيويته التلقائية الفوارة لتدفعه إلى القيام بارتيادات وغزوات جمة وهجمات متعددة فى صميم بيئته الشخصية ، وهو سعيد فى عدم تنبهه إلى أنه « صعب » و « وقح » . وهو يشعر باندفاعات وحالات مزاجية ، لم يشعر بمثلها من قبل أبداً . وكأنى بسلاسة نزعته العامة التى كانت له من سنة خلت قد أخذت تغيض وتتوارى ، ولكن تنعقد ألسنة الأسرة ذهولا حين يرونه بين الفينة والفينة قادرا أن يكون « ملائكيا » خارج المنزل . وفى إمكاننا أن نعترف له على الفور — دون أن نغتفر له جميع مايبدو منه من ألوان الشدة والتناقض — بعمق سذاجته فى النواحى الانفعالية الجديدة للسلوك المتبادل بين الناس . فهو فى الواقع مبتدىء حقيقى فى مجاهل تلك الميادين الأكثر تعقيدا . ومعلوم أن الانفعالات تكوينات تحتاج أن تتعرض للنمو والتنظيم . ولما كان لا يزال عند أولى درجات سلم المراهقة ، وكان الطريق جديدا عليه ، فإن لديه مجالا عظيما للنمو وأشياء جمة تنتظر التنظيم .

وغالباً ما تكون للحياة الانفعالية لابن الحادية عشرة ذرى عالية من القوة تصل إليها . فهو يستطيع أن ينفجر غاضبا بسرعة عظيمة . وهو عرضة لانبجاسات من الضحك ولحالات مزاجية متقلبة ، حيث تجيئه تلك الحالات ، وتغادره فى موجات وأحيانا بصورة منتظمة يومية : فهو متبلد وشكس فى الصباح ؛ متوقد ومرح بعد الظهر ؛ وتتابع عليه أيام النعمى وأيام البؤسى ؛ ويلم به التبرم عندما يحمل مالا يطاق من عمل دون ما وقت للعب ، ودون قدر كاف من الوقت للنوم . وتشتد

انفعالاته فى حركة صعود سريعة ؛ ويعلو صوته أيضا حتى يصل إلى عنان السماء ، وذلك أنه يجأر فى بعض الأحايين بشدة تستثير منا الصرخات المضادة ؛ وهو يمرق فى الغرفة صائحا بالتهديدات . وهذه الانفجارات تستدعى المعالجة الحازمة الماهرة . وهى تثيرنا إثارة لانهاية لها إذا نظر إليها بحساسية مفرطة أو تساهل مفرط .

وأمثال هذا النوع من السلوك تعكس لنا بالفعل ظاهرة عدم النضج فى التطورات الانفعالية الجديدة التى هى الآن فى مراحلها الأولى . وهناك مع ذلك صفة من البراءة والسذاجة تتصف بها كثير من ردود أفعال ابن الحادية عشرة الانفعالية . فإذا أخذت هذه الصفة أخذاً واقعيا ، خفت حدة استثارتها لنا — وهى الاستثارة المصاحبة لها — خفة كبرى . وبالمثل أيضا يمكن تقبل حمياته وحماساته حتى ولو لم تكن معدلة ولا مكيفة . وليست نوبات غضبه ارتدادات إلى نوبات غضبه فى سن ما قبل المدرسة . وذلك لأن أنماطا انفعالية جديدة تمر فى عملية تطور ؛ فهى ليست ارتدادات بسيطة إلى سن أبكر ، بل هى ظواهر نمائية لها أصولها الأولية فى صميم الكائن الحى لا فى أنماط الثقافة .

ذلك أن الكائن الحى يكون حقا فى حالة تغير لا تقتصر على ما يكسبه من زيادة فى ناحيتى الطول والوزن ، بل تشمل جهاز الحركة بأكمله للطفل . ففى الوظائف الفسيولوجية كضبط درجة الحرارة تصبح غير منتظمة . ذلك أن لابن الحادية عشرة طريقة خاصة يحس بها الحر الشديد أو البرد الشديد . فهو يتقلب بين طرفى نقيض . وهو سريع التعب . وليست هذه علامات للضعف البدنى البحت ، بل جزء من عملية إعادة تنظيم تطورى شديدة التغلغل فيه وعملية تتضمن سلوكه بأكمله .

ولكى يتيسر لنا أن نقدر الجوهر الإنشائى لسمات سلوكه الغنية بالتنوعات حق قدره ، يجب أن ينظر إليها فى ضوء النمو الفطرى . ففى موقفه السلبى وإلحافه ومجادلاته نفسها ، لها وظيفة إيجابية تزيده تغلغلا فى صميم الحقيقة والواقع . وكذلك الشأن فى غزارة حيويته واستطلاعه الرحب النطاق ووده الفاتن الموجه نحو الخارج ، فإنها تعكس كلها ما فى كيانه العضوى المتغير من تغيرات جديدة وتفاعلات .

ومثل هذه الشواهد تدل على أن الأمر ليس فقط مجرد إيذان بالمراهقة . فهو فى الحق مراهق فى مرحلة التكوين . ولا ينقصنا للحصول على صورة ملموسة أكثر لسمات نضج الحادية عشرة إلا مشاهدة الطرائق المميزة التى يقابل بها المواقف المتنوعة للحياة فى البيت والمدرسة وفى الخارج فى المجتمع الأكبر .

خذ على سبيل المثال استجاباته « للمقابلة » التى تجرى بيننا وبينه فى سن الحادية عشرة ، — وهو موقف يتفق إلى حد كبير وما ينطبق عليه من قواعد علم النفس العامة . وكان مثل هذا النوع من المقابلة غير ممكن تقريبا فى سن التاسعة . فأما الآن وهو فى الحادية عشرة ، فانه يلتقى بك متجاوزا منتصف الطريق ويمتلىء بهجة بسنوح تلك المناسبة . ويبلغ من عظم صراحته وميله إلى التواصل والحديث مع الناس أن المتحدث إليه منا لا يحتاج إلا إلى الإصغاء إلى حديثه الطلق السيال ، وهو يبدو أمامك واقعيا مدليا بالتفاصيل وجادا ومخلصا وودودا ، — مع الأب . ولكنه كذلك أيضا يطلق العنان لحب استطلاعه القاهر ؛ بل لقد ينهض من مقعده ليجول فى أرجاء الغرفة على طريقة الباحث المنقب ، يريد أن يلمس البيئة المادية المحيطة به ويرتادها ، وأن يعبث بأصابعه على آلة كاتبة ، ويسأل أسئلة شتى منوعة منها الخاص ومنها العام حول معنى هذه وتلك وفوائدها .

وإذا هو ظل فى مقعده ، بدد مقادير كبيرة من الطاقة فى تغير أوضاع جسمه . فهو يتلوى فى عدم ثبات عظيم . ويتعوج ويثب ويتحرك على الكرسى بأكمله ، ويطوح بإحدى قدميه عبر ذراع الكرسى ، ثم يسحب ساقه ويصك ركبتيه معا وينحنى ويشد حذاءه . وهو فى نفس الحين يحرك أسارير وجهه ويرفع رأسه ، ويقذف خلال ذلك بالتعليقات أو ينفجر ضاحكا . فنشاطه يضم الجسد كله ويمتد من الرأس إلى القدم . ومع ذلك فليست حركاته « عصبية » لا فى ماهيتها ولا فحواها . وكأنما الجهاز الحركى النفسى بأكمله لدى ابن الحادية عشرة مزود أعظم تزويد بوسائل لتوليد الشرر . لذا فإنه يرتكس Reacts بطرق متعددة لا معقدة ، أى أنه يعمل مبتدئا من نقط متعددة دون كبير رعاية لملاقاتها بعضها ببعض .

وهذا التنوع والتعدد فى قدرته على تبادل الاستجابة لما يحيط به من مثيرات يجعله يبدو عظيم النشاط والقوة ، وغالبا ما يضفى السحر والفتنة على صحبته — ومن ثم فان المقابلة كان ينعم بها كل من الفريقين المشتركين فيها ، كما أن المناسبة كانت تتخذ من تلقاء نفسها صفة الزيارة الاجتماعية . وكذلك الشأن فى الامتحان البصرى فانه كان يطلق أيضاً عقال ما للحادية عشرة من ميل اجتماعى إلى الاستطلاع . لقد كانت تستهويه الآلات البصرية الفنية ، وكان يسأل أسئلة كثيرة غريبة حول الوسائل والإجراءات المتعلقة بتلك الآلات . ولكن الامتحان التطورى كان أدنى إلى التضييق عليه ، وإن أطلق هو أيضا العنان لتصرفات مماثلة ، جاءت بشكل ابتسامات وتعليقات ودوران للأعين فى محاجرها وتبديلات فى وضعة الجسم . وكانت هذه الأخيرة تتحول أحيانا إلى نمط شامل يخالطه الارتخاء الذى يضم الجذع والأطراف الأربعة جميعا . ومن العسير وصف التصرفات ، بيد أنها تحتوى على كثير من العلاقات المعروفة بالعيادات والدالة على مدى نضج الفرد وحالته العامة . ولهذا السبب يتصرف ابن الحادية عشرة تصرفا مختلفاً قليلا عن تصرف ابن العاشرة أو ابن الثالثة عشرة . والباحثون الخبراء بشئون الأطفال يزدادون على الدوام تنبها إلى مثل تلك الفوارق المميزة للنضج .

وليس مما يحط من قدر ابن الحادية عشرة تماما أن يكون فى الغالب أحسن سلوكا خارج المنزل . إذ أن ذلك يكشف على الأقل عن القدرات الكامنة ! والحق أنه وإن اشتهر بأنه مصدر الشر فى البيت ، فإن لديه إحساسات قوية بالولاء لعائلته والتعلق بها . وقد عرف عنه قوله : « إنى شخص حر . فلماذا أكون ملزما بفعل ما تأمرنى العائلة به ؟ » ولكن ليس ثمة شيء أمتع له من الانغمار فى صميم الحياة العائلية إن شعر بملل . وهو ليس ممن يأخذون أنفسهم بالاعتزال . فإذا كان من حسن حظه أعطى غرفة خاصة ، يعتكف فيها . بل تراه ينجذب نحو جماعة العائلة ، كأنما هى مغناطيس يجذبه إليها . فإذا هو عاود بإلحاح مقاطعاته لحديثهم فربما أطلقوا عليه اسم (البلوه) أو (الوباء) ، ولكنه قد يغدو أيضا محور الاجتماعات وروحها ، وذلك لأن لديه موهبة

المرح والضحك . ومن الخير أن يكون بالقرب منا ، حسنت نتيجة ذلك أم ساءت . فإنه بما فطر عليه من حمية وما ركب عليه سلوكه من سذاجة غرة ، قد يغفل تماما عن مدى إفساده لسلامة التجانس العائلي . ولا يغرب عن البال أنه يحب الانتساب إلى إحدى العائلات وأنه يحب فكرة أن له أقارب بما في ذلك الجدات والأجداد .

ويمكن أن ينسب الشيء الكثير من تفاهة سلوكه إلى مجرد عدم خبرته بتكوين التوافقات بينه وبين الناس داخل ثقافة لاتبرح تتغير مثلما يتغير هو نفسه . أما الشجار مع الأخوة ، وأما التمرد على الوالدين ، وأما المقاومة للأعمال والآداب المفروضة فهي إلى حد كبير مظاهر لما يتجلى في باكورة المراهقة من الاعتداد بالذات وإثبات الذات .

وابن الحادية عشرة أمهر في التحدى منه في الاستجابة . وكلما نضج تحسن التوازن بين الأمرين . بيد أنه يجنح وهو في مرحلة تطوره الراهنة إلى إنشاء مقاومات طابعها التحدى يبغى من ورائها إثارة استجابات تمده بقوة دافعة يقاومها ويعمل ضدها . وليس ذلك عن شر مبيت ولا هو عناد بسيط . بل هو وسيلة تطورية يستخدمها — ويكون ذلك غالبا بطريقة غير مهذبة — لتحديد موقفه وحالة الآخرين أيضا .

وإن له أيضا لوسائل أخرى محبوبة أكثر يزيد بها معرفته بالسلوك البشرى . فهو يحب أن يبتدىء تفاعلا بهيجا مع شخص آخر ليشهد ما يكون منه من ردود أفعال على وسائله في عجم عوده . ومثل هذا النوع من التحدى ، إنما هو مظهر طبيعى يكاد يكون غريزيا لفجر المراهقة . وهو جزء من الدور الكلى الذى سيلعبه في الحياة . ونحن إذ نشدد التأكيد على أهمية التعلم عن طريق الكتب ، نجنح إلى نسيان أن الأطفال لايولدون وبهم معرفة دقيقة بالطبيعة البشرية . فلا بد للمراهق أن يتعلم كيف يتصور بخياله حياة الآخرين ، وكيف يشحذ مشاعر الزمالة في نفسه ويرضيها ويشبعها .

وفي هذه السن البكرة سن الحادية عشرة يشرع الأبناء والبنات في رؤية والديهم كأفراد من الناس تنعكس شخصياتهم في السلوك . ويبلغنا الآباء في المجموعة التي ندرسها أن ابن الحادية عشرة يصبح شديد النقد لهم بصورة فجائية تقريبا . ومع ذلك فإن المحبة

لاتزول؛ بيد أن هناك إفراطا فى التنقيب عن الزلات ، وفى الجدل والمحاجة والسباب والصراخ والرد وقلة الأدب الفجائية المبالغ فيها . والظاهر أن الأمهات يتلقين منهم من ضروب النقد ما هو أشد حدة وأكثر عددا مما يتلقاه الآباء . ويجدر بالأم أن تكون أكثر صبرا وربما أكثر تسامحا وتحملا ، وذلك لأنها تتذكر أن طفلها قد مر بمرحلة مماثلة لهذه من هذا النوع من السلوك المضاد أثناء انتقاله من طيابة الخامسة إلى العنف اللفظى فى السادسة . ولم تتح الثقافة العصرية القدر الكافى من التحكم فى انبجاسات العنف الفجائية ، ولكن من حسن الحظ أن ابن الحادية عشرة يحتفظ فى الأحوال السوية بمشاعر قوية من الولاء والتعلق ببيته . ولا ينشأ شغبه عن عداء للحياة العائلية .

والتوافق مع المدرسة أبسط إلى حد ما وأسلس من التوافق مع البيت . فإنه لايضطر بالمدرسة إلى التنازع مع الإخوة ولا الوالدين ولا الأقارب ولا المهام المنزلية . وهو يحب مقابلة أقرانه وأن يمتزج بهم ويشتبك معهم ويتنافس وإياهم . وهو شديد الحساسية للقوى المحركة فى الجماعة ، ولكن ليس من الضرورى أنها تتسلط عليه . وانه ليستطيع أن يقول بلهجة تعميم جارفة وفى مطابقة صادقة لثقته بنفسه : « إنى أختلف مع المدرسة ! » والواقع أنه فى الظروف السوية يكون تلميذا متوقدا متحمسا ومعاونا متلهفا فى عمله وعنده من حب الاستطلاع ما لا يمكن ~~استيعابه~~ مستيعابه. وهو يكشف عن قواه المبشرة بالخير عندما يفصل القول فى سجايا معلمة ماهرة . فلابد لها أن تكون « واسعة الثقافة » مشرقة حازمة ولكنها عادلة وفكهة متفهمة — كما ينبغى أن لاتصرخ قائلة : (من الذى يتكلم ؟) ! !

وابن الحادية عشرة يوجه تركيزا عظيما إلى عمله المدرسى عندما يعمل مع جماعة تتنافس وجماعة أخرى ، خاصة اذا كانت الجماعة المقابلة مكونة من البنات فقط . وعملياته العقلية واقعية وغير نظرية جدا . وتفكيره حسى ملموس ونوعى إلى حد كبير . ومن ثم فإنه لا يبرح يحب كتبه الهزلية التى هى شىء خارج عن خطة المدرسة . ولما كان مرتبطا إلى الحركة والعمل بأوثق الروابط ، فإنه يميل إلى التلفزيون . وهو يؤثر فى المدرسة أن تكون المعلومات فى صورة حكايات يفضى فيها حدث (أو عمل) إلى آخر

ثم آخر بصورة لا مفر منها . وهو انتقائى أكثر منه تأملى ؛ ويوجه التفاتا أقل إلى الملابسات والعلاقات . ولعله يضع أسس ما يتلو ذلك من تفكير تصورى . ومهما يكن من شىء فإن ميله للاستطلاع شىء لا حد له سواء داخل المدرسة أو خارجها .

وأنواع النشاط التى يميل إليها ابن الحادية عشرة خارج المدرسة منوعة سيالة غير محددة . فإنها تنطوى على قدر كبير من « العس البحت » هنا وهناك ، يروى ميله المتأصل لإثارة التفاعلات بينه وبين زملاء اللعب كالإيذاء والتعبير وأدوار اللجاج الموجزة الشبيهة بالمعارك والعداء المفتعل والصلح المفتعل مع فترات بين ذلك من حميم الصداقات . ولا شك أن هذا النوع من النشاط المطبوع بطابع اللعب بما يحوى من تنوعات لا نهاية لها يستغرق شطرا كبير من وقت الفراغ ويسهم دون ريب فى تنظيم السلوك الاجتماعى الآخذ فى النضج لدى كل من الصبيان والبنات .

وللبنات وسائلهن الخاصة لتحديد الأنماط الانفعالية . فإن إحدى البنات علقت على الجيش الكبير من الاصدقاء الذى لها بقولها : « إنى أحبهم جميعا ، ولكننا مضطرات إلى التشاجر لنقطع السكون الذى يسود علاقاتنا » . وعلقت بنت أخرى بقولها : « لست أستطيع أن أذكر من ليست أعز صديقة لى فيهن ؟ » والأندية الضعيفة الرابطة بين أفرادها تزودهن بمسرح يبحثن عليه العلاقات المتبادلة بين الناس . وهناك يحدث قدر كبير من المؤامرات وتدبير الخطط والادخال فى الزمرة والاستبعاد منها — وكلها فى أغلب الظن تهدف إلى التعبير عن الانفعالات ونضجها !

ويجتمع الصبيان فى أندية كهذه تنظم نفسها بنفسها ، وهى ضعيفة التكوين هشة رغم التشديد فى دفع الاشتراكات . فإذا لم يتح لتلك الأندية إشراف فما أسهل ما تخرج عن كل قياد . ومن حسن الحظ أن كرة القاعدة أحب رياضة يؤثرها هذا السن . وهى وسيلة مثالية لبث الطابع الاجتماعى فى أبناء الحادية عشرة سواء وجد الإشراف أم لم يوجد .

لم يظهر بعد ذلك الأثر المتبادل للتهذيب والدماثة الراجع إلى وجود الجنس الآخر . اذ لا يسمح إلا فى مناسبات قليلة بدخول البنات للمساهمة فى لعبة كرة القاعدة . وإن

معظم صبيان مجموعتنا ليعبرون عن حيادهم إزاء البنات . قال أحدهم : « لسنا نعترض على البنات . ولكننا لا نلعب معهن عادة . وأظن أننا قد نلعب إذا لزم الأمر » . وفى هذا الوقت يكون كثير من البنات فى مرحلة عداء متطرف للصبيان . فإن متكلمة عن جنسها أوجزت الأمر ببساطة فقالت : « انهم جميعا بلاوى » .

ومع ذلك كله فإن بذور الظرف واللطف يتواصل انباتها . فالصبيان يتشاجرون ، ولكن الشجار ليس إلا نصف النمط ؛ والصلح هو النصف الثانى . والبنات « تثور ثائرتهن بشدة إحداهن على الأخرى » ، ولكنهن يعدن فى الوقت المناسب فيحتلن على التحادث والصلح مرة ثانية . وهذا التتابع المكون من الخصومة الحامية الأوار التى يعقبها الصلح ، من الكثرة والتلقائية بحيث يمكن عده آليـة تطورية غايتها تنظيم الانفعالات . والخلافات أكبر من أن تكون تصرفات طفلية ؛ وذلك لأن ابن الحادية عشرة قد أخذ يصبح شابا ، كما أن انفعالاته تمر فى مرحلة نماء جديدة تتجه نحو النضج . وتتخذ صداقاته عمقا جديدا وصفة أخرى جديدة . فهو أقدر على تمييز الخصائص الفردية المميزة لرفقائه . وهو يحس بابتهاج خاص حين يقوم بزيارة تنتهى بقضاء الليلة مع صديق مختار . وتكثر البنات من قضاء الليل إحداهن مع الأخرى . .

ومثل هذا الضرب من الخبرات المستفادة خارج المنزل جزء من عملية تدريجية يشترك فيها كل من الوالدين والطفل — وهى العملية التى يسمونها عمليـة تحرر المراهق . ولفظة « التحرر » تعيد إلى الأذهان القانون الرومانى الذى كان يعرفه بأنه تحرر طفل من السلطة الأبوية . وهى تعنى فى الحياة العصرية ذلك الانفصال الطويل المطرد الذى يصل به الطفل فى النهاية إلى قدر كاف من النضج يجعله معتمدا على نفسه ومستقلا .

وغنى عن البيان أن ابن الحادية عشرة لايزال عنـد أبكر مراحل تلك العملية . فاعتماده الآن على نفســه أكثر منه أثناء سنته العاشرة ؛ فهو يطالب لنفسه بالحق فى الفصـل فى أمور معينة خاصة به وينعم بذلك . وإحساسه بحرية جديدة فى الاختيار الأدبى يعد علامة النمو الصحيح . وأنا لنعترف له بالفضل على جهوده الطيبة . ذلك أنه يحاول والحق يقال أن يقول الصدق . ولكن إذا صعب عليه ذلك كثيرا ، فربما أنكر

إنكاراً مريبا ووقى نفســه بجعل أصابعه على شكل صليب — وهو شيء من السحر يذكرنا بأن الناحية الخلقية للسلوك خاضعة لقوى النمو الفطرية . ولابن الحادية عشرة ضمير ينمو فى اتجاهات كثيرة . فإنا قد لحظنا من قبل غيرته على العدالة ومقته للغش . وربما كانت حرارة اتجاهاته أعظم من عمقها . فهو اندفاعى تعوزه النظرة التناسبية إلى درجة أن يربكه اضطرابه الانفعالى . بل قد يكون غير متنبه إليه . وهناك شيء من الحرافة اللاذعة فى استفساره وهو متحير متعجب : « ما ذا تعنى ، أتقصد انفجاراتى الوقحه ؟ » ذلك أنه غير متنبه إلى ما قد يأتيه من مظاهر القحة .

فليس عجيبا أن الوالدين أنفسهم يحسون الارتباك والإحباط لما يبدر منه فى بعض اللحظات من سلوك بالغ الحـدة يناقض بدرجة عجيبة اتزان السنة العاشرة والطيبة المعروفة عنها . وكذلك شأن المعلمات أيضا، فإنهن يذهلن أحيانا إذ يرين انحلال السلوك الذى ربما حدث عندما ينفلت تلاميذهن اللطيفون نسبيا داخل الفصل إلى تلك الحرية الطليقة التى لا يكفهم شيء عن ممارستها فى فناء المدرســة . ولتفسير سلوك ابن الحادية عشرة ذى الطاقة المحركة العظيمة بكل ما يحتويه ذلك السلوك من جيشان ومابه من تناقض وتقلبات متضاربة ، يجب أن ينظر إليه [السلوك] فى إطار الصورة المتناسبة لدورة النمو . ومن البديهى أن مثل هذه الصورة التناسبية لاتحل أوتوماتيكيا المشاكل المباشرة المتعلقة بمعالجة الطفل للمواقف التى تمر به، ولـكنها تساعد بالفعل على أن يتحقق له الضبط الحـكيم .

وستظهر الأيام أن السنة الحادية عشرة تعد نسبيا سنة تتميز بأنها حقبة انتقال . ذلك أن الـكائن الحى تمر به تحولات تهذبه وتصقله من ناحيتيه الفسيولوجية والنفسية على السواء فإن التغيرات الخفية لـكيمياء البدن وللنمو التكوينى للجهاز العصبى تحجب عن أبصارنا ، ولـكنها تظهر نفسها دون أية مواربة فى أشكال السلوك وطرائقه المتنيرة . وتجيء كثير من تغييرات السلوك بشكل تدريجى شـديد بحيث لاتدركها الأبصار ؛ ومنها ما ينفجر بعنف حتى ليتطلب من الثقافة رد فعل مصحوب بتنبه فزع : وتعبر غزارة النمو المتدفقة عن نفسها بعلامات إيجابية وسلبية . فتنبثق الأمارات الدالة على المواهب والاستعدادات

الآخذة فى النضج . وتصبح الفردية محددة تحديداً متزايدا ، من ناحية كل من السمات المحبوبة وغير المحبوبة .

وهناك قلة ممتازة من ابناء الحادية عشرة الذين يحتفظون — فى مستوى عال — بالتوازن والانسجام التكاملى الذى كان لهم فى السنة السابقة . ولكن فى الحالات المثالية نرى أن مسلك ابن الحادية عشرة وتصرفه يظهر فيه انصراف عن الروابط القديمة ويستجيب لتيارات التطور الخفية . فإن قناعة ابن العاشرة المثالى واكتفاءه الذاتى وأخذه وعطاءه الحر ، تحل محلها الاندفاعات الديناميكية المتعددة الأشكال التى لخصناها : ما بين اتساع جديد فى دائرة العلاقات الاجتماعية يقترن باثبات الذات ؛ واستقصاءات قلقة وهجمات سابرة ؛ وتحصينات دفاعية ملؤها الخيلاء وفرط الحساسية ؛ وحالات مزاجية متغيرة ، بين منقبضة ومرحة ، وومضات من الغضب والمحبة ؛ وحب استطلاعات ناشطة وفوارة ؛ وتقمصات متلفة للبيت والمدرسة والأصدقاء ؛ ولحظات كثيبة من القنوط واليأس ؛ ولحظات مشرقة من الرغبة والطموح .

تلك كلها سمات للانتقال تومى إلى ابتــداء المراهقة . ويمتزج القبط والحمية وثقل الحركات فى أنماط تدل على وجود عملية قوية للكبر والنضج . وهذا وقت من أحسن الأوقات للتعرف بعلم النفس الأساسى لتطور المراهق .

وستلقى السنة الثانية عشرة التالية سهام أنوارها على المنطق التطورى لفجاجات السنة الحادية عشرة وعدم نضجها . وسينكشف الجوهر الانشائى للنمو بفضل ظهور أنماط جديدة للتعقل والشعور بالمسئولية كانت كامنة ، كما كانت والحق يقال مرئية واضحة إلى حدما فى فترة النمو فى السنة الحادية عشرة .

سمـــات النضج

١ - جهاز الحركة الكلى

إن النشاط البدنى أى تبديد الطاقة الذى لا يقف عند حد والذى هو شىء واضح جدا كما أنه فى الغالب أمر لاسبيل إلى مقاومته فى الحادية عشرة ، هو المظهر الخارجى لتغيرات واضطرابات عنيفة داخلية . ومع أن بعض الصبيان يحافظون على اتزان العاشرة ، فليس الاتزان بالمظهـــر الرئيسى لذلك العمر . فابن الحادية عشرة أكثر نزوعا إلى الانفجار والنط والقـذف بنفسه هنا وهناك . ونشاطه — وبخاصة حين يكون مقيدا على أية شاكلة (كالجـلوس على كرسى أثناء إحدى المقـابلات) — ويبلغ من استمراره أن المرء يكاد يصاب بما يشبه دوار البحر من ملاحظته له . فإنه يثب فى الـكرسى إلى أعلى وأسفل . وهو يتأرجح خلفا وأماما . وهو يدفع بالـكرسى دائرا به على الأرض إن أتاح له فرش الأرضية ذلك . وعلى حـين بغتة يهز رأسه أو جسمه بأكمله أماما ، جاذبا معه كرسيه أو لعـله يحرك ذراعيه فوق رأسه ، ويشبك يديه على رأسه . وهو يتمطى . وتلوح يداه كأنما هما فى نشاط مستمر . فاذا كان بيده شىء — كـكرة أو علبة نظارة — أخذ يقـذف به إلى أعلى وأسفل قذفا متـكررا .

فاذا غشيه التململ يقف ويتمطى ويريد أن ينتقل إلى كرسى آخر أو يرقد على فراش . وليس ساقاه أقل نشاطا من ذراعيه . وغالبا ما يباعد بين ركبتيه تماما ثم يصكهما . أو لعله يعبث بجوربه أو حذائه .

ووجهه لا يقل نشاطا عن بقية أجزاء جسمه . فان التعبيرات تلعب عليه ألعابا عجيبة . فالعينان تلتمعـان وتتحركان حركة سريعة وهما تنقـلان من جهة لأخرى ، ثم إذاهما تمرقان فجأة نحو الشخص الذى تتحدثان معه . وربما رفع الحاجبان أو خفضا . وغالبا ماتزم الشفتان أو يتدلى اللسان وذلك إلى حد جانبى الفم عادة .

وكثيرا ما يتفجر ابن الحادية عشرة ضاحكا ، وخاصة إذا لم يكن واثقا من نفسه . وهو يتكلم بسرعة وغالبا ما يؤكد التشديد على كلمات معينة . وصوته ينم عن نقص فى الكبح ، كما أن به ميلا إلى أحداث نغمة (خطافة) أنفية تتجه إلى أعلى . ويمكن لابن الحادية عشرة أن يحدث جلبة وزئاطا شديدا ، وأن يتفوق بسرعة على ترب له فى الصياح فليس عجيبا إذن ، وهذه طاقة أبناء الحادية عشرة المستدعة المتفجرة أن يجنح بعضهم إلى الرقص التوقيعى فى أرجاء البيت أو يحس بحافز يدفعه إلى القيام بحركات الشقلبة والسقوط . .

الصحة :

وابن الحادية عشرة وإن أمكن أن تكون صحته جيدة تماما ، فإن به تعرضا إلى زيادة مرات الإصابة بالبرد أو الانفلونزا وأمراض الأذن وإصابات الجيوب الأنفيه ، بل قد يصاب أحيانا بالالتهاب الرئوى نفسه . وإن تعرض العدوى للانتشار كما هو الحال فى انتشارها داخل الأذنين والرئتين ، بل حتى إلى أغشية الدماغ كما هو الحال فى التهاب الغدة النكفية السحائى ، إنما هو صفة من صفات ذلك العمر كما هو الحال إبان المرحلة المبكرة بين الخامسة والنصف إلى السادسة .

وآلية ابن الحادية عشرة البدنية بأكملها شديدة التغير والتقلب . فإنه قد يحس فجأة بأنه حران بدرجة لا تطاق ويخلع جاكتته . وإن أى إفراط فى الاجهاد أو الاهتياج ليدفع المصابين بالحساسية (الرهاف) من الاطفال إلى أحضان الربو . والبنات عرضة للقىء إذا مسهن البرد أو فرط الاهتياج . والتعب أبرز وضوحاً مما كان وربما تجلى فى صورة حاجة متزايدة إلى النوم . وهناك شكاة منتشرة إلى حد ما بين أبناء الحادية عشرة هى أن أقدامهم تؤلمهم .

وكثير من الشكايات الصحية لابن الحادية عشرة صحيح لاشك فيه ، وخاصة ما اتصل منها بالصداع ووجع الأعين والاختلاج (وكلها يمكن فى الغالب إزالتها مؤقتا بالأسبيرين) . على أن بعض أبناء الحادية عشرة ربما كانوا إلى حد ما مرضى بالوهم . فهم يدخلون فراشهم لأتفه بوادر إصابتهم بالبرد أو لأصغر جرح . وإذا سمعوا بمرض غيرهم ظهرت عليهم نفس أعراضه .

متنفسات التوتر .

يعد النشاط الحركى المتزايد لأبناء الحادية عشرة جزءاً من متنفسات توترهم وربما حدث نوع خاص من الرمش بالأعين وشن بالأنف أو تقليص للوجه يتحول إلى تكشير . وقد تبدو على فم ابن الحادية عشرة أحيانا ابتسامة عجيبة إذا أحس شيئا من الاستحياء . وربما عاد ابن الحادية عشرة إلى مرحلة سابقة من التعثر والسقوط أو كسر الأشياء دون أن يقصد ذلك .

البصر .

قد تغيرت الصورة البصرية تغيرا جسيما فى ابن الحادية عشرة كما تغير أيضا تنبه ابن الحادية عشرة إلى بصره . فهو يعرف متى يتزغلل بصره ، وخاصة بعد قضائه مدة طويلة فى القراءة . وهو كثيرا ما يذكر أنه يصاب بالصداع والزغللة عندما ينقل بصره من شىء قريب إلى آخر بعيد .

ويلم بالآلية البصرية نوع من التفكيك العام ، وتحسن فى القدرة على تركيز النظر . وقد أصبح خطر الإصابة بقصر النظر الذى يبدأ فى الزيادة فى هذه السن أقل مما كان فى التاسعة والعاشرة .

ويشير التحسن فى حركة تركيز النظر الحشوية هذه ، الذى يحدث فى نفس الحين مع زيادة استجابات ابن الحادية عشرة الحشوية أو الوجدانية ، يشير إلى أن بين الأمرين شيئاً من العلاقة الباطنية المتغلغلة .

ويظهر موقف الاختبار البصرى أن ابن الحادية عشرة ينمى مهارات لا بأس بها فى التوافق البصرى وفى طريقة استخدام العينين معا والإبصار للتعمق والتمييز البصرى على أن العيوب الأكثر شيوعا يحتمل أن تحدث فى « الميدان القريب » للبصر على صورة عدم ثبات حركات الأعين ، وتحديق بصرى متغير وتعطيل للبصر فى إحدى العينين ونقص فى إدراك العمق . فإذا وجدت مثل هذه العوائق ، أصبح ابن الحادية عشرة أكثر تعرضا للتعبير عن الشكايات البصرية منه قبلا .

فإذا شكى من صعوبات فى تركيز النظر أو حدثت له الزغللة ، فكثيرا ما يشار على الوالدين بالاستعانة بالعدسات المحدبة أثناء أداء العمل القريب . ولكن

ابن الحادية عشرة لا يحتاج إلى لبس النظارة طول الوقت . بل الحق أنه غالبا ما يرى ذلك شيئا « فظيعا » ، ولكنه يتقبلها للأعمال القريبة تقبلا يعود عليه بالنفع . وربما أمكن مساعدة ابن الحادية عشرة بواسطة التدريب البصرى ، بيد أنه ليس شخصا متعاونا ، وغالبا ما يكون الوقت والجهد المبذولان فى محاولة مساعدته على الحصول على الأداء البصرى السليم شيئا لا طائل تحته . كما أنه لا يستفيد استفادة كافية تسمح بمواصلة ذلك .

التطور البدنى والتنبه الجنسى – البنات

تتبدى فى البنات فى الحادية عشرة اختلافات فردية تستلفت الأنظار ، وخاصة عند الموازنة بين النقيضين فيهن النحيلات والبدينات ، وذلك على عكس صبيان الحادية عشرة الذين يلوحون كأنما هم جماعة متماثلة متسقة نسبيا من حيث تكوينهم البدنى . وتتجلى أيضا حالات متطرفة مماثلة لتلك فى تطورهن الجنسى . فمنهن من لا يبدو عليهن أى أثر للتطور الجنسى حيث يحتفظن بمظهر الطفولة الأقل تمايزاً فى حين أن قلة من البنات المتقدمات بدنياً قد تجلت فيهن الأشكال العامة لنواحى البروز والاستدارة فى التكوين الجسمانى والأداء الفسيولوجى للمراهقة المكتملة .

على أن حالة مجموعة الأواسط من البنات ثابتة نوعاً ما . فما تكاد تنتهى تلك السنة حتى ينمو لهن جميعا عدا قلة قليلة — شىء من شعر العانة . ويزداد عرض منطقة الحوض فى كل من التكوين العظمى الداخلى وما يكسوه من الأنسجة ، فيظهر بذلك فى كثير من البنات بروز فى كل من الركنين الأعلى والأسفل للحوض (وهما الحرقفة والرضفة) مع تجويف بين الاثنتين وخصر مستدق فى أعلى يقدم إلينا شكل الأنثى النموذجى المخلوق « على هيئة الزهرية » . (vase) .

وقد بدأت الغالبية العظمى من البنات فترة نموهن الطولى الأكثر سرعة كما أن ما يقارب الثلث منهن قد بلغن أسرع طور من أطوار تلك الدورة

فالبنت المتوسطة قد بلغت آنفا حوالى ٩٠ فى المئة من طول قامتها وهى بالغة وقاربت الخمسين بالمئة من وزنها عندما تبلغ الحادية والعشرين.

ويتواصل نمو الثديين عندما ترتفع المنطقة المحيطة بالحلمتين لتكون بروزا شبه مخروطى فوق صدر كان من قبل مسطحا. وأحيانا تتكون كتلة صلبة قرب الحلمة وتكون أول دلائل التضخم، والغالب أن ينمو ثدى أسرع من الآخر وحتى البنات اللائى لم يرزقن تضخما واضحا فى الأثداء يحدث لهن امتلاءاً أكثر من غيرهن وليونة بمنطقة الصدر.

وتهتم البنات اهتماماً تاماً بهذه التطورات — لا فى أنفسهن فقط بل وفى البنات الأخريات من أترابهن. وهن يشعرن بحساسية مفرطة فى منطقة الصدر، وخاصة حول الحلمتين، وربما شكون ألما بهما. وهن يرقبن تغيرات أثدائهن: — الامتداد الأول للحلمتين والتضخم البطىء فى الثديين. وهن متنبهات إلى الثدى الذى «يسبق» الآخر. وربما اشتد اهتمامهن بحيث يصبح موضوع لعب واستطلاع وتسلية يمارسنها كل ليلة. ومنهن كثيرات يحلمن باليوم الذى يتقدم فيه تطور اثدائهن بحيث يرتدى الصدير (السوتيان). وربما حدث فى حالات نادرة أن بنتا قد ترغب فى إرتداء سوتيان وسروال من حرير تدخل فراشها، متمثلة وهى تفعل ذلك زمنا سيجىء إبانه مستقبلا وربما بدا مثل ذلك الزمن بعيدا بعداً يؤلم البنات حتى لدى البنات اللائى لم يكتمل نضج صدورهن بعد، وهؤلاء يحسسن أن الأمر قد فاتهن، وكثيرا ما يستعلمن عن الأثداء العيرة. ومع ذلك فان القلة عينها التى بلغ تطور أثدائها أقصى تقدم ربما شعرن أيضاً بشذوذ شكلهن وبالخجل يعروهن وربما بكين عندما يصبح السوتيان شيئا لا بد منه.

وعند منتصف العام الحادى عشر إلى الثانى عشر تحل البلوزة (blouse) محل القميص المحبوك المقور. وسرعان ما يلبس السوتيان المشتهى. ومن حسن الحظ أن أصحاب المصانع قد لمسوا الرغبة فى سوتيان صغير جدا، وبذا تستطيع حتى ذوات الأثداء الصغيرة أن يخرجن ظافرات بالجدارة والأهلية عندما يعمد أترابهن إلى التفتيش عمن يلبس السوتيان. ومع ذلك فليس كل البنات فخورات بتطور أثدائهن. فهناك أولئك اللواتى يرتبكن ويحدبن أكتافهن

محاولات عبثا إخفاء آية التطور التى لا تخفى على أحـــد ، ولـكن معظم البنات سيتغلبن سريعاً على هذا الارتباك الأول ؛ ويصبح الحافز للواحدة منهن أن تـكون « بنتا أحلى » عندما تبلغ الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، — وهذا أمر يشغل فـكرهن بصورة أعظم كثيرا. كما أن شعر الإبطين ربما سبب ارتباكا مماثلا وإن لم يظهر إلا فى بنات قليلات جداً . ومن حسن الحظ أن فى الامكان معالجة هذا الموقف بالحلاقة ، إلى أن يظهر الشعر لدى الأخريات أيضاً .

ومع أن المعرفة بالحيض ربما لم تكن قـد طرقت أفهامهن قبل ذلك ، فإن فهمهن له اليوم أحسن — ولعل ذلك ناجم عن نفس اقتراب أوانه . فبنت الحادية عشرة تتطلع إلى الحيض بوجه عام تطلعا إيجابيا أكثر من ذى قبل وأكثر منها وهى فى العاشرة . بيد أنه لا تزال بينهن من تمقت الفـكرة : وبنت الحادية عشرة ذات اهتمام بفوطة الحيض وكيف تلبس . ولعلها ظنت يوما ما أن المستودعات الموجودة بغرف الغسيل تحتوى على فوط من ورق ، ولـكن ضحك صديقاتهـا سرعان ما يفهمها أنها أخطأت الزعم . وبعض بنات الحادية عشرة يحسسن بقدر أعظم من الارتياح إذا هن جربن ارتداء فوطة الحيض وحزامها . وربما قررن فى أنفسهن أن يرتدين إحدى تلك الفوط بصورة دائمة عندما يبلغن الثالثة عشرة ، استعدادا منهن للأمر . وهن يتساءلن متحيرات ما إذا كانت تلبس بالليل أيضا . ولا تبدأ فى الحيض أثناء السنة الحادية عشرة إلا نسبة مئوية صغيرة من البنات . على أن هناك مع ذلك علامات ونذر عابرة : من ألم بالبطن فجائى حاد أو غثيان فى الصباح .

ولا تهتم البنات اهتمام الصبيان بالحكايات «البذيئة» ولا بمشاهدة الاختلاط الجنسى بين الحيوانات . فإنهن أكثر حرصاً على قدر أكبر من المعرفة بالاختلاط الجنسى البشرى ، وإن أخذن يصبحن أكثر تكتما فى الحديث عنه مع أمهاتهن . وينبغى لنا أن نتأكد أنهن لا يكتمن فى أنفسهن أية أفكار خاطئة . وينبغى لنا أن نحدثهن عن انفصال الجهاز البولى عند الذكور عن الجهاز التناسلى .

التطور البدنى والتنبه الجنسى ـ الصبيان

إن صبيان الحادية عشرة يكونون من حيث تطورهم البدنى مجموعة أشد تجانساً من البنات ، وذلك لضآلة عدد من تظهر فيهم العلامات الخارجية للنضج الجنسى . وفى تلك السنة لا تبدو تغيرات البلوغ إلا فى أشد جماعات الصبيان تقدما ، وقد بدأت حركة الزيادة السريعة فى النمو الطولى عند حوالى ربع الصبيان ، وإن لم يبلغ ذلك بعد من التقدم حتى عند معظم هؤلاء أنفسهم ، مرتبة تجعله ملحوظا ملموسا . ومع ذلك فإن الولد المتوسط قد قارب ما يفوق بقليل الثمانين فى المائة من طول قامته وهو بالغ ، وإن كان وزنه أقل من نصف الوزن الذى سيكون عليه فى الحادية والعشرين .

وتمر ببعض الصبيان فترة محددة من « السمنة » تتراكم فيها عليهم الأنسجة الشحمية بصورة تجعلهم يبدون « كالمنتفخين » . وتراكم الأنسجة الدهنية على الردفين والصدر ، وخاصة بمنطقة الأثداء يربك بعض الصبيان إرباكا تاما . ويكره هؤلاء الصبيان القمصان القورة المحبوكة على البدن ، ويرتدون قميصا أوسع ذا رقبة عالية رغبة فى ستر أجسامهم تماما . وربما حاولوا عندما يعومون إخفاء شكل صدورهم باتخاذ أوضاع جسمية تكاد تكون غير طبيعية المظهر ، كمد أذرعهم إلى أعلى ونحو الخارج .

وحتى هذه المجموعة المكسوة جيدا بالشحم تظهر فيها بين أبناء الحادية عشرة ظاهرة عجيبة ، هى زيادة بينة فى حجم العظام . وليس ذلك « حالة تعظم[1] » هشة ، بل هو نمو ظاهر ثقيل فى العظام يبرز التكوين الهيكلى ويضعه فى منزلة الصدارة . وحتى عندما تخفى الأنسجة الكاسية لذلك الهيكل ماله من معالم محدودة فائقة يحس المرء بوجود زيادة فى الإطار العظمى الذى دونها . وكأنى بمنطقة الصدر هى التى تنم بوجه خاص عن ذلك النمو ، حيث تغدو الأكتاف ولوحا الكتفين

---

(١) المتعظم الذى استحال عظماً أو صار كالعظم .

والترقوة والقفص الصدرى أبرز ظهورا منهما فى العاشرة .

وقد شرع حجم أعضاء التناسل فى التقدم بسرعة أكبر لدى ذلك الربع السريع النمو من الصبيان . وبدا يظهر فى بعضهم شعر عانة قصير كالزغب ، وقد يحدث فى حالات نادرة أن صبيا ينتقل فعلا إلى المرحلة التالية من مراحل شعر العانة الطويل المستقيم .

كثير منهم لايميلون كثيرا إلى البحث فى مسائل الجنس مع والديهم . فهم بين ممتنع عن توجيه أى سؤال وبين مستطلع يسأل فى أى وقت غير مناسب ، وبذلك يكشفون عن عدم نضجهم .

ويستثير سلوك الحيوان الجنسى اهتمام الصبيان بالجنس أكثر مما يستثير اهتمام البنات . وللصبيان اهتمام بموازنة بطون الحيوانات ببطون البشر . حتى إذا شرعوا فى فهم نمو الطفل ومولده كانت خلاصة استجابتهم هى كلمة شىء « مذهل » . وهم والبنات سواء فى الاهتمام بمعرفة الطريقة التى بها « تزرع البذرة من الأب فى الأم » . وإن كان من العسير على بعضهم فهم ذلك . والمعرفة بشئون الحيوان تساعدهم على الفهم . ولكن قد يدهشهم مع ذلك أن التوالد البشرى يماثل التوالد الحيوانى ، وفى هذه المرحلة من مراحل فهمهم يجنح كل من الصبيان والبنات إلى الظن ، بأن ذلك « يبدو شيئا قذرا » .

ومع ذلك فمن المدهش أن بعض صبيان الحادية عشرة بدأوا يفهمون الفرق بين الحيوان وبين المستوى البشرى ذلك أنهم قد أخذوا يدركون أن الكائن البشرى لا بد أنه يحتاج لقدر أعظم من الدقة والانتقاء فى اختياره لقرينته ، وأن الحب يكون فى الغالب أساساً لذلك الاختيار . وهنا يبدأ أبناء الحادية عشرة يدركون العلاقة الشخصية التى ينطوى عليها الأمر كله ، وأن العيش مع شخص ينطوى على أكثر من عملية المسافدة[1] . وقد شرع ابن

---

(١) ورد بمعجم المنجد مانصه : «سفد الذكر أنثاه وسفد عليها وسافدها مسافدة » اختلط بها جنسيا [المترجم] .

الحادية عشرة يدرك أيضاً أن الزواج نظام ، وأنه في الإمكان الحصول على طفل من غير زواج . ولعله كان يظن قبل ذلك بعام أن الزوجية كانت شرطاً جوهريا للحصول على الأطفال . وهو لايزال مضطرا لتعلم المزيد عن وظائف الزواج وأهمية العائلة بالنسبة لمولد الأطفال وتربيتهم .

وقد أصبح بعض الصبيـــان أكثر تنبها إلى البنات . فهم أكثر شعورا بأشكال البنات ، وربما أبدوا الملحوظات على « طريقة مشيهن — يهززن أردافهن ! » ويستجيب الصبيان لبنت حلوة . ويستثير فضولهم امتنــاع البنات أحيانا عن العوم . ذلك أنه قل منهم من يعرف شيئا عن الحيض ويغلبهم الفضول حول فوط الحيض .

ويغلب الفضول بعض الصبيان حول آخرين منهم يلوحون أقل ذكورة . وقد يطلقون اسم (المخنثين) Fairies أحيانا على الصبيــان الأكثر هزالا والعديمي النضج والبطيء النمو أو على السمين المربرب العريض الزدفين غير الرياضي منهم .وقلما كان للأطفال الذين يستعملون هذا النعت أو الذين يطلق عليهم كبير بصر بمدلوله . فهم يفهمونه من ناحية ما ، بيد أنه لا يترك فيهم أثراً انفعاليا قويا . وستظهر الأيام أن كثيرا من هؤلاء الصبيان ذوى النمو البطىء الذين يبدو فيهم أثر من البنوتية في الحادية عشرة تصبح الذكورة غالبة عليهم من نفس أولئك الذين سبوهم في الماضي .

ويتعدد حدوث الانتصاب بين كثيرين من أبناء الحادية عشرة . وربما لاح للبالغين أن الاستثارة في مثل هــذه الانتصابات ترجع لأسباب عرضية أو تـكاد ؛ وهي تشمل التهييج العام من أى نوع كان — وليس من الضرورى أن يكون جنسيا — كما تشمل الحركات البدنية كركوب الدراجات أو تسـلق الجبال والحديث مع الغير والصـــور والـكتب وغيرها من مقروءات وأحلام اليقظة ولمس جسم الفرد نفسه . ولن تنقضى السنوات القليلة التالية حتى تصبح القدرة على الاستجابة نوعية وانتقائية للمثيرات الجنسية . والاستمناء ظاهرة معروفة لـكثير من الصبيان وربما كان نصفهم يزاولونها على سبيل التجريب أما عرضا واتفاقا أو بقصد متعمد .

والصبيان كدأبهم فى كل أعمارهم أميل من البنات لسرد النكات القذرة ولاستخدام الألفاظ المشيرة إلى الجنس وقضاء الضرورة . وهم الآن أكثر تنبها إلى بعض ما تتضمنه تلك الألفاظ من مدلولات ، وربما عرفوا أن « الأولاد الذين يضحكون عاليا جداً لا يعرفون معنى الكلمات » .

والفرقة السادسة — التى يكون الطفل فيها مشرفا على الثانية عشرة من أنسب الأوقات لمساعدته فى تفهم موضوعات الجنس بوساطة الأفلام المنتقاة. ولا يزال الصبيان والبنات قادرين على مشاهدة أفلام تدور حول الجنس مجتمعين معاثم مناقشة موضوعاتها فيما بعد . ومن الحكمة أن يحضر آباء هؤلاء الأطفال عرض تلك الأفلام نفسها ، إما مع الأطفال أو بمفردهم ، وذلك لكى يعرفو مصدر ما لدى الأطفال من معلومات. ومع ذلك فينبغى أن تكون فترة الأسئلة بعد مشاهدة الفيلم قاصرة على الأطفال والمعلمة فحسب ، وربما وجب فصل كل جنس أثناءها عن الآخر حسب نوع الفيلم . ويتجلى فى السنة السادسة ميل إلى تحول كبير عن الأسئلة الشائعة فى الفرقة الخامسة حول العجول ذات الرأسين والتوائم السيامية. وذلك أن تلميذ الفرقة السادسة أقل تفكيرا فيما يتصل بالتوالد من تقلبات وخوارق ، وأصبح لديه الآن اهتمام سليم بالأسئلة التى تدور حول جسمه وحول تطوره الشخصى . والفيلم الذى يدور حول الحيض مفيد جداً للبنات . وتلميذ الفرقة السادسة يسأل أيضا كثيراً من الأسئلة الدالة على الذكاء حول الوراثة وحول سبب زرقة العينين أو حمرة الشعر . وإن كتبا ككتاب « أنت والوراثة [١] » تأليف شوين فيلد لهى متعة جذابة للطفل الذى يسأل هذا النوع من الأسئلة .

٢ — العناية بالذات ونهج الحياة اليومية

الأكل

الشهية .

قالت إحدى الأمهات عن ابنتها : « إن لها فى حياتها هوايتين هما الأكل والكلام » . وبنت الحادية عشرة هذه بعينها يمكن أن يضم إلى زمرتها كثير من أبناء الحادية عشرة الذين « يعيشون ليأكلوا » ، الذين يأكلون طول

(1) Schoenfeld-You & Heredtity »

يومهم ، والذين يمكن تعقب آثارهم أثناء تسللهم خفية التماسا للطعام — عند سماع الصوت الحاد المنبعث عن فتح وإغلاق باب الثلاجة العصرية ، إذ يبلغ بعض أبناء الحادية عشرة من شدة الجوع أن يضطروا إلى الإغارة على الثلاجة وعلى علبة الفطير أوغيرها من أوعية الطعام . وكثيراً ما يصابون بنوبات من عدم الاعتدال ويأكلون مقادير كبيرة من طعام واحد : كخمس موزات قبل الغداء أو محتويات علبة فطائر بأكملها أو دجاجة محمرة كاملة أو ملء ثلاثة أطباق من البطاطس . ويشعر بعض الآباء أن من غير المعقول ، بل مما يكاد يخرج عن الاحتشام أن يكون أبناؤهم على مثل هذا الجوع وهذا القدر من عدم القدرة على ضبط النفس ولكن من المحتمل جداً فى حالة بعض أبناء الحادية عشرة أن الشهية الجشعة الشرهة قد تعقبها أخرى ضعيفة أو متأنقة متأبية . وكأنى بالتقلبات تجىء حسب الحالة المزاجية — « فى بعض الأيام لا أستطيع إدخال شىء فى فمى — وفى أيام أخرى أكون جائعا كالدب » وربما زالت شهيتهم فجأة كذلك عند رؤية صنف معين مكروه من الطعام .

وابن الحادية عشرة عليم بذلك الإحساس المتعب غير المريح الذى يولده الشعور بالامتلاء . إذ قد يبلغ من شدة شعوره بالامتلاء أن يضطر إلى رفض الحلو . وهذا يذكرنا به هو نفسه قبلا يوم كان فى السادسة . ومما يذكرنا أيضاً بتلك السن الصغيرة ، امتناع البعض ولا سيما البنات عن تناول طعام الإفطار . ولا يقتصر الأمر على احتمال فقدان الشهية عند أول النهار ، بل قد يظهر الغثيان أيضا . وليس من الضرورى أن يكون هؤلاء الأطفال ممن يتناولون وجبة خفيفة قبل النوم .

ويعرف ابن الحادية عشرة أنه ربما كانت هناك علاقة بين مقدار ما يأكل ومدى سمنته . بيد أنه متنبه أيضا إلى التناقض العجيب فى حالة بعض الأطفال الآخرين الذين لا يزيدون وزنا مهما أكلوا . ومع ذلك فإن زيادة الوزن

جسيمة على وجه الإجمال ولها إلى حدما علاقة وثيقة بما يتناول الطفل من الطعام. وقد تبحث مسألة ضبط التغدية [اتباع الرجيم] وتدبر لها الخطط ، ولكنها لا تزال بصفة رئيسية فى مرحلة القول لا العمل . وقد حدث أن مجموعة من بنات الحادية عشرة قررن التوقف عن تناول الحلو (وذلك عدا الجيلاتى والكريمة المخفوقة !) . لقد أكون حزنا يمنتهى الجد : « كنا ننوى أن نتوقف ولكن الحق أننا لم نستطع ذلك أبداً»

مايفضلونه من الطعام وما يكرهونه

إذا نظرنا إلى ابن الحادية عشرة وجدنا أنه يعبر عن سمته الانفعالية حتى فى استجاباته لأنواع معينة من الأطعمة . فإنه يهيم بهذا اللون ويحتقر ذاك . وإنه ليندمج فى حديثه اندماجا تمثيليا : فهو يكشر إزاء ما يكره، ويلعق شفتيه إزاء ما يحب ، ويستمتع بأنواع خيالية من الصلصة Saure وهو يتحدث عن صنف اللحم المحبوب لديه. وهو يؤيد كراهياته الخاصة بأن يتحدث عن لسان « كثير من الصبيان » الذين يحسون كما يحس . ولا شك أن أبناء هذه السن يكثرون الكلام عن الطعام فى مجتمعاتهم .

ومع أن الرفض والتفضيل قويان فربما تبدل الحال غير الحال وحدث فيهما انقلاب . فالطعام المحبوب اليوم قد يكون هو المرفوض غدا . وكثيراً ما يصعب تعرف أسباب هذه التحولات . فربما رفض البيض بعد علم الطفل أن الكتكوت يتكون من صفاره . على أن تناول البيض مخفوقا ربما إزال ذلك الترابط . فعلى الوالدين احترام مثل هذا الرفض الذى يبدو غير معقول فى ظاهره حتى يصوغ الطفل علاقات جديدة قائمة على التفكير .

ومع أن رفض الطعام ليس مشكلة لدى ابن الحادية عشرة ، فإنه عندما يرفض فعلا فهو يرفض بقوة . ولكنه فى الوقت نفسه يتقبل تحمل مسئولية اجتماعية من نوع معين عند ما يأكل خارج المنزل أو عند وجود الضيوف. وهو يقول إنه لا بأس من تناول الأشياء التى لا يحبها . فهو على الأقل يبدى إيماءة تدل على القبول : « أحيانا لكى أكون رياضيا Sporty جدا آخذ بسلة واحدة [يومئ بحركة بأصبعه] وأضعها على طبق » .

النوم :

موعد النوم: بين ابن الحادية عشرة وبين موعد الذهاب إلى الفراش شقاق لا سبيل إلى إصلاحه ، وقد تحيط به الساعات والمنبهات من كل جانب ولكنه لا يراها أبداً . وربما كانت التاسعة موعد نومه نظريا ، ولكن التاسعة والنصف تكون فى الأغلب موعد نومه الفعلى . ويكثر التذمر إذا كان موعد النوم مبكراً بشكل ملحوظ ، وابن الحادية عشرة مستعد لخوض معركة من أجل حقوق الحادية عشرة وذلك لأنه على علم تام بموعد إيواء « الأولاد الآخرين » إلى فراشهم . وربما تغير وقت نومه حسب الأشياء التى عليه أن يعملها ، كالواجب المنزلى مثلا أو كبرنامج التلفزيون أو الراديو أو ككتاب يقرؤه . كما أنه ينتحل أى عذر يستطيع أن يبرر به تأخير ذلك الموعد .

والواقع أن كثيرا من ابناء الحادية عشرة ينبغى أن يذهبوا إلى فراشهم فى موعد أبكر مما يشتهون . فإذا سمح لهم بالتأخر عنه ، أصبحوا ذابلين عديمى النشاط فى اليوم التالى . بيد أن هناك آخرين من أبناء الحادية عشرة يستطيعون السهر طول الليل دون أن يشتد عليهم التعب فى اليوم التالى . وهؤلاء هم فى العادة الميالون للقراءة ، وإذا لم يضبطوا (متلبسين) ظلوا يقرأون حتى منتصف الليل أو الساعة الأولى صباحا . وينبغى أن يتاح لموعد نوم ابن الحادية عشرة قدر معين من التأخير وخاصة ليلة عطلة الأسبوع ، ولكن يحدث عادة أن يجىء ذلك الوقت الذى لا مفر لوالديه فيه من أن « يسلما » . والسماح بتأخير هذا الموعد لابن الحادية عشرة أثناء العطلة يسمح له أن يؤكد مطالبته بأن يحس أنه « كبير بالغ » .

ومعظم أبناء الحادية عشرة يظلون مستيقظين ما لا يقل عن نصف ساعة قبل أن يستغرقوا فى نوم عميق . ومنهم من يبدو عليه القلق عندما يكون منفردا بإحدى الغرف . وغالبا ما يحبون أن يشتركوا فى الغرفة مع أخ لهم . وربما تواردت إلى خواطرهم أشياء لا يحبون التفكير فيها كاللصوص مثلا . ولكن ابن الحادية عشرة فى جملته يحلم أحلام اليقظة — ولعلها تدور حول الطائرات «وأحلى ما يكون التحليق فى الخيال

عندما (تزرجن) آلات الطائرة » . أو لعله يحلم « بجواده الأحمر (لهيب) . فإنه قاتل. » أو لعله يستأنس الحيوانات الضارية التي أفلتت من عقالها ثم يحتفظ بها كحيوانات منزلية أليفة ، فى أحلام اليقظة.

النوم : ومع ذلك فحتى نام ابن الحادية عشرة ، كان نومه في العادة سباتا عميقا . فهو يستطيع أن ينام فى الرعد والبرق . وأنت مستطيع أن تنفخ الأبواق فى أذنيه دون أن تفلح فى إيقاظه . وهو يقول بنفسه إنه حتى القنبلة الذرية لا تستطيع إيقاظه .

الصباح : لم تعد سهولة الاستيقاظ فى الصباح التى كانت شائعة فى العاشرة كعهدها السابق . فقد يشعر ابن الحادية عشرة فى بعض الأيام بميل إلى النهوض ، ولكنه فى بعض أيامه الأخرى يشعر « كأنما هو ميت » . وغالبا ما يكون نكداً غاضبا عندما يستيقظ . وحتى الذين يستيقظون مبكرا يحبون الاستلقاء بالفراش فترة ما . والأغلب أن يحتاج ابن الحادية عشرة أن يوقظ مرتين أو أكثر وأن يهز فى النهاية أو يجر من فراشه جرا . وحتى أشد أبناء الحادية عشرة تعاونا قد يحتاجون إلى تنبيههم بالماء الحار أو البارد على وجوههم حتى يستيقظوا .

الحمام .

لعلنا ندهش ونشعر بالارتياح فى الوقت نفسه إذ نشهد نقصا فى مقاومة ابن الحادية عشرة للاستحمام — على حين أن قدرا كبيرا من سلوكه قد غدا أعسر قيادا . ومع ذلك فإنه يجد الحمام شيئا مضايقا ولا يريد أن يستحم إلا إذ سمح وقته بذلك . ومع أن مرات جره إلى الحمام أصبحت الآن أقل ، فإنه لا يزال بحاجة أن يذكر وأن يستحث وأن ينخس أو يوخز .

أجل إن بدخيلته قوى ذات حفز ذاتى تدفعه للاستحمام ، ولكن هذه القوى لا تظهر إلا بين حين وآخر . وابن الحادية عشرة يستحم لسبب خاص فقد يستحم ليلتين أو ثلاث ليال متوالية من تلقاء نفسه ثم يمتنع من عشرة إلى أربعة عشر يوما . وغالبا ما يفضل الصبيان الدش ، وذلك لسهولة وسرعة أخذه . أما البنات فقد بدأن يستمتعن بالإحساس البدنى والدفء الصادرين عن الحمام ، ويسعدهن ما يقترن

بالاستحمام من عنصر جمالى كالصابون المعطر والبشاكير المزركشة وربما ماء الكولونيا أيضا بعد الحمام . وبعض ابناء الحادية عشرة يدعكون أجسامهم بقوة ، ولكنهم قد يقصرون هذه المبالغة على السيقان ، مهملين آذانهم ووجههم وعنقهم .

على أن ابن الحادية عشرة لايجوز بأى حال أن يترك مستقلا فى استحمامه . إذ الغالب أنه يحتاج إلى المساعدة فى ملء البانيو . ولاتزال البنات بحاجة إلى المساعدة على تنظيف شعرهن، وإن سهل استخدام الدش فى هذه العملية.

وهذه هى السن التى تلوح فيها تباشير التنبه الى « ذات » اجتماعية جديدة للأطفال كأنما هى مركزة فى كل من الشعر والأسنان . فإن كلا من الصبيان والبنات يصبحون على الفجاءة شديدى الاهتمام بشعرهم ، وإن لم يحدث ذلك إلا فى بعض الأوقات فقط . أما الاسنان — وكانت تهمل قبل ذلك — فهى الآن تدلك بالفرشة أكثر من ذى قبل . ويقال عن بعضهم أنهم معتنون بأسنانهم ، وعن قلة إنهم فخورون بأسنانهم ، ويحدث أحيانا أن ابن الحادية عشرة قد يحس شعور الإثم إن هو لم يدلك أسنانه بالفرشة . وهذا التنبه الجديد إلى الذات قد يمتد إلى أظافر اليدين . فهناك على الأقل تنبه إلى قذارتها ، ولكنه قد لايصل لدرجة تدفعه لتنظيفها والعناية بها .

الثياب والعناية بالغرفة .

يزداد اهتمام ابن الحادية عشرة بالثياب وهو اهتمام يساير التحسن غير المنتظم فى الاستحمام وتسريح الشعر وفى الإمكان التعرف بسرعة على الصبيان الأقل نضجا من كرههم الملحوظ للتزين باللباس (التهندم) ، وتعلقهم بنفس القميص الأزرق القديم الذى كانوا يحبون ارتداءه يوما بعد يوم ، وامتناع كل أثر لعنايتهم بشعرهم . (وربما كان الأنسب لكثير من هؤلاء الصبيان وضعهم فى المدرسة مع ابناء العاشرة لأنهم لايزالون يمثلون سلوكهم) والأغلب أن هؤلاء هم الصبيان النحيلون ، الصبيان الذين ينضجون ببطء ، غير أنهم قد يكونون هم الذين يسيرون أشواطاً بعيدة فى النهاية .

وعلى نقيض ذلك يوجد الصبيان

ذوو الوعى الثيابى ، أى أولئك الذين يحبون التزين بأحسن ما لديهم والذين قد شرعوا من قبل يرتدون الثياب الزاهية : القمصان والجوارب المشرقة الألوان ، والذين ينعمون شعرهم ويسبسبونه . وهؤلاء الصبيان يكونون على الأغلب أكبر حجما وأقوى جسما . وهم الصبيان السباقون إلى ضرب المواعيد الغرامية والذين لديهم ميول اجتماعية :

وبصفة عامة تكون بنت الحادية عشرة هى الأكثر تنبها إلى الثياب . فإنها أخذت تتخلى عن مرايل القطن الخشن وتتدثر بالبلوزات الزغبيــة والجونلات jupe الكاملة . وهى تحب التأنق فى الثياب . وغالبا ما تكون لديها فكرة محددة عما تريده وعما سترتديه . فكفة الميزان تجنح لمصلحتها عندما تخرج مع أمها للشراء من المتاجر ، لأن أمها قد أدركت أنه لا معنى لشراء ملابس لن ترتديها البنت .

وليس معنى الاهتمام بالثياب أن ابن الحادية عشرة يعرف ماذا يجب عليه أن ينتقيه منها كل يوم أو كيف يعنى بثيابه . فإن كلا من الصبيان والبنات غالبا ما يكررون هذا السؤال . « ماذا ألبس ؟ » وذلك لأن البت فى ذلك الأمر عسير على ابن الحادية عشرة . وربما انتهت البنات إلى اختيار « الثياب الأجنبية الغريبة » إذا تركن أحرارا ، وربما أيضاً يشق عليهن تقبل مشورة أمهاتهن . وكثيراً ما تشتهى البنات ثوبا مخالفا لما لديهن ، ثوبا جديدا ، ولو أتيحت لهن الفرصة لأضفن إلى دولابهن أردية لن يلبسنها ولن يحببنها .

وابن الحادية عشرة يعلق أحب أثوابه إليه وأحب سراويله ويعنى بهما ، وما عدا ذلك من باقى ثيابهم يقذف هنا وهناك فى الغرفة وهذا يذكرنا بقوة بشخصه وهو فى الخامسة والنصف إلى السادسة يوم كان ينضو عنه ثيابه بكل أرجاء المنزل ، مسقطا هذا الثوب هنا وذاك هناك . ولابن الحادية عشرة طريقة فى ارتياد المنزل . ففرض القيود عليه ليس من الأمور الهينــة . وقد تعاوده مشاكل الأحذية عند الحادية عشرة حيث يصبح غير قادر على تذكر أين ترك حذاءه فى الليلة السابقة . ومن حسن الحظ أن ابن الحادية عشرة يميل إلى امتلاك أزواج كثيرة من الأحذية يلبسها بالتناوب . ولكنه لا يدرك أن عدم عثوره على

ثيابه راجع إلى خطئه . وهو على العكس يتخذ من المصاعب التى تعترضه أسبابا تبرر له التبرم بالعالم .

وابن الحادية عشرة أميل إلى تغيير ثيابه من يوم إلى يوم ، ولا سيما ملابسه الداخلية وجواربه ، ولكن ينبغى لبعض الأمهات أن يكن على مقربة منه لاختطاف الثياب القـــذرة قبل أن يلبسها ثانية .

وابن الحادية عشرة وإن كانت عنايته بشخصه متقطعة ، إلا أنها أحسن كثيرا من عنايته بحجرته . ولكنه أخذ يزينها قليلا براية هنا ، وصورة لجورج واشنطن هناك ، وصورة لحصان ، أو حق لراقصة باليه . وهو ليس شـديد الانشغال والتعمق فيما يجمع من مجموعات كما كان حاله قبلا . ولكنه بحاجة إلى عمليات تنظيف كبرى يوم يتخلى عن علب من الكرتون حافلة بالنفايات المخلطة — لتوضع على الأقل فى غرف السطوح . وينبغى للأمهات أن يستفدن من عمليات التنظيف هذه ، وذلك لأنهـا غالبا ما تكشف عن « ذلك القلم الحبر المحبوب » — أو « ذلك المشط الذى فقد من الأم » ،

وترتيب الفراش مهمة شاقة لابن الحادية عشرة . والظاهر أنه لا يقدر على ترتيب فراشه بطريقة سهلة . وهو يضفى على ذلك مسحته الخاصة المضطربة إلى حد ما . وماذا فى ذلك كله ؟ أليس ابن الحادية عشرة يقضى زمنا ضئيلا جدا فى غرفته ! إنه يريد أن يكون مجتمعا مع العائلة . وهو يحب العمل على منضدة غرفة السفرة . وهو إن تلكأ وضايق ، فإن ضحكه يرن أيضا وهو يتنقل فى كل أرجاء المكان كأنما هو جرو كبير الحجم .

ويحسن الآباء صنعاً إذا هم واصلوا إغلاق باب ابن الحادية عشرة حتى لا تزعجهم الهرجلة التى يحدثهـا . ثم يمكنهم بعـد ذلك أن يقوموا بحملة تنظيف مجيدة بين فينة وأخرى ممتلئين بالآمال الكبار وبروح الفتـــح والمغامرة ! !

النقود :

ربما تحول اهتمام ابن العاشرة العرضى بالنقود إلى اهتمام حقيقى فى الحادية

عشرة . والصبيان أقوى استجابة . وقد تكون للنقود قيمة عظيمة لدى البعض على حين لا تثير فى البعض الآخر إلا اهتماما قليلا . وابن الحادية عشرة بين أن يقال عنه أنه « مجنون بالنقود » أو « إنه لايعنى أدنى عناية بها » .

والمصروف يصبح مهما جدا لابن الحادية عشرة . والغالب أنه يضج بالشكوى إذا لم يزد مصروفه . وربما أصبح مطلبه الآن خمسين سنتا ، وهو فى ذلك مدفوع بما يعلم عما يحصل عليه أصدقاؤه من مصروف . وقد يعطى بعض أبناء الحادية عشرة فرصة للتصرف فى حدود ميزانية أكبر ، وقد يكون ذلك المبلغ دولاراً فى الأسبوع ، كما أن هناك قلة ضئيلة جدا تعطى مصروفا شهريا قدره أربعة أو خمسة دولارات . وهذا المبلغ الكبير يفرض على ابن الحادية عشرة المشتت الذهن عبئا كبيرا . وينبغى صرف النظر عن فكرة منح المصروف كوسيلة لتعليم الطفل حسن التصرف إن وجدت غير ناجحة .

ومع أن بعض أبناء الحادية عشرة لا يستطيعون الاحتفاظ بالنقود ، فإن من المدهش أن يرى المرء منا عددا الذين يسمون (عن جدارة) باسم المقترين . وربما بلغت حسابات البنوك مستوى عاليا هو العشرون إلى الثلاثين دولارا . أجل إن الادخار لا يصل فى العادة إلى مثل هذا النجاح ، ولكن معظم أبناء الحادية عشرة يدخرون فعلا شيئا من نقودهم . ومع ذلك فإن من يحسنون إدخار نقودهم الخاصة ، ربما كانوا مهرة تماما فى إنفاق نقود الغير ، وخاصة أمهاتهم . وهناك طائفة أخرى تقابل المقترين من أبناء الحادية عشرة ، وهم أولئك الأسخياء منهم ، بل المفرطو السخاء منهم . فهم يقيمون الحفلات لأصدقائهم ويحبون تقديم الهدايا الكبيرة فى المناسبات الخاصة .

ولكن الإنفاق فى جملته أخذ يصبح عملية محكمة التدبير . وأخذ ابن الحادية عشرة يدخر لغاية فى نفسه ، ربما لم تكن الاشتراء « الألعاب النارية فقط » . والصبيان أقرب إلى التفكير فى رغباتهم وحاجاتهم . فالصبى يدخر نقوده لشراء نموذج طيارة أو كمنجة أو دراجة . أما البنات فهن من جهة

أخرى أكثر تفكرا فى الغير، والأغلب أنهن يقتصدن نقودهن لشراء الهدايا.

وفى الإمكان استخدام النقود دافعا لبعض نواحى النشاط ، كالتقدم فى الهجاء ، ولكنه من سوء الحظ قد يكون للضعف فى الهجاء أسباب أعمق من أن تصل إلى علاجها النقود ، والعادة أن مثل هذه التنبيهات والإثارات لا تنتج نتائج جيدة إلا مؤقتا . وفى الإمكان تجربة نقيض ذلك أيضا ؛ وأعنى بذلك الخصم من المصروف إذا لم تتم أعمال بعينها . وهذا أيضا ليس إلا مثيراً عابرا . وهناك وسيلة يمكن استخدامها بطريقة فعالة لتشجيع الادخار هى منح ابن الحادية عشرة ما يعادل قيمة مدخراته إن هى بلغت مقدارا معلوما . فعندئذ يمكنه أن يتجه نحو هدف يكون عادة فوق طاقته المالية كدراجة مثلا ، كما يمكنه أن يصل إليه قبل أن يتبدد إهتمامه به.

العمل :

لا يقف ابن الحادية عشرة عند حد كراهية العمل بل ويقاومه ويسىء التصرف عندما تطلب منه المساعدة . فإنه يبدد طاقاته فى البحث عما يستطيع التخلص منه ، وعن طريقة يستطيع بها خداع أمه حتى تعتقد أنه فعل شيئا لم يفعله . فهو يقرر أنه ينتظر منه أن ينظف غرفته ، أو أن من المفروض أنه يلقى الزبالة خارج المنزل ، وهو يظهر باعترافه هذا أنه يتراخى فى المهام المنوطة به . وغالبا ما يجبر والديه بهذه الاستجابة الكريهة إلى أن يلجأ إلى طريقة كريهة أيضا هى إصدار الأوامر إليه بالقيام بالواجب عليه . ويذكر ابن الحادية عشرة أنه مضطر أن يغسل الأطباق . وأنه ملزم أن يخرج الزبالة. وليس تكرهه ولا اتجاهه غير المعقول بأشياء يلذ للناس العيش معها فى صعيد واحد ولا الوقوف فى وجهها . ولذا يحسن الآباء صنعا إن هم تشككوا فى مدى الحكمة فى أوامرهم أثناء تلك السن ، وأكثروا من تقليب الرأى فى فى الطريقة التى قد يغيرون بها وسائلهم أو طلباتهم بصورة تجعل ابن الحادية عشرة يتحول إلى عضو فى العائلة أقل إزعاجا لهم.

وربما لاينجح التساهل نفسه أو حق المساومة فى الوصول إلى نتيجة مع ابن الحادية عشرة ، فإذا هو نفذ

مهمة ما كان أميل لأن يؤديها بطريقة ملتوية شرسة . فقد يجد عسيرا عليه إعداد المائدة بالطريقة المألوفة ، بل يؤثر بدل ذلك انتقاء أعلى الأطباق أو أبعدها عن يده حتى ليزعج أهل المنزل تماما من التغيرات التى أحدثها عندما يجلسون لتناول الوجبة التالية . أو لعل ترتيب السرير يصبح صراعا مع المهارة عندما يرفض أن يرتبه بطريقة بسيطة يومية . ومهما يكن مايطلب منه فإنه يكاد يكون فى حاجة دائمة إلى التذكير بعمله .

ومع ذلك، فإن هناك أوقاتا يعمل فيها أشياء من أجل الفكاهة والمرح . فهناك أوقات يعمل فيها من تلقاء نفسه أعمالا معينة بشكل ظريف جدا . فهو يميل لأن تكون دوافعه للعمل من ذات نفسه أكثر منها مفروضة عليه . وهذا يصدق بوجه خاص عندما تكون أمه هى التى تطالبه . بيد أنه سيتقبل تحديات الأعمال له وطلباتها منه إن كان خارج المنزل . ولذا يجب أن يزداد تبادل أبناء الحادية عشرة بين البيوت المختلفة مع إضافة باعث آخر هو تلقى الأجر على العمل تبعاً لقيمته . فعندئذ يصبح ابن الحادية عشرة متعاونا تعاونا مدهشا بتأثيرمنبه الجدة والبعد . والبنات بوجه خاص يستمتعن بمجالسة صغار الأطفال بعد الظهرفى بيوت غيرهن من الناس .

وابن الحادية عشرة يكون أحسن تصرفا داخل بيته هو إن منح قدرا أوسع من حرية الاختيار . وقد حلت إحدى الأمهات مشكلتها بعمل قائمة تحوى الأعمال الصغيرة مثل : «كنس المشى » — أو« سقى الزرع » — أو « تفريغ السلال » الخ ، التى يستطيع ابن الحادية عشرة أن يختار منها اثنين أوثلاثة من عشرة إمكانيات أومايقاربها ويستمتع ابن الحادية عشرة بالاختيار ويستطيع بصورة مدهشة تنفيذ تلك الأعمال بروح اللعب والرياضة .

٣ ـ الانفعـــالات

ربما خامر عقول والدى أبناء الحادية عشرة إحساس من عدم الارتياح عجيب مبهم . فكأنما بعض قوى الطبيعة تقبض على ذريتهم هذه قبضا عنيفا — وكأنما ابن الحادية عشرة يعمل بدافع مؤثرات منفصلة تماما عن البيئة المحسوسة التى يعيش فيها . وثم عامل مقلق آخر هو أن الوالدين غالبا مايحسون أنهم مروا

بنفس ذلك الموقف قبلا . فهم يعرفون الإحساس بالتردى الفجائى فى الأحزان والتسامى إلى القمم العالية للمرح والوقوع فى تيهاء الارتباك . ثم تتغير السبل ولكن تغيرها يجىء تدريجيا لا يحس به أحد . على أنهم سيستبينون بطريق استرجاع الذكريات عندما يمرون بهذه الأزمة بسلام ويواجهون الأمر تماما — سيستبينون ذلك الوقت الذى كان فيه طفلهم المقترب الآن من المراهقة يدخل طوراً مماثلا لهذا بين الخامسة والنصف والسادسة . الإحساس هو نفس القائم فى الذاكرة لم يتغير : — هو ذلك التغير الفجائى من المرح إلى الكآبة ، ذلك التحول فى الحالة المزاجية الذى لاسبيل إلى تعليله وهو نفس تلك الغلظة والوقاحة ونفس التفكير غير المعقول .

بيد أن هناك أيضا فوارق بين الحالين . فإن الطفل الصغير آنذاك قد أصبح الآن كبيرا وقوياً . وهو يضع نفسه الآن موضع المساواة مع الكبار ، ومع أنه قد يتصرف الآن من جديد كأسد غير مروض فإنه يدخل على غاراته وهجماته تعقيدا جديداً فى الانفعالات . (فواأسفاه !!... كم من البالغين من لا يزال هائما تحلق سن الحادية عشرة وأدغالها المعقدة !) .

فالوالدان العطوفان خاصة الأم ، التى استطاعت أن تتابع باهتمام نمو طفلها مرحلة بعد مرحلة — تعرف أن هذا الزمن سيكون بالنسبة إليها زمن أفول وانحدار ورجوع إلى الوراء . لقد مضى — بالنسبة للكثيرين — الزمن الذى كان فيه الطفل أكثر تقبـلا للتأثير والمساعدة المباشرة من يد الكبير . وهذا هو الزمن الذى يحسن فيه الوالدان أيما إحسان إن هما أملا أن يتمكن طفلهما من التعرف على ذاته .

وليس معنى ذلك أنه ينبغى على الوالد أن يتنصل من الأمر ويقطع كل اتصال بينه وبين الطفـل . بل ينبغى له على العكس أن يتبين ما أصبح عليه دوره الوالدى من عظم ، وأن يتحقق أنه هو الحارس الأمين على قوى النمو التى تحتاج إلى بيئة ثابتة ولكنها مستجيبة لتنمو فيها ، بيئة تستطيع الضبط والهيمنة ، ولكنها لن تلجأ إلى إجبار ولا قسر .

وفى إمكاننا نحن البعيدين قليلا عن ابن الحادية عشرة أن نبصره فى صورة

مختلفة قليلا إن نظرنا إليه من بعيد . ولن تلبث الأسرة إلا أن تفقد مركزها النسبي القديم عندما يظهر ابن الحادية عشرة في انفعالاته تلك الضجة المفاجأة التي لا تتناسب مطلقا مع الأمر الذي أثاره . فما أبعد الشقة بين حديثنا عن ابن الحادية عشرة وحديثنا السابق عن ابن العاشرة . إن الألفاظ لتتواثب في عقولنا لتصفه أجود وصف بأنه : — كثير الحركة ممض مستاء مجادل وقح عابس. وإنا لنعرف أيضا حالات ارتباكه وعدم تثبته . فانا نراه يخبط خبط عشواء فيما حوله دون أن يعرف ما هو فاعل . ونحن نرى شخصيته الهوجاء تمرق سريعاً في هذا الاتجاه ثم في ذاك .

وربما شغلنا التنبه إلى القوى المفاجئة التي تعمل الآن عملها — بحيث نغفل في الأغلب القوى الإيجابية — تلك القوى التي ربما حرمت فرصة التعبير عن نفسها إذا تغلبت الميول السلبية تماما وأرخى لها العنان كله — الأمر الذي يمكن حدوثه كثيراً .

والأغلب أن يشاهد التعبير عن تلك القوى الإيجابية في الصبيان دون البنات . فمن الصبيان من يظهرون استمساكا بسلوك العاشرة كاستمساكهم قبل ذلك بأسنان اللبن ، وإن كانت الأسنان الثانية قد أخذت تظهر . وفي إمكان القوى الانفعالية الحديثة الانطلاق لدى ابن الحادية عشرة بالتضامن مع سكينة العاشرة التي لا تزال مستمرة ، أن تولد قوة « حارة » جديدة تجعل أبناء الحادية عشرة أكثر اتصافا بالعطف والرعاية والتفكير وأكثر تحفظا وضبطا . ولأبناء الحادية عشرة أسارير معبرة يقظة متلهفة ملتمعة العين. وهم كثيرو الاهتمام يبعثون في أنفسنا المسرة . وحتى الصبيان الذين تبدو فيهم اضطرابات الحادية عشرة ربما استعادوا سكون جأشهم بعد إصابتهم بنوبة من حدة الطبع ، وذلك بالتنازل بسماحة نفس عن شيء يعتزون بملكيته . وربما قامت بنت في الحادية عشرة بخدعة سافلة وهي في نفس الحالة المزاجية .

وإذا نحن لم نفكر في ابن الحادية عشرة إلا من خلال متاعبه بالمنزل دون غيرها ، أنزلنا به جورا لا شك فيه . فلو أتيح له الجو المرح في غرفة الجلوس المليئة بالنشاط ، لارتفع إلى القمة كالقشدة . ولكن المجال الذي يتصرف

فيه أعظم تصرف إيجابى هو خارج المنزل. فإنه يضحك أثناء إحدى المقابلات الشخصية (أو حتى أثناء مجرد حديثه مع مستمع يحسن الإصغاء إليه) ضحكا متكررا حافلا بالمرح الحقيقى . وهو مأخوذ بسريرة نفسه كما أنه يقظ . وهو يحدثك عن موجات سعادته . وهو يعرف كيف ينغمر فى لجة تلطف بسيط يظهره نحوه أصدقاؤه .

وابن الحادية عشرة متنبه إلى أن له استعدادات معينة . فهو يعرف كيف يحس ، ولكنه لا يعرف فى الغالب لماذا يحس على الشاكلة التى يحس بها . وهو يعرف أنه يستيقظ فى الصباح شاعرا بالغضب والنكد والتبلد . وهو يعرف أيضا أنه ربما أشرق وشعر بمرح أكثر مع تقدم النهار ، وخاصة إن حدث شىء لطيف .

ويحدث أحيانا أن يخبرك أحد أبناء الحادية عشرة لماذا يحس النكد صباحا فإنه يحس بأن لديه من الأعمال الشىء الكثير وأن ليس لديه وقت للعب ، وأنه يستيقظ متعبا . وكم يتمنى لو حصل على قدر كبير من النوم . وهو شىء قوله أسهل من فعله ، ولكن فى الإمكان تحسين حياة ابن الحادية عشرة لو فصلت وقدت بصورة تتوافق أكثر مع حاجاته وكفاياته . وهو بحاجة إلى برنامج مبسط وإلى قدر أكبر من اللعب والرياضة بوجه خاص ، وإذا أمكن فإلى فترة راحة بعد الظهر ، لا شك أن بعض أفراد الحادية عشرة ينامون أثناءها نوما حقاً .

وإذا هو عمل ، عمل بجد شديد بل إلى حد الإنهاك أحياناً . وهو يبذل الزمن والجهد بسخاء إن كانت الفكرة فكرته التلقائية . وهو متمسك بقانون « خير البر عاجله » ، سواء أكان ذلك فى تنفيذ مشروع أو ارتداء ثوب جديد أو الخروج إلى نزهة . ويبلغ من تلقائية الحادية عشرة ونزعته الفورية فى تعبيراته أن لا يحوم أى شك حول إحساسه . ذلك أن تكشيرة اشمئزاز تظهر على أسارير وجهه قبل أن يجد الألفاظ . ويمكنه أن يكون تلقائيا جدا حتى ليصبح عديم التنبه إلى الأثر السيىء الذى يحدثه ، وربما قرر أن الحياة الآن أحسن لأن للمرء الآن امتيازات أكثر ، وإن كان

الآباء يعلمون علم اليقين أن الأمور أسوأ كثيرا .

ومع أن معظم أبناء الحادية عشرة يشعرون غالبا « بسعادة حقة » من أجل حادثة خاصة قد تتراوح بين مولد أخت صغيرة أو تناول مثلجة بالفواكه أو تمر بهم موجات من السعادة دون ماسبب خاص ، فإن كثيرا منهم تمر بهم أوقات يمسهم فيها حزن غير مألوف فان حديث الوالد بغضب أوحزن الأم قد يملأ فؤاد الطفل بالشقاء . ثم إن شعوره بعدم محبة الصبيان أو البنات له قد يجلب إليه أيضا مشاعر الابتئاس .

ومع ذلك فان الغضب من أكثر الانفعالات شيوعا — وهو انفجار فجائى عنيف لا يمكن ضبطه إلى أقصى حد ، خاصة عندما يوجه إلى الإخوة الأصغر منه . ذلك أنه كابن العاشرة ، يختلف لديه التنفيس عن الغضب باختلاف الأشخاص ، فهو مع الأخ غيره مع الوالد غيره مع المعلمة . ومع أن كثيرين منهم يوجهون الضربات إلى أخ أصغر أو قرين ، فإن غيرهم يبدأون محاولة ضبط أنفسهم . وربما حاول أبناء الحادية عشرة أن لا يوجهوا الضربات ، وإن جنحوا لضرب الخصم إن هو أفرط فى إثارتهم . ومع ذلك فإن هناك آخرين ينسون وهم بعد سورة الغضب والتفكير فيما سينزلونه من انتقام — ينسون سبب غضبهم فى الساعة التى يصبحون فيها مستعدين للاعتداء . وكثيرا مايعبرون عن عنف غضبهم بالصراخ ، أو التلفظ بألفاظ وقحة .

وفى الإمكان أن يحمر وجه ابن الحادية عشرة حين يحتدم صدره غيظا . وربما كان غضبه غير متناسب البتة مع سبب ، وربما كانت غضبته للحق بارة نزيهة عندما تبدو التصرفات غير عادلة ووعود الكبير منكوثة . كما أن غضبه ليس سهل الانطفاء كغضب ابن العاشرة . فإن ابن الحادية عشرة أعمق انغماسا فى الغضب كما أنه بحاجة أن يجد الطرق والوسائل للعودة إلى توازنه . وهو أميل إلى تنفيذ انتقام قد دبر خطته ، وإلى التلفظ بألفاظ بذيئة تؤلم وتجرح . وأنه ليحمل فى قلبه الضغن ويبوز ويعبس . وهو يضم إليه آخرين يصبحون غاضبين معه . أو لعله يلبس شخصية ابن حادية عشرة آخر ويصبح غاضبا عن طريق التقمص الوجدانى .

وابن الحادية عشرة أكثر تعرضا للبكاء إذا غضب منه يوم كان فى العاشرة . ولكن انفجاره بالبكاء يكون بالمثل أيضا بسبب حادث تافه أو عند ما يكون متعبا . فقد يكون ما يبكيه أننا رمينا جلدة محبوبة لإحدى المجلات أو نظرت إليه أمه « بعين الغضب » وكذلك خيبة الأمل وجرح الشعور فإنها تجلب الدموع إلى عينيه. والصبيان عرضة للبكاء كالبنات تماما، بل لقد يبلغ الأمر بابن الحادية عشرة أن يسمى نفسه «العياط»

ويصبح ابن العاشرة الجسور أكثر تعرضا نسبيا للخوف فى سن الحادية عشرة . وهو يبدو كأنما يخاف من الوحدة بوجه خاص . وربما كان ذلك هو سر وجوده المستديم بين أفراد العائلة وفى قضائه أقل وقت داخل غرفته . وهو لا يتحدث عن ذلك الخوف ، ولكنه يطالب ببقاء النور مفتوحا فى صالة المنزل ويترك بابه مفتوحا ، أو لعله ينظر فى المخادع وتحت السرير . فإذا سألته عما يفعل ، أجابها بكل ما يستطيع من عدم مبالاة: « أنا فقط أفتش يا أماه » . وهو يحتفظ ببطارية بقرب فراشه . وبعض البنات يبين خوفا حقيقيا من الاختطاف والصبيان بوجه عام يكرهون الشعور بالحبس داخل غرفة . وربما أثارت الصلاة فى الكنيسة ذلك الشعور .

والبنات أكثر خوفا من الألم الجثمانى، ومن انتقال العدوى بالأمراض ومن إمكان حدوث شئ لأمهاتهن . والبنات يحسسن أكثر من الصبيان أن أحداً لا يحبهن — وإذا نحن راعينا اضطراب تفاعلهن الاجتماعى مع من حولهن لم نعجب لتكوينهن ذلك الخوف فى أنفسهن . وربما خفن عندما يتجمع الصبيان فى عصابات خشية أن يكن هدف ذلك التجمع . ولم يعد ابن الحادية عشرة يظهر عدم الاكتراث بما يجرح إحساسه كما كان يفعل ابن العاشرة . وهو أسهل تعرضا لهذا الإحساس مما يتمنى لنفسه وغالبا ما ينفرد بنفسه بل حتى يبكى بسبب ذلك . والبنات حساسات بوجه خاص إزاء أى نقد من آبائهن . وربما شاءت قلة منهن أن ينتقمن لما أصاب إحساساتهن

الجريحة ، ولكنهن على الاجمال يطوين نفوسهن على تلك المشاعر .

والظاهر أن من الأمور الطبيعية لابن الحادية عشرة أن يتطلع حوله ملتمسا المظاهر البدنية للحب ، وذلك يتجلى عندما ندرك مدى اضطرابه الانفعالى الداخلى . فهو يحتاج إلى سارية يتشبث بها إنسان يقبله على علاته . ولكن معالجة الأمر ينبغى أن تبدأ من جهته هو لا من قبل أمه . والصبيان بوجه خاص يرتبكون إزاء أى تعبير علنى عن المحبة يصدر عن أمهاتهم ، على حين قد تجمد البنات عن كل حركة . ولكنهن [illegible]كن فى خلوة مع أمهاتهن يلتصقن تماما بها ، ولا يستطعن الذهاب إلى الفراش دون قبلة المساء ، بل لقد يتصرفن « بعاطفية وخور » ، حتى لربما كانت الأم هى التى يضنيها الارتباك .

ومع أن ابن الحادية عشرة سعيد عادة بحظه وعائلته وممتلكاته فربما تشهى ممتلكات لشخص آخر ككلب أو حصان أو جهاز تلفزيون . وأهم من ذلك ، أن ابن الحادية عشرة قد يغار من الصفات البدنية للآخرين : — كالجمال أو القوة التى يتمناها لنفسه . وتغار البنت فى الغالب عندما تعير صديقاتها الحاليات صديقة أخرى غيرها اهتماما أكبر مما تعرنه لها . كما أن الظاهر أن أبناء الحادية عشرة جميعا يكونون فى غيرة من إخوتهم الصغار ، لأنهم يحسون أنهم ينعمون بجل العناية والاهتمام . وابن الحادية عشرة متنبه جدا إلى امتيازات أصدقائه وقد يغار من ساعة نوم متأخرة وفرصة للخروج ليلا نالها آخر .

وهو ليس غيارا فقط بل ومحبا للمنافسة أيضا — محبا للمنافسة جدا — فهو يقول بنفسه : « إنى هناك أجاهد » — أو : « محب للمنافسة ؟ — ومن ذا الذى لا يكون محبا المنافسة ، وكيفا » وبعضهم يحاولون أن يكونوا أحسن الكل فى فرقهم الدراسية وآخرون فى الألعاب الرياضية . ومهما تكن الحال فإن كثيراً من أبناء الحادية عشرة إنما يبتغون لأنفسهم الفوز .

وقد أخذ مجال الفكاهة يتسع عند

ابن الحادية عشرة . فإنه لا يزال ماهرا فى التورية ويحب الفكاهة الخشنة ، وخاصة عندما تكون الأوضاع من الاستحالة بحيث لا يمكن أن تكون حقيقة . وأنه ليصبح هو نفسه المهرج وله من أصدقائه أبناء الحادية عشرة نظارة جاهزون تحت يده . ويستطيع أبناء الحادية عشرة أن يكونوا سخفاء جدا يتساخفون في أى شيء تقريبا . فإن ملحوظة تافهة عن بنت قد تجعل مجموعة من الصبيان يديرون أعينهم فى محاجرها ويغربون فى الضحك . والتنبه إلى الجنس يعبر عنه أيضا بالنكات القذرة ، التى هى من السمات الطبيعية جدا لهذه السن ، وإن كانت الفكاهة « القذرة » لا تبرح تتناول قبل كل شىء مسائل قضاء الضرورة أكثر من الجنس . وربما ضجت مجموعة بالضحك على حساب طفل آخر (كأن تطلب المعلمة من أحد الصبيان أن يزرر سرواله) ، ثم يعودون فيغضبون فيما بعد لشعورهم أنها كانت ظالمة ظلما صارخا حين حقرته أمام المجموعة بأكملها . وابن الحادية عشرة ينطلق انطلاقا حراً وبعيدا داخل مملكة الفكاهة ، وربما تنوع موقفه بين الضجيج بالضحك الصاخب وبين النظرة الجامدة . وهو سريع فى فهم موضع النكتة وله طريقته الخاصة فى التهكم والتهوين من شأن الأشياء الخطيرة . فقد يقول لنفسه عندما يغضب : « أعصابك ! أعصابك ! » .

٤ — النفس النامية

« [redacted] أين ، [redacted] أين ذهب ابنى البهيج الذى كان فى العاشرة ؟ » قد تكون هذه الكلمات هى الترديدة التى لا يفتأ يرددها كثير من والدى صبيان الحادية عشرة وبناتها . وإن سؤالهم فى حد ذاته ليوحى بأن شيئا قد فقد ، وإن هناك حقا لفقدانا للارتياح ، ولسمة الاستجابة ولمسايرة الغير (ولا سيما الوالدين) ، وكلها كانت تبدو جزءاً ثابتا راسخاً من سلوك طفل العاشرة أما الآن فإنه يحق للوالدين أن يتساءلا : « ماذا أجد الآن بين يدى ؟ » .

فلو فهم الآباء أو أى شخص له

علاقة بالأطفال قوانين النمو لتوصلوا إلى معرفة أن هناك مرحلة هدوء لا مفر من أن تعقبها مرحلة اضطراب . وإلا لم يستطع النمو أن يسير فى طريقه . كما أن الوالدين يمكنهم مساعدة عمليات النمو حتى فى أثناء المراحل الصعبة للحادية عشرة بتفهمهم كل ما يحاول النمو أن يتمه وينجزه .

بيد أنه ليس من اليسير فهم قوانين النمو فى هذه المرحلة الخاصة للتطور ، وذلك لأن كثرة كبيرة جدا من مظاهره تبدو متناقضة إلى حد كبير . فابن الحادية عشرة حافل بالمفارقات والمتناقضات . تتوارد عليه الطيبة والسوء على فترات من الزمن . ويمكنه أن يكون مزعجاً فى البيت ، ومع ذلك فهو دمث سخى وساحر فاتن خارج المنزل . وهو يبدو شديد الثقة بنفسه ، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يطيق مناقشتك له .

فإذا نحن قللنا من لومه وحاولنا أن نفهمه فهما أدق ، وأدركنا كم تكون الصفات غير السارة المنتشرة فى الحادية عشرة طرازيا ، (وأعنى بذلك ميله للقتال وأنانيته واستحالة التفاهم معه) تكون تعبيرات قوية عن الذات : تلك النفس التى هو جاد فى أن يعثر عليها ويصوغها من جديد فى هذه الدورة الجديدة للنمو التى تقع بين الحادية عشرة والسادسة عشرة .

وليس معنى فهم الوالدين للأمور أنهما يستطيعان تذليلها وتليينها تماما . ليس الأمر كذلك بتاتا . إذ لا بد للطفل أن يتولى نموه بنفسه . على أن الوالد يستطيع أن يمده بالجو الذى يؤدى به إلى النمو الطيب . فعندما تروح ذات ابن الحادية عشرة المضطربة المترددة تنشد المحبة لإعادة تثبيت نفسها ، فليت الوالد أن يكون قريبا ليمنحه أى مظهر للمحبة يحتاج إليه ! فإذا عبر عن التمرد بقلة الأدب المفرطة وعدم المبالاة بالغير والأنانية ، فياليت الوالد يسأل نفسه : « أيثور ابن الحادية عشرة ضدى شخصيا أم هو ثائر على ما يشعر به من تعقد فى داخلية نفسه ، وما يتوهمه من عدم الثقة والتأكد من نفسه ؟ » .

ومن المهم للوالدين أن لا يثيروا هذه الأعماق الداخلية غير المعروفة على

وجه التحقيق . من الخير أن لا نحاول بشدة إظهار قحة الطفل المفرطة أو عدم احترامه من يكبرونه (وأترابه أيضا) بل الأجدر بنا أن نوجد الوسائل والطرق للتغلب على الصعوبات القائمة فى العلاقات المتبادلة . فابن الحادية عشرة يستطيع أن يتماسك ويتمالك نفسه بصورة أسرع ، على أساس من المساومة والجد العملى . فأنت مستطيع أن تقول له : « إن فعلت كذا بوصفه عملك ودورك فى العائلة ، فعلت أنا كيت كدورى فى العائلة » . وربما شملت مثل تلك المساومة مثلا مساعدة الطفل لأمه بغسيله الأطباق مقابل مساعدة الأم له فى واجبه المنزلى .

ويشكو ابن الحاديه عشرة ومن حقه أن يشكو : « الآن يبدو كل شىء أعمله خاطئا ، وذلك منذ أصبحت فى الحادية عشرة » . وهو يخطىء فى القول عندما يكون الزوار موجودين . وهو يدفع الأشياء دفعا شديدا جدا ويكسر إحدى العدد . وهو يقع على الأرض ويحتاس . وهو لا يدرك فى أغلب الأحيان ما صنع وقال ، حتى ولو لفت نظره إلى أعماله وأقواله . وهو يجيب بلهجة التحدى : « ماذا تعنى باندفاعاتى الوقحة ؟ » . وهو يبدو كأنما يجمع القوة فى نفسه بواسطة استجابة « مضادة » ، ثم لا يلبث أن ينفذ تلك الاستجابة مباشرة . يوجه الضربات وهو لا يكاد يدرك لماذا يفعل ذلك .

وهذا الاندفاع — سواء أكان بالأعمال أو الأقوال أو المشاعر — يظهر لنا أكثر وضوحاً لأنه موجه ضد الناس . وهو إنما يدرك نفسه ذاتها بالتفاعل مع نفسيات أخرى ، لقد كان وهو فى العاشرة يبدى اهتماما كبيرا بالناس وخاصة قرنائه ، بيد أن له الآن اهتماما بالتفاعل المستديم مع الناس — أيا ما كان هؤلاء الناس .

ويظهر ابن الحادية عشرة يسرا وسهولة متزايدين فى نواحى النشاط العقلية والاجتماعية ، وخاصة حين يكون خارج المنزل . فالإحساس والاستبصار أصبحا الآن مهمين لديه أهمية التفكير . فهو قد يخبرك أن « ذاته » فى تفكيره أو قلبه ، ولكنه على الإجمال يضع « نفسه » فى أى جزء من جسمه يعبر عنه بأقصى درجة من النشاط .

فالبنت المتطية صهوة جواد ربما كان من الطبيعى تماما أن تعتبر أن « ذاتها » تتمثل فى ركبتيها . وربما أخبرتك بنت أخرى تريد أن تكون مغنية أوبرا ، أن « ذاتها » تتمثل فى صوتها ، أو لعل صبيا يشغل يديه فى أشغال النجارة والخشب وصنع الأشياء ، يحس بأن « ذاته » إنما تعبر عنها يداه .

ويزداد كثيرا تنبه ابن الحادية عشرة إلى أخطائه منه إلى مزاياه . ولكن ربما كان من العسير حتى فيما يتعلق بالأخطاء ، أن تجبره على الاعتراف بغلطة معينة . وربما قال : « إنى أتصور أن عندى مليونا (من الأخطاء) فكل إنسان له أخطاؤه . ولست أدرى بالضبط أيها أسوأ » . وعلى العموم تكون الأخطاء التى يعترف بها هى التى تتعلق باحتكاكه بغيره من الناس فهو يقول ، إنه يرد ويناقض ويغضب أو يحاول أن يتخلص من الأشياء . ويندر من أبناء الحادية عشرة من يدركون مواهبهم أو من يشيرون إلى المساعدة ، وشفقتهم وصداقتهم للآخرين — وكلها كذلك أدلة تشهد بما يتسمون به من سمة الاستجابة للناس .

وابن الحادية عشرة — شأنه وهو فى العاشرة — يكاد يحب إلى حد كبير أن يكون فى سنه الحاضرة ، بيد أنه يحس أنه يمر فى عملية النضج ويحب تلك الفكرة . وهناك قلة يشتد بها الشوق إلى النمو والنضج . بيد أن هناك من الناحية الأخرى قلة صغيرة جدا تعارض هذه الفكرة . ويرى غالبية أبناء الحادية عشرة أن خير الأعمار ما تراوح بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة ، وذلك بسبب الحفلات والرقص التى يتطلعون إليها . والبنات الأكثر اهتماما بضرب المواعيد الغرامية ، أميل إلى اعتبار عهد الجامعة خير الأزمان لتحقيق هذه الميول .

والحصان والكلب والمزرعة — لاتزال هى أعز أمانى طفل الحادية عشرة ، وخاصة بنات الحادية عشرة . والاختلاف الرئيسى هنا عن سن العاشرة هو أن ابن الحادية عشرة يريد اسطبلا حافلا بالخيل . وبعض أبناء الحادية عشرة أشد رغبة فى بيت جديد منهم فى مزرعة . ولئن كان قليل من أبناء الحادية عشرة يريدون دراجة ، فإن عدداً منهم شرع يتحول إلى الرغبة فى

الحصول على أشكال لوسائل الانتقال أسرع وأغلى ثمنا : ـ كالمدرجة الآلية[1] والزوارق البخارية أو الزوارق الشراعية . والبنات يرغبن فى الثياب ـ خزانات بأكملها مملوءة بالفساتين الجميلة، ولكن الصبيان يرغبون فى النقود : بمقادير طائلة [illegible]. والتماس الصحة والسعادة والسلام ووجودها جميعا شىء يرغب فيه الكثيرون بشدة . بيد أن هناك عددا من أبناء الحادية عشرة خاصة الصبيان ليس لهم أية رغبة فى العالم . فالحياة طيبة فى نظرهم ، وهم لا يسألون شيئاً أكثر مما لديهم. وهؤلاء هم نفس الصبيان الذين يبدون بالفعل أثناء سنتهم الحادية عشرة أحسن حالا منهم فى العاشرة . حيث تجمع لهم حرارة الوجدان التى تظهر فى الحادية عشرة دون أن يمر بهم من الخبرات ما تميزت به من التشتت والصراع . فإذا زاد فهمنا للفردية فإننا سنكون أقدر على حل لغز طرائق النمو المختلفة .

ومع أن ابن الحادية عشرة ربما لا يزال متأثراً فى اختياره لمهنته بمهنة أبيه، فإنه يأخذ فى إظهار شىء من القدرة على الاختيار المستقل. ذلك أن له الآن قدرا معيناً من التنبه إلى نفسه ، وهو مدرك لقدراته ووجداناته التى تمده بأساس أفضل للاختيار . بل إنه ليعرف أن رأيه قد يتغير . وابن الحادية عشرة يعبر بصراحة تامة عما يريد أن يكون . وقد استقر رأى كثيرين منهم بعد أن هدأت الإمكانيات المتعددة التى كانوا يتصورونها فى العاشرة ، — على أحد اتجاهين اثنين : إما أن يكون «مزارعاً أو طبيباً » مثلا — «ممرضة أو راقصة بالية » — « موديل[2] أو مهندس تصميم » . ولابن الحادية عشرة ميول ذات نوع خاص معين : « فنان محترف (تجارى) » — « مصمم أزياء » « مغنى فى ناد ليلى » .

وغالبا ما يحلم الصبى أو البنت فى

---

(١) المدرجة الآلية Motor Scooter : لعبة يجرى بها الأطفال لها عجلتان ولها عمود للقيادة ولوح توضع عليه قدم واحد وهى هنا يدفعها محرك آلى (موتور) .

(٢) الموديل Model : (ا) شخص يتخذه الفنانون مثالا يرسمونه. (ب) عارضة أزياء (مانيكان) .

الحادية عشرة بأنه سيصبح قبلة الأنظار بالمسرح — : وأنه (أو أنها) سيصبح فنانا : — مغنيا (أو مغنية) راقصا (أو راقصة) مؤلفا (أو مؤلفة) رساماً (أو رسامة) للتصميمات . وهو يحلم بالشهرة . ويريد أن يكون فى القمة بين الرجال : ولذا فإنه إن اختار القانون مهنة ، أراد أن يصبح رئيساً للقضاة : وإن هو شاء احتراف لعبة كرة القاعدة ، أراد أن يكون رئيسا لفريقه . وإن أصر على الميل للزراعة ، فهو يريد على الأقل أن يمتلك مزرعته الخاصة .

وابناء الحادية عشرة الذين يزمعون إتمام الدراسة بالجامعة أقل تأثرا بوالديهم مما كانوا عليه قبلا وذلك من حيث الكلية التى سيدرسون بها ومنهم من ليس متأكدا تماما من رغبته فى الالتحاق بالجامعة ، بل ربما خشى أن لايقبل بها . ولكن ابن الحادية عشرة يدرك فعلا أنه بحاجة إلى التدريب استعدادا لكثير من أنواع المهن فى المستقبل . وقد أخذ كثير من الصبيان يفكرون الآن فى معاهد الدراسات العليا ، أو مدارس التخصص المهنى بعد مغادرة كليات الجامعة ، وربما عرفوا بالتخصيص اسم المدرسة التى يريدون اللحاق بها .

وتفكير الصبيان فى مهنتهم أشد كثيراً من تفكيرهم فى الزواج ، كما أنهم على التحقيق لم يفكروا كثيرا فى مسألة الزوجة . وهناك قلة من الصبيان أكثر إفصاحا أخذت تفكر فى المظهر الخارجى لزوجتهم — فهم يريدونها «شقراء جميلة» — أو « رشيقة جميلة وغنية » . ويلوح أن المال تأثيراً فى القرار النهائى للذكور .

ومن جهة أخرى ترى بنت الحادية عشرة تفكر فى الصفات التى ترغبها فى الزوج أكثر كثيرا مما تفكر فى مهنتها المستقبلة . لقد فكرت فى المسألة تماما بعناية ، بل لقد استبعدت من فكرها جمال الشكل والثروة ووضعتهما فى المقام الثانى . هى إنما تريد من زوجها أن يكون شفيقا أمينا متفهما للأمور ، وأن يكون له استعدادات لطيفة وحاسة فكاهة . وهى تريد منه فعلا أن يملك [illegible] من المال ما يكفل لهما المعيشة والمأكل . (اطمئنوا تماما أن ابن الحادية عشرة

يفكر فى الأكل .) . وهى تريده أيضا أن يكون ذكيا ، حسن الشكل بصورة معقولة . ولكنها تريده أكثر من كل شىء إنسانا تستطيع أن تربط به نفسها . وتلك هى صيحة «المرأة» حتى وهى فى أثناء مرحلة التنبه الجديدة من حيث علاقتها بالجنس الآخر ! !

ومعظم أبناء الحادية عشرة صبيانا وبنات يريدون أن تكون لهم عائلة . ولا تزال قلة منهم تفكر فى إنجاب عدد كبير جدا من الأطفال ، أو فى الاقتصار على طفل واحد ، ولكن معظمهم يفكرون فى عدد يتراوح بين اثنين وأربعة . وربما اشتهوا زوجا أو زوجين من التوائم . ومهما تكن الحال فإن ابن الحادية عشرة يريد كلا من الصبيان والبنات ، كما أنه عرضة أن يجمع بينهم فى صورة توائم أو يريدهم أن يأتوا بالتناوب . فإنه لم يدرك بعد أن الحياة ليست خاضعة لسيطرته وضبطه بحيث يسيرها كما يملى عليه هواه .

٥ — العلاقات بالناس

مركز ابن الحادية عشرة وطيد داخل وحدة العائلة شأنه فى ذلك شأن العاشرة — ولكن لسبب مخالف كل المخالفة !! ذلك أنه يشترك فى كل نواحى النشاط فى العائلة اشتراكا صحيحاً ، إذ يشتغل على مائدة الطعام ، ويستجيب لكل شىء يدور حوله ، ويخشى أن يفوته شىء . وربما لم تعد ممتلكاته التى كان يعثر بها فى غرفته يوما ، تستوقف اهتمامه . وهو يقضى أقل القليل من الوقت بغرفته . ولكنه حتى وهو فى وسط العائلة كثير الحركة قلق متململ ، كما أنه يقاطع الحديث على الدوام بقوله : « ماذا نحن فاعلون الآن ؟ » .

وقد فقد والداه اللذان كانا بالأمس موضع حبه الشديد كل هالة تحيط بهما [redacted] وهويا إلى الأرض ساقطين ، وتحولت إشارته إلى أمه المعبودة إلى لفظة : « هى » . أما الآباء الأشد تدقيقا مع أبنائهم فى الحادية عشرة الذين لا تفرغ لهم طلبات ، فربما أطلق عليهم كنية « فلان الفلانى العجوز » . وأصبح كل من الصبيان والبنات أقل تحمسا إلى بحث شئون والديهم مع الآخرين ، كما أصبحوا أكثر حذقا ومكراً خشية أن تفلت منهم أشياء

أ كثر مما ينبغى . ومع أنهم يقتبسون أقوال الأم فإنهم يكادون يختلفون معها فى الرأى على الفور . وهم يدركون أن أمهم لم تعد تعرف قدر ما كانوا يظنونها تعرفه ؟ كما أنهم متنبهون إلى المميزات المزاجية للأب وإلى حوافز الناس وما يفضله الأب . وهذا يمدهم بذخائر جديدة . إما أن تشعل نار الصراع أو تتجنبه أو تساعدهم على الحصول من والديهم بطريق الديبلوماسية والمكر على الشىء الذى تشتد رغبتهم إليه . والبنات أمهر فى استعمال الطريقة الأخيرة ولهن براعة فى الوصول إلى أكبر قدر من رغباتهن .

وأول شىء فى منازعات الصباح هو أشقها على الوالدين وابن الحادية عشرة يحاج ويجادل فى كل شىء . والأمر كما أبلغتنا إحدى الأمهات إنها : « تجنح للدفاع بصورة مفرطة » . فلا عجب إذن أن يضطر الوالدان إلى الصراخ فى وجه الطفل — ويدرك ابن الحادية عشرة أن الأب يصرخ بصوت أعلى من الجميع .

ولكن لعل الحكمة تقضى على والدى أبناء الحادية عشرة أن يعملوا قوائم بأنواع الأشياء التى يحبون صدورها من الطفل ، ثم ينشئون قائمة أخرى بالطريقة التى يظن الطفل أنه يمكنه الإذعان بها للأولى . وقائمة الوالدين طويلة جدا .

١ — كن أسرع قليلا .

٢ — اشتغل أكثر فى ارجاء المنزل .

٣ — اعتن بغرفتك أكثر .

٤ — ساعد فى العناية بالحيوانات

٥ — كن أنظف وأكثر هندمة .

٦ — تحل بآداب مائدة أحسن .

٧ — ساير إخوتك الصغار بشكل أحسن .

٨ — كن أحسن حالا فى مسألة ذهابك للفراش ونهوضك منه .

وقائمة إجابات الطفل قصيرة تماما بالمقارنة لتلك ، كما أنها ليست جيدة التحديد جدا :

١ — سيساعد متى سمح له مزاجه

٢ — سيعمل كل شىء تقريبا إلى غسل الأطباق .

٣ — لايريد منك أن تصرخى فيه

٤ — لايريد أن تخبرى أباه بما يفعل

٥ — امتنعوا عن الانتقاد .

وهذه القائمة لاتدل على أن ابن الحادية عشرة قادر جدا على إجابة طلبات والديه . فإنه قد اكتسب من جديد ذلك التكوين الفج الخام الذى يتسم به ابتداء دورة جديدة للنمو .

ولكن الحياة ليست بهذه الدرجة من الأزعاج بالنسبة لابن الحادية عشرة ووالديه . والعادة أنه يساير أحد والديه خيرا من الآخر . والبنات بوجه خاص يجدن المتعة مع آبائهن : فهما يخرجان معا للتمشى ويذهبان إلى ساحل البحر أو حديقة الحيوان أو السينما . ويخرج الصبيان بصحبة آبائهم لصيد السمك أو ركوب الزوارق أو العوم أو الصيد بالبنادق أو لألعاب الكرة . كما أنهم يستطيعون على الدوام تبادل حديث كثير الحيوية حول السيارات .

وللأمهات أيضا مركزهن الخاص — فهن دائما موضع الثقة وهن اللواتى يسر إليهن الأبناء . وهن ماهرات فى مناقشة الموضوعات وخاصة مع البنات . كما أنهن مدهشات حين يتبادلن المحبة معهن . وربما بلغ ابن الحادية عشرة من أظهار المحبة أن تعبيره عن ذلك قد يسبب لأمه الارتباك .

وتحتاج حالته المزاجية أن تكون موضع الاعتبار ، وإن كان يستطيع إلى حدما أن يثيرها ويهدئها بإرادته . وهو لا يحب أن يطالب بأشياء أو ينتقد ، كما أن الطلبات اليومية المتكررة عسيرة بوجه خاص ،وإن جازأن يتقبل الأقدام على أحد المشروعات (وخاصة بمنزل أحد الجيران ، لسوء الحظ) . وهكذا قد تكون الإجابة على مشكلة نظام الغرفة هى تنظيفها وترتيبها مرة فى الأسبوع (مع إغلاق بابه فى الحين نفسه لإبعاد العين عن رؤية الهرجلة والدمار) فإن كانت آدابه على المائدة أفظع من أن يطيقها الأب ، كان الأصوب أن يأكل ابن الحادية عشرة مبكرا إلى حين .

لعله ليس هناك سن أسوأ مسايرة للأخوة الصغار من الحادية عشرة. أجل ربما سيطر على تعبيراته البدنية عن الغضب ، ولكنه يقول بوضوح :

« أريد أن أضربه على أم رأسه بمضرب كرة القاعدة ، ولكن أمى لا تسمح لى بذلك » — أو يقول : « أريد أن أنفس عن انفعالاتى وأشد شعره . فإنى أحس برغبة فى اقتلاعه من جذوره » . وهناك أخ أصغر عرف أن ابن الحادية عشرة سيستجيب على هذه الشاكلة ، فهو يحاول قصداً أن يستفزه بوخزه وخز الإبر ومعاكسته وممازحته أو التدخل فى خصوصياته . وعندئذ يضطر الوالدان إلى التدخل لإنقاذ الأخ الأصغر من الهلاك : ولو أنه كان من الممكن تفريق ابن الحادية عشرة عن بقية أفراد العائلة وخاصة عند صحوه فى الصباح وقرب ساعة العشاء ليلا ، لأمكن استرداد قدر كبير من السلم والهدوء فى المنزل .

ولكن على الرغم من جميع متاعب ابن الحادية عشرة مع إخوته القريبين منه فى السن ، فليس لذلك الأخ الصغير إن هو تعرض للأذى صديق أشد منه ولاء وجدارة بالثقة . وابن الحادية عشرة يزعم نفسه أيضا (أو فى الأغلب نفسها فى حالة البنات) صديقا أو والداً تقريبا عندما يحاول أن يصلح من شأن أخ أصغر ، ولكنه ويالالأسف « قد يقتله وهو يحاول أن يحمله على أتباع السلوك الصائب » .

وابن الحادية عشرة يكون أحسن حالا بقليل مع أخ أكبر ، ولكن من سوء الحظ أن الأخ الأكبر عرضة أن يشتم الأصغر بقوله : أيها البليد الكبير التخين أبورياله — «أيها البغل العنيد» أو « يازبله ياقمىء » . وربما كانت هذه الشتائم مطابقة لحالته تماما ، ولعل ذلك هو السبب فى أن ابن الحادية عشرة يستجيب لتلك الأهانات مثل ذلك العنف الشديد . والحكمة تقضى على الأخ الأكبر الذى يعرف ذكاء ابن الحادية عشرة وفطنته المدركة وقوة باعث الكلام لديه أن لا يتعجل اليوم الذى تناله (أو تنالها) فيه يد ابن الحادية عشرة فهناك أشياء من الخير تركها وعدم التلفظ بها ، وخاصة فى وسط جومن المشاعر الخيالية التى يبدأ ظهورها وإزدهارها فى هذه السن .

وليست الصداقات عارضة ارتجالية كما كانت فى العاشرة . وابن الحادية عشرة لا يختار أصدقاءه لمجرد أنهم مجاورون له ويحبون أن يقوموا بنفس الأعمال التى يقوم بها ، ولكنه يختار

بعضهم ولو كانوا بعيدين ولا بد من مراسلتهم للمحافظة على دوام الصداقة . وهو يحب الأصدقاء الذين لهم « نفس مزاجه » — أو الذين هم « معقولون » ولعل ذلك هو مرد حسن مسايرته الشـــديد (فى معظم الوقت) لأعز أصدقائه . وهذا أكثر انطباقاً على الصبيان منه على البنات . والصبيان على وجه العموم أميل أن يكون لهم صديق حميم واحد وأن يسايروا عددا كبيرا آخر من الصبيان غير الأول . وهدفهم الرئيسى فى الحياة هو الحصول على المسرة والاستمتاع . وهم قد يتخذون بيتا من فروع الشجر مكان الجماعة (الشلة) المفضل . كما أن ميلهم للعبة كرة القاعدة لا يقف عند حد . فإن انفرد صديقان معا جنحا إلى ممارسة الألعاب . أو قراءة المجلات الهزلية أو حتى بمجرد أن يجلسا ويتبادلا الأحاديث وكثيرا ما ينقطع ركوب الدراجات لأن الدراجة قد تفككت أجزاؤها وأصبحت فى حال غير صالحة للركوب . والصبيان غالبا ما يقضون الليل بمنازل بعضهم البعض . وربما تناهى فرط حيويتهم إلى التقاذف بالمخدات .

ولا يقوم بين البنات نفس ذلك الضرب من الصداقة الحميمة الفردية ولا التجمع فى شلل كالصبيان . بل هن أميل أن يكون لهن عدد لا بأس به من الصديقات المحبات ، عدتهن من ثلاث إلى خمس يتنقلن فى الصداقة بينهن ، والبنات أشد تأثرا بصديقاتهن ، وأشد ارتباطا بالجماعة والفناء فيها ، كما أنهن قد يصبحن بالفعل تحت سلطان صديقة لهن حتى لكأنما يأخذهن سحرها . وهن يسلمن بأنه ستكون هناك مراحل شجار ومراحل « عدم اهتمام بأى شىء وقد حددت إحدى بنات الحادية عشرة الموقف جيدا حيث قالت : « نحن مضطرات أن نتشاجر لنقضى على الهدوء الممل ، ونحن بعد ذلك مضطرات إلى إصلاح ذات البين بعد الشجار بحوالى أربع ساعات » . ولا تستطيع بنت الحادية عشرة أن تتحمل الخصام وعدم الكلام أمداً طويلا جدا . فإن باعث الكلام لديها يفوق طاقتها . والبنات أيضا يحببن أن يقضين الليل فى بيوت بعضهن البعض كما أنهن أقرب أن يجتمعن فى مجموعة مكونة من ثلاث أو أو أربع . وقد يفلت زمامهن أثناء

لعبهن ألعابهن كمعرفة صديقاتهن باللمس مثلا والأنوار مطفأة .

وبينما كان ابن العاشرة كثيرا ما يذكر أنه لم يصل بعد إلى درجة الميل إلى الجنس الآخر ، فإن ابن الحادية عشرة أقرب إلى تقرير أنه أوشك أن يبلغ تلك الغاية أو شرع يتحرك فى هذا الاتجاه . وعندما يحب صبى بنتاً ، يكون متأكدا جداً أنها تحبه . ولكن غالبا ما تحب بنت صبيا دون تنبهه إلى اهتمامها هذا به . وتميل البنات للخوض مع صديقاتهن فى أحاديث مسهبة مستفيضة عن الصبيان . ويمكنهن أن يكن مدركات تماما لصفة الصبيان ، وربما رسمن لأحدهم صورة لفظية مخيفة تماما فإن بنتا أسمت معجبا بها الشاذ ووصفته بقولها : — « إنه جبرى فوزنه لا يزيد عن تسعة وخمسين رطلا وجلده يلتصق بعظامه بدرجة فظيعة . وله وجه مفرطح ملىء بالنمش وسحنة شاحبة قذرة . إنه فظيع فى جملته » . وليس للصبيان فى العادة مثل هذا الطرز من الإدراك ، بيد أنهم يشعرون بقدرة البنات على الكلام فقد ذكر صبى فى الحادية عشرة : « إنك مضطر حقا أن تتجنب تلك المخلوقة . فإن الحديث معها سينتشر من البلد الصغير إلى المدينة الكبرى » .

والبنات ينعمن بموقف الممازحة والمعابثة (المعاكسة) الذى يقفه الصبيان منهن . فهن يقلن لك : « إنه مزاح ظريف » . بل إنهن ينعمن بمعارك قذائف الورق الممضوغ وكرات الثلج ، كما قال أحد الصبيان عن البنات : «ليس فى الدنيا هدف أحسن منهن . » .

وهنا يقل عدد حفلات عيد الميلاد ، وإن كانت قلة من البنات يقمن حفلات للبنات فقط . ويظهر تحول قاطع بالحفلات فى هذه السن يباعد بينها وبين ما يسمى بحفلات « الطفولة » ، وإن لم يبرحن يتصرفن تصرف الأطفال فى خروجهن للطبخ بالعراء وفى حفلات جميع القديسين مالم يضع الكبار خطة الحفلة بعناية ويشرفون عليها . وفى الحفلات المختلطة التى ينظمها البنات فى أغلب الحالات « يلعب الحضور الألعاب ويأكلون » . ويسوء حال الحفلة عندما ينفلت الصبيان تلقائيا إلى لعبة قذف البنات بالطعام .

ويقيم قليل من فتيات الكشافة

(المرشدات) حفلات الرقص . فيحضرها الصبيان عارفين أو غير عارفين بمن دعاهم لحضورها . ولكن مهما يكن الحال ، فإنه ما تكاد (نمرة) من نمر الرقص تنتهى ، حتى ينجذب الصبيان إلى جانب من الغرفة وتنجذب البنات إلى الجانب الآخر .

٦ — الميول وأوجه النشاط

لم يعد اللعب يتبوأ مركز الصدارة فى حياة أبناء الحادية عشرة كما كان شأنه يوم كانوا فى العاشرة . وفى الامكان إدراج اللعب تحت علاقاتهم مع الناس ، بيد أن الناس الآن أهم من اللعب فعلا . إذ يندر أن يقبل ابناء الحادية عشرة الانفراد بأنفسهم مختارين ، وهم يمكثون دائما أبداً بين ظهرانى العائلة ، وإن جاز أن تكون علاقتهم سيئة مع كل من الوالدين والإخوة . وإذا اضطر ابن الحادية عشرة إلى الوحدة والانفراد ، فإنه قد يتخيل نفسه شخصين ، ويلعب دور فريق لعبة شطرنج أو كرة قاعدة حتى يمكنه أن يمارس ذلك الشعور بالتفاعل مع الغير الذى يستمتع به إلى أقصى حد .

وعلاقة ابن الحادية عشرة بالناس هى فى الغالب بعيدة عن أن تكون إيجابية فأنت تجد أحيانا أن نشاطه الرئيسى موجه ضد ترب معين من أترابه . وليس هناك من هو أقسى فؤادا من بنت فى الحادية عشرة لاتدرك تماماً ما هى فاعلة بالمعجب بها . فإذا ترددت فريستها المسكينة على تعذيبها : حملها ذلك على مضاعفة العذاب ضعفين أو ثلاثة .

ويحتاج ابن الحادية عشرة إلى المراقبة وإلى تلقى فكرة عن العدالة . فإن للقواعد والأصول موضعها لديه ومنزلتها وأهم من ذلك ، رقابة كل رفيق من أبناء الحادية عشرة حرم القوة والمناعة بمحاولة أبعاده عن أترابه المؤذين الأشد فظاظة ، ورد هؤلاء الفظاظ المشاغبين إلى جادة الصواب من وقت لآخر .

وميول الحادية عشرة تشابه تماما ميول العاشرة . بيد أن ابن الحادية عشرة ليس به مع ذلك الدافع القوى للخروج من المنزل ولمواصلة تدريب عضلاته الكبيرة كما كان يفعل فى العاشرة وهو فى حركة مستمرة ، إذ يتحرك

متململا فى كل أرجاء المكان ، كما أنه يحب النشاط الحركية الخطيرة ، ولكنه أيضا متفرج عظيم ومستكشف خطير ، كما أنه فوق كل شيء متحدث كبير .

ليس هناك شيء أحب إليه من مشروع بناء بيت من فروع الشجر بكل ما يشتمل عليه من مشاكل متعددة تتعلق بكيفية الحصول على الخشب والمسامير وورق القار أو القماش المشمع للسقف ومن الذى سينضم لذلك البيت ؟ وكم ستكون الرسوم ؟ وأين سيضعون ورق اللعب (الكوتشينة) ، وهل ستكون المناضد المتحركة المعلقة على الجدران فيها الكفاية . وهناك بعد ذلك مسألة المفصلات والقفل — على أن يكون قفلا داخليا بوجه خاص مع مفتاح إضافى لأعز أصدقائه . وهذا النوع من التخطيط والتنفيذ قد يشغل الصيف كله .

والراجح أن تنفيذ مثل ذلك المشروع يعبر عن روح ابن الحادية عشرة خيرا من أى شيء يستطيع عمله . وهو يحس بدوافع حاجة انفعالية تدفعه للحصول على هذا المكان الأمين الوثير لنفسه ولأعز أصدقائه ، فضلا عن الشلة أحيانا ، حيث يستطيعون لعب الورق (الكوتشينه) والأكل وجمع الرسوم والتكلم ، بل حتى النوم إن سمح لهم والدهم بذلك . والراجح أن خبر بناء البيت قد بلغ مسامع كل صاحب متجر فى المدينة ، ولعله قد بدل بسرور وسعادة هبته الصغيرة له وإن لم تزد عن بضع عشرات من المسامير الإضافية . وكل هذا التخطيط والشراء والتصرف فى الأرصدة ، يغمر ابن الحادية عشرة فى لجة دوامة رائعة من التفاعل مع عدد جم من أولئك الناس الذين يسايرونه فى حماسته ويريدون أن يتباحثوا فى الأمور معه . وهذا السلوك أكثر شيوعا بين الصبيان ، ولكن هناك بنات كثيرات لسن فى ذلك أقل تحمسا كما أنهن يشيدن بيوتا من فروع الشجر لا تقل جودة عن تلك التى بناها الصبيان .

ومع أن ابن الحادية عشرة ربما بدأ ثقيل الحركة سمجها مرتبكا فى أعماله الحركية بأرجاء البيت ، وخاصة عندما يوشك أن يتنازع مع غيره من أفراد العائلة ، فما عليك إلا أن تضعه على أرض تزلق بالاسكية أو فوق ساحة الزلاق على الثلج أو حلقة لقبقاب العجل

وعندئذ سيملؤنا العجب ونتساءل من أين وكيف اكتسب هـذه الخفة الجديدة فى حركته .

والصبيان والبنات جميعا يحبون فوق كل شىء أن يخرجوا للتمشى وأن يتحدثوا أو يلعبوا لعبا خشنا فى المنطقة المجاورة مع كلبهم أو زميلهم أثناء مسيرهم . ويمكن لكل شىء أن يثير اهتمام أبناء الحادية عشرة . فهم يراقبون أى حيوان أو طيور قد يرونها . ويلاحظون الحشرات ويتباحثون فى عاداتها وهم يرودون الجبانات ويقرأون ما على أحجارها من شعر . وهم أميل جدا للمشى منهم لركوب دراجاتهم ، وذلك لأنك لا تستطيع أن تلعب لعبا خشنا على الدراجة مثلما تفعل وأنت تسير على قدميك ، وعلى كل حال فالعادة أن إطار الدراجة يكون فارغا غير منفوخ وأجزاؤها الهامة مفكوكة أو ناقصة .

ولا يزال جمع المجموعات ماضيا بقوة ، ويهتم ابن الحادية عشرة بوجه خاص بناحية التجارة وخاصة تجارة الكتب الهزلية وبطاقات كرة القاعدة . فإذا كانت هـذه الأخيرة معروضة للمشاهدة ، تعرضت لتغييرات وتبديلات متواصلة فتعلى هذه البطاقة وتنزل تلك . فإذا أتجر فى الكتب الهزلية ، فربما أصبح الأمر مشروعا جماعيا، مع تكديس مجموعات أعضاء كثيرين بعضها مع بعض ، والتقايض عليهـا ، حسب الظروف (وتوضع كل مجموعة فى ركن خاص لحفظها) .

وتتجلى أيضا نفس الاختلافات المحددة بين ميول الصبيان والبنات على نحو ما تجلت آنفا فى سن العاشرة . ويمكن أن تصبح بعض الميول قوية جدا بسبب القوة الانفعالية الإضافية التى تجتلبها سن الحادية عشرة ، وإن جنح ابن الحادية عشرة أيضا لنبذ بعض الميول فجأة وهو لم يكد يبدأ ممارستها . ولا يزال البنات يملن ميلا شديداً للتأنق ، وربما سطون على دولاب أمهاتهن التماساً للأحذية بوجه خاص ، وقد يظهرن بمظهر التبرج الخليع بما يثقلن وضعه على وجوههن من الطلاء وأحمر الشفاه . ومنهن من هى ماهرة بصفة غير عادية فى تقليد بعض من يعرفن بطريقة معبرة جدا . ومن البنات من ينظمن ميولهن وقدراتهن

فى صورة التمثيل المسرحى . وهن يحببن أيضا لعبة السكرتيرة وأمينة المكتبة . .

وتبدأ بنات كثيرات فى إظهار الميل إلى خياطة الملابس لعرائسهن (وأحيانا لأنفسهن) . وربما كن على استعداد للحصول على آلة خياطة صغيرة تدار باليد . وينبغى أن تبذل الأم شيئا من العون فى فك الخياطة وإزالة الأخطاء وإلا ضجرت الطفلة بغاية السرعة . وقد يصبح الاهتمام بحبك الخيوط [التريكوه] أقل مما كان .

والصبيان أميل إلى استخدام خيالهم الابتكارى فى الألعاب والمخترعات . فهم قادرون على إدخال جميع أنواع التغييرات فى لعبة الحرب وألعاب الكرة ، وهناك قلة تلعب كرة النضد (البنج بنج) أو التنس بينما يتعلم آخرون إصابة الأهداف ببنادق الفلين . وهم يستمتعون بالرماية ببنادق الرش B . B تحت الإشراف ، ولكن لا بد من وضعهم تحت الرقابة الدقيقة .

وحب الأندية المنظمة قوى متمكن عند معظمهم ، وإن كانت قلة من الذين يفوقون غيرهم فى النضج تقول إنها « مملة » . فلو زدنا من استشارة ابن الحادية عشرة وجعلنا خطة تحديد أنواع النشاط تدور أكثر حول ميوله التى يريد أن يغيرها بكثرة ما ، فلعله يستمتع بالأندية المنظمة استمتاعا أفضل . وهناك كثيرون ينضمون إلى تلك الأندية بو اصلون الانتساب إليها لأنهم يظنون لك واجبا عليهم ، ولكنهم على الأغلب لا ينضوون تحتها بقلوبهم . على أن أنديتهم هم الخاصة ليست مع ذلك أحسن حالا ولا أطول عمراً . فإن بعض الأعضاء يكونون دائما متغيبين أو ينسون دفع ما عليهم من رسوم . وربما كان دفع الرسوم أهم كثيرا من انتخاب القائمين بالعمل .

لقد فقد ابن الحادية عشرة نظرته المثالية للأندية شأنه فى ذلك شأن ابن العاشرة ، كما قلت رغبته فى تحسين حالته. أما الآن وهو فى الحادية عشرة ، فأنديته للمزاح والسرور أو للأكل ، أو « للاستقلال عن الصبيان » أو لمجرد اللعب .

أنواع النشاط المستقر للمشاهدة والاستماع :

لم يعد لدى ابن الحادية عشرة نفس دافع الاستماع للراديو أو مشاهدة التلفزيون إلى المــدى الذى كان له يوما ما . وهنالك بطبيعة الحال اختلاف كبير بين الأطفال ، على أنه من المفيد أن نشهد كم يعل ابن الحادية عشرة اليوم من البرامج التى كان يحبهـا فى أمسه . وربما آثر أن يدير مذياعه وهو يقوم بواجبه المنزلى إن سمح له بذلك أو حين يستلقى استعدادا للنوم . وروايات الخفايا الغامضة لا تزال لديه أثيرة ، وإن كانت «لا تهمه كثيرا» ، كما كانت تهمه من قبل . ثم إن الكوميديات والدرامات العـائلية والروايات المسرحية عن طريق الإذاعة والتلفزة جميعـا تصبح محبوبة لديه . والصبيان كعادتهم يفضلون برامج الرياضة وبعضهم يواصـلون بانتظام الاستماع للأخبار أو مشاهدتهـا [على التلفزيون] . ومع أن هناك بعض الميل إلى موسيقى الإذاعة ، فإن هناك اهتماما أكبر كثيراً بالاستماع إلى اسطوانات الجرامofون . وهنا يبدأ ابن الحادية عشرة ينجذب نحو ميول أبناء العقد الثانى إلى موسيقى الجـــاز والموسيقى الشعبية . وإنه ليتمنى الحصـول على الألبومات الحاوية لاسطوانات أحـــدث المقطوعات الموسيقية التى سجلت .

وقراءته تعتمد إلى حد كبير على شخصيته الأساسية . فإن هو كان ممن قرأوا بكثرة كبيرة فى العاشرة ، فربما قرأ أكثر وأكثر فى الحادية عشرة ، وإنه ليختلس أكبر ما يستطيع من وقت إضافى للقراءة بعد أن يأوى إلى فراشه ليلا . وربما اضطرنا الموقف أحيانا أن نخلع المصابيح الكهربائية للقضاء على هذه العادة . وحتى أولئك الذين كانوا يقرأون قليلا جدا من قبل يقرأون فى الحادية عشرة أكثر قليلا . وذوقهم فى اختيار الكتب يماثل ذوق العاشرة مع اهتمام أعظم بحـكايات الحيوانات أو الحشرات أو الطبيعة . (وقد يهمنا فى هذا الصدد ، أن نعرف أن اهتمام ابن الحـــادية عشرة بالحيوانات الأليفة أخـذ يمتد إلى

« الخنزير الهندى[١]) وفأر الجيل والترسه والسمك) .

وغالبا ما يقلب ابن الحادية عشرة صفحات المجلات الدورية المصورة ليظل مسايراً للأحداث الجارية . بيد أنه يعير الكتب الهزلية قدرا أكبر من الوقت والجهد والعناية والاهتمام الحق . وقد ضعف اهتمام عدد من أبناء الحادية عشرة بها ، ولكن اهتمام بعضهم الآخر قد زاد قوة على قوة . وهم وإن زادوا فى الكتب حبا ، إلا أن «حبهم للهزليات لم يقل بأى حال » . ويصبح ابن الحادية عشرة أكثر تدقيقا منه قبلا فى انتقاء الكتب الهزلية ، وهو يقول على الأقل إنه يفضل منها كتب الحيوانات الأقل أذى ؛ فإنها سلعة تجارية طيبة وثابتة . وإذا لم يسمح لابن الحادية عشرة بأن يقرأ الهزليات بالمنزل ، فإنه يستطيع دائما أن يلتمس الوسيلة للحصول عليها دون مضايقة من أحد بمنزل أحد الجيران أو بالمزرعة أو حتى بغرفة الانتظار عند طبيب الأسنان . وفى إمكان البعض مزاولة التستر والتحايل بغاية المكر ، وذلك بتقسيمها أكواما صغيرة جدا وإخفائها بأماكن كثيرة مختلفة . فإن وجد كوم منها وصودر ؛ كان معنى ذلك أن بقيتها ستظل فى أمان مؤقتا على الأقل ، وذلك لأن الوالدين يفوتهم أن يشكوا فى وجود المزيد منها . فتحريم الهزليات أو زيادة اليقظة ليس هو وسيلة الرقابة عليها .

ويحضر ابن الحادية عشرة عروض السينما أكثر مما كان يفعل فى العاشرة . فإن نسبة لا بأس بها تذهب كل أسبوعين وهناك آخرون يذهبون مرة كل أسبوع كما أن معظمهم يذهبون بين الفينة والفينة على الأقل . ولا يزال كثيرون يصحبون والديهم ، ولكن عدد متزايدا منهم يذهب مع أصدقائه . وأهم مايتمناه ابن الحادية عشرة أن يكون الفيلم « جيدا » ، وهذا معناه لدى البنات أنه فيلم ليس به عراك ولا قتل . وهناك قلة من أبناء الحادية عشرة

(١) وهو أيضا خنزير غينيا ويسميه بعض العوام الأرنب الرومى ، وهو نوع من القوارض يستخدم فى التجارب العلمية . [المترجم]

يصبح أحد الأفلام لديها أثيرا بحيث يشهدونه مرتين أو ثلاثا متوالية .

٧- الحياة المدرسية

قد تحول ابن العاشرة المتهاون اللين العريكة القابل للتكيف والمتشوق للتعلم إلى ابن حادية عشرة نقاد ملح فى الطلبات حاد النظرة ثرثار . فإذا هو انضم إليك انضم بكليته ، ولكنه إن ناصبك العداء وجب عليك أن تكون على حذر أو تنتظر فى إصلاح الأمر له — وذلك أفضل .

ومع أن الكثير من أبناء الحادية عشرة متحمسون للمدرسة ، يكادون يحبون المدرسة أكثر منهم يوم كانوا فى العاشرة، لأن «المدرسة الوقت فيها أسرع » ، فإن هناك كثرة كبرى من أبناء الحادية عشرة يتحدثون عن المدرسة بوصفها « إحدى مشا كلهم » ومن الخير أن لا تستهين المعلمات أو المدارس بملحوظات من أمثال « أنا لا أنسجم مع المدرسة » أو « المدرسة مخجلة » . وينبغى أن يصغى المسئولون إلى ما يقوله ابن الحادية عشرة وأن يفهموه فهما أوفى . فعندئذ فقط تستطيع المدرسة أن تستجيب لحاجاته وتعرف فى نفس الوقت ماذا تستطيع أن تطلبه منه أو ما يمكن أن تضعه على كاهله من مسئوليات .

ومن الجلى الذى لا خفاء فيه أن ابن الحادية عشرة يحضر إلى المدرسة بصفة رئيسية بسبب وجود الأطفال بها. فإن حاجته إلى أترابه حق وإن ساءت علاقته بهم لا يكاد يروى لها غليل . فهو يعاكس زميله بالفصل ويطارده ويدفعه أو يمسك به أو يضربه دون أن يدرك فى بعض الأحيان كم يمكنه أن يؤذيه ويؤلمه بذلك ، أو مع تعمد فعلى للايذاء والإيلام أحيانا . ولكنه يلكز أيضا أو ينخس مرفقه بطريقة ودية ليسترعى التفات جاره . وكثيرا ما يرى وهو يسير فى الطرقة لافاً ذراعه حول صديق من نفس جنسه .

ويتجمع أبناء الحادية عشرة فى جماعات صغيرة اجتماعا يقوم (على أساس الجنس) . وليس هذا شيئا عابراً أو عرضيا . وربما تجمعوا بقصد الشر مثلما يتجمعون بقصد الخير تماما . وربما انحلت الجماعة فجأة لاستبعاد أعضاء معينين غير مرغوب فيهم . ثم تشكل

المجموعة الأساسية من جديد ، وربما سمحت أو لم تسمح بعودة الأعضاء المستبعدين إلى نطاقها . وإذا سمح لابن الحادية عشرة أن ينفذ رغباته دون إرشاد كاف من الكبار ، ذكرتنا طرائقه وأفعاله إلى حد ما بطرائق الغاب .

ولعل المعلمة هي أهم عامل مفرد في حياة ابن الحادية عشرة المدرسية . ولا يريد ابن الحادية عشرة أن يقبض عليه « بيد من حديد » ، ولكنه يفضل بالفعل معلمة « شديدة » أي معلمة تستطيع تحديه . وهو لا يريد بوجه خاص معلمة « تعاملنا كالأطفال » ، ومع ذلك فإن تلك المعلمة نفسها يمكن أن تنتقد في أوقات أخرى لأنها « تتعالى علينا كثيرا » والراجح أن من أهم الصفات التي تزيد من إيثار المعلمة (أو المعلم) لدى ابن الحادية عشرة أنها أو أنه « ينكت » أو يروى حكايات مضحكة . فإذا هي عرفت عقل الحصان بقولها « للأحصنة عقل لأنهم لا يتراهنون على الرجال » قهقه ابن الحادية عشرة قهقهة شديدة يعقبها توقد للسرور في نفسه يستديم أياما وعده بموضوع يتحدث عنه ويفكر فيه . كما أن ابن الحادية عشرة يحب أن تعاكسه معلمته معاكسة شخصية في لحظة مناسبة فإن قولها « هل استبدلت مخ القرد الأصفر الذي رأيته بحديقة الحيوان بمخك ؟ » ربما حفز ابن الحادية عشرة للعمل حفزا أحسن من أي نوع من أنواع الحديث الجدي . ولكن على المعلمة أن تزن دائما في عقلها هل مزاحها سيكدر مزاج ابن الحادية عشرة أو يحفزه ويدفعه لمواصلة العمل . فهي بحاجة أن تختار اللحظة التي يكون فيها التفاته وحده موجها إليها ولا تحرجه أمام المجموعة .

فلو أمكن أن توصف معلمة ابن الحادية عشرة بالصبر والعدل والفكاهة وعدم التشديد المفرط والفهم وأنها تجعل الأشياء « مشوقة » ولا تصرخ ، لاجتمعت كل الدواعي التي يتوقع بها أن يصبح ابن الحادية عشرة شديد الكلف بها ، كما أنه لن يخاف أن يكشف أو يتحدث عن محبته لها . وكثيرا ما يفتن ابن الحادية عشرة بمعلمة في الفرقة السادسة افتتانا . ويبادر الصبيان إلى التعبير عن محبتهم بأدائهم الخدمات

للمعلمة (المعلم) : — كتقديم الهدايا لها والبقاء بعد المدرسة لمساعدتها ، بل حتى الإمساك بيد المعلمة أحيانا .

وياله من تغير ذلك الذى يحدث فى جو غرفة دراسة الفرقة السادسة عندما يقال عن المعلمة إنها «أبو جلمبو حقيق» — أو «إنها فظيعة» — أو «إنها تصرخ كما أنهـا شديدة صارمة جدا» . ويستطيع ابن الحادية عشرة أن يعطينا فكرة جلية إلى حد ما عن عيوب المعلمة ، لو أن لنا أذنا تصغى لما يقول . وإليكم تقريرا لإحدى بنـات الحادية عشرة .

«أتعرفون ماذا أحب أن أكون؟ لاعندما أكبر . . ولـكن الآن ، إنى أحب أن أكون المعلمة لمدة يوم واحد فقط ، وأذيق معلمتى طعم دوائها الذى نتجرعه ... إذن لـكنت أجعلها تجلس بمقعد تنحشر فيه . ثم أعطيها أكداساً من العمل تعلو إلى عنان السماء . وعندئذ لا أسمح لها بأن تتكلم دقيقة واحدة — إذ أن ذلك هو ماتصنعه بنا . وعندئذ أقول : كلاينبغى أن لاتفعلوا ذلك ياأطفال . ثم اجعلها تتقدم إلى الخريطة وترينى كل مدينة صغيرة . وأجعلها تتهجى كلمات صعبة جدا . ثم تحل خمسة وعشرين مسألة من المسائل الحسابية . وقبل انتهاء عمل المدرسة أجعلها تعمل عشرين أخرى ثم أعلن درجاتها علنا أمام الفصل بصوت عال . ثم أجعلهـا تتأخر بعد المدرسة وتنظف كل شىء وتقوم بجميع الشغل القذر ، وعندئذ يجوز لها أن تعود لبيتهـا » .

فلو صححت المعلمة أو المدرسة كل هذه الأخطاء (إن صح أنها أخطاء). إذن لأعطى الجانب الإيجابى والممتع من ابن الحادية عشرة فرصة للنمو فى جو أصح . وليس معنى ذلك أن الحياة تصبح هينة لينة تماما بغرفة الدراسة ، ولـكن يكون فى الإمكان على الأقل تعديلهـا وفق قوى نمو ابن الحادية عشرة .

وربما جاز لنا الآن أن نحلل سلوك ابن الحادية عشرة بالمدرسة لنرى كيف أن ذلك السلوك هو خير مايكشف عنه فلو عرفت معلمة ابن الحادية عشرة أن الجو الذى يغلب عليـه عادة السلام والهدوء والذى يعيد إلى الأذهان ذكرى

الفرقة الخامسة قد ينفجر فى وجهها فجأة فى ثنايا تلك الفرقة السادسة ، لوقفت على قدم الاستعداد لمواجهة أى طارىء قد يحدث . وعليها أن تتأكد من شىء واحد ، هو أن ابن الحادية عشرة لايزال ثائراً قلقا إزاء التعلم ، وأنه لم يصل بعد «إلى درجة التشبع والاستكفاء» التى لعله يبلغها عندما يصبح فى الثالثة عشرة وما بعدها .

ونظرا لصعوبة الصحو فى الصباح على ابن الحادية عشرة وميله إلى الاحتكاك بغيره فى كل مايعمل ، فإنه يحضر إلى المدرسة أحيانا فى حالة من الارتباك من الناحية العقلية والبدنية أو دون تناول فطوره . وعدم تناوله الطعام يجعل حاله أسوأ قليلا من المعتاد . ولذا فإنا نرجو أن تقدم إليه المدرسة وجبة خفيفة ساعة الضحى من لبن وقراقيش على الأقل . ولو أن المدرسة كانت تسيرها عقلية حريصة حقا على رعاية المجتمع لعمدت إلى أخذ ابن الحادية عشرة من بيته حيث هو عامل إزعاج شديد ساعة الفطور ، وإلى دعوته إلى المدرسة حيث يستطيع أن يجهز فطوره الخاص . فيالها من بداية مدهشة ليومه ، تلك التى قد تحدث : فثم المؤانسة وطيب العشرة وطهيك طعامك لنفسك والشعور بالانشراح الذى يلازم المعدة الممتلئة ! ! وربما أمكن أن يتم ذلك بطريقة دورية تتحمل فيها مسئولية ذلك العمل بالتناوب جماعات صغيرة يتغير أعضاؤها .

فلو أتيحت لابن الحادية عشرة تلك البداية الأفضل ، فلعله لايقاوم أعمال النظافة والترتيب بغرفة الدراسة بقدر مايقاومها الآن . بل ربما أحب عملية إزالة التراب التى يتخذ منها الآن موقف المتكره عادة . ولكن كما هو شأن ابن الحادية عشرة دائما — لوأنه عرف ماينبغى عليه عمله (أى لو رسمت خطة لأعماله) ولو أنه عرف أنه لن يضطر إلى مواصلة عمل الشىء نفسه (أى الأعمال التى تتكرر) ، وأنه يستطيع أن ينتقل لأعمال أخرى متى شاء (أى أنه حر فى تبادل الأعمال مع الأطفال الآخرين) لتعاون بأقصى مافى طوقه . وتتجمع البنات على حدة والصبيان على حدة جماعات صغيرة ويستطيعون بطريقة ما ومع قدر معين

من التغيير والداورة أن يقوموا بالفعل بما يهمهم.

وهـذا النوع نفسه من الداورة والضبط لازم فى الإشراف الكلى على الفصل أثناء العمل أو أثناء اللعب سواء بسواء. والمعلمة الحصيفة تنتقى من تلاميذها القادة الذين تؤهلهم إمكانياتهم كما أنها تجلسهم فى المواقع الاستراتيجية الهامة بحيث يكون حول كل منهم مجموعته (أو مجموعتها) من الأطفال الذين هم تحت سلطانه. وينبغى أن يكون هؤلاء القادة بلاسلطة وأن لايكونوا معروفين للأطفال ولا لأنفسهم. ولـكن المعلمة تعرف ما إذا كانت تستطيع ضمهـم لجانبها، وما إذا كانوا سيصبحون فى بعض الأحيان ذوى تأثير أكبر أو أحسن مما تستطيعه هى. (والمعلمة تعلم أيضا أنها حين تعجز عن توصيل فـكرة إلى ابن الحادية عشرة، فإن طفلا آخر يقدر أحيانا أن يفسرها). وسرعان مايتجلى أن الاحتـكاك سيقل، وتقل الحـاقات والضحك بطريقة سخيفة لو قسمت هذه الجماعات غير المحدودة على أساس الجنس.

والتململ وعدم الاستقرار فى المقاعد أمر شائع جدا فى الفرقة السادسة. إذ يحتاج ابن الحادية عشرة أن يؤذن له أن يدور بأرجاء الغرفة ويتحدث؛ وإن وجب أن لايسمح له أن يعرقل أعمال الآخرين ولا ينجز عمـله هو. وربما نجم عن السماح بقدر معين من حرية التنقل بأرجاء الغرفة نقص فى تبادل الرسائل، ونقص فى اتجاه ابن الحادية عشرة إلى الطعن فى زميـله بملحوظاته المستترة « منان » — أو « إنه دهل ».

وربمـا وجب على المعلمة من حين لآخر عندما تصبح غرفة الدراسة وكأنما غلب عليها الاختلال أو رانت عليها الفوضى، أن تلجأ إلى الأحكام العرفية، وأن تلزم كل طفل أن يجلس جلسة معتدلة ويواجه صدر المـكان. وربما لم يكن هذا الإجراء ضروريا ولا حتى ممكنا بمدرسة مهيأة حقا للعمل وفق احتياجات طفل الحادية عشرة، مدرسة ربما لم يجز أن يحدث بها مثل ذلك الجلوس الشكلى الجاف. ففى الإمكان التمـــاس طرق ووسائل أخرى لجمع شتات المجموعة. ويريد ابن الحادية عشرة الحصول على تمرينات افتتاحية. وهو يجيد الاستجابة

للتعاليم الدينية أو لقصة من الكتاب المقدس . وربما أراد أحيانا أن يستبدل بالتمرينات إنشاد أغنية شعبية .

ويسعد أبناء الحادية عشرة أن يناط بهم رفع العلم . ويحبون أن يحيوا الراية ويقسمون على الولاء لها بقوة وحماسة . ويقبل أبناء الحادية عشرة أيما إقبال على التجمع أثناء تلك العملية .

وأحسن متعة لابن الحادية عشرة هى الجباز والألعاب الرياضية . وكرة القاعدة أحب لعبة إليه ، ولكن كرة القدم الانجليزية وكرة القاعدة والكرة الطائرة وكرة القدم الأمريكية تليها فى المقام مباشرة . ويفضل الصبيان والبنات هنا الانفصال بعضهم عن بعض . بيد أن هناك بعض البنات اللواتى يبذلن « أقصى ما يستطعن » لكى يسمح لهن باللعب مع الصبيان . والصبيان يجدون عسرا فى التخلص من ضعاف اللاعبين من أبناء جنسهم ، بيد أنهم لا يتحملون بأى حال ضعاف اللاعبين من الجنس الآخر .

وعند انتخاب الفرق الرياضية ، يختار أحسن اللاعبين أولا ثم الأصدقاء ثانيا . وتحتاج الألعاب إلى الاشراف وذلك لأن ابن الحادية عشرة عندما يشرف بنفسه عليها يكون قاسيا ونقادا فإنه يصيح قائلا : « أيها المغفل اللعين » عندما تفلت الكرة من أحد الزملاء ، وربما زاد فتوعد ، « إنك لم تحاول أن تصيب الكرة وإذا لم تحاول فلن تكون عضوا فى فريقى » . وربما شعر الوالدون فى البيت بالخجل والاستحياء أحيانا من أبنائهم فى الحادية عشرة ، ولكن المعلمين بالمدرسة ربما شعروا أيضا بالخجل والاستحياء من نفس هؤلاء أبناء الحادية عشرة . وذلك أن الصبيان ربما اشتبكوا فى تلاكم بالأيدى لأتفه الأسباب — أو دون أى سبب ظاهر — وقد يحتاجون أن يفرق بينهم أحيانا . أو لعلهم يثأرون من طفل آخر بإبعاده من الفريق ، أو بعدم إعطائهم إياه أى شىء من الحلوى . وابن الحادية عشرة ليس حيوانا اكتسب الطابع الاجتماعى الكامل بنجاح ، ومن ثم يحتاج إلى عون معلمته (أو رائده) لكى ترقب ما هو صانع من ناحية وتدله على طريقة أحسن لصنعه .

والتدريس بالفصل لأحد أبناء الحادية عشرة إما أن يكون خبرة مثيرة

أو منهكة للقوى (وقد تجمع أحيانا الأمرين) . فإن استطاعت المعلمة أن تعالج مشاكل الجماعة بطريقة حماسية مشوبة بالحرارة والانفعال ، وإن هى قدرت أن تهتم بما تهتم به بقية الجماعة ، إذن لاستطاعت — على حد تعبير أحدهم — : « دفعهم دفعاً إلى التقدم دون أن تسمح لهم بالتثاقل فى العمل » وسرعان ماتدرك أن ابن الحادية عشرة يبذل غاية الجهد للقيام بقدر معين من العمل الروتينى ، وأنه يحب أن يعرف ما ينتظر منه ، وما التغييرات التى تحدث من يوم لآخر فى نصيبه من العمل وفى جدول الأعمال . وهو يتقبل نصيبا من العمل طويل الأمد يمتد ستة أسابيع مثلا ، وإن وجب على المعلمة مراجعة أعماله بين فترة وأخرى ، وربما جاز أن تتوقع منه أن يقوم على العمل بغارة عنيفة فى آخر لحظة بمساعدة أفراد الأسرة جميعا .

وابن الحادية عشرة يهتم بالمنافسة أيا كان نوعها بحماسة متوقدة . بل إنه قد « يحرق دماغه ويلهبها بالعمل لبتغلب على أعز صديق له » . ومن الطرق المفضلة فى المنافسة منافسة أحد الجنسين للآخر . ولا يقتصر الأمر على استخدام التهجى والحساب فى ألعاب التنافس ، بل يمكن أيضا استخدام التاريخ والمواد الأخرى . وهم جميعا يستثنون الدراسات الاجتماعية من مضمار التنافس ، إذ الظاهر أنها شديدة التعقيد (مملة) على عقل ابن الحادية عشرة . والمسائل فى الحساب تكون أيضاً شديدة التعقيد جداً ، وإن رغب فى الحساب فى العمليات الميكانيكية . وهو يبتهج بالجمع والطرح ، وفوق كل شىء بإظهار معرفته الدقيقة بجدول الضرب ، الذى قد يصبح بغيضا عند معلمته . وقد يخطىء ابن الحادية عشرة فى تعريف الكلمات بقدر خطئه فى مسائل الحساب ، فهو يريد أن يستخدم كلمات فى جمل أو فى سياق إحدى العبارات ، كما أنه يحب أن يقطعها مقاطع ، ولكنه يكره أن يعرفها . والمعلمون — فى تنبههم التام إلى ما يكره ابن الحادية عشرة — يستطيعون مع ذلك أن يستخدموا الجغرافيا وألعاب الكشف فى القواميس[1] أثناء المواقف الاجتماعية لتوفير شىء من المرح والفكاهة .

(١) ألعاب الكشف فى القواميس : (1)Dictionary game

واكتشاف العلاقات بين الأشياء من أعظم نقط الضعف عند ابن الحادية عشرة ، ومن الجلى أنه إذا لم يكتشف هذه العلاقات فلن يتذكر الحقائق . وغالبا ما يفهم على أحسن وجه إذا أوصلت إليه المعلمة معلوماتها فى إطار قصة بيد أن هناك خطرا يكمن وراء قص المعلمة للأقاصيص ، وخاصة حول الأحداث التاريخية ، وهو أنها قد تجرفها هذه الطريقة بصورة ربما وجدت نفسها معها تغير الحقائق التاريخية .

وليس شىء أحب إلى ابن الحادية عشرة من قصة طيبة — سواء أكان موضوعها يدور حول المخاطرة أو كانت هراء أجوف . وهو أقدر على تقديم تقريره عن الكتب شفويا منه تحريريا بيد أنه عرضة لأن يسهب ويطيل . ومن ثم فمن الحكمة قصره على حادثة واحدة. وهو يؤثر الأحداث الجارية على التاريخ القديم . وهو مولع بأن يحدد على خريطته مواضع الأماكن المذكورة بالصحف . وابن الحادية عشرة يريد فى كل آن أن يكون عمله مرتبطا بالحقيقة والواقع ، أى بمدلول تلك الحقيقة لديه .

ومن أحب أنواع النشاط الخياطة والطبخ لدى البنات والبيع والشراء فى المتاجر لدى الصبيان . وابن الحادية عشرة يحب بوجه خاص أن يغنى . ومن حسن الحظ أن عدد المدارس التى تعنى بتحسين التربية الموسيقية يتزايد يوما بعد يوم . وهو يحب الرسم أيضا وخاصة إذا كان ذا صلة بقصصه ومشروعاته . وهو يحب أن يرسم زخارف فريزية[1] طويلة مستمرة مفضلا أن يعكس فى الرسم أفكاره ويسقطها إسقاطا تخيليا على نقل فكرة عن شخص آخر . فلو أعطيته مشروعا عن الأسواق لأبدى حماسة كبيرة فى جمع المعلومات وإقامة المعارض والرسم . (والطعام فوق كل شىء من أعظم ما يتحمس له) .

وابن الحادية عشرة يتعب بسرعة وإن تلقى العلم فى أحسن الظروف التعليمية القائمة على أجود تخطيط . ويتجلى تعبه فيما يبدو عليه من التناقض بين أنماط تعلمه . فهو يقوم بعمله يوما

---

(١) الفريزة (Frieze) : شريط من الزخارف والحليات يمتد فى أعلى جدران إحدى الغرف .

قياما مدهشا رائع الجودة ، وإذ هو يبدو فى اليوم التالى غبيا . وهو يتغيب عن المدرسة بالمرض بصورة دورية ، بشكل يزيد عما كان يفعل أثناء السنوات الثلاث الأخيرة . وتتراوح درجة حرارة جسمه تراوحا بعيداجدا . فبعض أبناء الحادية عشرة يحسون ببرد شديد حتى ليلبسون من الثياب ما قد يبدو مقدارا كبيرا ، على حين أن غيرهم شديدو الاحترار جدا وإن بدوا عراة تقريبا . ويظل أبناء الحادية عشرة يرفعون شيش النوافذوينزلونه أو (يقفلونه ويفتحونه) حسب ما يحسون به من حر أو برد .

ويبدى ابن الحادية عشرة تعبه فى نهاية فترة بعد الظهر بالمدرسة بأن يصبح شديد التلوى مضطرب الحركات ، وإذا أطلق سراحه فى النهاية انطلق إلى الخلاء مسرعا .

وأنماط التعب هذه تماثل تلك التى كانت تلم به فى سن أبكر : من الخامسة والنصف إلى السادسة. ولذا فربما جاز هنا للمرة الثانية فى الحادية عشرة بعد السادسة البحث فى قصر الدراسة على نصف النهار فقط . وربما جاز أن يجعل برنامج بعد الظهر اختياريا وأن يقصر على نواحى النشاط الخارجة على مناهج الدراسة . ولاشك أن المعلمة التى تعمل فى ظل مثل تلك الحالة المتطرفة من الشدة تكون متعبة تماما كالأطفال أنفسهم ، كما أنها هى أيضاً تستفيد فائدة عظمى بدراسة نصف النهار فقط مع إتاحة القدر الكافى من الزمن لتجديد طاقتها البدنية وحيويتها استعدادا لمحنة اليوم التالى وشقائه . فإن لم يكن فى الإمكان توفير دراسة نصف نهارية فقط ، فلا شك أن من الحكمة السماح لأم ابن الحادية عشرة أن تقرر ما إذا كان فى الإمكان اعطاؤه أجازة مفاجئة ليومين أو ثلاثة أثناء السنة إذ أن ذلك يعود عليه بالنفع . وليس هناك أحسن من ذلك طريقة يمكن أن تعود بالنفع على التلميذ فى الحادية عشرة فهى ترفع روحه المعنوية ، وتقلل من الكره الشديد المتزايد الذى يشعر به نحو المدرسة .

٨ ـــ الحاسة الخلقية

ليس ابن الحادية عشرة فقط خارجا من عالم الطفولة ، بل إنه فى الحق قد بات منغمرا فى لجة تيار عالم البالغين ، وهو يتحرك ذات اليمين وذات الشمال محاولا تحديد طريقه . هو يريد أن

يتحرر من صلاته بالسلطات الرسمية الثابتة : البيت والمدرسة والكنيسة . وهو يريد أن يصور الأشياء لنفسه . وهو أقل تدقيقًا فى قانونه الخلقى منه يوم كان فى العاشرة (أو قل على الأقل إن قانونه أخذ يتغير) وفى دخيلة نفسه الآن قدر أكبر من حرية البت فى الأمور .

والأغلب الأعم أن ابن الحادية عشرة يقوم بمحاولات طيبة . فهو « يحاول أن يقول الصدق » ، وهو « يحاول أن يعمل صوابا » ، وهو « يحاول أن لا يسب » ، وغالبا ما يعرف الصحيح الصائب ، وإن لم يفعل دائما ما هو صائب . وهو فى بعض الأحيان متحير من أمر (الحق والباطل) ، ميال أن يتصرف حسبما تمليه عليه وجداناته أو ما يوحيه إليه إدراكه السليم . وأبناء الحادية عشرة الذين يتقيدون بدرجة شديدة بما يقوله والدوهم أو الذين هم شديدو الحذر والتردد فى اغتنام الفرص (كالاعتداء على ممتلكات الغير مثلا) ربما أسماهم أترابهم « بالجبناء الضعاف القلوب » وابن الحادية عشرة أشد وعيا للمشكلة القديمة ، مشكلة المفاضلة والاختيار بين قبول أترابه له وبين الاستمساك بمعاييره الخلقية الخاصة .

وأكثر ما يشغل باله فى ميدان الأخلاق هو مسألة العدالة . فإن كل ما اجتمع فيه من خير يبرز ويعلو إلى القمة عندما يصبح كالحجر الصلد فى استمساكه بموضوع العدالة فى كل معاملاته مع الناس . ذلكم هو ابن الحادية عشرة فى أمثل أحواله — وإن أمثل أحواله لتستطيع أن تعمل فى ظروف معينة .

وابن الحادية عشرة يملك بالفعل ضوابط طيبة بدرجة لا بأس بها تأتيه عن طريق ضميره . وربما أضجره ضميره وجعله يداوم التفكير فى شىء أخطأ فى عمله . وهذا الانشغال لباله ربما أوقعه بين فكى النقيضين المتضادين على خط مستقيم : فإما القصاص والتعويض أو الاعتراف لأمه ، بيد أن ابن الحادية عشرة يحاول أن يتجنب جر المتاعب على نفسه وربما لم يعترف بالأمر مطلقا أو ربما لون الصدق بلون مصلحته . وهناك مجموعة صغيرة من بنات الحادية

عشرة يأتين نقيض ماتمليـــه عليهن ضمائرهن نفسها . فهن يفعلن أمورا بقصد إغاظة الناس وخاصة أمهاتهن . فيتعمدن فعل الشر ويشعرن بالسرور لأنهن فعلنه ، ذلك أنهن يحببن شعور الاستهتار الذى يجىء مع فعل الشر ، كما أنهن يقلن صادقات أن ضميرهن لايهمهن عندئذ . على أن معظم هؤلاء البنات تزداد مشاعرهن عمقا فيما بعد ، ولـكن بعضهن يستطعن أن يسببن أضرارا متزايدة حين يكبرن ما لم نبصرهن بما هن فاعلات ، وكيف أنه يؤثر على حياتهن برمتها ، وكيف يستطعن أن يفعلن شيئا لضبطه ، بل لابد لهن من فعل ذلك الشىء .

وليس الصدق مقدسا عند ابن الحادية عشرة . فهو أكثر اهتماما بمسألة وقاية ذاته كما أنه عرضة لرواية الأشياء بطريقة تجعلها فى صالحه . وليس معنى ذلك أنه كان يقصد أن يكذب . وكل ما فى الأمر أنه كان يبغى التخلص من تبعة عمل أشياء معينة أو ستر إغفاله عمل أشياء معينة . فإن كان ابن الحادية عشرة خجلا من شىء فعله فربما أنكره عندما يسأل . ولـكنه يقى نفسه بوضع أصابعه على شكل صليب وهو يكذب . وعلى العموم فلا بأس به فى قول الصدق فى حالة الأمور الهامة .

وابن الحادية عشرة سواء تقبل اللوم أو قال الصدق يحرز « خطأ أدنى ما يكون إلى الصواب » — ذلك أنه لا يصيب الهدف تماما . وبعض أبنـاء الحادية عشرة يلومون الغير بطريقة أوتوماتيـكية ، ولـكن الأغلب أنهم يتنصلون ، وهم يسترون موقفهم بتوجيه النقد للاخرين ، وإن لم يلوموهم فعلا ، كما أنهـم يعمدون إلى الإفلات من الأمر قليلا .

وابن الحادية عشرة أكثر تسامحاً إزاء السبـاب وشرب الخمر منه فى العاشرة . وهو يكاد يبدو كأنما يحاول تجربة الأمر على وجهيـه . ولاتزال البنات يكرهن السباب ، ولـكنهن ربما شتمن لمجرد تذكير الوالدين أنهمـا يسبان. ومنهن من قد تشتم أحيانا لأن « السباب يلوح كشىء ينم عن كبر السن حقا » . وربما انتقد الصبيان أيضا تفوه الغير بالسباب ، ولـكنهم هم أنفسهم يسبون إذا احتدموا غضبا ،

أو لعل ذلك يكون وهم جياع .

ويغتفر احتساء البـالغين أيضا للخمر إذا لم يسرفوا فى الشراب . ويميز ابن الحادية عشرة الفرق بين المسكر وغير المسكر من الأشربة وبين الأشربة المركبة والصرفة . وهو لا يهتم إذا شرب الكبار الكوكتيل ، ولكنه يعتقد أن من المستقبح أن يأخذ الكبير زجاجة من الويسكى ويسرف فى الشراب .

والنقطة التى تتأجج إزاءها نفس ابن الحادية عشرة بالغضب حقا هى الغش والسرقة . وربما يرد من حرارة غضبه نشوء مشاعر الإثم فيه بسبب اقترافه هو الغش أو تعرضه للمغريات الحادة بارتكاب الغش . ومهما يكن من شىء ، فإن هذه الأعمال تدور بخلده ، وكثيرا ما يبلغ أمه عن مسلك الآخرين الشائن . والشائع أن الصبيان أكثر غشا فى المدرسة من البنات . فإنهم ينقلون الإجابات فى الامتحانات أو يغشون فى الألعاب إن كانوا يخسرون .

وربما غش الصبيان أكثر ، بيد أن البنات أكثر ميلا للسرقة ، وخاصة بالمتاجر التى توضع فيها السلع على المناضد والبنوك . وهن يذهبن أحيانا فى جماعات من ثلاث أو أربع بقصد متعمد هو سرقة المحلات . وتكون بينهن فى العادة بنت واحدة هى الزعيمة ، تكون حاستها الخلقية ناقصة غير مكتملة النمو أو غير مطابقة للأوضاع الكريمة . وترفض بنات كثيرات مرافقة الجماعة لاعتبارهن أن هذه الخطة « فظيعة » . وهناك أخريات ليس لهن من دافع على ذلك إلا أن يخبرن الانفعال المصاحب لتلك الجولة . على أن خبرة واحدة من هذا النوع وخاصة إذا قبض على ابن الحادية عشرة متلبساً تكون فى العادة كافية لشفائه من السرقة بقية أيام حياته . فلو أن المتاجر والمدارس والوالدين أدركوا انتشار هذا الميل فى الحادية عشرة والثانية عشرة ، لأمكنهم المعاونة على القضاء عليه وليدا . فإذا قبض على السارقات الصغيرات على التو بالمتاجر نفسها ، كان وقع الصدمة أقوى ما يكون ، ويمكن عندئذ تناول الحادثة بأكملها بطريقة

جدية ، ولكنها إنسانية . وينبغى إبلاغ الأمر للوالدين ، كما ينبغى إدخال رجال القانون فى الأمر . إذ ينبغى أن يجرب البنات ذلك الخوف الذى يصيب المرء عندما يصبح على وشك الوقوع فى شىء أفظع كثيرا جدا من هذا ويكون مع ذلك تحت حماية أولئك الذين يحبونه ويرغبون فى مساعدته . ولكن ينبغى لهن فى نفس الوقت أن يتعلمن ضرورة تحمل المسئولية وأن يصبحن جديرات بالاحترام والامتيازات الممنوحة لهن .

ومن سوء الحظ أن تنجح بنت الحادية عشرة فى اقتراف إثم كهذا وأن يؤدى ذلك إلى مغامرات أخرى يصحبها نجاح آخر . وغالبا ما تكون صديقات مثل تلك البنت هن الوحيدات اللاتى يعلمن بالأمر ، ولكن يحدث أحيانا أن تتنبه المدرسة للموقف . والأغلب جدا أن يكون الوالدان آخر من يعلم ، وإن وجب أن يكونا أول من يعلم ، فمتى استطاع البيت والمدرسة بما لهما من اهتمام مشترك بالطفل ومصلحته — أن يزيدا الصلة بينهما ، استطاعا كلاهما أن يكونا أحسن فهما للمشكلة وأقدر على حلها .

٩ — النظرة الفلسفية

الزمان والفضاء .

تزداد عند ابن الحادية عشرة حاسته الديناميكية بالزمن والفضاء . وها هو ذا قد شرع يحس بمرور الزمن مرورا لا مفر منه ولا هوادة فيه ولا قدرة لأحد على إيقافه : « مهما يكن ما تفعله كله ، حتى لو كسرت جميع الساعات ، فإنك لن تستطيع إيقافه » . وهو يعلم أن الزمن لا يعود إلى الوراء أبدا . وهو يعرف الزمن أيضا كمقياس للمسافة بين حدثين .

وابن الحادية عشرة قادر تماما على تناول الزمن والتصرف فيه وهو أقدر كثيرا منه قبلا على الوصول إلى الأماكن فى الزمن المحدد . وربما تسرع خشية أن يضيق عليه الوقت ، خاصة حين يكون ما عليه من عمل مفرط الكثرة وهذه « الكثرة المفرطة » تشمل فى رأيه عادة الواجب المنزلى . وهو يحس الفرق بين مرور الوقت متثاقلا بطيئا بالمدرسة بعد الظهر وبين مرور الوقت

بسرعة شديدة جدا فى ساعات المراح والمسرة .

وليس تعريف المكان سهلا على ابن الحادية عشرة كالزمن . فإن لديه بعض أفكار محددة جدا ، وإن كان يرى أن الفضاء «لا شيئية تستمر إلى الأبد» . ومنهم من هو أشد دقة ويرى أن الفضاء هو «مسافة بين أى شىء وآخر» أولعلهم يرون أن الفضاء مملوء حتى ولو بلاشىء . «الفضاء مكان به عدم» . ويميز عدد من أبناء الحادية عشرة وجود إمكانيات متعددة . فيصرح أحدهم بوضوح بالآتى : هناك أنواع جمة من الأماكن ، فالمكان هو الغرفة . والفضاء هو حيث يكون العدم . والفضاء هو المسافة بين حروف كلمة مكتوبة بآلة كاتبة .

ويضبط ابن الحادية عشرة ضبطا جيدا تماما تجواله فى المكان المباشر له . فإنه يستطيع النزول إلى المدينة وحده بالأتوبيس ويستطيع الوصـــول إلى مواعيده بفضل تذكير أمه له بتاريخها وساعتها المضروبة . وقد بدأ بعض أبناء الحادية عشرة يسافرون بالقطار ، إذا كانت الرحلة لاتستوجب تغيـــير القطارات .

الموت والإله :

يعد ابن الحادية عشرة الموت شيئا مسلما به على نفس الطريقة تقريبا التى كان ينظر بها إليه عندما كان فى العاشرة « إذا أنت مت فهذا أمر طبيعى وهو كل ما فى الأمر » . ولكنه يتأثر لوفاة جديه وأقاربه ، بل لقد ينزعج أكثر لوفاة حيوان محبوب ، وخاصة إن كان كلبا . وهو ذو اهتمام بالدفن وربما رغب فى الذهاب إلى إحدى الجنازات لمجرد حب الاستطلاع .

وقد أخذ يغير أفكاره عما يحدث للناس بعد الموت . وهو لايطيـل التفكير فى الأمر ، ولكنه أقل جنوحا على الأقل للظن أنهم يعيشون كما يعيش الناس على الأرض . ولعله «يشبه نوما طويلا» أو ربما « ظلت أرواحهم باقية » . ولدى ابن الحادية عشرة فكرة ما عن التجسد بعد الموت : — أى عن مغادرة الدنيا والعودة إليها ثم مغادرتها مرة ثانية . وذلك يماثل ما كان يتصوره عندما كان بين الخامسة والنصف والسادسة .

ولايعير ابن الحادية عشرة « الله » من تفكيره أكثر مما يعير الموت .

وترى أغلبية أبناء الحادية عشرة أن الله روح لشخص خيالى . وربما تملكتنا الدهشة إذ نرى كثرة أبنـــاء الحادية عشرة الذين يؤمنون بالله ، ولكنهم لايحسون أنه يؤثر فى حياتهم . وقد شرع ابن الحادية عشرة — وقد نما لديه إحساسه بوجود الله — يفرق بين ما تعلمه وبين مايظنه هو صوابا . وقد أخذت أساطير معينة كأسطورة آدم وحواء ونفخ جبرائيل فى الصور ووجود الملائكة توضع الآن موضع الفحص على ضوء معلومات ابن الحادية عشرة الخاصة .

ولكنه شرع فى نفس الحين يدرك أن هناك علاقة محتملة بين كونه مسيئا (بطالا) وبين ضياع شىء يعتز به ، وخاصة إن حدث ذلك مرتين متتاليتين . وإذا هو رأى المحن تقع على غيره من الناس أيضا ، إن هم كانوا من المسيئين البطالين أو ممن لايؤمنون بالله ، بدأ يحس أن هناك دون ريب شيئا من العلاقة بين فعل المرء ومايصيبه . وهو يدعو الله ويصلى عندما يريد شيئا ، كرغبته فى الشفاء من البرد ، وإن لم يكن يؤمن بالله ، كما أنه يحس على الجملة أن للدعاء أثراً طيبا فيه .

وابن الحادية عشرة على كل حال أقل تحمسا لمدرسة الأحد منه فى العاشرة . وبعضهم يريدون مواصلة الذهاب إليها لأنهم يستمتعون بفرقة التراتيل بوجه خاص . وإن عددا منهم ليفضل حضور الكنيسة — إن لم تدم الصلاة فيها طويلا جدا — على شهود مدرسة الأحد . فإنهم يطلبون الخبرة الدينية التى يحسون غالبا أنها تعوز مدرسة الأحد . وينزعج الكثيرون منهم للطريقة التى يتصرف بها أترابهم ، وخاصة الصبيان وإن كان سلوكهم هم أنفسهم لايخلو من الشوائب . وربما لعبوا الأحابيل كمجموعة بتخبئتهم جميع كتب التراتيـــل ، وحلفهم أن الكتب لم ترجع بعد من عند المجلد . أو لعلهم ينفلتون إلى إحدى معارك قتالهم الحر مع تقاذف كرات الورق الممضوغ والفوضى الشاملة التى يصعب على كثير من المعلمين ضبطها . (فإن نقص عامل الاستمرار الناجم عن أن المعلم لا يتصل بهم إلا مرة واحدة أسبوعيا ، يزيد من صعوبة إنشاء جو من الضبط بين التلاميذ) .

الفصل السادس

سن الثانية عشرة

مصور النضج

تمتاز السنة الثانية عشرة بتغيرات تسير نحو حالة أفضل . ذلك ما تقرره الأمهات عندما يتذكرن ذلك الاعتداد بالنفس المضجر الذى غالبا ما كانت تتسم به السنة السابقة . وهن يقلن إن ابن الثانية عشرة أصبح أقل إصراراً وأكثر معقولية وألطف معشرا وصحبة . والحياة تجرى مياهها الآن أسلس وأرخى على كل من الشاب والكبير الراشد :

على أن التباين بين الحادية عشرة والثانية عشرة ينبغى أن لا يرسم بهذا الشكل الصارخ . فإن قدراً كبيرا من السلوك الأهوج فى الحادية عشرة له منطق تطورى اختص به . وهو يؤدى إلى ميادين جديدة للخبرة ويمهد السبيل بذلك إلى المزيد من التمييز والحصافة والحكمة . وابن الثانية عشرة يكتسب عن طريق عمليات النمو وحدها — بمساعدة البيت والمدرسة — نظرة جديدة إلى نفسه وأترابه صغاراً وكبارا. وهو أقل اعتمادا على الضغوط المباشرة ، كما أنه يتحدى رغبة فى تحقيق ذات نفسه . على أنه يحاول بدلا من ذلك الحصول على استحسان الغير له . ويتركز حول نفسه بصورة أقل سذاجة ، كما يستطيع النظر إلى من يكبرونه بل حتى إلى نفسه بشىء من الموضوعية (objectivity) وهذه الصفات نفسها تفسح المجال لحاسة للفكاهة آخذة فى النمو والحلاوة عشرة تتسم بالمرح . وعندئذ يكون فتى الثانية عشرة فى حالة لياقة جسمية وكفاية عقلية ، فهو رفيق ممتاز الحديث ، بل لقد يتمخض التفاهم المتبادل عن حالة من الزمالة بين الوالدين والابن أو البنت .

ويبدى ابن الثانية عشرة فى كل المواقف الاجتماعية جميعا ميلا إلى توسيع مداركه .

وهى علامة طيبة على النمو النفسانى . وقد كان ذلك يظهر بوضوح فى ردود أفعاله إزاء موقف المقابلات الذى كان يسأل فيه طائفة منوعة من الأسئلة . كان ودوداً متعاونا منبسطا مستعدا لإدخال المسرة على الأفئدة . وكانت تعليقاته التلقائية وأسئلته الخاصة تكشف عن تنبه إلى ماينطوى عليه الموقف فى مجموعه . « لديكم هنا مكان جميل تماما » أو « هذا شىء سار » — أو « انظر إلى مظاهر الالتفات الكثيرة التى أحصل عليها » أو « أخبرنى ... هل العمل مع الأطفال مشوق ؟ » . وكذلك الشأن فى امتحان التطور فقد سئلنا أسئلة كثيرة أرشدتنا ووجهتنا وكلها مصوغة بلهجة اشتياق وحيوية متدفقة ؛ وذلك لأن ابن الثانية عشرة ميال مقدما إلى أن يكون إيجابياومتحمسا لا سلبياومتحفظا ، وكانت إجاباته على الأسئلة ذات النوع الخاص خالية من تلك السمة الاندفاعية والمباشرة التى هى من خصائص ابن الحادية عشرة . وكان ابن الحادية عشرة أقل بيانا وإفصاحاً وأكثر احتراسا ونقدا للذات .

ويظهر ابن الثانية عشرة بطرائق أخرى كثيرة أنه أصبح أقل سذاجة فى علاقاته الاجتماعية ، فإحساسه بذاته قد أخذ يحسب للشخصيات الأخرى حسابا يدل على زيادة الإدراك . وهذا أحد الأسباب التى أصبح من أجلها أحسن تمشيا مع خلطائه جميعا ... بل إنه ربما استطاع أن يسدد نحو أبيه شيئاً من نزعته الفكاهية وأن يبتسم لنفسه رضا . وهو يبدى قدراً أكبر من اللباقة فى العناية بإخوته الأصغر منه . وكذلك شأن البنات ذوات الاتزان الجيد فإنهن يستطعن تولى مسئولية مجالسة الأطفال وأعبائها . وغالبا ما تفوز علاقة الأم ببنتها بكسب ملحوظ فى النضج . فالبنت التى كانت تثور ثائرتها فى سن الحادية عشرة لأتفه درجة من عدم الالتفات ، أصبحت تقابل استفزازا من هذا النوع باستجابة فكهة رقيقة كفيلة بجعل الأم المعتدية تبتسم . وحدث أن بنتا كهذه ، بما طبعت عليه من استبصار الثانية عشرة أحست بأن هناك غرضا خفيا وراء عرض أمها لإحدى الخطط ، فما كان من البنت إلا أن ردت على ذلك بأدب بقولها : « ماما ! ... إنك تقومين بحملة حربية ! » .

وهذه الأنماط من السلوك المتبادلة بين الناس تمثل جوهر ابن الثانية عشرة فى

أحسن أحواله وتبشيره بالخير . وهو بكل تأكيد إنما « يحاول » أن يكبر وينضج . وهو يحتج فوق كل شيء بأنه لم يعد طفلا رضيعا ، أو على الأقل أنه لا يريد أن يعد كذلك . ولعل احتجاجاته إنما تنشأ فى شطر منها عن تنبه خفى إلى ما تبقى فيه من بقايا عدم النضج . ونحن كبالغين ينبغى أن نذكر أنفسنا أنه فى أبكر مراحل المراهقة لم يتجاوزها . وليس بلوغ النضج عملية متسقة مطردة ثابتة . بل هى عملية غير مستوية ، وبخاصة عند مستوى الثانية عشرة ، عندما يكون «الشاب الطفل» من قلة الخبرة بالأمور بحيث يتأرجح فى بعض الأحيان بين نقيضين : المعاونة للكبار وزلات الصغار . ونحب أن نؤكد صفاته العالية لأنها تعبر أصدق تعبير عن أقصى قدراته على مواصلة النمو . ومع ذلك فإن السجلات التى يعتمد عليها تدل على وجود نواح منخفضة ، حتى فى ميدان السلوك الاجتماعى . وقد توضع مشروعات حفلات الصبيان والبنات أحيانا بحماسة ، ولكنها قد لا تنتهى مع الأسف بنهاية سعيدة . فيفشل برنامج النشاط الذى رسم مقدما بغاية العناية . فإما أن يتكتل الصبيان ويتجاهلون البنات ، وإما أن يتصرفوا تصرف المسيء المتباهى باساءته . فقد عرف عنهم أنهم يقذفون الطعام ويسكبون السوائل . والسلوك داخل الجماعات يفرض على كل من الصغار والكبار اختبارات عسيرة .

ومع ذلك فإن جماعة الأقران تلعب دورا له أثره الواضح الشامل فى تشكيل اتجاهات ابن الثانية عشرة وميوله . فالمجموعة تؤثر فى عمليات ضميره وخاصة داخل هذه الدائرة الآخذة فى الاتساع ، دائرة حياته المدرسية . وهو يميل إلى النظر إلى مشاكل السلوك نظرة رصينة إلى حدها ، ولكن ذلك يكون من وجهة نظر المجموعة . وقد يبلغ به الأمر أن يحاول تحليل أحد المواقف تحليلا معقولا إلى ناحيتيه الدقيقتين : ماله وما عليه — رغبة منه فى تحديد قدرته على الحكم الأخلاقى أو لتحديد خطر محسوب حسابه . فهو لا يقف موقف الحياد ولا الصلف والزهو ، بل هو يحب أن يدرب ذكاءه وأن يضبط العوج الذى لا ضابط له من وجداناته . يقول أحدهم : « لست رديئا وإن لم أكن طيبا جدا ، فإنك إن كنت طيبا جدا لم يحبك الأطفال ، كما أن ذلك نوع من البلاهة . » لذا يذعن لضغط الجماعة عندما يتآمر زملاؤه بالمدرسة على مضايقة معلمة غير خبيرة — بالسعال الجماعى فى وقت واحد وغير ذلك من وسائل الإزعاج . فهو ليس كاملا مبرأ من الشوائب .

ولكنه ليس بأى حال حاقدا بطبعه على المعلمات . فهو يحب أن يعلم . وهو يظهر إعجابا حارا بالمعلمة إن كانت حازمة واسعة المعارف تبعث الحياة فى العمل المدرسى بالفكاهة وتستطيع أن تقود الفصل إلى مناطق المعرفة الجديدة وآفاقها الحافلة بالمغامرة . وليس من الضرورى أن ينتهى الولاء للجماعة ووحدة الفصل إلى اتخاذ موقف المعارضة من المعلمة . بل على العكس فالجماعة تفضل أن تتخذ من المعلمة حليفا وأن تعتبرها كعضو خاص فيها . وهذا من شأنه أن يعزز المركز النفسانى للمعلمة ويزيد فى سلطانها . وعندئذ تصبح المعلمة حافزا منشطا ؛ على حين يقدم التلاميذ القوة الديناميكية لحماستهم وحبهم للاستطلاع .

والجماعة المدرسية المكونة من أبناء الثانية عشرة متوثبة نشاطا بطبيعتها . فحماستهم من الوفرة بحيث ترتفع بسرعة إلى ضجيج صاخب . بيد أن التلاميذ يستطيعون أن يركزوا انتباههم بهدوء على أعمالهم الفردية إن سمح لهم بشىء من حرية الحركة . ولديهم قدرة نامية على أداء العمل المستقل ، وإن كانت حميتهم للنشاط الجماعى أكثر بروزا . وهم ينتهزون كل فرصة ، حتى فى أثناء فترة الفسحة للاشتباك فى مناقشة صريحة علنية . وهم يحبون المناظرة فى المسائل السياسية والمدنية . وهم يكونون على سجيتهم عندما يضعون تفاصيل مشروع جماعى لم ترسم معالمه بعد كتمثيل حادثة تاريخية تمثيلا مسرحيا ، أو كحفلة قراقوز أو إذاعة داخلية . وليس حافز تلك المشروعات هو المنافسة ولا الرغبة فى مجرد التسلية . فإن الغيرة المتلهفة التى تتجلى تكشف عن قوى ابن الثانية عشرة التربوية الخارقة . وتشمل هذه القوى قدرة مستدعة متواصلة على ضروب التعلم العسيرة الواقعية فضلا عن التدرب للحصول على المهارات الأساسية .

والنمو الذهنى للسنة الثانية عشرة ينبغى أن لا يبخس قدره . وابن الثانية عشرة وإن ابتهج فى الغالب ابتهاجا خاصا بما لعلم الحساب من عمليات آلية بحتة ودقة ، فإنه يبدى زيادة فى التفكير التصورى . ولديه فكرة ضئيلة عن المعنى التصورى لكلمات من أمثال العدالة والقانون والولاء والحياة والجريمة . وهو يستطيع أن يحاول القيام بتكوين التعاريف المجردة المعنوية : « الزمن هو طول ما تستغرقه الأشياء » — أو « الفضاء شىء خال » ولكن الخلاء : « شىء فيه شىء » . وقد أخذ يصبح متعلما

أكثر ومفصحا أكثر . وصارت حاجته أقل فى عنفها بل هى فى الغالب أكثر هدوءا ، ولديه إحساس صادق أصيل بالمعقولية . وتنزع حاسته الخلقية أن تكون واقعية لا مثالية وهى واقعة تحت تأثير اتجاه إلى التسامح يماثل القدرة على الفكاهة . وكلاهما يدل على وجود حاسة تناسب نامية وعلى وجود توازن بين الاتجاهات الشخصية والاجتماعية .

وهذه الاتجاهات تنطوى على قوى عظيمة نحو الخير ؛ بيد أنها قد يترتب عليها نتائج محزنة فى بيت غير سعيد أو مدرسة عديمة الكفاية أو بيئة لجيرة سوء .

ومن ثم يجوز لنا أن نفكر فى السنة الثانية عشرة كفترة يزكو فيها فى الحالة السوية تكامل الشخصية . فإن السمات الأساسية : المعقولية والتسامح والفكاهة ، تنمى الاتزانات فى تنظيم السلوك . وهناك أربع سمات أخرى وثيقة الترابط تعمل نحو الهدف التكاملى نفسه وهى التحمس والابتكار والتقمص الوجدانى والاستبصار الذاتى .

ويميل كثيرون إلى اعتبار التحمس المنبسط سمة ابن الثانية عشرة السائدة . فإن هو أوتى شيئا من الميول أيا كان ، فمن المحتمل أن يكون ميله حارا سواء أكان مثاره فشار الذرة أو الحساب أو صديق له أو فيلم سينمائى . ويبدو أن حماسته (أو حماستها) تعتمد على رصيد من الطاقة يمكن استخدامه فى أى وقت لتقوية أى حب أو بغض . « كان ذلك مجرد شىء عظيم جداً » — أو « أنا أموت فى البطاطس المهروسة (البوريه) وصلصة اللحم » — أو « أحب عصير الطماطم وأكره شوربة الطماطم » — أو « مدهش ! » — أو « أدهش شىء فى الدنيا ! » — أو « ياللابداع ! » .

ويميل ابن الثانية عشرة إلى الدخول فى عمل يختاره بنفسه ويتولاه بقوة وحرارة ونشاط . فهو « يغوص » فى أحد الكتب بحمية تجعله يلتهمه التهاماً . وتبلغنا المعلمات أن لديه اهتماما حاداً جداً بما يكلف به من واجب فى الرياضيات . وهو يستعذب تحديات المناظرة والمناقشة . أما حب استطلاعه التلقائى والكامن فشىء لا سبيل إلى قياسه . ولا تحفزه المنافسة قدر ما يحفزه دافع طبيعى إلى تدريب ذكائه . وهو يستمتع بالرياضة والألعاب من أجلهما فى حد ذاتهما بصفة رئيسية . والحماسات التى تستولى على الجماعة والفرد ، يمكن أن تستمر مددا طويلة بالمدرسة . ولكن لابن الثانية عشرة خارج

المدرسة أيضا طريقة وقاية ذاتية تعوضه عن فرط الحماسة والجهد . ولذا تراه ينقلب إلى التراخى العرضى المتقطع والتكاسل السمج أو إلى التمطى والانبطاح بل مجـــرد « التسكع البحت » .

ومما له ارتباط وثيق بالتحمس ، القدرة على المبادأة . وابن الثانية عشرة خير من يمثل هذه القدرة فرداً كان أو جماعة . فإن كانت هناك (شغلة) لا بد من تنظيمها أو وجبة لابد من طبخها أو مشروع مدرسى لابد من وضع نظمه ، فإنه لا يكون عندئذ مبتعدا للتعاون فقط ، بل يأخذ على عاتقه الخطوات التمهيدية لأدائه . ولا تتولد هذه القدرة التنفيذية عن التسرع والجرأة ، بل عن مشاعر بسيطة من الثقة والاعتماد على النفس . فالأفكار الحسنة تستدعى التنفيذ عندما يحفزها حسن النية وطيبة القلب اللذين يتميز بهما ابن الثانية عشرة * .

وهناك علاقة وثيقة بين التقمص الوجدانى وحسن النية . ولابن الثانية عشرة شىء من المهارة فى قراءة التعبير الانفعالى ، كما أنه يبدى ميلا لإسقاط شعوره الخاص على شعور الآخرين . وهو يسلم بأن غيره من الناس ستسرهم الأخبار الطيبة من أى نوع كانت ؛ لذا فإنه ينبجس بالأنباء السعيدة ويحس سرورا تلقائيا فى مشاركة الغير خبراته .

(*) كانت البنت التى أرسلت منذ أمد غير بعيد إلى رئيس الولايات المتحـــدة تعويذة محبوبة جالبة للحظ السعيد فى الثانية عشرة من عمرها . وكانت البنت التى كتبت فى ١٨٦٠ رسالة ذائعة الصيت أقنعت ابراهام لنكولن المرشح للرياسة بأن يطلق لحيته ، من نفس تلك السن وذلك النضج . وقد تسلمت كاتبة هذا الخطاب رسالة تقدير ختمت بعبارة « المخلص المتمنى أطيب التمنيات » . والثانية عشرة هى أيضا فى العادة سن إصدار صحيفة للصغار . فإنا نعرف محرراً عمره اثنا عشر عاما ظل ردحا من الزمان ينشر الأخبار والأحداث المنزلية الداخلية فى صحيفته « Family Times » . وقد أصدر أخيرا صحيفة إضافية هى « Another boy » . ومنذ تلك اللحظة ظل ذلك المحرر يكتب التقارير الواقعية عن تطور أخيه الوليد خطوة بعد خطوة .

وهذه أيضا سمة تدخل مدلولاتها فى النضج أكثر مما تدخل تحت عدم النضج . ولما كان حساسا إزاء مشاعر الآخرين ، فإنه يستطيع أن يظهر درجـــة ملحوظة من الرعاية لمشاعر أصدقائه والأطفال الصغار . فاذا هو اضطر أن يدوس على إحساسات الكبار ، فعل ذلك بخفــة بل لعله يختار بالفعل أنسب اللحظات نفسيا لتناول المســألة بشكل ديبلوماسى .

وهناك نوع خاص من التقمص الوجدانى موجه نحو أنداده . فالصبيان والبنات سواء فى شغفهم بمعرفة رأى لداتهم فى الأشياء وإحساسهم بها . ولهذا الإدراك أثر عظيم فى سلوكهم ، وهو أيضا وسيلة لاختبار قدرتهم على اتخاذ موقف مستقل . وقد تجلى لنا أثناء المقابلات قدر عظيم من الفضول حول الكيفية التى كان الأطفــال الآخرون يجيبون بها على أسئلة معينة . وليس ابن الثانية عشرة بأى حال مشغولا بذاته « ego » بصورة جارفة كاسحة ؛ بل هو قبــل كل شىء شديد الحساسية بميول النــاس وما يهمهم .

إن اهــتمام ابن الثانية عشرة المتزن الانبساطى بإخوانه من البشر يساعده على أن يقدم بطريقة طبيعية برهانا على الاستبصار الذاتى وضبط النفس المتزايدين لديه ، وهو على وعى لا بأس به أن له كجميع الناس حرفة فى الحياة وأنه يتغير وهو ينمو . وهو يسرح بخياله فى صميم ماضيه ومستقبله جميعا . وربما دفعــه الفضول أثناء المقابلة أن يسأل : « ماذا قلت عن ذلك فى العام الماضى ؟ » . ولما سئل ابناء الثانية عشرة عن تعلمهم ومهنتهم فى المستقبل ، أظهرت إجاباتهم اتجاها قويا نحو اختيار شىء واحد محدد هو عمل من نوع خاص مصحوب بالزواج .

وابن الثانية عشرة يرى نفسه فى صورة نسبية متحسنة بوجه عام . وقد أخذ سلوكه الانفعالى — مع احتمال استثناء المخاوف منه — يتحكم فيه قدر أكبر من القدرة على الضبط ، فالعادة أن يحبس الدمع ويشكم العنف . وهو يفخر بتحمل الألم البدنى بتجلد . وهو يتقبل التأديب Discipline العادل؛ بل لقد يطلب أحيانا التأديب الذاتى ويلتمسه.

وهو يستطيع التفكير عما يحس به من وخز الإثم . وهو يزداد على الأيام ميلا لإدراك المواقف على هيئتها الكلية .

هناك مبدأ من مبادىء النسبية يمنعنا عند قيامنا بتقدير تطور الطفل والفتى من أن نعد إحدى المراحل أحسن أو أسوأ أساسيا من مرحلة أخرى . فإن كل مرحلة فيها الكفاية فى حد ذاتها — من وجهة نظر النماء ، وفيها الكفاية أيضا من حيث المرحلة التى تسبقها والتى تتلوها . ولكل مستوى للنضج منطقه الفطرى . غير أن لمرحلة الثانية عشرة مع ذلك مميز خاص فى دورة التطور البشرى . وذلك لأنها تخلق مجموعة من سمات السلوك تصور لنا مقدما نضج الراشد أوضح تصوير .

وليس ابن الثانية عشرة بالغا (راشدا) مصغرا . ولا هو مثال الكمال المحتذى . بيد أنه يحتضن فعلا طرائق للتفكير وللوجدان وللعمل تصور مقدما العقل الناضج وتتنبأ به . وتدل نظرته ومواقفه الجديدة على قدرة على النضج . كما أنها تومىء إلى الخطوط الأساسية للنمو العقلى الذى يمتد إلى المستقبل البعيد .

وسيستمر أثناء السنوات العشر التالية أو أكثر فى تنظيم سمات السلوك التى نعتناها بأنها من أعراض نضجه البازغ . وقد لحظنا زيادة فى التفكير التصورى واستخدام الأفكار . وشددنا التأكيد على اتجاهاته : المعقولية والتسامح والفكاهة ، كعامل باعث للاتزان . وهى مزايا تطورية يزكو بها تقدمه المطرد نحو النضج . وتعززها المزايا الديناميكية وهى الحماسة والحمية والمبادأة والذكاء ، والتقمص الوجدانى والرغبة الصادقة ، والاستبصار الذاتى وضبط النفس .

وابن الثانية عشرة المثالى يتجلى فيه مجموع هذه السمات إلى درجة قوية الأثر . والسمات مختلفة منوعة ولكنها تتفاعل بعضها مع بعض كما أنها تكون مجموعة متكاملة لها أهمية بعيدة الأثر لدورة المراهقة . وتتجلى السمات المتعددة بدرجة من المهارة والبراعة تجعلها تنم عن مصادرها الفطرية . والثقافة تعدل أنماط السلوك الخارجية وتشكلها ، بيد أن الاستعدادات الداخلية تصدر عن النمو الفطرى . وهى تتولد عن دوافع غريزية

اضطرارية ، لا بطريقة مفاجئة بل بطريقة أكيدة محققة . وهى تجعل الفتى يحس حول نفسه إحساسا مغايرا مختلفا . فهو يجدد تعرف علاقته الشخصية بالناس . ويصبح من الطبيعى فيه أن يتصرف تصرفا أكثر نضجا .

وبذا يتاح للعقيدة لديه أساس تقوم عليه ، وإن كانت التعقيدات والاضطرابات لا تزال تسكن له فيما يلى ذلك من الطريق . ومن أعجب الحقائق وأجدرها بالملاحظة أن هذه التلميحات المشيرة إلى النضج النهائى ، تحدث فى مثل تلك الآونة المبكرة من دورة المراهقة . وبهذه الوسيلة تتيح لنا « الطبيعة » أن نلقى لمحة إلى آلياتها الخفية ومدخراتها الكامنة . ومهمتنا الآن هى الحفاظ على القوى الكامنة التى يكشفها بشكل فاتن أبناء وبنات الثانية عشرة عند ما يكونون فى أمثل أحوالهم .

وستزيدنا السنة الثالثة عشرة قربا من مشاكل الذات التى تنضج . فماذا نحن مكتشفون ؟ .

سمات النضج

١ — جهاز الحركة الكلي

قد شرع ابن الحادية عشرة الجياش المتعثر الثرثار «المتفجر بالطاقة والنشاط» يهدأ ويسكن في الثانية عشرة. وهو أقدر على تنظيم طاقته، وإن حقق ذلك عن طريق النقيضين المتضادين ظاهريا وهما: النشاط الحاد الذي يمضي في سبيله ابتغاء الوصول إلى هدف، والسكون الوادع أي التسكع هنا وهناك دون التورط فيما حوله من أمور. والحماسة من الصفات التي يتميز بها ابن الثانية عشرة. وهذه الحماسة توجد عند الصبيان نحو الألعاب الرياضية بوجه خاص — ولا سيما كرة القاعدة. وحتى أولئك الذين تعوزهم القدرة على ممارسة تلك اللعبة، قد يتغلغل اهتمامهم بها في كل شيء يفكرون فيه أو يعملونه. وغالبا ما يكون اهتمام البنات ورغبتهن في العناية بصغار الأطفال على نفس هذه الدرجة من الحمية والتحمس. ولكن مهما تكن قوة التعبير عن الحماسة لإحدى نواحي النشاط، فالظاهر أن الصبيان والبنات جميعا يصلون فجأة إلى نقطة تشبع ثم يكادون ينهارون.

والظاهر أن طريقة انهيارهم ترتبط ارتباطا وثيقا بطريقة استعادتهم للطاقة مستقبلا وتشييدهم لها ثانية استعدادا لميادين الحماسات الأخرى. فمن أبناء الثانية عشرة من ينهارون انهيارا شديدا بعد النشاط الشديد ولا يستردون ما فقدوه بسهولة. وهم يحسون فجأة بالتعب الشديد كما كانوا يفعلون في الحادية عشرة. وربما أصيبوا بالبرد واحتاجوا للراحة يوما أو يومين، وكأن لبعضهم الآخر صمام أمن لإخراج التوترات على مرات أكثر وبتدريج أكبر. فأما الأفراد الذين لا يأخذون المسائل سهلة هينة ويضيعون الوقت في التسكع دون هدف تقريبا، فيستطيعون التصرف في عملية إطلاق التوتر بصورة لطيفة نوعا ما. والظاهر أن إسراف غيرهم في محاولة تنبيههم لاستخدام وقتهم استخداما يعود عليهم بنفع أكيد، يفسد نظام آلياتهم المجددة للحيوية، بل ويؤخر فعلا عودة الطفل إلى الاتجاهات والأعمال الناشطة. وربما كنا نحن سكان الولايات

المتحدة ، ولا سيما سكان الحضر منا ميالين إلى المطالبة بقدر كبير من العمل والحركة . ونحن بحاجة أن ندرك أن تحكم الفرد فى التراخى يمكن أن يكون بالضبط على نفس أهمية تحكمه فى الحركة والعمل .

والسلوك المتغير لابن الثانية عشرة يكون واضحا جدا أثناء مقابلة شخصية تجرى بينك وبينه . فهو لايقذف بنفسه فى خضم الموقف قدر ما كان يفعل فى الحادية عشرة . وهو يصبح متحمسا وقد يكثر غالبا من التفوه بملحوظات كقوله : « هذا لذيذ مضحك » ، ولكنه يتصف الآن بذلك المسلك الأهدأ الذى يلازم كل من يتسام مع غيره ويتشارك ، أعنى أنه فرد قادر على الأخذ والعطاء . وهو الآن أقرب أن يلازم الجلوس فى كرسيه ، وإن لم يكن معنى ذلك أنه لم يعد نشيطا جـدا فى الاهتزاز والدوران فيه والأغلب أن تكون يداه مشغولتين وأن تمتدا لتفحص الأشياء ، وتعبثا بكل ما هو معلق أو مدلى كحبال التليفون . وهو أقل حاجة الآن مما كان فى الحادية عشرة إلى النهوض لفحص ما يرى فى أرجاء إحدى الغرف . ولكنه بدلا من ذلك يعقب عليها الآن بتعقيبات أو يسأل أسئلة سديدة صائبة عن أشياء يراها . هذا الهدوء الذى اعترى « إطاعته للدافع الحركى ، هذا النقص فى الحاجة إلى الذهاب إلى الشىء الذى ينظر إليه » ، يدل على ظهور قدرة جديدة على التفكير المجرد تتيح لأعماله مجالا أرحب ومرونة أكثر . فالأشياء أقل تحكما فيه ، بينما هو أكثر تحكما فيها .

وابن الثانية عشرة أكثر تنبها لما يقول فى مقابلاتنا له ، وقد يئن — وإن كان فى الحقيقة بابتهاج — عندما يدرك أن المحادث له يدون حتى ملحوظاته الأولى وصيحاته : « حسنا . . . » — « أخ . . . » — «هيه . . . هيه . .» . ومع أنه يسارع إلى الإجابة ، فإنه أكثر تفكيرا مما كان فى الحادية عشرة . وأجوبته واضحة وتلقائية ومشوقة . وقد أصبح أقل وثوبا إلى صميم فكرة من الأفكار ؛ وصار الآن يقدم لك مفتاحا مبدئيا لحل الموضوع الذى يتحدث عنه . وقد قل عما كان فى الحادية عشرة تهريجه وتمثيله الدرامى وتلعيبه وجهه .

ويستمتع ابن الثانية عشرة بالمقابلة

فهو يحب أن يتحدث . وهو يحب التفاعل الحادث بينه وبين محدثه وقد تتسع عيناه أحيانا وينظر إلى محدثه وقد استولى عليه تحمسه هو للقص والإفضاء .

الصحة

الصحة بوجه عام ممتازة عند بعضهم ، ومع أن الأمراض الواضحة الأعراض كالبرد والنزلة الشعبية قد قل عددها جدا ، — إلا أن ابن الثانية عشرة ربما لم تكن صحته جيدة على الدوام . ويصيبه التعب بدرجة أقل منه وهو فى الحادية عشرة ، بيد أنه قد تلم به فترات من التعب المفرط يكره أثناءها كل شيء وكل من يتطلب منه أى شيء . وهذه هى الآونة التى ينتفع فيها من قضاء يوم بعيدا عن المدرسة . والمدرسة ينبغى لها التنبه لهذا النوع من التعب ، وأن تكون مستعدة للتعاون مع البيت ، وذلك بإتاحة الغياب عن المدرسة إن لاح ذلك أمراً مرغوبا فيه . ولا يرغب ابن الثانية عشرة عادة فى أن تفوته المدرسة ، ولن يستفيد من مثل تلك الفرصة ما لم يكن بحاجة حقة إليها .

ومن المحتمل أن ابن الثانية عشرة — شأن ابن الحادية عشرة — مازال يصاب بآلام فجائية غير متوقعة وحادة قصيرة الأجل بأجزاء مختلفة من جسمه ، موضعها فى الأغلب رأسه أو بطنه على العموم . ولعل هذا دليل على بوادر البلوغ كما أنها أكثر انتشارا بين البنات . وقدما ابن الثانية عشرة تؤلمانه على نحو ما كانتا تفعلان وهو فى الحادية عشرة ، بيد أن الألم الآن غالبا ما يكون موضعه العقبان . وربما كان تغيير الحذاء مدعاة لتخفيف الألم . بيد أنه لا بد من بذل عناية أكبر فى اختيار الأحذية ، وربما رحب ابن الثانية عشرة بحذاء للعب يصنع حسب مقاس قدمه *

(*) محل مرى للوازم الأحذية ، معامل إلن ومرى .
Alan Morry, 616 Fairfield, Bridgeport, Connecticut.

هو . ويلوح أن آلام الأقدام التى ستظهر بعد ذلك بكثير ، إنما تنشأ منذ ذلك الوقت ، وربما أمكن الوقاية من أشياء كثيرة إن اتخــذت الوسائل العلاجية .

ومن الاحتمالات المرجحة جدا أن يصاب ابن الثانية عشرة بالبرد إن أسرف فى إرهاق نفسه فى نواحى النشاط الكثيرة ولـكنه لديه من المرونة إن تهيأت له الراحة ما يكفل له « أن يوحى إلى نفسه بأنه شفى من البرد » وإذا هو أصيب مرة بالبرد فإنه يريد أن يبرأ بأسرع مما يمكن ، كما أنه لايميل كثيراً لإدعاء المرض مدة أطول من مدة إصابته به حقا ، وهذا ما كان يجوز أن يفعله فى الحادية عشرة إذا لم يرغب فى العودة إلى المدرسة .

متنفسات التوتر :

إن نفس النقص الذى حدث فى شدة متنفسات توتر ابن الثـانية عشرة ليشهد بأنه أصبح فى حالة أكثر اتزانا. إذ لايزال هناك من يتنحنحون فى حالة الزنقة والتوتر ومن يرمشون بأعينهم وتظهر عليهم اللجلجة العصبية . ولـكن ربما اقتصر قضم الأظافر على إبهـام واحد ، وربما لم يحدث التلجلج إلا أثناء موقف معين محدود كوجود الوالد . ولا تحدث اللزمات العصبية فى الأغلب الأعم إلا عندما يكون ابن الثانية عشرة متعبا ، ولم تعد الآن مصحوبة بتلك النظرة العصبية أو المرتبكة الحائرة التى كانت أكثر شيوعا فى الحادية عشرة .

البصر:

ابن الثانية عشرة يجمع بين التنبه إلى بصره والاهتمام به . فإنه يواصل الاستفسار أثناء الـكشف الطبى على بصره عما إذا كان بعينيه شىء . فأما الذين كانت لديهم أعراض مظـاهر الخلل البصرى كزغللة الأعين أو آلامها المقترنة بالصداع ، فإنهم أكثر انشغالا من معظم إخوانهم . والعادة أن يكشف الفحص البصرى عن وجود سبب كامن .

وقد أصبح ابن الثانية عشرة الآن يجمع بطريقة أفضل بين القـدرة على

التحديق (وهو شيء كان سائدا فى سن العاشرة) وعلى التركيز البؤرى (Focusing) (وهو شيء كان سائدا فى الحادية عشرة). وربما ترتب على حدوث أى صعوبة فى سبيل إحراز ذلك الجمع بينهما حدوث نقص فى القدرة على التركيز البؤرى للبصر أو صعوبة فى التمييز ، بحيث تصبح إجاباته عن بعض اختبارات التركيز غامضة . فتنزع كل عين إلى الاستجابة بصورة مخالفة من حيث قدرتها على التركيز . ولكن من المتوقع أن تستعيد العينان عند الرابعة عشرة ثباتهما فى العمل معا والقدرة على الاستجابة بشكل أكثر تماثلا .

فإن أبناء الثانية عشرة الذين تحدث لديهم صعوبات فى مزج التركيز البؤرى والتحديق دون تنبه منهم إلى وجود أية أعراض مرضية يمكن أن تتوقع إصابتهم بالأعراض عند الرابعة عشرة ، وعندئذ ينبغى لهم أيضا أن يكونوا أكثر استعدادا لتقبل وسائل المساعدة البصرية والإفادة منها (كالنظارات أو التدريب البصرى) .

ومسألة الحصول على المساعدة البصرية بقصد تحسين التآزر البصرى والكفاية البصرية فى سن الثانية عشرة لاتزال شيئا عسيرا كما كانت فى العاشرة والحادية عشرة . والعادة أن ابن الثانية عشرة يتعاون وخاصة إذا شعرت عائلته أنه ينبغى له أن يفعل ذلك ، ولكن الفكرة ليست فكرته هو . وهو يكره فكرة الاضطرار إلى لبس النظارة طول الوقت ، إذ يحس أنها ستحول دون اشتراكه فى نواحى النشاط . ولكنه سيتعاون بلبسها للمذاكرة أو القراءة وإن كان يعد حملها معه حيثما ذهب شيئا مزعجا . ويقل الآن خطر ابتداء قصر النظر لديه عما كان وهو بين التاسعة والحادية عشرة .

التطور البدنى والتنبه الجنسى — البنات

الثانية عشرة هى السن التى تبدأ عندها الفئة المتوسطة من البنات أعظم خطواتهن نحو الوصول إلى شكل المرأة الشابة ووظائفها . وهذه فى المعتاد هى الفترة التى يتم أثناءها أسرع نمو لمرحلة المراهقة فى كل من طول القامة ووزن الجسم . ويلوح أن الأسراع فى طول القامة يجىء مبكراً قليلا وأقوى قليلا ، كأنه يوزع كتلة الجسم فى حيز أكبر . (وفى نهاية هذه السنة تبلغ البنت المتوسطة فوق ٩٥٪ فى المئة من طولها الكامل بعد النضج) . ولذا فإن كثيرا من البنات يبدون أقل « كلبظة » مما كن فى الحادية عشرة — على الرغم من زيادة وزنهن .

وقد ظهر الآن بالثديين امتلاء بين ، واسمرت الحلمات وظهر شىء من النمو فى شعر الإبط . ويظهر فيض دم الطمث فى الأغلب قرب نهاية تلك السنة . وثمة حادثة قلما علق عليها أحد ، ولكنها شائعة بين كل من الصبيان والبنات ، هى ظهور قدر لا بأس به من النمش (وصحابه دلالته أن النمش قد تجلى بوجه خاص أثناء فترة سابقة — عند سن السادسة ، وهى عمر له خصائص شبيهة بخصائص الثانية عشرة) . وهذا أوضح فى بعض الأطفال منه فى بعضهم الآخر — وربما استطعنا فى النهاية أن نربط بين الأفراد ذوى النمش الواسع المطرطش الملتقى بعضه ببعض تقريبا والنمش الشبيه بسن الدبوس — وبين الطرز المختلفة لفسيولوجيا الجسم .

وفى سن الثانية عشرة تأخذ حدة اهتمام البنات بأثدائهن فى الهبوط شيئا ما عنها فى الحادية عشرة ، وقد يعبرن الآن عن استحيائهن بتفضيلهن إرتداء السويتر الضيق الذى يبرز قدهن ويظهر شكلهن النامى المتطور .

ويتركز الآن على الحيض إهتمام أقوى . ولاتزال قليل من البنات يجدن صعوبة حقيقية فى إحراز النهوء الانفعالى لهذا الحدث البيولوجى الجديد الذى يرينه فى صورة تهديد وتمزيق لحياتهن . وهناك أخريات يتقبلنه بقبول أحسن ولكن فى حدود ضيقة

فهن يأملن فى أمهاتهن كتمان الأمر ويقررن أن لا يخبرن به إلا أعز صديقاتهن . وفوق كل شىء — قد يرغبن أن لا يعلم به الأب . وكلما بكر الحيض فى الظهور ، كلما كان من المحتمل أن تجد بنت الثانية عشرة صعوبة فى قبوله ، على أن تقبله إنما هو فوق كل شىء مسألة نضج . والحيض قبل عيد الميلاد الثانى عشر ربما تمخض عن قلق حقيقى واستلزم ارتداء سراويل إضافية أو سراويل من مطاط) .

بيد أن غالبية البنات فى هذه الأيام تشخص بأبصارها إلى أول ظهور الحيض فقد أعددن لمجيئه، ومع أنهن بالطبع غير متحققات من موعد مجيئه بالضبط ، فإنهن قد استعددن له عقليا، كما استعددن له بالمعدات اللازمة . وربما تمخض ظهوره الفعلى لأول مرة عن شىء من البكاء والقىء ، مهما كانت بنت الحادية عشرة مهيأة له بالمعلومات. حتى إذا تم التغلب على هذه الصعوبة حدث فى موقفهن تغير : ذلك أن الحيض يصبح له فى نظرهن ارتباط إيجابى أكثر بالكبر والنضج .

وتكون الحيضات الأولى على وجه العموم خفيفة المقدار وغير منتظمة، والعادة أن البنات يتلقين الشىء القليل جدا من التحذير قبل نزول الحيض بهن ، ويأخذهن الدهش حين يكتشفن بعض البقع على سراويلهن . ويحدث الحيض أحيانا عند بعض البنات دون أى اهتياج مطلقا ، وإن كان ذلك نادراً وربما حدث تدفق غزير جدا فى أعقاب فترة انقطاع تمتد شهرين أو ثلاثة . ثم ينبثق — حتى فى إبان عدم الانتظام هذا — نمط أساسى من التفكير فى هذا الموضوع يكونه كل فرد لنفسه .

وليست هذه الحيضات البكر فى العادة بتغيرات المزاج السابقة على الطمث كالتى ستحدث فى السنوات القليلة التالية وإن أصيبت بعض البنات « بشىء قليل من ضيق الصدر » قبل الحيضات وأثناءها . وربما احتاج بعضهن فى البداية إلى معاونة الأم لهن فى ربط الفوطة الصحية بموضعها . وهن بحاجة للمساعدة فى الحكم على ما إذا كن يحتجن إلى فوطة إضافية

يمكن إزالتها أثناء اليوم المدرسى وهن بحاجة أن يعلمن كيف يتصرفن فى الفوط ، وأن يفتشن حين ينسين ، وهن أيضا محتاجات أن يفهمن لماذا كانت العناية الدقيقة هامة ، حتى من حيث إستخدام المستحضرات المزيلة للروائح ، — وذلك حتى لا يستلفتن أنظار زميلاتهن لحالتهن .

وينبغى للأمهات أن يدركن أنه وإن كانت البنات « أعرف » من الصبيان بشئون المسائل الجنسية بوجه عام ، ففى الإمكان مع ذلك التشويش عليهن عن طريق الأفكار الخاطئة بل وعن طريق إحساساتهن أيضا وإحساسات الناس الآخرين نحوهن . فإنهن حين يعلمن أن الكلاب تحمل أثناء فترة الهياج الجنسى للأنثى ، قد يستنتجن أن الكائنات البشرية تحمل أثناء حيض الأم . وقد يضايقهن تنبه بنت أخرى إليهن ، أو تضايقهن وجداناتهن الخاصة نحو شخص أكبر منهن سنا . وينبغى أن تتاح لهن الفرصة لمناقشة مثل هذه الأفكار المشوشة مع فرد آخر . ومن حسن الحظ أن البنات أميل من البنين إلى الالتجاء للأم — لإخبارها بأفكارهن وخبراتهن ، ولطلب المعلومات والإرشاد منها .

ومن واجب الأم أن تكون على علم كاف ، وأن تجيب عن الأسئلة بأحسن ما يمكنها . وهى تستطيع دون ما إرهاق ولا حرج مساعدة بنت الثانية عشرة على النظر إلى مسألة الجنس فى هيئتها النسبية الوافية . وهى تستطيع فوق كل شىء مساعدة ابنتها على إدراك أن هذه المشاعر التى لديها هى كظاهرة من ظاهرات تطورها الجديد شىء طبيعى ، وأن أحداث الجنس البدنية التى عساها سمعت عنها ، أو شاهدتها ، أو فعلتها يمكن فهمها هى أيضا كجزء من عملية نضج . وتستطيع الأم مساعدتها على إدراك أن طريقة شعورها نحو الجنس إنما هى أهم شىء فى الموضوع .

فإذا تكونت فى نفس ابن الثانية عشرة ، صبيا كان أو بنتا ، اتجاهات ومشاعر صحية سليمة نحو

موضوع الجنس ، أمكنه (أو أمكنها) أن ينتقل إلى مراحل النمو التالية انتقالا طبيعيا . وهو بحاجة إلى المعاونة في معرفة السبيل التي يسلكها ، ولكنه محتاج أيضا أن يكتشف طريقه بنفسه . ومعظم الأفراد (في ثقافتنا هذه الراهنة) إنما يمرون بمرحلة طبيعية تماماً عندما ينظرون إلى الجنس على أنه شيء قذر .

ومرور الفرد بخبرة جنسية مثلية (Homosexual) وحيدة قد يكون كافيا لإشباع فضوله من ناحية ولمساعدته من ناحية أخرى على اختيار الاتجاه الجنسي الغيري Heterosexual الذي هو الطريق الطبيعي للنماء . فواجب الطفل أن يؤدي وظيفة النمو ، أما الوالدون وغيرهم من البالغين الذين يوجهون الشباب ، فينبغي أن يقفوا بجانبه ويحولوا بينه وبين اختيار الطريق الشاذ بصفة مستديمة .

التطور البدني والتنبه الجنسي — الصبيان

إن مجال الفوارق في سرعة النمو البدني أوسع بين صبيان الثانية عشرة منه لدى أبناء العاشرة أو الحادية عشرة . ويتميز كل من ذوي السرعة العالية والمنخفضة عمن عداهم . فالمجموعة المتقدمة تكون أشد تقدما بكثير في سن الثانية عشرة ، على حين لا يكاد يظهر في المجموعة الأقل نشاطا [في نموها] أي تغييرات منذ سن الحادية عشرة . وأما مجموعة الأوساط فإنها الآن تبدي مع ذلك آثارا محددة ومنوعة تشهد بابتداء البلوغ . فيلاحظ نمو متزايد في كل من القضيب والصفن . ويأخذ شعر زغبي طويل في الانبثاق على الجلدة قرب أصل القضيب تخالطه بضع شعرات قليلة أكثر سمرة وخشونة . ولكن حتى في مجموعة الأوساط هذه من الصبيان نلاحظ فوارق حادة في الطريقة التي تظهر بها بوادر البلوغ الأولى . فبعض الصبيان يبدو فيهم زيادة في حجم أعضاء التناسل دون أي أثر لشعر العانة . ويكون الحال عكس ذلك في بعضهم الآخر ، على حين يظهر الأمران في النوع الثالث ويبدو مثل ذلك الاختلاف في البدن المفرد ، فتبدو بعض الأجزاء أكثر تطورا وبعضها أقل

تطورا . فقد لا يصل عنفوان فترة السمنة للبلوغ إلى أقصى ازدهاره إلا فى سن الثانية عشرة . (غير أن كثيرا من الصبيان الذين تمر بهم تلك الخبرة (السمنة) يستطيعون تحملها بصبر أكثر لو عرفوا أنها لا تعدو أن تكون ظاهرة مؤقتة) .

والصبيان يصبحون أكثر اهتماما بالجنس منهم قبل ذلك . ولا يزال بعضهم يسمح لأمه بالدخول عليه فى حمامه ، وربما عرضوا عليها أى تباشير لشعر العانة مع إبداء الفخر والسرور . ومع ذلك يبدو الارتباك على الكثير عندما يحدثهم الوالدون حديث الجنس ويدلون إليهم عنه بالمعلومات ، ويحدث أحيانا أن يحمر وجه أحد الصبيان فيصبح مثل « الجزرة » لمجرد التفوه بلفظة الجنس . وابن الثانية عشرة أقل فى اهتمامه نسبيا بنشاط الكبار الجنسى وأكثر انشغالا بميوله الجنسية . والمألوف المعتاد أنه يعلم خبر « القذف » — وإن لم يزاوله — . كما أنه بدأ يدرك بصورة أتم أن النشاط الجنسى يحدث بصورة تختلف عن مفهوم الأطفال ، وربما سأل أمه — إن كان أصغر أطفالها — ما إذا كان قد حدث بينها وبين أبيه اختلاط جنسى منذ ولادته .

وإظهار بعض الميل إلى البنات شىء لامفر منه تقريبا لدى غالبية أبناء الثانية عشرة وإن جاز أن يكون اهتماما قصير الأجل بقدر ما هو فجائى . وابن الثانية عشرة أعظم كلفا بحضـــور المحافل الاجتماعية كمدرسة الرقص أو حفلاته . ويظهر عليه تغير فى عنايته باللبس لتلك المناسبة ، وربما ظل متوقد المشاعر بعدها يومين كاملين . والقلة التى تقع فى شرك الحب صريحة بشكل عجيب فى تعبيرها عن الحب ، فهم يكثرون من التحدث بالتليفون ويكتبون على صفحات الكتب التى يقرؤها كل إنسان . على أن ابن الثانية عشرة على وجه العموم يستمتع بالنشاط الجمعى أكثر من أى شىء ، ولا يجرؤ أن يحاول تقبيل بنت إلا فى ظل الوضع المباح أى أثناء ألعاب التقبيل حيث يستحب أن تكون الأنوار مطفأة .

وكثيرا ما تحدث الانتصابات إما تلقائيا دون سبب خارجى ظاهر أو تحت تأثير أنواع مختلفة من المثيرات

وتتوقع الأمهات الآن أن يجدن صورا للبنات العاريات فى حيوب الأبناء . وقد تكون الأحاديث « لعبة الحصان »[1] مع الصبيان الآخرين من مصادر الانتشار الممكنة . ثم إن التهيج بأنواع له كثيرة لا علاقة لها بالجنس وخاصة الخوف والغضب — قد يسبب الانتعاظات . ولكن هذه الظاهرة الأخيرة تدخل فى زوايا النسيان عادة فى الطور المتأخر للمراهقة ، على أنها يمكن أن تكون ظاهرة محيرة لأبناء الحادية عشرة والثانية عشرة . والاستمناء شيء يعرفه ابن الثانية عشرة فى العادة نظريا أو يزواله عمليا ، إن لم يكن يحفظه كلفظ فى قاموسه ، كما أن عددا جماً منهم يشتغل بممارسته بكثرة . ذلك أنه ربما حدث على انفراد أو فى جماعات . ويشرع بعض الصبيان فى الدخول إلى حجراتهم وإقفال بابها بالمفتاح ، وإن لم يدل ذلك دائما على ممارسة الاستمناء بأى حال وربما عادت قلة من الصبيان الأقل نضجا إلى لعبة الطبيب مع أطفال أصغر منهم .

وربما زاولت قلة منهم خبرة « جنسية مثلية » (Homosexual) واحدة مع صبى أكبر سنا فى لعب جنسى تجريبى أو لمجرد حب الاستطلاع . أو لعل رجلا أكبر من ابن الثانية عشرة يستغويه بالخداع والختل دون أن يعرف ما يريده ذلك الرجل الكبير . وهذا الاغواء من الكبير حادث نادر جدا ، ولكن ينبغى مع ذلك أن يحذر منه ابن الثانية عشرة (بطريقة واقعية لا بطريقة درامية) وأن يوقى شر الوقوع فيه .

والمسألة الجنسية تثير اهتمام ابن الثانية عشرة حقا ، كما أنه أصبح أقل ميلا إلى اعتبارها شيئا قذرا منه فى الأزمنه السابقة . ذلك أنه بحاجة إلى المعلومات كما أنه بحاجة إلى أن يقوم ليستقيم . وربما استنتج من عنديات نفسه استنتاجات خاطئة ، وربما ظن أن كلة (حليوه) Fairy معناها البنوتة المخنث أو أن من يدعى (بالحبيب) Homo به « لهفة جنونية على البنات »

---

(١) الانتشار والانتصاب والانعاظ بمعنى واحد . ولعبة الحصان هى التى يسميها العامة بمصر « عنكب نط واركب » . [المترجم]

والصبيان قد يذهبون عن طيب خاطر إلى من يثقون فى مشورته ليتحدثوا إليه بالفعل حديثاً صريحاً حقاً ، ليجدوا لأسئلتهم من يجيبها بطريقة مستقيمة . والظاهر أن ابن الثانية عشرة يفضل فى العادة أن ينشد المعلومات من مثل ذلك المصدر الصديق غير المرتبط به فى الوقت نفسه — لا من والديه ، مهما يكونوا صرحاء وباعثين للثقة . فإن هو لجأ فعلا إلى أحد الوالدين فالمحتمل أن يكون أمه أكثر منه أباه . ولكن كأنى به يحس أن معرفتهما به بلغت من شدة الطول ووثيق التعمق مبلغا لا يسمحان له معه أن يتخذ دورا جديدا : — هو دور فرد له بالجنس اهتمام مباشر وشخصى . والمستشار الذى لا يعد ابن الثانية عشرة « مجرد طفل » ، والذى لا يحس باى حرج هو نفسه إزاء مثل ذلك الموقف سرعان ما يجد الأسئلة تنثال عليه انثيال المطر .

فإن حرم ابن الثانية عشرة مثل ذلك المصدر التمس المعلومات بمكان آخر — منقبا بالمجلات والصحف والقواميس عن ألفاظ الجنس وحكاياته ؛ ومتبادلا مع زملائه المعلومات الصحيحة (أوغير الصحيحة) . وكثيرا ما يجتمع صبيان الثانية عشرة فى جلسات قاصرة على الذكور يناقشون فيها الأمور بحرية إلى حد ما ، وذلك على الأقل بقدر ما يسمح به كل ما اجتمع للمجموعة من معارف ، وهناك أيضا أدب شعبى [فولكلور] من نكات الجنس لا يخبرون به إلا بعضهم بعضا . ومع ذلك فإن تلك النكات نفسها تجتمع من جديد بطريقة ما مع كل جيل ينشأ .

٢ — العناية بالذات ونهج الحياة اليومية

الأكل

الشهية . إن معدة ابن الثانية عشرة توصف فى محيط الأكل بأنها « حفرة لا قرار لها » . فهما يعظم مقدار ما يأكل ، لا يظهر عليه الامتلاء والشبع قط . وهو يستطيع الذهاب مباشرة إلى المطبخ بعد تناوله وجبة كبيرة يغترف فيها غرفتين أو ثلاثا من كل شىء — لينقب عن الفطائر أو غيرها من المأكولات القريبة السهلة التناول .

وتعله لايفكر إلآن فى الطعام ولا يتكلم عنه بالكثرة التى كان يفعل بها من قبل ، ولكنه يأكل بشهية حقيقية فى ساعة الوجبة العادية أو الخفيفة .

ولكثيرمن البنات ولبعض الصبيان شهية ضئيلة جدا للفطور ، ولكنهم يشعرون بالجوع عندالضحى بالمدرسة . ويستطيب ابن الثانية عشرة تدبيرمسألة الطعام وشراءه لهذه المناسبة الهامة فى الصباح . بل إنه قد يدبر المال اللازم لذلك . وربما ذهل المربون من تغير جو الأطفال وارتفاع طاقتهم وقوة حفزهم بفرقة للسنة السابعة بعد أن تطفأ لذعاتالجوع عن معدة ابن الثانية عشرة .

والغالبأن يتناول ابنالثانية عشرة على العموم لهفة (وجبة خفيفة) كبيرة عندما يعود من المدرسة إلى البيت بعد الظهر . ويلوح أن هذه اللهفة لاأثر لها مطلقا فى وجبة المساء حيث تكون شهيته هائلة . وللمرة الثانية وفى ساعة النوم تحس غالبية كبيرة من أبناء الثانية عشرة آلاما للجوع لاشك فيها ولا يمكن تهدئتها إلا بلهفة ضخمة ومن الأمور السارة أن يتاح لنا ملاحظة ابن الثانية عشرة وهو يزدرد وجبة بالمطبخ . وهو مقتدر فى طهى القانق (السوسيس) أو كفتة اللحم Hamburgers وصنع السندوتشات ذات الطبقات المزدوجة أو الثلاثية . وهو يصب المربى صبا ، ويستخرج بالمغرفة زبدةالفول السودانى فى طبقات سميكة حتى تسيل وتتساقط من حوافى السندوتش .

ومع أن شهية ابن الثانية عشرة هائلة ، فإنه قد يكون آخذا فى أن يقصر أكله على وقت الوجبات واللهفات دون غيرها . وربما كان مدركا أيضا لضرورة تحديد مقدار الطعام الذى يتناوله إن كان مفرط السمنة . وهو يستطيع التخلى عن أنواع الحلو والأطعمة التى يكرهها . والبنات أكثر تنبها إلى محيط خصرهن وربما كن يبذلن جهدا رائعا فى ضبط التغذية وتحديد الطعام (الرجيم) ، وإن كن غالبا ما يخدعن أنفسهن بشد الحزام على الخصر . وقد يتحكم ابن الثانية عشرة فى شهيته أيضا بتفكيره فى الآخرين وترك شىء لهم . فبينما كان من الممكن أن يأكل وهو فى الحادية عشرة فطيرة بأكملها ، فإنه الآن يترك قطعة واحدة على الأقل لينعم بها شخص آخر .

ما يفضلونه من الأطعمة وما يكرهونه : إن عدد ذوى الشهية المدققة المتأنقة بين أبناء الثانية عشرة ضئيل ضآلة مدهشة . ثم إن شهياتهم تتفاوت بنفس الشاكلة التى كانت تتفاوت بها فى الحادية عشرة . وكثير من أبناء الثانية عشرة يتحدثون عن « وجبتهم المثالية » التى يبرز فيها البطاطس المهروس وصلصلة اللحم بروزا قويا . ويستحب أى لون من ألوان اللحم وجميع أنواع الحلوى . وهناك أطعمة معينة لاتزال تقابل بالرفض وخاصة الخضر الجذرية والأسماك والألوان المغطاة بالكريمة . ولكن ابن الثانية عشرة ليس شديد النفور من تناول الطعام المكروه . فإنه يخادع نفسه عن طعمه بشكل يتجلى فيه التكيف وذلك بستره بقطعة من الخبز أو بإزاحة الطعام إلى جوفه بجرعة من اللبن ، ثم إنه يتجه فى اتجاهات جديدة نحو محبوبات جديدة مثل كشك ألماظ والخرشوف والتفاح المقلى .

آداب المائدة : الآباء أقل شكوى منهم قبلا حول آداب ابن الثانية عشرة على المائدة . فآدابه على الأقل ليست مزعجة ازعاجا شديدا مثلما كانت . ومع ذلك فإن رغبته فى الجمع بين الحديث والأكل فى آن واحد تضطره إلى الكلام وفمه مملوء بالطعام . أو ربما وضع سكينه أو شوكته وهو يتكلم وضعا عجيبا فى الهواء . وهو لايزال واقعا تحت إغراء تناول الطعام بأصابعه كما أنه يحتاج منا إلى تذكيره بالأصول المرعية فيما يتعلق بتمرير الأشياء أو عدم مد اليد للوصول إليها .

تحضير الطعام : إن ابن الثانية عشرة لايهتم فقط بطهو أو خبز الأشياء الخاصة التى سبق له أن نجح فى تجربتها ومحاولة طهوها أو خبزها . بل إنه قد يكون مهتما أيضا بإعداد الطعام بوجه عام . وهو يحب أن يظل «متسكعا» بالمطبخ يلحظ أمه وهى تطبخ . بل لقد يوحى إليه شيطانه أن يطبخ هو نفسه وجبة كاملة ، وان اضطر إلى الإكثار من اللجوء إلى أمه ليتحقق من أنه لايخطىء

النوم :

موعد النوم : قد أقلع ابن الثانية عشرة إلى حد كبير عن العراك والنضال

الذى كان يدور حول ساعة النوم وهو فى الحادية عشرة . ولا شك أنه لا يزال بحاجة إلى تذكرة فى أغلب الأحيان ، ولكنه لا يعترض على وجه الجملة . ولا تزال هناك قلة تقاوم ؛ وتحتاج الى ضغط أقوى . ولكن هناك أيضا من يذهبون إلى حجرهم أبكر مما ينبغى ومن يستمتعون بالاستعداد البطىء للفراش وهم يقرأون أو يستمعون للراديو أو يتمون واجبهم المنزلى . وإذا أظهر ابن الثانية عشرة مقاومة أقل وتعاونا أكثر أثبت بذلك أنه قد اكتسب خطوة جديدة من حيث وقت نومه الذى أخذ يتحرك نحو التاسعة والنصف مع شىء من المرونة يتيح مده إلى العاشرة أو حتى الحادية عشرة للمناسبات الخاصة أو فى ليالى عطلة الاسبوع . وهو يستطيع الآن أن يحصل على هذه الامتيازات الاستثنائية وتقليل مدة النوم دون أن يضطر لدفع ثمنها على حساب مرضه أو إنهاكه .

النوم : يسعد ابن الثانية عشرة أن ينسل إلى فراشه ، ولكن ليس معنى ذلك أنه ينخرط فى النوم فورا . ذلك أنه وإن لم يشر إلى أية مخاوف تساوره من الظلام أو الوحدة ، فالغالب أنه يحتفظ بجانبه ببطارية كهربائية يعتمد عليها . أو لعل مذياعه يكون رفيقا له . ويمكن أن تمتد أفكاره قبل النوم إلى عالم المغامرات الخيالية جاعلة منه بطلها . ولكنه يتمعن أيضا فى أحداث اليوم وفى الأشياء التى لم يفعلها .

وليس نومه عميقا كشأنه فى الحادية عشرة ، حين لم يكد شىء يستطيع إيقاظه . فإنه يبدو فى الثانية عشرة أكثر تململا وتقلقلا وربما صاح بالكلام أثناء نومه وهو يحلم بخبرات لطيفة قرب المنزل أو بزمن مستقبل يتزوج فيه . على أن الأحلام المضطربة تحدث له وإن قل عددها . وربما حلمت البنات أن متلصصاً ينقلب إلى صورة أبيهن أو قد يحلم أحد الصبيان أن أمه معرضة للخطر وأن أحد القردة يوشك أن يقبض عليها . وهم يستيقظون فى بعض الأحيان وقد بلغ بهم الذعر أن يجمدوا بمكانهم كأنما أوثقوا بالحبال . وهم لا يستطيعون حراكا ولا حتى تقلبا فى الفراش وإن حاولوا الفرار .

الصباح : من حسن الحظ أن ابن

الثانية عشرة فقد المزاج الكريه الذى كان يلازمه عندما يستيقظ وهو فى الحادية عشرة . وقد يرقد فى فراشه هنيهة قبل استيقاظه من نومه . ولكنه كثيرا ما يرغب فى النهوض ليقرأ أو يرسم أو يتم الواجب المنزلى الذى حال التعب الشديد دون قيامه به فى الليلة السابقة .

الحمام :

يستمر فى الثانية عشرة التحسن فى الاستحمام الذى بدأ فى الحادية عشرة . فإن فكرة الحاجة إلى أخذ الحمام تكون قد استقرت فى ذهن ابن الثانية عشرة ، خاصة عندما يكون ظاهر القذارة . بل لقد يحس الخجل اذا رأى على حين بغتة أن قدميه قذرتان .

ولكن ابن الثانية عشرة لا يقتصر على الاستحمام عندما تكون الحاجة إليه ظاهرة . بل إنه يكاد يحول دون الوصول إلى هذه الحالة من القذارة بالإكثار التام من الاستحمام ، حتى لقد يصل إلى مرة فى كل يوم . ولكن الأكثرية يكفيها فى الغالب الاستحمام كل يومين أو ثلاثة . ويفضل أخذ الدش تفضيلا قاطعاً ، ليس لدى الصبيان فقط بل ولدى بعض البنات أيضا . ومنهم من يبلغ من فرط حبه له أن يختلس أخذ دش إضافى . أما البنات فهن أميل لأخذ حمامهن فى البانيو ، وكثيرا ما يستطبن شيئا قليلا من إجادة دعك الجسم اثناء الاستحمام ، وإن كان من الممكن على الجملة أن يتم ابن الثانية عشرة حمامه بقدر معين من العجلة . وليس معنى ذلك أن الآذان تغسل . فإن هذه لا تزال المنطقة التى تخص الأم وحدها .

ولا يزال بعض البنات بحاجة إلى عون أمهاتهن فى غسيل الشعر بسائل الشامبو أو بصفة خاصة فى تنظيفه بالماء وكذلك فى ترجيله وتصفيفه . ولكن البنات ذوات الأصابع الماهرة قادرات تماما على العناية بشعورهن وتصفيفها .

ومع أن الاستحمام قد يكون تحت رقابة جيدة ، فربما احتاج غسل اليدين إلى تذكرة . فإن نفس البنت التى رجل شعرها ترجيلا جميلا وجملت شفتاها بالأحمر ربما وجب أن ترسل من مائدة الطعام لغسل يديها . ولكن الحاجة إلى التذكير بدعك الأسنان بالفرشة أقل . إذ أن العناية بالأسنان تكون إلى حد كبير نوعاً أمراً يتحكم فيه ابن الثانية عشرة ، وإن لم يدعكها إلا مرة واحدة مساء .

الثياب والعناية بالغرفة :

أخذ ابن الثانية عشرة يصبح أكثر تنبها بكثير إلى مظهره منه قبلا . وهو متنبه تنبها خاصا لما يرتديه الناس عامة ويكاد لا يناقض الناس أبدا فى ملبسه . فإذا كانت الإشاريات هى موضة الزمان ، طالب البنات بالاشاريات ، وإذا انتشرت موضة بنطلونات القطيفة القطنية المضلعه ، كانت تلك هى الصنف الوحيد الذى يرتديه الصبيان ذلك أنهم يريدون أن يرتدوا ما يعتبرونه مناسبا . وابن الثانية عشرة مدقق فيما يتضاهى ويتمشى بعضه مع بعض . وهو يريد أن تلقى أمه نظرة على مدى استقامة رباط رقبته ، وأن تخبره عما إذا كان حسن الهندام أم لا . ويقال عن كثير من البنات إن لهن ذوقا حسنا .

وحبكة الملابس وانسجامها على البدن مهمة أيضا لدى ابن الثانية عشرة . ومن حسن حظ ابن الثانية عشرة أن فترة ترك الطفل ينمو ويكبر حتى يملأ ثيابه قد مضت . إذ يحدث أحيانا أن يحتاج ابن الثانية عشرة إلى مجموعة كبيرة كاملة من الثياب بسبب نموه السريع . والبنات يهتممن ويدققن بوجه خاص فى أنه ينبغى أن لا تكون الثياب معبعبة كالزكيبة . ولكن يا للأسف كم من مرة كان فيها محيط خصر البنت المتزايد يضطرنا إلى مقابلته بشىء من الاتساع فى الثياب . ولكن بنت الثانية عشرة تضيق خصرها بحزام مشدود بقوة تكاد تحصر أنفاسها مالم ينقطع ذلك الحزام .

ونحاول بعض البنات أن تظهرن أكثر فتنة فى طراز الملابس التى يرتدينها ونسق تصفيفة شعرهن . وهن يردن أن يتزين لحفلة الرقص بقليل من أحمر الشفاه . وهنا تصبح (الصديريه) والمشدات والجوارب النيلون الطويلة (الحريمى) مما يشغل الآن أفكارهن — وإن لم يزل ذلك فى مرحلة التخطيط الأولية على الأقل ، فهن يتلهفن على اليوم الذى تنمو فيه لديهن الحاجة إلى (سوتيان) . . . ويتمنين لو أتيح لهن أن يرتدين الجوارب الطويلة ولو مرة واحدة فى حفلة الرقص ! ! على أن هناك أيضا

كثيرات لا يرغبن مع ذلك أن يتقدمن في هذا السبيل بسرعة ويستمسكن بجوارب العقب[1] القصيرة . وكثيرا ما يحدث أن أولئك اللواتي جربن ارتداء الجوارب الطويلة (الحريمي) يعدن بسعادة إلى ارتداء القصار .

واختيارهن للجواهر يتجلى فيه الذوق السليم ، ومن اللطيف أنه مقصور على حلية من إسورة ، أو عقد من اللؤلؤ ولكنهن مهما يبدو من رشاقتهن وحسن هندامهن ، ومهما أطلن المكث أمام المرآة ، فإنهن يقدمن الدليل الذي ينم عن حداثة سنهن بشكل لا يتسرب إليه خطأ بعنقهن القذر أو أظافر أيديهن الملوثة .

وأشد ما يشغل بال الصبيان اهتمامهم بعدم ارتداء ثياب « البنوتة » المخنث . فهم لم يتهيأوا بعد لثياب الرياضة الزاهية الألوان ، ولكنهم يحبون القمصان الزاهية ذات المربعات المبرقشة كما أنهم يميلون إلى تركيز ميلهم الجديد للون الزاهي ، وإقدامهم على ارتدائه — في رباط الرقبة . وهم يريدون أن يظهروا بمظهر زاه متوقد ومع ذلك فربما ارتدوا أجمل ثيابهم استعدادا لإحدى المناسبات ، وذلك كارتدائهم رباط رقبة زاهي اللون ، وسراويل لونها مناسب ، ولكن ليس معنى ذلك أنهم لا يرغبون في ارتداء أحذية المطاط حتى في ذهابهم إلى الكنيسة نفسها .

وليس شراء الملابس مهمة صعبة كما كانت من قبل . إذ أن مشاكل الثياب بين الوالد والطفل أصبحت أقل عددا . وأصبح ابن الثانية عشرة أدرى بما يريد بسبب ذوقه السليم النامي من جهة وخضوعه من جهة أخرى للزي الشائع ولما يرتديه الآخرون . والعادة أن يشتري ابن الثانية عشرة ثيابه مع أمه . والبنات بوجه خاص يحسسن بالحاجة إلى قياس الأشياء عليهن ليرين شكلهن فيها — فإذا أحضرت الأم إلى المنزل ثيابا انتقتها ، فهي تعرف أنها بحاجة إلى أن تحصل من التاجر على فسحة من الوقت لإرجاعها إذا لم يعجب الطفل اختيارها ولكن ابن الثانية عشرة قابل للتوافق ، كما أنه على حد ما يقول عن نفسه « نحن نسوي الموضوع إن اختلفنا في الرأي . »

(١) وهي المسماة في المتاجر باسم « سوكيت » .

وبدايات الأمور عند ابن الثانية عشرة خير من نهاياتهـا . واختيار الملابس خـير من العناية بالملابس . وهناك لحظات متناثرة قليلة تتحسن فيها تلك العناية ، ولـكن على الجملة من النادر غير المألوف أن نجد من أبناء الثانية عشرة من يعرف بالأناقة والعناية بتعليق ثيابه واستبدالها بأخرى نظيفة عند الحاجة والتصرف فى الثياب القذرة . ولابن الثانية عشرة طريقة فى ترك ثيابه تتكوم حتى تتغضن و « تتـكسر » . وقد بلغ الغيظ بأم لأحد صبيان الثانية عشرة أن ضغطت على بنطلون ابنهـا المتـكسر وجعلته يلبسه متـكسرا . ولـكن ذلك لم يحدث فى الإبن تغيرا كبيرا ، وإن أصبح بعد ذلك « يعلق الثياب كيفما اتفق » .

ويتقبل ابن الثانية عشرة التذكير بالعناية بثيابه . كما أن حضه بقوة كافية بأن : « يوجه عناية طيبة » إلى غرفته قد يستثير فيه درجة من الخجل كافية لإصلاح ما اعوج من أمره .

وليست ثيابه هى وحدها التى تتناثر بأرجاء غرفته بل ومعها أيضا مجموعاته منظمة كانت أو غير منظمة . وها قد أخذ ينشأ فيه طراز جديد من الجمع : منه التذكارات (وسائل الاحتفاظ بالذكريات) كـكعوب التذاكر وقصاصاتهـا وصور الفرق الرياضية المدرسية . ويحتاج ابن الثانية عشرة إلى لوحة إعلانات حتى يستطيع أن يلصق عليها كل هذه الفتات والشذرات وأى شىء يثير اهتمامه للحظته الراهنة ويكون ذلك عند البعض صور الـكلاب وعند البعض الآخر الخيل . وأعلام السفن وصور ألعاب كرة القـدم وصورا شمسية لنجوم السينما تجد أماكنها على جدران حجرة الثانية عشرة . وما أحسن حظ ابن الثانية عشرة الذى تتقبل جـدران غرفته بسهولة أثر دبابيس الرسم (١) وقوة تثبيتها للأشياء . وما أتعس ابن الثانية

---

(١) دبوس الرسم Thumbtack دبوس مفلطح الرأس لتثبيت الأشياء ، بالضغط عليه بإبهام اليد .

عشرة ذلك الذى يحتاج أن ينفق مصروفه فى شراء شريط اللصق لعرض كنوزه على الحائط . فهو يقول : « إنه غالى الثمن جدا ! » .

ويقضى ابن الثانية عشرة فى تثبيت الصور والأشياء بحجرته زمنا أطول مما يقضيه فى تنظيمها . ولكنه يحافظ على شكلها الحسن إذا فكر فى ذلك . كما أن فى الإمكان تذكيره . ومع ذلك فالأمهات يضطررن فى حالة الصبيان بخاصة إلى التدخل فى تسوية الغرفة بين الفينة والفينة على الأقل .

النقود :

ليس ابن الثانية عشرة فى العادة شديد الاهتمام بالنقود والحصول عليها عن طريق المصروف أو الاكتساب كما كان فى الحادية عشرة . وكثيرا ما يصرف ابن الثانية عشرة النظر عن المصروف ويستولى على ما يكتسبه بعمله أو يعطى ما يحتاج إليه . ومع ذلك فلا يزال عدد منهم يحصل على مصروف قدره خمسون سنتا . بيد أن عددا أكبر أخذ يتقدم نحو منطقة الدولار الواحد مع مطالبة الوالدين له بتنظيم ميزانيته . وتدخل فى ذلك تذاكر الأمنيبوس ولوازم المدرسة ورسوم الكنيسة والكشافة بل وقص الشعر أحيانا ، ولكن الأغلب أن أجور السيما والواجبات المدرسية شئون إضافية يتكفل بها الوالدون .

وابن الثانية عشرة ماهر فى ادخار النقود من ميزانيته المقررة . فهو يمشى إلى مدرسته أو يركب الدراجة بدلا من أخذ الأمنيبوس أو لعله يضن على نفسه بالغداء أو يأخذ معه غذاءه بدلا من الحصول على وجبة ساخنة بالمدرسة .

وابن الثانية عشرة لايكدس النقود كما كان يفعل فى الحادية عشرة . بل الأغلب أنها اما أن تدخر لغاية خاصة أو تصرف — وذلك إما فى شراء قفاز لكرة القاعدة أو شراء آلة الأوكوليلى(١)

(١) الأوكوليلى : Ukulelē : آلة موسيقية من هواى تشبه الجيتار ولها أربعة أوتار . [المترجم].

أو بعض الأسطوانات . وأبناء الثانية عشرة الذين يحسنون التصرف فى النقود تكون النقود فى أيديهم دائما وهم كرماء فى تسليفها ويبتهجون بوجه خاص عندما تحتاج أمهاتهم إلى شىء من النقود . وهم لا يحبون فقط أن يعيد إليهم الآخرون أموالهم بل يكونون مدققين إلى حد ما فى صفاتهم الخاصة من حيث إعادة ما عليهم . و أبناء الثانية عشرة هؤلاء الحريصون لا ينفقون النقود فى العادة بسفه وحماقة ، بيد أن هذا لا يصدق على أبناء الثانية عشرة جميعا .

فإن هناك طائفة قليلة تماما من المبذرين غير المكترثين عندهم رغبة لذاعة فى إنفاق كل مال تمسه أيديهم والأمر كما رسمته إحدى الأمهات : « إنه لا يستطيع أن يطيق وجود المال بيده » وهؤلاء هم الأطفال (وقد يصبحون فعلا هم الكبار) الذين يقاسون متاعب مالية فظيعة طول أيامهم. فالنقود تسيل من أيديهم كالماء وهم كرماء إن كان لديهم نقود، ولكنهم فى الأغلب مفلسون و يحتاجون إلى شىء مقدما أو إلى اقتراض نقود أكثر .

العمل .

أخذ ابن الثانية عشرة يفقد ما كان يبديه فى الماضى نحو العمل من مقاومة كريهة يبديها بطريقة أو توماتيكية . وقد أخذ يدرك الآن أنه ملزم أن يعمل وأنه يحسن بالتبعية ان يتقدم إلى عمله وينجزه . وربما لم يتطوع لأدائه ولم يزل يحتاج إلى التذكير ولكنه فى الغالب « يجيد المساعدة » بل قد يبدى شيئا قليلا من الرغبة فى العمل بين فينة وأخرى. ومع ذلك فإنه قد أصبح يعاون أمه فى إتمام المهام المنزلية الخفيفة التى لا يعتبر ملزما بأدائها ، كتهيئة فراشه ، وتقديم المساعدة فى الشئون المتعلقة بالأطباق و إعداد المائدة وتعرف أمه أيضا أنه يقدم أعظم ما فى إمكانه من المساعدة يوم العطلة .

وهو يعنى ويقصد أن ينفذ طلبا طلب إليه أو مهمة نيطت به « فى دقيقة واحدة » وإن زعمت أمه أنه يتأخر أكثر من ذلك . والغالب أنه يؤدى عمله على أحسن وجه عندما تكون أمه مستعجلة لضيق الوقت أو عندما تكون خارج المنزل . وفى استطاعة الأم أن تتعمد

الإكثار من التغيب عن المنزل ، بل حتى تأوى إلى الفراش لتحصل عن جدارة على قسط من الراحه حتى يجرب ابن الثانية عشرة الناعم الأظفار قواه فى العمل ولا سيما الطبخ .

وليس ابن الثانية عشرة معوانا فى الأعمال العادية داخل المنزل وخارجه فحسب بل إن نشاطه قد أخذ يمتد إلى أعمال أكثر صعوبة . فترى البنات ينفضن التراب ويطبخن ويجربن مهارتهن فى كى (المناديل وما إليها) . وترى الصبيان يغسلون السيارة وينظفون الجراج أو يقومون ببعض النجارة الخشنة .

واكتساب شىء من المال جزء من دواعى دفع ابن الثانية عشرة إلى العمل . هو يفضل أن يتناول الأجر (بالشغلة) لا بالساعة . وقد أخذ عدد أكبر من الصبيان يتولى عملية المرور لتوزيع الصحف ، كأن كلا من الصبيان والبنات قد أخذوا فى القيام بمهمة « مجالسة الأطفال[1] » بعيدا عن منازلهم ولو كان ذلك مساء . وهناك قلة ذات إقدام من أبناء الثانية عشرة تقوم أعمالها على نطاق ضيق أساسه عرضهم للبيع سلعا صنعوها بأنفسهم . وربما كانت تلك السلع أسرة صغيرة للعرائس أو دبابيس من البلاستك أو قهوة وكعكا — يبيعها لعمال المبانى فى منشأة مجاورة أثناء بنائها . وقد يجمع ابن الثانية عشرة عن طريق أمثال تلك المشروعات مبلغا طيبا من المال غالبا ما يكون رأس ماله لمغامرات أخرى تالية .

٣ ـ الانفعالات

يالها من فترة راحة وسكون سعيدة تلك التى يستطيع سن الثانيه عشرة أن يجتلبها ! لقد ولت الطرائق الهوجاء التى كانت فى الحادية عشرة . وقد ولت تعبيرات الحادية عشرة الكريهة المترعة بروح المقاتلة والجدل وتقلب المزاج . وليس معنى ذلك أن هذه النواحى السلوكية الأكثر سلبية قد ولت وانقضت

(١) مهنة يؤجر عليها الأولاد والبنات فى أمريكا مقابل رعايتهم لأطفال الجيران أثناء غياب ذويهم مساء . [المترجم]

تماما ، بل إن الفترات الطيبة ما زالت تنمو باطراد حتى أصبحت تدوم مدة أطول وأطول . فالطفل نفسه الذى كان فى الحادية عشرة يصاب بثورات انفعالية مفاجئة يثيرها أدنى استفزاز ، قد يكون فى سن الثانية عشرة طيب الخلق حميم المودة وقابلا للتوافق مع قدرته على تحمل الألم والأذى. ولو قورن ابن الثانية عشرة بما كان عليه حاله وهو فى الحادية عشرة لتجلى تبرزه أو كاد كمصدر « للبهجة أو السرور » . وربما ظل التناقض ظاهرا فى سلوكه، فتكون استجابته جامعة بين النقيضين ، بيد أن هذه التناقضات أحسن تحديدا وليس بينها صراع مستمر، وإذا أحب ابن الثانية عشرة كان حبه بجماع قلبه . فإن البنت الأكثر تدفق حيوية قد تختم رسائلها لأمها بقولها « مع حبى وحبى وحبى » (مضروبا فى ١٠٫٠٠٠) . إن حماسة ابن الثانية عشرة الفياضة يمكن أن يكون موضوعها نوع من البسكوت المملوح أو والديه أو عقيدته . كما أن بغضه قد يكون مع الأسف على نفس تلك القوة ، وكثيرا مايوجه ضد المدرسة . وقد يكون الحذر أو الجرأة والضحك الصاخب أو انقطاع الفكاهة تماما ، وسيلة تعبير ابن الثانية عشرة عن تصرفاته المتناقضة.

وعلى الرغم من هذه التطرفات فابن الثانية عشرة يظهر ميلا إلى الهدوء والليونة يبدو ساحراً» بمقارنته بما كان عليه قبلا . وهو يبدو كمن يريد الاحتفاظ بتوازن الأشياء ، وأن يزيل دوافع الخلاف ، وأن يجعل كل سطح وعر متضرس أملس مستويا . وقد يكون فى بعض الأحيان حاداً نافد الصبر ، ولكنه على الجملة طيب القلب سار يستمع لصوت العقل. وهو يبدى وهو فى لجة حماساته وتلهفه الحافل بالتوقع ، حذراً صحيحا سليما . ويحول هذا الحذر بينه وبين المبادرة بالوثوب فى خضم المواقف قبل الوقت اللازم ، وينقذه من النتائج التى كانت يوما ما وبيلة العاقبة عليه والتى خبرها فى سن الحادية عشرة . وهو على الجملة يحس أن الحظ الحسن نصير له . ولكن حظه فى أوقات أخرى « مقارب أو يكاد » أو « وسط بين بين » — أو « متوازن متعادل » . وهو مستعد لتقبل الردىء مع الحسن .

ومع أنه يدرك أن النمو يأتى معه

مسئوليات أكثر ، فإنه يشعر كذلك أنه ينطوى أيضا على قدر أكبر من المرح . وإن عقله الذى بلغ اثنى عشر ربيعا ليحس — سعيدا — بتوازن القوى . ذلك أنه بالإضافة إلى نزعة ابن الثانية عشرة إلى أن يكون أكثر اعتدالا فى مزاجه ، كثيرا ما يحتفظ بحاله من السعادة . وربما تحدث الناس عنه أنه « صبى مرح » أو ربما سمع وهو يغنى طول وقته بسبب ما يحس من سعادة . وهو يرقى فى بعض الأحيان قمما سامقة من الحيوية الدافقة العجاجة ، وخاصة من أجل حادثة مستقبلة — كالذهاب مثلا للتزحلق بالاسكيهى فى عطلة الأسبوع . وهو يسعد بوجه خاص بنجاحه فى عمله المدرسى ويلوح كأنما له قدرة غير عادية على الاستمتاع بفترات الإجازات . وهو سريع فى تذوق الجمال أثناء نزهاته بين أحضان الطبيعة ويعود عليه إدراكه ذلك بمقادير إضافية من السعادة .

ويمكن أن تكون الحياة مزعجة ومدهشة فى وقت واحد . ومن أشد ما يستفزه من أضرب هـــذه الحالة الواجب المنزلى ليلة عطلة الأسبوع . ولكنه ينتهى عادة إلى التغلب على مقاومته ، ثم يقبل على العمل بحماسة ويتم النصيب المفروض عليه بسرعة . وهو يحزن أحيانا وخاصة عندما يدخل موت أحد الحيوانات أو أحد الناس فى نطاق خبرته الشخصية . وهو يستجيب أيضا لكتاب محزن .

ولا يزال غير قادر على ضبط غضبه فى الثانية عشرة وإن كان يتجه نحو ذلك الاتجاه . والأغلب أن الذى يهيجه هو أخ صغير أو أخ أكبر قليلا . والآن صارت المهاجمة بالضرب أو المطاردة أو السباب أو القذف بالأشياء أكثر ظهورا من الفرار والانسحاب . ولكن عددا متزايدا منهم يستجيبون بالصمت ، فهم يتمتمون بشىء غير مسموع أو يذهبون لينفردوا بأنفسهم فى مكان آخر وبخاصة غرفهم « للتفكير فى الأمر » . وربما قال ابن ثانية عشرة مخدوع فى نفسه مسفسط : « إنى بدأت أقمع انفعالاتى » — أو قال (وهو الأرجح) : « لم يجن جنونى بالغضب حقا فى المدة الأخيرة » .

وربما بكى ابن الثانية عشرة وخاصة إذا هو غضب أو ألم به الحزن ، ولكنه

على الجملة يحاول أن يحبس دموعه . وربما كان على وشك ذرف الدموع تماما ، بل لقد يترقرق فى عينيه الدمع ، ولكنه يحبسه وكأنما لا يعبأ به أو بالسرور والألم فى كثير من الثبات وضبط النفس . وحتى وهو يقاسى الآلام كإصابته بلسعة من نحلة مثلا ، يثبت فكيه بعزم ويصمم على عدم البكاء . وهو أكثر اتجاها للبكاء بالمنزل منه فى خارجه . وإذا سئل لماذا كان يبكى وهو فى المدرسة فربما أجاب بقوله : « لا تكن سخيفا » .

والثانية عشرة ليست على الجملة سن المخاوف كما هى الحال فى الحادية عشرة ولكن ابن الثانية عشرة لا يحس بارتياح كبير إذا انفرد فى الظلام بالشارع أو بالبيت . فإنه يسمع صريرا وتزييقا بالليل ويخشى من وجود لص مغير . وهو يفكر فى المجرمين والقتلة والرجال الذين يضايقونه فى الشارع . ولئن يسمح معظم أبناء الثانية عشرة بوجود جليس أطفال معهم ليلا ، وذلك لأنهم هم أنفسهم لهم القدرة على مجالسة الأطفال ، ولكن منهم من لا تزال به حاجة إلى وجود شخص بالغ عن كثب .

وأكبر ما يقلق ابن الثانية عشرة هو العمل والامتحانات وبطاقات التقارير المدرسية وعدم الانتقال إلى فرقة أعلى ، ومن واجب المدرسة أن تتساءل لماذا يقلق ابن الثانية عشرة إلى هذه الدرجة الشديدة . فهل كان ذلك لأنه قد بدأ يطالب نفسه بالمزيد أم أن ذلك لأن المدرسة تطالبه بما هو فوق طاقته ؟ .

وابن الثانية عشرة معرض كثيراً لجرح إحساساته ، ولكنه يحاول أن لا يظهر ما به . وربما تجاهل أى تعقيب أو انسحب أو أحمر وجهه أو ضحك ليصرف الأمر كله أو حاول أن يتصور سبب الملحوظة (التعقيب) . وأبناء الثانية عشرة لا ينجحون جميعا فى هذا الأمر وذلك لأن بعضهم يصوبون نحو الخصم ملاحظات تهكمية كقولهم : « إنى مسرور لأنك تعتقد ذلك ! » أو يدفعون الباب بشدة أو يحملون فى أنفسهم ضغنا . ولكن ابن الثانية عشرة يبدو الآن أقدر على اختيار الأوقات التى يريد أن يعرف الناس فيها بما يحس والتى يريد فيها أن يحتفظ بمشاعره لنفسه .

وهو من قوة التسلط على مشاعره

بدرجة تجعله أكثر تنبها لمشاعر الآخرين . وغالبا ما يقال عنه إنه يقرأ انفعالات أمه بوضوح . فهو يلاحظ وجهها ليرى كيف تحس . وابن الثانية عشرة يحترم مشاعر الآخرين كما أنه يحاذر أن يدوس على إحساسات الناس فإن اضطر حاول أن يفعل ذلك بخفة .

ولا يظهر ابن الثانية عشرة محبته لوالديه قدر ما كان يظهرها فى الحادية عشرة . فهو يقصر تعبيره البدنى عن المحبة على التقبيل بوجه خاص ، وهو يستمتع بهذا التقبيل استمتاعا قاطعا . فهو يقبل قبلة الوداع . ويقبل قبلة المساء قبل النوم . ويتحدث ابن الثانية عشرة فى موضوع القبل وما إذا كان من أنصارها أو من خصومها . وليس فى الإمكان ضمان خلو أية حفلة يقيمها أبناء الثانية عشرة من شكل ما من أشكال لعبة التقبيل : — وهو تعبير طبيعى إلى أقصى حد لابن الثانية عشرة .

ولا يحمل ابن الثانية عشرة فى قلبه إلا القليل من الغيرة أو الحسد فى صلته بإخوته . والبنات اللائى يرغبن فى أخذ المواعيد مع الرفاق قد يغرن من أخت تكبرهن لأنها أكثر حظا فى التعرف على الرفاق . وأبناء الثانية عشرة الذين لم يتخلوا بعد عن طرائق الحادية عشرة وأساليبها ربما شعروا بأن والديهم يوجهون إلى أخوتهم اهتماما أكثر مما يوجهونه إليهم . وليس هذا فى معاييرهم عدلا . ويعرف ابن الثانية عشرة أن غيره من الناس ربما كان له ممتلكات أكثر وأفضل مما لديه ، ولكنه يعد نفسه مع ذلك سعيدا ومستعدا لتقبل حظه ونصيبه . وهو يصبح متفلسفا تماما فى أحكامه — : « لكل امرىء نصيب من الشر ونصيب من الخير ، ولذا فإن المسألة متعادلة » . وبدلا من الحسد يستهجن ابن الثانية عشرة بملء قلبه صديقا له يتفاخر (ويفشر) .

ورغبة ابن الثانية عشرة فى الاحتفاظ بالتوازن تجعله أقل حدة فى مناقشته ، الأمر الذى كان يميزه فى الحادية عشرة . وهو يفضل أن يكون متعادلا وعلى قدم المساواة مع أقرانه ، فلا يكون أحسن حالا ولا أسوأ . وهو يريد أن يبذل أقصى مافى وسعه وأن

يستمتع وينعم بأوقاته . وهو يحب أن يفوز ، ولكن لايحب ذلك على طول الخط ، لأنه يريد أن يمنح فرصة للآخرين . فأما المتفوقون فى الألعاب أو الدراسة فهم يحبون متابعة عملهم بالطريقة الخاصة التى تلائم قدراتهم بروح الرغبة فى استمرار الاستمتاع بالنصر .

ووالدو أبناء الثانية عشرة لايستمتعون بهم بوجه عام فقط بل وينعمون بحماستهم الفكاهية بوجه خاص . فإن تعبير ابن الحادية عشرة عن ثورته المحتملة على أحد الوالدين قد يصاغ فى ثوب فكاهى فى سن الثانية عشرة . فبدلا من نقد الأب لزيادة وزنه ، ربما علق ابن الثانية عشرة على ذلك بقوله . « ماهذا الجسم النموذجى !! » .

وابن الثانية عشرة مولع بالكلمات ذات المعانى المزدوجة ، وهو يلوح كأنما يتعقبها بأدنى قدر من الاستفزاز (أو بدون استفزاز) . والمعلمة بحاجة أن تكون مستعدة لهجمات ابن الثانية عشرة الفكهة . ولذا فإنها عندما تقرر منع صبى وبنت من الجلوس متجاورين وتقول إنهما ستفرق بينهما فمن المحقق أن أحد أبناء الثانية عشرة سيجيب قائلا : « لم أكن أعرف أنهما متزوجان » .

ويستمتع ابن الثانية عشرة بالنكات الخارجة عن حدود الآداب المرعية أعظم استمتاع . فإنه لايفهمها وحسب ، بل ويرويها بلذة عظيمة ، ويضحك ضحكا عاليا . ومع أن النكات الدائرة حول قضاء الضرورة ، وخاصة تلك المتصلة بالأمعاء ، لاتزال منتشرة شائعة فى هذه السن ، فإن النكات الجنسية بوجه أخص لاتزال هى الدارجة إلى أقصى حد . ولا يزال فى الإمكان قول هذه النكات أمام مجموعة من الجنسين وهو أمر يشير إلى أن ابن الثانية عشرة لايزال خارج نطاق هذا الطراز من الخبرة ، — وهى خبرة الفاحص المدقق فيما يقول .

٤ — النفس النامية

كان ابن الحادية عشرة يبحث عن ذاته . وقد شرع ابن الثانية عشرة فى العثور عليها . يتحدث عنه والداه ويقولان

انه ذواحتواء ذاتى وكفاية ذاتية واعتماد على النفس ذلك أنهما ــ هما أيضا ، لابد أن يشعرا بهذا الدليل الشاهد على ذات جديدة . أما ابن الثانية عشرة فإنه لايستطيع أن يفهم تماما ذلك التغير الذى حدث فى نفسه ، ولكنه يعرف كل المعرفة أن يحس باختلاف فى حاله ، وأن خبرته عن المناسبات الخاصة كعيد ميلاد المسيح أو عيد ميلاده تبدو كأنما تختلف عما كانت عليه فى العادة .

ثم إن أفعاله تعلن بالفعل أن ثمة تغيرا قد حدث له . فهناك فيما يقول والداه عودة إلى الاستمتاع بالحياة تذكرنا به يوم كان فى السادسة والنصف . وقد أصبح فى الثانية عشرة شخصا مفكرا فكهاً ورفيقاً حسن المعشر وإن كان فى بعض الأوقات سمجاً مغضبا ، وعدا ذلك فربما « امتلأ بالحزن على أحد الموضوعات » . والابتكار لديه يكون فى مستوى عال ، وهو أمر يساعده على وضع الخطط مقدماً ويسمح له بأن يكون أكثر تحكما فى حياته .

وهو الآن أقدر على تحمل المسئولية فى مقدار متزايد من حياته لامن ناحية بيته وعائلته فحسب ، بل وأيضا من حيث العلاقة بالعالم الخارجى .

ونعبر جميع مظاهر السلوك الإيجابى هذه عن مقدرة ذاتية جديدة : تبدو فيها الذات متكاملة نشطة . وربما لم يزل بعض أبناء الثانية عشرة ــ كما كانوا فى الحادية عشرة ــ يعتقدون أن ذاتهم قائمة فى أحد أعضاء جسمهم كأقدامهم مثلا ــ وذلك إن كانوا من محبى تسلق الجبال أو الرقص . ولكن معظم أبناء الثانية عشرة أقرب إلى نسبة ذاتهم إلى جسمهم فى مجموعه وهو ذلك التكوين الحى الذى يقوم بوظائفه . فهم يتحدثون عن ذاتهم بقولهم : « إنها كلها أنا » . أو عساهم يقولون إن ذاتهم فى مخهم ، وذلك لأنها : « تنظم سائر جسدى » أو « تنظم كل شىء » . وهم أحيانا يقسمون الذات بالتساوى بين المخ والقلب « وذلك لأنك لا تستطيع العيش بدونهما كليهما . » أو لعل العقل يشار إليه بوصفه . « مركز كل شىء » .

وابن الثانية عشرة يهتم بما بينه وبين الآخرين من تشابه من حيث كل من

جسمه وخبراته . وربما وجد من العسير عليه أن يجدد موضع نفسه بينهم ، لأنه كما يقول : «كل عضو يماثل ما للآخرين . فليس هناك جزء لك ولك وحدك . وربما انتسب إليك ولكنه مشابه لما للآخرين . » وربما نشأ هذا الشعور بالمماثلة عن تقمصه الوثيق لروح الجماعة التي يلازمها . فهو أقل انفراداً بنفسه ، كما أنه أقل تميزا وتفردا عن الغير . فإن أحد أبناء الثانية عشرة عمل متمسكا بفكرة خاطئة ، هي أنه هو وحده كان يرتكب الأخطاء حتى بدأ يجد أن الخطأ شائع بين أبناء الثانية عشرة الآخرين . وبعض أبناء الثانية عشرة يتألمون ألما شديداً لفقدانهم هذا لحاسة التفرد فإنهم عندما يقومون مثلا بمجالسة الأطفال ويعاملون « كمجالسين لأطفال » ، يتنبهون إلى انعدام تفردهم الشخصي الخاص . ولكن ابن الثانية عشرة لا يحب في نفس الوقت حاسة الشعور بأنه « غريب في بابه أو مضحك » عندما يكون بمفرده . وإلمام هـــذا الشعور به يكون أقرب احتمالا بعد حدوث تغير فجائي ـــ كإطفاء مذياعه واستيقاظه ليلا .

وعلى الجملة ـــ لا يتعمق ابن الثانية عشرة في الأمور ولا يريد تغيير الأشياء تغييرا شديدا . وهو يرضى بقسمته ويحس « أن كل إنسان يكون في خير أحواله في الحالة التي هو عليها . » وربما زاد في الرضاء عن حالته بقوله : « خير لك أن تبقى كما أنت لأن لكل امرىء همومه ومتاعبه » . وهو لا يرغب في أن يتعجل عملية النمو لأنه يحب أن يرى «ما يحدث في ثنايا الطريق الممتد أمامه كما أنه يعتقد أنه « ينبغي للناس أن يعملوا ما يناسب سنهم » . وهو لا يرى أن هناك أي سبب يبرر الرغبة في بلوغ سن أكبر لأنك ستبلغ سناً أكبر على كل حال . فكبر السن سيحتاج لمقدار معين من الوقت . وربما بدا عليه التهيج والترقب لما ينتظر حدوثه في المستقبل القريب ، ولكنه ثابت ثبوتاً طيباً في الحاضر كما يتكشف له من يوم ليوم . لذا يستطيع أن ينتظر حتى ينضج .

وابن الثانية عشرة مدرك تماماً لمواهبه ومزاياه . وهو يبدو قادرا على تعرف تلك المواهب التي تصور عمره أحسن تصوير ـــ : مثل « كونه طيب

القلب » — أو : « كونه صاحب مزاج حسن » — أو : « كونه شفيقا » — أو . « يساير الناس » . وهو بالمثل يعرف عيوبه وأبرزها هو غضبه أو شجاره مع إخواته .

وإذا خيرنا ابن الثانية عشرة بين ثلاث رغبات فربما لم يختر منها اثنتين . فلا يزال بعضهم يرغب فى كلب أو حصان ، وربما رغب فى الانتقال إلى مكان قاص أو الانتقال على الأقل إلى منزل جديد كبير . أو لعله يتمنى فقط لو كانت له غرفة أوسع أو ملعب للجمباز أو حمام للسباحة . وربما كان يفكر فى الأجازات والأسفار . وغالبا ما يتمنى ابن الثانية عشرة — وقد زادت ميوله الفكرية — لو كان فى سنوات دراسية أعلى أو لو كان أرشق مما هو . وليست رغبات ابن الثانية عشرة بقاصرة فقط على شخصه ولكنها فى الكثير الغالب تشمل الآخرين أيضا . وهو يريد أن يساعد عائلته أو يأخذها فى رحلة . والبنات بوجه خاص يرغبن فى نجاح والدهن فى أعماله وتمتعه بالصحة وأنه لن يضطر إلى الكد الشديد فى عمله. فإذا لم تكن له إخوة رغب فى وجود إخوة له . وابن الثانية عشرة لا يبغى السلام فقط فى العالم ، بل يتمنى لو استأصل شأفة الأمراض والمجاعة والحرب .

وابن الثانية عشرة أقل تأكداً من مستقبله . وهو أميل للاقتصار على إمكانية واحدة وربما جمع بين اثنتين معا ، بدلا من تقديم بديلين كما كان الحال فى الحادية عشرة . ولعله يريد أن يربى الخيل ويدربها وهو يسرد بعض الأشياء التى لا يريد عملها . كما أنه يدرك أيضاً أن ما يحب عمله الآن ربما لم يتناسب مع قدرته فيما بعد وربما لم يستمر على رغبته فى عمل نفس الشىء عندما يصبح أكبر سنا . وينم إدراكه هذا عن إمكان حدوث تغيير فى الاختيار عن مرونة ابن الثانية عشرة ومجاله . ولا تزال قلة من أبناء الثانية عشرة متأثرة بحرف والديهم بيد أن لدى معظمهم أفكارا تلقائية خاصة . وقد أصبحت تربية الحيوانات والعناية بها ميولا أقل شأنا مما كان . وفضلا عن الرغبة الشائعة لدى البنات فى أن يصرن مغنيات أو راقصات أو ممرضات أو سكرتيرات فإنهن الآن يملن إلى الكتابة والتأليف

خاصة تأليف كتب الأطفال وتصويرها ولهن أيضا اهتمام بالتدريس . والجنسان جميعا يهتمان بالفن أو التصوير . ويميل الصبيان أن يصبحوا أطباء أو مهندسين معماريين أو علماء فى العلوم البحتة .

وقد صارت لدى ابن الثانيه عشرة فكرة لا بأس بها عن الكلية التى يفضل الذهاب إليها ، وإن لم يفكر كثير منهم مقدما إلى مثل ذلك المدى البعيد . وبعضهم يفكر فى الالتحاق بمدارس خاصة توطئة لإعدادهم النهائى للعمل . والبنات أكثر رغبة من الصبيان فى التعليم (المشترك) .

وقد يفكر بعض الصبيان فى موضوع الزواج بدرجة تجعلهم يرغبون فيه وإن أدركوا أنهم قد يغيرون آراءهم . وقد تفكر قلة منهم أنهم قد يتزوجون من صديقاتهم الحاليات (اللاتى يعرفونهن عن طريق الحديث فقط) ، ولكنهم يعتقدون من الناحية الأخرى أنهم قد يغيرون رأيهم فى الوقت المناسب .

والبنات أكثر اطمئنانا فى الشخوص بأبصارهن نحو الزوجية ، وإن تحيرن فى مسألة الجمع بين العمل والزواج . ومن أهم ما يشغلهن مسألة اتفاقهن فى المشارب مع أزواجهن . ويتجلى ميلهن المألوف للاتزان ولاتخاذ طريق وسط عندما يذكرن الصفات التى يرغبنها فى أزواجهن . فالزوج « لا ينبغى أن يكون سمينا ولا هزيلا » . وربما كان مما يأملن أن « لا يكون فى الذروة من الناحية الفكرية ، ولكن على أن لا يكون أبكم » . ولا تريد بنت الثانية عشرة أن يكون زوجها غنيا ، على أنها أيضا لا تريده فقيرا .

أما من حيث إنجاب الأطفال فالصبيان يرغبون فى الانتظار حتى يبحثوا تلك المسألة عندما يحين الأوان ، ومع ذلك فإن قليلا من البنات فى الثانية عشرة يرغبن فى أطفال كثيرين ، ولكنهن على الجملة يرغبن الآن فى اثنين أو ثلاثة أو أربعة مع وجود الجنسين فيهم .

٥ ـــ العلاقات بالناس

من العسير ملاحظة وإدراك التغير المستتر الذى يحدث فى الثانية عشرة بيد أن جو تلك السن قد ألمت به تنقية

لا شك فيها، وليس ذلك أن ابن الثانية عشرة تغير تغيرا كاملا ، ولكن الأمر هو كما تقول أمه : « لقد اعتراه الاكتئاب العقلى » وربما أصبح ابن الثانية عشرة متنبها أولا إلى حدوث تغيير فى علاقته بوالديه . ذلك أنه يدرك أنه أحسن فى علاقاته مع والديه ، وأنه أقل جدلا . ونسبت إحدى بنات الثانية عشرة ذلك إلى أن : « أبى أصبح أقل شدة فإنه تغير بالتدريج » ثم فكرت ثانية وقالت : « أعتقد أنى أنا التى تغيرت » .

على أن تحسن ابن الثانية عشرة إنما يحدث حقا ، لأنه يرى نفسه كما يرى الآخرين فى ضوء جديد ، فهو الآن كشخص أكثر استمتاعاً بحقوقه وهو الآن عضو أكثر انسجاما فى أسرته مما كان . ويمكنه أن يكون مع عائلته أو بعيدا عنها . وهو يميز ما يحدث فى سلوكه هو من تغير إلى أسوأ عندما يكون متعبا . كما أنه يعرف أن الوقت ليس مناسبا للاصطدام مع أخيه الأصغر قبل أخذ الأخ اغفاءته أو قبل العشاء حين يكون متعبا .

والحياة أسلس وألين وهو الآن أسرع إلى المبادأة إلى حد ما . ولكن معظم ما يقوم به من الروتينات اليومية يستثيرها أفكار لاحقه ، أى يستثيرها ضغط الطلب من والديه وليس التبصر فى العواقب . ومع ذلك يندر أن يغضب مع والديه عندما يطالبانه بالطلبات ، كما أنه أقل ميلا للرد عليهما بالجدال . وهو يعرف مقدما أنه سوف يؤدى العمل فى نهاية الأمر ، ولكنه لا يزال بحاجة إلى تلك الدفعة القوية التى تجعله يبدأ العمل وهو يعرف أنه سينظف غرفته ويرتبها بعد محاضرة طويلة ؛ وأنه سوف « يحس فظاعته » بدرجة كافية تحمله على العمل بعد تلقيه النقد من والديه . وابن الثانية عشرة يتأثر بالنقد تأثراً قويا ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون ذلك التأثر بدرجة كافية لمواصلته تكرار العمل فيما بعد بدافع من نفسه .

وإنه ليتقبل كثيرا من نقد والديه (وهو أقل منه فى الحادية عشرة) قبولا دون تعمق . وهو يعرف أن والديه يظنان أنه كسول . وأنه ينبغى له أن يعنى بغرفته عناية أحسن ، وأن آدابه على المائدة ينبغى أن تكون أحسن . بيد أنه يكون فى هذه السن قد أقام بينه وبين والديه زمالة تجعل

المعارك الـكبرى التى تنشب بينهما قليلة العدد . فالصبي « وقح بطريقة مؤدبة » نحو أبيه . والبنت تحول توبيخا من أمها لها إلى ضحك بواسطة « استقبالها السلبى لذلك التوبيخ ؛ لا بعدم الاهتمام به بل بمجرد نوع من المسرة والمرح »

ويطالب ابن الثانية عشرة والديه بأقل مما كان يطالبهما به . وانه ليتمنى فى بعض الأحيان أن يتلقى منهما قدراً أكبر من التقدير أو الاستحسان ، ولـكن عمله معهما أقل منه قبلا . وربما شكا من كثرة مشاغل أبيه وأنه لا يخصه إلا بقدر قليل من وقته ، ولـكن الواقع أن حاجة ابن الثانية عشرة إلى أبيه أقل وقد تبدى بعض البنات أحيانا شيئا من المغازلة لآبائهن ، وكثيرا ما يقال عنهن أنهن قادرات على سوس الأب خيرا من أي عضو آخر من أفراد العائلة . وهذه سن تـكوّن فيها البنات أكثر تنبها من الصبيان إلى العـلاقة بين الجنسين . وربما كان هذا هو السر فى نقدهن أمهاتهن لأنهن لا يصبغن شفاههن بأحمر الشفاه وهو الشىء الذى يتمنين لو عملنه أنفسهن .

وهنا يبدأ الهدوء فى الشجار مع الإخوة الصغار المقاربين لهم فى السن (وهم أولئـك الذين يتراوحون بين السادسة والحادية عشرة) ويبلغنا ابن الثانية عشرة أنه ربما حدث له بين الفينة والفينة « فترات توقف » عن الشجار أو أنه أحسن حالا معهم الآن . ويعرف ابن الثانية عشرة أن هذا هو المجال الأكبر الذى يتمنى فيه والداه لو انصلح حاله . وربما تمنى أيضا لو تحسن حال والديه بعدم إفسادهم للاخوة الصغار قدر ما يفعلون حاليا . ذلك أن هؤلاء الإخوة الصغار يضايقونه فعـلا . فهم يتدخلون فى شئونه كما أنهم يجنحون لمعاكسته . ومع ذلك فهو ليس سهل التـأثر بالإيذاء كما كان فى الحـادية عشرة ، كما أنه أقل تعرضا للانفجار عندما يعاكسه أحدهم حول حبه لفرد معين من الجنس الآخر .

أما الإخوة الذين فى سن ما قبـل المدرسة ، فإنه يسايرهم بالفعل مسايرة حسنة . والظاهر أنه يعرف كيف يلعب فى مستواهم كما أنه كثيرا ما يكون مفرط الـكلف بهم .

وابن الثانية عشرة عرضة أن يعجب

أو حق بهيم حبا بأخت أو أخ يكبره . على أنه ربما تشاجر مع ذلك مع أولئك الذين فى الثالثة عشرة ، بيد أن علاقته مع أولئك الذين هم فى الخامسة عشرة وما فوقها ليست فقط أكثر حيادا بل كثيراً ما تكون إيجابية جدا . وربما وثق ابن الثانية عشرة فى أخ أكبر يعطف عليه وأسر إليه بنجواه بدلا من والديه . وما أحسن حظ ابن الثانية عشرة الذى يتاح له مثل ذلك الأخ العطوف ، إذ أن افتراقه وتحرره من روابطه العائلية يمكن عندئذ أن يكون أساسا ألين وأكثر تدرجاً .

ويتنقل ابن الثانية عشرة بسهولة وحرية بين لداته وأقرانه . وقلما يظهر أنه يعز عليه أن يجد الأصدقاء عندما يريدهم . ولعله يتنقل ويدور بين عدد منهم يتراوح بين الثمانية إلى الأثنى عشر صديقا « ينطلق مع أحدهم أولا ثم مع آخر . » والبنات بوجه خاص يسرن فى أزواج . وفى الإمكان الحصول على الأصدقاء من أبناء الجيرة القريبين السهلى المنال ، ولكن أصدقاء المدرسة يتيحون الفرصة لتوسيع دائرة الاختيار والدقة فيه . وابن الثانية عشرة يحسن الملاحظة لأصدقائه إلى حد ما : يعرف أيهم لايزال يواصل الشجار . وأيهم لايبدو عليه أنه مشوق ، لأنه لايزال « طيبا أكثر مما ينبغى » ، وأيهم أبله سخيف . وقد راحت إحدى بنات الثانية عشرة تدور وتتقلب غدواً ورواحا بين من كانت تسميهن « بالبنات اللطيفات والبنات السمجات الفظيعات ، أى اللائى يتحدثن عن الملابس » . وكانت تعرف أنها تريد أن تلعب مع « البنات الفظيعات » كلما دهنت فمها بأحمر الشفاه . وهذه الحركة من التردد بين الغدو والرواح طبيعية لسن الثانية عشرة . فإنه يتبادل الزيارات غدواً ورواحا مع أصدقائه ، فيقضى ليلة أولا ببيت صديقه ، ثم يجعل الصديق يزوره ببيته .

وربما تكونت مجموعات أكبر حجما للقيام بنواحى النشاط الرياضى أو ارتياد السينما ، بيد أن ابن الثانيه عشرة يحب على الجملة مجموعة صغيرة من الخلطاء ، فالأندية القليلة التلقائية وغير الرسمية التى يطول أجلها ربما كان عقدها على وشك الانفراط .

ويرى الكثيرون أن الثانية عشرة

سن يتبادل فيها الصبيان مع البنات قدراً جسيما من الاهتمام والنشاط . وبعض الصبيان الذين لم يكن لهم فى الحادية عشرة اهتمام بالبنات والذين لن يكون لهم اهتمام آخر بهن فى سن الثالثة عشرة يستمتعون فى الثانية عشرة بفترة قصيرة من الاهتمام الحقيق بالبنات وتصيبهم خيبة الأمل إذا لم يدعوهم والدوهم لحضور جماعات الرقص المعتادة . ويعترف كل جنس باهتمامه بالجنس الآخر . ويقول أحدثهم اهتماماً من أفراد الجنس المقابل أنهم لا بأس بهم أو « O.K. » . بيد أن هناك من هم أصرح فى القول ويتحدثون عنهم بأنهم «ظرفاء جدا » . وهناك قلة ذات ميول أكثر تقدما قد دخلت من قبل دائرة هذا الاهتمام وخرجت منها . والأمر كما قال أحد الصبيان : « لقد طال أمد اختلاطى بالبنات لذا فإنى تركتهن وخرجت من زمرتهن » ولكنه مع كثيرين آخرين سيظل يخرج ويعود موليا فى البداية قدراً كبيرا من التفاته للبنات ، ثم مديراً لهن ظهره فى غير اهتمام بهن أو منشغلا عنهن جدا .

ومن الأمور المعروفة الشائعة عادة بين أفراد إحدى الجماعات أن الصبى كذا يحب البنت فلانة أو العكس ، ولكن البنات لا يتوقعن من صبى أن يتقدم إليهن ويقول لهن إنه يحبهن . وقد يكون تجاذب أطراف الحديث بالمدرسة أقصى مدى للصداقة بين الطرفين ، وقد يكون ذلك المدى هو الرقص معا بمدرسة الرقص وربما بلغ الأمر مع أقلية منهم أن يذهبوا إلى السينما معا ، أو يتبادلون المراسلات إن كانت بين مسكنيهما مسافة .

ويظهر البنين والبنات زيادة ملحوظة فى تحويل مركز اهتمامهم من صديق إلى آخر . وقد يحصل أحد الصبيان على بنت لكى يتساوى مع غيره من الصبيان وربما تخلى عنها بنفس سرعة حصوله عليها . فليس منهم من يريد أن يستقر على صديق واحد من الجنس الآخر . وربما كانت البنات هن الأكثر حديثا فيما بينهن عن الجنس الآخر . وربما استمتعن بالحديث عن الصبيان قدر استمتاعهن بأى شىء يفعلنه فعلا مع الصبيان . وربما كن « يفتشن حولهن باحثات » — أو « يفتحن عيونهن دائما » ، ومع ذلك يرين أنه لا بأس

من الانتظار حتى يجيء الصبيان إليهن . فإن ثالوثا من البنات صرح قائلا : « إن أرادونا أمكنهم الحصول علينا » .

ويمكن أن تكون الحفلات مصدر مرح وجذل ، ولكنها إن لم يحكم وضع خطتها ، والإشراف الدقيق عليها كانت العواقب فى الغالب وخيمة مع الأسف الشديد . فكثيرا ما تغادر البنات الحفلات حزينات كسيرات يائسات ، لأن الصبيان لم يختاروهن للرقص معهم، وفى إمكان الصبيان القضاء على الحفلة بقذفهم كل ماتصل إليه أيديهم من طعام أو شراب وكسرهم الأكواب أو الزجاجات .

فاذا لم يكن والدا ابن الثانية عشرة قادرين على رسم خطة الحفلة معه ، والمشاركة فى الألعاب والمرح ، والسيطرة على الموقف بالضبط إذا احتاج الأمر ، كان من الخير عدم إقامة الحفلة . والثانية عشرة كالسادسة من حيث أنها عمر تكون فيه الحفلة التى يدعى إليها الجنسان مرغوبة بشدة . وينبغى أن تقام الحفلة ليلا . ويكون الإشراف أسهل ما يمكن لو طبق عليهم منذ البداية ، وأى وسيلة للاشراف أضمن وأحسن أثراً من نفس ميول الطفل واهتماماته حين تستثار ذهنيا ؟ وربما جاز تثبيت اسم شخص شهير على ظهر كل ضيف عند وصوله ، وتكليفه بأن يخمن شخصيته من الطريقة التى يعامله بها الآخرون . فعندئذ يسود المكان مراح عظيم .

وبطبيعة الحال لا بد أن يكون هناك لعبة ما كلعبة « الاستغماية فى الظلام » ، التى تبدو ضرورية لتلهف ابن الثانية عشرة إلى الاحتكاك الشديد العارض والتهييج بالجنس الآخر . وليس من الضرورى أن تنتهى على صورة لعبة التقبيل ، ولكنها تحوى كل ما يمكن وجوده فى لعبة التقبيل من تهييج . وربما عقبها نوع أهدأ من اللعب ، كالتعبير بالتمثيل عن الصيحات وهتافات الاحتشاد أو الجمل البسيطة . وينبغى أن تقدم المرطبات المصنوعة من عصير الفواكه الطازجة مع كومة من البسكوت المصنوع منزليا — تقدم فى تلك اللحظة السحرية التى يكون الطعام وحده وسيلة إشباع النداء الباطنى للثانية عشرة .

وربما ختمت مثل تلك الحفلة بذلك اللعب المشبع دائما أبداً لغلة الأنفس لعب

البالونات — التى تنفخ وتضرب باليد هنا وهناك ، وربما اتسع الوقت فى مدى ساعتين للقيام برقصة رباعية أو (رقصة فرجينيا) . وليس فى الإمكان ترك لحظة واحدة بغير رعاية ؛ وينبغى أن يكون الوالدان قريبين جدا ، حتى وإن لم يكونا فى الحجرة نفسها . (ومهما يبدو ذلك مجهدا للوالدين ، فإن وقاية الأثاث من عوامل الدمار والتفتيت والمحافظة على إحساسات ابن الثانية عشرة وأمزجة الوالدين تجعل الأمر يستحق التعب المبذول) . ويمكن الوصول إلى ختام القصة بصورة ما أسعد ما يكون لو أمكن توصيل الأطفال إلى منازلهم دون حدوث ما قد ينجم عن انتظارهم لطلب والديهم من مشاكل .

٦ — الميول وأوجه النشاط

قد فقد ابن الثانية عشرة شيئا من روح الأصرار التى كانت له فى الحادية عشرة يوم كان مقتنعا أنه لا بد أن « يحصل على هذا » — أو « يذهب إلى ذاك » فورا ، فهو الآن يريد أن يكون جزءاً من الجماعة يعمل معها ، كما أن الجماعة تتحكم فيه تحكما قويا ، بيد أنه يستطيع أيضا أن يستمتع بنفسه منفردا . وهو وإن أحب أنواع النشاط المنظمة ، إلا أنه يسارع إلى الانضمام لزمرة الفوضى « والعبث هنا وهناك » . وهو لا يكتفى « بالعبث هنا وهناك » فحسب ، بل « ويتسكع هنا وهناك » أيضاً ، فهو « يجلس هنا وهناك » أو يتمشى هنا وهناك . » وهو يحب أن يدع أمور الحياة تجرى فى أعنتها فى بعض الأحيان ، ويحب أن يسير مع تيارها وإن انتهت به إحدى الخبرات إلى نهاية غير مرضية إلى حد ما . فإن ذلك لا يضايقه .

ولا يقع ابن الثانية عشرة فى منازعات مع الآخرين كما كان يفعل فى الحادية عشرة ، يوم كان يريد تنفيذ إرادته ، وأن تتم الأمور حسب ما يمليه عليهم . بل هو الآن على العكس من ذلك يرغب أن يسمع ماذا يراه الزميل الآخر . أو كل ما يريده أن يستمتع بالحياة . وهو يحب ~~التوزيع~~ التنويع والتغيير . وهو ليس بالرجل الذى يكرر ، وهو يحدثك عن « النظام القديم المخل الخاص بفعل الشىء نفسه مرة بعد أخرى » . وهو « يسأم » ~~من~~ سماع نفس أغنية الجاز

أو اسطوانة زنوج الجنوب تدار مرة فى إثر أخرى على يد أخته التى فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة .

ولكن ابن الثانية عشرة لا يسأم حقا فى الغالب ، إذ ليس لديه الوقت اللازم للقيام بكل ما يريد عمله . وإذا هو قال : « عندما يكون لدى وقت » دل بصورة ضمنية على أن ما لديه من فائض الزمن قليل . ومن النشاط الذى يستمتع به طراز معين من بنات الثانية عشرة الشديدات الميل للاعتزال عندما يخلون من العمل ، التجوال فى الغابات . وهن يحببن أن تبحثن عن المخابىء الدقيقة التى قد تكون الأزهار متوارية فيها عن الأنظار أو أن تفتشن على وجارات الحيوانات .

بيد أن الصبيان والبنات يمكن الآن تقسيمهم بسهولة أكثر إلى جماعتى الرياضيين وغير الرياضيين . واللعبة الوحيدة التى تصح مع جميع أبناء الثانية عشرة هى السباحة .. ولعل ضخامة وزنهم خير معين على الطفو وسهولة العوم . فهم لا يعومون فى الصيف فقط ، بل ويؤثرون أيضا الاشتراك فى تدريبات العوم الشتوية فى أحواض السباحة الموجودة داخل المبانى . وهم يحلمون بامتلاك حوض للسباحة خاص بهم . وذلك كما أبلغت إحدى الأمهات : « لا يبدو أن هناك ماء يكون شديد البرودة عليه » . وليس هناك والحق يقال موضع للعبث « هنا وهناك » خير من الماء . بيد أن ابن الثانية عشرة يحب أن يتلقى التعليمات وينفق وقتا وجهدا كبيرا فى محاولته تحسين ضرباته فى السباحة عندما يطلب إليه ذلك .

وأبناء الثانية عشرة الأكثر ميلا للرياضة يستمتعون بالرياضة فى موسمها . فالآن أضيفت مواسم كرة السلة والهوكى إلى موسمى كرة القاعدة وكرة القدم . أما التنس ـ وهو لعبة فردية أكثر ـ فسيستمتع به ابناء الثانية عشرة جميعا حتى الرياضيين بدرجة أقل . ويشترك الجنسان جميعا فى لعبة الانزلاق بقبقاب العجل ونط الحبل (وهى تلعب الآن بحبلين) . فهما لا تزالان مقبولتين من الناحية الاجتماعية . وهناك ألعاب رياضية أخرى كقيادة الزوارق الشراعية والجولف والبشيش قد أخذت تدخل فى عداد الميول الرياضية لذلك الداخل

فى العقد الثانى . ويظل ركوب الخيل أحد الميول ، وخاصة لدى مجموعة من البنات المولعات بركوب الخيل .

والرياضة قد تكون موضع اهتمام يبلغ من قوته لدى بعض الصبيان أن لا يتبقى لديهم إلا قليل من الوقت يقضونه داخل البيت . أما الصبيان الأقل ميلا للرياضة فهم يقضون بالمنزل زمنا أطول مشغولين تماما بصنع الأشياء. وتشمل منتجاتهم عربات صغيرة مصنوعة من الصفيح والخشب (والغالب أنها من تصميمهم هم) ، ونماذج طائرات وسيارات بل حتى قطارات وصورا فوتوغرافية أخذوها بأنفسهم ، وراديوهات وكلابا صغيرة وسجاجيد معلقة وتلافيح مشغولة بالحبك [التريكوه] . والبنات يستمتعن بنواحى النشاط الثلاث الأخيرة بالإضافة إلى الخياطة . وقد يجد الجنسان شيئا من الصعوبة فى إكمال تلك المنتجات ، ولكن إذا تلقى ابن الثانية عشرة قليلا من مساعدة الوالدين وتشجيعهم وحثهم فالعادة أنه يصل بالأمر إلى خاتمة حسنة

وللصبيان والبنات جميعا مجال واسع من الميول . فبعضهم يواصل تجميع كل أنواع الأشياء ، ولكن القول عن هذا الدافع أنه ليس « مسرفا فى هذه الفترة » وهناك هواية جديدة حبيبة هى جمع تذاكر البريد ، ولا سيما تلك التى تصور بلادا كثيرة ومختلفة . ويقضى ابن الثانية عشرة قدرا كبيرا من الزمن فى النظر إلى مجموعته من تذاكر البريد وفى الحديث عنها مع أصدقائه . وثمة ناحية من النشاط أخرى تؤثرها طائفة منتقاة ممتازة هى جمع نسخ من أشهر الصور . وفى الامكان أن يكون الرسم والتصوير نشاطاً ممتازاً فى هذه السن . كما أن بعضهم يجربون قدرتهم على الكتابة المبتكرة . والبنات أميل لكتابة القصص الطويلة فى حين أن الصبيان أكثر اهتماما بكتابة التقارير الوصفية (الريبورتاجات) بأسلوب صحفى . وهذه هى السن الذى تكون فيها كتابة الخطابات أقل كلفة على الأنفس ، كما يقوى فيها اهتمام الطفل بأن يكون له زميل يراسله من بلاد أجنبية . وما أكثر وشائج الصداقة التى تزدهر عن طريق هذا التبادل الرائع الغادى ، وإن كانت كالزهر لا تدوم إلا أمداً وجيزاً .

ويستمتع ابن الثانية عشرة بأحد أشكال التنظيم سواء أكان ذلك عن طريق مبادأته هو وجهده أو عن طريق أولئك الذين يهيمنون على أنواع نشاطه أو يستثيرونها . ولعل هذا هو مرد النجاح الشديد الذى يحرزه المخيم الصيفى لدى أبناء الثانية عشرة . ولعل قلة التنظيم فى بعض فرق الكشافة هى أيضا السبب فى أن عددا جما من ابناء الثانية عشرة ينفصلون عنها شاكين فى الغالب من أنهم « لا يفعلون شيئا » فى الكشافة . ويحدث بالمثل أن الأندية التلقائية المكونة من جنس واحد غالبا ما تنحل فى الثانية عشرة . إذ لا يبدو أن بها القدر الكافى من الروابط التى توحد العلاقة بينها .

وتتجلى أحسن تنظيمات ابن الثانية عشرة عن طريق مشروع (لفرد واحد أو لاثنين) يكون الحافز فيه قويا شديدا ولاسيما كسب النقود . كأن يقدم أحد الصبيان القهوة والخبز لعمال إحدى البنايات المجاورة . وربما صنع آخر دبابيس من البلاستيك للبيع . ويمكن أن يمول مشروع مشروعا آخر كما يمول الأخير مشروعا غيره كذلك على طريقة رجال الأعمال الحقة . وربما زودته نقود الدبابيس بالنقد اللازم لشراء جرافة ، وقد يزوده هذا بدوره بالمال اللازم لتحقيق الرغبة النهائية : معمل للراديو والتليفزيون .

وثمة مشروع آخر كثيرا ما يظهر عند ابناء الثانية عشرة هو إصدار نشرة أخبار محلية أسبوعية. والبنات يصدرن هذه عادة باليد ، ولكن الصبيان أميل لاستخدام ماكينة طباعة يدوية. والربط بين رغبتهم فى القيام بشىء من الكتابة الابتكارية أو كتابة التقرير الوصفى (الريبورتاج) وبين العمل أيضا على ماكينة الطباعة هو ترابط مثالى . والغالب أن يستهل العمل فى هذه النشرات الإخبارية بحماسة عظيمة ويخطط للعمل لفترة طويلة مستقبلة — بل ومع شىء من جمع الاشتراكات . وترقم صفحات كل عدد بعناية تبعاً لحجمه وعدده ، ولكن الأعداد التى تصل إلى السوق المحلى نادرة جدا .

المناشط المستقرة كالمشاهدة والاستماع

لم يعد الراديو والتلفزيون يستأثران بلب ابن الثانية عشرة كما كانا يفعلان آنفا . أجل إن لبعض أبناء الثانية عشرة برامج يميلون إليها ولكنهم لا يلتزمون الاستماع إليها أو مشاهدتها كل يوم، وكثيرا ما يحددون مشاهداتهم على الأوقات المناسبة، وروايات الأسرار والخفايا هي أحب البرامج إليهم وهي لا تخيف المستمع كما كانت تفعل عادة . وهذا هو فيما يحتمل السبب في أن ابن الثانية عشرة يستطيع مشاهدتها أو التجاوز عنها . ومع أنه قد يحب الاستماع إلى المغامرات في الراديو أو التليفزيون وهو يقوم بعمل واجبه المدرسي (وهو شيء يؤديه في الغالب بطريقة ناجحة تماما) ، إلا أن ابن الثانية عشرة إنسان ينقاد لحكم العقل ويتقبل أن يقتصر على الاصغاء إلى الموسيقى الخافتة (الخافتة الصوت) وحدها . ويفضل بعضهم الموسيقى الكلاسيكية ، كما يفضل آخرون موسيقى الجاز . بيد أن نسبة كبيرة من ابناء الثانية عشرة تسوى بينهما في اختيارها . وكثيرا ما يترك ابن الثانية عشرة مذياعه مفتوحا بعد أن يأوى إلى الفراش . وربما لا يفعل ذلك من أجل البرنامج الخاص المرغوب قدر ما يفعله طلبا للائتناس . وذلك لأنه وإن كان أقل تعرضا للخوف من جرائم القتل الخفية التي يستمع إليها في الراديو ، فإنه معرض بالأكثر للخوف من الأصوات التي لا يجد لها تفسيرا والتي يسمعها من حوله .

وزمن القراءة أقل بل ربما كان الدافع للقراءة أضعف الآن أيضاً . فأبناء الثانية عشرة لا يجدون وقتا لقراءة أكثر من كتاب أو اثنين أسبوعيا . وقد أخذ كل من الصبي والبنت يدخل في دائرة ميول البالغين وربما واظب على استخدام المكتبة بانتظام . وقل منهم من تنبه إلى مؤلف الكتاب وربما رغب في قراءة كتب أخرى لنفس المؤلف . وروايات الخفايا تقع في القمة بوصفها الطراز المحبوب من الكتب لدى كل من الصبيان والبنات ، كما أن كتب المغامرة تتلوها تماما في المنزلة . وغالبا ما يرى ابن الثانية عشرة في الإلياذة قصة مغامرة

خائنة . ولا تزال قراءة الكتب الهزلية مستمره ، وإن كانت لم تعد بعد موضع الاهتمام الشديد الذى يستدعى معاودة قراءتها وا كتنازها. وابن الثانية عشرة أقل ميلا لإنفاق نقوده هو فى شراء الكتب الهزلية ، ولكنه سيقرؤها إن وقعت فى يده .

وقد أصبحت السينما الآن مثلها مثل سائر ما لابن الثانية عشرة من نواحى نشاط تشغل منزلة لا بأس بها نسبياً فى مجال نشاطه. والحق أن فرضه لاشتراطات يرى وجوب توفرها فى أحد الأفلام قبل أن ينوى مشاهدته كفرضه لاشتراطات محتمة فى معلمته . فهو يريد أولا أن يعرف كل شىء عن الفيلم : ما هو ومن الذى يعمل فيه . وهو يريد أيضاً أن يعلم ما إذا كان قد أخرج إخراجاً جيداً وما إذا كان قد مثل تمثيلا جيدا . فإذا لم ينجح الفيلم فى رأيه . وإذا لم يسمع عنه « أحاديث طيبة » لم يهتم بمشاهدته . ومعظم ابناء الثانية عشرة لا يذهبون إلا بين فينة وأخرى عندما ينجح الفيلم فى اختباراتهم ويتضح أنه «فيلم جيد» ، بيد أن بعضهم الآخر ربما ذهب مع ذلك مرة فى الأسبوع أو مرة كل أسبوعين . ويذهب ابن الثانية عشره عادة مع صديق من جنسه نفسه، أو مع أمه ولكن ذلك أقل حدوثا . وهناك قلة من الصبيان يذهبون بمفردهم إن اهتموا برؤية الفيلم مرة ثانية أو أكثر أو رغبوا فى مشاهدة ممثلة محبوبة . وإذا كان لابن الثانية عشرة ممثلة محبوبة أو ممثل يفضله ، فربما كان ذلك مما يحدد بعض الشىء سبب اختياره مشاهدة أفلام معينة

٧ ــ الحياة المدرسية

لئن كانت لابن الثانية عشرة ميزة واحدة بارزة فهى التحمس . فإن التحمس يمكن أن يكون من القوة فى هذه السن بحيث يجرف الطفل جرفاً . ذلك أن الطفل يكون فى واقع الأمر من الاندفاع بحيث يوقع على الأرض كل من كان فى طريقه . وحماسة الثانية عشرة هذه نفسها ربما ألهبت بسياطها إحدى المجموعات حتى يرتفع صوتها الدرجة صاخبة من المناقشة الحامية بحيث قد تضطر المعلمة إلى التدخل لتهدئتهم .

والجماعة هامة حقا لدى ابن الثانيه عشرة . فان ميزاته الشخصية يمكن أن

تضيع داخل الجماعة . أما التراوح بين النقائض المتطرفة ، من انجذاب الفرد أولا نحو الآخرين ، ثم صدهم إياه بنفس القوة — وهى أمور شائعة جدا فى الحادية عشرة — فقد أصبحت أقل ظهورا فى الثانية عشرة . وللبنات بوجه خاص طريقة للتجمع معا . وكم يدردشن معا عند كل فرصة يستطعن انتهازها .

ويحب ابن الثانية عشرة أن يصل إلى المدرسة قبل الموعد بقليل . وليس من العسير جدا عليه أن يستعد للذهاب إلى المدرسة فى الصباح كما كان الحال فى الحادية عشرة . وإذا كان لديه عمل منزلى فلعله قد أنهاه عندما استيقظ فى الصباح . كما أنه بصرف النظر عن مطاليب الواجب المنزلى يحب أن يصل إلى المدرسة مبكرا لإتمام الواجبات المتأخرة عليه من أمسه . وربما كانت الحالة الثانية أصدق على الصبيان منها على البنات . ولكن مسايرة نواحى النشاط الاجتماعى التى يمارسها الآخرون أهم كثيرا لدى البنات . وانهن ليجتمعن بعد عطلة الأسبوع بوجه خاص ويدردشن ، ويخبرن بعضهن بعضا عن الرقص والحفلات ؛ أو يتحدثن عن رياضة الانزلاق بالقبقاب أو ركوب الخيل ؛ أو عما اشترينه فى جولة بين المتاجر ؛ أو يخضن فى موضوع الصبيان الذى هو مسألة شائقة دائما أبدا .

ولا يعتمد ابن الثانية عشرة على معلمته قدر ما كان يعتمد عليها وهو فى الحادية عشرة . ولا يتكتل أبناء الثانية عشرة حول المعلمة على نحو ما كانوا يفعلون آنفاً ، ولكنهم يدخلون المعلمة فى مناقشاتهم أو نواحى نشاطهم إن شاءت أن تدخل معهم .

وينبغى أن يكون هناك تيار فياض يتنقل ذهابا وجيئة بين المعلمة والتلميذ . ويميل ابن الثانية عشرة إلى أن يحب معلمته . وغالبا ما يقول عنها إنها « مدهشة » . وهو لا يزال يحب المعلمة التى تروى النكات والتى تفهمه . ولكنه يريد أكثر من أى شىء آخر — معلمة تستطيع أن تعلم .

هو يريد منها أن « تعرف عملها بصورة أحسن » — « وأن لا تعلم أكثر ممـا تعرف » . وهو يعتقد أنها « ينبغى لها أن تعرف ما هى متحدثة عنه » . وأنها « إذا كانت تعرف معلومات عن كل شيء أمكنك أن توجه إليها الأسئلة » . وعندئذ تكون حقا « أدهش معلمة فى الدنيا » .

ويمكن أن تتحدى المعلمة أبناء الثانية عشرة . وهم مستعدون لكبح جماحهم ، وأن يطالبوا بالطلبات . فإذا لم يكن المعلم متأكدا تماما من نفسه ، أو كان « لينا » — أو كان غير ماهر تماما فى ضبط النظام لعب به أبناء الثانية عشرة الكرة ، فهم يقذفون عندئذ كرات الورق الممضوغ ويسعلون جماعة فى وقت قد حددوه مقدما . وما يكاد المعلم يغادر الغرفة حتى يروون النكات الغليظة الجريئة ويضحكون ضحكا صاخبا . ولكنهم لا يفعلون ذلك إلا مع المعلمين الذين لا يقبضون على ناصية الموقف بيد حازمة متحدية . فإنهم ما كانوا ليفكروا فى التصرف على هذه الشاكلة مع معلم يعدونه « مدهشا » .

فإذا أفلت زمام فصل من فصول الفرقة السابعة ، كان من الحكمة الشك فى مقدرة المعلم على سوس أبناء الثانية عشرة .

وفى الفصل — لا تزال البنات ميالات إلى التجمع مع البنات ، والصبيان مع الصبيان وبخاصة فى الجزء الأول من العام الدراسى . ويكون كل طالب أكثر استقلالا وأكثر استعدادا لاتباع النظام مما كان فى الحادية عشرة . بيد أنه بحاجة أن يسمح له بالتنقل فى الفصل وبالنهوض للحصول على الكتب أو برى قلمه أو للحصول على ورقة . وهو يكتفى فى بعض الأحيان بالوقوف بجوار درجه لتخفيف ما به من تعب . فلو سمح له بقدر معين من الحرية ، لقل تلويه فى مقعده ، ولقل كلامه مع جاره . وفى الإمكان أيضا تخفيض تبادل الرسائل إلى أدنى حد ، لأن الحاجة إليها قد تنقص وتستهلك بالسماح بقدر

أكبر من حرية الحركة . وربما أمكن نسبة زيادة عدم الاستقرار التى قد تحدث فى الحادية عشرة أو الحادية عشرة والنصف صباحا إلى الجوع وأمكن أيضا تخفيفها بتناول وجبة خفيفة .

ويظهر الثانى عشر فى عمله المدرسى أنواعا من الميول كثيرة التنوع (وإن كان لا يبرح يفضل الألعاب) . والحساب فى الغالب أحد مواده المحبوبة، فإنه يحب ما يتصف به الحساب من تحديد ، كما أنه يستمتع بالكسور العشرية بوجه خاص . وهو يحب التمرين عليه ويستمتع بالسهولة التى يحل بها الحساب دون أدنى تفكير تقريبا . فإذا قرر له على السبورة أداء واجب معلوم ، فالغالب أنه يؤثر حل ذلك الواجب أولا . وإذا كان مشغولا بما قرر عليه من عمل فى الحساب ولم يتمه فى الأربعين دقيقة المعتادة ، لأحب أن يواصل العمل حتى ينتهى منه ، إذ يضايقه أن يضطر إلى التوقف وبنفسه إحساس بعدم الكمال .

ولا يحب ابن الثانية عشرة أن يرتبط بجدول أعمال شديد الصلابة . بل يجب أن يسمح له بقدر من الزمن ذى طول متعارف عليه إلى حد ما ، ولكن فى الإمكان مده حتى يستطيع إتمام العمل . وقد يحدث أحيانا عندما يكون ناشط الاهتمام أن يرغب فى مواصلة العمل مدة أطول كثيرا من المعتاد . وتجرفه أمامها بوجه خاص موضوعات معينة من الدراسات الاجتماعية . ومن الأمثلة الجيدة على ذلك ، الموضوعات المتصلة بالأرمادا الأسبانية ، وفرنسيس دريك ، وسرقة الذهب والفضة من السفن . فإن هذا النوع من أقاصيص المغامرة والخروج على القانون ، ربما بعثه على إقامة المناظرات ، وهى من أنواع النشاط المحبوبة لدى ابن الثانية عشرة .

وإليكم موضوعا مناسباً . هل كان السير فرنسيس دريك محقا فى استيقاف هذه السفن وانتزاع حمولتها منها ؟ وربما ازدادت حماسته بسرعة عظيمة بحيث يكون مستعدا للمناظرة فيها قبل أن يؤسس قضيته ويكونها فى عقله ، وهو أكثر اهتماما بمسألة تنفيذ

أفكاره فورا منه بطريقة معالجتك لها. وتتزايد حماسته بسرعة تضطرك أن تلزم الحذر خشية حدوث اندفاع . ولعل خير وسيلة للقضاء على الاندفاع هي تعيين تلاميذ مختلفين لأداء مختلف الأعمال . فإن تعيين رئيس يولد هدوءا واحتراما .

وابن الثانية عشرة يسارع إلى التطوع إن كانت هناك مسرحية ينبغى إخراجها أو قراءتها . وهو يحب أن يقرأ دوره بصوت مرتفع — واستخدام منصة للخطابة من الأمور التى يأنس لها ابن الثانية عشرة بوجه خاص .

على أن اهتمام ابن الثانية عشرة بالقراءة ووقته المقرر لها يمكن أن ينخفض عما كان عليه فيما سبق ، كما يمكن أن يقتصر لدى البعض على ما تقرره المدرسة من أعمال — وهو لا يزال يحب قصص المغامرة كما أنه يتحيز لتلك التى تجمع بين الحقيقة والخيال . وقد شرع يستمتع ببعض كتب خفيفة مما يقرؤه البالغون . وخاصة تلك التى تتكشف عن المرح الحافل بالنشوة ، والدراما البشرية الحقيقية كقصتى : (أرخص بالدستة أو الحياة مع الأب with Father. (Cheapr by the Dozen, Life .

ويستحب كل من الجنسين هذا الطراز من القصة المنطوية على الميول البشرية ، ولكن ذوق القراءة يختلف لدى الصبيان عنه لدى البنات على الجملة اختلافا شديدا . فلن يقبل البنات إلا مع شيء من التنازل على قراءة القصص العلمى الذى يفضله الصبيان كثيرا . فإنهن يعلمن مقدما أنهن لن يحببنه . ولكن الصبيان لن يتنازلوا فيقرؤون حتى القصص التى تدور حول أبناء السابعة عشرة والثامنة عشرة ، والمنطوية على الحب والمهن فى الحياة ، وهى القصص التى بدأت تستثير اهتمام بعض البنات . على أن الجنسين جميعا يستمتعان بالشعر القصصى والفكاهى ، ولكن مطالبتهم باستظهار فقرات من تلك القطع قد تفسد ذلك الاستمتاع .

وبالصبيان ميل خاص للفلك ولأى شيء له علاقة بالفضاء الخارجى . وتزيد القصص العلمى ميولهم حدة .

كما أنهم يستمتعون بوجه خاص بأى تجاريب بسيطة ولكنها حقيقية فى مادة العلوم . فهم يتطلعون إلى معرفة ما يحدث فى ظل ظروف معينة .

ومما يلقى إقبالا عظيما ، جميع المواد الإضافية كالفنون والموسيقى والعمل بالدكاكين لدى الصبيان والاقتصاد المنزلى للبنات . وابن الثانية عشرة يحب أن يعد لمثل هذه الأنواع من النشاط عدتها الكافية . أما من حيث الفن فهو كثيرا ما يحب الابتكار الجماعى ، وربما استمتع بتصوير مناظر إحدى الروايات مع مجموعة بكاملها . وهو فى الموسيقى يستمتع بوجه خاص بالغناء الانسجامى (الهارمونى) ، كما أن بعضهم على استعداد للانضمام إلى فرقة أوركسترا . أما البيع والشراء ، فابن الثانية عشرة وإن أظهر فى العمل بهما تعاونا لا بأس به ، إلا أنه لا يؤدى عمله فيهما بإتقان كبير جدا . والشىء الذى يوجه إليه جل اهتمامه هو إنجاز شىء فى بضع جلسات فقط . فإن عملا سهلا إلى حد ما مكونا من ثلاثة أقسام كدق كفتة «هامبرج» ، لا بد أن يروى غليل رغبته فى سرعة الانجاز كما يشبع ميله للطعام والطبخ .

وعند البنات شوق وتحمس لكل من الحياطة والطبخ ولكن انتباههن إلى جماعة قد يفسد عليهن انتباههن إلى الشىء الذى بأيديهن . وإذا طبخن كان أكبر اهتمامهن موجها إلى أن يطبخن ليأكلن . ولو سمح لهن لخبزن البسكوت فى كل جلسة ، ولكنهن يحببن أيضا إعداد السلاطة أو أحد المشروبات أو شىء من الخبز المقدد . وقد أخذن يشعرن بالميل إلى التقديم والتخديم على المائدة .

وبنت الثانية عشرة تتعلم الحياطة بسرعة . وهى تبدو كأنما هى مستعدة فى البداية لمواصلة استخدام آلة الحياطة بمفردها . وفوق ذلك فربما بدأت بداية طيبة جدا ، ولكنها سرعان ما تصطدم بالمتاعب . إذ يفوتها دائما أن تحكم إحدى الخطوات الأساسية وتراجع عليها . فربما لم يكن المكوك مملوءا بالخيط بطريقة صحيحة ، أو كانت الغرزة تسير فى الاتجاه الغلط (ويكاد ذلك يكون مماثلا للعمل العكسى الذى يأتيه ابن الثانية عشرة فى عمليات الحساب — حيث قد يقسم بدل أن يضرب) . ولا تكره بنت الثانية عشرة طلبه المساعدة إن تعرضت للمتاعب .

وحصة الألعاب الرياضية — تعتبر

الحصة المحبوبة — كشأنها دائما فيستحب الصبيان كرة القاعدة المعتادة وكرة السلة وكرة القدم . ويستمر البنات فى لعبة الكرة اللينة وكرة التفادى والكرة الطائرة . ومع ذلك فإنهن معرضات للتوقف والدردشة فى منتصف اللعبة، ويحتجن إلى من يدفعهن إلى اللعب مرة ثانية . وابن الثانية عشرة يجيد اختيار أعضاء الفريق وفق قدرة كل فرد منهم وإن تأثر بالغيرة أحيانا . وهو ميال للمنافسة ولكن ليس بنفس الطريقة التى لا هوادة فيها والتى كانت له فى الحادية عشرة يوم كان يبغى أن يفوز بأى ثمن . إذ أنه بدأ فى الاستمتاع باللعب فى حد ذاته .

وابن الثانية عشرة صريح ومندفع بصورة بهيجة فى كل من غرفة الدراسة والبيت. وهو صريح فى الحديث عما يكرهه . وهو يجأر بالقول إن شعر أن هناك اعتداء على حقوقه . وهو يحس بوجه خاص أنه ليس من العدل أن يحجز بأحد الفصول قبل حصة الألعاب بالضبط، وهو لا يريد أن ينقص شىء من طول تلك الحصة لأى سبب من الأسباب .

والبنات متنبهات لمظهرهن خاصة. وربما حملن معهن محفظة جيب، كما أنهن علن للتزين أمام المرآة ، مع تسريح شعرهن كلما وجدن فرصة لذلك بين الحصص . وهن يتجمعن أمام المرآة إن كانت موجودة بالفصل . وربما لم ترض الجماعة عن استخدام أصبع الشفاه إلا فى حالة الاستعداد لحفلات الرقص . وغالبا ما تتبع بنات الثانية عشرة بدعة لبس حليات من أساور وقلائد ودبابيس عجيبة الأشكال أو عقود طويلة من الخرز . وإن مجرد تحديد النقطة التى ينبغى أن توضع الأنشوطة بها فى ذلك العقد ربما جرت إلى مناقشات هامة بين أفراد الجماعة .

وميل البنات إلى الصبيان أكثر من اهتمام الصبيان بالبنات بوجه عام . بل الحق إن البنات يتعقبن الصبيان غالبا . فهن يردن الجلوس بقربهم . على أن اهتمام الصبيان يزداد مع تقدم السنة . وهم يعبرون عن ابتداء إهتمامهم بالزغد . وسرعان ما يخطفون محفظة البنت أو مقلمتها ويجرون لتخبئتها . وربما احتاج الأمر اللجوء إلى المعلمة لتستخدم سلطتها فى استرجاع الشىء المفقود . وربما لعبت البنات لعبة كهذه على بنت أخرى ، مع

علم البنات جميعا عدا صاحبة الشأن بالمكان الذى خبىء به الشىء المخطوف. والصبيان يميلون لمطاردة الصبيان ، كما أنهم غالبا ما يلتمسون شيئا عزيزا أثيراً يختطفونه كشريط فى بنطلون زميلهم. فأبناء الثانية عشرة يحبون اختطاف أو نتش أى شىء متدل سائب ، وسينقضى عام آخر قبل أن يعتبروا هذه الأعمال من أعمال الطفولة .

ويستطيع ابن الثانية عشرة إن وجد فى مدرسة تمتاز بالحركة والانطلاق ولكنها مع ذلك تهيىء له ما يتحدى استعدادته ، يستطيع أن ينعم بحياة عجيبة مدهشة فى الفرقة السابعة . وتوجه حماسته فى اتجاهات كثيرة مختلفة إلا أنه يحتاج إلى العون على توجيهها وجهة محددة والتعبير عنها. وهو بحاجة إلى الحزم والضبط . ولكن إذا حددت حريته أكثر مما ينبغى أو إذا أجبر على مواصلة العمل قبل أن يستعد له ، وإذا طلب منه أن يتمشى مع أجواء لا معنى لها عنده ، ثبطت همته وبرزت إلى الأمام الناحية السلبية من تلك السن. والواجب المنزلى مسألة فيها نظر . ذلك أن ابن الثانية عشرة يريد أن يعمل . وهو يريد أن يتم واجبا . بل لقد يطلب الواجب المنزلى إذا لم يعط واجبا. ولكنه ما يكاد هذا الواجب يصبح نمطا ثابتا مقرراً ، وما يكاد يغتصب وقت فراغه على حين أن الائتناس بالناس بالغ الأهمية لديه حتى يثور ويتمرد ويحق ما يفعل ذلك. وهكذا قد يتحول إلى كره المدرسة .

ثم إن فكرة « المدرسة الاعدادية ربما كانت هى أيضاً مثار إشكال . فهل ابن الثانية عشرة مستعد لقبول ما يفرض عليه بالمدرسة الاعدادية من فروض منها ضخامة حجمها والانتقال من فصل إلى آخر وصرامة نظام الفصل أثنا الحصه وهل تزداد مشاكله ؟ وهل تثبط حماسته فى ظلالها ؟ تلك وكثير غيرها أسئلة ينبغى أن نسألها قبل أن يتهيأ لنا أن نقرر نوع البيئة المدرسية التى تتيح لابن الثانية عشرة على أحسن وجه أن أن يحدد لحماسته مجالها وشكلها .

٨ — الحماسة الخلقية

يتناول ابن الثانية عشرة المسائل الأخلاقية باتزان عقلى . والظاهر أنه يبت فى المسائل متأثرا بدرجة أعظم من التروى فى التفكير أى التأثر بالخبرات

السابقة والعواقب المحتملة ، ومتأثرا بدرجة أقل من ذى قبل بالإحساسات المباشرة . وإن له فى دخيلة نفسه وسائل تلقائية للمراجعة ، كالضمير مثلا ، ولكنه يعطى كل مسألة تعرض له حقها من التمحيص والوزن . والأصل والأساس فيه أنه دبلوماسى أريب . وهو ليس متسامحا مع الآخرين وحسب ، بل مع نفسه أيضا . ومع ذلك فهو لا يكره النظر فيما يستطيع التصرف فيه ، كما أنه يحب للمرح أيضا . وفوق كل شىء ، لا يحب أن يبالغ فى التباعد عما تمليه عليه جماعته .

وفى اعتقاد بعض أبناء الثانية عشرة أن البت فى شأن الحق وإيثاره بوصفه نقيضا للباطل شىء يمكن الوصول إليه مع ذلك بصورة تلقائية تقريبا ، بوساطة أساليبهم فى الإحساس ، وبالعقل وحسن التصرف ، أو بما يمليه عليهم الضمير من داخلية أنفسهم . ولكن عدد من يرون أن ذلك الفصل عملية متعمدة مدروسة يأخذ فى الازدياد . ويحب ابن الثانية عشرة أن يتصوركم من النقط الطيبة يجتمع لدعم قرار معين يتخذه فى أحد الأمور ، وكم من النقط السيئة يقوم ضده . ولكنه يستطيع دائما -- إذا لزم الأمر -- أن يهتدى بتفكيره إلى نقطة إضافية تناصر الموضوع أو تنقضه ، كما أن اختياره للنقط لا يقوم على أساس خلقى بقدر ما يقوم على أساس المنفعة الشخصية . فإذا هو عرف أن إتيان عمل ما سيعود عليه بالحجز بعد انصراف المدرسة ، كان أقل ميلا لإتيانه . وهو أقل ميلا لفعل الشر مما كان فى الحادية عشرة . إذ أن فرط احترامه لذاته يحول دون ذلك . ومع أنه قد يفكر قبل كل شىء فى المزايا التى عساه يحصل عليها من تصميم يعزم عليه ، فإنه يدرك أيضا رأى الآخرين ــ سواء أكانوا من الكبار أو اللدات . وهو فوق كل شىء ــ لا يريد أن يفعل شيئا يجعل أقرانه يضعونه بسببه فى مصاف « المفرطى الطيابة » ، وذلك أنه يعرف أن هذا قد يؤلبهم عليه .

ويقف ضمير ابن الثانية عشرة حارساً ورقيبا عليه ويستطيع فى بعض الأحيان أن يكون صارماً جداً معه . ولكن ليس له ــ كما كان له فى الحادية عشرة ــ ذلك الضبط الشديد الذى لا هوادة فيه والذى كان إما أن

يلاحق كل خطوة يخطوها وإما أن يجعله — بدافع التحدى — يعمد إلى نقيض ذلك، فيعيث فى الأرض فساداً. وبهذا الضبط الذى يبدو أكثر سهولة وتراخياً نراه ربما بدا وكأنه بالفعل أكثر مراعاة للضمير من ابن الحادية عشرة الذى كان يتقلب بين الانصياع للضمير وبين التجافى عن الندم. ولكن كما يقول: «المسألة مسألة حل وسط من حيث التخلص من الأشياء» ويستطيع ضميره أن ينطق بأفصح عبارة إذا أخطأ عملا، ولكن ما يفعله إزاء ذلك يتوقف على تقديره لشدة الموقف، (بلغ من قلق أحد الصبيان من جراء غشه فى أحد الاختبارات أن طلب أن يؤديه مرة ثانية؛ على حين أن صبيانا آخرين يعدون مثل تلك الجريرة شيئا تافها).

وقول الصدق ليس عسيرا على وجه العموم لدى ابناء الثانية عشرة. ويمكنك أن تطمئن إلى صدقه فى الأشياء الكبيرة الهامة، وإن لم تستطع ذلك دائما فى الأشياء الصغيرة. وهو يدرك أن هناك أوقاتا تضطر فيها أن تقول الكذب، وذلك مثلا، بقصد وقاية شخص آخر. فالمرء فيما يرى ابن الثانية عشرة يستطيع الكذب إن كان هناك سبب قوى.

وتقبل اللوم الذى يتمشى مع قول الصدق إنما هو جزء من النمو الذى هو أكثر إيجابية لدى ابن الثانية عشرة، وليس محاولة للاستشهاد والتضحية بالنفس بتحمل أوزار أخرى إضافية. وهو يقول إنه إذا اتهم أخ أوصديق تهمة باطلة، أبى أن يتخلى عنهم، ولكنهم إذا استحقوا اللوم «تركهم يتلقونه». والعادة أنه يحاول أن يكون عادلا.

ولم يعد ابن الثانية عشرة يجادل حبا فى المجادلة فى حد ذاتها على طريقته فى الحادية عشرة. فقد كان همه إذ ذاك أن ينتصر ويثبت بأى ثمن أن أمه مخطئة. أما الآن فهو يجادل ليقنع الغير بوجهة نظره، وخاصة حين يحس أنه على صواب ولكنه يستطيع أن يظهر نحو والديه التأدب حتى وهو فى لجة المجادلة. ويستطيع ابن الثانية عشرة أن يصر على الاستمساك بآرائه إلى حد ما، وربما

لم يصغ تماما لصوت العقل . وربما تيسر إقناعه وإن أمكن أن يحس أن والديه يأمرانه أكثر مما يقنعانه

ويعد ابن الثانية عشرة ألوية تسامحه على السباب والشراب (شرب الخمر) . إذ الظاهر أنه يحس أن لكل شيء مكانه في حدود الاعتدال . ولكن لامانع من أن يسب هو نفسه إذا ثار غضبه . على أنه لا يعتقد أنه يجوز للوالدين أن يسبوا ويشتموا أمام الأطفال . فليس ذلك من القدوة الحسنة في شيء أمام الأطفال الذين يسهل التأثير عليهم .

والتحكم في الغش والسرقة أيسر جدا لدى ابن الثانية عشرة منه لدى ابن الحادية عشرة . أجل . إن ابن الثانية عشرة — ولا سيما إن كان صبيا يجوز أن يغش في الألعاب أو الامتحانات ، ولكنه إذا اعتبر الغش جريرة خطيرة ، فالغالب أنه يريد أن يقوم ما اعوج من الأمور . (ولكن الغش في الكوتشينة وألعاب المنضدة غالبا مايكون جزءا من اللعبة نفسها حيث تكون الفكرة هي رؤية من يمكنه التصرف بأقصى سرعة) وربما قال إن بعض أصدقائه يأخذون أشياء من مخازن «العشرة سنتات »[1] ليس فقط لرغبة في اللذة والمسرة بالسرقة ، بل وأيضا ابتغاء اللذة بالمسروق . والظاهر أن بعض أبناء الثانية عشرة بهم شيء من الإعجاب المتردد الخفي بهؤلاء السارقين المختلسين ، بيد أن الغالبية لا تبدو أنها واقعة هي نفسها تحت تأثير الإغراء .

٩ — النظرة الفلسفية

الزمان والفضاء :

ليس من اليسير على ابن الثانية عشرة تحديد الزمن ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه تلم به ومضات من الفكر تتجاوز وسائله في التعبير . فابن الثانية عشرة يقوم تفكيره على المزج بين الأشخاص والأمكنة : — الزمن الذى سيكون فيه شخص بمكان معين والزمن الذى سيغادره فيه . أو لعله يفكر في الزمن

(١) محلات العشرة سنتات : متاجر تبيع سلعا لا يزيد سعر الواحدة منها عن عشرة سنتات The Cent Stores

فى صورة « المدة التى تستغرقها الأشياء » وبعبارة أخرى فالزمن مقياس ؛ فهو « ما نقيس الحياة فيه (أو به) » .

إن حركة الزمن « التى لا تنتهى » و « الدائمة إلى الأبد » لا تغيب عن الأبصار ، ولكن ابن الثانية عشرة يريد أن يجمد الزمن على طول الخط . وكثيرا مايشير إلى « مدة من الزمن » والزمن « هو مرور مدة معينة » أو هو حركة الانتقال « بين مدة وأخرى تتلوها » . والنـــاس « يستخدمون الزمان لتكوين مدة » وإن كان « الزمان شيئا لم يبدأ أبدا ولن ينتهى أبدا » . وهذه الفكرة الأخيرة عن الزمان ، فكرة متقدمة جدا وشاملة . ويمكن التعبير عنه بطريقة أخرى بأنه « المدى الكامل للحياة على الأرض » وفى الإمكان ربط الفضـاء والمكان ربطا وثيقا بالزمان . ويمكن أن يقال عن المدة بأنها « فضاء من اللحظات » .

ويتصرف ابن الثانيـــة عشرة فى الزمان تصرفا حسنا . ولا تزال لديه اللحظات التى تندفع بسرعة . ذلك أنه يحس التباين قويا بين تثاقل الزمن عندما يستجيب بانفعال إزاء وفاة أحد الناس وبين سرعة الزمن عندما يكون راكباً ركوبا مرحاً بإحدى حدائق الملاهى . والذى يحدث على الجملة أن الزمن قلما تثاقل أو تباطأ لأنه يملؤه ملأ تاما ولأنه غالبا ما ينظم الزمن فى صورة كتل وقطع يمكنه التصرف فيها .

وابن الثانية عشرة يحاول ببسالة أن يعبر عن فكرته عن الفضاء . ولا يزال الكثيرون يعتقدون أن الفضاء « مجرد لا شيئية خالية » أو « مكان ممتد منبسط لا شىء فيه » . ومع ذلك فإن ابن الثانية عشرة قد يجعل للفضاء « كيانا » مثلما يفعل مع باقى أفكاره وأفعاله . فإنه ليملؤه « بالهواء » ، وإن وازن بين « الهواء أو اللاشىء » وهو يميل إلى النظر إلى أعلى كلما فكر فى الفضاء ، كما يتحدث عنه أنه « فوق فى الهواء » . أو هو يفكر فيما هو أبعد من ذلك من « الهواء الخارجى خارج العالم » . ومهما يكن الأمر فالفضاء « شىء فيه شىء » ، وإن كان « شيئا خاليا » .

وابن الثانية عشرة لا يتحدث عن الفضاء فحسب ، بل هو أيضا يخبر الفضاء . وربما تحدث عنه فقال إنه « ما تراه طـــول الوقت » أو هو

ما نعيش فيه وننام ونأكل ونموت » .
وربما خبر ما للفضاء من عجب ورهبة ولانهائية . وقد يؤثر فيه الوقوف عند المنطقة المرتفعة من الخانق الأعظم (جراندكانيون)[١] he Grand Canyon تأثيرا يبلغ من عمقه أنه لا يستطيع أن يجد الكلمات التي تعبر عن خبرته تلك . وقد عبر أحد صبيان الثانية عشرة عن أفكاره عن الفضاء على هـذا النحو : « إنه بالغ العظم والأدهاش . فلو أنك استطعت المشى على الهواء لأمكنك السير بلايين البلايين من الأميال ثم لا تصل أبدا إلى أى مكان ، بل تكون تماما حيث كنت من قبل . إنه يجعلنى أشعر بالعجب بدرجة فظيعة ، إنه صغير ولكنه مدهش فى نفس الوقت » .

والمكان القريب المباشر والبعيد القاصى يقعان جميعا تحت هيمنة ابن الثانية عشرة . فإنه يتحرك بسهولة فى أرجاء المدينة محافظا على مواعيده وذاهبا لشراء حاجاته أو لمقابلة بعض الناس . وهو ماهر مهارة لا بأس بها فى تعرف طريقه فى الأماكن الغريبة ، ويعلم أنك تستطيع أن تسأل رجل البوليس إن تعرضت للمتاعب . وقد جرب الارتباك الذى يحدث له عندما يتجه فى الاتجاه الخطأ الموصل لعكس ما يقصد الذهاب إليه .

والسفر البعيد وبخاصة السفر الطويل متعة عظيمة لطفل السنة الثانية عشرة . وربما رغب فى الذهاب بمفرده بل تراه يقوم حتى بتغيير القطار أو الأمنيبوس بمفرده . وهو يعرف كتاب دليل المسافر Travellers Aid . وليس من الضرورى أن يشعر بأنه قد تاه ولا أن يساوره أى قلق . ومع ذلك فهو إذا بلغ مقصده بالسلامة ، يكون قد أتم ما انطلق لأدائه وغالبا ما ينسى أن يخطر عائلته بأنه قد وصل .

الموت والآله :

وعلى الرغم من أن عددا من أبناء الثانية عشرة لا يهتمون كثيراً بالموت ،

---

(١) أخدود عميق فى نهر كولورادو بالجنوب الغربى للولايات المتحدة .

فإن كثيرين منهم قد بدأوا يعجبون من أمره . وبعضهم يرهبونه ويرتعدون من مجرد التفكير فيه ، ولكن كثيرين يقررون أنهم لم يعودوا يخافونه. أما الذين لا يزالون خائفين فربما تمنوا أن يموتوا أثناء نومهم أو أن يتجمدوا فى الثلج حتى يموتوا . ومع أنهم ربما لا يحبون التفكير فيه ، إلا أنهم يدركون مع ذلك أن كل إنسان لا بد أن يموت إن عاجلا أو آجلا . وهم يفكرون فيه تفكيرا منطقيا قائلين أنه لو لم يمت الإنسان لضاق العالم بمن به من الناس. أو لعلهم يدعون المشكلة للفلاسفة راضين لأنهم يدركون أنهم لن يعرفوا الجواب عن موضوع الموت .

ومع ذلك فهناك من يرغبون فى أن يعدوا بالبحث والاستقصاء إجاباتهم الخاصة عن الحياة والموت وأن يفكروا فى مشاعرهم الخاصة . ولابن الثانية عشرة لحظات يتوقف فيها توقفا حقيقيا ، ويرفع بصره إلى السماء ليتفكر ويسائل نفسه : على أى شاكلة ستكون الحال عندما يموت ؟ هل سيظل حيا أم سيصبح كل شىء مظلما ؟ أما الأفراد الأقل حيرة وتفكرا فقد يتقبلون ما يعلمهم إياه آباؤهم أو كنيستهم ، من أنك إن كنت من الأخيار صعدت إلى الجنة وإن كنت من الأشرار هويت إلى جهنم . ولكن الذهاب إلى الجنة « يبدو فيه شىء من السخف » فعلا لدى عدد من أبناء الثانية عشرة .
ويشعر الكثيرون أن هناك علاقة قوية بين طريقة تصرفك وأنت حى وما سيحدث لك بعد أن تموت . وهناك آخرون لا يحسون بهذه العلاقة المباشرة . فهم أشد اهتماما بالموت الذى ينهى هذه الحياة ، بل حتى يضع حداً لأى ذكريات لما حدث فى هذه الحياة ، كما أنهم يفكرون فى مسألة بدء حياة جديدة بعد الموت . وهم يفكرون فى ميلاد الفرد مرة ثانية وعودته إلى الأرض فى صورة شخص آخر . وقد تمنى أحد الصبيان أن يعود إلى الأرض فى صورة قيصر .

وهناك فى الواقع اهتمام حقيق بالدين فى تلك السن . ويلتفت ابن الثانية عشرة وراءه ليذكر زمناً لم يكن يؤمن فيه ، ولم يكن يميل للايمان . ولكنه الآن فى حيرة من أمره ، كما كان شأنه من وقت لآخر أثناء السنة

الماضية . وهم يعبرون عن قدر كبير من التشكك — بيد أن هذا يعكس علينا بصورة جزئية كفاح ابن الثانية عشرة مع المشاكل لا عدم اهتمامه بها . وذلك لأنه قد لا يصل غالبا إلى استنتاج محدد . فهو يقول : « إنى لا أعرف ما يجول بخاطرى » ، ولكنه حتى مع ذلك قد ينفق شطرا عظيما من الزمن مفكرا فى الله والدين . وغالبا ماتكون أفكاره مبهمة جدا كقوله : « شىء لانستطيع تفسيره » — أو « شىء يفكر الناس فيه » — أو « إنى إنما أظن أنه موجود فى عقلك » . كما أن بعضهم يصرون على رأيهم القائم على استدلالهم « بأنه لابد من وجود شىء يدبر كل شىء » . إن ماهية الله شىء يعسر تعريفه فهو « نصف إنسان ونصف روح » — وهو « نصف روح ونصف فكرة » — أو هو « مجرد نوع من الفكرة » . وليس الله لدى ابن الثانية عشرة آلهاً جامدا عن كل حركة وحس . فهو يحكم وهو يهيمن وهو يزجى القوة وهو يقضى . ولكن ابن الثانية عشرة لا يعتقد أن الله يراقبه دائما ، وذلك لأن منطقه يؤكد له أن ذلك يكون مستحيلا نظرا لأنه (تعالى) لديه أشياء كثيرة جدا لابد من إنجازها . وليس ابن الثانية عشرة متأكدا دائما من الطريقة التى تؤثر بها معتقداته الدينية فى حياته . أجل إنه يعرف أن أفكاره عن الديانة تسبغ عليه « إحساسا جميلا » . ثم إن لديه أيضا فكرة ما عن الطريقة التى قد يريد منه الله أن يتصرف بمقتضاها . وهو يعتقد أن الصلوات والدعوات تساعد الإنسان « عندما تلم بك ملمة » — أو « فى الأوقات الحرجة الحاسمة » مثل وقت بطاقة التقرير الشهرى أو اختيار لاعب فائز أو خاسر أو العثور على كرة ضائعة أو الانخراط فى النوم .

وهناك أولئك الذين يعلنون على الملأ أنهم لا يؤمنون وهم فى الثانية عشرة ولكن هؤلاء أقلية نادرة وحتى هؤلاء يدركون رأى أصدقائهم فى أفكارهم ، أو إلى أى مدى يفكر أصدقاؤهم فى الدين .

ويلوح أن هناك علاقة ضئيلة بين

ميل ابن الثانية عشرة واهتمامه بالدين وبين حضوره لمدرسة الأحد . فإن عددا كبيرا من أبناء الثانية عشرة لا يرغبون فى الحضور ولا يحضرون إلا لأن ذويهم يضطرونهم إلى ذلك . ومنهم من يذهبون بسبب أنواع النشاط الاجتماعى . وهناك قلة تميل إلى جوقة (كورس) التراتيل . والاعتقاد فى الله أهم لدى ابن الثانيــة عشرة من حضور مدرسة الأحد أو الـكنيسة . وهناك قلة من الأتقياء وهم أكثر تبتلا وطاعة قد أخذت تفضل الآن الصلاة فى الـكنيسة على مدرسة الأحـــد ، ولـكن الصلاة فى الـكنيسة تـكون فى الرأى المباشر لابن الثانية عشرة على الإجمال « أطول شىء فى الدنيا » .

الفصل السابع

سن الثالثة عشرة

مصور النضج

تحمل كل سنة فى طياتها زيادة فى النضج . ولـكن زيادة السنة الثالثة عشرة معقدة إلى حد ما .وذلك لأن المراهقة تتقدم الآن إلى الأمام بخطى أكيدة ، فضلا عن أن أطوارا جديدة للسلوك ستنبثق . وسيكون بعضها ظاهرا جليا .. وستظل أطوارا أخرى غامضة مبهمة لأن ابن الثالثة عشرة لايصبح دائما (فى خلال سنة واحدة) صريحا ولا ميالا للحديث مع الناس . وقد تعتريه بالمنزل نوبات من الصمت والتأمل وشرود الفـكر . أما فى المدرسة فتظهر نواح مختلفة تماما من السلوك . فإنه يستجيب هناك باهتمام حاد لأعمال الفصل المنوطة به ومناقشاته . وهو يبدى قدرة عظيمة على اكتساب المعرفة عن طريق القراءة والإصغاء والمشاهدة .

وعلى الرغم من اكتئابه وتبرمه أحيانا فإنه يظهر أنه شخص قابل للتكيف ويمكن الاعتماد عليه . بل لقد يبدى أحيانا نزعة رائعـــة من المهارة والحدب والرعاية أثناء مساعدته لنا فى العناية بأخت له أو أخ فى سن ما قبل المدرسة . وعنده شعور بالواجب وهو يبدو فى بعض الأوقات مغاليا فى رعايته لضميره . وهو ينغمس فى ألوان من القلق الخاص . وهو ينتقد والديه نقدا تفصيليا . أما هما بدورهما فتحيرهما وتشغل بالهما نزعته المتـكررة إلى الانسحاب من دائرة العائلة التى تعاوده بين الفينة والفينة . وربما كان هذان الوالدان فى حد ذاتهما قلقين بغير داع خشية أن ينفلت طفلهما من يديهما . وغنى عن البيان أن الشىء الـكثير من قلق الشباب ربما كان حقا علامات سوية على عملية نماء تؤدى إلى الاستبصار الذاتى . والراجح أنه ليس هناك من سبب يدعونا للقلق حتى على صبى الثالثة عشرة الصريح الذى يقول : « غالبا ما أقلق خشية أن لا يحبنى

الناس . وأعتقد أن هذا شأننا جميعا ، فأنا أقلق لتوجسى أنى سأقلق . وأقلق لأنه ينبغى لى أن أتوقف عن القلق » .

ولن نسأله أن يتوقف عن القلق توقفا تاما لأن القلق الجيد إنمـا هو — ببساطة — أحد التعبيرات عن الإدراك والتنبه للذات الذى هو سمة أساسية من سمات النضج فى هذه المرحلة المبـكرة من تطور المراهقة . ولـكن هذا التنبه إلى الذات لايقتصر على مجرد الإصلاح البحت . بل يدخل فى نطاقه العالم الخارجى . وهو مرتبط ومتداخل جدا بالتنبه وإدراك العالم الخارجى . فالتفاعل بين هذين النوعين من التنبة هو المفتاح الأكبر للدراسة النفسية لفتى الثالثة عشرة .

والتنبه ذو الشعبتين إنما هو بحق منهج للنمو . فهو يقدم نوعا من الآلية يستطاع به تمثل ثروة من الخبرات الجديدة التى تتزاحم الآن على الحياة الداخلية للشاب النامى . فإن الـكثير من الأمور يحدث لأول مرة . بيد أن الأحداث و« الخبرات » الخارجية لاتسجل آثارها دائما تسجيلا أوتوماتيكيا ، بل لابد من الاهتمام والتفـكير فى كثير منها حتى تندمج فى تركيب الشخصية .

وبناء على هذا ينسحب ابن الثالثة عشرة إلى دخيلة نفسه من وقت لآخر . فلديه فترات موجزة من الاستغراق الذاتى والاجترار[1] يطلق أثناءها وجداناته الداخلية وتوتراته واتجاهاته ، ويستعرضها مع تنويعها . وليس هذا فرار مرضى من الحقيقة . بل هو بالحرى شـكل تجريبى من الترويض النفسى Psychic . فالحق إن حركات العقل تحتاج إلى تدريب ينطوى على اللعب والارتياد معا قدر ما تحتاج إلى التدريب حركات الجسم العضلية المرتبطة بها فى الواقع ونفس الأمر . ويمثل هذا النوع من الإصلاح وظيفة إنشائية إيجابية . وهو يساعد فى تفسير بعض النزوات الظاهرية فى سلوك المراهقة المبـكرة .

---

(١) الاجترار rumination أطلق أساتذة علم النفس هذا الاسم على عمليات النظر والتأمل فى الأمور بإمعان عميق . [المترجم]

وينضم صبى فى الثالثة عشرة إلى مجموعة العائلة ليستمتع ببرنامج مسائى فى التلفزيون وهو يهتم بهذا البرنامج ولكن وجهه يتغير فجأة فى منتصفه فيتخذ شكلا ملؤه الجد والرغبة فى الاعتزال ، فينهض غير متقيد بأية مراسم وينطلق إلى غرفته دون أن ينبس بكلمة ليفكر ويجتر . ولا نستطيع إختراق حجب سرحاناته ، ولكنها ليست شيئا لا نهاية له ، ومن ثم فإنه سرعان ما يعمد بدافع من الرغبة فى الابتكار وتحت مسئوليته إلى توجيه هجوم مركز على واجبه المنزلى . فهو — بمعنى ما محدود — منشغل بالشئون الداخلية والخارجية جميعا .

ولا يدل مثل ذلك السلوك على أن المراهق ينسحب انسحابا يباعد بينه وبين الواقع ، بل هو على النقيض يتعمق أكثر وأكثر فى صميم الواقع بتقليبه فكره فى الأمور . ومثل هذا السلوك التأملى الباطنى عمل جدى بالنسبة له . فإن هو كان يحاول التهرب من الحقيقة ، فالأرجح أنه يلجأ إلى الفكاهة يلهى بها نفسه ويتملص وإلا فإلى المعارضة الصريحة . ولكنه بدلا من ذلك يبدو أحيانا كأنما يطلب الوحدة والانفراد ، لا من أجلها فى حد ذاتها ، بل طلبا لمختلف وسائل الإشباع الداخلى ، التى يصعب عليه التعبير عنها بالكلمات . وهو ينقى وينظم خبراته باسترجاعها باطنيا واختباره لذاته .

وتفكراته متعددة الجوانب . وهى تتضمن الاختيارات والرغبات والأفكار والمطامع . وربما أدت إلى قرارات (تصميمات) احتياطية يتخذها وكامنة يختزنها تظهر فى مجال السلوك الأخلاقى . ومثل هذه التفكرات أبعد ما تكون من البلادة والخمول ؛ وذلك لأنها تدل على جهد المراهق فى سبيل النجاح فى الوصول إلى ذات أكثر نضجا . وبفضل الجهد والتأمل الإدارى يتبين له أنه ليس واقعا تماما تحت رحمة الانفعال الغريزى . ويؤدى به ما يقوم به من إصلاح إلى بلوغ مرحلة تفكير حقيقى ، وهذا بدوره يخلق إحساساً بما يسميه عن كفاية ومقدرة باسم قوة الارادة . ذلك أن مما يتميز به ابن الثانية عشرة من الخصائص ، شعوره « بقوة إرادته » المتزايدة .

وهكذا يتخذ السلوك التأملى الذاتى أشكالا كثيرة مختلفة . وهو يختلف بطبيعة الحال باختلاف مزاج الفرد وقدراته . وربما حدث فى ثنايا أحداث وجيزة الأمد أو فى

مدى طويل من الزمن أثناء نزهة طويلة يقوم بها على انفراد . والمراهق الموهوب فى تلك السن ربما قضى فترات طويلة فى التفكير فى الميادين الخاصة لميوله .

وبعض الفتيان (الشبان) أكثر اكتئابا من البعض الآخر . ولكن النشاط العقلى التأملى يمكن اعتباره ظاهرة سوية ، ما لم يبلغ حد التطرف من حيث محتواه وعدد مرات حدوثه . والواقع أن السلوك التأملى يستحق قدرا معينا من الاحترام لا يحظى به دائما . وعندما يستغرق مراهق فى أفكاره الخاصة ، يمكن أن يبدو عليه التنكد والعبوس ، دون أن يكون بالفعل منحرف المزاج أو غير اجتماعى . وإذن فقد يكون خطؤنا فى تفسير الوضع ظلما كبيرا له .

وابن الثانية عشرة المثالى سعيد هانىء . وابن الثالثة عشرة مفكر متأمل . وقد ظهر التباين فى جو كل منهما جليا أثناء المقابلة التطورية . ويكون ابن الثالثة عشرة متعاونا عادة كالثانى عشر ، ولكنه ليس مثله فى الانبساط التلقائى ولا فى الفضول والرغبة فى الاستطلاع . وكانت المحادثة أقل والفكاهة أقل ؛ وكان صوته خفيضا كما كان يجيب أحيانا بهز كتفيه ؛ وكان يجلس فى هدوء نسبى ؛ وقد قصر جل النشاط التوترى على اليدين . وكان المتحدث يشعر بالحاجة إلى صوغ الأسئلة بعناية . وكانت الاجابة أبطأ وأوجز والصوت أخفض . وكان يبدو أن التردد يرجع إلى تحرز ينطوى على وقاية الذات كما يرجع إلى البحث عن الكلمة أو العبارة الصحيحة ، وذلك لأن ابن الثالثة عشرة فرد يعلق أهمية كبرى على التفاصيل الدقيقة : ناقد لتصرفاته وتصرفات الغير أيضا .

وكان اختياره للكلمات يدل على درجة أكبر من النضج . وكان يستعمل عبارات من أمثال « المسألة بصراحة » — أو « نادرا » — أو « منسجم » — أو « الوعى » أو « فى اعتقادى » . ثم إنه يدهشنا بين وقت وآخر باستخدامه لفظة « علم النفس ! » وكل هذه من أعراض ذكاء آخذ فى النمو . وهو يحس بنوع جديد من المسرة فى التفكير المنطقى — وفى طرح القضايا المنطقية وإثارة الشكوك . وهو قادر على التفكير حسبما تقضى به الضرورة والاحتمالات والأحوال العرضية وقد شرع يتنبه إلى القدرات المنطقية الاستدلالية لعمليات كعمليات العقل موجودة تحت تصرفه .

وهو آخذ فى تطبيق هذه القوى البازغة الجديدة على حياته الانفعالية ، بوساطة التقدير الذاتى وتقدير مخالطيه الصغير منهم والكبير . وهو يدرك حالاته المزاجية المتغيرة ويحاول تطبيق الأفكار عليها . وربما عبر عن استيائه من نفسه : « لا أريد أن أحس كما أحس » . « لقد أصبحت أغضب من كل إنسان فى الأيام الأخيرة » . وهو يستخدم الكلمات لوضع مشاعره تحت ضبط أحسن ولانشاء جبهة جريئة ضد المخاوف المختلفة . وقلما بكى من الغضب ، وهو ينفس عن غضبه بالكلمات لا بالعنف البدنى . وهو يزداد قدرة على الإحساس بالحزن . كما أن حالاته المتغيرة كثيرا ما تنطوى على نغمة الحزن والشكوى . وربما كان خجولا مع الغرباء . وهو سريع التأثر . وقد يقى نفسه أحيانا بالانسحاب جثمانيا وعقليا معاً من مركز الإثارة . وهو (أو هى) يتخذ فى أحيان أخرى موقفا قبيحا معاديا يعبر عنه بطريقة ملؤها التحدى ، كأنما هو مكب على الدفاع عن « أناه » ego بدفع الوالدين عنه .

وابن الثالثة عشرة شديد الحساسية بالنقد حاد الادراك للحالات الانفعالية عند غيره من الأشخاص . وتتجلى فيه مهارة جديدة فى قراءة تعبيرات الوجوه وفى التقليد التمثيلى وتقمص الشخصيات بصورة تمازجهـا الفكاهة أحيانا . ويسعده أثنـاء قيامه بالتسلية الجدية أن يضاهى ذكاءه بذكاء راشد متعاون وإياه ، حيث يجاهد طلبـا للامتياز عليه بالطعنات اللفظية الموجهة والمضادة . وفى كل هذا دليل على أن حياته الانفعالية تتطور فى ارتباط وثيق مع ذكائه وسلوكه الاجتماعى . ذلك أن الميدان الواسع للعلاقات الشخصية بالناس خاضع بأكمله لآليتين أساسيتين مترابطتين ، هما آليتا التنبه الأنطوائى الباطنى والانبساطى ذى الاهتمام بالخارج .

والسلوك المتبادل مع الناس ملقى فى البيت أول امتحان له وأشدها مطالبة له بأشياء محتمة . فالإخوة مصدر متاعب وخاصة إذا كانت أعمارهم تتراوح بين السادسة والحادية عشرة . ولـكن المتاعب أقل دواما عن ذى قبل كما أنهـا تجنح إلى الحدوث عن طريق اللفظ لا الجسم . على أن الأخوة الذين هم دون السادسة يستدرون الاهتمام والمحبـة : فابن الثالثة عشرة يعنى بهـم بروح وقائية لذيذة . فإنهم غالبا ما ينظرون إلى إخوتهـم

وأخواتهم الكبار نظرة إعجاب واحترام ، وربما ائتمنوهم على سرهم ونجواهم . وقد علقت إحدى البنات بقولها : « حسنا ... إنى أجد مريام [الأخت الكبرى] موافقة جدا لى . فإنى أستطيع أن أخبرها بما فى نفسى وهى تفهم ما أقول . ولكنى أعتقد أن بنفسى شيئا ضدها . وأظن أن ذلك هو لمجرد أنها أخت أكبر منى » . وقال صبى فى الثالثة عشرة معلقا على أخته الصغرى ، « لسنا نتفق تماما . ولا أدرى سبب ذلك . فهى تضايقنى وتتدخل فى شئونى . ولكن والدى يعتقد أنى أستطيع أن أعايشها بشكل أحسن . فالطفلة لا بأس بها . وأنا أوثرها وأعنى بها » . وعقب صبى آخر على مضايقات البيت بوجه العموم : « إنهم يحاولون إصلاح كل شىء يتعلق بى : المزاج وحسن التصرف ، وأنى لست أتحمل مسئولية كافية وأنى أجادل » .

وفى هذه السن ربما أحجم الصبيان والبنات جميعا عن أن يعقدوا مع والديهم العلاقات الوثيقة المنطوية على الإسرار والنجوى فإن صبيا يتجاسر فى شىء من الارتباك أن يشير إلى أنه لا يحب أن يضع أبوه ذراعه حول وسطه . وقد تصبح البنت مفرطة النقد لأمها « من أجل مصلحتها هى » . وكثيرا ما يشحذ النقد حتى يشمل التفاصيل الدقيقه بما فى ذلك ثياب الأم وجواهرها وترجيلة شعرها وذوقها ومسلكها وتصرفها ! ذلك أن تلمس الأخطاء يمر دون أدنى ريب بمستوى أكثر نضجا مما كان فى سن الحادية عشرة ، فإنه أمر يتعلق بنفس المشاكل التى تحاول الإبنة نفسها حلها . لقد أخذت تكف عن المحاجة والجدل من أجلهما فى حد ذاتهما . فاذا حلت فترة أهدأ كانت البادئة والتلمسة للمناقشة والبحث الهادىء للمسائل . فإن زيادة القدرة على التفكير الاستدلالى تستتبع أن تتخذ المناقشات الهادئة وظيفة هامة . فربما اشتاقت البنت فى سريرتها أحيانا إلى مناقشة هادئة وتمنت سنوح فرصة مواتية .

الثالثة

وكما هو متوقع ، أصبح ابن الثالثة عشرة أكثر قدرة على التمييز منه فى الثانية عشرة، من حيث تقديره للرفاق وقبوله لهم . فاصدقاؤه أقل عددا . والأرجح أنه يلعب بمفرده أو مع صديق واحد مختار . وكذلك البنات لهن صديقات أقل . بل لقد يظهرن اهتماما بالصبيان أقل مما كن يظهرنه قبل ذلك بعام . ويتجه الصبيان نفس هذا الاتجاه .

وإليكم تعليقات توضح ذلك : « لم أتجه كثيراً نحو البنات . ولست أكرههن ، ولكنى، فقط لا أهتم بهن كثيرا . ونحن فى الكشافة نرقص . وذلك كل مافى الأمر تقريبا ! » أو « كل ما يهمنى أن البنات يمكنهن أولا يمكنهن أن يكن كما يشتهين تماما . ومعظم أصدقائى جميعا يكادون يتخذون نفس الموقف تقريبا . لست أجد دمهن ثقيلا على قلبى . وكل ما فى الأمر أنى لا أهتم » . وهذه التصريحات الحازمة المتسمة بالحياد تنبىء بالرغبة المنتظرة فى زيادة أخذ المواعيد الأمر الذى سيبدأ فى السنوات التى تتلو ذلك مباشرة . وهى قليلة نسبيا فى خلال السنة الثالثة عشرة .

وتتجلى على أرض الرقص علامات للتغير الذى ظهر وللتغير الوشك على الظهور . فإن كثيرا من الصبيان قد أدركوا البنات فى الحجم ، كما أن طريقة وقوفهم قد أخذت تصبح أقل سماجة وأكثر رشاقة . ومع ذلك فإنْ بعض البنات يقلن إنهن لا يمكنهن أن يطقن صبيانا من نفس سنهن يتجلى فى تصرفاتهم الارتباك الشديد .

غير أن الصبيان ليسوا مع ذلك مهملين تماما لمظهرهم الشخصى . فلو زودت المرايا بالعدادات لأظهرت أن الصبيان والبنات جميعا يكثرون من استخدام المرآة ليروا كيف يظهرون حتما أمام أنفسهم وأمام الآخرين . وهم يقضون زمنا طويلا فى دراسة الصورة المنعكسة فى المرآة ، ومقارنتها بصور يتخيلونها فى أنفسهم . ويوضع كل من تحسين الهندام والذوق والمهارة فى اتخاذ الأوضاع البدنية وتعبيرات الوجه ، — تحت الاختبار التجريبى أمام المرآة . وابن الثالثة عشرة يريد أن يعرف كم يؤثر فى الناس . لذا فإنه ينشىء على انفراد ضربا منعزلا من المواقف المتبادلة مع النـــاس يبعث التفاعل بين آليق (mechanisms) التنبه الإسقاطى الباطنى والتنبه الانبساطى الخارجى . فليس عجيبا إذن أن تصبح المرآة أداة تطورية تعاون اكتشاف الذات وتطمين الذات . ومن الأسف أنها تثير نوعا من الاهتمام وانشغال البال إذا كانت الصورة المنعكسة عن المرآة مخيبة جدا لآمال مشاهدها الصغير . ولكنها حتى فى هذه الحالة نفسها ، تلعب دورا إنشائيا فى تحديد إحساسه بالذات الواقعية . ولا بد للفرد من أن يتعلم وهو ينمو — كيف يعيش مع نفسه ومع الصور المتغيرة لنفسه .

وكأنى بأشرطة السينما وشاشة التليفزيون تضع أمام طبيعته مرآة أخرى . وهنا يبصر مجموعة خارقة من صور الشبان الكبار الذين لهم فى نفسه المنظورة معنى يوغز إليه ويوحى بما يجب أن يكون هو عليه . وهذه الصور تكون انطباعات عما يتمنى — ولدا كان أو بنتا — أن يكون ، أو يؤثر أن لا يكون عليه حاله . وتراه أثناء إطلاعه على الأدب والكتب والهزليات والرسوم اليدوية المتحركة cartoons يطابق كذلك بطريقة شعورية أو شبه شعورية بين نفسه وبين أبطال القصص وشخصياتها .

ولكن المدرسة والشارع والملعب هى الأماكن التى تخبر فيها حاسته الذاتية الوقع القوى للجماعة والشلة والفريق والنادى . وهنا يلتقى بالهيئة الواقعية الحقة لأقرانه ، هيئة اللحم والدم . وهو يفاخر بأنه أحدهم . وهو يميل إلى الانصياع لطلبات لداته وآدابهم ، ولكنه يدرك أن مسألتى الانصياع والنبذ ترجعان إليه . وهو ينطوى بوصفه عضوا فى جماعة المدرسة على قدر معين من الاستقلال والمقاومة الباطنية لكل مستبد من المعلمين والنظار . وهو يحس بنضجه المتزايد يتأجج ويتوقد عندما يبصر السلوك الطفلى الصادر عن أبناء الثانية عشرة المجاورين له حين يطارد بعضهم بالممرات والدهاليز « شغل عيال ! » .

وهو فى الحالة المثالية مغرم عامة بالمدرسة ، على أن تكون مدرسة حسنة ذات نظام طيب فعال . وهو يقدر معلما يشدد التأكيد على المعارف الواقعية ويتيح المجال لمناقشات الندوات ومشاركة التلاميذ . ولديه قدرة هائلة على تمثل المعرفة . فإذا أثير اهتمامه ألقى بنفسه تماما فى خضم الواجبات المدرسية والمشروعات الخاصة التى ساعد فى تخطيطها وتمتد ميوله طولا وعرضا لتدخل فيها العلوم والفنون الحرة . وهو ظامىء إلى الحقائق .

والفوارق الفردية تنطق الآن بأفصح لسان . فإن بعض البنات قد ينشئن « ناديا صغيرا للكتابة المبتكرة والتأليف » كنشاط إضافى يلحق بخطة الدراسة . على أن بنتا أخرى قد تقوم مستقلة بإنشاء دفتر لقصاصات الرسوم اليدوية المتحركة « النيويوركية » المحبوبة ، وهو عمل يؤذن بتقدم ملحوظ يتجاوز الهزليات الأقل تزمتا . وربما شرع الموهوبون من الصبيان (والبنات) يحاولون إجراء التجارب والعمل بالآلات بصورة ترتبط مع الهوايات التى يستثيرها العمل المدرسى .

وابن الثالثة عشرة يكون فى خير أحواله كعضو فى جماعة مستجيبة فى مدرسة جيدة الادارة . وبديهى أن مثل هذه الجماعة تنطوى على قوى كامنة عظيمة لما بها من رغبة متلهفة ومن قدرة على مواصلة جذب الانتباه . هناك استعداد للتعلم تجتمع إليه رغبة فى ممارسة الاستغلال فى الفكر . فليس عجيبا أن يحس المعلمون رضا عميقا عند مواجهة تحدى تلاميذهم أطفال الفرقة الثامنة الميالين إلى النشاط والحركة .

ولا يكاد يكون فى إمكاننا أن نلخص فى عبارة اصطلاحية بسيطة الدلالة التطورية للسنة الثالثة عشرة . فهى سنة انتقالات معقدة تشمل الجسم والعقل والشخصية . وغالبا ما تجىء الانتقالات دون أن يطلبها أحد أو يعرفها أحد مقدما . وينبغى للمراهق أن يواجهها على أحسن وجه مستطاع سواء بمساعدة الثقافة أو بدون مساعدتها .

ولتغيرات بنية الجسم وكيمياء البدن تأثيرات فى الأوضاع البدنية والتوافق والهيئة والصوت وتعبيرات الوجه والاتجاهات والتوترات الداخلية . ولكل جنس ، بل لكل فرد مشكلات تطورية فريدة فى بابها تتولد عن بدن مميز وعن فسيولوجيا ذلك البدن المميزة الخاصة . وتزيد التغيرات الجسمية من شـــدة التنبه إلى النضج . فالفتى يكون صورة بدنية لنفسه ، ويتساءل على الدوام عن الأثر الذى يتركه فى نفوس الآخرين . فإذا تغيرت أحوال الجسم تتغير حالاته المزاجية ، متراوحة بين اليأس المستتر وقبول الذات بشكل متفائل . إذ أن عليه أن يتمثل هذه الأحداث البدنية التى لها عليه حق وثيق . ثم إنه تهاجمه فى الوقت نفسه طلبات متبادلة مع الناس لاحصر لها ، يطلبها منه أبوه وأمه وأخوته وزملاؤه ومعلموه . هذا إلى أن واجباته نحو البيت والمدرسة واللدات ومطالبها غالبا ما تتصارع وتزيد الارتباك وبالا .

وهو يحتفظ فى وسط هذه الضغوط جميعا بشخصيته وفرديته ويحرز قدرا من الاستقلال . وهو يستقبل مشكلته التطورية بزيادة فى تنبهه إلى نفسه وإلى العالم الذى يعيش فيه . وما شدة حساسيته وخصائصه التأملية الذاتية إلا أعراض لإحساس بالنفس يتعمق ويتمدد . لقد تقدم كثيرا على تلك السمة الارتجالية العارضة نسبيا لطفل العاشرة . وهو يمر فى الثالثة عشرة بمرحلة انتقالات خطيرة . وهو محتاج بشكل عجيب إلى التفهم المشبع بالعطف .

سمات النضج

١ — جهاز الحركة الكلى

إن التغير الذى يحدث بين الثانية عشرة والثالثة عشرة يمكن أن يكون عميقا جدا . إذ يلوح أنه تجىء فى الثالثة عشرة تغيرات داخلية وتنظيم داخلى للقوى . فالميل الغالب هنا هو ضم الأشياء بعضها إلى بعض ، وتأمل الذات والتفكير فى الأشياء . ويتولد عن هذا الزمت والتضييق والضغط قدر كبير من الطاقة ، ولكن طريقة إنفاق هذه الطاقة تتوقف على نجاح التنظيم .

ويكاد ابن الثالثة عشرة يلوح كأنما هو عارف باحتياجه أن يكون أكثر دقة فى الانتقاء مما كان ، وأنه بحاجة إلى التركز والنبذ لكى يحرز المزيد من النمو . فإذا هو أتم ذلك بالانسحاب إلى غرفته قلق كثير من الوالدين لسلوكه وآلمهم إحساسهم بأنه يقطع ما بينه وبينهم من صلة . على أن قبول ذلك التغير أصعب على النفس ، إذا كان ابن الثالثة عشرة يسرف فيما يقضيه من وقت وما يوجهه من اهتمام نحو صديق له فى أحاديثه التليفونيـــة . وكثيرا ما تقضى الحكمة على الوالدين أن يسترشدوا بتصرفات ابن الثالثة عشرة نفسه ، فلا يسمحون له فحسب بالانسحاب من بين أيديهم ، بل ينسحبون هم منه ، أو يقفون فى الخطوط الجانبية ، مستعدين للمساعدة حسبما تقتضيه الحاجة .

ومع أن ابن الثالثة عشرة يبدو أهدأ وأكثر انسحابا وتباعدا منه قبلا فإن أفكاره قد تكون ناشطة جدا ، حيث يختزن الأفكار والطاقة لينفقها فيما بعد . والإكباب الهائل على القراءة من وسائل إشباع هذا الدافع الداخلى ، كما أن الانفاق الدائم من معين هذه الطاقة المستكشفة حديثاً وصرفها فى المشروعات الخاصة وســيلة أخرى . والأمر كما قال أحد الصبيان « كل ما أكرهه ألا أفعل شيئا » . وقد أدرك هذا الصبى نفسه اختلافه عما كان فى الثانية عشرة حيث استطرد فقال : « إنى أتذكر أنى كنت فى العام الماضى اقتصر على مجرد الجلوس هنا وهناك

حتى أمل نفسى . فأما فى هذه السنة فلدى أعمال كثيرة جدا » .

وأعمال ابن الثالثة عشرة هذه يمكن أن تكون من فرط الكثرة بحيث يشق عليه أن يجد وقتا « يحشر » فيه حتى الأشياء التى يريد عملها — وذلك فضلا عن الأعمال المنزلية الصغيرة المنوطة به . ولكن فى الامكان أن تكون طاقته عظيمة السخاء . وتقرر إحدى الوالدات عن ابنتها : « ليس هناك من عمل بدنى بارع يعسر عليها أن تمله » وتقول أخرى : « إنها لا تكل أبداً فهى لا تبرح مشتاقة دائما لنشاط أكثر » . ولا يصدق هذا القول بأى حال على جميع أبناء الثالثة عشرة ؛ فإن كثيرا منهم يكونون قد تقدموا أشواطا طويلة نحو الرابعة عشرة قبل حلول هذا الدور بهم . ولكن عندما يروح ابن الثالثة عشرة يعبىء جهوده ثم ينفقها بطريقة منظمة ، وخاصة فى شىء أثار إحساساته ، فإنا سنذهل حين نراقبه وهو يعمل . فإن وفاة فأر مستأنس تحتاج إلى أمسية بأكلها يقضيها ابن الثالثة عشرة فى صنع نعش صغير جميل ، وإنشاء نقش للقبر أو قصيدة شعرية تصحب الفأر إلى مقره الأخير ثم فى دفنه آخر الأمر . ولا تنسى أن موت الفأر ربما حدث قبل كل شىء بسبب الزمن الطويل والحب والرعاية العظيمة التى كان ابن الثالثة عشرة يوجهها نحوه. (تصف سالى بنسون ببراعة تامة فى كتاب (Junor Miss) حادثة مماثلة لهذه) .

والمقابلة تظهر بأجلى بيان الجانب المتزن لطفل الثالثة عشرة ورغبته فى الانسحاب . فهو فى العادة ودود ولكنه ليس تلقائيا فى تصرفاته ولا ميالا للاتصال بالناس . فهو يجلس فى هدوء مع قلة حركة . وغالبا ما يكون صوته خفيضا يصعب سماعه ، كما أنه يتكلم أبطأ مما كان يفعل . وربما أجابك بهزة كتفيه . وهو يفكر مليا وبشدة قبل أن يجيب عن الأسئلة وربما عض شفتيه وهو يفكر . وإجاباته مخلصة وصادقة ولكنه لا يبوح بأى سر . وهو أحيانا يبدو كاسفا وجاداً ، ولكنه يبدأ فى الحو إذا أثير اهتمامه . وإنه ليضحك أحيانا وهو يأخذ نفسه شهيقا . فكل ما يتصل به يتجه نحو داخليته أثناء محاولته الاختيار والتمييز والتحديد .

الصحة :

صحة ابن الثالثة عشرة على الجملة في التحسن . فالتعب قد أصبح ملحوظا بدرجة أقل مما كان في الحادية عشرة والثانية عشرة . وربما واصلت قلة شكواها من آلام المعدة أو الصدر . وتتجلى في البعض حساسية الجلد ازاء الصوف ، وشاهد ذلك ظهور طفح على السطح الداخلي للأذرع . وتقل نوبات الإصابة بالصداع ، أن لها علاقة محددة أكثر بأسباب نوعية خاصة حيث يحدث بعد القيام بقدر كبير من التمرينات البدنية أو قبل الحيض . وإن وجود حمى تصل درجتها إلى ١٠٣ — ١٠٤ ف وهي شيء ربما حدث دون ظهور أي عرض من أعراض الإصابة بالبرد أو أي مرض آخر — يمكن عادة أن ينسب إلى نشاط عقلي ذي حدة غير مألوفة .

متنفسات التوتر :

يحدث نقص آخر في متنفسات التوتر . أجل إن قضم الأظافر والحركات المتجهة من اليد إلى الوجه أو حك فروة الرأس لا تزال باقية لدى البعض . ولا تزال هناك حركات واختلاجات صغيرة تشبه الدقات الإيقاعية ربما قللها تناول ڤيتامين ب وإذا كان الجلد وفروة الرأس جافين متحرشفين فربما استجابا أيضا لڤيتامين ب وأفادا منه .

البصر :

كان نحو ثلث ما لدينا من أبناء الثالثة عشرة يشكون من أعراض أو شكايات محددة أو غير محددة تتصل بالبصر . وكان حوالى نصف هذه الشكايات يتعلق بالقراءة ، كما أنها كانت تحدث في أولئك الثوالث عشر الذين يحبون القراءة أو يقرأون بافراط . وكانت الأعراض تتغير من فرد لآخر مع الشكوى من الإحساس بالتعب عند القراءة ومن اختلاط حروف المطبعة مع بعضها أو من الزغللة ، ومن الصداع بعدم السينما أو التلفزيون ، ومن الشعور بعدم الارتياح عند ركوب السيارات ومع ذلك فقليل من ابناء الثالثة عشرة من يدرك أن مرجع هذه الشكايات هو آلياتهم البصرية .

ويجلس ابن الثالثة عشرة فى هدوء أثناء كشف النظر ، ويسأل أسئلة قليلة جدا عن الاجراءات وعن عينيه ، أو عن مدى جودة حالته الصحية . على أنه يستطيع مع ذلك أن ينظر إلى بصره وإلى العناية الصحيحة به نظرة تنطوى على نضج أكبر من ذى قبل . وسيقبل وضع النظارة على عينيه إذا استلزم الأمر ذلك . وربما أبدى أسبابا معقولة تبرر تفضيله عدم لبسها ، ولكنه قد يقبل الاستفادة من استخدامها فى العمل القريب — القراءة والدراسة — وإن اعتبرها شيئا مزعجا . وأبناء الثالثة عشرة الذين يلبسون نظاراتهم طول الوقت ، قد يكرهونها أثناء المناسبات الاجتماعية ، ولكنهم يعرفون أنهم ربما أحسوا بهدم الاطمئنان إلى أنفسهم إذا ذهبوا بدونها . وعند الرابعة عشرة يزداد إحساس البنات خاصة بدافع يدفعهن إلى التحرر من نظاراتهن وستعملن على الحصول على هذه الحرية وعندئذ سيكن أكثر استعداداً لقبول برنامج التدريب البصرى والمعاونة فى تنفيذه .

وابن الثالثة عشرة يساعد بعملية اتجاهه الداخلى التأملى على إنقاص حالة « طول النظر » الوظيفيه لديه . فلو استمر لديه هذا الاتجاه لأنتج « قصر نظر » يمكن تقديره وقياسه ، ومن حسن الحظ أن ابن الرابعة عشرة يتجه فى اتجاه مضاد ، فيزداد طول النظر لديه زيادة طفيفة . فالأطفال الذين لم يبد عليهم أى طول نظر فى الحادية عشرة معرضون تعرضا أكيدا لخطر الإصابة بقصر النظر فى الثالثة عشرة . والذين أصيبوا فعلا بقصر النظر يحتمل أن يلم بهم زيادة أخرى فى نفس الاتجاه . فإذا كان ابن الثالثة عشرة طويل النظر إلى حد ما ويجد صعوبة فى تركيز بؤرة نظره من قريب إلى بعيد خلال نظارة القراءة ، فربما استفاد من العدسات ذات البؤرة المزدوجة[1] بحيث يستطيع فى المدرسة أن ينتقل انتقالا أسرع — من العمل القريب على الدرج إلى البعيد على السبورة .

ويبدى ابن الثالثة عشرة مقدرة على تركيز بؤرة نظره أكبر من مقدرته فى الحادية عشرة والثانية عشرة .

---

(١) العدسات ذات البؤرة المزدوجة : Bifocals or duo-focus lenses .

أنه ربما حـــدق ببصره وراء لوحة الاختبار ، فإن الأبحاث البصرية تدل على وجود تحسن فى أداء عينيه مجتمعتين لوظيفتهما . وتظهر فى معظم أبناء الثالثة عشرة إلا قصار النظر منهم مرونة طيبة فى حركات الأعين ، وهما تتعقبان هدفا متحركا ويمكنهم إتمام ذلك فى يسر ودقة بدرجة كبيرة .

النمو البدنى والتنبه الجنسى ــ البنات

الثالثة عشرة فترة نضج متواصل لدى معظم البنات . فالوزن والطول يستمران فى الازدياد وإن كان ذلك بسرعة أقل وتمتلىء بصفة عامة ثغرات الجسم وتجاويفه لدى كثير من البنات امتلاء يضفى على الأرادف مثلا مظهرا سلساً عندما تمتلىء الثغرة الواقعة بين الرضفتين الخارجيتين . ومع ذلك يمكن أن يبدو فى الوقت نفسه شىء من مظهر النحافة فى نفس البنات اللائى تمتلىء أجسامهن . وهذه الظـاهرة تلحظ بالأكثر حول الوجـــه والعنق والـكتفين ،. وهذه النحافة التى تلم بالمناطق الظاهرة للعيان عادة ، تستطيع هى وزيادة طول القامة فى الثالثة عشرة أن تجعل لمظهر البنت « شخصية مزدوجة » . فإذا كانت فى كامل ثيابها بدت نحيفة حقا . ولـكنها لو قدرت تقديراً بدنياً أدق وأكمل لـكشف ردفاها وفخذاها عن تطورها المـكتمل.

ولاشك أن معظم البنات قد جاءهن الحيض قبل عيد ميلادهن الرابع عشر، كما أن بنت الحادية عشرة المتوسطة قد بلغت ٩٥ في المئة من طول قامتها الناضج الـكامل . ثم إن الخصائص الجنسية الثانوية : الثديين وشعر البدن أخذت تتطور بإطراد ولـكن ببطء . ولـكن أشد ما يشغل تفـكيرهن هو الحيض ــ إذا لم يكن ذلك الحيض قد حدث حتى الآن . فبنت الثالثة عشرة تقر عينا بشـكل ما عندما تظهر فترات حيضها فى النهاية ، وربما علقت بقولها: « حسناً لقد جاءت حقا » . وربما انطوت قلة منهن على شىء من الامتعاض « أنا الآن ثائرة » خشية أن تقيد فترة الحيض من أنواع النشاط التى تمارسنها، بيد أن هذا الامتعاض انفعال عابر فى

كما أن كثيرا من البنات لا يقللن بسببه مشاركتهن فى الألعاب .

والظاهر أن هناك علاقة بين ابتداء الحيض وبين نقص يحدث فى عدد الإصابات بالصداع . وليست فترات الحيض أليمة فى حد ذاتها عادة . ولا يزال مجيئه غير منتظم ، مع وجود فاصل زمنى طويل نسبيا بين الفترات (قد يمتد إلى ستة أشهر) ، ولكن هذا الفاصل الزمنى يميل إلى التناقص حتى تنتهى الفترات عند الرابعة عشرة إلى انتظام أكثر .

ومع أن بنت الثالثة عشرة ليست شديدة التكتم من حيث تعريف صديقاتها وعائلتها أن عليها الحيض ، فكثيرا ما تكون غير مستعدة لشراء فوطها الصحية . ذلك أن الموقف يربكها ويخجلها كثيرا — إذ أن بنت الثالثة عشرة لم تتعد بعد مرحلة الخجل والحياء .

والنظافة شىء مهم لدى معظم بنات الثالثة عشرة . فإنهن قد يكن متنبهات إلى البنات غير ذوات الرائحة الطيبة ، ولكنهن لسن دائما ماهرات فى التصرف فى الفوط التصرف المناسب ، فهن أحيانا يدسسن فوطهن القذرة نفسها أو حتى ثيابهن الداخلية المتسخة فى ركن أحد الأدراج ؛ وربما احتاجت الأمهات أن يقترحن عليهن أن يفحصن أدراجهن لتنظيمها وتنظيفها .

النمو البدنى والتنبه الجنسى — الصبيان

وعلى حين أن الثانية عشرة لم تؤذن إلا ببدء ظهور آثار لظواهر نضج بدنية عند كثير من الصبيان ، فإن للثالثة عشرة تغيرات محددة أكثر . وهذه الفترة هى فترة نمو سريع فى أعضاء التناسل لدى مجموعة المتوسطين من الصبيان . ويظهر شعر العانة وشعر الإبطين فى حوالى الثلثين . ويشرع الشعر الموجود بزوايا الشفة العليا فى الاستمرار . وربما بدا الأنف كأنما يبرز إلى الأمام كالنتوء فى كل من الصبيان والبنات ؛ ولكنه سيبدو متناسبا مع نسب الوجه الأخرى فى غضون سنة واحدة . ويعمق الصوت ويغلظ ويشتد

ثدى كثير من الصبيان بدرجة ملحوظة ويصبح متبسلخا عندالبعض . ومع ذلك فإن هناك من تبـدو أصواتهم أعلى وأوضح منها فى سن أصغر .

فإذا ابتدأت السنة الثالثة عشرة تـكون الزيادة المفاجئة والنمو الطولى قد بدأت فى معظم الصبيان ، ولـكن قلة ضئيلة فقط هم الذين يصلون إلى قمة ذلك النمو المفاجىء . والصبيان أكثر اهتماما بطول قامتهم أثناء ذلك الوقت ، على حين أن البنات أقل إنشغالا ، وذلك نظراً لأن التفاوت فى طـــول قامة الجنسين يكون ملحوظا بدرجة أقل . فإذا وافت نهاية هذه السنة الثالثة عشرة يكون حوالى نصف الصبيان تقريبا قد بلغ من سرعة النمو ذروتها ، ثم هم يعودون فينمون بعد ذلك ببطء أكثر فأكثر .

وتبدأ الانتصابات لا بسبب الاستثارة المباشرة أو الأخيلة الشبقية فحسب ، بل هى تحدث تلقائيا فى الغالب أو بسبب أشكال أخرى للتهيج . وربما كانت هذه الانتصابات مؤلمة إلى حد ما . ومن الجائز أن يتعجب الصبيان لماذا يحدث لهم ذلك وهم ليسوا مع البنات ولا هم يفـكرون فيهن . ونظرا لعدم إمكان التـكهن بهذه الوظيفة يفضل كثير من الصبيان إرتداء سنادة رياضية لا أثناء الرياضة فقط بل وفى جميع الأوقات . وهم يشعرون عند ذلك براحة أكبر واطمئنان أكثر . ومع أن حوالى نصف الصبيان فقط يحدث لهم الإنزال قبل حلول عيد ميلادهم الرابع عشر ، إلا أن معظم الصبيان يعرفونه .

وربما ابتعدت البنات خجلات من الصبيان الذين كثيرا مايجابهون البنات بطريقة مباشرة جدا إن كان بهم ميل إليهن . والظاهر أن الصبيان لايعرفون طرق التحايل الماهرة . لذا فإنهم يظلون دائما بحاجة إلى الانتقال بالحديث من نقطة إلى أخرى جديدة ، بيد أنهم لايعرفون تمـاما ما ينبغى أن يتحدثوا عنه ، ومن ثم فربما اضطرهم الحال أن يلجأوا إلى البحث فى الأعمال والواجبات المدرسية . ويميل الصبيان إلى الحلقة بشدة فى أعين البنات اللائى يجدن فى بعض الأحايين عسرا فى تليين جانب هذه الشدة الذكرية المتمثرة بما لهن كإناث من أحاديث دمثة رقيقة .

٢ – العناية بالذات ونهج الحياة اليومية

الأكل .

أصبحت شهية ابن الثالثة عشرة مستقرة استقرارا جيدا ، وخاصة أثناء السنتين الأخيرتين . وهى لدى بعضهم عظيمة كما كانت فى الثانية عشرة ، ولكنها لدى البعض الآخر قد أخذت تهدأ شيئاما . وبينما كانوا من قبل ربما اغترفوا من الطعام ثلاث مرات أو أربع ، فإن بعضهم يقتصر الآن على الاغتراف مرة أو اثنتين . وهم لايفكرون فى الطعام عادة إلا وهم يأكلون ؛ وعندئذ يستمتعون به تماما أو لعلهم إذا ذكرالطعام أمامهم ، فربما شرعوا فى التفكير فيه .

وغالبا ما يتناول ابن الثالثة عشرة وجبة خفيفة (لهنة) عندما يعود إلى منزله من المدرسة بعد الظهر أو قبل النوم مباشرة . وقد يبلغ به الجوع قبل الوجبة الرئيسية (الغداء أو العشاء) مباشرة درجة تجعله لايستطيع أن ينتظر وربما أكل شيئا قليلا ، لايزيل بأى حال شهيته . ولكنه أقل ميلا إلى التماس اللهنات الهائلة التى كان يتناولها فى الثانية عشرة ، كما أنه أميل لاختيار الفواكه أو المشروبات غير الروحية . وربما ركز رغبته فى شىء واحد كالتفاح أو البرتقال واستهلك مقادير كبيرة منها. ويبدأ أبناء الثالثة عشرة فى ارتياد مخازن الأدوية[1] بعد المدرسة أو بعد السينما لشراء شراب غير روحى أو زجاجة صودا . (إذ أن الجيلاتى بالفواكه والعصير sundae غالية الثمن جدا فى العادة .) ولكن الأمر كله يتوقف على ما تعمله المجموعة وعلى المؤثرات المنزلية . ويبلغنا كثير من الوالدين أن أطفالهم ليسوا من طرازرواد «مخازن الأدوية» .

وقد أصبح العجيج والإقلاق على المائدة أقل كثيرا مما كان . فابن الثالثة عشرة يستطيع الآن أن يجلس بهدوء أكثر . ولم تعد تدور الآن معارك حول ما ينبغى أن يأكل . ومعظمهم

(١) وهى فى أمريكا صيدليات أيضا ولكنها تبيع سلعا كثيرة منوعة ، منها المأكولات والمشروبات (المترجم) .

ياكاون جيدا ، كما يسمح لهم عادة برفض ما لا يحبون ، وهو كره قد يكون قويا جدا . إذ أن هناك أطعمة معينة ولا سيما أنواع الخضروات — يبدو أن أبناء الثالثة عشرة يمقتونها . فهم لا يرغبون فى تناول أى قدر منها ، ولا حتى فى تذوقها . ولكن هذه المرفوضات ليست كثيرة . وهناك الأطعمة المفضلة المعتادة من اللحم والخضر ، كما أن هناك فى الثالثة عشرة ميلا متزايدا إلى الفواكه والسلطات . وقد أصبح الحلو بأنواعه موضع تفضيل أكثر منه فى الثانية عشرة . ولكن البنبون لا يكون مرغوبا كما كان الحال قديما . ومن أبناء الثالثة عشرة من ينحف بدنه ، ولكن هناك آخرين يظلون سمانا . ويدور شىء من الحديث حول ضبط التغذية (الرجيم) ، ولكن الشهية على الجملة تحت ضبط أكثر ، كما أن تخفيض ما يتناول من الطعام ربما حل مشكلة السمن وزيادة الوزن .

ويقال إن آداب المائدة قد تحسنت تحسنا كبيراً : « هو لا يزدرد طعامه كما تعود أن يفعل » — أو « إنه يجلس الآن مستقيم القامة أكثر ولا يحنى رأسه فوق الطبق كما كان يفعل آنفا » . ولا هو « يحتكر الحديث » ، مع أنه لا يزال يحب أن يتكلم .

النوم :

موعد النوم : تبدأ حاجة ابن الثالثة عشرة إلى النوم فى القلة ، ومن ثم فإن ساعة نومه هى التاسعة والنصف إن لم تكن العاشرة مساء . وكما يقول هو نفسه ، « المفروض أن التاسعة والنصف هى ساعة نومى ، غير أن الأمر يتوقف على طول تلك الساعة الفرضية » . والتوجه إلى الفراش ليس فى العادة شيئا شديد الصعوبة ، وذلك بخاصة لأن ابن الثالثة عشرة يذهب والدورة إلى غرفته مبكراً . وهو فى أشد الحاجة إلى أن يمس عليه والده ليتأكدوا من إطفاء الأنوار وإقفال المذياع الخ — وهو يستجيب عادة لهذه الطلبات دون كثير مقاومة . بل إنه يحب الفراش ويتفكر فى التحول العجيب من حيث أنه « كلما كبرت زدت حبا لفراشك » . ومن أبناء الثالثة عشرة من يستسلمون للنوم على الفور تقريبا ، كما أن بعضهم الآخر يصغون إلى الراديو أو يفكرون

بينهم و بين أنفسهم مدة نصف ساعة تقريبا . ويحتمل أن يرسموا خططهم مقدما . فيفكرون فيما سيعملونه عصر اليوم التالى أو حتى فى الصيف التالى . وهناك قلة تستغل والديهم استغلالا غير عادل ويظلون متيقظين حتى الساعة الأولى أو الثانية بعد منتصف الليل وهم يقرأون أو يصغون إلى الراديو على أن الأغلبية تنام مع ذلك فى غضون نصف ساعة — وتنام ملء جفونها .

النوم . يقول الكثيرون أنهم يحلمون وإن لم يمكنهم أن يتذكروا رؤياهم فيما بعد . وكثيراً ما يحلم الأطفال بالألعاب كما تحلم البنات بالصبيان والرقص . وهم فى الغالب يحلمون بما يدور فى عقولهم ويلوحون كأنما يمكنهم أن يحلموا بإرادتهم بنوع خاص من الرؤيا يرغبون أن يخبروه . وكثيرا ما تكون أحلامهم عديمة التجانس . إذ يحلمون بأن جماعة من البنات قد حضرت إلى إحدى الحفلات لابسات مودة منوعة الأشكال والألوان ، تبدأ من بنطلون رعاة البقر إلى الفستان الرقيق المصنوع من قماش الفضة اللألاء . أو أن معلم العلوم — وهو رجل — قد يرى فى المنام مرتديا بدلة حمام من قطعتين منقوشة بالزهور ، وربما بدأ أحد الأحلام بداية لطيفة حول أشياء عادية ثم أصبح فيما بعد مشوشا تماما . وربما أطاف بالطفل حلم محزن . وكثيرا ما يقرر الوالدان أن ابن الثالثة عشرة يتكلم أو يدمدم فى نومه ، كما أنه كثيرا ما يسمع وهو يصرخ فى إخوته .

الصباح . ليس الاستيقاظ فى الصباح فى العادة مشكلة على ابن الثالثة عشرة . فهو أقرب للاستيقاظ من تلقاء نفسه فى وقت مبكر يمكنه من التراخى فى الفراش والنهوض على مهل . فإذا توفر فى عقله الاستيقاظ فى ساعة معينة ، فربما استيقظ مبكرا جدا . وإنه لا يريد فى بعض الأوقات أن ينهض بعد الاستيقاظ مباشرة ، وقد يستطيع ذلك عند ما يفكر أن « المسألة مسألة قوة عزيمة » .

الحمام

أصبحت مسألة النظافة بأكملها مسلما بها الآن تسلما أكثر ، ولذا فإن ما ينفق فيها من الزمن والطاقة أقل من ذى قبل . وكثيرا ما يقرر الوالدان : « إنه لا يعترض ولكن لا بد من تذكيره » — أو « لا بد من تذكيره ، ولكن لا مناقشة » . ولم يعد ابن الثالثة عشرة يلتذ بالماء على نحو ما كان يفعل فى الثانية عشرة . فالاتجاه الغالب عليه يتلخص فى قوله : « لنفرغ من الأمر بأقصى سرعة مستطاعة »

ويستحم ابن الثالثة عشرة بمعدل مرتين فى الأسبوع أو يوما بعد يوم . وهو أميل إلى الدش صيفا وأخذ حمامات البانيو فى الشتاء ، وإن كان الصبيان أميل لأخذ الدش فى جميع الفصول . وفى إمكانك دائما أن تثق أن ابن الثالثة عشرة سيستحم قبل حفلة الرقص . ذلك أن ابن الثالثة عشرة يدرك الحاجة إلى الاستحمام نتيجة لزيادة إفراز العرق لديه (بسبب أنواع النشاط الرياضى وتطور تكوينات غدد العرق الجديدة ذات الرائحة القوية المميزة) .

والبنات يعالجن شعورهن بالشامبوه مرة فى الأسبوع عادة ، وربما احتجن لبعض المساعدة فى تبليل الشعر بالماء — ثم إن زيادة الاهتمام بالشعر من جانب كل من الصبيان والبنات تجعل العناية بالشعر من حيث الغسل والترجيل أمرا سهلا إلى حدما . وتندهش بعض الأمهات تماما — عند ما يفكرن فى ذلك مليا — لطول ما يقتضيه أبناؤهن أطفال الثالثة عشرة من الزمن فى النظر إلى المرآة وهم يسرحون شعورهم .

ولا تحظى أظافر اليدين بنفس العناية التى يحظى بها الشعر والعادة أن الوالدين لا بد لهما من تذكير الطفل بقص كل أظافر اليدين والقدمين . ومع ذلك فإن هناك قليلا من البنات يحتفظن بمجرد أظافر على النضد (الكومودينو) المجاور لفراشهن يقلمن به أظافرهن كل ليلة تقريبا .

والعناية بالأسنان قد أصبحت ثابتة مقررة بدرجة لا بأس بها ، وإن كان التذكير بدلك الأسنان بالفرشة لايزال ضروريا بالنسبة لبعض أبناء الثالثة عشرة.

الثياب والعناية بالغرفة

قد ظهر نوع جديد من التدقيق فى المظهر الشخصى لكثير من أبناء الثالثة عشرة الصبيان منهم والبنات على السواء . ويقال عنهم انهم « دقيقون جداً » – أو أنهم « يظهرون دائماً فى بزة أنيقة نظيفة » — أو أنهم « مدققون لدرجة الوسوسة » .

أما الذين كانوا فيما سلف لا يكترثون بهندامهم ؛ فإنهم الآن أحسن كثيراً من حيث مظهرهم .

ويتأثر ابن الثالثة عشرة فى نوع ما يختاره من الثياب بما تفضله الجماعة ، ولكنه ليس للجماعة عبداً كما كان فى الثانية عشرة فإنه يصبح الآن أكثر اطمئناناً إلى ما يحب وما يكره . وهو قادر تماما على شراء كل مشترياته بنفسه فيما عدا الكبير منها . وابن الثالثة عشرة يكون فى حالة المشتريات الكبرى كالبدلة أو الفستان أو السترة (الجاكتة) هو الشخص الذى يتخذ القرار النهائى وإن كان أحد والديه يرافقه . إذ أنه هو الشخص الذى سيرتدى الثوب فى النهاية . والغالب أن يكون هناك اتفاق لا بأس به بين الوالد والطفل . ثم إننا نزداد دهشة حين نرى أن الخلاف قد يكثر بينهما مع احترام كل من الطرفين لذوق الآخر . ولكن ابن الثالثة عشرة يستمسك على الجملة بحزم بما يقع عليه اختياره (أو اختيارها) ، ويصر على رأيه حتى يعثر له على البدلة المطلوبة بالضبط - ولو دفع أمه أثناء تلك العملية إلى براثن الجنون . (وهناك على نقيض ذلك تماما مجموعة معينة من الصبيان يحتقرون الثياب ، ويفضلون ارتداء بنطلون رعاة البقر والقمصان الاسبور Sport ، ويحكمون على الثياب الجديدة بوزنها — فأخفها أحسنها . ومع ذلك فإنه حتى هؤلاء الصبيان أنفسهم يخضعون فى العادة دون ضجة إذا حان موعد التأنق فى الثياب) .

والبنات متنبهات بوجه خاص إلى ثياب الآخرين . وهن يستطعن أن يقدرن تقديرا لا بأس به ، أى الثياب

سيجلب عليهن الثناء ، وأيها لا يجلب لهن أى ثناء . ومع أن الصبيان يكونون فى الأغلب محافظين من حيث اختيارهم للألوان ، فإن هناك عددا قليلا تماما من أبناء الثالثة عشرة الذين يواصلون اختيار أربطة الرقبة والجوارب الصارخة اللون ، وكذلك القمصان الهفهافة ذات الألوان الزاهية. وابن الثالثة عشرة شديد التنبه إلى التجانس بين ثيابه ، كما أن حسن ذوقه فى الاختيار يتجلى فى تأنقه النهائى .

ومع اهتمام ابن الثالثة عشرة بمظهره بهذه الدقة الكبيرة فإنه قد لا يربط حتى الآن بين العناية بثيابه وبين الشكل الذى يريد أن يظهر به . فربما لم يبرح « يلقى ثيابه » — أو « يقذفها هنا وهناك » . بل قد يحدث أن يترك ابن الثالثة عشرة ثوبا عزيزا عليه مكوما على الأرض ومنهم من يعلق ثيابه على ظهر كرسى ، أو على أكرة الباب . على أن من الممكن أن تعلق الثياب الجيدة التعليق الصحيح . والقليل جدا منهم من يدرك أن الثياب تتغضن إذا لم تعلق بطريقة صحيحة حتى لقد يشدون ثيابهم الخاصة فى مكبس الثياب .

وقد تقدم ابن الثالثة عشرة من حيث وضع ثيابه القذرة فى المرجونة ، وفى الإمكان أيضا الإعتماد عليه تماما فى تغيير ثيابه الداخلية وارتداء أخرى نظيفة . بل الواقع أن أمه قد يبلغ بها الأمر أن تتمنى لو لم يكثر من التغيير إلى ذلك الحد . وقد أخذ يصبح متنبها كذلك إلى أى الثياب ينبغى إرساله إلى محل التنظيف .

وغرفته لا تنتثر فيها الثياب فحسب بل والكتب والأوراق على أرضها ومعها الأطباق المتخلفة عن الوجبات الخفيفة . وهو يدرك الحاجة إلى جمعها وترويق الغرفة ، ولكن لا يبدو عليه القدرة على الوصول إلى هذه الغاية أكثر من مرة فى الأسبوع أو مرة كل أسبوعين . وربما احتاجت أمه إلى تنبيهه ، ولكن لا داعى لخوض معارك ضخمة ، وذلك لأن ابن الثالثة عشرة يستطيع الإذعان . فإذا استقر رأيه على إتمام الأمر فربما قضى

فى تنظيم غرفتــه يوم سبت با كمله ، بادئا بالأدراج والخزائن ومنتهيا أخيرا بتكديس عرمة مختلطة فى وسط أرض الحجرة .

ويقضى ابن الثالثة عشرة شطرا عظيما من وقته بغرفته . وربما ألصق على جدرانها أثناء ذلك صور ممثلى السينما أو ممثلاتها أو زينها بالأعلام الصغيرة . على أنه يقضى فترة طويلة من الوقت وهو متكاسل فى سريره يقرأ أو يستمع إلى مذياعه أو يؤدى واجباته المنزلية . وغالبا ما يزود بابه بقفل وسلسلة لضمان الانفراد عن الناس وعن الإخوة الصغار بوجه خاص .

النقود :

ومع أن قليلا من أبناء الثالثة عشرة لا يزال يتناول مصروفا ضئيلا مقداره خمسين سنتا ، فإن الغالبية تتلقى دولارا واحدا ، ولكن حتى هذا القدر نفسه ربما بدا لهم غير كاف . وبعضهم يدخل فى المصروف وجبات غدائه وأجرة الأمنيبوس ، ويسمح لهم تبعا لذلك بالتصرف فى مصروف يقارب دولارين ونصفا فى الأسبوع . وقد تكون قدرة الصبيان على الكسب كبيرة تماما تتراوح بين حد أدنى هو دولاران أو ثلاثة فى الشهر أو حد أعلى بين ستة دولارات إلى اثنى عشر فى الأسبوع ، من المرور لتوزيع الصحف والصبيان فى العادة يدخرون نقودهم لشراء مشتريات من نوع خاص . وهى تتراوح بين آلة تصوير وبين قصاص آلى للزرع أو جرافة للثلج أو زورق . وربما دفع المكتسبون للمال من الصبيان أثمان ثيابهم والبنات أميل للادخار من أجل شراء الهدايا ، أو ربما لشراء كلب .

ولن يحل المصاعب المالية لدى بعض أبناء الثالثة عشرة شىء حتى ولا عملية الهدوء والتفكر وتأمل الذات التى حلت به . فإن « النقود تسيل من أيديهم وكفى » — أو « هى إنما تختفى » فإذا لم يصرفوا نقودهم على الفور ، فلا أقل من أن يكونوا «مفلسين» عند نهاية الأسبوع فهم فيما يبدو يكونون دائما بحاجة إلى

المزيد بصورة ما ، مهما كبر المبلغ الذى يبدأون به . ومع ذلك فهناك آخرون لا تعوزهم الأموال ولـكنهم يجدون عسرا فى تنظيم ميزانياتهم أو نقودهم . وربما كانوا مخلصين فى الرغبة فى ضبط ميزانياتهم . ولـكنهم يرتبكون (يوحسون) تماماً فيها . وكأنى بهم يكادون يتركون النقود فى كل أرجاء المنزل : فى جيب بنطلونهم أو على النضد (الـكومودينو) المجاور للفراش أو بالطابق الأسفل فى المطبخ، فلا بد من قيام بعض أفراد العائلة بجمعها لمراجعة ميزانيتهم معهم .

العمل

أخذت المساعدة فى المنزل تتخذ نمطاً معيناً يستطيع الوالدان الاعتماد عليه ، كما يستطيع ابن الثالثة عشرة معه أن يواصل العمل مع قدر معين من الرغبة والرضى . وبينما هو يعجل بإنجاز أربع أو خمس مهام هو مسئول عنها ويتمها فعلا ، يكاد المحيطون به يحسون أن ذلك العصر الذهبى السعيد الذى طال انتظاره منذ أمد بعيد قد وافى فى النهاية . وربما جاز التساهل فعلا فى شأن الطلبات التى تفرض على ابن الثالثة عشرة بما ركب عليه من كفاية ورغبة فى اسداء الخدمات . ذلك أن الأم ينبغى أن تصبح أميل لأن تطلب إليه ما تشاء بصورة مناسبة أو عندما يتيسر له الوقت اللازم . أجل أنك لا تزال تجد الأفراد الذين يقولون « دقيقة واحدة » ، على أن ابن الثالثة عشرة قد كون لنفسه على الجملة نظاماروتينيا للعمل ، وذلك فى الغالب بالتناوب فى أحد الأعمال مع أخيه ، كما أنه يؤدى نصيبه العادل .

والصبيان ينعمون بوجه خاص بأداء جميع أنواع الخدمات اليدوية التى تشمل إصلاح الآلات والتركيبات الـكهربائية البسيطة . ويسرهم القيام بالمشاوير كما أنهم يضيفون إلى أعمالهم الخارجية وظيفة جمع الـكور فى ميدان لعبة الجولف . ويبدأ قليل جدا منهم فى الخدمة كبائعين بالمتاجر . والبنات يبدأن فى تنظيف غرف أخرى بالمنزل عدا غرفتهن والاستمتاع بطهو الفطور وخاصة يوم عطلة الأسبوع . والجنسان يقومان بكثرة بمجالسة الأطفال خارج منازلهم والاستمتاع بالـكسب الذى

يحصلون عليه .

٣ - الانفعالات

إن التغيرات التى حدثت بين الثانية عشرة والثالثة عشرة وإن كانت محددة قاطعة إلا أنها تغيرات خفية أو تكاد ، كما أنها ربما غابت فى بعض الأحيان عن ابن الثالثة عشرة نفسه . وهو كثيرا ما يحس أن « الأمور أحسن قليلا » على كل حال — وذلك لأن آفاقه آخذة فى الاتساع ، من ناحية كل من الأشياء التى يستطيع صنعها بنفسه دون مساعدة ومن حيث علاقاته مع أصدقائه . أما الآن فإنه وإن أمكن للأحداث الخاصة أن تملأ قلبه بالسعادة التامة (كاختياره للقيام بدور فى إحدى المسرحيات أو ذهابه إلى احدى الحفلات أو نجاحه فى أحد الاختبارات) ، فإن انفعالاته أهدأ فى العادة منها فى الثانية عشرة .

ويقول ابن الثالثة عشرة نفسه أنه « ليس طيب القلب جدا » ، كما أنه غالبا ما يدرك أنه يكون أظرف وهو بعيد عن بيته منه وهو بالبيت . وربما أحس آخرون بالتغيرات بصورة أقوى مما يحسها هو . ولا يفتأ الوالدون يقررون مرارا وتكرارا أنه يتجلى فيه هدوء حقيقى ، وأن نغمة أكثر جدية قد أخذت تتسلل إليه ، وأنه تلم به فترات من الاكتئاب الملحوظ . إذ أن الحيوية الدافقة والتحمس اللذين كانا هما السائدان تماما فى الثانية عشرة قد هدآ هدوءاً قاطعا . فخفى الاطراء الذى يوجه إليه أثناء مقابلة الوالدين لنا أصبح يزجى بحذر وتحفظ : فصار يقال عنه أنه « طيب بدرجة لا بأس بها » — أو « مرح تماما » — أو « حسن تقريبا » . وكثير من ابناء الثالثة عشرة يحيط بهم جو غالب من الغم والأسى تختلف أوصافه بين التنكد والعبوس والتكتم والتشاؤم .

واذا لم يسرف هدوء ابن الثالثة عشرة حتى يبلغ به درجة الانسحاب والاعتزال ، تكون انفعالاته فى العادة (ممكنا ضبطها الى حد لا بأس به) فإنه يحس بأنه أكثر استقلالا كما أنه يعمل باستقلال أكثر . وربما انفصل عن مجموعة العائلة وذهب الى حجرته لأنه يحب أن يكون منفردا . وهو قانع بنفسه أكثر منه سعيد بوحدته . وربما

حلت به لحظات سعيدة جداً ليس لها من سبب خاص ، ولكن هذه لا تدوم فى العادة طويلا . ثم إن لحظات سعيدة أخرى يبدو أنها تحل بابن الثالثة عشرة لأنه أراد لها أن تكون فكانت .

وشعوره بالحزن أكثر حدة مما كان . وربما كان هذا الشعور جزءاً من حالة مزاجية يشعر أثناءها « أنه متبلد مكتئب كأنما لا تسير الأمور على ما يرام » — وذلك دون ما سبب ظاهر . وربما كان حزنه لأسباب واضحة ظاهرة ، كوفاة بعض الناس أو الحيوانات الأليفة أو انتقال الأصدقاء لجهة أخرى . ولكن الشىء الذى يجعله يحس بأنه شديد الفظاعة هو الساعة التى يجن فيهاجنون أمه غضبا منه وتناقشه بعنف . وهو غالبا ما يعرف أنه ينبغى له أن يفعل شيئا يعالج به إحساسه بهذه الفظاعة الشديدة ، ولكنه يعرف أيضا أنه ليس من السهل عليه أن يتصرف عندما يمر به هذا الاحساس .

وإذا غضب ابن الثالثة عشرة بدا كأنما هو قادر على ضبط نفسه أحسن من ذى قبل . وقلما احتدم حقا بالغيظ وانفجر كما ألف أن يفعل . بل هو أدنى أن يكون مستاءاً أو مغتاظاً أكثر منه غاضباً . ولو فرض أنه أغضب حقا لكان مع ذلك قادراً على بذل شىء من الكبح الواعى (الشعورى) . على أن بعض أبناء الثالثة عشرة ، وهم الأضعف قدرة على ضبط أنفسهم ، يبادرون بالتفوه بألفاظ بذيئة متى أغضبوا . ولكن كثيرين لا ينطقون بكلمة أولا يفعلون شيئا ؛ وآخرون يغادرون المكان ويذهبون إلى غرفهم ليفكروا فى الأمور بإمعان ثم يهدأون . والغالب عندئذ أن تصبح الاستجابة استجابة « محولة » . فهو حيث يبدو فى الظاهر كاظماً لغيظه فى تلك اللحظة ، قد يخرجه فيما بعد على شخص آخر ، وخاصة أمه . أو لعله فى الأغلب الأعم يرد غضبه على نفسه ، « فيمعن تفكيرا فى دخيلة نفسه » . ويلوح أن ذلك يهدىء من ثائرته بالتدريج .

وعلى الجملة يدرك ابن الثالثة عشرة أنه « لا يستطيع فعل أى شىء » عندما تثور ثائرته غضبا فى وجه والديه أو معلمته . وقد صار يعلم أيضا أن والديه غالبا ما يظهر فيما بعد أنهما على

صواب . ولكن المعلم كثيرا ما يكون مشكلة بفضل ابن الثالثة عشرة حلها . ذلك أن بعض أبناء الثالثة عشرة قد يبلغ من شدة غضبهم من معلمهم بحق أو بغير حق ، أن يشعروا أنهم « أرذال بدرجة فظيعة » . أما الذين لا يملكون الشجاعة اللازمة للتصرف العدوانى ، فربما فعلوا عكس ما يطلبه المعلم منهم . وقد يبلغ بهم الأمر أن يحقروا أحد العظماء لمجرد أن المعلم يقول إنه عظيم .

وابن الثالثة عشرة يندر أن يرى وهو يبكى ، ولكن قد يعثرون عليه فى بعض الأحيان وهو يبكى بغرفته . وهو يبكى من الغضب أحيانا ، ولكنه يبكى فى الغالب أيضا عندما « تسوء الأحوال فعلا » . وربما بكى كل من الصبيان والبنات لأنهم لم يدعوا إلى إحدى الحفلات . والعادة أن هؤلاء هم أبناء الثالثة عشرة الأذكياء الصغار الذين يتنافسون مع أبناء الرابعة عشرة الذين اكتمل نضجهم . والأغلب أن هؤلاء الصبيان الأقل نضجا يكونون أحسن حالا إذا تنازعوا مع صبيان من نفس عمرهم ولعل الخطأ فى وضعهم فى فرقهم الدراسية قد حدث منذ زمن بعيد فى الفرقة الأولى عندما غطى ذكاء الطفل فى القراءة والحساب على كل اعتبار آخر . ولم يفكر أحد فى مصاعب الحياة الاجتماعية من الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة . وفى بكاء ابن الثالثة عشرة التلف لروحه عندما يبعد من الجماعة .

وعلى الجملة ليس ابن الثالثة عشرة شخصا خوافا . وقد يقول إن لديه « نفس المخاوف العادية السوية التى لكل إنسان » . ولكن كثيرا ما تدور بعقله أفكار مخيفة . ربما حاول أن يهون من شأنها وهو يتحدث عنها . وأنت كثيرا ما تسمع ابن الثالثة عشرة يقول : إنه لا يخاف « شيئا كبيرا كالقنبلة الذرية » أو أن روايات الخفايا المذاعة بالراديو « ليست شيئا يخاف منه » أو أنه « لا يخاف من البقاء بالمنزل بمفرده ، وكل ما فى الأمر أنه يحس الوحشة إلى أقصى حد » . وهو يجيب أنه لا يخاف من المشى إلى آخر شارع مظلم ليلا ولكنه فقط « يسير أسرع قليلا » . ذلك أن ابن الثالثة عشرة يحاول أن يقنع نفسه أنه ليس خائفا .

وهناك خوف واحد مخصوص يساور عددا من أبناء الثالثة عشرة - وهو الخوف الذى يوجه المرء عندما يحصر بمكان ، حين يكتنفه جمهور من الناس أو يدخل إلى ممر سفلى أو حتى يقف داخل حصن من الثلج [أثناء اللعب] .

ومع أن ابن الثالثة عشرة ربما لم يكن خوافا جدا ، فإنه صاحب قلق كبير . وهو يقول بنفسه إنه : « يقلق من أجل كل شىء تقريبا » أو إنه يقلق لأنه سوف يقلق . والظاهر أن لكل من أبناء الثالثة عشرة شيئا شخصيا يثير سخطه ويقلقه ، وهناك عدد لا بأس به يقلقون من أجل العمل المدرسى — فالطلبة الضعاف يحملون الهم على نجاحهم فى الحساب ، والأقوياء من أجل حصولهم على مرتبة الشرف . وبعضهم يقلقون على محبة الناس لهم وآخرون على محبة الناس لأخ لهم . هذا عدا آخرين يبدو عليهم الانشغال بتسديد ديونهم أو القيام بأعمالهم . وثمة آخرون يسرفون فى الأمر يحملون فوق كواهلهم أعباء الشئون الدولية . وحل ابن الثالثة عشرة للمشاكل العالمية يمكن أن يكون بسيطا تماما . وقد حلت بنت فى الثالثة عشرة المشكلة بقولها — « لو أنهم استخدموا أدمغتهم لسووا المسألة . أنهم فقط يريدون أشياء (معينة) ولا يفكرون البتة فى الآخرين » .

ومع ذلك فلو واجهت ابن الثالثة عشرة بقولك : « ما مشكلتك الرئيسية » ؟ لجنح إلى قول إنه ليس لديه «مشكلات كبرى » — أو « انها جميعا مشاكل صغيرة يمكن حلها بسهولة » . والبنات أكثر اهتماماً بمحبة الناس لهن وبجاذبيتهن ومستقبلهن ، على حين يكون الصبيان أشد اهتماماً بشئون المدرسة أو النقود . وقليل منهم واقعون تحت تأثير عادات وأشياء من نوع خاص ، كالسهر قليلا مساء الجمعة أو الانشغال حول عجز بدنى بهم أو وصمة . كما لا يزال هناك عدد لا بأس به من أبناء الثالثة عشرة مشكلتهم الرئيسية هى أخ أو أخت ظلوا سنوات عديدة يتقاتلون معه .

وابن الثالثة عشرة وإن بدا فى بعض الأحيان شديد الفظاظة ، إلا أن له فى سويدائه قلبا حساسا جدا .

فما أسهل ماتنجرح إحساساته . ويمكن أن يتألم بعض الصبيان بوجه خاص لشيء يقوله لهم آباؤهم . (وكان ذلك يصدق أكثر على البنات فى الحادية عشرة والثانية عشرة) . وليس ما يؤلم شعورهم هو فقط ما يقوله الناس لهم ، بل وأيضا كل مايخيب الأمل أويخفقون فيه ، كما هو الشأن فى العمل المدرسى . وهناك عدد لا يفعلون شيئا لو جرح شعورهم . وثم آخرون يتجاهلون عمدا الشخص الذى تسبب فى جرح الإحساس أو يصدونه هازئين . كما أن هناك قلة قادرة على تهوين المسألة بالضحك أو محاولة إلقاء نكتة .

وابن الثالثة عشرة متنبه بدرجة متزايدة إلى مشاعره الخاصة . وكثير منهم يظهرون مشاعرهم ولا يعبأون علم الناس بمشاعرهم أم لم يعلموا . ولكن كثيرين يريدون أن « يخفوا » إحساساتهم أو « يداروها » ، أويتيحون للناس أن يعرفوا ما بهم متى كانوا سعداء لا متى يمسهم الحزن . وهم فى الغالب لا يظهرون مشاعرهم إلا لأصدقائهم الحميمين ، أو لأمهاتهم عند الاقتضاء .

والتعبير عن المحبة لا يتأتى لابن الثالثة عشرة بسهولة بل هو أدنى أن يكون فاترا متحفظا . وهو يلوح كأنما قد كمن فى نفسه وأنه أميل إلى التفكير وحل المشاعر فى دخيلة نفسه . وهو ليس شديد الغيرة ممن أوتوا مواهب خيرا منه أولهم أملاك أكثر منه . وقد يحس « فى بعض لحظاته » « الغيرة من أشياء صغيرة تماما » ، ولكنه على الجملة لا يتمنى أن يتبادل مكانه مع غيره .

وقد بلغ ابن الثالثة عشرة المرحلة التى يحب فيها أن يتبارى فى « الأمور ذات الأهمية » — لديه . وهو مدقق تماما فى اختيار ما يريد أن يتفوق على الجميع فيه . ولكنه لا ينزعج كثيرا إذا لم يفز ، وإن أراد وحاول أن يتفوق — لأنه يقول على الأقل . « إنه لا يشعر بالمذلة ، إذا هو خسر » .

وقد أصبحت الفكاهة حادة مريرة نوعا ما لدى بعض أبناء الثالثة عشرة . وفيهم قلة أصبحت ماهرة بوجه خاص فى التهكم . وهم يحبون أن يكرروا بشكل مبالغ فيه شيئا قاله شخص آخر . ومآخذ ابن الثالثة عشرة على لزمات معلمه وعاداته قاسية لاذعة ، ويمكن أن تكون

أخاذة جدا . ومن أحب الأعمال إليه المحاكاةالساخرة . وبعض نكاته الجنسية متقدمة تماما وكثيرا ما تنطوى على إشارة مقنعة إلى الاختلاط الجنسى .

٤ – النفس النامية

ليس ثمة وسيلة يمكن المراهق أن يكتشف نفسه بها أفضل من سحب قواه جميعا من مسرح النشاط فى حياته وحشدها ثم التناجى مع نفسه . فإن نفس طبيعة ابن الثالثة عشرة وبناء جسمه ، تمهد السبل لوسيلة النمو هذه . وقد تختلف إلى حد كبير طريقة كل فرد فى الانتفاع بما تقدمه إليه قوى النمو ، ولكن الاتجاه واحد لا يتغير . فإن حركة الحادية عشرة السريعة المتنقلة الحافلة بالصراع قد استقرت خلال الثانية عشرة فى نقطة فى الثالثة عشرة ساكنة مطمئنة فى الظاهر أو تكاد . ولكن السكون (ديناميكى متحرك) أيهما بما يعمل فيه من قوى داخلية فبفضل القوى الذهنية التى توجد حديثا يركز إدراكاته ويحيلها إلى استبصارات حادة بل حتى نفاذة .

وابن الثالثة عشرة «راغب فى ترك الزمن يجرى مجراه » . والأمر كما قال أحد الصبيان : « كان من عادتى أن أرغب فى النمو السريع ، ولكنى الآن أتمنى لو نموت ببطء ، أى على الطريقة الطبيعية فقط » . فقد أخذ يقلع الآن عن تلك العجلة السالفة وذلك القلق على الخبرات المستقبلة التى لم يكن فى الحقيقة مستعدا لها . إنه يريد أن يحيا « الآن فى حاضره ويريد أن يعيش عيشا أوفى» وهو وجودى بالطبيعة يعطى الحياة ما يجب عليه إعطاؤه لها ، ويأخذ منها ما يستطيع اقتناصه .

وهو لا يجد ممن يكبرونه نفس الاطراء الذى كان يجده فى الثانية عشرة ولكنهم يقدرونه (ونأمل) أن يفهموه وكم من مرة يقول عنه أحد الوالدين : « إن له قطعاً حياة خاصة به » ، – أو « انه يعيش بمفرده » . وقد يحس الوالدان الألم من جراء ذلك الانسحاب والتباعد ، إذ يشعران أن ابن الثالثة عشرة يقفل عليه الباب دونهما . أو لعلهما مشغولان قلقان يحسان وجوب عمل شىء ازاء ذلك التباعد . ذلك أنهما لا يدركان فى أغلب الأحوال أن ذلك هو وقت التباعد والانفراد . وهؤلاء

الوالدون أنفسهم يستطيعون معاضدة النمو معاضدة أوفى إذا هم وفروا لابن الثالثة عشرة العتاد والمكان الذي ينسحب إليه ؛ وهو قلعته الخاصة — إن جاز مثل ذلك القول — تلك التي يستطيع أن يعيش فيها بشكل أوفى وأجزل .

وليس معنى ذلك أن أبناء الثالثة عشرة جميعا ينسحبون بأشخاصهم من العائلة بالانطلاق إلى غرفهم . ومع ذلك فإنه حتى أولئك الذين لا يزالون يشاركون جماعة العائلة عيشها قد « يتوهون » أحيانا داخل المنزل . أو لعلهم لا يرغبون في الاشتراك في نفس أنواع النشاط الجماعي التي اعتادوا أن يستمتعوا بها مع العائلة . وربما كانوا يقضون حياتهم في شغل مستمر ، ولكنهم أكثر استقلالا عن جماعة العائلة .. بل الواقع أنهم أكثر استقلالا عن جماعة الأتراب ، وربما ألمت بهم في علاقتهم مع الجماعة موجات من النزوات ولكنهم ليسوا على الجملة عبيدا للجماعة كما كانوا قبل ذلك .

ويبدأ ابن الثالثة عشرة يرى نفسه رؤية أوضح . ذلك أن مظهره وهيئته هي التي تشغله أولا وقبل كل شيء .

وتلك هي (نفسه) الخارجية . فالمرآة تجتذبه كأنما هي مغنطيس . فكل خصلة شعر تنفصل عن أخواتها ينبغي أن يعيدها المشط إلى مكانها . وهو يهتم بثيابه اهتماما قاطعا ويتأنق بعناية وتدقيق شديدين . وهذا كله جزء من التعبير عن قدراته على التمييز التي ظهرت حديثا كما أنها دليل على تنبهه الذهني إلى هيئته .

أما ذاته الداخلية فتلك أيضاً لا تنجو من تفحصه الناقد . ويقال عنه إن له استبصارا جيدا ، وأنه يعرف ما يعنيه زميله الآخر . وفي إمكانه أحيانا — وهو مستغرق تماما في خبرته الخاصة — أن يقف بمعزل عن الناس ويضحك من نفسه بطريقة البالغين . ذلك أن نقده الذاتي موجه نحو ذاته الداخلية ، أي نحو خلقه . وهو يدرك أنانيته وكسله وشدة وسرعة غضبه وضعف فهمه لزميله ، وربما فتش نفسه متلبسا بما سيعده في المستقبل وسائل ماكرة خادعة . وهو يعرف متى يقص الحكايات قاصدا منها فيما يبدو إصلاح إحساسه بنفسه . ولكنه يستطيع أن يكون وفيا لنفسه ويعترف فيما بعد :

« إنما أكره نفسى عندما أحاول أن أحصل على العطف . لم أخبرك بتلك القصة إلا لكى تقول إنى كنت على صواب وأن « سنثيا Cynthia كانت مخطئة » .

ولكن ابن الثالثة عشرة لا ينفق زمنا طويلا فى نقد نفسه . فهو أكثر اهتماما بأن يعيش على سجيته ، وبمسايرته لنفسه وبعثه السرور فى نفسه . ولم تعد فكرة الشهرة تجتذبه كما كانت تجتذبه فى الحادية عشرة . فالآن هو « يريد فقط أن يكون فى استطاعته أن يمتع نفسه » .

وهو يصبح متنبها إلى نقطة جديدة ذات صدارة هى المخ ، الذى يبدو أكثر من أى شىء آخر ، أنه هو الموضع الذى تقيم فيه نفســـه . وهو يتحدث عن الوقت الذى كان يظن فيه أن الخاتم أو الضفائر كانت جزءاً من نفسه (أو نفسها) ، أما الآن فإن هذه الأجزاء الخارجية القابلة للقطع والنزع ليست جوهرية . فهى عرضة للتغير . وربما أمكنه التعبير عن نفسه بنشاط عن طريق أفكاره وضميره أو قدرته على التقـــد . ولكن المكان الذى تتواصل فيه كل هذه الأفعال موجود فى المخ الذى « تستمر فيـــه جميع الأفكار الشعورية وجميع الحركات الشعورية » . وهو من التنبه إلى المخ بحيث يقيس زملاءه التلاميذ بعياره ويلقب الفرد القوى المدرك فيهم بلقب « الدماغ » أو المخ . أو قد تكون هذه هى طريقة تحيته لأصدقائه فى التليفون حيث يقول : « هالو يا مخ » ولكن لا يزال هناك أولئك الذين لا يبرح القلب أو المعدة أو الأيدى أو الأقدام أكثر سيطرة لديهم على النفس وموطن مقامها . وربما كان تسلط هذه الأجزاء واشتداد نشاطها مرتبطا ارتباطا وثيقا بالشخصية الفردية لهؤلاء الأولاد من أبناء الثالثة عشرة على وجه الخصوص . أو لعل كل ما فى الأمر أن هؤلاء أبناء الثالثة عشرة أنفسهم لم يصلوا بعد إلى المرحلة التى يظنون فيها أن مخهم هو مركز كل شىء .

وقد يبلغ من قوة الاطمئنان الذهنى فى نفس ابن الثالثة عشرة أن ينفق قسطا كبيرا من الاهتمام والوقت فى اتجاهات لفظية . فإن قاموسا مطولا قد يصبح كنزا يعتز به ، وخاصة لدى

الصبيان ، كما أنه حتى تقسيم الـكلمات إلى مقاطع قد يؤذن باهتمام بأصول الـكلمات . ويحس ابن الثالثة عشرة بقوته الذهنية ويريد أن يتقدم للبنح الدراسية .

على أن هـذه السن قد تحمل فى طياتها القلق الشديد لأبناء الثالثة عشرة الذين هم أقل شعوراً بالاطمئنان . فقد يكونون مفرطى الحساسية ازاء النقد . وقد يبلغ من شدة قلقهم ، كما يحدث عندما يتحدثون بالتليفون ، — أنهم يضطرون أن يدونوا مقدما ما ينوون أن يقولوه . وقد يكونون من عـدم الارتياح فى دخيلة أنفسهم بحيث يتخذون لأنفسهم دورا خياليا يصبحون فيـه شخصا آخر أو يقيمون اثناءه بمكان آخر . هؤلاء هم الأفراد الذين يضطرون أن يفروا من أنفسهم ليجدوا أنفسهم .

وتنبه ابن الثالثة عشرة إلى ميزاته وأخطائه يتعلق فى الأغلب الأعم بعقليته ، فإنه حين يسرد ميزاته قد يذكر من بينها مقدرته على الاستدلال أو ذكاءه أو حصوله على درجات جيدة . وهو يعرف أن لديه القدرة على « التشبث بالأشياء » كما أنه يتكلم عن عزمه وإصراره . ثم إن أبناء الثالثـة عشرة الذين هم أكثر تنبها إلى الناس يتحدثون عن ميولهم الودية وعن تفـكيرهم قبل التفوه بالألفاظ أو عن عدم رغبتهم فى جرح احساس غيرهم من النـاس . وكثيرا ما يكون عكس ذلك صحيحا عندما يقلب ابن الثالثة عشرة فـكره فى أخطائه . وهو يدرك أنه لا يحاول أحيانا أن يفهم زميله الآخر ، وأنه يغضب من الناس بسرعة شديدة جدا وأنه أنانى . وهو يعرف متى يكون مؤجلا أعمـاله إلى غد ومتى يكون كسولا .

وقد يبلغ من شدة اهتمام ابن الثالثة عشرة « بالآن وفورا » أنه قد يصبح من الصعب عليه ، وخاصة إن كان صبيا ، أن يعبر حتى عن رغبة واحدة — فضلا عن ثلاث . أو لعله يتمنى — إن لم يستطع أن يكون دقيقا فى رغباته — لو تم له من الرغبات ما يشاء . ومع أن الـكثيرين لا يبرحـون يشتهون أشياء مادية كأجهزة صيد الأسماك أو كبيت أحسن أو قارب شراعى ، فإن بعضهم يفـكرون الآن فى الآخرين أولا وفى أنفسهم ثانيا . وقد أوضحت

إحدى بنات الثالثة عشرة رغباتها على حسب ترتيبها فى الأفضلية . فتمنت أولا « لو تعلمت شعوب العالم كيف تعيش فى سلام » . وثانيا « لو أنى تمكنت من تصميم بيتى هو وجميع أنواع الأثاث والرياش الخ » . وثالثا ولعلها أهم الرغبات جميعا « لو كان لى صديق من الصبيان » .

وهناك شعور يدور بخلد ابن الثالثة عشرة ، هو شعوره بالتألم لمن يصابون بأذى وخاصة إن كان ذلك الأذى بدنيا . وكم يتمنى لو زال من الدنيا كل مرض أو علة ! ! كما أنه يتمنى الشفاء لأحد الأشخاص إذا هو أصيب بمرض أو علة . وهو يريد « تنظيف الأحياء القذرة » . كما « يتمنى أن يمحو الشيوعية » .

ويفكر ابن الثالثة عشرة كثيرا فى موضوع (حرفته) المستقبلة . وكثيرا ما يتناقش فى شأنها مع والده ، وربما تأثر بآرائه ، إن وجد لتفكير أبيه صدى مقنعا فى نفسه . وهو يتذكر (المهن) التى سبق له أن اختارها والتى صرف الآن عنها نظرا

(فالحرف) التى وقع عليها الاختيار آنفاً كالممرضة أو الطبيب البيطرى والمحامى غالبا ما يعدل عنها . ويدرك بعض أبناء الثالثة عشرة أنهم يحتاجون أولا إلى الخبرة لكى يتبينوا ماذا سيحبون أن يمارسوه . ومن أكثر اختيارات ابن الثالثة عشرة شيوعا ، اختيار لا شك فى ارتباطه بدافعه الذهنى الخاص هو أن يصبح معلما . وأبناء الثالثة عشرة الذين يختارون مهنة التدريس يعرفون إلى حد كبير مقدما سن المجموعة التى يودون لو علموها هى بالذات : وهو يقع فى أية سن بين مدرسة الحضانة وسنهم . ومن الحرف الجديدة التى بدأت تظهر لهم فى الأفق حرفة عالم النفس ومذيع أنباء الرياضة . والبنات يفكرن فى كل من الزواج والعمل معا ، ومع أن قلة منهن ربما رغبت فى الجمع بين الأمرين ، فإن الغالبية تعطى الزواج الأسبقية الأولى .

وأبناء الثالثة عشرة الذين يتجهون إلى الذهاب إلى الجامعة لديهم عنها فكرة لا بأس بها ، يحددها ما ينبغى

على الجامعة أن تمنحه لهم . وقد شرع الكثيرون منهم فى بحث مزايا الالتحاق بجامعة صغيرة . وليست جاذبية فكرة التعليم المشترك قوية بنفس الدرجة عند الجنسين ؛ إذ الواقع أن كلا من الصبيان والبنات ربما اختاروا الدراسة غير المشتركة وإن ظل اهتمامهم بالجنس الآخر قويا .

ومن المحقق أن الزواج يدور بخلد ابن الثالثة عشرة . أما ما كان يخامرهم قديما من التفكير فى التزام العزوبة فقد زال أثره أو كاد ، ولو أن بعض صبيان الثالثة عشرة لم يمنحوا الزواج كامل اهتمامهم فعلا . ذلك أنهم لم يفكروا فيه كثيرا كما أنهم لم ينتقوا شريكة حياتهم بعد . بل الواقع أنهم ربما لم يستبينوا حتى الآن الخلال التى يرغبونها فى الزوجة ، وإن رغب بعض الصبيان رغبة خاصة أن تكون زوجاتهم رشيقات . ولكن البنات قد فتلن الزواج بحثا وتفكيرا . وهن لا يردن فقط أن يحب أزواجهن فى المستقبل الأشياء التى يحببنها ، بل أن يكونوا مثلهن أيضا . وهن يتمنين لو أحسسن أن الأخريات — كصديقاتهن مثلا — سيحببن أزواجهن فى المستقبل . وهنا تبدو بذور الزمالة .

أما من حيث عدد الأطفال ، فابن الثالثة عشرة لا يتوق كثيرا إلى عائلة كبيرة كما كان آنفا . وقد حددت قلة صغيرة تماما نصيبها من الأطفال بطفلين ، وإن كان لا يزال هناك من يرغبون فى ثلاثة أطفال أو أربعة .

٥ — العلاقات بالناس

لو أن ابن الثالثة عشرة لم يرد بمثل هذه الحدة ، ولم يقاطع والديه بإجابته بلفظة واحدة ، ولم يكن سريع التأثر ولم يتباعد وينفرد بنفسه ، إذن لأمكن لوالديه أن يعرفا بشكل أحسن كيف يعالجان مساوكه ، وكيف يتعاملان وإياه . ولا يريد ابن الثالثة عشرة أن يضيع مركزه فى العائلة ، ولكنه يعلم علم اليقين أنه « لست لطيفا مع عائلتى مثلما أنا لطيف مع أصدقائى » . أما

هو نفسه فلا يدرى تماما كيف سارت الأمور فى الإتجاه الأسوأ كما أنه يبدو عليه الذهول والحيرة قليلا وهو يقول : « لست أدرى لماذا لا نساير بعضنا بعضا بشكل أفضل » .

ومع ذلك فان بعض أبناء الثالثة عشرة يمضون فى حياتهم مع والديهم مضيا « جيدا إلى حدما » — أو « بطريقة لا بأس بها » . وكثيرا ما يدركون أن أمهم تمتاز بالتفهم والعطف ، ولكنهم يمسكون ألسنتهم ولا يسألونها أية أسئلة ، وخاصة تلك التى تدور حول النمو ، وربما جاءوا ليخبروها عن أشياء حدثت ، وخاصة ما كان منها بعيدا عن المنزل ، أو لعلهم يجيئون إليها لتسوية مناقشة حدثت بينهما ، ولكنهم لا يثقون فيها غالبا . وربما رغبوا أن يتحدثوا فى الأمور مع أمهم ، أو يسألوها النصح فى المسائل الاجتماعية أو يشكوا إليها شأنا من شئون المدرسة ، ولكنهم لا يريدونها أن تذهب إلى المدرسة ، وتخوض المعارك نيابة عنهم ، مهما عظم مقدار مساعدتها .

وكثيرا ما يخجل ابن الثالثة عشرة من وجود أمه ، وخاصة عندما يكون فى صحبة أصدقائه ، أو فى مكان ما يستطيع أحد الناس أن يعرفه فيه كالسينما أو شاطىء البحر . ولكنه إذا كان فى موضع غريب كمدينة بعيدة يكون فيها آمنا بسبب جهل الناس به ، ساير أمه وتمشى معها .

وغالبا ما يكون وهو بالمنزل ناقدا لأمه فى مسائل صغيرة . وهذا أصدق على البنات منه على الصبيان . فلو لم يكن النقد على شعرها لكان مثاره أنها نسيت أن تضع الأحمر فى شفتيها عند ما خرجت . أو أن بثيابها عيبا أو حتى خطها الذى قد يعوزه النظافة والإتقان التى لم يلمسها ابن الثالثة عشرة نفسه إلا منذ عهد قريب جدا . ومن العجيب حقا — ومن حسن الحظ كذلك — أن يندر أن ينتقد ابن الثالثة عشرة والديه أمام الأجانب بعيدا عن البيت . فإنه يحتفظ بذلك النقد للجو المنزلى حيث يكون الجو أكثر تشبعا بالألفة والمودة ، وهنا يكون المكان الطبيعى للنقد .

وربما قيل عن الوالدين إنهم يكادون يسرفون فى نقد أطفالهم الذين فى الثالثة عشرة . وقد ينتشر هذا النقد ويداوم الظهور بحيث يقال عنهم أنهم « يزنون باستمرار » — أو « يتلمسون الهفوات على الدوام » لابن الثالثة عشرة .

وأكثر الانتقادات شيوعا عادة هى تلك المتصلة بالاحتفاظ بترتيب الغرفة وزيادة المساعدة فى أعمال البيت وتحسين آداب المائدة . والآباء أكثر تحديدا لنوع نقدهم من الأمهات . فإنهم ربما أحسوا بأن ابن الثالثة عشرة ينبغى له أن يبذل جهداً أكبر فى المدرسة ، وأن الأم تساعده أكثر مما ينبغى ؛ وأنه لا يحضر إذا نودى ؛ وأنه ينبغى له أن يلتزم أعماله التزاما أحسن ؛ وأنه ينبغى أن يكون هناك شغل أكثر وعبث أقل وأنه ينبغى له أن يتدرب أكثر على دروس الموسيقى ؛ وأنه يجب عليه أن يكون أطيب مزاجاً وأصوب احكاما وأحسن أدراكا للأمور . ويمكن أن يكون الآباء مؤلمين جداً عندما يتحدثون عن بناتهم بأنهن سطحيات ومشوشات وأنانيات . فإن أمثال هـذا النقد لا تقرب الوالدين إلى فؤاد ابن الثالثة عشرة . بل الواقع أن قليلا من أبناء الثالثة عشرة يحسون أنهم مضطهدون شيئاً ما ، كما أن بعض الصبيان يسهل جرح إحساسهم بحيث ينفجرون باكين لأى نقد يوجه إليهم . أجل إن كل هذه الانتقادات الموجهة إلى ابن الثالثة عشرة قد تكون صحيحة ومضبوطة ، ولكن ابن الثالثة عشرة لا يستطيع أن يتغير تغيراً كبيراً جداً ولا سريعا جدا . وحدث أن إحدى بنات الثالثة عشرة — ولعلها أعقل من والديها — سمعت وهى تقول : « إنى أحاول من ناحية أن أتغير ولكنى أحس من ناحية أخرى أن الزمن كفيل بذلك » .

فليت الوالدين يدركون أن الزمن فى جانبهم . إذ الواقع أن هـذه سن اهتمام بالذات وانسحاب وتباعد وتقليب للفكر فى الأمور ، وهذا التحول فى الاتجاه ، هذا التركز الباطنى ، ربما أنتج بالفعل « صمما اجتماعيا » فالحق أن ابن الثالثة عشرة لا يسمع عندما يدعوه والده حتى يسترعيا انتباهه إليهما والوالد الحكيم لابد أن يدرك أن الأمور ستسير على أحسن وجه إذا هو ترك ابن الثالثة عشرة وشأنه أو

سايره فى حياته . ويدرك الوالد فضلا عن ذلك أنه بحاجة أن يكون لبقا حصيفا ومعقولا مع ابن الثالثة عشرة بصورة تماثل معاملة الكبار بشكل ما. وينبغى له أن يكون حريصا فى نقده وأن يعرف أن ابن الثالثة عشرة سريع التأثر . فلو فاته إدراك ذلك شعر بوقع إجابة ابن الثالثة عشرة اللاذعة وخصومته بل حتى امتعاضه الصريح . وعندئذ يسبب لابن الثالثة عشرة زيادة فى الميل للانسحاب والتباعد يفوق ما كان سيحدث لو لم يفعل ذلك . وعندئذ قد يحبس الطفل عن والديه معلومات تتعلق بأشياء هامة كالتثبيت[1] أو المناولة فى الكنيسة مثلا .

وعلى الاجمال ، تكون علاقة ابن الثالثة عشرة مهما يكن أوثق بأمه فهو يدرك أن علاقته بأبيه « مختلفة » و « أقل اتثاقا » ، وإن كانت بعض البنات تنشىء أول علاقة حميمة لهن بآبائهن فى هذه السن. وغالبا مايعجب ابن الثالثة عشرة بأبيه ويكون أقل جنوحا لنقده منه لنقد أمه . وهو يقرر أن أباه يكون فى الغالب متعبا جدا ومشغولا جداً أولا يمكث بالمنزل بدرجة لتسمح له أن يقوم معه بأداء الأشياء . بيد أنه لا يقول ذلك على صورة شكوى ، فإن أباه قد يذهب معه لمشاهدة برنامج رياضى أو إلى السينما أو لصيد السمك والسباحة . ولكن أنسب ما يدخل فيه الأب هو مساعدة ابن الثالثة عشرة فى القيام بواجبه المنزلى . والواقع أن « الأب أصبح من السهل العمل معه الآن » وذلك من جهة نظر ابن الثالثة عشرة . أما من وجهة نظر الأب فإن ذلك التحسن ربما كان مصدره الطفل نفسه حيث يقول عن ابنته : « لقد بدأت تفكر . وصار العمل معها ممتعا » والراجح أن هناك نواة من الصدق فى الرأيين جميعا .

وعندما ينسحب ابن الثالثة عشرة عن جماعة العائلة أو إذا هو فعل ذلك ، كان سبب ذلك فى الأغلب هو التباعد عن أخوته لاعن والديه . ولعل سرعة تأثر ابن الثالثة عشرة هى السر فى دوام تبرمه من إخوته الصغار ، وخاصة

(١) التثبيت : قبول الكنيسة للطفل ليقوم بالخدمات . [المترجم]

أولئك الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والحادية عشرة . وقد يمكنه هو نفسه أن يفسر الأمر بقوله ، « إنى أمر بمرحلة يضايقنى فيها كل شىء » . ولكن الغالب على العموم هو أن « تفسير ذلك الأمر عسير » — أو أنه لا يعرف فى الحقيقة ونفس الأمر لماذا تسوء علاقته بإخوته إلى ذلك الحد . وكثيرا ما يقول عن أخ صغير له بأنه « ولد ممل » — وأنه « آفة » — وأنه « شىء مزعج » — أو أنه « كالدمل المؤلم فى العنق » . فذلك المخلوق الفظيع « يضايقه ويزعجه » مافى ذلك ريب ، وأنه « يثير أعصابه » — وأنه « يقاطعه » ، ويعبث بالأشياء التى تخصه ، وإن كانت هذه النقطة الأخيرة لا تقوم كشكوى كما كانت فيما سلف .

وربما لم يدرك ابن الثالثة عشرة من جهته أنه فى أغلب الأحيان يتخذ لنفسه دور الكبار ، ويحاول أن يصلح أخاه الأصغر ، ويحاول أن يجعله يقوم بأشياء يعرف ابن الثالثة عشرة كيف يعملها . وهو يتشاجر مع إخوته وإخواته الصغار حول « أشياء تافهة » فى معظم الأحوال ؛ والعادة أن يكون الشجار مجرد « مناوشة » ؛ وكثيرا ما يكون الأمر مزاحا ولكنه يكون أحيانا شيئا جديا وربما احتاج إلى تدخل الكبار . وعندئذ قد يضطر الوالد إما للتهديد بقطع جزء من مصروف ابن الثالثة عشرة أو تنفيذ ذلك فعلا ، وإما إلى حرمانه من برنامج أو شىء تتطلع إليه نفسه . وربما كان تغير الجو بعد مثل هذه النوبة مروعا جدا ، كما أن الهدوء الذى سيظلل البيت سيبدو أشد وأقوى لأنه جاء بعد عاصفة صاخبة .

على أن ابن الثالثة عشرة لن يتمنى أن يعيش بدون أشقائه رغم مايسببونه له من متاعب . أجل ربما تمنى لو كانت أعمارهم أكبر أو أقل مما هى . ولكنه يشعر بالفعل أنهم يتسببون فى حرمانه من أن يكون طفلا مدللا . والصبيان بوجه خاص يحبون أن يكون لهم أخ من سنهم تماما ، غير مدركين أن وجود مثل هذه العلاقة الوثيقة بالمنزل مع أخ تفترض فيه المثالية افتراضا لابد أن ينتج رغم ذلك مشاكل كثيرة .

ذلك أن الفارق الأكبر فى العمر بين ابن الثالثة عشرة وإخوة أصغر منه

دون الخامسة يسمح له بأن يلعب بصورة طبيعية أكثر دور الكبير الراشد . وكثيرا ما يحب أن يعنى بهم . وهو يسايرهم أحسن مسايرة . وهو يدبر لهم المفاجآت . أما هم فإنهم يهيمون به حبا .

ومن ناحية أخرى ، تجده يساير أشقاءه الكبار مسايرة لا بأس بها ، وخاصة من بلغوا الخامسة عشرة أو أكثر أجل ربما حدثت بعض مناوشات بينه وبينهم، ولكن الخلافات يمكن في العادة تسويتها دون تدخل من العائلة . وربما أحس ابن الثالثة عشرة أن أخاه الأكبر يستغل صغر سنه لصالحه . ولكن كلا منهما على الجملة يبدأ في تبادل الاستمتاع بصحبة الآخر . وربما شعر ابن الثالثة عشرة في خاتمة المطاف أن أخا أو أختا أكبر منه تفعل حقا ما ينبغي أن يفعله الأخ أو الأخت « أنها أخت مخلصة » وأحيانا يكون هؤلاء الأخوة الكبار موافقين تماما . فأنت تستطيع التباحث معهم في الأمور ، بل لعلك تستطيع حتى أن تضرب في صحبتهم موعدا مزدوجا (١) . ولكن إذا وأصل أخ أكبر الانتقاد حتى يصبح مؤلما ، كان انتقام ابن الثالثة عشرة من جنس العمل ، وإن لم يفه بنقده إلا لأمه في الراجح . كما صرح أحد أبناء الثالثة عشرة في حق أخيه الذي انتقد رسمه : « إني لأحب موقفه من رجال البوليس » .

وهناك فارق جسيم بين الصبيان والبنات من حيث علاقة كل بجنسه الخاص . فالبنت التي بلغت الثالثة عشرة تدرك أن هناك تحولا غير حالها في الثانية عشرة يوم كانت مجرد عضو في جماعة كلية إلى حالها الجديدة في الثالثة عشرة حيث أصبح لها عدد من الصديقات المنفصلات . وذلك كما عبرت إحدى البنات : « في العام الماضي كنا شبه عصبة . ثم أظن أني تعلمت درسي بعد ذلك . فإنك تحصل على أصدقاء أكثر إذا لم تنضم إلى عصبة » والصداقة مهمة لبنت في الثالثة عشرة . فهي تريد بل تحتاج إلى شخص تثق فيه ، شخص تفضي إليه بأسرارها ، وإن لم يكن ما تفضي به شيئا سريا جدا حسب معايير الكبار .

---

(١) الموعد المزدوج هو كما هو واضح المضروب بين ولدين وبنتين [المترجم] .

وغالبا ما تسير البنات هنا وهنــاك فى جماعات من ثلاث . وغالبا ماتتحول جماعة الثلاث إلى جماعة من اثنتين حيث تجتمع الاثنتان ضد الثالثة — إما وهى غائبة أو عندما يكن ثلاثتهن معا. وغالبا ما يكون المقصود من ذلك هو المعاكسة ، بيد أن بنت الثالثة عشرة يمكن أيضا أن تكون ناقدة نقدا لاذعا وحادا ، حتى لصديقاتها أنفسهن. وذلك كما علقت بنت بمهارة فقالت : « تجرى المجادلات دائما مع خير الأصدقاء ؛ فكلما زادوا بك معرفة ، زادوا لك نقداً » . وربما أمكن للراشدين أن يستفيدوا من الحكمة التى تعلموها وهم فى الثالثة عشرة .

وتشعر بعض بنات الثالثة عشرة بحرمانهن من كل صديق حميم ويتذكرن أنهن كن يشعرن شعورا أقوى بعضويتهن فى الجماعة عندما كن فى الثانية عشرة . أو عساهن كانت لهن صديقة صدوقة كبرن الآن ، وابتعدن عنها أو فقدنها بالانتقال لمنطقة أخرى . على أن الموقف الأخير يمكن تخفيفه إلى حد ما وذلك لأن بنت الثالثة عشرة تستطيع « التراسل بجنون » كما يقول والداها .

وصبيان الثالثة عشرة لا تقوم منهم نفس الجماعات المترابطة الأوصال التى يكونها البنات . فمن المحتمل لهم أكثر أن يتجمعوا فى شلل من أربعة أو خمسة ، يعد كل عضو فيها زملاءه جميعا أصدقاءه الحميمين . إذ لا يبدو أن الصبيان يحتاجون إلى ذلك الجو الحميم الذى ينطوى على تبادل الأسرار والذى تتطلبه البنات . فالصبيان أشد اهتماما بأداء الأعمال مع أصدقائهم ، كما أنهم فى الأغلب يتجمعون حول أنواع النشاط المشترك . ويميل الأصدقاء أن يجتمعوا معا بالمدرسة فى معظم الأحيان ، وإن قام بعضهم مجتمعين بعمل أشياء خارج المدرسة . فهناك دائما مشاهدة السينما والمشاركة فى الرياضة وصيد السمك . ولكن الصبيان قلما يميلون لقضاء الليل فى بيوت بعضهم بعضا ، وخاصة لأنهم ربما أحسوا : « أن ذلك من شئون البنات » .

وقد يثور بعض الصبيان من أبناء الثالثة عشرة غضبا من أصدقائهم الحميمين فى العصبة ، ولكنهم فى الجملة يسايرون بعضهم بعضا بصورة لا بأس بها ، وإذا نشأ

نزاع أمكنهم تسوية الأمور سلميا . بل الحق أن الأمر على نقيض ذلك تماما ، فالسلام هو الذى يسود فى الغالب بين جماعة من صبيان الثالثة عشرة . إذ يريد كل منهم أن يتحقق من حصول الولد الآخر على فرصة ، وخاصة فى الألعاب .

والهدوء العام الذى يشتهر به ابن الثالثة عشرة ، يتجلى بوجه خاص فى علاقته بالجنس الآخر . إذ من سوء الحظ أن البنات يجدن أترابهن من الذكور قصار القامة جداً عديمى النضج جداً . فهن كثيرا ما يشرن إلى هؤلاء الذكور أنفسهم بقولهن : « القذعة » أو « الأبله » — أو «أفظع راقص» ، وإن اضطررن أن يعترفن أحيانا أن بعضهم على شىء من الوسامة » . وهن يدركن أيضاً أن الصبيان يؤثرون فيهن حتى ليجعلوهن يضحكن ضحكا سخيفا ويتصرفن تصرفا سخيفا ، ولكن يحاولن ضبط ذلك . وربما كان لكثير من بنات الثالثة عشرة فتى واحد يضمرن له الحب والاهتمام ، ولعله يبادلهن اهتماما باهتمام ، وإن جاز أن ينتقلن إلى غيره من وقت إلى آخر . ومع ذلك فإن البنات أنفسهن يدركن أن بعض صديقاتهن يحببن الصبيان ، وبعضهن لا يحببنهم . وهن يدركن أيضاً أنهن لا يتحدثن عن الصبيان قدر ما اعتدن أن يفعلن فى الماضى . فهن الآن يتحدثن عن الصبيان « ولكن يتكلمن أيضاً عن كل شىء » .

وهناك قلة من البنات تضرب المواعيد الغرامية بين فينة وأخرى ، والأغلب أن يكون ذلك مع صبيان أكبر منهن قليلا ، فيذهبن معهم إلى السينما أو إلى الرقص ، ولكن لا يفكرن أبداً فى مواصلة « الذهاب بانتظام » . ولا يزال كثير من البنات يملن إلى ممارسة الألعاب مع الصبيان . فهن يحببن قطعا أن يحمن حول الصبيان .

والظاهر أن الصبيان لم يهدأوا فقط من ناحية البنات بل إن بعضهم قد اتجه إلى النقيض من ذلك . فإن قولهم : « يستطيع أصدقائى مصاحبتهن ولكنى لا أهتم » ، إنما هو عاطفة يشيع التعبير عنها بينهم وهناك آخرون قد يصرحون : « سخفا للبنات » أو « لست أهتم بالبنات الآن بقدر

قلامة ظفر » ، وهو أمر يكاد يدل على أنه قد جاء وقت كانت للبنـات قيمة كبيرة لدى هؤلاء الصبيان أنفسهم . وقد تطرف قليل منهم حتى أصبحوا من « كارهى النساء » ، ولكن الصبيان على الجملة غالبا ما يظهرون نحو البنات شعورا محايدا . فكما قال أحد الصبيان : « يمكن البنات أن يكن أو لا يكن كما يشتهين تماما . لست أجدهن منفرات ثقيلات الدم . بل أنا فقط لا أهتم بهن » .

وصبيان الثالثة عشرة لا يضربون إلا قليلا جداً من المواعيد ، بيد أنهم يستمتعون فعلا بحفلة رقص أو حفلة عادية بين وقت وآخر ، وهم يدهشون دهشة عظيمة لأن أول بنت يطلبونها لمثل ذلك الغرض تقبل الدعوة فى أغلب الحالات . وليس معنى ذلك أن الصبيان رفاق طيبو الصحبة جدا فى الحفلات وذلك لأنهم يتسكتلون عادة فى قلة كثيرة الحركة . وإن ما يدور بخلدهم ليتضح بجلاء من التعليقات المحكمة الموجزة التى تقذف بها تلك المجموعة من الذكور كقولهم : « برميل » أو « عجيزة » . ومع ذلك فقد تحسن سلوكهم العام فى الحفلات عنه فى السنة الماضية ، وذلك لأنه — كما يقولون هم أنفسهم — « لم تعد تحدث بيننا أية مشاغبات » . ومع ذلك فلولا الإشراف والتخطيط الجيد لتعرضوا إلى اختتام الحفلة بتقاذف الأشياء بينهم . كما أنه يبدو دائما أن هناك على الدوام صبيا قد وضع عينه على مفتاح النور ، وقد استعد لإطفاء الأنوار فى اللحظة التى يراها مناسبة .

وحفلات أبناء الثالثة عشرة ينبغى أن توضع خطتها بنفس العناية تقريبا التى كانت تبذل فى الثانية عشرة . ومع ذلك فإن أبناء الثالثة عشرة يبدأون بدأ أبطأ ويحتاجون أن يمنحوا الوقت الكافى لتشرب روح الحفلة . وربما كان الأفضل أن لا يكون أحد من الوالدين موجودا فى وسط المعمعان الناشط للجماعة ، بل أن يتولى الأمر صديق راشد يستطيع بسرعة أن يتشرب روح حفلة لهذه السن .

والعادة أن البنات يكن أكثر شوقا لحضور تلك الحفلات وغالبا مايحضرن إليها مبكرا على حين أن الصبيان يتسكعون فى الطريق ببلادة وكسل . ولذا ينقضى بعض الوقت قبل أن يتكامل المدعوون . ثم يحدث الانقسام وينطلق الصبيان إلى إحدى الغرف بمفردهم وتشرع البنات فى الرقص إحداهن مع الأخرى ، وعندئذ يأخذك العجب وتتساءل ، أهذه ستكون حفلة حقا . فعند هذه اللحظة بالضبط سيحتاج الأمر إلى الكفاية التنظيمية ، حيث يحتاج الحضور إلى من يردوهم إلى الجادة . والشىء الذى يريد ابن الثالثة عشرة عمله هو الرقص . وربما أمكن تجنب صعوبة اختيار الزميلة فى الرقص باللجوء إلى رقصة سندريلا ، حيث تصف أحذية البنات صفا ليختار منها الصبيان ، وربما كانت إضافة لعبة البرتقالة التى تمسك بضغطها بين جبهتى كل زوج ، هى الحيلة اللطيفة اللازمة للقضاء على التوتر .

وقد يرتفع ضجيج الحفلة إلى درجة عالية تماما ، وعندئذ سيحتاج منظم الحفلة إلى حنجرة قوية ، فضلا عن الحذق والتحايل وإن ألعابا من أمثال لعبة إدارة الطبق (وهى تسمى عند بعضهم Trcakle thé Trencher (Spin the platter) ، مع الخسارة والجوائز ، — لهى النوع الذى يريده ابن الثالثة عشرة بالضبط . وسيكون أى نوع من الجوائز كافيا ومرضيا ، سواء أكانت أصابع من الشكولاته أو أى شىء آخر . فلذة الألعاب ومرحها هى المهم وهى المقصود . وليست كعكة عيد ميلاد الطفل بذات أهمية ، وربما لايكاد أحد يمسها . إذ المهم هو شراب عصير البرتقال والليمون ، وينبغى أن نقدر لكل ضيف ما يقرب ربع اللتر .

والحفلة تدوم ساعتين ونصفا ، وذلك طول كاف . وهنا أيضا كما حدث فى الثانية عشرة لو أمكن حمل الضيوف إلى منازلهم دون انتظار مرور أهلهم لأخذهم ، لأمكن الاحتفاظ بجلال الحفلة بشكل أحسن حتى النهاية .

٦ ـ الميول وأوجه النشاط

ربما أبلغت الأمهات أن ابنهن (أو ابنتهن) البالغ الثالثة عشرة قد أقلع عن « جميع الأشياء الصبيانية » ولكن الواقع أن هذا لمجرد اتجاه

أكثر منه حقيقة واقعة . حقا ان ابن الثالثة عشرة يدرك أنه أخذ « يشب » عن أنواع معينة من الكتب ، وأنه كان « من عادته » أن يرسل الرسائل فى طلب صور المشاهير ، ولكنه لا يفعل ذلك الآن أبدا ، أو أنه الآن قد « مل » روايات الخفايا الغامضة التى كان يظن يوما أنها جذابة جدا.

وهو يدرك التغيير ويسجله . ولكن ليس معنى ذلك أنه لن يستمتع بالكتب الهزلية لأخ أصغر منه وإن جاز أن لا يشتريها لنفسه أو يحتفظ بها فى غرفته . وبعض أبناء الثالثة عشرة شديدو التنبه إلى أنهم لا يزالون مستمسكين ببعض الأشياء الصبيانية ، بل إن بعضهم لينظرون إلى استمرارها بلذة وسرور .

وقد يكون كل ما فى الأمر أحيانا هو صعوبة الابتداء . فالأمر كما يقول أحد أبناء الثالثة عشرة «أعتقد أنه يجب على أن أتحسن ، إن ذلك أحد تلك الأشياء التى تدور حولى . ولكنى لا أصل مطلقا إلى حيث أبدأ فى تحسين نفسى » . وربما أبلغ آخر « إنى أحب أن أعمل شيئا سخيفا وصغيراً جداً بالنسبة لسنى . فإنى أحب أن أركض فى أرجاء المكان وأتظاهر بأنى راكب حصانا » . وثمة آخر أخطأ فى الحكم على ميول كثير من البالغين ، فقرر صراحة : « ربما كان فيما سأقوله صدمة لك ، ولكنى أحب القصص البوليسية»

وسواء أكان ابن الثالثة عشرة أكثر طفولية فى ميوله أو أكثر نضجا، فإنه مشغول دائما، بل الحق أنه متوقد انفعالا فى تعبيره عن نواحى نشاطه المختارة . وهذا التوقد قد يوجه نحو كلب أو حصان أو يبدد فى الألعاب أو فى القراءة عن نجوم السينما .

ومن أبناء الثالثة عشرة كثير لهم « عقلية رياضية » — أو بهم « ولع جنونى بالرياضة» — أوهم «مغموسون فى الألعاب الرياضية غمسا » . وحتى أبناء الثالثة عشرة غير الرياضيين قد يلعبون أحيانا بشدة يكادون معها أن يصرعوا أنفسهم . فهم يجودون فيها بكل ما تملكه أيديهم . ومع أن ابن الثالثة عشرة لا يزال شديد الولع بكرة القدم (وكرة اللس للبنات) ، فإن كرة السلة والهوكى قد أخذت الآن تصعد إلى القمة . ولم تعد لكرة القاعدة نفس

الأهمية التى كانت لها ، ولكنها تكاد تكون أقوى مفعولا كموضوع للمشاهدة يسمع فى الراديو أو يشاهد على التلفزيون أو فى لعب حقيقى .

ومهما تكن الألعاب الفردية التى بدأها فى سن مبكرة (كالاقلاع بالزوارق والتزحلق بالاسكيه والجرى بقبقاب العجل والتنس والجولف) فإنه يظهر فيها الآن أداء أحسن بل قليل من الإجادة . ولا يزال ركوب الخيل محتفظا بمكانته عند بعض البنات ، ولكن لم يعد لهن به على الجملة نفس الولع الجنونى القديم . ولا يزال صيد الحيوان والسمك مقصورا على قليل من الصبيان ، ولكن عددهم سيزداد فى الوقت المناسب .

وقد أخذت الميول وأنواع النشاط الداخلية لكل من الصبيان والبنات تمايز بعضها عن بعض وتبدو أكثر انفصالا وتحديداً ، وذلك لأن اتخاذ الهوايات والتعبير عن ميل واهتمام أعظم بناحية واحدة معينة أمور قد أخذت تزداد شيوعا . وميول الصبيان أشد تحديداً من ميول البنات . فالآن ينتشر بدرجة أكثر من ذى قبل الاهتمام الميكانيكى العلمى بالراديو ، فى كل من ناحيتى الحل والتركيب والاتجاه إلى العمل فيه كصانع هاو . ولعل التصوير الشمسى قد ظهرت فيه أكبر وثبة كما أنه غالبا ما يتضمن الآن التحميض والتكبير . وقد اكتسب كثير من صبيان الثالثة عشرة من المال ما يكفى لتزويد غرفتهم المظلمة الخصوصية بالمعدات اللازمة . ويواصل أبناء الثالثة عشرة اهتمامهم بصنع النماذج ، وبخاصة نماذج المتسابقين الأقزام ، ويستمتعون بعمل نماذج السيارات والطائرات . وبعض الصبيان يقل اشتراكه الآن فى عمليات الحل والتركيب ، ولكن إقبالهم على المشاهدة والملاحظة يزداد . وهذه القدرة على ملاحظة أشكال السيارات ملاحظة صحيحة يمكن أن تعد هواية من الهوايات . فعين النسر التى وهبها صبى الثالثة عشرة تكتشف كل صفة جديدة وكل تغير فى شكل أى تصميم .

والبنات يملن إلى حيك الصوف والنسج أو الخياطة لأنفسهن . وربما حاولن بذل شىء من الجهد فى نواحى التصوير الشمسى واللاسلكى ، على أنهن لا يملكن شيئا من ذلك التعمق وقوة الصمود والجلد التى للصبيان . وهن

يستمتعن بالتعبير الابتكارى عن طريق الرسم والتصوير أو الكتابة . وربما أكببن على دروس فى الموسيقى أو الفن أو الرقص إن توفر لديهن الزمن اللازم لذلك . ولكن البنات لا تزلن بحاجة إلى قضاء قدر كبير من الزمن فى مجرد « التحدث عن الأشياء » مع أصدقائهن إما شخصيا أو بالتليفون .

ولم تعد للمجموعات نفس الفتنة التى كانت لها يوما ما . فقد تترك الطوابع ملقاة فى أى مكان : أجل ربما علق الصبيان أغلفة أمشاط الكبريت فى شكل حبال الزينـــة ، ورصت البنات عرائسهن ذوات الشكل الأجنبى رصاً جميلا . غير أن أثر المجموعات لم يعد على الجملة قويا . وذلك لأن ابن الثالثة عشرة يريد ما هو أكثر من التفاخر الظاهرى .

المناشط المستقرة كالمشاهدة والاستماع

كثيرا ما ينزعج الوالدون انزعاجا مسليا لقلة الزمن الذى يقضيه ابن الثالثة عشرة أمام شاشة التليفزيون . وذلك أن بعض أبناء الثالثة عشرة يضيق وقتهم دون مشاهدة التلفزيون أو يشاهدونه على قلة أثناء أيام الأسبوع ، ولكنهم يشهدونه دون ريب ليلة عطلة الأسبوع والبرامج المفضلة تختلف . وقد يفضل الاستماع إلى الراديو على مشاهدة التلفزيون ولكن هذا الوضع أيضاً قد قل كثيرا ولم يعد يستخدم إلا حسب الحاجة المناسبة ، فالشىء المذاع فى أوقات معينة هو غالبا العامل الذى يحـــدد ما يستمع إليه . ويميل ابن الثالثة عشرة لفتح مذياعه لمجرد الفتح ومعرفة ما يذاع . وربما كانت الرياضة أحب البرامج لديه ، وهو لا يزال يستمتع بروايات الخفايا . وغالبا ما يتخذ ابن الثالثة عشرة من الموسيقى جوا جميلا يعمل فيه ما يشاء عمله . فهو يشتغل على أنغامها . ومع ذلك فإن عددا متزايداً منهم يفضلون سماع الموسيقى عن طريق الأسطوانات . وهم يحبون الموسيقى الكلاسيكية وموسيقى الجاز كما أنهم يستمتعون بالألحان الشعبية الرومانتيكية . وربما اشتروا اسطواناتهم على حسابهم وسيشرعون عما قليل فى جمعها على طريقتهم فى جمع الكتب المنزلية .

وغالبا ما يتمنى ابن الثالثة عشرة لو كان لديه وقت أطول للقراءة. وكثيرا ما يكون مشغولا جدا بأشياء أخرى . وربما كان واجبه المنزلى (إن كان يعطى واجبات) هو الذى يقطع عليه وقت قراءته . ولعل هواية كالتصوير الفوتوغرافى تحول تماما دون انصرافه إلى المطالعة . ومع ذلك فإن بعض أبناء الثالثة عشرة على أتم استعداد لقراءة أى شىء يقع فى أيديهم . وتجىء فى رأس القائمة قصص الكلاب قبل قصص الخيل وروايات الخفايا والأسرار ، فضلا عن المغامرات . وربما اقتصر بعض الصبيان على الرياضة . ولكن قلة منهم أخذت تختبر قدرتها على فهم الأدب الكلاسيكى كما أن الروايات التاريخية صارت أثيرة محببة .

وقد أخذت قراءة الصحف تصبح أكثر انتشارا : وهناك قلة تقرأ الصحيفة من أولها لآخرها . ولكن الغالبية تركز اهتمامها على الصفحة الأولى . وعلى النكات والرياضة . ويصرف فى قراءة المجلات وقت أطول . فان بعض الصبيان يقرأون المجلات العلمية من الجلدة للجلدة ، وبعضهم الآخر يعدون المجلات الرياضية

انجيلا لهم ويحتفظون بها احتفاظ التقى المتدين . وتستحب المجلات المصورة لدى كل من الجنسين . وهناك قلة من الصبيان تبدأ فى الاستمتاع بالمجلات السينمائية .

وابن الثالثة عشرة يرغب كشأنه فى الثانية عشرة فى اختيار الأفلام التى يشاهدها ، والعادة أنه يقتصر على ما يسميه « بالأفلام الطيبة » فاذا لم يكن الفيلم ممتازا بصفة استثنائية ، آثر عليه الخروج إلى الخلاء للمشاركة فى الألعاب . وربما شهد ابن الثالثة عشرة السينما مع والديه وإن كان يفضل أن لا يفعل ذلك . وذلك لأن أحب شىء لديه هو الذهاب مع صديق من نفس جنسه . وربما التقى هناك مع صديق له من الجنس الآخر بعد دخوله الدار وجلس معه . وهناك قلة لا بأس لديها أن تذهب بمفردها .

وتفضل الأفلام الموسيقية وأفلام المغامرة . وتبدأ البنات فى انتقاء الأفلام الغرامية . أما الأفلام التاريخية فتصبح فى الصدارة . ولبعض أبناء الثالثة عشرة نجوم سينمائيون محبوبون كما أن بعض البنات يتملكهن التهوس ببعض الممثلين أو الممثلات . والبنات أقرب إلى التقمص بأحد الأدوار . وربما حاولن

أن لايكين وأدخلن فى روع أنفسهن أنهن لايردن أن يبكين ، ولـكن الواقع أنهن بطريقة أو بأخرى لايستطعن أن يتمالـكن أنفسهن فيما يبدو .

٧ ـ الحياة المدرســـية

الآن تظهر بعض نعوت جديدة كقولهم حصيف أو أكثر كفا أو أكثر وقوفا عند حده أو أهدأ حالا أو أكثر رعاية للضمير ، — وكلها تعطيك فكرة عن تغير يتجه نحو الذات يحدث فى السنة الثالثة عشرة . ذلك أن حماسة ابن الثانية عشرة المتعجلة بل حتى المتهورة أصبحت الآن مكبوحة الجماح ، وقد تركزت فى صورة شوق إلى التعلم أكثر تنظيما وأطول أمداً . وإن ابن الثالثـة عشرة ليقف بمعزل وهو يراقب ألاعيب أبناء الثانية عشرة الطائشة ، وهم يتعقبون بعضهم بعضا ذهابا وجيئة فى الردهات ويختطفون أى قطعة سـائبة من الثياب يستطيعون اختطافها من بعضهم بعضا رغبة فى الاستزادة من المطاردة والملاعبـة . وهو يسمى ذلك أعمالا « صبيانية » . أجل إنه لايطارد كما كان يفعل فى بعض أيامه السالفة ، ولـكنه يدفع أى رفيق قريب منه ، كما أن المعروف عنه أنه لا يستطيـع الوقوف فى الصف بنظام . وهو لا يزال يختطف الأشياء من زملائه بالفصل ولـكن مع شىء من الدقة فى الانتقاء . وهو يختطف لغـاية فى نفســه والمحافظ هى بيت القصيد . وذلك لأنها تشهد بما تحوى من صــور باسم الشخص المحبوب فى اللحظة الراهنة .

والأصل فى ابن الثالثة عشرة أن يكون أسعد بالمدرســة منه قبلا . فهو يقول بنفسه : « هذا العــام خير من سابقه ، فهو ألطف فعلا » . بيد أنه يحـدد عبارته بقوله : « لعل الحال أحسن لأننى فى الراجح أميل إلى التعلم ، ولـكن يلوح لى أنهم يعلمــوننا أحسن » . ولعل أى معلم للفرقة الثامنة يتفق فى الرأى مع هذا القول ، وخاصة إذا كان هو نفسه معلمهم فى الفرقة السابعة . ذلك أن ما لتلميـذ الفرقة السابعة العادى من قلة كف صريحة

سليمة ، شيء يبعث فيه الانتعاش . ولكن موجات نشاطه الجارفة النجائية قد لا تستمر ؛ إذ يقطع عليها عدم الاستقرار سبيلها . وسواء أكانت في الغرفة ساعة أم لم تكن ، فهناك السؤال الذى يتردد بكثرة : « كم الساعة الآن ؟ » فالزمن هناك يقضى بأسوأ وجه حتى ليسأم فى النهاية معلم الفرقة السابعة مهما يكن قديرا ويخضع لهذا الطلب وذاك لمجرد المحافظة على الهدوء .

ولكن الحال ليس كذلك مع تلميذ الفرقة الثامنة . فالزمن هنا يكون أحسن تنظيما ، والتركز أدوم أمدا وضبط النفس أظهر . ولابن الثالثة عشرة شعور أقوى بالمسئولية . ويمكن الاعتماد عليه أكثر . وفى إمكان المعلمة أن تستمتع معه بالخبرات الذهنية المتبادلة .

ومع ذلك فإن ابن الثالثة عشرة لايظهر على التو هذه السجايا الصافية العطرة . إذ كاد يلوح كأنما هو يخبئها حتى يحين الوقت الذى يستطيع فيه إبرازها فى صورة كاملة . وهو يحس أنه قد شرع يدخل فى عالم الكبار وأنه يريد أن يعامل كبالغ رشيد . وهو يتكدر عندما يصطدم بممثلى السلطة فى المدرسة . وهو يريد أن يحس بالاستقلال ويعمل على تحقيقه . وهو يتألم كلما شعر بالسلطة تقيده . ويريد حرية التصرف والبت . ولكن وا أسفاه ! ! ... فإنه سرعان ما يضطر إلى العودة إلى المعلم خانعا خاضعا يلتمس مساعدة جديدة أو نصيحة أخرى .

وعندئذ يصبح من واجب المعلم أن يجعل تلك العودة ممكنة ، بمعاملته إياه معاملة الرجل للرجل ، وليس بطريقة الشامت الذى يقول : « ألم أقل لك ذلك ! » ومع هذا ، فإنه حين يقاوم أداء عمل ما كحفظ معقدات قواعد اللغة (الأجرومية) الإنجليزية ويشعر شعورا أليما مضنيا بأنه « لن يحتاج لمعرفة هذه الأشياء فى الحياة » ، فإن المعلم الذى يوافقه على هذا الرأى لن يزيده إلا ألما وانزعاجا . ففى تلك اللحظة نفسها يكاد يكون كمن يتلمس مرجعا يستند إليه ، مرجعا (نأمل

يحق) أن يقول له إن هناك أشيـــاء معينة أنت مضطر لعملها فى الحياةسواء أحببت ذلك أم لم تحب .

وابن الثالثـــة عشرة يريد (من الناحية المثالية) أن يصل إلى المدرسة مبكراً . وهو يحب أن يستقر قراره بها ببطء . كما أنه يحب أن يتزاور مع أصدقائه . وإذا هو جاء بالحافـــلة (الأومنيبوس) فانه يكون أهدأ منه وهو فى الثانية عشرة يوم كان يتـكلم ، أو حتى يصيح ؛ ويوم كان يضحك، وكان فى جملته صاخبا تماما من فرط تحمسه . أما ابن الثالثة عشرة فيمكنه أن يصير لجبا زائطا بما يصدره صوته المرتفع الرنان من نغمات حادة نفاذة ، وهو يتحدث مع أصدقاء من نفس جنسه فى الغالب ، بين الصالات وبين الأماكن المخصصة لاجتماعات الصبـــاح الباكر . وما أكثر ما لديه من أشياء يريد ليتحدث عنها ــ كالحفلات القادمة وماذا ينوى أن يفعل يوم عطـــلة الأسبوع ، ومن الذين يحبون بعضهم بعضا . ولا شك أن القرب الشديد يولد نوعا من الاحتكاك البدنى ، يتجلى فى دفعهم بعضهم بعضا ، أو مد أحدهم ذراعه على كتف الآخر .

ويفضل بعض أبناء الثالثة عشرة الذهاب إلى الفصل مباشرة رغبة منهم فى انتهاز فرصة للحديث مع معلمهم . وكثيرا ما يحضرون معهـم قصاصات الصحف أو يتحدثون فى الشئون العامة وربما كانوا يبغون أن يتموا عملا أسند إليهم لم ينجزوه بعد .

وابن الثالثة عشرة لا يستقر بمكانه بسرعة . ولذا فلا بد للمجموعة من جرس يصدمها ويصدها عن الـكلام وهى فى طريقها إلى الفصل أو إلى نوع النشاط المقرر . وابن الثالثة عشرة يدخل فصله متوانيا . ويحيط به جو معين من السأم بمسرات الدنيا . ولاشك أن تعطيل عمـله فى يومه الدراسى سيقل إذا هو أخذ دروس التربية البدنيـة فى أول النهار وآخره . وهذه الحصة من أحب الحصص إليه كما أنهـا تعد حصة طيبة كبداية تدفعه لبدء النشاط .

وغالبا ما يؤثر الصبيان كرة السلة على كرة القاعدة . ولعل مرد ذلك هو حداثة عهدهم بها ، ولـكن هناك فوق ذلك الحركة المستمرة والتفاعل بين

أفراد الفريق والحاجة إلى دقة الرمية ـ وهى جميعاً تتيح لابن الثالثة عشرة نوع التدريب الذى ينبغى . والتلابط والوقوع شىء محبوب أيضا . والرياضة الاختيارية فى آخر النهار تسمح لذوى الميول الرياضية القوية أن يساهموا مساهمة أتم وأوفى ، كما تسمح لمن هم أقل ميلا بأن يسيروا فى سبيلهم المفضلة.

وهناك مسألة لاتزال موضع الأخذ والرد ، وهى هل يحتاج ابن الثالثة عشرة (أو هل ينبغى أن يطالب) بأخذ دش بعد قيامه بنشاط بدنى مضن؟ فلو أنه خير فأغلب الظن أنه سيرفضه . ذلك أنه لايحس بالحاجة إليه كما أنه يمقت الخلع واللبس، وإذا هو كان غير مكتمل النضج البدنى فإنه يكره أن يكشف عن جسمه ويتعرى ، ومع ذلك فينبغى أن لا يسمح له بأن يرتدى حذاء الألعاب بالفصل طول النهار . فهو ضار بقدميه كما أنه يبعث فى الفصل رائحة غير مقبولة .

وبعد حصة الألعاب يقبل الجميع ولاسيما البنات على التزين ، وهن جميعا يحملن لوازمهن الضرورية فى محفظة الجيب . وتكاد مرآة كبيرة خلف الفصل أن تكون ضرورية لأداء هذه العملية . وربما تزينت البنات اللواتى بين الثامنة والعاشرة بعد الحصة مباشرة . وقد يستخدمن أحمر الشفاه ، ولكن معظم الجماعات تنبذ تلك العادة حتى سن الرابعة عشرة ، إلا فى حالة حفلات الرقص. (وبنات المدن يستعجلن اليوم الذى يستمتعن فيه باستعمال أحمر الشفاه وهن فى ذلك أكثر من بنات الريف) .

ومسلك ابن الثالثة عشرة فى الفصل مرتبط ارتباطا قاطعا بموقفه من معلمته. فهو شديد النقد لها. وربما أظهر رضاه عنها لأنها «تعاملنا كما لو كنا آدميين» . وربما انفجر بما يحمل من مشاعر نحوها معتبراً أنها «تنهال بالإهانة» — أو «دائمة النقد» — أو «تواصل مقاطعتنا والتشويش علينا» — أو «شديدة أكثر مما ينبغى» — أو «غير شديدة بالدرجة الكافية» أو «مملة» أو «تلقى النكات على حساب الغير» . ولكنه يحب الأشياء التى تقال على سبيل المزاح ، وخاصة كل تعليق يتضمن أنه شخص بطال (مادام لاينطوى إلا على قدر ضئيل من الصدق) . فإذا

كانت التحية التى يتلقاها بعد غيبته هى « عرفت أنك كنت غائبا أمس لأن الفصل كان هادئاً جدا » ، طرب لذلك وانشرح صدره . وكأنما له حاسة زكانة[1] يعرف بها المعلم الماهر المقتدر « إن الماهرين منهم يبدو أنهم على شىء من العلم . فهم يعرفون كما هو ظاهر ما يتحدثون عنه ويمكنهم ضبط النظام » .

ولكنه وإن لم يحترم معلمته ، فهو يحاول أن يتخلص من العواقب والعادة أنه لا ينفرد وحده بمشاعره العدوانية وأنه يعمل مع الجماعة فى ممازحة المعلمة ممازحة عملية بما يعملونه لها من أحابيل ومما كسات . ولعله يعا كسها بوضع دبوس رسم على كرسيها ، ومن حسن الحظ أنها تراه قبل فوات الأوان . وربما كانت الممازحة العملية أنبوبة من العطر موضوعة على المدفأة لاتلبث أن تنصهر وتملأ الغرفة بالرائحة . وربما وضع وعاء للعطر من هذا القبيل على عجلات الدرج بمكتب المعلمة المفتوح ، على أمل أن « يتحطم الوعاء وتملأ الرائحة المكان كله » عندما تقفل الدرج عن غير تنبه . ومن المحقق أن مثل هذا المزاح يخفى دونه تيارا خفيا من نزعة المقاتلة » . وينبغى أن لا ينزعج الكبار عندما يرونه يطل برأسه . بل الأجدر بهم أن يقلقوا لما فعلوه هم ككبار راشدين أو فشلوا فى عمله حتى انتهى الأمر بتعبئة تلك القوى أو عدم تعبئتها وإثارتها .

وغالبا ما يسىء طفل الثالثة عشرة الظن بنظار المدارس ، وذلك لأنهم لا يمثلون السلطة وحسب ، بل ويمارسونها أيضا . فقد يقال عن أحدهم إنه : « استعراض ضخم يتبختر فى الصالات كالطاووس ، وهو يضع على الدوام القواعد المنطوية على الغباء ويلقى الخطب دائما » ، وقد يقال عن غيره إنه : « يعطل سير الأعمال ويربك الفصول » والغالب أنه إذا لم يكن ابن الثالثة عشرة محبا للناظر أو الناظرة ، فالظاهر أنه يحس على العموم أن جميع المعلمين لا يحبونها أيضا ، وذلك لأن الناظر هو (صاحب السلطان

---

(١) الزكانة أو اللقانة intuition هى الحصول على المعرفة مباشرة دون استدلال عقلى (المترجم) .

على المعلمات أو المعلمين) .

وكان الأطفال فى الماضى لا يفرقون بين المعلمة وبين المادة التى تعلمها بل يطابقون بينهما . غير أن ابن الثالثة عشرة يبدأ فى التفرقة بينهما . فربما أحب المعلمة دون المادة التى تعلمها ، وربما كره معلمة من صميم فؤاده وواصل بذل اهتمام شديد بالمادة التى تعلمها . وهذا يدل على وجود قدر أعظم من التميز ومن الاستقلال فى الفكر لدى ابن الثالثة عشرة .

ومع أن الصبيان والبنات يجلسون مختلطين عادة فى الفرقة الثامنة ، فإن هناك أوقاتا يكون من الخير تفريقهما أثناءها . غير أن الجماعة فى جملتها تعمل مع ذلك كوحدة ، كما أن أعضاءها يكونون أكثر اتزانا مما كانوا عليه من قبل . وابن الثالثة عشرة وإن كان يجد صعوبة فى الاستقرار والشروع فى العمل إلا أنه لا يكاد يبدأ حتى يتركز بقوة غير معتادة . وقد يبلغ من جودة تركزه أحيانا على عمله أن لا تزعجه الأصوات المحيطة به ، ولكنه قد ينزعج فى أحيان أخرى من فصل يعج بالضجيج ومن معلمة لا تبرح تقاطع . وأحياناً يتركز الفصل تركزا جيدا جدا على العمل الفردى بحيث يسود الصمت التام مدة قد تبلغ عشرين دقيقة . ولا شك أن هذه مقدرة مكتسبة حديثا .

وابن الثالثة عشرة لا اعتراض له فى دراسته على اللغة الإنجليزية ، بيد أنه لا يحب قواعد الأجرومية الإنجليزية . وذلك لأنه لا يفهمها . بل إنه فى الحقيقة لا يعرف لها كنها ولا موضوعا ، كما أنه لا يرى أى فائدة تعود عليه منها . ولكنه كثيرا ما يحب أن يكتب الحكايات وربما أظهر خيالا حيا . وهو يكتب أحيانا خيرا مما يتكلم . ويحب بوجه خاص أن يكتب عن نفسه ، عن قصة حياته ، كما أنه ينعم غالبا بالاستماع إلى حكايات كتبها آخرون عن أنفسهم (على أن قلة من أبناء الثالثة عشرة الأكثر تكتما يشعرون أن فى الكتابة عن وجداناتهم شيئا من التقحم على أخص شئونهم . ولا يريدون بوجه خاص أن تقرأ مواضيعهم الإنشائية أمام الفصل . وينبغى أن تحترم رغبتهم) . وقد صار لابن الثالثة عشرة من يسر التعبير ما يجعل مهمة كتابة الخطابات

أسهل مما كانت . فهو الآن أقدر على النجاح فى مواصلة مراسلة رصفائه فى القلم . ولا يتجلى هذا اليسر فقط فى الألفاظ التى يختارها بل وأيضا فى خطه الفعلى . فكتابته أكثر تنسيقا ، ولكنها غالبا ما تكون صغيرة جداً ، وهو شىء يعود على معلمته بالخزى الكثير . على أن الخط الصغير الذى يكتبه ابن الثالثة عشرة إنما هو فى الواقع تعبير خارجى عن طرائقه الذهنية الداخلية الطيبة . فينبغى أن يطرى لا أن ينتقد على صغر خطه ، بل حتى على ضنه بهوامشه وملئها بشح ، فذلك يدل على أنه يدخر فى كل شىء حتى الورق .

وفى القراءة ، يحب الصبيان قصص الرياضة أو المغامرة ، وتحب البنات قصص أبناء العقد الثانى الدائرة حول أناس فى مثل سنهن ولها عناوين توعز بمغزاها مثل «موعــــد فى الصيف Summer Date» . وتواصل بعض البنات اهتمامهن بالحيوان ، ويختصصن بحبهن الحكايات الدائرة حول الخيل . ويبدأ ابن الثالثة عشرة فى أن يكون أكثر تنبها إلى الأسلوب فيما يقرأ ...

وهو يحب أن ينتقى فقرات وصفية جيدة التدبيج ، ولكن ليس معنى ذلك أنه يريد أن تكون الكتابة مسرفة فى جفافها وفخامتهــا ولا فى خفائها ودقتها . فإنه يفضل لو كانت أكثر خشونة . وهو ذو اهتمام بالمعنى الذى يرمى الكاتب إليه ، وإذا كان المؤلف يعنى شيئا معينا ، عجب ابن الثالثة عشرة لماذا لا يستطيع أن يفصح عنه ويقوله على صورة بسيطة .

ولأبناء الثالثة عشرة فوق كل شىء آخر ميل لتجربة كل جديد من الأشياء . فالذين يحبون الرياضيات ربما أحبوها بوجه خاص إن عدوها أصعب مادة عندهم . وهم يحسون بشعور الفوز والانجاز إذاهم نجحوا فى حل مشكلة لفظية . والصبيان بوجه خاص يحبون أن يراجعوا على عملهم وأن يستخدموا التطبيق العملى للمقاييس والمساحات . فنرى بعض أبناء الثالثة عشرة يلتهمون الجــبر أو الهندسة أو حتى حساب المثلثات كمواد جديدة ، إذ أصبحت فى متناولهم .

وهم يدمون أيضا بالنظرة الروحية الشاملة التى تنظر إلى الشئون العالمية

من خـــلال الدراسات الاجتماعية . يستمتعون بقراءة الصحف وقص المواد المشوقة وقراءة كلمات التحرير والنظر إلى الرسوم اليـــدوية المتحركة (الـكارتونات) وتقليب الفـكر فى معانيها . وهم يسعدون بحصص المناقشة وإذ أنهم يدركون الآن أن للفـكر عددا أعظم من الدرجات المتدرجة ، فإنهم يستطيعون أن يتحولوا بمناقشتهم خطوة أعلى فوق المناقشات التى كانت تحتدم بينهم فى العام الماضى حول الشىء ونقيضه . وهم يحبون أن يغوصوا فى أعماق التاريخ السياسى ، وأن يعرفوا المزيد مثلا عن أصل لفظة « وحدة الولايات الجنوبية Solid South» وعلاقتها بالحرب الأهلية . وتفتنهم دراسة التسهيلات الجديدة التى طوعها لنا عيشنا فى عصر الطيران ، فإذا انتقل أبناء الثالثة عشرة بفـكرهم انتقالا سريعـا من النواحى المعروفة من استخدام الطيران فى أمثال النقل وتسليم البريد ، راحوا يستنتجون حقائق جـــديدة حول ميادين أخرى أكثر جاذبية كالأنقاذ والمعاونة فى الـكوارث وبذر المحاصيل بل حتى إنزال حيوان كلب الماء فى مناطق البحيرات الجبلية بغية المحافظة على نوعه .

ويواصل ابن الثالثة عشرة اهتمامه بالمجمـوعة الشمسية والدنيا وبأشياء قريبة من بيته كالجو . كما أنه أخذ يحول اهتمامه بالـكون الأعظم إلى اهتمام بالـكون الأصغر : وتسبى لبه الذرات والطاقة الذرية ، وخاصة فوائدها السلمية التى تتيح إمكانيات أخرى كثيرة جداً وليس مجرد نسف الأشياء وحده . كما أنه أخذ يهتم بما تصنع الطبيعة ومايصنع الإنسان من أشياء كالفحم الحجرى واللدائن (البلاستك) . على أن الشىء الذى يستبى لبه أكثر من كل شىء هو الناحية التجريبية للعلم . فهو يريد أن يدخل ميدانه وأن يقيم لنفسه الدليل على شىء ، وينبغى أن يسهل له أداء ذلك . كما أنه قد أخذ يصبح متنبها إلى فروع جديدة للعلم ، وخاصة فى ميدان علم النفس .

إن حقبة قابلة من التخصص فى العمل والمناشط الخارجة عن خطة الدراسة قد أخذت تطل برأسها من خلال زيادة ميل ابن الثالثة عشرة إلى الهوايات .

وينبغى أن تشجع هذه النواحى جهد الطاقة على أساس فردى طبقا لميوله الخاصة . وأصبحت هواية الموسيقى ، وبخاصة العزف على إحدى الآلات قوية لدى بعضهم ، ولكن الدراسة الموسيقية المنتظمة تكون عند البعض الآخر (وبخاصة الصبيان) أكبر نقمة ولعنة . ويمكن أن يكون عندهم التصوير والرسم استجابات متطرفة مماثلة لهذه والصبيان يفضلون فى الغالب دراسة الراديو إن كانت وسائل ذلك ميسرة .

والصبيان يكونون أثناء العمل فى الدكاكين : «مرحين معتدين بأنفسهم» كما أنهم ربما ناقروا[1] قليلا ، ولكنهم على الجملة عمال مجتهدون . ويستطيع ابن الثالثة عشرة فى أشغال المعادن أن يتم جميع ما يستلزمه صنع مطرقة بكل ما يقتضيه ذلك من النشر والبرادة والثقب . وهو يجيد التخطيط ولا يريد أن يتخلى عما يصنع . فإن هو قام بمشروع فى أشغال الخشب كصنع صينية لوالده توضع فوق التواليت ، لقى ذلك منه عناية طيبة من الصقل والاتقان .

وربما لجأت بنات الثالثة عشرة إلى شيء من التبلد إزاء الاقتصاد المنزلى ، ولكنهن يبدين تشوقهن بمجرد بدئهن أحد المشروعات . وربما لم يزلن يستخدمن ضراب البيض بتحريكه إلى الخلف ويقطعن بالحرف الغلظ للسكين . ولكنهن كثيرا ما يمكنهن تجهيز وجبة كاملة جيدة . وأعز أمنية يتمنينها هى أن يخبزن كعكة بالشكولاته مزينة مزخرفة بطبقة سكرية بيضاء ويدعون الصبيان للاشتراك فى تناولها . وموضع جلوس كل فرد شيء هام جدا وأحسن حل له هو القرعة . وبنت الثالثة عشرة مشتاقة أن تمضى فى خياطتها دون مساعدة من أحد وهى الآن قادرة أن تتم ثوبا بأكمله :ـ فستانا أو جونلة أو بلوزة بلا أكمام . وبينما هى تمضى فى عملها قدما بسرعة لا تفتأ تزداد قرب النهاية فإن كيفية العمل تنحط .

وعلى الرغم من اشتهار ابن الثالثة عشرة « بالتشبث » ، فلا يجوز أن يكون لاحتجاجاته أى أثر على تقديرنا لقدرته كطالب . وقد يبدو متململا غير

---

(١) يقال ناقره مناقرة أى راجعه فى الكلام وحاجه . [المترجم] .

مستقر بينما هو آخذ فى الاستقرار ، فتراه يمد قدمه فى الممر ويتلوى ويتكلم ويبرى قلمه ، ولكنه ما يكاد يستقر حتى يظل فى حالة جيدة مدة تتراوح بين العشرين والثلاثين دقيقة يقضيها فى تركز شديد . ذلك أنه يريد أن يتم عمله ويفضل أن ينهيه بالمدرسة لا أن يأخذه إلى المنزل . وهو لا يريد أن يتأخر له عمل أو يؤجل . وليس معنى ذلك أنه لايتوانى ولا يضيع الوقت . ولكن الواقع أنه ينجز عمله بدرجة من الإتقان يصير معها إعطاؤه واجبا منزليا إضافيا من الأمور المستوجبة للأسف . فإذا هو أعطى الواجب المنزلى بانتظام ، كان فى العادة مراعيا لضميره ومعتمدا فى عمله على نفسه ، بينما كان وهو فى الثانية عشرة محتاجا للمساعدة . فالمشروع الطويل الأجل هو الذى قد يأزف وقته قبل إنجازه . وهذا قد يورثه الدوار أو الفزع الفجائى ، وذلك لأن الواجب يبدو عندئذ شيئا لا نهاية له . وكأنى به لا يرى النهاية إلا بعد أن يبلغها . ولكنه ينظم أموره عادة ويتغلب على المصاعب، ولعل ذلك يتم بفضل شىء من المساعدة يتلقاها .

ويحب ابن الثالثة عشرة فى نهاية يوم مدرسى حافل بالعمل أن يتسكع بجوار الصناديق والدواليب إذا لم يكن مضطرا للاندفاع ليلحق بالسيارة وهو لا يندفع كالسهم فى خروجه من المبنى على نحو ما كان يفعل يوم كان فى الحادية عشرة وأحيانا فى الثانية عشرة . وتتشكل منهم عندئذ مجموعات من ثلاثة أو أربعة من الصبيان أو البنات . وقد تنضم بنت فى الفرقة السابعة إلى بنات الفرقة الثامنة ليتحدثن عن صبى فى الفرقة الثامنة . والأغلب أن يدور حديث بنات الفرقة الثامنة حول صبيان المدرسة الثانوية . ويجرى بينهـــن نوع لذيذ سار من الدردشة والمعاكسة يستمر فترة من الزمن إذا لم تطردهم معلمتهم إلى خارج المبنى احترازا .

٨ ـ الحاسة الخلقية

يتقلب ابن الثالثة عشرة فى إطار خلقى أكثر تعقيدا من ذلك الذى كان يتقلب فيه ابن الثانية عشرة . وهو يفكر بدرجة أقل فيما يعود عليه بالفائدة وبدرجة أكثر فى الأخلاق بوجه عام وكيف تساعدك الأخلاق على الارتباط بالآخرين وبنفسك . وبفضل ازدياد

تحدد ابن الثالثة عشرة عندنا تزداد معرفتنا بما لديه من النقائص المتطرفة فى السلوك الخلقى . فهناك البنات الطهورات اللواتى يكدن يبالغن فى استحيائهن ويتشبثن بأهداب الشرف بدقة زائدة واللاتى لهن احساس مفرط بالصواب والخطأ ، واللواتى قد لا يتسامحن مع اولئك الذين يتنكبون ما يعدونه قانونا خلقيا ثابتا . وهناك بعد ذلك أبناء الثالثة عشرة (وهم فى الأغلب من الصبيان) الذين لاتضايقهم ضمائرهم والذين هم أدنى إلى تنكب بعض السنن الاخلاقية المقررة ولو تحت ستار من الغش . ولكن معظم أبناء الثالثة عشرة يجدون أنه من السهل عليهم أن يتخذوا قرارات مبنية على أسس خلقية . وهم يستمتعون الآن بحرية جديدة تمنحها إياهم حاستهم الخلقية المرهفة .

ويتم تقرير أمر الصواب والخطأ وتحديده بقدر لا بأس به من اليسر . ويستطيع معظم أبناء الثالثة عشرة أن « يقرروا ذلك بوضوح لا بأس به » كما يمكنهم فى العادة أن يصلوا إلى نتيجة « دون أى تعب » . ومنهم من يبدو كأنما هو يعرف ذلك بطريقة أوتوماتيكية كما أن بعض الصبيان — وهو أمر عجيب حقا — يتحدثون بطريقة مطلقة مؤداها : « إنى أعرف دائما » وهم يدركون أن قوى متنوعة ترشدهم : منها ضميرهم ورأى أمهم وأبيهم فى الأمر أو « رأى الناس فى الأمر » ومع ذلك فإن هناك قوة جديدة تعمل عملها ، وهى التى يسمونها باسم قدرتهم على الحكم على الأمور أو رأيهم . ومع أن ابن الثالثة عشرة يعرف ماهو صائب وماهو خطأ فليس معنى ذلك أنه لن يرتكب الخطأ ولاتزال مسرة الواحد منهم بأن يكون رديئاً أو مسيئاً تطل برأسها من وراء حجاب ولاسيما بالمدرسة . وليس لأحد والحق يقال أن ينتقد ابن الثالثة عشرة «لدخوله بيتا قديما خاليا » ، إذا هو لم يوقع به أى ضرر .

وابن الثالثة عشرة يتقبل ضميره بدرجة كبيرة نوعا ما معتبرا إياه جزءا من نفسه . وهو يدرك أن ضميره ناشط فعال ، وأنه حازم غالبا ، بل حازم جدا فى واقع الأمر . وخاصة فيما يتعلق بالمسائل الهامة !! وهو يعرف أن ضميره لايضايقه كثيرا حول الأشياء التافهة

بل حتى « يتركه وشأنه ليتخلص من الأشياء الصغيرة والسفاسف » ولكن إذا أوذى شخص آخر وإذا كان ابن الثالثة عشرة سافلا دنيئا مع أحد الناس ثار ضميره ثورة محققة وألحق به أشد النكال.

ويصل ابن الثالثة عشرة إلى درجة من المعرفة أكمل وأوفى بماهية الصدق النسبي وكنهه. فهو يحاول أن يكون صادقا ويريد أن يقول الصدق، ولكنه لا يقول أحيانا إلا شطرا من الصدق. أحيانا « يقول أكاذيب بيضاء »، إما مراعاة لمشاعر صديق له وإما التماسا للنجاة. وهو يكره بصفة خاصة إبلاغ والديه عن أية درجات ضعيفة حصل عليها، وإن عرف أن والديه « لن يضرباه حتى يقضيا عليه ». وهو يجنح للتهرب من أحد الأسئلة، وأن يلتمس عذرا كقوله إن الورقة لم ترد إليه، أو يهدىء الأمور بتحويل التفات والديه وجهة أخرى. ولكنه لن يتنكب الصدق لو عرف أن شخصا آخر سيؤذى.

لقد خطا ابن الثالثة عشرة خطوات واسعة نحو القدرة على تحمل اللوم عندما يكون مسئولا. وقد بدأ يرغب فى الاعتراف بمعايبه وقصوره. وإنه ليلوم فى بعض الأحيان على سبيل المزاح فقط. بيد أن هناك أيضا أوقاتا لا يكون فيها مستعدا لتحمل اللائمة ويجد أنه أسهل عليه « أن يزيح التبعة على الآخرين ».

وابن الثالثة عشرة كشأنه فى الثانية عشرة نادرا ما يجادل والديه حبا فى المجادلة. وربما جادل على سبيل المزاح، ولكنه على العموم يغلب أن يجادله بغية الحصول على مايريد. ورغم ذلك فهو لا يجادل كثيرا. إذ هو الآن قادر على البحث والمناقشة كما أن لديه أفكارا قليلة تماما عن المشاكل الاجتماعية وهو يحس أن عقله مستعد لتقبل الآراء المعقولة، ولكن الواقع أنه ليس من السهل اقناعه ولا زحزحته عن رأيه. وربما تقبل مطالب والديه لمجرد إحساسه بوجوب ذلك ولو كان ذلك ضد إرادته، ولكنه يظل غير مقتنع بسلامتها.

وتأخذ مشاكل التدخين وشرب

الخمر تقترب الآن من خبرة ابن الثالثة عشرة الخاصة . وهو الآن يفكر فيما إذا كان هو نفسه يستطيع أن يدخن أو يشرب . وقد يحاول معظم أبناء الثالثة عشرة (وبخاصة الصبيان) أن يجربوا التدخين ، ولكنهم على العموم يقولون إنهم لن يدخنوا بانتظام ، وربما شعروا أن مثل هـذه الأنواع من النشاط ينبغي أن « ترجأ حتى حوالى العشرين تقريبا » . أما الشراب فإن ابن الثالثة عشرة لا يقف إزاءه موقف المتسامح أو غير المتسامح . وهو يحس أنه شيء ينبغي أن يؤخذ على علاته . فالشرب يتوقف على الشخص، وعلى مدى معرفته بحدوده وقوة احتماله . ذلك أن ابن الثالثة عشرة تزعجه إلى أقصى حد مسألة الإفراط فى الشراب إلى درجة السكر ما لم يكن هناك فيما يحتمل « أسباب وجيهة لأن يصبح المرء ثملا كالاحتفال بإحدى المناسبات » . وتفكير الصبيان فى السكر عرضى أكثر من تفكير البنات فيه .

فإذا انتقلنا إلى السباب وجدنا للصبيان فيه آراء محددة جداً فيما إذا كانوا من أنصاره أو من خصومه . فبعضهم يكثرون من السباب بوجه خاص ليصبحوا بحــق أعضاء فى العصبة . وبعضهم الآخر يتركون السباب للكبار كامتياز من امتيازاتهم ، أو ربمـا استنكروه كعلامة من علامات سوء التربية . والبنات أكثر تنبها إلى الأسباب التى ينبغى لك من أجلها أولا ينبغى لك أن تسب . وهن يردن أن يعتذرن عن سبابهن ويبررنه ، رغم أنهن لا يوافقن على السباب بوجه عام . وربما شعرن بأن الأطفال ينبغى على الأقل أن يكون لهم امتياز التقاطه بأنفسهم ولا يوجه إليهم من آبائهم .

ويعترف بعض أبناء الثالثة عشرة باعتداءاتهم الطفيفة على القانون الخلقى من ناحيتى الغش والسرقة ، ولكنهم يدعون لأنفسهم على الدوام مبررات قوية . فالكتب تظهر فعلا كأنمـا هى مفتوحة على الأرض أثناء فترة الامتحان ، كما أنه يظهر أن للريح طريقة ما فى تقليب الصفحات ! ! أو أنه لمــا كان أصدقاؤك يأخذون أشياء صغيرة بين الفينة والفينة ، جاز لك أنت أيضا أن تلتقط بطارية كهربية

صغيرة . تلك هى أفكار ابن الثالثة عشرة القائمة على بالغ التمويه والمعتمدة فى الظاهر على المنطق . ومع ذلك فإن معظم أبناء الثالثة عشرة لا يغالون فى الغش ولا فى السرقة . وهم متنبهون إلى ما يفعله الآخرون ولكنهم لا يبلغون فى العادة أحداً من ذوى السلطة . ذلك بأن ابن الثالثة عشرة يمقت « الفتنة » ، ومن سوء الحظ فى كثير من الحالات أن يوضع ابن الثالثة عشرة فى مركز يصبح فيه مسئولا فى هذا النوع من التبليغ . ولذا فينبغى أن يكون ابن الثالثة عشرة مسئولا أمام نفسه ، وإذا هو لم يكن قد وصل إلى هذه المرحلة وجب أن يكون ذلك جليا إلى حد ما لدى الراشد والدا كان أو معلما . ومثل هؤلاء الأطفال بحاجة إلى مساعدة الكبار وإرشادهم .

وينبغى أن نبادر بالعمل ولا نضيع أى وقت وذلك لأن سلوكهم قد يصبح أسوأ بالفعل فى السنوات المقبلة . وبذلك يقل أثر أصدقائهم عليهم ويصبح أقل إيجابية ، وذلك لأنهم سيختارون أصدقاءهم من بين من يماثلونهم فى الميول والمشارب . فإن الغالبية العظمى من الأتراب ستواصل الضغط عليهم ومطالبتهم ، كما أن مؤثرات أخرى رسمية أكثر كالتى تفرضها حكومة الطلبة مثلا — سوف تظهر وتتبوأ مكانها . بيد أن المشاكل الخلقية كثيرا ما تعالجها مثل تلك الجماعات معالجة خشنة خالية من اللباقة ، وربما كان من الأصوب أن تلقى إشرافا حكيما وإرشادا فرديا من معلم أو موجه متفهم وحازم أيضا .

٩ ـ النظرة الفلسفية

الزمان والفضاء

إن ابن الثالثة عشرة بما له من عقلية جبلت على سبر الغور والدقة فى التعريف أقل تحيرا فى تعريف الزمان مما كان فى الثانية عشرة . فهو الآن ينتقل من المفهومات غير المحددة عن الزمان وهو يتحرك أى عن مرور الزمن، إلى فكرة عن الوقت أكثر استقرارا (استاتيكية) وهو يتحدث عن اللحظات والساعات والسنوات

بقوله : « إنها رزمة من الأوراق تدون عليها الأحداث » ، — أوهى « تسجيل لفترة من الحياة » ، — أو « الفترة أو المسافة بين حدثين » .

وربما تفكر فى ابتداء الزمن أو نهايته إن كان ذا اتجاه فلسفى ، ولكنه غير متأكد من نهايتيه جميعا ، : هل الزمان ابتدأ ؟ ومتى ؟ وهل سينتهى ؟ ومتى ؟

وحياة ابن الثالثة عشرة حافلة جدا فهى من الازدحام بحيث لا يجد دائما الوقت الكافى لكل مايريد عمله . هو يتناول الزمن تناولا جيدا جدا ، ولكنه غالبا مايصل إلى الإسراع فى اللحظة الأخيرة ، أى الحاجة إلى إنجاز شىء فى تلك « الدقائق الخمس الحاسمة » الأخيرة . .

وأبناء الثالثة عشرة يعيشون فى الحاضر الذى يعبرون عنه « هنا والآن » وفى المستقبل القريب . ومن أبناء الثالثة عشرة من تسحرهم الأزمان السحيقة والأماكن القصية ، ولكن معظم أبناء الثالثة عشرة يدركون أن « الحاضر وحده هو الذى يمكن أن نعيش فيه » « أما الماضى القريب المباشر فقد ولى » وأنت لاتستطيع « أن ترده ثانية أبدا »

وأهم مايشغل بال ابن الثالثة عشرة هو « لاشيئية » الفضاء . ومع ذلك فإنه ربما عبر عنها ، إذ أنه يحاول أن يتحدث عن شىء « لاوجود له ولكنه كائن » وبعضهم يقصر الفضاء على الهواء والجو أو المسافة ، ولكن العدم وغيبة الأشياء هو الذى يسبى لب ابن الثالثة عشرة أكثر . وربما تربضعة نجوم أوكواكب لتشغل الفضاء أو ربما فكر فى لانهائية الفضاء التى تستمر إلى الأبد . وإنك لتجد فى الناحية الأخرى المقابلة لهؤلاء الذين يعتقدون فى مثل ذلك التوسع ، أولئك المفكرين المرتبطين بماحول البيت والمقيدين بالحقيقة الواقعية وهم لايزالون يرون أن الفضاء هو المتسع الذى تنمو فيه الاشياء أو تعيش أوحتى تجلس فيه فقط (كما يحدث عندما تفسح مكانا لصديق لك فى السينما) .

وقد هبط الآن فى الثالثة عشرة ذلك الميل للسفر الذى كانوا يعبرون عنه بقوة فى الحادية عشرة والثانية عشرة . وقل الاهتمام بزيارة الأماكن الجديدة أو الغريبة . ولكن ابن الثالثة عشرة أصبح

عظيم الكفاية فى انتقاله بالقطار أو الأمنيبوس إلى المدن القريبة ، وبخاصة تلك التى زارها من قبل . وهو يبدأ بفضل زيادة حركته فى الفضاء يعرف أى نوع من حاسة الاتجاه يملكها .

والبنات عامةهن غالباذوات المرتبة الدنيا من حاسة الاتجاه ، كما أن لبعض الصبيان حاسة جيدة لايكاد يتطرق إليها خطأ ، فهم يعرفون دائما أين هم بالضبط من الفضاء . والصبيان أكثر تنبها أيضا إلى الجهات الأصلية الأربعة . وما أكثر ما تتجه بنت فى الاتجاه المضاد للموضع الذى تريد الذهاب إليه . ومن حسن حظ الكبار الذين يتعرضون لهذه الصعوبة نفسها ، أن مهندسى المرور قد أخذوا يدركون الآن هذا الخطر ، ويجعلون علامات الطرق مسايرة لاتجاه المرور .

الموت والإله :

يذكر كثير من أبناء الثالثة عشرة بصراحة تامة أنهم لم يوجهوا تفكيراً كبيراًلموضوع الموت . أمافكرة موتهم هم فتبدو « بعيدة جداً » ، كما أنها « ليست فى المستقبل القريب » بحيث لم تسترع التفاتهم ، وهناك قلة كانت فى السابق ترهب فكرة الموت ، ولكن رهبتها لها الآن أقل . ومعظمهم يحسون أنه ليس ثمة شىء يخاف منه . إنه « مجرد حقيقة مسلمة » — أو « حدث لامحيص عنه » .

وبعض أبناء الثالثة عشرة يظنون أن الموت مكان توقف ونهاية . وربما ذهب الصبيان بطريقة علمية أكثر إلى أن « شيئا فنيا يحدث كتوقف القلب عن الدق » .

أما الذين يرون أن الموت هو « النهاية » فلا يشغلون بالهم كثيراً بالجنة أو النار . وهم يقولون إن كل مافى الأمر أنهم لايعرفون ماذا يحدث وهم يريدون برهانا كما أنهم يدركون تماما أنه ليس هناك أى برهان . فالموت هو « النهاية » كما أن « معظم الناس ينسون » .

وقل منهم من يهتم بنوع الإحساس بالموت وطريقته . ولايبدو الموت لابن الثالثة عشرة محزنا بقدر ما كان يبدو لعينيه يوما ما . وقد لا يعبر عن حزنه على الميت بقدر مايعبر عنه على من يغادرهم الميت ، وهم الأفراد المتصلون اتصالا

وثيقا بالذى توفى . وربما اهتم ابن الثالثة عشرة بالذهاب إلى إحدى الجنازات . وربما دهش لأن الجسد يبدو حقيقيا إلى هذا الحد . وهو متنبه إلى نوع شعور الآخرين أثناء الجنازة ، وهو يقول بنفسه إنه « يحس أنه كان من الخير له أن يكتسب تلك الخبرة » .

وهناك تحول تام فى اعتقاد ابن الثالثة عشرة فيما يتعلق بما وراء الموت إن كانت له بالفعل أفكار فى ذلك الموضوع . ويندر أن يفكر فى العودة إلى هذه الأرض كما كان يفعل فى الثانية عشرة . وقد أخذ ينبذ ببطء الفكرة القائلة بأن هناك مكانين يذهب إليهما الإنسان ، كما أنه يبدأ فى تقليب فكره فى أنه ربما كان هناك « مجرد مكان واحد فقط » . وهو لا يفكر فى «المقام السرمدى فى النار» ؛ وإن جاز أن يسلم بوجود « مكان للتوبة لمدة لا تتجاوز السنتين » ، وهو نوع من المطهر المستقل . وهو يسائل نفسه : هل يمكن أن تقلب الحظوظ فى ذلك المكان المعين ، «الذى قد يكون شبيها بالأرض » والذى فيه « يضطر كل من ينعمون بالغنى على الأرض إلى العمل فى رفع الفحم بالجاروف ، على حين أن الذين يعملون ويتضورون جوعا ابتغاء خدمة الجمهور ربما كانوا هم الأعلون » .

على أن معظم أبناء الثالثة عشرة ليسوا تماما على مثل هذه الدرجة من الدقة والضبط فى تفكيرهم . فربما صرحوا أنهم لا يؤمنون بالنار ، وأن معظم الناس يذهبون إلى الجنة وإن كانوا مسيئين ، وذلك لأنه «ليس هناك أحد مسيئا حقا فى كل نواحى حياته » . فلو حددت مقادير الجزاء فربما عاقبت نفسك بنفسك على ظهر هذه الأرض .

وكما هو شأن ابن الثالثة عشرة من قلة الاهتمام بالموت ، فإنه ربما لا يفكر كثيرا فى الإله أيضا . وهو يدرك أنه تعود أن يفكر فى الأمر أكثر كثيرا . وهو يدرك أن أفكاره قد تغيرت فى الآونة الأخيرة . وبينما أولئك الذين لا يزالون يؤمنون ، كان من عادتهم الاعتقاد بأن الله شخص أو « نصف إنسان ونصف روح » ، فإنهم يرون فيه الآن روحا غالبا . وأنهم ليقوون

فى الغالب فكرتهم بتعقيبهم بقولهم : « إنه ليس إنسانا » . وقد أصبح ابن الثالثة عشرة أقل اعتقادا بأن الله « يرقبه » وأكثر اعتقادا « بمعرفته » بما هو صانع . ولكنه وإن آمن بالله ، إلا أنه يعتقد أنه لا يؤثر فيه شخصيا ، وأنه « لا يدخل فى الحياة اليومية » . وقد كانت إحدى بنات الثالثة عشرة تظن أن الله وإن لم يؤثر فيها مباشرة ، فإنه قد أثر « سيكولوجيا » من حيث أنها هى نفسها أصبحت الفاعل للأشياء . والله قوة إيجابية فى حياة بعض أبناء الثالثة عشرة . أو أنه ربما ردهم بنوع خاص عن اقتراف أعمال كثيرة ، وردهم بنوع خاص عن السباب .

ومع أن غالبية أبناء الثالثة عشرة لديها شكل من أشكال الإيمان بالله ، فإن عددا منهم لا يبرح يزداد ، يخامرهم الشك فيه . وربما كانوا فى حالة انتقال — فيقولون « إن الأمر يبدو تارة مشكوكا فيه ، وتارة يبدو حقيقيا جدا » . وربما لم يصدقوا ما قيل لهم ، ولكنهم لم يكونوا بصدد « مذهبهم الخاص » . أو لعلهم لا يؤمنون تماما بالله لأنه « ليس هناك برهان حقيقى عليه » . فربما « كان موجوداً » ولكنهم « ليسوا متأكدين تأكداً مطلقا » . ومع هذا فابن الثالثة عشرة غالبا ما تحدث له شكوكه هو نفسه صدمة عندما يظن أنه لا يؤمن بالله .

وأداء الفرائض الدينية ذو أهمية لابن الثالثة عشرة المؤمن . وهو يميل إلى الصلاة كل ليلة تقريبا . وهو يدرك أن تفكيره هو له أثره فى نفسه . بل لقد يعتقد أنه « عندما أفكر فى الأشياء ، يكون ذلك التفكير على الطريقة التى قصد أن يحدث بها » . وهو يسائل نفسه عما إذا كانت الديانة والكنيسة تستطيعان أن تتركا بنفسه آثاراً مخالفة لو أنه أظهر اهتماما أكبر بهما وفكر فيهما أكثر . والثالثة عشرة سن « يثبت » فيها إيمان كثير من الأطفال بالكنيسة باختيارهم هم أنفسهم . على أن الباعث الدينى هنا ليس قويا دائما ، ولكنهم يظنون على الأقل « أن ذلك التثبيت فكرة حسنة » .

وأداء الفرائض أسبوعيا أو على فترات أكثر تباعدا — مهما يكن

شكل الفريضة الدينية — منتشر فى الثالثة عشرة بدرجة مدهشة . وهناك عدد من أبناء الثالثة عشرة يحضرون مدرسة الأحد وإن لم يلزموا بذلك . ومهما تكن الحال فإن هناك عددا متزايدا يحضرون بدافع من شعورهم بالواجب أو « عندما لا أستطيع أن أتخلص من الموضوع بالحديث والكلام الذى يرجى منه » وإذا لم يرد ابن الثالثة عشرة أن يذهب ، كان قاطما فى تصميمه كشأنه فى اختياره لثيابه أو طعامه . وليس هناك كبير عناء فى إجباره . وربما آثر حضور الكنيسة على مدرسة الأحد ، ومع أنه قد لا يذهب إليها كل أحد ، فإنه يجنح للذهاب بمعدل مرة فى الشهر . وهو ليس بعد مستعدا ولا بالغا من العمر ما يؤهله للالتحاق بجماعات الشباب ، ولكنه سيكون فى الرابعة عشرة مستعدا لذلك ومشتاقا إليه ، من الناحيتين الاجتماعية والدينية على السواء .

الفصل الثامن

سن الرابعة عشرة

مصور النضج

تمر الحياة الانفعالية خلال هذه السنة بتغيرات نمائية . فإن خجل الثالثة عشرة وسرعة تأثرها ونزواتها الرفيقة الرقيقة تحل محلها قدرة عنيفة على التعبير . فالبيت الآن يملأ جنباته ضحك وضجيج وغناء أكثر من ذى قبل . ويقل التباعد والانسحاب . وتحس العائلة من أبنائها فى الرابعة عشرة رضا وارتياحا جديدا . والآباء يكررون على مسامعنا المرة بعد المرة فى زيارتهم السنوية للمعهد أن هناك تغيراً قاطعاً فى مظهر السلوك ، عما كانت عليه الحال منذ سنة خلت . « إنه طفل قد تغير — شخص آخر مختلف »

وبطبيعة الحال تختلف درجة التغير وأنماطه باختلاف الفردية الأساسية للشخص ؛ ولكنا سنزيد فى هذا المصور من قوة أوجه التباين بين ابن الثالثة عشرة وابن الرابعة عشرة لكى نكشف القناع عن آليات التطور التى تعمل عملها . وليس فى هذه المقارنات أى إجحاف يثير التحاسد بين الطرفين . فما سمات النضج الجديدة للرابعة عشرة إلا أعراض تدل على حركة التقدم إلى الأمام لدورة نماء ثانوية ، وقديما أدى إنهماك الثالثة عشرة الذاتى المتجه إلى دخيلة نفسه إلى تقوية بناء الذات التى تصبح الآن متكاملة تكاملا أوفى وفى حال أفضل من الاتزان وذلك فى علاقاتها مع غيرها من الشخصيات . ومن ثم يكون ابن الرابعة عشرة أحسن وأقدر على التعرف لنفسه والاتجاه نحو بيئته التى يشترك فيها مع الناس . فهو يحس أنه قد قارب أن يصل إلى ماهو جدير به من منزلة . وهو يشعر باطمئنان إلى إثبات ذاته على الرغم من شدة تأثير الطاقة المتزايدة . يقول والداه : « إنه ملىء بالحيوية والنشاط والقوة » ، وهو أمر لاشك أنه يرجع إلى التأثير المشترك لتغيرات كيمياء البدن ولإعادة التنظيم التطورى لتكوينه النفسى .

وهو يستمتع بالحياة . وينزع أن يكون ودودا ومنبسطا فى علاقاته المتبادلة مع الناس داخل البيت وخارجه . وكان تصرفه أثناء المقابلة ومواقف الامتحان خاليا من التقيد ومقترنا بالتعاون القلبى بشكل مثالى . كان صريحا ميالا لتجاذب الحديث ، ولكنه كان أدنى إلى التحفظ فى حديثه منه واثقا قادرا على الإفضاء بمكنون نفسه . وكان يظهر الاهتمام بتلك الخبرة ، ويدلى متطوعا بتعليقات وأسئلة تلقائية . كما أظهر إدراكا محدودا للممتحنة على أنها شخص آخر ، وكثيرا ما كان يسألها رأيها الخاص. وكان يتفوه بشذرات من الفكاهة الدالة على طيب المعشر . على حين كانت الاستجابات فى الثالثة عشرة أثناء المقابلة أكثر تحرزا وجدية ، مع توجيه قسط أقل كثيرا من الحديث إلى الممتحنة .

ولابن الرابعة عشرة موقف يبدو أكثر نضجا نحو البالغين بوجه عام ، ونحو عائلته خاصة . فهو الآن أكثر تحررا فى استعماله لكلمة « العائلة » كما أنه قد شرع فى التفكير فى الأسرة كنظام من النظم . وهذا أمر يجعله أحيانا مسرفا فى نقده . فإن الإبن قد يعد أباه شخصا قديم الطراز لدرجة ميئوس من علاجها . وربما صاحت إحدى البنات فى امتعاض : « يالى منك ياأماه ! » لأقل خروج عن أصول اللياقة . وعلى الرغم من وجود هذا الميل للاحساس بأشد الارتباك والضيق بمسلك الوالدين ، فإن العلاقة الأساسية مع مجموعة العائلة تصبح أكثر مرحاً وأقل توتراً . فالخلافات أقل تأزماً وإلحافاً . كما يزداد الاحترام والثقة المتبادلة ، القائمين على الفهم المتزايد . ذلك أن ابن الرابعة عشرة أخذ يكون وينمى فى نفسه قدرة على إدارك الكيفية التى يحس بها الآخرون ، وعلى رؤية نفسه كما يراه الآخرون . بل إن عضويته فى عائلة أمريكية قد تتيح له استخدام حاسته الفكاهية النامية ؛ فإنه يجرؤ على أن يهزأ من والديه ويغيظهما بينما يبادلانه ذلك فى تسامح واستبصار .

وهو يساير إخوته الصغار مسايرة لا بأس بها ل الواقع أنهم إن كانوا حوالى الخامسة أو دونها ، يحب أن يعنى بهم ويلعب معهم ؛ بل حتى أن يشترى الهدايا لهم . وهو لا يبلغ هذه الدرجة من التلطف مع أبناء الحادية عشرة ؛ ولكن متاعبه معهم تحل

أقل عادة عند مستوى المعارك اللفظية . بالجدل والمناقرة . ويحس معظم الآباء أن ابن الرابعة عشرة ينبغي أن يعامل إخوته الصغار خيراً مما يفعل ، وأنه ينبغي له أيضا أن يحاول تحسين سلوكه ، هذا إلى أن العائلات التي بها ثلاثة أطفال أو أكثر تتوقع الشيء الكثير من ابن الرابعة عشرة ، وهو أمر يوحي إليه أنه قد بلغ مستوى أعلى من النضج والمسئولية .

وابن الرابعة عشرة يميل للناس ، كما أنه يزداد إدراكه لما بين شخصياتهم من فروق. وهو يضاهي سماتهم بسماته وبسمات والديه . وتسحره إلى حد ما لفظة «شخصية» ، كما أنه يستخدمها بحرية أكثر . ولكن طابع تفكيره في تلك المسائل طابع ذاتي بدرجة أقل كثيرا من ابن الثالثة عشرة . وقد يكون موضوعيا صريحا في تقديراته وتعليقاته ، وذلك حتى في مناقشاته مع معلميه أنفسهم .

وهو رعيلي ميال للتجمع بطبعه يلوح كأنما يفضل مجموعة منوعة من الخلطاء . فإذا نحن سألناه عن أصدقائه بادر بالإجابة قائلا «عندي عصبة كاملة منهم» . وهو يستطيع أن يعين ويقدر خصائصهم المتعددة بتفصيل عظيم . ونظرته إلى هذه النواحي المتنوعة أميل إلى التسامح . فهو يقول : « إن كل فرد منسجم مع الآخرين إلى حد ما » . على أنه حساس مع ذلك بكل زيغ عن معايير الجماعة . وهو متلهف أن يكون محبوباً من لذاته . ويبلغ اهتمامه بالفرق الرياضية وأنواع النشاط الجماعية والأندية المتعلقة بالنواحي الأربع للعناية بالشباب[1] وما شابه ذلك من تنظيمات مستوى عاليا من القوة. . وربما وصل إخلاصه لجماعة اصطفاها لنفسه إلى درجات متطرفة من الحدة والتحمس ، بينما يصبح الدافع إلى التحرر مفرطاً جارفاً .

وكثيرا ما يتعارض التكوين النفسي للجماعة مع المطالب المحسوسة للبيت وللدرسة والمجتمع . ولذا يتحتم على ابن الرابعة عشرة أن يتخير مواطىء قدميه ، مكثرا من المفاضلة

---

(١) 4 H. Clubs أندية معروفة في أمريكا تعنى بالنواحي الأربعة الآتية في حياة المراهقين : اليـــد والعمل (Hand) والقلب (Heart) والصحة (Health) الهوايات (Hobbies) .

بين مسالك ودروب بعضها متلاقية وأخرى متفارقة متباعدة . وهنا تصبح فوارق الأمزجة والجنس ظاهرة حقيقية .

والصبيان بوجه عام يفضلون رفاقا من الصبيان ، ليكونوا أصدقاء لهم وأعضاء معهم فى جماعة تقوم بنوع من النشاط . وقد أعلن أحد الصبيان فى شىء من الفكاهة بقوله : « إنى أحب الناس — بجميع أنواعهم ما عدا البنات » . ومع ذلك يدل احصاء منقول عن مجموعة أبحاثنا أن حوالى ثلث صبيان الرابعة عشرة يضربون بعض المواعيد مع البنات فعلا . غير أن مداومة أخذ المواعيد الغرامية شىء نادر جدا . والبنات ينتظرن حتى تطلب منهن المواعيد . ومع ذلك فإن الصبى من هؤلاء ربما يحاول شيئا من الحيطة الأولية عند ما يقول : « لو طلبت منك موعدا فهل تذهبين ؟ » . والقول أن نصف البنات يتواعدن ، ولكنهن لا « يواظبن على ذلك » وهن على الجملة أكثر من الصبيان اهتماما بالجنس الآخر .

غير أن البنات يظهرن مع ذلك أشد الاهتمام بصديقاتهن ذوات العمر المقارب . وهؤلاء الصديقات كثيرات العدد متنوعات قادرات على حسن الاختيار . ولم تعد علاقات الصداقة الوثيقة التى تشتد حتى تتحول بهن إلى الشجار — هى الطراز الغالب عليهن . والأصدقاء لا يختارون لمجرد أنهم يسكنون فى المنطقة المجاورة نفسها . بل يجذبهم بعضهم إلى بعض اهتمام متبادل بشخصياتهم المختلفة . فكل فصل مدرسى يحتمل أن تكون فيه شلة « متجانسة » ، مكونة من بنات محبوبات ناجحات . وهن يشتركن فى الميول وأنواع النشاط المرتبطة ببرامج الرياضة والتمثيليات وأوركسترا المدرسة والرحلات والحفلات والنزهات الخلوية الخ . ومن البنات ذوات النظرة الواسعة من يبذلن جهدا خاصا فى التلطف مع البنات المكروهات أو غير الجذابات .

والاتصالات المقترنة بالتلهف التى لا تعرف الكلل والتى تضم فئة متزاملة من بنات الرابعة عشرة الناشطات دليل ومظهر قوى رائع من مظاهر علم النفس الاجتماعى . وتحدث تلك الاتصالات فى كل فترة ممكنة فى غضون اليوم الواحد ، قبل ساعات المدرسة وبعدها — وكلما أمكن أن تلتقى بنتان أو أكثر . فاذا لم يستطعن التلاقى ، جمعهن

التليفون . والحق أن هذه السن هى السن التى تبلغ فيها الاتصالات التليفونيـة التى لا نهاية لهـا أقصى ذروتها ، سواء منها المرحة أو الجدية أو الاتصالات التى تحمل الأسرار . وتتخلل المحادثات الضحكات والخوض فى السير وجميع أنواع الأمور التى تبدو تافهة وهى مع ذلك مشحونة بالمعانى لدى الصغيرين المتحدثين . فلو سجلت هذه الأحاديث على أشرطة التسجيل لـكشفت عن أشياء وأشياء كثيرة .

كم من الزمن يقضى فى الحديث بالتليفون ؟ « بقدر ما يمـكن أن تطيقه أمى » . « بقدر ما نستطيع أن ننتهى مما نريد » . ولـكن لابن الرابعة عشرة حاسة فـكاهة ، وربما جاز حقا أن يكون هو مؤلف الأهزوجة التالية التى ظهرت فى ديوان شعرى لمدرسة ثانوية :

اخترعت المسرة
من أجل المواصلات
ولـكن أهم استعمال لها الآن
هو حديث أبناء العقد الثانى
وإنى اتنبأ أنه فى قابل السنين
سيتحد آباؤنا
ويستبعدون جميع مسراتنا
ليبعدونا عن الخط .

والـكلام بأية وسيلة من الوسائل هو الآن طريقة مفضلة عند الاصدقاء ، يبغون بها استـكشاف وارتياد الشخصية البشرية ونواحيها المعقدة . وهو ليس عملا ينطوى على الـكسل وضياع الوقت فحسب . بل هو بالحرى شكل غريزى من علم النفس التطبيقى يتخذ منه هواية . إذ يحدث أحيانا أن البنت (ا) تقترح تحسينات وتغييرات محسوسة فى تـكوين شخصية البنت (ب) . فهما كصديقتين ـــ تحللان سماتهما : وهن أثناء ذلك قد ينـكرن بعضهما أو يعترفن بها أو يناقشنها . وهما لا تتـكلمان هنا عن نفسيهما فقط ، بل وعن المعلمات والوالدين والناظرات ونجوم السينما وأشهر مطربى الاسطوانات

والزوار والأقارب ، كما تتحادثان عن هذا الولد أو ذاك . « فى العام الماضى كنا نتكلم عن الخيل بكثرة فظيعة ، ولم يكن الصبيان يدخلون فى المسألة ، ولكنهم الآن هم الموضوع الرئيسى تماما ! » والزواج شىء لم يوجه إليه كثير من الصبيان بعد قدرا كبيرا من تفكيرهم بينما يصبح له لدى كل بنت فى مجموعة مفحوصينا خطط وآمال عددة . هذا إلى أن البنات يركزن اهتماما خاصا بسمات الشخصية كأهم مؤهلات الزوج المنتظر .

وابن الرابعة عشرة شخص حساس متحفز : هو متفجر بالطاقة وتدفق الحيوية والميل إلى الانسياح[1] . وهو من التفاؤل فيما يتعلق بشئونه الخاصة والعالم بوجه عام بحيث يغوص إلى أذنيه أحيانا فيما يأخذه على عاتقه من أعمال . وقد يقع بين فينة وأخرى فى ورطة عجيبة تنشأ عن نفس تعدد ميوله ودوافعه بنفسه .

ولكنا لا نميل إلى وصفه بأنه فى جوهره اندفاعى . بل هو على الضد ينزع أن يكون واقعيا وموضوعيا فى أحكامه . وعنده استعداد للنظر إلى إحدى المسائل وبحثها من جانبين متضادين . وهو يحب الاستدلال العقلى ، كما أنه قادر على التفكير المستقل ويستطيع أن يجد فى المناقشة مسرة ذهنية . وأن استعماله للغة وتنغيماته لحديثه لتنم بطريقة لا شعورية عن نمو طرائق تفكير أكثر نضجا .

وقد اكتشفنا بناء على كثرة وفيرة من التسجيلات المدونة حرفيا أن ألفاظا وعبارات معينة تفضل عند مستوى معين للنضج . ومثل هذه التعبيرات تحمل إلينا المعانى الرمزية التى لها دلالتها فى ذلك المستوى . وتومىء العبارات التالية المقتبسة عن محادثات ابن الرابعة عشرة إلى الجديد من أنماط الفكر والاتجاه التى أخذت تبزغ فى هذه السن . « وقد جرت العادة ؛ فى هذه الأيام ؛ والواقع أن ؛ بالضرورة ؛ المثل الأعلى ؛ وفى رأيى ؛ سياسة ؛ وحده ؛ تقدير ؛ مناسب ؛ وعلى الجملة ؛ السمعة ؛ الشخصية ؛ متكيف » .

---

(١) الانسياح هو اتصال الطفل بما حوله وإفاضة أفكاره عليه . (المترجم)

ولا يخفى أن القدرات الذهنية الأولية للعقل تنضج فى أعمار مختلفة . ويقول ـستون (Thurston) إن مقومين لقطبين للذكاء البشرى ، وهما فهم الألفاظ وطلاقة اللسان بالكلمات ينضجان عند أربعة أخماس الراشدين فى حوالى سن الرابعة عشرة . والواقع أن المعطيات[1] التى جمعناها تشير إلى ذلك الاتجاه نفسه . فإن هذه المنطقة من مناطق النضج تحوى علامات تدل على زيادة ملحوظة فى النزعة العقلية (Rationalism) والتفكير المنطقى .

يبدأ ابن الرابعة عشرة « يستخدم عقله » بطرائق جديدة . فما لم يكن الطفل ألكن غير مفصح بصورة محددة لا شك فيها ، فإنه يجد المسرة فى إبراز تمكنه الجديد من اللغة . وربما اهتم اهتماما حقيقيا أصيلا بخلق الموضوعات والمباحث بالمدرسة . وهو يشعر بشىء من نشوة الانتصار الذهنى عندما يستخدم كلمة أو عبارة مناسبة لمقامها لأول مرة فى أحاديثه الحية . ومثل هذه الكلمات من ظواهر النمو ؛ وهى ليست مجرد نتيجة لفعل منعكس شرطى أو الحفظ الصم . وإنما هى تنم عن تغيرات نمائية خفية ولكنها فائقة ممتازة — تحدث فى التنظيمات الدقيقة للمخ . والكلمات تنقل الأفكار وتبلورها ، وهى تنبسط فتصبح جملا وقضايا منطقية وفقرات ومقطوعات شعرية .

ويبدأ ابن الرابعة عشرة يزداد تعمقا فى ميادين توليد الفكرات (ideation) . وتمكنه الكلمات من أن يصوغ بعبارة دقيقة علمية جانبين متضادين لأحد المقترحات أو إحدى المفاضلات ؛ وهى تساعد على جعله أكثر رعاية لشعور الغير وأكثر ضبطا للنفس فى مواقف الانفعال . وهى تساعد على توسيع نظرته اللازمة لرؤية الأشياء ككل متكامل . وهذه القدرة الأخيرة تناقض مناقضة أخاذة ذلك التركز البؤرى الملحوظ الذى يحدث عند مستوى سن الثالثة عشرة . ومع ذلك فربما جاز لنا أن نذكر أنفسنا بأن التركز البؤرى فى التفكير الذى يكون غالبا ذاتيا فى سن الثالثة عشرة يكون

---

(١) المعطيات : Data : لفظة وضعها المجمع اللغوى للدلالة على الحقائق الأولية المعطاة لكى تستنتج منها حقائق أخرى . (المترجم)

مرحلة حضانة طبيعية وضرورية لتطور العمليات العقلية الأعظم تحررا والأقل ثباتا فى سن الرابعة عشرة .

والخصائص التطورية لابن الرابعة عشرة تجعل منه موضوعا مثيرا لبعض أبحاث التربية . ولو أنك تأملت طاقته الوفيرة ونزعته الودية الانبساطية (الموجهة نحو الخارج) واتساع أفق ميوله وشمولها واستبصاره بنفسه وبعمليه وتنبهه المتفتح إلى المثل العليا وفهمه النامى للألفاظ وتمكنه من ناحيتها وميله المفرط الغزارة إلى الاستدلال ، وجدت هذه الصفات والسجايا — الذهنى منها والشخصى والاجتماعى — تثير أسئلة لها دلالتها حول خير ما يجب اتباعه من مناهج التربية وتنظيماتها . وتنطبق المسائل الأساسية على كل من الصبيان والبنات ، مفترقين كانوا أو مجتمعين ، بل حتى تسلم بالفروق المعترف بها تماما كاختلاف سرعة النمو البدنى .

ويمثل ابن الرابعة عشرة منطقة نضج متوسطة بين المدرسة الابتدائية أو الإعدادية والمدرسة الثانوية الأكبر شأنا ،فلو نظرنا إليه نظرة تطورية عامة مدركة للأهمية النسبية لوجدنا أن نموه قد تجاوز قطعا تحديدات السنوات الدراسية الدنيا . كما أن نضجه العقلى يتقدم بسرعة استعدادا للسنوات الدراسية الأعلى . ولكن لعله وهو فى هذا الدور المبكر من أدوار الانتقال لم يبلغ بعد مركزا مناسبا يهيئه لمواجهة متاعب ومنافسات مدرسة ثانوية كبيرة مجهدة . وربما احتاج إلى ضرب خاص من التنظيم الجديد للجهاز التربوى لتتحقق لديه على أحسن وجه القوى والإمكانيات المبشرة بالخير التى تتجسد فيه الآن . ولعله بحاجة خاصة إلى وحدة تربوية تحتوى كل أنواع الضبط التى يكفلها وجود رائد فصل فى نظام زيادة معين . وليس فى هذا أى مظهر للرخاوة فى تربية الأطفال . بل هو وسيلة لتزويد الطفل ببيئة أنسب له وأكثر ملاءمة لطبعه ،كما أنه برنامج أوفى وأليق لمستوى النضج الأساسى للجماعة ولأنماط نضج الفرد . ومثل هذه التنظيمات من شأنها أن تقلل المنافسات المفرطة الموجهة توجيها خاطئا ؛ وأن تضع ابن الرابعة عشرة فى جو تربوى أفضل وأنسب .

لا جدال أن طبع التعليم والإرشاد والمشورة بالطابع الفردى أمر له أهمية خاصة فى

هذه المرحلة من مراحل حياة الفتى . ومع أنه يتقمص الجماعة تقمصات قوية ، فإن ذلك شيء يوازنه بل يرجح عليه أصراره على الاهتمام بخصائصه هو كفرد . وهو شديد الحرص على الحصول على استبصارات جديدة بتطوره الخاص . وهو شديد التقبل لأية مقترحات تلقى نورا على سماته الفردية وتكشفها للعيان ، ومعنى هذا أنه متقبل أيضا للإرشاد المبنى على التفسير . وهو يلوح كأنما يحس بدفع قوى النمو وحركتها . فإنه يقول لنا : « إن الحال مختلفة جدا بين هذا العام والعام الماضى ، ولكنها تتحسن كلما مضيت فى سبيلى » .

ويمتد تنبهه إلى الفوارق الفردية منبسطا نحو الخارج والباطن على حد سواء . فهو يقيس نفسه بالشخصيات التى يقرأ عنها فى القصص والتراجم ، أو التى يراها على الشاشة أو فى واقع الحياة فهو يقول : « ذلك أنا ، إنه إياى من أوله لآخره ! » وقد علق أحد فتياننا كعالم نفسى ناشىء لم يتفتح بعد : « أحب أن أتأمل الناس وأن أضع نفسى فى مكانهم لأرى كيف يحسون » .

وابن الرابعة عشرة التالى — سعيد معتمد على نفسه . ولكنه قادر على نقد نفسه بنفسه . وذلك بسبب قوى استدلاله العقلى الجديدة الفتية . وهو ينهمك فى سلاسل مديدة من التفكير المستقل ، موازنا بين ما للشىء وما عليه . وكثيرا ما يقرر — بعد اختياره لذاته . وبعد كثير من التعقل — أنه ينبغى له أن ينقطع عن المدرسة . وهذا القرار القائم على الروية والعمد يثير مشاكل جديدة أمام نفسه وكل من يتمنون له الخير . وهو يحتاج إلى المساعدة فى التعرف على نفسه — على أن تكون مساعدة صادرة من مشير يؤمن بالتطور .

وسن الرابعة عشرة فترة مناسبة لتقدير الفرد تقديرا جيداً . فالآن يمكن أن ترى كل السنوات التى تكون جميعها المراهقة : الحادية عشرة والثانية عشرة رؤية فاحصة ، بشكل أحسن نسبيا ، فإذا ظهر فى تتابعها الكلى انحرافات ملحوظة وصعوبات فى التطور ، فهنا تحين ساعة التفكير فى الخطط الطويلة المدى والوسائل الوقائية . وهنا أيضا تحين الساعة التى يمكن فيها تمييز المواهب والاستعدادات والزعامة وكفالتها بحكمة وإصالة رأى . وكم من صبى وبنت ينسبون إلى معلميهم الفضل فى قدح بواكير

ميولهم لعلوم معينة قرب سن الرابعة عشرة . ثم إن المثل العليا تمد جذورها هى أيضا وتزدهر بطريقة جيدة .

والحق أنه عند ما توضع جميع العوامل موضع الاعتبار ، فربما أمكن عد الرابعة عشرة سنة ذات أهمية أساسية إلى حد ما فى ذروة النمو البشرى الكبرى . فالشاب قد أخذ يدنو مما هو جدير به من منزلة وهو قادر بدرجة تبعث على الرضا على أن يتقبل العالم كما يجده . وتتمثل فيه إذ هو فى أحسن حالة مثالية له طائفة ممتازة من سمات النضج والقوى ، تتوازن توازنا ملائما وهو دافق الحيوية حافل بالنشاط والهمة ؛ ولكنه بطبعه أريب عاقل (على الرغم من ارتفاع صوته) . ولديه قدر لا بأس به من الحكمة والفلسفة ، كثيرا ما يعبر عنه على صورة النكتة والفكاهة . وولاؤه للجماعة قوى حساس ، ولكنه لا يشوه فى العادة علاقاته بالأشخاص فى دوائر البيت وبالمدرسة وداخل المجتمع . وله أصدقاء كثيرون ؛ يفهمهم بدرجة لا بأس بها ، كما أنه متنبه تنبها مقترنا بالعطف على كل فرد غير محبوب أو سىء الحظ .

أما من الناحية الانفعالية فهو ليس متقلقلا كما اعتاد أن يكون . ثم إن اتجاهاته التلقائية تجعله قابلا للتعلم قبولا هائلا فى محيط القيم الإنسانية والالتزامات الاجتماعية .

ومما يعزز قابليته للتعلم قدرته المتزايدة على التفكير المنطقى والاستنتاج القائم على المقدمات والقضايا (المنطقية) . ولا يخفى أن هذه القدرة لم تستقر تماما فى ثنايا نشوء الجنس البشرى وارتقائه . ومن ثم تصبح ذات دلالة خاصة فى تطور الفرد . والأساس الغريزى للقدرة على الاستدلال يتجلى مرارا وتكرارا أثناء مراهقة الأفراد الذين وهبوا قدرة ذهنية استثنائية . ويروى لنا ألبرت شويتزر [1] كيف أنه كان وهو فى

---

(١) البرت شويتزر : أحد رجال الدين الالزاسيين وموسيقيار وطبيب . خرج إلى إفريقية الاستوائية الفرنسية وأسس بهـا مستشفى وقضى بها معظم حياته (ولد ١٨٧٥) . [المترجم] .

الرابعة عشرة يحس بأن محاولات البحث عن كل ما هو حق وخير كانت « تهبط عليه كنوع من نشوة الخمر » . كان يحس « حاجة حارة إلى التفكير » . وهو كفيلسوف — يضع فتى الرابعة عشرة موضع الاعتبار العالى ويقدم إليه تحيته : « لو أننا جميعا استطعنا أن نصير إلى ما كنا عليه فى الرابعة عشرة ، فما أعظم التغير الذى يلم بالعالم عندئذ » .

سمات النضج

١ — جهاز الحركة الكلى

يلين فى الرابعة عشرة طابعا التوتر والتباعد اللذان كانا لابن الثالثة عشرة. لقد حدث تغير عميق ، ليس فى داخل ابن الرابعة عشرة فقط بل وأيضا فى تأثيره على العالم من حوله . فهو يبدو الآن كأنما هو شخص يعرف نفسه ويعرف حقوقه ، وأقدر على الأخذ والعطاء بشكل أسهل . وهو يخلق جوا رخيا لينا من الود.. ولم تعد تبدو هناك حاجة إلى الدوران بمن حوله بترفق ، وإلى اختيار طريقة خاصة للاتصال به ، كما كان ذلك ضروريا فى الغالب فى معالجة ومعاملة ابن الثالثة عشرة . أما ابن الرابعة عشرة فنظرا إلى إحساسه بطمأنينته الزائدة إلى نفسه ، فإنه يكون أكثر انبساطا (وأكثر انطلاقا نحو الخارج) وأكثر استقامة . والآن وقد أصبح لا يعد ملتزما خطة الدفاع بالقدر الكبير القديم ولم يعد شديد التخوف من أن يختلس الناس النظر إلى شئونه الشخصية ، فإنه يستطيع أن يتحدث حديثا طلقا بطريقة أصيلة صادقة ولطيفة مع الناس الآخرين ولو كانوا والديه .

وفى أثناء المقابلة الخاصة يكون تصرف ابن الرابعة عشرة هادئا ورخيا لا توتر فيه : ويكون وضع جسمه متناسقا (سيمتريا) ؟ وتكون أقدامه مسطحة فى الغالب على الأرض . ولا يبدو عليه إلا القليل من وسائل التنفيس عن التوترات أو من تغيير الميل إلى العمل الذى بين يديه . وأنه

ليصغى جيدا ويستجيب جيدا . ولديه كل من الرغبة فى الاتصال بالناس والوسيلة المهيئة لذلك . فإن ابتسامته — وإن قلل من الكلام — تنم عن اهتمامه . وابن الرابعة عشرة يقذف بتعليقات عارضة من عندياته . وعندئذ يحس المتحدث إليه أيضا أنه حر فى تقديم التعليقات التلقائية إلى ابن الرابعة عشرة ، والإجابة على استفساراته بطريقة سهلة . وربما أضاف ابن الرابعة عشرة إجابات فكهة يتمثلها فى نفسه على انفراد ، وربما أدى إجابته بطريقة تمثيلية ، وضحك بطريقة لطيفة تنم عن نضجه . وهو يستطيع أن يرد فكاهته إلى نفسه بطريقة ملؤها المكايدة أو يعبر عن سخرية هادئة لطيفة الطبع : « بسيط جـدا ... مش كده ؟ » . (وربما كانت لهذه العبارة نفسها آثار لاذعة لو كان قائلها هو ابن الثالثة عشرة)

وابن الرابعة عشرة لا يندفع إلى الإجابة . وربما تردد هنيهة ، ثم لم يتكلم إلا بعد توجيه بضع أسئلة يتعرف بها وجهته ا ثم يقول : « الآن عرفتها » . وهو عليم بالهجوم الجيد المبكر على عمل من الأعمال . وهو يريد أن « يكتشف خبايا الأشياء جميعاً » . ومع أنه قد يعبر عن شىء من استنكار الذات ، فإنه لا يصاب بالذعر ، كما أنه لو اضطر إلى التسليم والتخلى ، أمكنه أن يفعل ذلك برشاقة . فهو حتى فى اعتذاره بأنه « لم ينل قسطا وافيا من النوم فى الليلة السابقة » إنما يقدمه مع الاستبصار وانشراح الصدر .

ومن أهم مشاكل ابن الرابعة عشرة أنه يريد فى الغالب إدخال أشياء كثيرة جدا فى ميدان تفكيره أو تخطيط أشياء عديدة جداً فى مجال نشاطه . وهذا كله جزء من ميله الجديد إلى التوسع : وهو حالة تجميع غير محددة قد تغمره أحيانا وهذا هو السبب فى أنه ربما كان من العسير عليه أن يصوغ إجابة دقيقة ، وأنه ربما عقب قائلا وهو يحاول جاهدا حل إحدى المشاكل : « إن ذلك يجننى » وإن ما تنطوى عليه حياته الاجتماعية من أمور معقدة ومتداخل بعضها فى بعض إنما هو بالمثل جزء من هذا التجميع المتعدد . وهكذا يجنح ابن الرابعة عشرة للوصول متأخرا عن موعد المقابلة كما يضطر للانصراف مبكراً . وينبغى لنا أن ننبهه بين فينة وأخرى وأن نشركه

فى وضع الخطط .

ويبدأ ابن الرابعة عشرة يكون فى نفسه إحساسا جديداً بكليات أكبر . فإن فى حركات عينيه السريعة مايعطيك فكرة عن طرائق الفكر المتعددة التى تعتمل داخل مخه . وإن نفس فكرته عن كلمة « الشخصية » واستخدامه لها ليؤمىء إلى أنه يحكم على الآخرين من وجهة نظر أكثر شمولا .

الصحة :

الغالب أن صحة ابن الرابعة عشرة ليست جيدة فحسب ، بل « مدهشة حقا » فلا يفوته من الدراسة والمدرسة بسبب المرض إلا شطر ضئيل جداً ، وهو يستطيع مع ذلك أن يحضر إلى المدرسة وإن كانت به وعكة رشح . وقل من أبناء الرابعة عشرة من يصبح المرض لهم « عادة » كما كان شأنهم فيما يحتمل وهم فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، وبين الفينة والفينة فى الثالثة عشرة . وربما كانوا على نقيض ذلك فلا يتحملون المرض إذا دعت الضرورة . وقد عبر أحد الصبيان عن رغبته التامة فى أن يقاسى شيئاً من الربو لو أمكنه أن يحتفظ بكلبه ، الذى كان يصاب بسببه بالرهاف[1].

متنفسات التوتر :

ربما بقى لدى ابن الرابعة عشرة عدد قليل من بقايا متنفسات التوتر السابقة ولكن هذه المتنفسات عارضة ليس غير ، وربما ظهر قضم الأظافر لدى بعضهم ، ولكن ذلك لا يحدث إلا أثناء المواقف الشديدة ، كمشاهدة أحد الأفلام . وربما أصيب ابن الرابعة عشرة بالصداع إذا لم يستطع أن يتوافق ومطالب بيئته أو لم تستطع البيئة أن تتوافق وإياه . وقد يحدث أحيانا أن فردا فى الرابعة عشرة له تاريخ مديد من التوترات العصبية قد ترتعش يداه رعشة قد لا يستطيع لشدتها فى بعض الأوقات حتى أن يلعب على البيانو نفسه ، على أن هذه هى الحالة الاستثنائية وليست القاعدة .

(١) الرهاف allergy : حساسية مفرطة تصيب الجسم بتفاعل غير سوى إزاء مواد وأشياء لا ضرر منها فى العادة [المترجم] .

البصر :

حالة ابن الرابعة عشرة البصرية جيدة فى العادة . فعيناه تستطيعان القيام بمهارة تامة باختبارات المهارات البصرية المعتادة (المزج والتتبع ورؤية المجسمات بالعينين وقابلية البصر للعمل والتركيز). وحركات عينيه فى تعقب شىء متحرك حسنة . والعادة أن مقدار الإصابة بطول النظر يكون أكثر شيوعا فى الرابعة عشرة . والأغلب أن ابن الرابعة عشرة الذى نعتقد أن بصره موفور الكمال (٢/٢) وأن مقدار طول النظر لديه ضئيل جدا ؛ هو الذى يشكو من أن عينيه تضايقانه وخاصة عندما يقرأ . على أن تخفيض برنامج مطالعاته ربما خفف شيئا مما يحس به ، غير أن مطالب المدرسة ومستلزماتها قد لا تسمح بذلك دائماً من أجل ذلك يحتاج ابن الرابعة عشرة إلى المساعدة فى شئون بصره إما بواسطة العدسات أو التدريب ، لإقامة صرح المرونة التى تعوزه . وهو فى العادة إنسان مشبع بالدوافع الحسنة ومستعد للتعاون فى برنامج تدريبى تعاونا أحسن مما كان يفعله فى الثالثة عشرة ومما قد يفعله فى الخامسة عشرة.

ويربط ابن الرابعة عشرة بين آليات التحديق والتركيز البؤرى ربطا أفضل مما كان يفعله آنفا . واستجاباته أشبه بأنماط استجابات الكبار المعتادة ، لذا فمن الممكن التنبؤ بدقة أكثر من ذى قبل بما ستفعله العينان فى أثناء اختبارات معينة .

وأبناء الرابعة عشرة — باستثناء المصابين بقدر ضئيل جدا من طول النظر — ليس لديهم من حيث القراءة شكايات بصرية بقدر ما كان لهم فى الثالثة عشرة . ومع ذلك فالغالب أنهم لا يكثرون من القراءة كما كانوا يفعلون آنئذ . والمطالعة تقتصر فى الغالب على قراءة المجلات ، بالإضافة إلى ما يتطلبه العمل المدرسى .

وابن الرابعة عشرة أشد إصراراً وحزماً فى رغبته فى عدم لبس النظارات ؛ «على أنه يرضخ إذا استلزم الأمر» ولكن لو أتيح له اختيار حل آخر ، لتجلت رغبته فى عمل كل ما من شأنه تيسير الاستغناء عن النظارات . وحتى أولئك القصار النظر الذين يحتاجون حقا إلى نظاراتهم يبذلون جهداً عظيما فى القيام ببرنامج للتدريب

البصرى ، لكى يصبحوا أقل اعتماداً عليها ، ولكى يستطيعوا خلعها فى المناسبات الخاصة ، فهنا يكون الحافز على بذل الجهد والتحسن آتيا من الداخل . وليس مجرد شىء يفرضه عليه الغير ، كما كان الشأن فى السنوات السابقة .

التطور البدنى والتنبه الجنسى — البنات

إن شكل جسم بنت الرابعة عشرة يلوح من الناحية المثالية الغالبة أقرب إلى شكل شابة صغيرة منه إلى شكل الأطفال ، وذلك رغم أنه لا تزال توجد فروق ملحوظة فى سرعة النمو بين بنت وأخرى. ويقرب النمو الطولى من الاكتمال أثناء هذه السنة . وقل أن يزداد طول بنت أكثر من بوصة واحدة بعد عيد مولدها الخامس عشر . وكذلك زيادة الوزن. فإن سرعتها تهبط هى الأخرى ، وإن استمر ذلك بعد توقف طول القامة بزمن طويل . والآن تأخذ مظاهر النضج تقترب من صورتها عند صغار البالغين فيقارب الثديان الحجم الكامل للبالغين ، كما أن شعر العانة يكتمل ويصير كثيفا .

وعلى الرغم من ليونة أجسامهن كأناث ، فإن أشكال الأجسام لكثير من بنات الرابعة عشرة تفصّح بالقوة . فيبدو الوجه والعنق أكثر تماسكا . كما أن امتلاء الأغوار يوحى بوجود تدملج أعظم حتى لدى البنات النحيلات .

وقل جداً من البنات من لم تعرف الحيض عند سنتها الرابعة عشرة . إذ أن أنماط الحيض فى غالبيتهم تبدأ تستقر إستقراراً حسنا . وغالبيتهن يبدأن فى التنبه إلى الأعراض السابقة للمحيض التى تحدث قبل فترة نزوله بيوم أو يومين . فربما أصبن بالتشنجات وبوجع فى الظهر أو حتى مجرد حالة عامة من التوتر الانفعالى والحالة العصبية . وربما صحبت فترات حيضهن تشنجات خفيفة كما أنهن قد يشتد بهن الألم وسوء الحالة أحيانا

بحيث يرقدن ساعة أو نحوها . وربما أحس بعضهن بالدوار أو الغثيان كما أنهن ربما امتنعن فعلا عن تناول وجبة أو وجبتين . (وغالبا ما تكون هؤلاء البنات من اللواتى يؤثر فيهن الاهتياج الانفعالى .) وعلى النقيض من هؤلاء ، تجد البنات اللائى لا يحسسن ألم ولا أية أعراض أخرى واللائى لا يختصرن من نواحى نشاطهن العادية من جراء ذلك بأى حال من الأحوال .

الآن تأخذ دورة الحيض تنتظم بصورة أعظم وتصل بالتقريب إلى دورة قوامها ثمانية وعشرون يوما ، وإن كانت أطول لدى كثيرات (حيث تمتد إلى ٤٥ بل إلى ٥٠ يوما) .

وقد يستمر نزول الحيض خمسة أيام بل حتى قد تمتد إلى ستة أيام أو سبعة . وتنزع بنات الرابعة عشرة إلى الإكثار من إستخدام الفوط الصحية بوفرة جدا ؛ وغالبا ما يكون ذلك كما تقول أمهاتهن أكثر مما يحتجن إليه . ومع ذلك فليس هذا أوان الاقتصاد . ولذا فلا بد من وجود كمية كافية منها ، بحيث تسهل على الأقل هذه الناحية من نواحى توافق بنت الرابعة عشرة إلى وظيفتها الجديدة من النضج الجنسى .

وربما أحست البنات الآن بوجود دافع بدنى فعلى فى استجابتهن للصبيان . فإن بنتا فى الرابعة عشرة ربما أبلغت أنها تحس كأنما « تتفكك أوصالها » — أو « تنقلب ظهراً لبطن » من قوة إحساسها . وربما كانت هذه الوجدانات مربكة لبنت الرابعة عشرة التى تجد عسراً فى فهم طبيعة ، وأصل هذه الأحاسيس البازغة التى لم ينتظمها نمط بعد .

التطور البدنى والتنبه الجنسى — الصبيان

يبدو أن الرابعة عشرة هى منطقة انتقال لدى معظم الصبيان . ففى سن الثالثة عشرة كانت الغالبية مشابهة لشكل الصبيان وأقرب إلى صورتهم

فى سن العاشرة ، رغم ما اكتسبته حديثا من مظاهر النضج . أما فى الخامسة عشرة فمعظمهم سيشابهون الرجـــال . ومع أنهم لا يزالون وهم فى الرابعـــة عشرة أبعد ما يكونون من النضج من حيث تطورهم الكلى ، إلا أنهم يلوحون كأنما قد تجاوزا حداً فاصلا . والواقع — بطبيعة الحال — أن فى الإمكان عبور هذا « الخط » فعلا عند سن الثالثة عشرة أو أبكر منها ، وعند سن الخامسة عشرة أو بعدها ؛ ولـكن الأغلب الأعم أنه يلوح كأنمـا هو موجـود فى المنطقة الممتـدة بين عيدى الميـلاد الرابـع عشر ، والخامس عشر .

وفى الرابعة عشرة تـكون زيادة الحجم عند معظم الصبيان ملحوظة تماماً . وهذه هى الفترة التى يجرى أثناءها أسرع نمو فى طول القامة عند الغالبية العظمى من الصبيان . فيبدو شـكل الجسم مكسوا بعضلات أثقل . أما فترة السمنة التى جاءت أثناء المراهقة فأصبحت فى خبر كان عند معظم الصبيان إن كانت مرت بهـم إصالة . فان الحجم الأكبر للبدن مضافا إلى مظاهر النضـج الحديثة التطور ليوحى بقوة بالذكورة المعروفة فى المراهقة .

وشعر العانة الآن كثيف إلى حد ما ، كما أنه اقتم لونا عند معظم الصبيان . ويصبـح شعر الزندين وسمانتى الأرجل أكـثف ، كما أن السالفتين قد أخذتا تطولان . ويصبح الصوت الأجش ملحوظا أكثر . وربما حدث تغير الصوت ببطء واطراد ، أو عن طريق مروره فى عملية تشقق وتسلخ أو على حين بغتة . أما التغير الفجائى فربما حسب خطأ إصابة ببرد . وكأنمـا يصاب ابن الرابعة عشرة ببحة مستديمة لا تفارقه أبداً . وبالإضافة إلى هذا التغير الفجائى فى الصوت (الذى يحدث لأقلية منهم) فإنه غالبا ما تظهر تغيرات حادة مصاحبة . فان انعدام الحياء قد ينقلب بغتة إلى حياء مفرط وكأنما صدم ابن الرابعة عشرة عند إدراكه لتغير صوته فتنبه إلى نضجه الجنسى الخاص .

وقد أصبح نمو اعضاء التناسل الذى كان ملحوظا من قبل فى الثالثة عشرة متقدما تماما عند كثير من ابناء الرابعة عشرة . حتى اذا وافت نهاية السنة الرابعة عشرة ، تكون غالبية عظيمة من الصبيان قد مارست الإفراغ (الإنزال) فى موقف أو آخر . والأغلب أن يكون أكثر الاسباب شيوعاً لهذا الافراغ الأول هو الاستمناء ، وهى ظاهرة يعرفها معظم الصبيان ويجربها غالبيتهم منذ سن الحادية عشرة . وما أن تتم أول خبرة بالإنزال ، حتى يتخذ جميع الصبيان تقريبا نمطا للنشاط الجنسى فرديا ومنتظما إلى حد ما .

وربما بدأت حالات الاحتلام (الانزال الليلى) تحدث فى الفترة السابقة للرابعة عشرة مباشرة ، وإن لم تمر هذه الخبرة بكثير من الصبيان حتى الفترة المتأخرة من المراهقة . وتختلف استجابة الصبيان لتلك الخبرة اختلافا تاما . ومن حسن الحظ أن عددا أكبر من الصبيان أصبحوا يعلمون فى هذه الأيام بإمكان حدوثها ، فهم من ثم أقل تعرضا للانزعاج بسببها ، ولكن بعضهم يحس الخجل مع ذلك ويخفون بيجاماتهم ، على حين يتقبل آخرون الأمر كشىء طبيعى وكجزء من الحياة .

والصبيان بوجه عام يهتمون بالبنات اهتماما لا شك فيه . والظاهر أن البنات لا يستطعن بشكل ما أن يثرنهم بقدر ما يثير الصبيان البنات ، وإن جاز أن يحمروا خجلا إن نادتهم بنت فى الشارع .

والرابعة عشرة سن يكون فيها المزيد من التربية الجنسية لازما يحتاج إليه الأمر ومرغوبا يستقبلونه باشتياق . وفى الامكان تكرار الأشرطة السينمائية نفسها التى استخدمت فى الفرقة السادسة ، وإن وجب أن يشهدها البنات والصبيان والآباء كل على حدة . ولا شك أننا سندهش لعظم التغيرات التى يحدثها مرور تلك السنوات الثلاث ، وعظم اختلاف النظرة التى سينظر بها إلى تلك الأفلام نفسها . وغالبا ما تستثير أمثال تلك الأشرطة وابلا من الأسئلة وبخاصة من البنات . وكتابة مثل هذه الأسئلة كثيرا ما تكون أسهل من توجيهها شفويا وتدور الأسئلة حول موضوعات شتى ، ولكن معظمها شخصى ومباشر .

وفضلا عن الاستعلام عن التطور الجنسى لدى الفرد بما فى ذلك فسيولوجيا أعضاء التناسل وطريقة أدائها وظيفتها ، فإن أسئلة كثيرة تدور حول الاختلاط الجنسى ، سواء منه ما كان قبل الزواج أو بعده . وتثار أيضا موضوعات من أمثال ضبط النسل والأمراض التناسلية والبغاء والاختلاط الجنسى المثلى . وابن الرابعة عشرة لا يريد فقط معلومات عن هذه الموضوعات — ، بل يريد أن يبحثها ويناقشها ، وأن يعطى ويفكر فى نوع من التقييم لها .

ويحاول ابناء الرابعة عشرة أن يكتشفوا طريقهم الخاص ، وأن يوضحوا لأنفسهم بجلاء طريقة شعورهم ، وأن يختاروا أحسن الطرق وأنسبها لهم . وخير وسيلة يستطيعون أن يفعلوا ذلك بها ، هى المعلومات المضبوطة ، والمقدمة إليهم فى ثنايا فلسفة تلائم استقامتهم . ومن سوء الحظ أنهم كثيرا ما يتركون لإصدار أحكامهم الخاصة بمفردهم وهم غير مستعدين لذلك الاستعداد الكافى . والمراهق الذى لم يؤت خطا من المعلومات هو أشد الناس تعرضا للوقوع فى المتاعب . مثال ذلك ، ان بنتا فى الرابعة عشرة بما فطرت عليه من ميل الى الاتصال بالناس ومن تفضيل للصبيان الذين يكبرونها ، ربما كانت فى بعض الحالات سهلة المنال إلى حد ما ؟ وقد يحدث الحمل فى الحالات المتطرفة ، إما لنقص فيما لديها من معلومات أو لأن الظروف الاجتماعية أتاحت لها قدرا كبيرا من الحرية . وواجب الوالدين يحتم عليهم إحاطة بناتهم بالمعلومات فضلا عن وقايتهن — لا بمنعهن من قضاء وقت مع الصبيان ولا بفرض حظر غير معقول عليهن ، بل بمساعدتهن على تنمية ألوان معقولة من الكف وتكوين الحاجة فيهن الى الضبط والتحكم ، حين يكن غير مستعدات بعد لتحمل عواقب أعمالهن .

فإن لم تتيسر المعلومات لم يعرف كثير من ابناء الرابعة عشرة كيف يكونون ألوان الضبط الضرورية ولم يفهموا لماذا هم بحاجة إلى ابتنائها . وينبغى علينا على الأقل — ازاء ما نمنحه لأطفالنا اليوم من حرية فى التواعد ، أن نسلحهم بالمعرفة ، ولكن نعينهم على الوصول إلى السلامة التى يتيحها ضبطهم لأنفسهم بأنفسهم . وعلى الوالدين أيضا

أن يقدروا مدى المسئولية التى يستطيع أطفالهم تحملها . فإذا كان الشاب غير قادر على تحمل المسئولية ، وجب أن تفرض عليه ألوان خارجية من الكبح إما من الوالدين أو من المجتمع .

العناية بالذات ونهج الحياة اليومية

الأكل

أخذ ابن الرابعة عشرة يتطرق إلى دائرة النواحى الجمالية للأكل الأقرب إلى مرتبة الراشدين ألا وهى الاستمتاع بالأكل . ولا تزال لديه شهية ممتازة جداً ، وخاصة إن كان صبياً ذا ميول رياضية ، ولكن هذه الشهية على وجه الإجمال تخضع لضبط جيد . وهو الآن متنبه بوجه خاص إلى رائحة الطعام : سواء أكانت رائحة منفرة أو مشهية . فإن الرائحة المتصاعدة من الجلاش المجرى (١) ربما نفرته ، على حين ربما اجتذبه شذى طعام يطهى على نار المعسكر . وهو متنبه أيضا إلى قوام الأطعمة . وربما كان القوام اللزج لزبدة الفول السودانى هو الذى يجعل بعض أبناء الرابعة عشرة يكرهونها . وربما كان القوام الجامد للتفاحة هو الذى يسرهم بدرجة عظيمة .

ولا يزال ابن الرابعة عشرة محبا للوجبات الخفيفة وخاصة بعد المدرسة . ومع ذلك فليس لديه نفس التلهف الذى كان لديه على الأكل فى الثانية عشرة وهو يتبلغ (٢) بكل ما يتصادف وجوده لدى أمه وخاصة الفواكه . وهو أقل ميلا إلى التبلغ بلهنة قبل ساعة النوم . وربما قال إنه أكسل من أن يجهز لهنة ساعة النوم ، على أن السبب فى ذلك أن شهيته قد ضعفت . ولو أنه تناول فعلا لهنة ساعة النوم ، لأتبعها بقوله : « إنه لا يجلس ويجهز ولمة » لنفسه .

---

(١) الجلاش هنا نوع من اللحم متبل بتوابل قوية ومضافة إليه الخضر .

(٢) تبلغ أى سد رمقه بشىء خفيف من الطعام واللهنة هى الوجبة الخفيفة .

وهو يرتاد مخزن الأدوية ، ولكن ذلك قد يكون التماسا للأنس بالناس بقدرما هو للطعام . ومع ذلك ، فالرابعة عشرة بها النقيضان المتضادان : المولعون بأكل الحلوى والذين لا يأكلونها . أما الأولون فعليهم أن يحاربوا أنفسهم لحد من التغذية القوية التي يتناولونها في مثلجة (جيلاتي) العصير والفواكه . على أن من حسن الحظ أن نفاد ما معهم من النقود ربما حل مشكلتهم هذه. أما من لا يأكلون الحلوى فانهم أميل لطلب مشروب غير روحي ، وربما فضلوا فاكهة على جيلاتي العصير والفواكه أو البونبون .

ويمكن أن تكون ساعة الطعام لحظة سارة جداً لابن الرابعة عشرة وعائلته أجل إن له من الأطعمة ما يؤثره وما يكرهه ، ولكن الأخيرة منها أقل . وبعض الصبيان يفضلون الفطائر على الكيك . كما أن فطيرة التفاح ، وهي جزء هام جداً من ثقافة الطعام عند الأمريكيين هي الفطيرة المفضلة . وقد سمع أحد صبيان الرابعة عشرة وهو يقول : « أتمنى لو جلست والتهمت وحدي فطيرة تفاح كاملة ، ولكن ربما أصابني الغثيان بسببها » . ذلك أن ابن الرابعة عشرة يدرك حقاً حدود الهضم عنده .

وهناك بعض الشكوى من آداب المائدة عند ابن الرابعة عشرة ، ولكن معظمها تتعلق بوضع مرفقيه على المنضدة وربما استخدم أصبعه لدفع الطعام على الشوكة أو الملعقة ، ولكن علاج ذلك سهل ميسور . على أن الوالدين بوجه عام لا يجنحون إلى الشكوى من آداب المائدة لدى ابن الرابعة عشرة ، ويمكن تلخيص موقفهم في ملحوظة أم واحدة حيث قالت : «ذلك كله يمكن توقعه» .

وازدياد طول قامة الرابعة عشرة يصحبه على وجه الإجمال شيء من النحول ، ومن ثم تقل الحاجة إلى وضع نظام خاص للتغذية . وهناك دائما تلك القلة التي هي من البنات خاصة ، والتي قد تقضم [1] في الطعام بغير اقبال وخاصة عندما يكن متضايقات ، على أن ابن

(١) قضم الشيء كسره بأطراف أسنانه وأكله . يقال « هو يقضم الدنيا قضما » إذا زهد فيها ورضي منها بالدون [المترجم]

الرابعة عشرة ليس لديه على الجملة ذلك الاهتمام الشديد بالطعام الذى كان له قبل ذلك ، وبخاصة فى سن الثانية عشرة . فإنه هو نفسه أصبح يطبخ أقل مما كان يفعل ، كما أنه لا يفعل ذلك عادة إلا إذا اضطر اضطرارا . ولعله يمتنع عن إعداد فطوره الخاص يومى السبت والأحد . ولـكنه يحس بالاطمئنان إلى قدرته على الطبخ . ولا يزال ينعم بملاحظة الطعام وهو يجهز . غير أن بعض البنات يواصلن مع ذلك ممارسة فن الطبخ . وربما أخبرك ابن الرابعة عشرة أنه « يحب أن يطبخ لا من أجل الطبخ فى حد ذاته بل من أجل الاستمتاع برؤية الغير يستمتع به » ذلك أن حياة بنى الرابعة عشرة أخذ يداخلها قبس من الغيرية والإيثار ، وهو أمر تـكون مشاهدته متعة ما بعدها متعة .

النوم

موعد النوم . يصبح ابن الرابعة عشرة إلى حد كبير التصرف فى مسألة النوم وكما عبر أحد أبناء الرابعة عشرة « إنى أذهب للفراش من تلقاء نفسى عادة . فأنا قد أصبحت لدى من المعرفة ما يجعلنى استطيع الذهاب للفراش وحدى عنـدما ألاحظ الحاجة » .

وتتراوح ساعة النوم ما بين التاسعة والحادية عشرة ، وأكثر الأوقات شيوعا هو التاسعة والنصف أو العاشرة. والظاهر أن اختلاف موعد النوم لدى كل من أبناء الرابعة عشرة على حدة لا يتجاوز حدود ساعة واحدة . فإن كان متعبا جنح إلى أن يأوى إلى فراشه فى الموعد المبكر لنومه . وهو يظل فى العادة مشغولا بواجبه المنزلى حتى تحين ساعة نومه ، وربما أصغى إلى المذياع أو طالع قليلا بعد دخوله الفراش . أو يلجأ لفترة إلى أحلام اليقظة ، وهو يفـكر فى المستقبل القريب أو الحاضر. ولـكن الأرجح على وجه الجملة أن ابن الرابعة عشرة يستسلم للنوم فورا .

النوم — يبلغنا معظم أبناء الرابعة عشرة أنهم يحلمون وأنهم أيضا معرضون لنسيان أحلامهم عندما يستيقظون . فإذا هم تذكروها فعلا فالغالب أنهم يقولون عنها إنها « غير مشوقة إلى حد ما » — أو « مسلية تماما » —

أو هي «مجرد أحداث» وغالبا ما يروون أحلامهم على مائدة الفطور ويجدون أن «الناس يهتمون اهتماما معقولا بسماع أحلامهم» .

الصباح — هناك اختلاف كبير بين أوقات الاستيقاظ في الرابعة عشرة ، والراجح أن هذه الأوقات تعطينا مفاتيح كثيرة تهدينا إلى الشخصية . وهناك أولئك الذين يبدو أنهم يحتاجون إلى قسط قليل من النوم — الذين يجمعون بين دخول الفراش متأخرا والاستيقاظ مبكرا . وهؤلاء هم في الغالب الصبيان الذين يعيشون حياة حافلة جدا بالنشاط والذين لا يملكون البتة الوقت الكافي لعمل ما يريدون عمله . ثم هناك بعد ذلك أولئك الذين يقيمون لحياتهم نظاما رتيبا يتبعونه . وهؤلاء ربما استيقظوا عند دقة الساعة السابعة صباحا بالضبط . وهم يحبون أن يحسوا أنهم قد كونوا إحدى العادات . وهناك آخرون يضطرون أن يكونوا العادة عن طريق استخدام المنبه . وهناك أخيرا أولئك الملتصقون بالفراش الذين يريدون دائما أن يختلسوا دقائق إضافية تبلغ عشرة أو خمس عشرة . وهم الذين يحتاجون لمن يوقظهم لا مرة واحدة بل مرتين أو حتى ثلاثا متتالية . وهم ينامون سعداء حتى الظهيرة يومي السبت والأحد أو أثناء العطلة . فاسمحوا لهم بهذا القدر الإضافي بين آونة وأخرى حتى يستطيعوا أن يعالجوا واجب الاستيقاظ اليومي بقدر أكبر من السماحة والتلطف .

الحمام

عندما يستطيع الآباء أن يقرروا « إنها قد بلغت الآن مرحلة النظافة » ، يكون ذلك دليلا كافيا على أن البنات — إن لم يكن الصبيان — يكن في الرابعة عشرة مسئولات عن نظافتهن الخاصة مسئولية مؤكدة جداً . ومع أن معظم البنات يستحممن ليلة بعد ليلة أو مرتين في الأسبوع ، فإن عددا متزايدا منهن يحب أن يستحم كل ليلة . بل لقد يحسسن بحرمانهن من حمامهن إذا لم يتهيأ لهن الوقت الكافي له أو إذا كن متعبات .

والصبيان لا يرقون إلى مستوى البنات . بل الواقع أن كثيرا منهم

لا يزالون بحاجة إلى تذكرة ، بل يقال عنهم « مفرطو الحساسية للصابون » وهم غالبا مايحتاجون أن يذكروا بغسل أيديهم قبل تناول الطعام ، وهم يعمدون إلى التعجل فى حمامهم . ومن حسن الحظ أن أخذ الدش بعد الألعاب الرياضية يجعل الاستحمام بالمنزل أمراً لا تحتمه الضرورة كثيرا .

والغالب أن النظافة فى الصباح لاتزال على العموم شيئا لايفكر فيه كثير من الصبيان إلا بعد فوات أوانه . فهم يتذكرون فجأة بعد أن يتزينوا ويتأنقوا تماماً بقميص مكوى كيا لطيفا ، أنهم لم يغسلوا وجوههم . وعندئذ يرشون الماء بوفرة ويفسدون رونق قميصهم ، مما يحز فى نفوس أمهاتهم . وهم عدا ذلك قادرون تماما على نسيان غسل رقابهم .

وليست معالجة الشعر بالشامبوه والعناية به على نفس ما كانت عليه عادة من الصعوبة . وربما ظلت البنات تحتاج إلى بعض المساعدة فى تبليل الشعر بالماء عندما يضعن الشامبوه الأسبوعى على أن بعضهن لا يحتجن إلى وضع « الشامبوه » فى شعورهن إلا مرة كل أسبوعين ، فى حين أن غيرهن من ذوات الشعر الكثير الدهن يرين معالجته بالشامبوه على فترات أقصر أى كل أربعة أو خمسة أيام . وبنات الرابعة عشرة ماهرات تماما فى تمويج شعورهن بأدوات التمويج والقص أو بالدبابيس.

ويعنى الصبيان بشعورهم عناية لا بأس بها ، ويدخل فى ذلك غسله ، كما أن معظمهم يصبحون الآن مسئولين عن الاهتمام بقصه كل أسبوعين ، وإن كان بعض الآباء لا يزالون مضطرين أن يخوضوا المعارك لحملهم على قص شعورهم . ويبدأ قليل من الصبيان فى حلق لحيتهم . وهذا يتم فى خفاء شديد عن الناس مرتين فى الأسبوع تقريبا .

وتصبح العناية بأظافر اليد الآن جزءاً من عناية ابن الرابعة عشرة الكلية بنفسه . وربما احتاج إلى قليل من التذكير فى شأن كل من العناية بأظافر يديه وبتفريش أسنانه ، ولكنه على الجملة يعمل ذلك بدرجة مقبولة تماما .

الثياب والعناية بالغرفة

لا يحظى ابن الرابعة عشرة من أمه إلا بقليل من الأطراء الرقيق الذى يأتى عن جدارة : « لا بأس به من حيث عنايته بثيابه » — أو « إنه يعلقها فى معظم الأحوال » — أو إنه أنيق فى جوهره » — أو « إن له مظهرا لطيفا » .

والواقع أنه مهتم حقا بثيابه ، بطريقة طبيعية بحتة . وهو يحب التنويع . ويتهافت الصبيان على القمصان والسترات الرياضية (الجاكتات الأسبور) . وبعضهم يجنحون نحو جانب المحافظة رعاية للتقاليد فيرتدون القميص الأبيض ومجموعة الثياب الموحدة اللون ورباط الرقبة المزخرف ، على حين أن غيرهم قد يبدو أنهم يفضلون أشياء عجيبة حيث يختارون بدلة لونها أزرق أرجوانى ورباط رقبة فاقع الألوان أو قميصا عجيب اللون . وربما أدركت البنات أن ذوقهن الأساسى فى الثياب ربما اختلف عن ذوق أمهاتهن ، سواء أكان ما يخترن ثيابا جاهزة أو أخرى أكثر زركشة .

وكلا الجنسين متنبه إلى حد كبير إلى ما يحتاجون إليه من الثياب ، إذ يلوح أنهم يفهمون محتويات دولاب كامل للملابس . هذه هى السن التى يتنبه فيها الصبيان إلى الحاجة إلى معطف . وربما خرجت بعض البنات عن كل حد فى شرائهن للملابس وبخاصة الجونلات — إن أتيحت لهن الفرصة . ومن أعجب الأمور أن البنت التى تكتظ خزانة ملابسها تماما هى أشد البنات ميلا للأنين بقولها : « ليس لدى شىء ألبسه ! » .

وليس شراء الملابس واختيارها بالشىء العسير جدا على ابن الرابعة عشرة . وهو يستطيع أن يتولى المشتريات الصغيرة بنفسه : الثياب الداخلية أو الجوارب أو الأحذية ، ولكنه يحب أن يساعده أحد والديه فى البت أثناء قيامه بالمشتريات الكبيرة . وهناك قدر لا بأس به من الاتفاق بين الوالد والطفل مالم تكن أذواقهما مختلفة أساسا اختلافا بينا وأساسيا . وعندئذ قد يحدث بينهما « خلاف كبير » . وتعلم الأم عند هذه السن أو كان ينبغى لها أن تعلم .

أن ابنتها لن ترتدى شيئاً لاتحبه ، وأن أى ثياب تحضرها الأم بمفردها إلى المنزل يحتمل أن تظل معلقة فى خزانة ابنتها دون لبس .

وربما طالبت قلة نادرة من أبناء الرابعة عشرة أو أعطيت فعــــلا — مصروفا صغيرا للثياب . غير أن العادة أنه ليس بين أبناء وبنات الرابعة عشرة من يستطيع أن يدبر ميزانيته بحكمة إلا النادر منهم . وكذلك أيضا ربما كان من أفدح الأعباء على ابن الرابعة عشرة أن يحسن التصرف فى مصروفاته ولا يتعرض للافلاس .

وتدل عناية ابن الرابعة عشرة بملابسه على قدر كبير من تحمل المسئولية ، فهو يقول بطريقة واقعية بحتة : « لدينا خزانة أعلق فيها ثياب الخروج عندما أعود من الخارج » . كأنما لم تـكن الخزانة بكليتها هناك منذ عدة سنوات . وهو أكثر اعتناء بتعليق أحسن ثيابه ، ولـكنه ربما لقى بعض العسر فى استخدام شماعات الثياب بطريقة صحيحة ، حتى ليبلغ به الأمر أن يتجنب استخدام تلك الشماعات ، ويكوم الثياب قطعة فوق أخرى على مشجب واحد حتى تصبح النتيجة فيما يقول الآباء أن تتـكدس الثياب « كهيئة شخص أحدب » .

وابن الرابعة عشرة أكثر ميلا الآن من ذى قبل للتبليغ عن الواطن الممزقة والأزرار الناقصة فى ثيابه ، بل لقد يعالج الأمور بنفسه . ومن العجيب حقا أن الصبيان والبنات يتولون بنسبة سواء إصلاح ثيابهم وتركيب أزرارهم .

وهنا يصبح وضع الثياب القذرة فى كومة أو القاؤها فى مرجونة نمطا لإحدى العادات ، ويمكن أن تصبح تلك الـكومة ضخمة إلى حد ما إن كان الطفل يغير قمصانه يوميا . وربما خفف بعض أبناء الرابعة عشرة من مشكلة الغسيل بغسل قمصانهم وكيها بأنفسهم . وربما كانوا خبراء تماما بطريقة شد بنطلوناتهم أو جونلاتهن فى مكبس الثياب . وابن الرابعة عشرة متنبه على الجملة إلى أى ثيابه يحتاج إلى التنظيف الجاف ، وربما كان هو فى الحقيقة المتسبب فى أكبر مبلغ تدفعه العائلة فى التنظيف الجاف . ولـكن ليس عجيبا أن نشهد صبيا من أبناء الرابعة عشرة يتألق فى قميص حديث الكى ، ولـكن قد لا يتنبه مع ذلك

إلى بقع ظاهرة فى بنطلونه . أما الأحذية فتلمع بطريقة تفوق ما كان يعمل بها من قبل ، ولكن عنايتهم بها لا تزال تحتاج من الوالدين إلى شىء من الاشراف .

وغالبية أبناء الرابعة عشرة تحافظ على نظافة غرفها بدرجة مقبولة لا بأس بها . بل إن كثيرا منهم يلذ لهم أن تكون الغرفة مرتبة . ولا يزال ابن الرابعة عشرة يجنح إلى ترك الثياب مبعثرة فى أرجاء غرفتـه ، ولكنه يلتقطها بالفعل فى أحيان متفرقة . وهو أقل اهتماما بتزيين غرفته بالأعلام والصور وربما أزال كثيرا من الزخارف التى كانت تبهجه كثيرا فى الثانية عشرة والثالثة عشرة . والبنات اللائى يشغفن حبا بنجم من نجوم السينما ربما ركزن اهتمامهن على ذلك الشخص نفسه وجعلنه مدار زخارف جدران حجراتهن . فربما وضعت له صور التقطت من زوايا مختلفة بأهم المواضع بالغرفة ، حتى لقد تتدلى من السقف . ويميل بعض أبناء الرابعة عشرة — شأن أبناء الثالثة عشرة — إلى قضاء شطر كبير من الزمن داخل غرفهم . ولكن ابن الرابعة عشرة يستخدم غرفته على الجملة فى النوم والدراسة ويفضل أن يقرأ وسط جماعة العائلة . وأبناء الرابعة عشرة الذين لا يحسنون المحافظة على نظافة غرفهم ، ربما احتفظوا مع ذلك بالاهتمام جزئيا بالترتيب ، وبخاصة فى مكاتبهم . ولكن ابن الرابعة عشرة عرضة لترك الكتب منثورة هنا وهناك . وخير وسيلة تدفعه إلى تنظيف غرفته وترتيبها هى فكرة إمكان حضور الضيوف أو حتى حضور المرأة التى تنظف البيت . إذ من حسن الحظ أنه شديد الاهتمام بآراء الناس فيه . وهو عرضة أن يتعجل فى تنظيم سريره وخاصة قرب نهاية الأسبوع ، على أن الأسبوع الجديد ربما جلب إليه الدافع الجديد الذى كان يحتاج إليه .

النقود :

يشـعر الوالدون الآن بالواقع الكامل للتكاليف الباهظة التى تقتضيها تربية أحد الأطفال ، ولا سيما فى هذه السن ، سن الرابعة عشرة الكثيرة التوسع والمطالب . فمصروف الدولار الواحد اسبوعيا ، بالإضافة إلى الزيادات الإضافية ، والذى يصل إلى

حوالى دولارين مع التدبير البسيط للميزانية ، ربما كان كافيا للطفل بصفة مؤقتة . ولكن سيصبح من العسير جداً مع زيادة المطالبة بالمبالغ الإضافية — ولا سيما اللازم منها للشباب فى حالة البنات — حل مشكلة المصروف ولو كان شهريا . وهناك عائلات قليلة تجد من الأسهل عليها أن تتخلى عن تحديد المصروف النثرى وتقدم للطفل النقود بحسب الحاجة . وهذه الطريقة أسهل لدى أبناء الرابعة عشرة الذين يكونون أكثر وعيا للنقود والذين يسترشدون فى شأنها بما تستطيع العائلة أن تتحمله . ولكن الذين لهم أذواق تحتاج لنفقات كثيرة مع رغبة ضئيلة فى كسب المال اللازم للاتفاق على تلك الأذواق يكون تدبير الأمر أصعب عليهم . فربما كانت فكرتهم عن المال مبالغا فيها ، وربما كانت هى موضوع المناقشة الوحيد الذى تنجم عنه معظم المشاجرات بينهم وبين والديهم ، وبخاصة الآباء . فالتعامل مع مثل هؤلاء من أبناء الرابعة عشرة ينبغى أن تقام له حدود وأن يستمسك بها . والبنات اللائى لا يشبع لهن نهم إلى الثياب ينبغى أن يحصلن على مصروف للملابس ، لا ليحظين بالتصرف فيه ، بل لإلزامهن بحدود متفق عليها .

وابن الرابعة عشرة أكثر ميلا إلى الاقتصاد مما كان عليه قبلا . ومنهم عدد ينفقون النقود بحماقة ، ثم يصيبهم « الإفلاس » عادة فى نهاية الأسبوع إن كانوا ممن يتناولون مصروفا ، وربما اشتروا كتبا واسطوانات جيدة لو لا ضيق ذات اليد .

غير أن المبالغ التى يكتسبونها بجهودهم تتزايد مع ذلك . فان الأعمال الصيفية كثيراً ما تدر على الفرد منهم قرابة خمسين دولارا ، يستطيع إيداعها فى البنك وتركها لتجمع الأرباح

العمل

يدرك ابن الرابعة عشرة تغير اتجاهه هو نفسه نحو العمل . فهو يتذكر كم كان فظيعا فى عمله منذ سنتين ، ويحس أنه صار « الآن أحسن تماما . » وربما يؤدى المهام المنزلية لا عن طيب خاطر فحسب ، بل وبصورة أوتوماتيكية

أيضا . أما الذين هم أقل سرورا بالعمل وإقبالا عليه وأكثر مقاومة وانصرافا عنه ، فربما أدركوا أن تصرفهم لا يليق بمن فى سنهم .

وتبدأ البنات الآن يوسعن مجال نواحى نشاطهن فى البيت . فهن ينظفن البيت ويزلن التراب ويدعكن الحمام وربما يكن قادرات على تنظيف بيت بأكمله . وربمـــا قمن بكى ما يلزمهن .

ولا يقتصر الصبيان فقط على غسل سيارة العائلة بل ربما كانوا قادرين أيضا على تغيير إطار إحـدى العجلات بل وعلى مواصلة صيانة آلات السيارة وجعلها فى حالة جيدة . وهنا يبدأ بعضهم فى القيام بأعمال الرجال كقص سياج بالحـــديقة أو بناء موقده .

وهم لا يلحقون بالأعمال المنتظمة فى العادة إلا صيفا كالعمل فى أحد الجراجات أو أحد المتاجر ، وربما أصبحت مجالسة الأطفال أيضا عملا ثابتا مدة أشهر متتالية . ولـكن ابن الرابعة عشرة ليس لديه فى الغالب الوقت الذى يستطيـع تخصيصه للعمل الثـابت الـكثير المطالب ، ولا هو مستعد تماما لحمل مسئولية أية مطالب ثابتة على عاتقه .

٣ ــ الانفعالات

يتم الآن اجتياز أولى المراحل الأليمة التى غالبا ما يعدها الناس أنها سلوك طور المراهقة ـــ الذى تجلى بأقصى قوته فى تباعد ابن الثالثة عشرة وسرعة تأثره ، ويحـل محل ذلك فى ابن الرابعة عشرة نغمة جـديدة طروب فرحة . ولم يعد من الضرورى على الوالدين أن يداوروا بترفق وحذر حول أبنائهم وبناتهم السريعى الإثارة بل السريعى الإثارة بشكل محزن .

لقد صفا الجو وأخذت الضحكات ترن فى أرجاء البيت ، وربما سمع الغناء يتردد حتى فى الصباح نفسه بعد

أن طال إهماله . لقد دار ابن الرابعة عشرة والحق يقال دورة نحو التحسن . ذلك أن ابن الرابعة عشرة يحب الحياة . فهو كما يلاحظ والداه: « ممتلىء بالحياة وكفى » — أو « لقد انفجر من أوله لآخره ؛ ولئن أصبح أقل تدفقا فى حيويته فإنه « هين لين على وجه العموم » — أو هو « سعيد على طريقة الكبار . » والنغمة الرضية فى صوته ، واللية الفكهة لإحدى العبارات هى التى تجعل العيش معه الآن أبعث على السرور والاستمتاع .

ولكن يمكن أن يقال على الجملة إن ابن الرابعة عشرة يمتع نفسه فى حياته . وهو يدرك أنه كلما كبر سنا « تصبح الحياة أعقد ، ولكنها تصير أحفل كثيرا بالمسرة . » وهو يسير مع ركب الحياة جنبا إلى جنب ويقول : « إنها تتحسن كلما تقدمت فى سبيلى . » وقد أخذ يصبح مستعدا لتقبل مسئولياته الجديدة ، كما أنه يدرك أيضا أنك متعرض « لمواقف قذرة » فى كل آونة .

وليس معنى هذا أنه يظل داخل هذا الفلك الإيجابى طول وقته . إذ الواقع أنه يلوح كأنما لطبيعته جانبان — « فهو لين هين مرح ثم هو فجأة مكتئب نكد » ، ومع أنه يخطو خطوات ناجحة ويقوم بأى عمل دون جهد إلا أنه يتعرض للثورة ويجعل « من الحبة قبة » ، « إنها وإن كانت سعيدة جدا فى بعض الأوقات ، يمكنها أن تغوص أيضا « فى أعماق الاكتئاب . »

ولكن هذه « المواقف القذرة » لا تسنح كثيرا ، غير أنها إذا جاءت وجبت مجابهتها . وهى بلبلات باطنية تتمخض عن إنفجارت من الغضب العنيف أو البكاء الحزين — وهى أشياء لا تستقيم واستجابات ابن الرابعة عشرة المعتادة . فإذا وافت تلك اللحظات كان من المهم للوالدين أو المعلمين أن يكتشفوا ما وراء ذلك الاندلاع أو العنف الفجائى الذى يلوح غير متناسب كلية مع ظروف تلك اللحظة . فربما

اكتشف مثلا أن ابن الرابعة عشرة مرتبك قد اختلطت عليه دراسته ويحتاج شيئا من المساعدة الخاصة . ولا شك أننا سندهش من السرعة الشديدة التى سنكتشف بها الصعوبات التى تواجه ابن الرابعة عشرة ومن السرعة التى نستطيع بها أن نساعده على حلها وتبديدها .

ولابن الرابعة عشرة لحظات يغدو فيها « سعيدا بدرجة هائلة . » وهذه تمر به على أكثر الاحتمالات وهو خارج المدرسة ، وإن أمكن أن يسره سرورا مفرطا (بالمدرسة) وضع اسمه فى قائمة الشرف أو فوز فريقه فى الألعاب . ولكن ما يملأ قلب ابن الرابعة عشرة بأعظم السعادة هو حياته الاجتماعية : — كالخروج لموعد لقاء أو شراء قطعة من ثياب جديدة أو الخروج للاشتراك فى معسكر خلوى .

والحالات المزاحية السعيدة عند ابن الرابعة عشرة ترجح كثيرا على حالاته الحزينة . على أنه بدلا من أن يكون حزينا تراه يجنح إلى أن يكون متضايقا أو متنكدا . وقد يتحول تنكده إلى حالة وجوم أو ابتئاس أكثر فاعلية . ولكن ليس من المحتمل أن يبقى ابن الرابعة عشرة فى هذه الحالات الكئيبة دهراً طويلا . أجل إنه قد يهبط إلى أغوار الاكتئاب من حين إلى حين ، غير أنه قادر على أن يطفو ثانية بسرعة لا بأس بها .

ويبدو ابن الرابعة عشرة أقل قدرة على الكف من ثورات الغضب مما كان قبلا ، ولذا فهو عرضة للغضب السريع ، وإن قل صدور ذلك منه . وتبدر منه انبجاسات غضب قصيرة انفجارية ، وخاصة ضد أخ له . فإنه « يطلق لمراجل غيظه العنان » فجأة أمام الناس ، بينما كان فى الثالثة عشرة يتحكم فى الأغلب فى نفسه وينسحب إلى غرفته . ولو أنه تراجع الآن إلى غرفته فربما اقترن ذلك منه بالدبدبة بالقدمين . وليس ابن الرابعة عشرة بالذى يستطيع كتمان الأشياء . فإنه يعرفك بحاله إذا « غضب » أو « تضايق » ويحتمل أن يجعجع ويملأ المكان بصوته » ، كما يحتمل بوجه خاص أن يصرخ أو يصيح فى إخوته ، يسب بينه وبين نفسه فى غرفته . ولكن بسطة يده بالضرب تصبح أقل مما كانت ، إلا فى حالة إخوته . فلذا هو

ثار غضبه ضد معلمته ، أمكنه أن يتملك نفسه ويظل صامتا . وهذا يصدق عليه في العادة عند ما يثور ضد والديه .

وليس البكاء شائعا في الرابعة عشرة ، ولكنه متى حدث فعلا فالعادة أن وراءه سببا قويا . وهو يبدو من ابن الرابعة عشرة في أغلب الأحيان تقريبا إذا كان مغضبا أو متى كان في إحدى حالات تبلبله . وليس من الضروري أن يخفف البكاء ما بابن الرابعة عشرة . بل هو يكشف بالأكثر عن الحالة المستترة التي تسببت في البكاء وربما كان بالفعل صيحة استغاثة وهنا ينبغي أن لا ينظر إليه باستخفاف .

وليست سن الرابعة عشرة في الحقيقة سن خوف ، وإن ذكرت فيها أنواع كثيرة تماما من المخاوف . وكأنما يوجد لكل طفل نقطة خوف ملازمة وقد تطفو إلى السطح وتبرز في هذه السن . فهناك الذين يخافون الحشرات أو العناكب أو النحل أو الفراش . كما يخاف الثعابين عدد لا بأس به من الصبيان والبنات . ومنهم من يخافون الأماكن المرتفعة أو الماء العميق أو الخروج في الظلام أو التيه في الغابات أو السير في الماء على قاع طرى رخو . وهم يخافون من الارتباك ، يخافون الناس ويخشون « الاهمال » ، ومن خوض الناس في سيرتهم ، ومن « مجرد ما سيحدث» أو يخشون « الوضع الذي ستنتهي به الأمور . » وهذه سن تستطيع الخبرة أن تحل فيها الخوف وتبدده . إذ حدث أن قراءة ما كتب عن هيروشيما أذابت كل خوف كان يخالج إحدى البنات من القنابل الذرية ، وحدث أن أحد الصبية ضل الطريق حقا في الغابة ، ثم عرف طريقه وعاد سالما ، فبدد ذلك خوف صبي آخر من أن يفقد الطريق في الغابات .

وما يصح الآن على الخوف ينطبق تماما على القلق . إذ الواقع أن ابن الرابعة عشرة ليس ذلك الشخص القلق الذي عرف في الثالثة عشرة ، ولكنه كثيرا ما تساوره ألوان معينة من القلق . وهناك قلة تصرح بأنها من المشغولية بحيث لا يتسع وقتها لقلق ، وثمة عدد كبير يقلقون من أجل العمل المدرسي مثل أداء الواجب المنزلي والحصول على درجات جيدة والنجاح في الامتحانات . وهناك آخرون يقلقون على التأخر عن موعد المدرسة وهم في الدائرة الاجتماعية يقلقون على الاصدقاء إن لم يكن لهم أصدقاء

ويقلقون على نوع الفكرة التي تنطبع عنهم في نظر الناس وعلى صديقهن الصبي ومكثه معهن أو هجره إياهن (في حالة البنات)، وعلى العلاقات العائلية وعلى محبة الناس لهم. وهم يقلقون على سمعتهم أو قلة طموحهم أو الأمراض التي قد تصيبهم. ومع أن قائمة قلق ابن الرابعة عشرة طويلة، إلا أن قلقه ذاك لا يشغله أكثر مما تشغله مخاوفه.

ولو أننا بحثنا أهم مشكلات ابن الرابعة عشرة الرئيسية لتجلى لنا أن لا شيء يزعجه ازعاجا شديدا. وربما كانت مشكلته الرئيسية هي تكوين جسمه: — ككونه مفرط السمنة أو مفرط القصر أو مفرط الطول. وربما كان الأمر يتعلق بعمله المدرسي (وبخاصة الامتحانات) أو ربما كان متصلا بالمجال الاجتماعي. ولكنه حتى وإن اشتكى — كما فعل ذلك أحد الصبيان من أخته بنت الحادية عشرة التي كانت تثير أعصابه وكانت تجعل من العسير عليه أن يركز عقله — يعود فيقول: «ولكني لا أهتم بذلك كثيرا». ومع أن ابن الرابعة عشرة ربما شكا من عدم مقدرته على مسايرة اصدقائه، فإنه أميل أن يختم حديثه بقوله: «ولكن الحالة أحسن كثيرا مما كانت».

ولا يخجل ابن الرابعة عشرة من إظهار مشاعره. ومع هذا فإنه ربما أخفى مشاعره، إلا أنه على الجملة صريح فيما يتعلق بانفعالاته، ويحب أن يعرف الناس كيف يحس وبم يحس. وهو أقوى وأصلب عودا من ابن الثالثة عشرة. ولا تجرح احساساته بسهولة كسابق عهده. أجل إنه يحس بوقع اعتداء الشخص الآخر عليه، ويمكن أن تجرح احساساته، ولكنه قادر على تحمل ذلك. وهو أقل جنوحا لاخفاء مشاعره المجروحة، وإن كان قادرا على تجاهلها أو محاولة نسيانها. وربما انتقم لنفسه فورا بكلمات قليلة أو أرجأ طعنته إلى يوم آخر. ولكن الأغلب أن يظهر عدم المبالاة قائلا: «ثم ماذا؟» أو يأخذ المسألة مزاحا ويبددها في ثنايا ضحكاته.

واذا سئل ابن الرابعة عشرة عما اذا كان يحس بالغيرة أو الحسد أجاب في يسر أنه «ليس غيارا في الحقيقة» — أو «إلى حد ما فقط». وربما

ود لو حظى بامتيازات شخص آخر — « كالذهاب الى المراقص » — أو « امتلاك حرية أكثر » . وربما تمنى لو كان محبوبا كبعض أصدقائه . وربما تمنى لو أتيحت له كبعض أصدقائه فرصة العمل بإحدى المزارع وقيادة جراره . ولكنه متى فكر في الأمر مليا شرع يدرك أن حظه ليس سيئا جدا ، وأنه « سعيد الحظ إلى حد ما » وأنه « تحدث له من العوائق ما يحدث لأى شخص آخر » ، وأنه في الحق لا يريد أن يتبادل مكانه مع شخص آخر (كلا كلا أبدا !) . وكأنى بك تستطيع أن تسمعه وتحس به يسارع بالرجوع إلى نفسه وهو يقول . « عندما أصل الى قرار المسألة ، فإنى أكون مسرورا حقا لأنى لم أتغير » .

وبهذا الاحساس الطيب بأنه ثاب إلى نفسه يستطيع ابن الرابعة عشرة أن يخوض غمار المنافسة بشعور مخالف لما كان له في الحادية عشرة . فإنه كان آنذاك ميالا إلى المنافسة ميلا تبدو فيه عناصر الرذيلة اذ كان مطالبا بالفوز بأى ثمن أما الآن في الرابعة عشرة فهو يحب المنافسة ، ولكن بطريقة أخرى مخالفة للسابقة . ويحب ابن الرابعة عشرة أن يتنافس فيما هو فيه ماهر ، والأغلب أن يكون ذلك في الألعاب أكثر منه في الدروس . وهو يريد فوق كل شىء أن يجيد ما يعمل . فاذا هو فاز حباً وكرامة . وهو يسعد بوجه خاص لو فاز فريقه .

وظاهرة البديهة الحاضرة وخفة الروح هى التى تجعل القرب من ابن الرابعة عشرة أعظم متعة ومراحا ، وذلك على الأقل أثناء اللحظات التى يمارس فيها هذه الموهبة . ويتأثر اختياره للهدايا بهذه القدرة المكتشفة حديثا . (فهو يختار لعيد ميلاد أبيه تسجيلاً لقطعة « It's later than you think » ومعناها «راحت عليك») . ويتطلع ابن الرابعة عشرة بصره إلى كل خفى لا يدرك باللمس ، وهو نوع جديد من المشاركة في الخبرة . فهو حين ينشىء أندية خيالية ويسميها تسمية لها معناها هى « نادى غدير تنيسون » أو « العلامة السوداء » ، فإن الخبرة المشتركة التى يعرفها أعضاء الجماعة هى التى تتيح لهم الاستمتاع بما فى الاسماء من معنى فكه . ذلك أنهم سيعرفون

من غير تفسير أن الثرثارين المهذارين ينتمون الى النادى الأول ، وأن المعرضين لكل ما يشين من النقائص والعيوب ينتمون الى الثانى .

٤ ــ النفس النامية

لعل أشد جهود ابن الثالثة عشرة لدراسة داخلية نفسه قد أنجز قبل هذه السنة . ذلك أن عملية التأمل أى العيش مع النفس والتفكير فى النفس التى تتصف بها الثالثة عشرة تشبه كلها ــ الى حد ما ــ عملية سبات شتوى(١) ناشط . ثم يجىء الوقت الذى تدور فيه الساعة البيولوجية الداخلية دورتها ويحين فيه وقت الخروج لاستقبال الشمس . وذلك الوقت يكون عند الكثيرين هو الرابعة عشرة .

فإن الصبى أو البنت فى هذة السن يلوح « كأنما يظهر على حقيقته » إنه يحس أنه قريب الشبه بنفسه وإن أمكن أن يتمنى أن تدخل على نفسه بضع تغييرات ــ كأن يتمنى لو كان أقل سمنة بقليل أو أطول قليلا أو أقصر قليلا . وهو الآن يحس بالفارق الذى يفرق بينه وبين الآخرين ونوع تفرده عنهم ، وإن لم يكن مستعدا تماما لتقبل الأمر تقبلا كاملا ومع ذلك فهو متأثر إلى حدما بذلك الشكل المثالى الكامل الذى يتوهمه خياله : وأعنى بذلك تلك الصورة المتناسبة تناسبا صحيحا ، التى لعلها ترتسم فى عقله . ولكنه لا يفكر فى ذلك كثيرا ، لأنه مشغول جدا بأن يكون فقط مطابقا لنفسه .

وكما لاحظ أحد الآباء : « لقد انتهى أخيرا إلى غمر نفسه فى شىء خارج نفسه ؟ وهو الواقع والحقيقة . وهذا هو أحد الأسباب التى تجعله شديد الاستعداد لتقبل عالمه كما يجده . لقد بدأ يتعلم فن السيطرة على الحياة . وفى ثنايا هذه السيطرة يستطيع أن يعرف أن المرء عندما يغدو قادرا فى حدود ضيقة وفق مطاليب العالم الخارجى يتعلم أيضا كيف يختار ويبدأ ابن الرابعة عشرة يعرف معرفة أصفى وأوضح ماذا

---

(١) السبات الشتوى هو خمول الحيوية الذى يصيب بعض الحيوانات شتاء . [المترجم] .

يريد حقا وكيف يستطيع أن يميز . ومن ثم يصبح قادراً أن يقول « لا » — لا لمجرد المقاومة بل لإنه يختار. وهو يستطيع أن يختار أصدقاءه ومقروءاته مع أنه لا يزال ينزع إلى الأسراف في الاختيار وإلى أن تغمره وفرة حيويته ذاتها .

ويحس ابن الرابعة عشرة أنه خير في حد نفسه : فأنت تستطيع أن تسمعه وهو يقول : « أحب أن تكون نفسي على الشاكلة التي أنا عليها » . فإذا لم يكن قد وصل تماما إلى هذه الحالة ، فربما بدا كأنما هو شديد الشوق أن يستمتع بحقوقه كشخص . ولعله يتجاوز عندئذ حده في رغبته في تحميل نفسه المسؤلية وتخطيط زمنه دون مساعدة من أحد . وربما ظل مع ذلك محتاجا إلى قدر من إرشاد الكبار أكثر مما يظن أنه محتاج إليه في أثناء مناقشته في خططه قبل وضعها موضع التنفيذ . ولما كان قد أصبح أكمل مطابقة لنفسه فإنه قادر على النظر وراءه إلى نفسه السابقة بقدر أعظم من التناسب والتسامح. ألم يكن يفعل يوما ما نفس الأشياء التي يرى الآن صغار الأطفال يفعلونها ؟

والغالب أن يكون أبناء الرابعة عشرة غير الناضجين أو المقاومين فقط لا ستكمال النضج متنبهين تماما إلى المنوال الذي يتوقع منهم أن يتصرفوا عليه (فتعتقد البنات أنه ينبغي لهن أن يولعن بالصبيان ولما جنونيا، وأن يضعن أحمر الشفاه ويلبسن الجوارب الحريمي الطويلة) ، ولكنهن يرغبن غالبا أن يتصرفن تصرف الصغار ، مؤثرات جعل سن الثانية عشرة موضع اختيارهم المفضل . كما أن هناك آخرين ممن أبطأ بهم نموهم الاجتماعي في الثانية عشرة والثالثة عشرة قد أصبحوا الآن مشوقين إلى تعويض ما فقدوه من الزمن . لذا يقبلون بشراهة تامة على الخبرة الاجتماعية وعندئذ تضيق الأيام والأسابيع والشهور دون استيعاب جميع خططهم . بل إنهم حتى ينزعون إلى تجاوز كل ما تميزت به الرابعة عشرة من ميل إلى الخروج عن كل حدود. فهم مبددون في كل اتجاه كما أن محاولتهم تنظيم تطرفهم وسرفهم ربما أفضت بهم إلى الارتباك والتورطات.

وربما كان ابن الرابعة عشرة متنبها تماما إلى مظهره الخارجي . وكثيرا ما يحزنه لون بشرته . وربما تمنى لو

حدثت بعض تغيرات فى بدنه ، ولـكنه على الإجمال يستطيع مسايرة نفسه وبذل العناية بها حسب ما تمليه عليه داخليــة نفسه وما تستدعيه المظاهر الخارجية .

ويبدو أن أشكاله وهيئاته بمجموعها — وكل منها مناسب مناسبة لطيفة لظرف معين، — تقذف به إلى النشاط المناسب، بدلا من الاقتصار على إضافة شىء من الوميض اللألاء شأنها قبل ذلك ببضع سنوات .فالفستان العادى المناسب يكون جميل الشكل على بنت الرابعة عشرة والجاكتة التويد(١) حسنة الشكل على صبى فى الرابعة عشرة . فثيابهم تبدو كأنما تليق لهم وتناسبهم وتعــبر عن شخصياتهم .

وابن الرابعة عشرة لا يحب أن يتفاخر بنفسه وربما وجه النقد الشديد إلى من يتفاخرون من زملائه بالفصل . ولـكنه يستطيع أن يدرك ما فى نفسه من سجايا طيبة كقدرته على مسايرة الناس ومعايشتهم وأن عنده « حاسة فـكاهة طيبة — وقدرة على تقــدير الأشياء » ولا يزال قليلون يعــدون الحصول على درجات عالية خير مزية لديهم ، ولـكن عددا أكبر (وبخاصة بين الصبيان) تشغلهم مقدرتهم الرياضية ومدى تبريزهم فيها .وابن الرابعة عشرة راغب فى مواجهة أخطائه وجها لوجه وإن لم يكن ما هرا جدا فى التغلب عليها وهناك غلطة تشيع بين كثير من أبناء الرابعة عشرة هى صوتهم المرتفع. وهذا الصوت المرتفع شىء ربما استخدموه أثناء مراحهم مع أصدقائهم واثتناسهم بهم ، أو ربما استخدموه عموما للتعبير عن الغضب وذلك لأن ابن الرابعــة عشرة لا يخفى مشاعره ولايتحكم فيهــا كما كان يفعل وهو فى الثالثة عشرة . كما أن الغضب وبخاصة من إخوته ، يلوح كأنما يظهر بسرعة . وهو متنبه تماما إلى ذلك كله وإلى استياء والديه من سلوكه . ولـكن لا مفر مع ذلك من مرور سنة أخرى قبل أن يصل إلى النظرة التناسبية الشاملة اللازمة ليدرك ما يصدر عنه من أحداث انفعالية بشكل أقرب إلى وجهة نظر الراشدين . فإذا حدث ذلك التغير فى الاتجاه فإنه سيجد

---

(١) قماش معروف للبدل .

نفسه أقل تورطا فى تلك الأحداث .

وعلى حين كان ابن الثالثة عشرة يعتقد فى الأغلب أن نفسه ترتبط بعقله فإن ابن الرابعة عشرة يعتقد أن النفس ترتبط بالرأس أو بعض أجزاء الرأس. فالفم والعينان والوجه ومعها « المخ أو العقل » تمنحه إحساسا بنفسه . بيد أن هناك أيضا أولئك الذين يجعلون القلب موضعا للنفس كما أن قلة تجعل موضعها المعدة ، لا لأنهم فقط يحبون أن يأكلوا بل لأنهم « يحسون أن من الصواب أن يكون هناك ، سواء أنتج ذلك ظهور فكرة شاعرية جيدة أم عن لذعات الجوع » وهناك عدا ذلك آخرون وربما لاحت [illegible] أيديهم أهم أجزاء أنفسهم ، وذلك لأنها الأداة التى يصنعون بها الأشياء . والواقع أن فكرة موضع النفس ومستقرها تبدو كأنما هى فى الرابعة عشرة شىء فردى أكثر مما كانت عليه من قبل ، كما أنها تعرفنا بحقائق أكثر عن البنت المفردة أو الصبى المفرد أكثر من كونها من دلائل السن نفسها . فإن اتصاف ابن الرابعة عشرة بالانبساط وعدم الاستقرار يشجع بصورة ما على حدوث هذه الفردية فى التعبير .

وعند ما يعبر ابن الرابعة عشرة عما يتمناه ، لا يفكر فى نفسه وحدها . بل هو بالحرى يفكر فى نفسه من حيث نوع العالم الذى يتمنى العيش فيه . فهو يتمنى أولا وقبل كل شىء أن يستظل العالم بألوية السلام ، أو أن تنتهى الحروب . ثم هو يتمنى بعد ذلك قيام عالم أفضل بوجه الإجمال ، تقوم فيه « وحدة بين الشعوب » — و « اتحاد بين جميع الأديان » — « ومستوى عال للمعيشة » — « وفرصة أحسن للناس للنمو والتطور . » وهو يتمنى بوجه أخص لو كانت هناك حكومة تدار إدارة أصلح (حكومة لا تسمح بارتفاع الضرائب !) ونظام للتعليم أحسن . وهو يتمنى بوجه خاص لو عمت السعادة أهله والناس أجمعين ، وحظى بها هو. فى حاضره وفى مستقبل حياته الزوجية ، وهو يريد أن يكون النجاح حليفه فى كل من الالتحاق بالمدرسة الثانوية والكلية الجامعية وفى دراسته بهما ، كما أنه يريد أيضا أن يبلغ فى الحياة شأوا بعيدا . وهناك قلة تكون أكثر اهتماما بالسجايا الشخصية

من ذكاء وحسن صحة ومحبة الناس ، على أن ابن الرابعة عشرة على الجملة يتقبل نفسه على ماهو عليه ، وإن أخذ يصبح ذا إهتمام باستكشاف المزيد عن النواحى التى يتطابق فيها — كشخص — مع نفسه . والمال وما يستطيع المال شراءه أشياء يغلب أن يرغب فيها الصبيان أكثر من البنات . ولكن الذين يرغبون فى هذه الممتلكات المادية قلة قليلة . وتدور هذه الأمانى حول اليخوت الغالية الثمن ، والبيانوهات والسيارات والطائرات . وهذه هى السن التى تأخذ الرغبة فى امتلاك سيارة وبلوغ السن اللازمة لقيادتها ، تطل برأسها بصورة تشغل البال . فكم من منازعة ستنشب بسبب هذه الشهوة القاهرة قبل أن يدخل الشىء المشتهى نفسه فى متناول الفرد وفى نطاق قدرته على الضبط .

وابن الرابعة عشرة فى مرحلة بهيجة من عدم الاستقرار على قرار فيما يتعلق بمستقبله . فإنه وإن تمنى لو بلغ السن التى تتيح له قيادة سيارة أو التمتع بالامتيازات التى يخوله إياها بلوغ سن الكلية ، إلا أنه بحالته الراهنة يستمتع فى الحقيقة بفترة ممتازة . وهو يلهو ويلعب هنا ، وهناك مفكرا فى مستقبله ، ولكنه «لم يقرر بعد شيئا» — أو «لا يترتب على ذلك أى فرق كبير» — أو «إنه لم ينته بعد إلى شىء .» وكثيرا مايقول إنه «ليس لديه فكرة» عما يريد أن يكون أو عما سيكون . والمستقبل ممتد أمامه «مهما تكن النتائج» . ولا تزال دراسة الطب تغرى عددا منهم. وابن الرابعة عشرة ذو اهتمام خاص بأى عمل يتصل بالناس . وربما عبر عن ذلك بالعمل فى الخدمات الاجتماعية والسياسة والطب النفسى وعلم النفس والدبلوماسية والتاريخ من حيث علاقته بالناس ، وهكذا لا يزال يزج بنفسه فى أية شعبة من العلوم تتصل بالناس .

وليس ثمة داع يدعو ابن الرابعة عشرة إلى الاسراع فى البت فى حرفته فى المستقبل . والواقع انه ربما كان أكثر اهتماما بمدرسته الثانوية التى اقترب أوانها أو بالتدريب المهنى بالمدارس الاعدادية منه بالجامعة . وكثير منهم يريدون الذهاب الى الجامعة وإن لم يعرفوا فى الغالب إلى أى كلياتها يذهبون ، وحتى هؤلاء تمر بهم لحظات

محددة لا يكونون فيها متأكدين تماما ما اذا كانوا يريدون الذهاب الى الجامعة « وانفاق كل ذلك المال » أم لا . ثم ان هناك كثيرين يتساءلون عما اذا كانت مدرسة الحرف والصنائع أفضل لهم . على أن عدد الأفراد الذين يتجهون فى الثقافة الأمريكية نحو الدراسة الجامعية يتزايد يوما بعد يوم .

وتفكير ابن الرابعة عشرة فى الزواج أقل شدة مما كان وهو فى الثالثة عشرة . ولم يعد ذلك التفكير قائما فى ذهنه لأنه أوشك أن يصبح قطعة من حياته . فهو يقول : « إنه يدبر الخطة للزواج » — وأنه « يفكر فيه » — وأنه « يحتمل أن يتزوج » — أو « معظم الناس يتزوجون » . وهناك مجموعة معينة من الصبيان الذين يقولون: «لا أدرى» — أو «لم أقرر بعد» — أو « أريد أن أكبر قليلا » قبل أن يقرروا شيئا . ومع ذلك فهناك قلة ضئيلة تستهويها العزوبة .

وعلى الاجمال لا يتعجل ابن الرابعة عشرة الزواج . فهو يدرك أن هناك أشياء كثيرة لا بد له من أدائها قبل أن يحل ذلك الوقت — بل إنه حتى تروقه فكرة العمل قبل الزواج فترة من الزمن بعد تخرجه من الجامعة . ولكن ذلك لا يحول بينه وبين وضع خططه . وكأنى بذلك يوشك أن يكون تعبيرا عن قدرته على «اسقاط» نفسه والعيش فى زمن مستقبل يكون له فيه بيته الخاص وعائلته . والبنات من الواقعية فى هذا المجال بحيث تجدهن يربن آنفا أطفال خيالهن ويرغبن فى أزواج يكونون تحت أمرهن فى أرجاء المنزل وقادرين على « اصلاح البالوعات وتركيب الأرفف » . ولكن البنات يردن شيئا آخر فوق هذه الناحية العلمية من أزواجهن فى المستقبل . فإنهن الآن أكثر تفكيرا فى الحب كأساس للزواج، ومع ذلك فإن كلا من البنات والقلة من الصبيان الذين يفكرون فى الزواج، يهتمون أشد اهتمام بأن يكون لأزواجهم فى المستقبل استعدادات طيبة معتدلة . والوسامة شيء له قيمته والذكاء شيء آخر ، ولكن خلاصة المسألة هى أن ابن الرابعة عشرة يبدأ فى معرفة أن أهم شيء هنا هو ، إلى أى حد من النجاح يحدث أن يرتبط شخصان ارتباطا جيدا بعضهما ببعض وبأطفالهما .

ويفكر ابن الرابعة عشرة فى أطفاله تفكيرا واقعيا تماما . فهو يأمل أن يكون له أولاد ويضع خطة ذلك، ولكنه يدرك أن الحياة خلو من كل استقرار أو ثبات . وربما كان الصبيان أكثر تنبها إلى عوامل الوراثة ، وكانت رغبتهم فى الحصول على زوجة حسناء ترجع إلى هذا السبب وحده . ويتراوح عدد ما يتمنون لأنفسهم من الأطفال بين اثنين أو ثلاثة إلى أربعة أو خمسة مع تفضيل أن يكونوا خليطا من الصبيان والبنات . كما أن تلك الرغبة المعروفة من أقدم العصور فى البشر وهى أن يكون البكر ولداً توجد آنفا فى عقول كثير من بنات الرابعة عشرة .

٥ — العلاقات بالناس

إن التغير الذى يلم بجو البيت عندما يبلغ ابن الثالثة عشرة سن الرابعة عشرة يولد تفريجا وتخفيفا مدهشا وارتياحا لدى كل من يهمهم الأمر . فالوالد المتخوف : المتخوف من أن ينبس هو باللفظ الخاطىء ، المتخوف من التدخل فى شئون ابن الثالثة عشرة الخاصة ، المتخوف من ارباك ابن الثالثة عشرة ، لم يعد يداخله الخوف . ففى إمكانه أن يكون طبيعيا أكثر مع ابن الرابعة عشرة . وهو يتكلم بحماسة عن التغير الملحوظ الذى طرأ : — القدرة الجديدة لابن الرابعة عشرة على مسايرة عائلته . فوالده الآن يستطيعان التحدث اليه . وهو مرح مضحك وأنت تعلم أنك ستنعم بما يقول . ثم إن علاقة أفراد العائلة جميعاً بعضهم ببعض تبدو أحسن وأفضل .

وهنا يتحول ما كان يتوقعه الوالدان من ردود سلبية ومن نقد وامتعاض — مما كانت تتميز به بنت الثالثة عشرة — تحول الآن إلى توقع إيجابى للمراح والفكاهة والمعابثة والضحك الصريح الخالص من ابن الرابعة عشرة . وقد يكون التغير موضع الترحيب الكبير ، خاصة إذا حدث أن كان وهو فى الثالثة عشرة مكتئبا ومتباعدا .

على أن هذا الاتجاه والتعبير الايجابى لابن الرابعة عشرة ربما لم يبلغا حد الازدهار التام عند ابناء هذه السن جميعا ، ولكنهم يكادون ينطوون جميعا على بدايات صغيرة منه على الأقل كأن

يكون سلوكهم مقبولا أكثر . وحتى جدلهم نفسه تزول عنه نغمة الإلحاح والتشديد ، وتظهر فيه المرونة الواجب ظهورها أثناء الخلافات . وربما قاوموا والديهم فى البداية ، ولكنهم لا يلبثون أحيانا بعد تقليب الفكر حتى يسلموا بأن « ماما لها الحق فى ذلك » — مع ذلك ، أمامهم فلا . فهم سيدركون أخيرا أن الوالدين يصيبون فى أغلب الأحيان تقريبا . وحتى تتغير نظرتهم إلى رغبة الوالدين المستمرة فى تهذيبهم ، سيبدو لهم أنها « ليست فكرة رديئة كما كانوا يظنون . » وإذا بدرت من ابن الرابعة عشرة كلمة حادة نحو أحد والديه أمكن محو آثارها بتقديم الاعتذار . وربما أمكنه حبس النقد صونا لمشاعر الأم .

على أن من أبناء الرابعة عشرة من تنشب بينهم وبين والديهم متاعب لا حد لها . ولا سيما ما ينشب منها بين البنات وأمهاتهن . ومع أن الكثيرين منهم يحسون كأنما هم مقيدون بقيود أو لجام . فهم يثورون فى أرجاء المكان ويصيحون حول « مشكلاتهم الكبرى » ، وإن جمعوا والديهم معا أحيانا تحت لفظة « هما » . و « هما » كثيرا ما ينعتان بأنهما « موضة قديمة » — أو « شىء عتيق بال » — أو حتى « يعيشون فى اربعينات القرن . » والبنات تختلفن مع أمهاتهن وبخاصة حول استعمال أحمر الشفاه ومواعيد العودة ليلا . وتحدث للصبيان متاعب أكثر بسبب الخروج ليلا . كما أن هناك المشاكل السرمدية حول الواجب المنزلى والملابس والمساعدة فى الأعمال المنزلية . وتجىء لحظات حامية الوطيس عندما تتقاتل الأمهات والبنات « قتال القطط والكلاب » ، وعندما يكاد الآباء أن يدفعوا دفعا إلى ضرب أبنائهم . على أن الوالد والطفل يستطيعان عادة أن يتفاهما فى الأمر ويصلا إلى حل للمشكل — بعد انفاق قدر جسيم من طاقة الطرفين .

غير أن هذه اللحظات الدقيقة المتوترة لا تحدث كثيراً . وهى تبدو كأنما هى جزء من ميل ابن الرابعة عشرة إلى التورط فى المشاكل بين حين وآخر بصورة تستوجب عمل شىء لمساعدته على الخلاص من ورطته . وقد بدأ يخامرهم شعور

متزايد بالثقة فى الوالدين وإن كتموا فى أنفسهم ما لعلهم يحسونه نحوهما من استحسان . ويبدأ ابن الرابعة عشرة يحس بأن والديه أخذا يفهمانه فهما جديداً ويرغبان فى مساعدته ويتجهان نحو مشاركته مشاركة وجدانية حقة تبدو لعينه شيئا جديدا . وهذا الاتجاه من الوالدين يتيح للطفل أن يثق فيهما وأن يبحث مشاكله معهما ، وبخاصة مشاكله الاجتماعية (مع أمه أكثر من أبيه) .

والغالب أن الآباء لا يوجهون النقد إلى الأبناء بقدر ما كانوا يفعلون فى الماضى ، وهو أمر ربما دل على قلة ما يستدعى النقد . وابن الرابعة عشرة يدرك متى يضغط الوالد ويدقق ومتى يكف يده . والبنات بوجه خاص يستصوبن طريقة آبائهن فى معالجة المواقف ، كما أنهن يرين كما عبرت عن ذلك إحدى البنات بصراحة أن « من أهم الأشياء للوالد أن يقبض على ناصية الأمور بيد حازمة ، وأن يحافظ على النظام السائد » والمقول على العموم عن الآباء أنهم أشد من الأمهات وأقل فهما وعطفا [مشاركة وجدانية ، ولكن بنات كثيرات يسايرن آباءهن على خير وجه مرض . ومع ذلك فإنهن لا يرين أن يتقبلن منه المحبة بأكثر مما يتقبلنها من أصدقائهن من الغلمان . وإن بعض البنات — ليعمدن إذ يحسسن باستجابة أبيهن الحارة نحوهن فى هذه الفترة ، إلى معاملته بفتور وإلى الإعراض عنه . وهذا شىء يحرج هذا النوع من الآباء ويضايقه . حتى لقد يبدى شيئا من الغيرة من الصبيان الذين يوصلون بنته إلى المنزل .

ولا شك أن انتقادات الوالد فى الرابعة عشرة تبدو معتدلة بالمقارنة إلى مدى وحدّة نقده للطفل وهو فى الثالثة عشرة . ذلك أنه ينبغى أن يكون ابنه أو ابنته أكثر حيوية وأكثر انبساطا وأكثر مودة وصداقة له وأكثر التماسا لصحبته . وهو بذلك يتحول عن طلباته المحددة القديمة كمطالبته إياه فى الثالثة عشرة بالتحصيل العقلى إلى طلبات أقل تحديدا كالاتزان الاجتماعى الذى يحس أنه من الصفات

الناسبة لابن الرابعة عشرة . وهو يلوح كأنما يعلم تلقائيا ماذا ينبغي أن يعمله ابن الرابعة عشرة .

وهناك في آخر المطاف شيء من التحسن الواضح المعالم في علاقة ابن الرابعة عشرة بإخوته الصغار . فهو يدرك أن انتقادات عائلته لا تزال صحيحة لها ما يبررها ، ولكنه في الواقع يساير إخوته مسايرة أحسن مما تدركه عائلته . وبطبيعة الحال لا بد أن تنشب بعض خلافات صغيرة ومشاجرات طفيفة ، كما تجيء بين حين وآخر لحظات يجن فيها ابن الرابعة عشرة غضبا من أخ أصغر منه . ولكن تمر به فترات أكثر يستطيع أثناءها أن يمرح معهم ، ويشركهم فيما حصله من خبرة ، ويعلمهم أشياء كرقص الباليه لمجرد التسلي والمرح بالتعليم ، وليس لتحسينهم .

ومع ذلك فإن الاخوة الصغار يمكن أن يضايقوه بما يأتونه عمدا من أعمال لمجرد إثارته ، فضلا عن أخذهم أشياءه دون إذن منه — وهو أمر يبتئس له ابن الرابعة عشرة أيما ابتئاس . وقد يكون ابن الرابعة عشرة بنفسه آراء محددة وقاطعة جدا حول الإخوة الذين يستطيع مسايرتهم أحسن من غيرهم وأي أعمارهم يسبب أعظم المتاعب له . فهو يبلغ صادقا تماما عن الصعوبات البالغة التي يلقاها من أخ له في الحادية عشرة كما أنه يقبل [illegible] ضرورة « التحايل وإيهام واللف والدوران في تصرفه معهم . » فليت الوالدين كانوا هم أيضا مؤهلين تأهيلا طيبا أيضا بالعتاد والاستبصار اللازمين لسوس أبنائهم أبناء الحادية عشرة ! !

وابن الرابعة عشرة يدرك جيدا كذلك أن ابن الحادية لا يساير على خير وجه أخا واحدا في الدفعة الواحدة .

وربما تكون علاقة ابن الرابعة عشرة بإخوته الكبار أقل انسجاما ويكون موقفه كأخ أصغر مضرا له . ومع أن معظم الإخوة الكبار يسايرون ابن الرابعة عشرة بشكل طيب ويبحثون معه في مشكلاته ويقدمون إليه النصح ، فإن خطر قيام دافع المنافسة بينهما سرعان ما يتضح أتم الوضوح . وربما عمد الإخوة الكبار قصداً إلى حرمان ابن الرابعة عشرة من كل راحة . وربما

جعلوه يمشى على حين كانوا يستطيعون أن يركبوه معهم . أو ربما كان مجرد وجود الأخ الأكبر عند ما يكون ابن الرابعة عشرة مع أصدقائه مما يجعله يحس بالضيق والاستحياء . وذلك فضلا عن أن ابن الرابعة عشرة على طريقته الخاصة سريع الإحساس بسوء معاملة أخيه الأكبر لأصدقائه وبخاصة أبناء الجنس الآخر ، كما أنه يسارع إلى التعبير عن عدم موافقته على ذلك التصرف .

والحق أن بنت الرابعة عشرة أقوى إدراكا فيما يتعلق بجميع هذه العلاقات المتبادلة ، وبخاصة نديداتها . وذلك هو ماعبرت عنه إحداهن بمهارة كبيرة حيث قالت : « إن الأمر يشبه الوثوب إلى عالم آخر مختلف — فقد اختلفت اختلافا كبيرا بين العام الماضى وهذا العام » . على أن هذا العالم المخالف عالم مضلل رواغ من العسير حصره وتثبيته . ولكن استخدام أبناء الرابعة عشرة لألفاظ « العصبة » — و « الزمرة » — و « الانسجام فى جماعة » — والرغبة فى « الانضمام إليهم » ، ولو اضطرت إلى « شق طريقها بالقوة بينهم » ، « وشعور المرء منا بأنه كالطفيلى » — كل هذه التعبيرات وكثير غيرها تنبىء بوجود نظام اجتماعى جديد ، وبالخيوط السحرية التى تربط بين الجماعة التى قد تكون صغيرة قوامها اثنان أو كبيرة عدتها سبعة ، ربما ظهر أنها جماعة تعتزل غيرها ولا تقبلهم ، وإن رغب ابن الرابعة عشرة فى إظهار شىء من التقبل للناس كأناس .

وهنا يجىء اليوم الذى تدرك فيه بنت الرابعة عشرة أن اختيارها للأصدقاء لا تحدده بدرجة كبيرة الميول الخاصة بأنواع النشاط كما كان الحال من قبل ، والواقع أنها قد تصاب بصدمة أحيانا حين تحس أنها لا تتفق فى المشارب إلا قليلا مع خير صديقة لها ، اللهم إلا من حيث شعورها « بنوع من الزمالة » معها . وأسباب اختيار الأصدقاء تختلف كثيرا عما كانت عليه قبلا . وربما أحبت إحدى بنات الرابعة عشرة صديقة لها لأنها « شديدة الامتلاء بالحياة » — أو لأنها « صريحة وشريفة » — أو « شبيهة بالهوانم ولكنها مع ذلك متشبهة بالصبيان » .

وابن الرابعة عشرة يجنح أن يكون له « عدد أكبر من الأصدقاء وليس مجرد أصدقاء خصوصيين » — بل « مجموعة كاملة من الأصدقاء الأعزاء » .

وإذا اجتمعت مجموعة من البنات دار حديثها حول موضوعات كثيرة : « نحن نتكلم عن اللابس والصبيان والمعلمين ، وما نعتقده فى فصل الرقص أو دروسه ... مجرد باقة مخلطة من كل حديقة زهرة » . وتبدأ المناقشات تدور حول شخصيات أصدقائهن المتنوعين . (وتصبح هذه المناقشات فنا أدق وأضبط فى مدى عام آخر) . وربما مست المناقشات المشاكل الاجتماعية أيضا ، ولكن هذه أيضا تزداد ازدهارا بعد عام آخر . وبنت الرابعة عشرة مستعدة لتقبل قدر معين من المتاعب والمضايقات داخل نطاق إحدى الجماعات (الشلل) وذلك لأنها — كما تقول — « أمر لا بد منه » ، ولكنها مستعدة أن تفعل أكثر من ذلك . إذ هناك أوقات تعرف أن لا بد لها فيها من التحدث بصراحة مع صديقة لها « لتسير السفينة » ، وليعود قدر معين من التفاهم بينهما .

أما بنات الرابعة عشرة اللائى لم يستطعن الانضمام إلى جماعات ، فإن منظرهن محزن . ومن ثم فهن يحاولن « أن يدخلنها » بالانضمام إلى جميع أنواع النشاط . ولكنهن لا يحظين فى أغلب الأحوال إلا « بالالتقاء فقط بالناس وذلك كل ما يصلن إليه » . فهن يسرن فى الدهاليز مع بنت أخرى على أمل أن يحدث شىء . وقد يحدث فى بعض الأوقات أن تلحظ هذا الحرج الاجتماعى بنت فى سن أربعة عشرة محبوبة أكثر (وزادت مشاركة وجدانية للشخص المنبوذ) ، فتضم البنت غير المحبوبة عند ذاك إلى الجماعة كشخصية ذليلة . وعندئذ قد تتشبث الأخيرة بشدة بمكانها الذى بلغته حديثاً ، وإن أحست بأنها طفيلية أو كالطفيلية . وربما أدى هذا العطف عليها بإدخالها فى زمرة الجماعة إلى متاعب جسيمة كما أنه غالبا ما يفسد وحدة الجماعة التى تقبل انضمامها إليها .

فما أسعد حظ الموجودين خارج الجماعة الذين يدركون أنهم « لم يتهيأوا بعد للتدخل فى شئون الجماعة تدخلا كافيا لمنحهم الحق فى أن تكون لهم

رغبات يبدونها » والذين يكتفون بالبقاء خارج الجماعة. ولكنهم يتقلبون بالرضاء مستوى نموهم ، ويلعبون بسعادة مع أطفال أصغر منهم . وهناك آخرون يواصلون الارتباط بصديق واحد فقط ، ويواصلون الاستمتاع بالمصارعة التى تختلط فيها الفكاهة بالجد ، منادين بعضهم بعضا « يا عزيزى » مع قدر معين من التهكم .

والصبيان كشأنهم دائما ، أميل « للتجمع فى عصب » وإلى الإكثار من الأصدقاء دون أن يتحتم أن يكون لهم حلقة من الأصدقاء الحميمين فهم — كالبنات تماما — يناورون اجتماعيا ويداورون ويعرفون أنهم يختارون الأصدقاء لمجرد أنهم بالصدفة يحبونهم لا بسبب نواحى النشاط المشتركة بينهم وهم ليسوا شديدى التنبه إلى الطريقة التى يختارون بها أصدقاءهم — « لا أستطيع أن أقول كيف أختارهم » — ولكنهم يعرفون كل فرد يرغبون أن يكونوا معه . وهم يحسون بارتياح لطيف إلى أصدقائهم ، وكثيرا مايواصلون الارتباط بأصدقائهم من أبناء الجيرة ، فى حين أن البنات يظهرن فى الأغلب اهتماما بعن يجدن بالمدرسة من صديقات جديدات. وهن أصرح فى أظهار إحساساتهن نحو صديقاتهن ، ويبدين قدراً كبيرا من المعاكسة المتبادلة المنطوية على طيب الخلق ، أما المواقف التى ما كن ليطقنها فى سن أصغر ، كدفعهن لإلقائهن فى الثلج ، فإنها لم تعد تكدرهن ، وربما قررن « أعتقد أنى أستطيع أن أعالج ذلك الآن » .

وينعم الصبيان حقا بقضاء أوقاتهم معا . وهم يستمتعون بحماسة كل منهم الفكاهية . وغالبا ما يكون بينهم فرد كوميدى تعد كل لفظة ينطق بها شيئا مضحكا عند أصدقائه وعنده أيضا ، وإن أخفق الكبير منا فى العثور على الفكاهة . والضحك الدافق الصادر عن جماعة من الصبيان هو الدليل على المرح الطيب الذى كثيرا ما يكون هو الثمرة الثانوية لحفل رجالى خلو من البنات . وقد تكون لعبة البوكر نفسها جزءا من أنواع نشاط الجماعة مع اللعب على مبالغ كبيرة نسبيا والحق أنه مما يتفق مع طبيعة ابن الرابعة عشرة المحب للتواصل ، المتدفق الحيوية ، الميال للمبالغة ، أن يتخذ لمراهناته قيما عالية

هى سنت واحد لـكل ألف بنط !!! فإذا تواصل اللعب تعالى الضجيج حتى لتظن أن ابن الرابعة عشرة يتعامل بملايين الدولارات بدلا من هـذه السنتات الحقيرة !!

ويحس بعض صبيان الرابعة عشرة — كما تفعل البنات — بالصعاب التى يلقاها صبى آخر ويظهرون الرغبة فى حمايته . فربما عمد صبى دون فضول منه إلى اختيار صبى آخر رفيقا له فى خيمته رغبة منه فى حمايته أثناء رحلة كشفية — بعد أن ينبذه الآخرون . ذلك أن الصبيان يستطيعون مساعدة « البطة العرجاء[1] » مساعدة أكيدة وجـديرة بالثقة أكثر مما يستطيع البنات . فهم يدأبون وراء مشكلاتهم كما أنهم أقدر على موالاتها حتى تحل . ولا يزال بعض أبناء الرابعة عشرة ذئابا متوحشة منقطعة عن الناس ، ولـكن حتى هؤلاء يبدأون فى الاتصال قليلا ما بالناس ، وربما توقفوا قليلا بمنزل أحد الأصدقاء فى أثناء عودتهم من المدرسة — وهو شىء لم يكن من المستطاع البتة أن يخطر لهم على بال قبل ذلك بسنة .

وتنطوى ميول ابن الرابعة عشرة الآخذة فى التوسع والاجتماعية على دافع حقيقى نحو الجنس الآخر ، حيث يظهر الصبيان اهتماما بالبنات (وإن كان أكثر اعتدالا) مثلما تظهر البنات اهـتماما بالصبيان . وتحدث بينهم المقـابلات العارضة فى الحافلة (الامنيبوس) وفى القاعات بالمدرسة وبمخزن الأدوية ، ولـكن هذه المقابلات غالبا ما تـكون نقط بداية تمهد لأنواع نشاط أخرى مشتركة بين الطرفين . ومعظم الصبيان يعدون البنات الآن « شيئا مضحكا أكثر منه مزعجا . » وهم يقررون أن قلة ضئيلة من أصدقائهم هى التى لا تهتم بالبنات . ولـكنهم لا يتواعدون كثيرا ، واذا هم فعلوا كان تواعدهم فى الأغلب الأعم مع بنـات أصغر منهم . وهم يتواعدون غالبا على الالتقاء بالحفلات أو لعلهم يذهبون إلى حفلة دون ضرب موعد ، وذلك لأن « كل الناس يذهبون . » ونظرا لشكهم فى أن تقبلهم البنات اللواتى من سنهم ، فإنهم قد يقون أنفسهم شر الرفض بأن يوجهوا إليهن بحذر أسئلة من أمثال : « لو سألتك أن تذهبى الى الرقص معى ، فهـل تذهبين ؟ »

---

(١) اصطلاح يرمز إلى « الإنسان العاجز »

وتبدأ البنات الآن فى الرضا بدور التابع . إذ يصبحن أميل إلى الانتظار حتى يدعين إلى إحدى الحفلات ، إذا لم يذهبن مع الجماعة . والبنات يكدن يعرفن بالتأكيد اسم الصبي الذى يرين أن يرافقنه ، كما أنهن يقلن والسعادة تملأ قلوبهن بأنهن مشغولات لا يستطعن مرافقته وإن لم يكن كذلك فعلا .

والآن تصبح الحفلات الحسنة الإعداد أكثر تسلية مما كانت عادة . ولم يعد الصبيان يقفون عن جنب من الحفلة قدر ما كانوا يفعلون . بل هم يمتزجون امتزاجا أحسن ، كما أنهم يواصلون الحديث بدرجة أطيب ، حتى ولو اضطروا البنت التى يجالسونها إلى الخوض فى حديث الرياضة . وتفضل البنات حضور الحفلات مع صبيان يكبروهن وذلك لعلمهن بأنه لو أتيحت الفرصة لأبناء سنهن لبدأوا الجرى فى أرجاء المكان وتراشقوا بالطعام . واذا سمح لهن أن يخترن غلاما يرقصن معه ، فربما وجدن الصبي الذى يخترنه يفر منهن إلى جهة أخرى . وهذه الأفعال تحير لب بنات الرابعة عشرة ، وذلك لأنهن يتساءلن متحيرات عن السبب الحق الذى دعا مثل ذلك الصبي إلى حضور الرقص . ذلك أنه وإن قال إنه جاء من أجل الطعام ، فإنه فى الحقيقة يريد أن يكون على حافة الجماعة ، ينظر ويشاهد دون أن يشترك اشتراكا فعليا كاملا .

والحفلات التى يجد فيها بنات الرابعة عشرة متعة خاصة هى تلك التى تجىء تلقائيا ، أى التى تقام مع أقل القليل من التدبير والتخطيط . وهذه تحدث فى الأغلب أثناء الصيف ومع صبيان يكبرونهن . ولما تعلمه بنات الرابعة عشرة من ميل الصبيان إلى إفساد الحفلات فى هذه السن ، فإنهن لا يحملن فكرة الحفلة تبدأ فى التبلور قبل حوالى الرابعة بعد الظهر . وربما أخطر أفراد معينون وطلب إليهم بطريقة عارضة أن يحضروا فى ساعة متأخرة من المساء . وربما كانت هذه هى أكثر الحفلات نجاحاً ، وخاصة إن توفرت لها غرفة بالمنزل ، وينبغى أن يبقى الوالدان عن كثب مدة نصف الساعة الأولى ليزيلا الوحشة ويرفعا الكلفة عن صدور الجماعة ، ثم ينسحبان إلى جزء آخر من البيت عندما يتولى الحاضرون العمل

بأنفسهم وتمضى الحفلة فى سبيلها الطبيعى . وتنظيم مسألة الألعاب أمر لازم بوجه عام . وربما عزاف الحضور على البيانو أو غنوا أو رقصوا أو اكتفوا بمجرد الحديث . ويلاحظ الوالدون الفرق بين هذه الحفلات وحفلات السنة المنصرمة .

فهنا يسر وسهولة فى اختلاط الصبيان والبنات . وقد انقطعت مسألة الذهاب الى دورة المياه أو تكاد . وذلك لأن البنات غدون أقل اهتماما بالتزين . ولكن يحدث بين فينة وأخرى أن اثنين ربما انسلخا عن الجماعة مؤقتا فى شرفة (تراس) البيت أو خرجا للتمشى معا . وعندئذ ربما يحدث هرج ومرج أو تنطلق الصيحات أو ينفخ فى الزمامير والأبواق ، ولكن لا يلبث الحضور أن يعثروا على الشاردين ويعيدوهما إلى الجماعة . ولكن تصاحب اثنين (ولد وبنت) لا يكون مسألة مرتبة ثابتة فى الحفلات ، لا قبلها . إذ يبلغ من سرعة التفاعل وتبادل الأفراد للمواعيد ، أن ابن الرابعة عشرة لا يفكر فى دعوة صديقين من زملائه مجتمعين . وذلك لأنه كما عبرت إحدى بنات الرابعة عشرة : « كيف يمكنك أن تدعو اثنين متحابين الى حفلة رقص ، إذ كيف تستطيع أن تعرف هل سيظلان متصاحبين معا عندما تقام الحفلة أم لا ؟ » والطعام مسألة عرضية كما أنه مجرد شطر من التمتع بالائتناس والألفة ، إلا عند الصبيان الذين يفسدون الحفلات والذين ربما رغبوا فى الإغارة على الثلاجات . ولكن إشراف الوالدين الحازم وفهمهما للأمور يستطيع رد هؤلاء المعتدين إلى جادة النظام .

والتواعد الفردى ليس منتشراً بين الصبيان انتشاره بين البنات . وربما كان الصبيان فى حالة مزاجية جيدة فيصطحبون بنتا إلى الخارج ، ولكن الأمر لا يتجاوز ذلك كثيرا . وتعرف البنات أن الصبى من هؤلاء يتواعد مع عدد من البنات والعكس بالعكس . ولدى كل منهم فكرة عن نوع الشخص الذى يريد (هو أو هى) مواعدته . وينبغى أولا وقبل كل شىء أن يتحلى صاحب الموعد بحاسة فكاهة طيبة ، وعندئذ تكون صفات أخرى كنصاعة الفكر واللباقة خير معوان له . والبنات يحببن بوجه خاص الصبيان الذين يعرفون

كيف يعاملونهن ، والذين قد يكونون جريئين قليلا، كما إنهن يفضلن أن يكون الصبي محبوباً من الصبيان الآخرين . ويكره كلا الجنسين القواعد المغتربنفسه أو غير المكتوم . ويبدأ البنات يدركن أن المظهر لايهم . والحق إنهن يحذرن إلى حد ما صبياً أوتى جمالا فائقاً . ولا تنسى أيضا أن البنت التى قد يظن لأول وهلة أنها محبوبة من الجميع للاحتهاويسر أخلاقها ، قد يتجلى فى النهاية أنها أقل الناس حظا من حب من حولها . وتنتشر السمعة الطيبة مثلما تنتشر الإشاعات . وبنت الرابعة عشرة تحذر بأن تتباعد فقط عن كذا وكذا » — أو « إنه ذئب — لايستحق أن تتعبى نفسك معه» ومع أن ابن الرابعة عشرة يتلقى التحذير المناسب ، فإن قلبه (أوفى الأغلب قلبها) الطيب الشفيق يريد أن يتصرف فى المسألة بصورة ما — ولذا يرى أنه «ينبغى أن يدله أحد كيف يتصرف » . وعندئذ يعثر على الشخص المناسب الذى يتولى التوجيه ببطء تدريجى. كما أن ابن الرابعة عشرة المفترى عليه والجاهل بالأمر أحيانا ، ربما أمكنه تقبل ذلك الخبر بالشكر المعروف عن الرابعة عشرة .

وتختلف أوجه النشاط أثناء الموعد : بين الحفلات المعتادة المألوفة بالمنزل أو الذهاب إلى السينما أو مشاهدة برنامج رياضى أو الرحلات أوحفلات الانزلاق (القبقاب أو عجل) . ويحب ابن الرابعة عشرة المواعيد المزدوجة (بين أربعة أفراد) كما يحبون أيضـا الذهاب فى جماعات أكبر ، ولكن هناك أيضا الجماعات المكونة من اثنين فقط ، ولاسيما بنت فى الرابعة عشرة وصبى يكبرهاسنا . وابن الرابعة عشرة لايحب فى العادة أن يستمر فى علاقاته تلك ، لأن ذلك « يقيدك فلا تجد فرصة لمقابلة الأخريات والموازنة » فإذا هم استمروا فعلا فالعادة أن لا يدوم ذلك أكثر من أسبوعين إلى ستة مع حد أعلى قد يصل إلى أربعة أشهر. وبعض البنات يعاملن من يواعدونهن معاملة خشنة ، وخاصة عندما يحاول الصبيان تقبيلهن، أولعلهن يكتفين « بإهمالهم » — أو « قطع العلاقة بهم » — أو « نبذهم » وربما لم تكن أسباب هذه التحولات واضحة جدا . ولكن الأمور تتحول بسرعة مادام للقلب دخل فيهـا . ومع ذلك فالقلب لا يدخل إلى الحد الذى يعرضه لأن

يجرح أو يكسر . بل الأمر بالعكس فإن ابن الرابعة عشرة غالبا مايشعر بالارتياح إذا تخلص من علاقة تفرض عليه مطالب كثيرة .

٦- الميول وأوجه النشاط

حياة أبناء الرابعة عاشرة متجانسة لا تعارض فيها . هى حيـاة مثيرة ، مكتملة الكيان ، حافلة بالنشاط والسعادة ، والحق إن مايقوم به أبناء الرابعة عشرة بوجه خاص لهو أقل أهمية من طريقة ربطهم أنواع نشاطهم بحياتهم بأجمعها . ذلك أن لديهم مقـدرة على التفكير تفكيرا يشمل السنة بأكملها ، ويربط بين ميولهم وبين الفصول ولذا فإنهم عندما يسألون عما يميلون إليه من أنواع الرياضة ، فالغالب أن يقسموها إلى أنواع صيفية ثم شتوية . والصيف عادة هو الفصل الذى يناسب ابن الرابعة عشرة أكثر من غيره والذ اب أنه لايريد أن يذهب إلى أحد المخيمات ، لإنه لا يحس حقا بالميل إلى حياة ساكن المعسكر . وربما فضل حيـاة عرضية لاخطة لهـا وذات نشاط أو اجتماعية يشترك فيهـا الجنسان فى فترة الصيف .

والمدرسة هى التى تشغل كل وقت ابن الرابعة عشرة فى الشتاء . إذ لايتبقى لديه بعدها فسحة كبيرة من الوقت ، وذلك لأنه يقضى معظم يومه بالمدرسة ، ولإن لديه أوجه نشاط بالنادى بعـد المدرسة وواجبا منزليا بالليل . ولـكنه يتقبل ذلك كله كجزء من حيـاته ، كما أنه يتلاءم مع نواحى النشاط الأخرى إلى جانب هذه الوظائف التى تعتبر أ. ا ة أكثر من غيرها .

وهنـاك تباين ضخم فى نوع الميول الرياضية عند الصبيان والبنات . فكرة السلة هى الرياضة الأثيرة لدى الصبيان وإن لم تقل منزلة كرة القاعددة وكرة القدم عنهـا كثيرا . ذلك أن القـدرة العضلية المتزايدة لدى الصبيان بحاجة أن تجرب وتختبر . وهـذه هى السن التى يبدأ فيها الرياضى منهم أن يبرز بروزا أقوى وربما ناصره زملاؤه بسبب جرأته وإقدامه . بل إنه حتى عندما يعرف أحد الصبيان بأنه «ليس من الرياضة فى القمة» أو أنه « خفيف الوزن جدا » ، فالأغلب أنه لن يكف مع ذلك عن رغبته فى الانضمام إلى فريق من نوع ما .

والألعاب الداخلية تقدم لابن الرابعة عشرة نوع المنافسة التي يستمتع بها .

وليس عند البنات نفس الدافع الرياضي الذي يملأ نفوس الصبيان . أما موقفهن من الرياضة فيحدده إلى حد كبير ما تقدمه إليهن المدرسة ونوع روح الجماعة التي تحيط برياضة ما. على أن لعبة الكرة الطائرة والهوكي أحب الألعاب الجماعية إلى قلوبهن. ثم إن التنس وكرة الطاولة قد تلقى تفضيلا من بعض الأفراد وربما حدثت عودة إلى الميل لركوب الدراجات .

وتتحول أنواع النشاط الداخلية الآن تحولا كبيرا من الاهتمام الشديد بالهوايات في الثالثة عشرة إلى ميول الرابعة عشرة الاجتماعية على نطاق أوسع وتواصل قلة من الصبيان اهتمامها بالراديو - فهي تعمل على الحصول على رخصة صانع أجهزة أو تركيب نماذج مختلفة الأنواع وبالمثل تواصل قلة من البنات ميلها السابق إلى الخياطة ، ولعلهن يصممن ثيابهن الخاصة ويقمن بصنعها. ثم إن بضعة من كلا الجنسين يستمتعون بالرسم .

ولكنهم يقضون أعظم شطر من وقتهم في المحافل الاجتماعية ، التي تتكون من الجنسين مفترقين أو مختلطين . وتأخذ ألعاب الورق الجماعية في الانتشار بينهم في ظل جو يشبه في ظاهره جو الكبار . على أن تكوين تجمعاتهم مفكك متقلب متغير ، وان اتصف بالقدرة على إعادة تثبيت نفسه . فاذا التقى الجنسان في صعيد واحد ، زاد تقلقل كل شيء إلى حد ما . فعندئذ يصبح التكوين الاجتماعي أكثر تفككا بدرجة معينة. كما يصبح أقل ثباتا وأكثر تغيرا . وليس من الأمور النادرة أن يحول صبي اهتمامه وعنايته من بنت إلى أخرى في مساء واحد . فمن أجل هذا الوضع المتقلب نرى أن الحاجة تدعو إلى وضع قواعد معينة ، على أن يقوم بذلك أعضاء الجماعة أنفسهم . ولكن ليس ثمة ضبط أقوى أثراً ولا أفضل من وجود الوالدين عن كثب ، فهما اللذان يمكنهما أن يدركا بسرعة متى يأخذ الموقف في الخروج قليلا عن الحدود المضبوطة .

والاتصالات الكلامية مهما كان نوعها تبدو جوهرية لدى البنات فى أى سن تقريبا . وتعبر ابنة الرابعة عشرة عن هذه الحاجة بطرق التعبير بالكلام كالحديث التليفونى وكتابة الخطابات . وقد تشتد دواعى الرغبة فى المكالمة التليفونية أحيانا بحيث يبدو ضروريا مد المكالمة مدة إضافية . على أن هذه مشكلة عائلية وتحتاج أن تحل من حيث هى كذلك . وينبغى وضع قواعد لاستخدام التليفون ، يجب أن لا تخلو من قدر معين من المرونة . وينبغى أن يتوقع من ابن الرابعة عشرة أن يذعن لتلك القواعد . كما أننا نرجو أن لا يسرف ابن الرابعة عشرة فى مطالبة والديه بالطلبات ، حتى ليضطرهما إلى دس ورق النشاف فى الجهاز للقضاء على صوت الجرس بعد العاشرة ليلا .

وينفرد الصبيان بإظهار الاهتمام بالسيارات . ويبدأ كثير منهم فى قيادتها تحت الملاحظة والإشراف . وهم يريدون أن « يلعبوا هنا وهناك » بالسيارات . وينبغى أن تمهد لهم فرص أكثر ، مع التزام قواعد دقيقة فى الإشراف . فإن مشكلة الرخصة ستظهر فى مدى بضع سنوات ، ولذا فإن إعدادهم إعداداً طيباً لا يجعلهم أكثر استعدادا فحسب ، بل سيشبع أيضا ذلك الدافع الفظيع الذى يخالجهم ويحفزهم إلى الاستواء إلى عجلة القيادة .

انواع النشاط المستقرة من مشاهدة واستماع

التلفزيون والراديو ليسا مشكلة عند ابن الرابعة عشرة . فإن بعضهم لا يجلس للمشاهدة أو الاستماع إلا بين كل حين وحين ، إما لأن عليهم واجبات أخرى كثيرة لابد من عملها وإما لأنهم لا تلذهم البرامج . ويتخلى الكثيرون إلى حد ما عن المطالبة بأن يظل الراديو مفتوحا وهم يذاكرون حيث يذكرون الآن أنهم لا يستمعون إليه إلا بعد أن ينتهوا من واجبهم المنزلى . والراديو بوجه عام يفضل على التلفزيون .

والبرامج التى يختارها ابن الرابعة

عشرة تختلف اختلافا بينا ، وبصورة تتمثل فيها أذواقهم الشخصية . والصبيان يؤثرون برامج الرياضة ، بينما البنات أكثر ميلا إلى اختيار التمثيليات المسرحية . وموسيقى الجاز تثير اهتمام الجنسين كليهما ، ويعلم فنانو الأسطوانات علم اليقين أن من بين مستمعيهم عدداً لابأس به من أبناء الرابعة عشرة .

والاهتمام بالأسطوانات — وكان قويا فى الثالثة عشرة — يزداد فى الرابعة عشرة . وتتنافس موسيقى الجاز والموسيقى الكلاسيكية إحداهما مع الأخرى . ثم إن قطع الرقص الإيقاعية تلقى اهتماما فائقا . ويسعد ابن الرابعة عشرة أن تكون له أسطوانات خاصة ، ولكنه يحس بأن مثل تلك الهواية كثيرة النفقة . (لذا فهو منذ الآن فصاعدا يطلب النقود مرة بعد أخرى) .

إن مقدار ما يقرؤه ابن الرابعة عشرة تحدده إلى حد كبير فرديته هو . فإن بعضهم لايتسع وقته لأكثر من عمله المدرسى . وآخرون يتوسعون فى مطالعاتهم إلى حد كبير وتتنوع ميولهم ، وذلك خاصة لأنهم أخذوا يدخلون فى دائرة الكبار . وربما يواصلون قراءة عدد من الكتب لمؤلف واحد . أو لعلهم يدأبون على مطالعة موضوعات بعينها أو يتجنبونها — « أى شىء فى موضوع التاريخ القديم » — أو « لاشىء فى السياسة » . وربما تأثرت قراءتهم بحالتهم المزاجية ، كما أن الكتب فى حد ذاتها ربما خلقت فيهم حالة مزاجية . والمجلات التافهة « الهجاصى » تجعلهم يشعرون بشعور سىء وهناك أشياء أخرى تحملهم يحسون الكآبة ، ولكن الشىء الكثير مما يقرأون يجعلهم يشعرون بشعور طيب .

ومطالعة الصحف شىء عرضى متقطع لدى معظم أبناء الرابعة عشرة . وإن كانت قلة منهم تقرأ الصحيفة من أولها لآخرها . « والنكات » المضحكة والأخبار هى التى تقرأ أكثر من غيرها . وتأخذ القصص التى تدور حول النواحى الإنسانية وأنهر معينة فى الصحيفة والصفحة الاجتماعية — تدخل فى دائرة ميول ابن الرابعة عشرة . ثم إن الرياضة عند الصبيان وأخبار السينما والتلفزيون تحظى بمركزها

الدائم. وقراءة المجلات تصبح فى ازدياد متواصل. وابن الرابعة عشرة يجب أن تلفت نظره إلى أى مقال خاص قد يكون مشوقا له.

والذهاب إلى السينما يسير على أنماط تختلف اختلافا كبيرا من فرد لآخر. فإن معظمهم يذهبون مرة فى الأسبوع، وإن ذهب عدد منهم على فترات أبعد. وكأنى بهم يعرفون نوع الأفلام التى يريدون أن يشهدوها، وإن كان عدد منهم يذهب التماساً للائتناس بإخوانه فقط. والعادة أنهم يذهبون مع أصدقاء من نفس جنسهم، وإن لم تعد البنات يعترضن على الذهاب مع والديهن كما كن يفعلن منذ أمد قريب. ومما يرتبط بالسينما ضرب بعض المواعيد المفردة أو المزدوجة.

وابن الرابعة عشرة يحب أن يكون ختام الفيلم سعيدا. وكثيرا ما تتقمص حالته المزاجية حالة الفيلم نفسه. فإنه ربما شعر بأنه فى حالة طيبة أو حزين أو وطنى غيور، أو مخيف — أعنى بأى شعور يوحيه إليه الفيلم. والبنات بوجه خاص ربما أظهرن اهتماما شديدا ببعض ممثلى السينما، ويحتفظن بأية صورة يجدنها لهم كأنها كنز ثمين ويقتطعن أية معلومات يجدنها فى الصحف أو المجلات عن بطلهن الأثير.

٧ — الحياة المدرسية

يصبح ابن الرابعة عشرة مهيأ للتغير فى كل من المدرسة وفى أشياء ونواح أخرى — وهو تغير جسيم لا بد أن يروى رغبته فى التواصل مع الناس. ولا شك أن النقص فى نزعته للقتال القائمة على الشبهات يهيئه بوجه خاص لارتياد أرض جديدة. فهو أهدأ نفسا فى دخيلته، وإن كان بالموازنة إلى ابن الثالثة عشرة. أقل اتجاها نحو الداخل وأكثر صخباً مع الجماعة. ويرتبط هدوؤه الداخلى المتزايد بتطور عجيب مناقض وهو زيادة فى اهتمامه بنفسه علاوة على ظهور نقص فى « الاستحياء ». وقد أصبح تأمله فى شخصيته هو نفسه متأثراً بقدر أقل من القلق والتذمر والدفاع عن النفس وقسط أكبر من الهدوء والحكمة.

وغالبا ما يبدو ابن الرابعة عشرة

كأنما يتفتح عن صفات جديدة يمكن أن تجعل منه قوة محققة فى كيان أية مدرسة يتعلم بها . فإنه يجيد الاختلاط بمن حوله وتوفير المثل العليا له ولهم . ذلك هو ابن الرابعة عشرة فى خير صوره — ومع ذلك ففى الإمكان أيضا أن يملأ قلب المعلم بخيبة الأمل ، وذلك لأنه ربما لم يبرح يبسط نفسه ويمدها حتى يصبح شيئاً رقيقا لاقوام له ، وقد يشدد التأكيد على زبد الحياة الذى يذهب جفاء ، ويخفق فى انفاق وقته وطاقته فى عمله المدرسى الذى ينفعه .

ولكن العمل المدرسى لا يعتبر لدى ابن الرابعة عشرة إلا جزءا من حياته المدرسية فى مجموعها — جزء يخيل إليه أحيانا أنه — من هذه الناحية — ضئيل القدر أو يكاد . وقد يبلغ من انشغاله بأصدقائه قبل الحصص وفيما بينها وبعدها (بل وأحياناً أثناءها أيضا) أن العمل المدرسى يبدو كأنما ركب فى فلك من الائتناس الاجتماعى أوسع منه كثيرا جدا . والمدرسة تمد ابن الرابعة عشرة على الأقل بنقطة التهيؤ للوثوب فى كثير من أوجه نشاطه الاجتماعى . . بل إنه حتى يرسم الخطط للقاء الأصدقاء فى طريقه إلى المدرسة . ومع ذلك فإن أبناء الرابعة عشرة الذين يذهبون إلى المدرسة فى سيارة مدرسية ، لايزالون يظهرون ميلا إلى الانفصال على أساس الباعث الجنسى القديم نفسه .

ويختلف طور الشباب باختلاف الفصول أو المنطقة وآخر نزوة وبدعة (مودة) ، ولكن ذلك لا يتعدى حدود « المتداول ارتداؤه » ، والعادة أن كلا من الصبيان والبنات يحاولون الظهور بمظهر الذوق الجميل والتحكم فيما يلبسون . فالنزوات والبدع (المودات) لا تجرفهم جرفا كاملا كما أنهم أقل استغلالا فى اختيار الألوان الوقائية التى تختلف عن الألوان الشائعة فى الجماعة المتسقة ، ولذا فهم وإن ماشوا الطراز الدارج ، فإنهم لا ينحرفون بعنف نحو النواحى المتطرفة . كما أن الظاهر أنهم ينجذبون ثانية على الدوام نحو ملجئهم ومعتمدهم القديم : وهو الجونيلا والسويتر أو البلوزة للبنات ، والقمصان العادية البسيطة والسويتر وبنطلونات البحارة والبنطلونات الزرقاء (سراويل رعاة البقر) أو الكاكى للصبيان .

ويندر من البنات من تبالغ فى التأنق فى اللبس أو فى تأكيد جنسها عن طريق ملابسها — مثلما كان من الجائز أن يفعلن آنفاً . والعادة أنهن يحملن الشنط اليدوية ، ولكنهن لايستخدمن أدوات زينتهن بالكثرة السابقة . وهن يستعملن قلم الأحمر أحسن مما كن يستعملنه . والصبيان يرتدون القمصان الأسبور أقل من ذى قبل ، وإن لم تزل رباطات الرقبة تهمل إلا فى المناسبات الخاصة . وهم اليوم أحسن حالا من حيث تلميع أحذيتهم .

وربما ألم بأبناء الرابعة عشرة أحيانا تشوق إلى العودة إلى طرق لبسهم القديمة الخالية من العناية ، فتحن البنات إلى البنطلونات الزرقاء ويترك الصبيان ذيول قمصانهم خارج البنطلون . وربما كان من الحكمة السماح لهم بيوم ليصبح يوما تقليدياً يمكن فيه التنفيس عن كل هذه الرغبة الحبيسة وتبديدها بطريقة طبيعية . فابن الرابعة عشرة يبتهج حقاً بسنوح مثل هذه الفرصة ويستسلم للمناسبة كل الاستسلام .

ومع أن ابن الرابعة عشرة يبدأ فى بسط نفسه ، كما أنه مستعد للخبرات الجديدة ، فإنه يكون سعيدا بالأمان الذى تضفيه عليه « غرفة الرائد » الخاصة به . فإن هو كان ممن أسعدهم الحظ بتخصيص غرفة لذلك الغرض ، فقد يمكنه أن يعرض مشا كله الفردية على معلمه الرائد سواء كانت مشكلات صغرى مثل مسألة أصبع الأحمر أو عظمى كشغونيته على عقيدته الدينية . وهنا أيضا ربما استطاع تكوين شخصيته فى الجماعة (مالم تكن المدرسة أشبه بالورشة والفصول مشوشة مخلطة ، — بصورة لا توفر الروابط المشتركة) . وهو يحب أن يعرف الجماعة باسم يطلقه عليها . وكل ما يفعله أى عضو فى الجماعة ينعكس على أفرادها جميعا ، عائداً عليها بالخير أو الشر . وهو يحب أن يجلس مع إخوانه كجماعة بين المجموعة العامة ، فإذا فارقهم واحد منهم تألمت الجماعة لذلك وظنت أنه لا بد يشعر بالخجل منهم .

وغرفة الرائد بالمدرسة هى أيضاً مكان ممتاز للقيام بتنظيم شئون الطلبة ولرسم خطة بعض نواحى النشاط المعينة سواء كانت اجتماعية أو متعلقة بالعمل ويحب ابن الرابعة عشرة أن ينتخب من

يقومون بوظائف معينة فى الجماعة ، وإن كان لا يزال بحاجة إلى قدر معين من إشراف الكبار عليه . والأغلب أن يقع الاختيار على الرياضيين . وقد يحتاج الأمر فى بعض الأحيان إلى مؤهلات أخرى غير الرياضية . وهنا يستطيع المعلم أن يساعد تلاميذه بعرضه المسائل عرضا أوضح ليتيح لهم فرص الوصول إلى قرار يكون أقرب للصواب .

والغالب أن ابن الرابعة عشرة يساير معلميه خيرا مما كان يفعل قبلا . فهو يدرك أنهم أقدر على بعث السرور ، كما أنه يعرف أنه معهم أظرف مما كان والعكس بالعكس . وانتقاداته لهم أصح وأضبط وأشد ارتباطا بالحقيقة الواقعية مما كانت . فإذا كان المعلم لا يعطف عليه ولا يبالى به أو كان صافى التفكير أو كثير التجديد — لم يفته أن يقول ذلك .

ومعلم ابن الرابعة عشرة يحتاج أن يتنبه بوجه خاص إلى تكوين الجماعة . وابن الرابعة عشرة يريد التنويع ، على أن تنويعا من طراز اعلانات الإذاعة الداخلية للمدرسة لا يكون تنويعا بل مقاطعة مزعجة . ولابد للمعلم من أن يعيد الجماعة إلى النقطة التى بدأت منها حتى يحافظ على استمرار انتباههم . فإن خلق الجو المناسب أمر جوهرى للوصول إلى تعلم أفضل . ولكن هناك أوقاتا يكون فيها الجو المدرسى من الضعف والهزال بحيث نراه فجأة يتمزق إربا . فالمعلم الماهر هو الذى يعرف ماذا يصنع فى هذه اللحظات ، سواء أكان معنى ذلك عرض شريحة فيلم ، أو التوجه إلى إحدى الخرائط ، أو القيام بأية حركة سريعة أخرى لجمع شتات الجماعة مرة أخرى يجذب انتباههم للنشاط الجديد .

وإذا حلت فترات الفسح بين الحصص أو جاء وقت الراحة المخصصة للنواحى الاجتماعية ، سارع ابناء الرابعة عشرة إلى التجمع لتجاذب أطراف الحديث . وغالبا ما تتصرف البنات تصرف من أطلق من الأسر فجأة كعفريت العلبة . ويجرين مهطعات إلى صديقة ليقضين معها الوقت فى الحديث . ذلك أنه ربما كانت بجعبتهن معلومات لذيذة يرون الافضاء بها (لقد تبسم شخص لآخر فى الصالة) . وهن ينظرن

إلى الصور التى توجد بمحافظة نقود كل منهن . والصبيان أكثر ميلا إلى التصرف الشبيه بتصرف الكلاب الكبيرة فهم يتبادلون اللكمات واللطمات . ولا تلبث بداية ضئيلة أن تتقوى بسرعة حتى ينتهى الأمر إلى الضجيج العالى . وقد لاحظ أحد المعلمين أن الضجيج كان فى تلك السن جزءا متغلغلا فى قرارة نفوسهم بحيث يفوتهم فعلا أن يسمعوه . فإذا هم سئلوا « منذ متى أصبحت اللغة الانجليزية تفهم أكثر عندما يتحدث بها بصوت عال ؟ » ظلوا مع ذلك يحاولون اقناع المعلم بأن ارتفاع الصوت لا شأن له بسمعهم .

والطالب غير الناضج يشذ وحده وسط جماعة من أبناء الرابعة عشرة . فهو الذى يدفع إخوانه ويرشقهم بالأشياء ويكثر من الكلام . وضحكه ونكاته ترسل للفت الانظار إليه . وهو يجذبهم ويشدهم كأنما قد من خطاطيف . وهو معاكس للجميع . فهو لا يحسن مسايرة بقية أعضاء الجماعة . وربما أوقع غيره على الأرض أو قرصه ، أو أخفى كتابا لآخر فهذا النوع من الأطفال هو الذى يحتاج بوجه خاص إلى دراسة دقيقة لفرديته لتحديد ما يستطيع عمله ، وأين يستطيع أن يتواءم وما إذا كان بحاجة إلى نوع خاص من المساعدة .

وتختلف طريقة ممارسة الصبيان والبنات للرياضة . فالصبيان أكثر إهتماما باختبار أنفسهم . فهم يريدون أن يعرفوا هل هم يحبون الاحتكاك البدنى الذى يحدث فى كرة القدم أم يكرهونه . وهناك كثيرون يجدون الألعاب الفردية كدحرجة الكرة الخشبية bowling أو التنس أحب إلى نفوسهم .

على أن البنات من ناحية أخرى أشد تأثرا بالحصول على الجوائز المصطنعة التى يتخذنها هدفا . وكثيرا ما يضعن نظاما محكما للحصول على أهداف . والأرجح أن يفتر اهتمامهن بالكرة الطرية (Soft ball) . ولكن من الممكن أن يزيد اهتمامهن بالكرة الطائرة . وهن يغضبن تماما كجماعة إذا أخفقت واحدة منهن فى الحصول على جائزة معينة ، كخطاب تقدير منتظر وربما لم تكن صاحبة الشأن نفسها

تهتم بالأمر إلى مثل هذه الدرجة . ولا تبالى بنت الرابعة عشرة بالفشل بقدر ما كانت تفعل من قبل .

ويصبح أخذ الدش بعد التمرينات الرياضية أمراً مقبولا لاتعترضه صعوبات كبيرة . ولا يزال قليل من الوالدين يخافون من أن يصاب أولادهم بالبرد من جراء ذلك. كماأن قليلا من الصبيان غير الناضجين جثمانيا يصابون به . لذا فمن المهم أن نبحث فيما إذا كان هؤلاء الصبيان يشغلون فى فريق الجباز مكانا يتجاوز طاقتهم، وهل لا يكونون أحسن حالا مع جماعة أصغرمنهم. ومن المهم أيضا معرفة الصبيان (إن وجدمنهم أحد) الذين يتسببون فى المتاعب بالضحك من بعض إخوانهم المعروفين بنقصهم .

والعلاقة بين الصبيان والبنات لا تثبت على حال . فإن بعض الصبيان لايزالون من شدة الاستحياء إزاء البنات بحيث يرفضون أن يجلسوا إلى جوارهن فى الاجتماعات . وهناك آخرون يبحثون عن البنات فى الخارج بالصالة وفى الاجتماعات وأثناء أنواع النشاط بالنادى.

والبنات أكثر شوقا من الصبيان إلى الحصول على صديق . وذلك كما قالت إحدى البنات: «لاتستطيع أن تتصوركم تحس بالاطمئنان عندما يكون لك صديق من الصبيان » . على أن العلاقة بين الجنسين فى هذه السن ، شأنها فى كل سن ، تكون لا شك أحسن لوأن الصبيان كانوا أكبر سناً من البنات بسنة واحدة . فعدم نضج الصبيان هو الذى يضطر البنات فى أحيان كثيرة جداً أن يبحثن عن الصبيان الأكبر منهن سنا . ونصف البنات تقريباً وثلث الصبيان يضربون الآن المواعيد ولكن « الثبات على العهد » لا يمكن عادة أن تطول مدته عن بضعة أسابيع. وهناك تجاذب لا شك فيه بين الجنسين يمكن أن يظهر بسهولة فى أنواع النشاط التى تمارسها الجماعات المختلطة : كجلوسهما معاً أثناء الغداء وخدمتهما معا فى اللجان وتنظيمهما لحفلات الرقص، كل هذه أمور يرحب بها ابن الرابعة عشرة ، وذلك لأنها تمده بمواقف ذات تنظيم وتركيب من نوع ما يعرف فيه كيف يتوقع منه أن يتصرف ، ويستطيع بواسطته أن يتصل اتصالا أسهل مع

الجنس الآخر.

ومما له دلالته الواضحة ، أنه لم يعد ممكنا فى حدود عرضنا هذا للموضوع أن نلقى نظرة فاحصة على خطة الدراسة، وذلك لأنها تفرعت على حين بغتة فأنتجت ضروبا وتعقيدات جديدة . وكل ما نستطيع أن نعمله إنما هو ذكر بضع نقاط مفردة توجه أفكارنا . فالطلبة ذوو المواهب الأكثر تفوقا — مهرة عادة فى الرياضيات (الجبر) وقادرون على الابتكار فى الانجليزية واللاتينية . ومع أن ابن الرابعة عشرة ربما حذر من اختيار اللاتينية ، فإنه كثيرا ما يرغب فى تجربة قوة جناحية. فهو يبدو أحيانا كأنما يريد أن يثبت جدارته بنفس الطريقة التى يريد بها أن يمتحن نفسه فى الألعاب . وابن الرابعة عشرة رجل أفعال ، فهو يتعلم عن طريق المحاولة والخطأ. وينبغى أن يسمح له بأن يجرب ساقيه فى الجرى ، إذا كان ذلك شيئاً عمليا — وإن انتهى الموضوع بالفشل . فمادام هذا الفشل لايعد خزيا له وعاراً فإنه يستطيع أن ينتج فى الرابعة عشرة نموا أصح كثيرا وأسلم — بينما هو الآن غير مهيأ لتقبل ماينصحه به الآخرون .

ولا شك أن للتعلم عن طريق الخطأ مكانته الهامة .

أجل إن ميدان الدراسات الاجتماعية بأجمعه بما فيه من السياسة والحوادث الجارية وقراءة الصحف ، ربما لايحظى من ابن الرابعة عشرة إلا باهتمام أقل . إلا أنه يحب غالبا أن يمارس تعبيره عن الذات فى الخطابة العامة وتقديم التقارير والاشتراك فى تمثيل الدراميات . وثمة شىء ينمو اهتمامه به، هو دراسة الإنسان من نواحيه البيولوجية والفسيولوجية والسيكولوجية. وهو مشوق بل ومستعد لمعرفة المزيد عن نفسه .

ويقبل الواجب المنزلى كجزء من حياة ابن الرابعة عشرة ، وإن شكا من أنه مكدس فوق كاهله . والغالب أنه يحتاج فى واجبه المنزلى إلى مساعدة أقل من ذى قبل، كما أنه يدرك أن معرفته لدروسه ربما كانت أقل جودة لو تلقى المساعدة .

ويميل ابن الرابعة عشرة ميلا حقا لأن يكون عضوا فى أحد الأندية بعد اليوم المدرسى . وينبغى أن يمكن كل طالب من أن يعرف هوايته . فهناك

الأندية الرياضيـة والأندية العلميـة والـ... لـ...ل ثم أندية الموسـيقى . ويجد غير الرياضيين وغير الاجتماعيين مكانهم مهيأ فى مجال التصوير الشمسى ، وهناك نادى الكرة الخشبية المدحرجة bowling لذوى الميـول الرياضية المتوسطة . ويستطيع ناد للانزلاق (للقبقاب ذى العجل) أن يقوم بخدمة حقة وذلك لأنه غالبا ما يؤمه الذين لا يجدون لهم مكانا فى الناحية الاجتماعية ، ولـكن يمكنهم أن يصلوا إلى الانتماء إلى إحدى الجماعات عن طريق النشاط المشترك . ولـكل مدرسة أنواعها المختلفة من الأندية .

ولعل من حسن الحظ أن تقوم هذه الأندية محل جمعيات الأخوات والإخوان . فما أكثر ما يقع ابن الرابعة عشرة فى شرك هذه الجماعات التى تمثل حقبة دابرة من حقب الماضى ، ويجد من العسير عليه أن يحرر نفسه من مؤامرات مثل تلك الجمعيات واعتزالاتها . ذلك أن بعض الأعضاء العاملين أنفسهم يذكرون صراحة أنهم يتمنون لو استطاعوا التخلص من هذه الجماعات .

وحياة ابن الرابعة عشرة هى فى الواقع حياة نشيطة مشحونة بالعمل . فكلما زادت نشاطا ، زاد حبه لها . ولذا ينبغى للمدرسة أن تكون مستعدة لتزويده ببرنامج كله نشاط وأن تعينه على الاندماج فيه . والغالب أن ابن الرابعة عشرة يحتاج إلى قدر من المعونة أكبر مما يظن نفسه محتاجا إليه — وربما لم يدرك تلك الحقيقة أبدا . بل إن هناك أوقاتا لا مفر فيها من إدخال أحد الوالدين إلى المجـال المدرسى ليساعد على حل إحدى الصعوبات . ومن حسن الحظ أن ابن الرابعة عشرة يتقبل عادة سلطة والديه عند ما يحس أن البيت والمدرسة يعملان معا من أجل مصلحته .

وإذا نظرنا إلى ابن الرابعة عشرة بكل ما به من صفات الميل إلى التوسع فى العلاقات الاجتماعية والاستعداد للتغير ، والقدرة على الزعامة ، والقدرة على تلقى المعرفة ، والقيام بقدر أكبر من شئون نفسه ، — فربما ملنا إلى أن نسأل سؤالا : ما خير مكان يندمج فيه ابن الرابعة عشرة على أحسن وجه فى الجهاز المدرسى ؟

إذا كانت المدرســـة إعدادية (junior high school) تضم أبناء الثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة مجتمعين فإنه يعلو إلى القمة — ليس فقط لأن سنته الدراسية تضعه فى تلك المنزلة ، بل وأيضا لأنه قادر على تقبل مطالب ومسئوليات مثل ذلك المركز . فإن ابن الرابعة عشرة الذى بلغ القمة إنما يكون قد حصل على حقه — فى كل من ناحيتى التطور الذاتى والزعامة . وعلى النقيض من ذلك فإن ابن الرابعة عشرة الملتحق بالسنة الأولى من مدرسة ثانوية سنواتها الدراسية أربع ربما غمرته أمواجها — أوضاع فى غمرات الغموض شأنه شأن المبتدئين أو بددته وذهبت به الفاتن والملهيات الكثيرة التى تحيط به من كل جانب . من أجل ذلك أصبح كثيرون من مديرى المدارس إذ يدركون هذا الوضع ، يشددون دفاعهم عن ضمه إلى طلبة المدرسة الاعدادية . على أن هناك آخرين من رجال التربية يحسون أن ابن الرابعة عشرة يكون أحسن حالا إذا أضيفت له سنة تاسعة بوحدة مدرسية ذات ثمانية سنوات ، وذلك أنه هنا أيضا يستطيع أن يزدهر بحكم حقه الشخصى . ومهما يكن الأمر فإن هناك اتفاقا كبيرا على أن ابن الرابعة عشرة لا بد أن يستفيد بأى مركز أو حالة أخرى تباعد بينه وبين المدرسة الثانوية ولكن هناك بديلا آخر يضاف إلى الحالتين سالفتى الذكر ، وقلما بحث فيه أحد .

ألا يجوز وابن الرابعة عشرة على ما ترى من الاكتمال الكلى فى حد ذاته ومن الاستعداد للتغير — ألا يجوز وضعه فى وحدة خاصة به : وحدة قائمة بذاتها حقا مخصصة لأبناء الرابعة عشرة فقط ؟ (ونحن نشيرهنا بطبيعة الحال إلى أولئك الذين بلغوا الرابعة عشرة بمقياس التطور) . فإنا نعرف مدينة (هى مدينة كلايتـــون بولاية مسورى) جربت هذه الفكرة وأحرزت فيها أعظم قسط من النجاح الباهر . وقد ظهرت وحدتهم المدرسية إلى الوجود بسبب ضرورة عملية اقتضت ذلك ، ولكن سرعان ما اتضح أن ظهورها كان ضربة من ضربات الحظ السعيد ، لا يرضى الطلبة الآن ولا الوالدون ولا رجال التربية التخلى عنها ، وإن كان محل هؤلاء الطلبة لا يزال شاغرا مستعدا لقبولهم فى المدرسة الثانوية الجديدة والقريبة أيضا .

ولكن لماذا لا ندخل أبناء الثانية عشرة والثالثةعشرة فى هذه الوحدة مع أبناء الرابعة عشرة ، كما هى الحال بالمدرسة الاعدادية التقليدية ؟ أما ابن الثانية عشرة فإنه يتحدث عن نفسه بغاية الوضوح — انه ليس مستعدا . ذلك أنه يرتبك وتختلط عليه الأمور تماما ، وهو يتنقل[1] باستمرار من فصل إلى آخر كأنما هو فى سباق مع الزمن دائما . فليس عجيبا أنه يجرى فى أروقة المدرسة ويطارد أصدقاءه بصورة تتجاوز ما كان يفعله لو أنه كان فى وضع أقل تعقيدا . وهو لا يزال بحاجة إلى ذلك الأشراف الأدق من معلم واحد يدرس له عددا من المواد المختلفة . وهو بحاجة إلى فرصة تهيء له العودة إلى مجالات أصغر سنا ، وأخرى تدفعه للتقدم إلى الأمام . وابناء الحادية عشرة خير رفاق له ، كما أنهم بدورهم ينالهم شىء من التحسن بدافع التاثير الحسن لابناء الثانية عشرة . أما ابن الثالثة عشرة فإنه يستطيع أن يتواءم مع ابن الرابعة عشرة ، ولكنه قد أوشك فقط على التباعد عن حافة الأعمال الصبيانية ، كما أن الأنسب له كثيرا الارتباط بعجلة ابناء الحادية عشرة والثانية عشرة . وهو يجيد تركيزانتباهه ، ولكنه ليس مستعدا لأن يدفع ويستعجل . وتزداد فيه نزعة القتال إذا طولب بأكثر مما ينبغى . وهو يتجلى فى خير أحواله عندما يكون من المجموعة فى القمة .

وعندى أن هناك عدة مزايا تترتب على انشاء وحدة مستقلة لابن الرابعة عشرة . فليس هناك عندئذ أى طلبة أكبر « وأعقل » ليقلدهم أو ليغتصبوا منه السلطان والمكانة والمجد . هذا إلى أن ابناء الرابعة عشرة إذا كانوا وسط لداة يعادلونهم فى العقل أو يناظرونهم فى السخافة لا يحجب منهم أحد أحداً ، كما أنه أسهل عليهم أن يحسوا أنهم مندمجون فى الجماعة . كما أنه يكون ملكا لهم إلى حد أكبر ، ويمكن أن يخصص جزء أكبر منه لأنواع النشاط الجماعية والبنات ينعمن أكثر بصبيان

---

(١) يشير المؤلف هنا إلى نظام الدراسة الأمريكية ، حيث يستقر المعلم فى إحدى غرف الدراسة وينتقل طلبة فصوله إليه فريقا بعد فريق ويسمى هذا نظام الأقسام Department System (المترجم) .

من أبناء سنهن إذا لم يوجد زملاء فى فصول أعلى يجذبونهن من جماعتهن ويبرزون طاقاتهن — أثناء ساعات المدرسة على الأقل . وهذا الاقتصار على سن واحدة يستودع بمكان واحد ، فيه قيد يمكن لابن الرابعةعشرة أن يتقبله. وهو يمنحه فرصة أحسن لتنمية امكانياته الداخلية والموارد الحيوية للجماعة .

وثمةمزايا أخرى تبرز إلى الصدارة، فإن كثيرا من الصبيان لا يزالون مترددين فى البت فيما إذا كانوا يريدون أن ينضموا إلى الفرق الرياضية أم لا . فلو تهيأت لهم مناقشة غير مفرطة فى عنفها لاستطاعوا أن يكتشفوا بصورة أحسن ما هو أكثر ملاءمة لهم . فهم سيصبحون على استعداد لأنواع الرياضة الداخلية قرب نهاية السنة ، كما أنهم سيستمتعون استمتاعا قاطعا .

أما أبناء الرابعة عشرة الذين يتعبهم البرنامج العلمى البحت ويضايقهم إلى أقصى حد ، فيمكن أن يدبر لهم ترتيب للعمل نصف الوقت أو فترة تلمذة تدريبية على احدى الحرف . فلو منحوا هذا النوع من المزج بين الناحيتين العلمية والعملية ، فإن كثيرا من الطلبة الذين ربما فكروا — لولا وجود هذا النظام — فى مغادرة المدرسة بأسرع ما يمكنهم — ربما استطاعوا مواصلة الدراسة مواصلة مفيدة . هذه ناحية يتمثل لنا فيها مثل هذا البرنامج كقوة مؤكدة النجاح تحول دون حدوث الجناح والانحراف .

وهو بدوره اقتراح يهدف إلى الاستفادة من واحدة من أهم القوى التى يحتمل وجودها فى كل وحدة منفصلة : اذ هنا يوجد بالتحقيق الوقت والمكان المثاليان لتقدير تطور كل فرد، فإن عملية التربية قد تنشغل أكثر مما ينبغى بالتعليم ، ولا تنشغل — بالقدر الكافى — ببحث «الدواعى والأسباب» ، اذ الواقع أن الفرد هو الذى يعلم؛ فهو هو « السبب » . ومن ثم أصبح من الأهمية بمكان أن نعرف حالاته كشخص : — فنعرف مواطن القوة والنقص فيه أى نعرف فرديته . وليس فى دورة السنوات من العاشرة إلى السادسة عشرة سن أخرى يكون فيها أكثر شوقاً إلى معرفة نفسه من هذه

السن : ولن نراه فى أية سن أخرى أشد استعداداً للبدء فى العمل والافادة مما يعلمه عن نفسه .

هنا تكون الدراسة الجدية والتقدير الحق لكل طالب ؛ محطة على الطريق للفحص والترميم والتسوية والتوفيق . وابن الرابعة عشرة الذى حاول من قبل ذلك جاهدا أن يفهم ويتقبل ذاته سيكون لنا حليفا متحمسا فى حملة لا تتمكن فقط من أن تسهم فى النجاح المدرسى الراهن والسعادة الشخصية ، بل تستطيع أيضا أن تصد تيار سوء التوافق والجناح .

ولسنا ننكر أن فكرة انشاء مدرسة منفصلة لابن الرابعة عشرة إنما هى فكرة تكاد تكون غير مجربة فى الواقع . ولكنها حيث جربت قامت بعملها بصورة مرضية إلى أقصى حد ، كما أنه لا شك أنها تبدو من الناحية النظرية كأنما تحل مشاكل كثيرة ، مردها حالة ابن الرابعة عشرة الانتقالية وهى ليست حلا عاما جامعا ، كما أن فى الامكان توجيه انتقادات كثيرة ذات مغزى اليها . بيد اننا نرى أنه لو سمح لابن الرابعة عشرة أن يخبر مثل تلك الوحدة المحصورة ثم يعبر عن نفسه ، فان الكفة لن تجنح فقط نحو فلاحه وازدهاره فى ظل تلك الخبرة بل وايضا نحو قيامه باقناع من بيدهم السلطان أنها كانت سنة لن تزول ذكراها بعد ذلك أبداً .

٨ ـ الحاسة الخلقية

يصبح ابن الرابعة عشرة بطريقة ما أقل تنبها من ذى قبل إلى سلوكه الخلقى الخاص ، لأن سلوكه هذا صار جزءاً يزداد ارتباطه وتمكنه منه . لقد فقد تلك الشدة وذلك الضمير الحى وذلك الاحساس « بالفظاعة » — التى كانت تبدو عليه فى الثالثة عشرة . وكما أن ثيابه تناسبه أطيب مناسبة ، فكذلك الشأن مع أخلاقياته .

وهو الآن يجمع فكرته العامة عن « السنن الخلقية . » وهو يدرك التأثيرات العديدة التى تتمخض عن قانونه الخلقى الخاص . وذاك ما فسرته إحدى البنات حيث قالت : « إنك لا تعلم السنن الاخلاقية بالضبط ولكنها من ناحية جزئية هى ما تتعلمه ، وهى أفكارك الخاصة ، وما تتعلمه من

خبرتك ومن مطالعتك وما يفعله الآخرون . » ولا شك أن الحركة السهلة المنوعة الأشكال لابن الرابعة عشرة تيسر عليه أن يحتجز هذه التأثيرات المتعددة داخل احساسه الخاص بالقيم الأخلاقية .

ثم إن ميوله الخلقية تتجاوز ذاته إلى الغير ، وذلك لأنه يفكر الآن فى مسائل أكبر وأضخم كما يقلب فكره فى العلاقة بين جماعة وأخرى . لقد أخذ يصبح متنبها إلى مسائل من أمثال معاملة طوائف الأقليات والتمييز العنصرى والعزل العنصرى . وهو فى جوهره شخص متسامح جدا . وهو يكن لغيره من الناس كلا من الاحترام والاهتمام . ويتجلى هذا التغير فى موقفه من العاملة التى تنظف الدار . فلعله كان فى الثالثة عشرة يترك الأشياء على أرض غرفته وربما كان يبرر سلوكه بكلام معقول تماما : « إنها تتقاضى أجرا على لم الأشياء » . ولكن الذى يحدث فى الرابعة عشرة هو أن الاستدلال الذهنى الجامد يلين بعامل انفعالى جديد فهو الآن أميل أن يكون حساسا نحو مشاعرها . ومن العجب أن عناية ابن الرابعة عشرة بغرفته تتحسن إن كان بالبيت خادمة .

وابن الرابعة عشرة مستعد ومشوق للمشاركة فى الخبرة مع من يختلفون عنه فى جنسهم البشرى أو طبقتهم الاجتماعية . وهذا يودى به إلى شيء من الميل إلى الإفراط فى التحمس وإلى الخروج على الحدود ، وإن كان يكتسب قدراً أكبر من روح التناسب . وابن الرابعة عشرة شخص يستطيع أن ينظر إلى هذه المسائل بعقل متفتح على الأقل .

ولا يجد ابن الرابعة عشرة مشقة كبيرة فى التفريق بين الصواب والخطأ . ومع أنه يعرف عادة ماينبغى عمله ، فإنه سرعان ما يستطرد قائلا : « ولكن ليس معنى ذلك أنى أفعل الصواب دائما . » وهو يبت فى الأمور متأثرا بمؤثرات عديدة . فإن بعض أبناء الرابعة عشرة « يبدو عليهم فقط أنهم يعرفون الشيء الصائب » — أو « يسيرون مسترشدين باللياقة والفطنة » — أو « هم فقط يحسون»

— بالصواب . وهنـاك آخرون يتأثرون تأثراً أقوى بالمؤثرات الصادرة عن بيئتهم ، ورأى عائلتهم ~~عنهم وعن~~ غيرهم من الناس ،أو الأصدقاء ، أو التعليم الديني . ومع ذلك فإن منهم آخرين أقدر على البت فى الأمور ، وتقدير حساب كل شىء . فانهم يزنون بعقولهم المسائل من حيث نفعها وضررها ، أو من حيث من يستفيدون منها ، أو يضارون بها. ومنهم من يحس بأنه بين قوتين مختلفتين تتجاذبانه : هما عمل ما يتفق ورغبات لذاته فى هذا الاتجاه وما يصلح مع أمه فى ذاك ، ورأى الأم مهم لديهم ولو لمجرد تجنب المتاعب على الأقل ، ولـكنهم « أحيانا ما يثيرونها بعض الشىء » .

وضمير ابن الرابعة عشرة لا يبرز دائما بقوة شديدة جدا أثناء حسمه فى الأمور . فهو موجود ليوجهه إن احتاج إليه فى المسائل الـكبيرة ، بيد أنه لايداوم ملاحقته ولا يقلقه . وذلك ان ابن الرابعة عشرة لا يجد أى جدوى فى القلق وحمل الهموم ، على مافات . وهو أكثر إهتماما بمحاولة تأكيد ما فعل . وعدم مبالاة ابن الرابعة عشرة هذه تجعله شخصا يكون العيش معه أسهل ، ولـكنها أيضا قد تجلب عليه المتاعب فى نواح ليس مهيأ بعد للصراع فيها .

وكما أن ضمير ابن الرابعة عشرة لا يزعجه كثيرا ، فإن قول الصدق لا يضايقه أيضا . فربمـا توسع فى معنى الصدق بين حين وآخر ، وربمـا أظهر شكه فيما إذا كان أى امرىء « صادقا بأدق معانى الـكلمة » أم لا . ولـكنه لا يذكر أكذوبة صارخة ولا نقيض الصدق المضبوط . فإن كانت المسألة ذات أهمية نطق بالصدق . وهو مستعد لمناصرة أى شىء يعتقد أنه هام سواء أكان ذلك لمصلحته هو أو لمصلحة شخص آخر .

وعلى حين كان ابن الثالثة عشرة يؤثر تجنب الجـدل ، إذا بابن الرابعة عشرة يستمتع به ويكاد يتخذ منه لعبـة . ذلك أنه قد اكتسب القدر الكافى من الدربة التى تهيىء له أن يعرف الاتجاه الذى تنتهى إليه

المجادلة عادة ، أو مع من يكون الجدل سارا إلى أقصى حد . والعادة أن تكون الغلبة للآباء ، إما بفضل ميزة التقدم فى السن « إنى أبدأ فى التخلى عن منطق عند ما أتجادل مع أبى » ، وإما بسبب قدرتهم على إنهاء النزاع بقولهم : « لا مناقشة » . ولكن الأمهات طعم جيد يقرجهتهيها فيا يظهر يغرى بهن كلا من الأبناء والبنات ، وكثيرا ما يخرجن من المعمعة خاسرات . ومثل هذا الجدل يحدث فى جو من المرح والطيب ، كما أنه يشحذ ذكاء ابن الرابعة عشرة . على أن ابن الرابعة عشرة يستجيب على الجملة لصوت العقل فى الأمور الهامة .

وقد شرع التدخين وشرب الخمر أن يدخلا الآن فى دائرة خبرة ابن الرابعة عشرة نفسها ، وذلك أنه إن لم ينهمك هو فيهما فربما انغمس فيهما بعض أصدقائه . وهو يقف من هذه المسائل موقف الاستهانة والواقعية التام . ويندر أن يزعجه احتساء البالغين للخمر مادام ذلك « أمراً نسبيا » وما دام متنبها إلى قرب ممارسته هو لخبرة شرب الخمر . ومما يشغل باله قدرة أصدقائه على

« تحمل » مايشربون ، ولكنه لايذمهم لاحتسائهم الخمر . وكذلك التدخين فإنه يدخل فى مجال خبرة جديدة على وشك الظهور . ويعترف كثير من أبناء الرابعة عشرة صبيانا وبنات أنهم جربوا تدخين سيجارة أو اثنين . وهم يعلمون أنهم يفعلون ذلك لأن أصدقاءهم يفعلونه ، وهم يحبون أن يشعروا أنهم لايشذون عن المجموعة ، أو لعلهم يرغبون فى شىء من التظاهر على أن التدخين والشراب لايصلان فى الرابعة عشرة عادة إلى مستوى يصيران معه مشكلة عويصة ، ولكن هناك من الأمل مايدل على الاتجاه الذى ستتجه اليه الريح أى اتجاه السلوك .

وابن الرابعة عشرة أقل اهتماما بالسباب منه قبلا كما أنه أقل استعداداً لاستعماله . لقد كان وهو فى الثالثة عشرة يسب للتخفيف من حالات التوتر الداخلية من ناحية وليحس بعضويته فى الشلة . أما الآن فليست به نفس هاتين الحاجتين . فالتوترات الحبيسة نفسها التى كانت له فى الثالثة عشرة لم تعد تلم به فضلا عن أن لديه وسائل أخرى أحسن يستطيع بها أن يؤكد عضويته

فى مجموعته . ولـكنه يكاد يعد من الأمور المسلمة أن « كل انسان يسب ويلعن » وأن « كل الناس يفعلون ذلك إلا القسس على الراجح . »

وليس الغش سلوكا شاذا فى ابن الرابعة عشرة عادة . فإنه أول من يعرف أنه لا يميل للغش . أو مراجعة عمله على الغير إلا فى الموضوعات التى هو فيها أقل مهارة . ولعله كلما قلب فـكره فى من يغشون ، فربما أدرك وجود عامل مشترك فيهم من الدرجات المنخفضة . فان كان الغش شديد التفشى بالمدرسة ، وجب النظر فى أمر المدرسين وطرائق التدريس فمن المعلمين من لا يغش الطلبة فى حصصهم أبدا . ولئن كانت عدالة المعلم حيوية جدا لابن الرابعـة عشرة ، فان عدالة الطلبة نحو المعلم لا تقل عنها شأنا .

وليس لدى ابن الرابعة عشرة دافع يدفعه للسرقة ، وإن رجعت به الذكريات إلى الوقت الذى كان يسرق فيه فعلا ، قبل ذلك ببضع سنين . وهو يفكر فى أولئك الذين لا يزالون يسرقون بالفعل وغالبا ما يدرك أن هؤلاء الأطفـال ليسوا فقراء وليست بهم حاجة إلى السرقة . ولذا فإنه على طريقته القائمة على تقبل الأمور على علاتها ، ربما التمس لهم المعاذير بمثل قوله « أعتقد أنها فقط لا تستطيع أن تتمالك نفسها . »

٩ ــ النظرة الفلسفية

الزمان والمـكان

يعبر ابن الرابعة عشرة ــ حتى فى فـكرته العـامة عن الزمن ــ عن تفكيره الجـامع لأهل الأرض طرا والشـامل لـكل شىء - فإنه يسبح بأفـكاره حتى يطوى العـالم تحتها : « الزمن هو الذى يدير هذا العالم . » وربما انبسط فى[illegible] حتى شمل الشمس أيضا ، وذلك لأن الوقت الذى تعينه الساعات إنما يحسب « بطول المدة التى تقضيها الأرض فى الدوران حـول الشمس . » ويفكر ابن الرابعة عشرة فى الزمان كشىء عامل متحرك ، « إنه الوسيلة التى نعيش بها » ــ « الأشياء تنمو فيه والأشياء تموت ويمكن أن يحدث أى شىء . » الزمن هو « مرور الدقائق والأيام والأسابيع والسنوات » وهناك « شىء يستمر حدوثه أثناء ذلك الوقت . »

وتحق تفسيرات الزمن الأكثر اتجاها إلى الناحية الفضائية ربما شددت التأكيد فى ناحية الطول أو الفضاء . فالزمن : « هو طول فترة تحدث أثناءها الحوادث » ، — « أو الفضاء الذى تحدث فيه الأشياء . » ويدرك ابن الرابعة عشرة العلاقة التى لا مفر منها بين الوقت والفضاء .

ويختلف التحكم فى الزمن اختلافا كبيرا فى الرابعة عشرة . فهناك الذين يحسنون التصرف فى الوقت إحسانا يمكنهم من تدبير خطتهم للوصول مبكرا فى موعد ضربوه . ولكن الأشيع أنهم يصلون تقريبا فى « آخر لحظة » أو يسكون التأخر دأبهم فهم يلوحون فى حالة اندفاع لا تنقضى . فلو ترك ابن الرابعة عشرة وشأنه ، لوصل بعد الميعاد وخرج مبكرا . ويرجع جزء من مشكلته إلى أنه أسرف فى ملء وقته : إذ أنه يعمل فى شيئين معا ، وهو لا يعرف حتى الآن كيف يجمع بين الوقت والفضاء . كما أن أصعب ما فى الأمر أنه بينما يسود التعجيل والإسراع الفظيع بعض أيامه ، فانه يبدو فى أيام أخرى كمن « ليس لديه شىء يعمله . »

وابن الرابعة عشرة يتجه بكليته إلى المستقبل القريب ، كما أنه يستمتع بالحاضر . ومع ذلك « يشخص ببصره إلى أشياء عظيمة فى المستقبل » .

والفضاء عند ابن الرابعة عشرة جامع شامل . هو « كل شىء حولنا » ومع ذلك « فمنطقته » محصورة : — « الفضاء متسع تجرى فيه الحوادث » . ومع ذلك فإن لاشيئية الفضاء لاتزال تفتن لب ابن الرابعة عشرة كما كانت تفعل فى الثالثة عشرة . بل إنه ليتقدم خطوة أخرى ويترجم هذه اللاشيئية (أو كل شىء) بأنها « الأبدية » — أو « الموت » .

وابن الرابعة عشرة شديد الولع بالأسفار وغالبا ما يقول إنه « يحب أن يسافر » . ولكنه يرغب فى نفس الوقت « لو مكث فى البيت بنفس السرعة » . ويزداد حباً للسفر فى مدى السنة التالية ، وسيصبح أقدر على النشاط المتصل وأكثر شوقاً إلى مغادرة المنزل . وذلك لأن المنزل لا يزال مكانا يستطيبه

ابن الرابعةعشرة ويمكنه الاستمتاع به .

وإذا ذهب ابن الرابعة عشرة فعلا إلى أماكن غريبة ،كان توافقه أفضل ما دام فىالخارج . وهو لا يزال عرضة كما كان فى الثالثة عشرة ، أن يضل الطريق داخلالمبانىالكبيرة . والبنات بوجه خاص ذوات حاسة ضعيفة جدا بالعلاقات الفضائية .

الموت والآله :

ابن الرابعة عشرة أقل اهتماما بالموت ، وأكثر انشغالا بالحياة . فهو يريد أن يعيش طويلا بقدر ما يستطيع ؛ هو يريد أن « يعيش حياة بكاملها . » وهو يحسأن « كل انسان تدخر له الأيام حياة طيبة فى المستقبل ينبغى أن لا يموت قبل أن يبلغ سناً متقدمة » .

وقلما قلق من أجل الموت . وهو يتقبله بوصفه « شيئا لا مفر من مجيئه » . بل إنه قد يرى الموت «شيئا طيباً » . فلربما كان « من المريح أن يموت الإنسان » إذا أصيب فى حادث أو كبرت سنه . وهو يرى أن الحيوانات غالبا ما يكون «الأفضل لها أنتموت» ، وخاصة إذا أصيبت بجرح . والظاهر أن ابن الرابعه عشرة قادرا علىمواجهة الموت دون وجل .

وأفكاره المتعلقة بما وراء الموت ربما لا تشمل إلا حقيقة واحدة هى الوضع فى النعش والدفن . ذلك أمر معروف لديه . وذلك أمر ربما لم تفته ملاحظته . أما ما يحدث بعد ذلك فهو ليس متأكداً منه . وليس ابن الرابعة عشرة من المتشككين فى أمر الدين . ولكنه فقط يقول بصراحة بأنه لا يدرى . وهو يفكر فى إمكانيات ما علم : فى الجنة والنار ، وكيف أن حياتك على الأرض ربما أثرت فى حياتك بعد الموت . وهو يعرف أن فى الإمكان حدوث أشياء متعددة . وهو يستطيع أن يتصورها . ولكنه وإن كان يسلم بعد التحليل النهائى « بأن الأمر ربما كان صحيحا » ، فلا بد له من أن يختم كلامه بقوله أنه فى الحقيقة لا يدرى .

وقل من ابناء الرابعة عشرة من ليست لديه فكرة ما عن الإله . وهم لا يفكرون فيه غالبا كروح . وبعضهم كشأنهم فى الثالثة عشرة يتصورون الله

« كقوة تكون من فوقنا » أو « جهاز هائل كالمصانع ينتج الأفكار » . ويتصوره آخرون « كفكرة فى عقول الناس » . غير أن هناك بعد ذلك آخرين تصوراتهم أكثر غموضا وتعميا . فهم يتحدثون عن « شئ موجود وكفى » ؛ « إنه مجرد شىء موجود لا سبيل إلى تعريفه » . وهم يدركون عدم قدرة العقل الإنسانى وأنه « لا يستطيع حتى أن يقترب من التفسير » .

والصبيان بوجه خاص متنبهون إلى الأسرار العلمية التى لم يمكن تفسيرها والتى تدفعهم إلى « إدراك أن هناك شيئا » يتجاوز كل شىء أو على رأس كل شىء . وبصرف النظر عن العقل واستدلالاته يحس ابن الرابعة عشرة « إنها فكرة طيبة أن يكون للناس شىء يستطيعون أن يؤمنوا به » ، أو « لا بد لكل امرئ من أن يكون له شئ ـ إيمان واعتقاد فى شئ » .

ومع أن ابن الرابعة عشرة مؤمن فى الأغلب الأعم ، فإنه لا يحس أن لمعتقداته تأثيرا كبيراً على سلوكه . فهو لا يجد حافزاً يحفزه إلى الصلاة كل ليلة كما كان يفعل عند ما كان أصغر سناً . ولكنه يرى فعلا أن الله : « شىء يمكنك أن تلجأ إليه ليعينك » ، أو « إنه منقذ ومتنفس ــ كائن شخصى عجيب أو يكاد » .

وغالبا ما يكون ابن الرابعة عشرة من مرتادى الكنيسة الذين يذهبون إليها عن اهتمام وشوق ، وربما حضر صلاتين أو ثلاثا يوم الأحد ، أو لعله يذهب إلى كنيستين مختلفتين . وربما واصل الذهاب إلى مدرسة الأحد العادية أو ربما انضم إلى جمعية شبان إن كانت هناك جمعية من هذا النوع . وهو يحضر الصلاة بالكنيسة لأنه ذو اهتمام بها كما أنه يلتذ بالمواعظ ، ولكنه يجد المتعة فى الائتناس بالناس أيضاً .

وابن الرابعة عشرة مستعد بوجه

خاص للمشاطرة فى نواحى النشاط السائية لجمعيــة الشبان . وهو يهتم بالناحية الاجتماعية اهتمامه بالناحية الدينية . وهو يتدخل بنفسه فى نوع النشاط ، سواء أكانت لعبة كرة سلة أو مناقشة أو رقصة . وتختلف الوسائل والفرص اختلافا بعيداً بين كنيسة وأخرى ، ولـكن هذه فى الواقع سن تجد فيها الـكنيسة استجابة قوية وينبغى أن تعنى بتقديم وسائل التنفيس الضرورية .

الفصل التاسع

السنة الخامسة عشرة

مصور النضج

ليس من اليسير إجمال سمات نضج ابن الخامسة عشرة في عبارة بسيطة نصوغها ، ولا حتى في مجموعة من النعوت نسردها . ذلك أنها كثيرة النواحي متعددة الأطوار بحيث تعود عليه بالارتباك هو نفسه أحيانا . وربما نظرت إليه معلمته بل حتى أمه نظرة احترام كلغز غامض نوعا ما . ومع ذلك فنحن نعلم أيضاً أنه شديد الرغبة في فهم نفسه وفي أن يفهمه الآخرون . فبذلك ينطق لسانه ، كما ينطق به كل معنى ضمنى لتصرفاته وسلوكه .

والانتقال من سمات نضج ابن الرابعة عشرة إلى سمات نضج ابن الخامسة عشرة تدريجى نسبيا ، ولكنه يتمخض عن نواحى متباينة بشكل أخاذ . ولقد صورنا ابن الرابعة عشرة وهو في أحسن صورة مثالية له فجعلناه شابا أخذ يبلغ رشده ، سعيداً معتمدا على نفسه مفرط الحيوية نشيطا عالى الهمة ، نسيجه الانفعالى متين إلى حد ما ، ومستعدا لتقبل ما يلقى عليه من مطالب . والآن ربما جارلنا أن نعتقد اعتقاداً منطقيا تماما أن هذه الصفات الممتازة والمبشرة بالخير ستزداد قوة وحجما في غضون السنة التالية . ولكن الأمر لا يمضى على هذا النحو ، لأن للتطور منطقاً مغايراً . فابن الخامسة عشرة كثيرا ما يكون « غير مبال » ويتكلم بصوت لين ، بدلا من أن يتدفق حيوية بصوت مرتفع . وطاقاته الانبساطية (المتجهة إلى الخارج) فيها من الاقتصاد ما يجعل الناس يعدونه كسولا في بعض الأحيان ، أو متعبا على الأقل . لقد قل ميله للطعام بما في ذلك الحلوى . وإنك لتحس أيضا بأنه متبلد . على أن هذه الانطباعة ربما كانت مع ذلك خاطئة تماماً ، وذلك لأن التبلد الظاهرى مرتبط ارتباطا وثيقا بنوع من الاهتمام والتفكير الهادىء في حالات مشاعره الداخلية . وهو يركز انتباهه على تلك الحالات المستترة ،

التى تتناقض والانفعالات الأكثر قوة عند ابن الرابعة عشرة . وبعض سمات نضج ابن الخامسة عشرة ذات المغزى الكبير تتجه نحو تهذيب أنماط المشاعر بأكبر جهد مستطاع.

هذا التقدير المتزايد ، هــذا التمييز بين المشاعر المختلفة يظهر بأشياء جديدة لها أثرها فى سلوك ابن الخامسة عشرة هى : شدة الحساسية وسرعة الاستثارة والمقاومة والكراهية والتشكك . وغنى عن البيان أن المشاعر سلبية كانت أو إيجابية لا تظهر كاملة التشكيل . بل هى تتعدل وتأخذ صورتها بوساطة النمو والخبرة . وتمتد تنبهات ابن الخامسة عشرة الوجدانية الجديدة إلى مجالات ذهنية وفلسفية وجمالية . وهذا هو الجانب المفكر والهادىء والجاد لابن الخامسة عشرة بالمقارنة إلى حماسات ابن الرابعة عشرة. ذلك أن منطق التطور يفسح لكل من اتجاهى التطور مجالا ثابتا لا تناقض فيه .

كانت سمات نضج ابن الخامسة عشرة المميزة تكاد تظهر بطريقة طبيعية أثناء المقابلة والامتحان السنوى . ويذكر القارىء أن ابن الرابعة عشرة كان فى مجمل أحواله الطرازية العامة يتصرف فى نفس ذلك الموقف تصرفا حراً غير مقيد ويتعاون تعاونا قلبيا . كان واضح الصراحة ميالا للتفاهم والحديث . ولكن الذى حدث فى ابن الخامسة عشرة ، أن أحد صبياننا الذى كان مثالا للتعاون فى جميع السنين بما فى ذلك الرابعة عشرة ، قد سمع وهو يقول : « لن أسمح لهم بمعرفة أشياء كثيرة » وكان عدد من الصبيان والبنات يجيبوننا باقتضاب ويعاملوننا بفتور مع شىء من روح العداء عند ابتداء المقابلة ، ولكن معظم هؤلاء أظهروا الود والصداقة حين لم تظهر المتحنة اللهفة الشديدة على فرض النظام الأساسى للمقابلة عليهم . غير أن بعضهم لبث مع ذلك متباعدا وسلبيا ، وكان يجيب إجابات مبهمة لا تكشف لنا عن شىء . ولكن الموقف كان يتحور مع غيرهم إلى فترة مناقشة وحوار كان المفحوص يطلب أثناءها نصيحة الممتحنة أو رأيها ويشكرها عند الخروج .

ومن المفحوصين من أظهر سمة نضج جديدة إلى حد ما . إذ كانوا يبذلون جهــدا ملحوظا للعثور بالضبط على الكلمات والعبارات الصحيحة اللازمة للتعبير عن فكرهم وآرائهم تعبيرا صحيحا ، أى ليعطوا بالضبط الانطباعة الحقيقية لما قصدوا أن يقولوه .

وغنى عن البيان أن احترام الكلمة المنطوقة المقترن بالتشكك والتدقيق ، فيه بطبيعة الحال ما فيه من معان خلقية ، وأن للأخلاق أساسا تطوريا . فهذه القدرة على تركيز الالتفات على تفاصيل الفكر والمشاعر ،من الخصائص البارزة التى تتسم بها سيكولوجيا ابن الخامسة عشرة .

إن الاهتمام بتحليل الدقائق الصغيرة والتفاصيل يناقض مااشتهر به ابن الرابعة عشرة من تناول الأمور بطريقة عامة شاملة ، كما يختلف عما يعرف عن ابن السادسة عشرة من جنوح إلى التكامل . فابن الخامسة عشرة فى نظرته للأمور لأول وهلة أكثر ميلا إلى الاهتمام بالجزئيات والتفاصيل . وهو يصبح فى تأملاته الذاتية Subjective من أشد المستمسكين بالدقة والضبط ، كأنما صار من دعاة مذهب الكمال المطلق . ومهما تختلف الفوارق الفردية فى الدوافع ، فلا شك أن هذه الأشكال المختلفة التى يحاول بها اختبار نفسه وسبر غورها إنما هى سمات نضج . وهى تدل على وجود مرحلة تنظيم إضافية أخرى فى عملية النماء . وهذه كلها بطبيعتها بعض آليات النمو ، حتى وهى تعمل فى مجال المشاعر الغامض المضلل .

من أجل هذا تكون حالات ابن الخامسة عشرة المزاجية التى تميل للهدوء أكثر من ذى قبل جزءا من العمليات الطبيعية المنتظمة فى تطور الشخصية . فإن حالاته المزاجية ليست شديدة ولا نفاذة كما كانت عند مستوى السنة الثالثة عشرة ، إذ أن لها طابعا أكثر اعتدالا وأوتى القدرة على التحور . وقد أسماها أحد مفحوصينا من أبناء الخامسة عشرة « حالات مزاجية صغيرة » ، وكأنما كان يعدها خبرة طبيعية ومقبولة . وهى شىء جوهرى لتهذيب النقد الذاتى كما أنها ضرورية لتوجيهاته . وربما كانت من الضروريات الأولية السوية لضبط النفس بدرجة عالية وهو من الخصائص المعروفة عند سن السادسة عشرة .

ولهذه المناسبة يجوز لنا أن نشير إلى أن الآليات الذاتية التى لخصناها من فورنا يمكن أن تعمل فى اتجاه الشر والشذوذ . فإن فتى فى الخامسة عشرة يستطيع أن يغذى فى نفسه مشاعر الضغينة والانتقام والعنف . وبهذه الطريقة تصاغ أنماط أشكال

منوعة لاضطرابات السلوك والجناح بواسطة عمليات نمائية خبيثة مستترة . وابن الخامسة عشرة هو لأسباب عدة منطقة نضج غير منيعة . وهذا هو أقتم جانب من جوانب الموضـوع .

ويمكن تمثل سمات النضج لفترة الخامسة عشرة العمرية تحت عناوين ثلاثة بحثنـا منها وهى : كما سبق (١) تزايد التنبه الذاتى والقدرة الإدراكية (٢) روح استقلالية نامية ؛ (٣) الولاء مع التوافق مع الجماعات المنزلية والمدرسية والمجتمع .

وتهذيب التنبه الذاتى أمر جوهرى ، وذلك لأنه يتضمن معانى بعيـدة الأثر فى حاسته الخلقية وقدرته على الادراك الاجتماعى . وهو يؤثر فى قابليته للتعلم كما أنه يذكى روح الاستقلال المتزايدة عنده. وهو يعم جميع البناء المعقد لعلاقاته الشخصية المتبادلة مع الجماعات والأفراد .

فلو استعرضنا بسرعة هذه العلاقات المتبادلة مع الناس لعرفنا إلى أى حد تتشـابك النواحى الثلاث تشابكا شديداً : التنبه الذاتى والمسئوليات الاستقلالية والولاءات للجماعة . ومهمته التطورية هى التوفيق بينها.

وفى الرابعة عشرة يبدأ الفتى يفـكر بيهجة فى عائلته كنظام له حقوق من حيث خدماته وتعاونه . ولـكن الأحوال تنزع إلى الانحلال فى سن الخامسة عشرة . فإن بعض أبناء الخامسة عشرة يعمدون دون اتخاذ اجراء تقديم الاستقالة الرسمى إلى الانشقاق الفعلى عن تلك الجماعة . فهم يمنعون تحياتهم أو يشحون بها عندما يدخلون البيت ، وهم ينفردون بأنفسهم ؛ وهم يقاومون القيود والتضييقات مهما تكن معقولة . وآخرون يدخلون مع والديهم فى حرب باردة تختلف أوارها شدة . ثم إن هناك عدا ذلك آخرين ينفسون عن رغبتهم فى المقاتلة بالاندفاع خارج الدار والابتعاد عن الموقف كلية بالانطلاق فى رحلة لا يعلنونها لأحد ، ولعلها إلى مخزن الأدوية المجاور . ويدوى الباب حين إغلاقه رغبة فى تأكيد حالة تحرر من روابط البيت تنطوى على التحدى أو السعادة .

إن روح الاستقلال تسمو هنا وتزداد بيد أنها لم تنضج بعد ، كما أنها تظهر بأشكال غير

مهذبة منها الساذج ومنها ما ليس كذلك . وربما ابتسم ابن الخامسة عشرة نفسه ازاء انفجاره بما يثبت اعتداده بذاته ، — يوم يزداد سنا ويسترجعها عن طريق الاستذكار ؛ ولكنه عند حدوثها لا يعدها دلائل على عدم النضج . إذ أن تصريحاته تدل على أنه يأخذ هذه الأمور مأخذ الجد التام ، على حين يحتمل أن يحس الوالدون أنه يتباعد عن العائلة . ولا شك أن أشكال التحدى الأكثر تطرفاً تستدعى المهارة فى الإرشاد واتخاذ اجراءات دقيقة للضبط والتحكم .

وسواء أكانت مظاهر الروح الاستقلالية شديدة أو معتدلة ، فإنها لا يمكن أن تفهم إلا فى ضوء التطور الفردى . إذ لا شك أن ابن الخامسة عشرة يحس إحساسا واضحا أنه ينضج ويكبر . لذا فهو لا يرغب بعد هذا مطلقا أن يعد طفلا ، كما أنه يأمل أن لا تعتقد أمه أنه ما هو إلا (عيل) . إنه يريد أن يفلت وينطلق الليلة بوجه خاص وليلة الغد أيضا . وهو يقوم بخياله برحلات كثيرة ، عندما ينسحب مبتعدا عن أهله إلى غرفته . وإنه ليتلقى بخياله دروسا بمدرسة بمدينة بعيدة . ومن البنات من يرغبن بشكل متهور فى الذهاب إلى مدرسة بعيدة . فقد ذكرت لنا إحدى بنات مجموعة أبناء الخامسة عشرة بلهجة الجد الصادق أنها تتمنى لو كانت امرأة غنية لتعطى المنح الدراسية التى تتيح لكل بنات الخامسة عشرة أن يذهبن إلى مدرسة بعيدة عن البيت .

فإذا بلغت روح الاستقلال أقصى ذروتها تمنى ابن الخامسة عشرة لو سما فوق حدود الزمان والفضاء ؛ ولكنه فى العادة يظل بالمنزل ويذهب إلى مدسة قريبة . وهو مضطر أن يذعن لخطط معينة يحددها العرف والقانون . ومع ذلك فإنه أشد الناس شوقا إلى الحصول — على فترة من الوقت تكون تحت تصرفه ، فترة حرة لاضابط لها ولا نظام ينظمها . وعندى أن هذه تكون أعراضا سوية بل حتى محببة إن هى عاونته على أن يبنى صرح اعتماده على ذاته وينمى المسئولية التى يتخذها لنفسه بنفسه . وبهذا المعنى الواسع الرحيب تتوقف فلسفة الاستقلال بكاملها على فلسفة التطور الفردى .

بيد أن التطور النفسى للفرد يتأثر تأثراً عميقا بمطالب الجماعات وحدودها . ويبدى ابن الخامسة عشرة على طريقته كمراهق تنبها حاداً إلى هذه الحقيقة — يتجلى فى مظاهر

ولائه وتوافقه لجماعات البيت والمدرسة والمجتمع . فهو رعلى بطبعه ميال للاحتشاد يحب التجمعات وهو ينزع إلى اتباع جمهور من الجماهير ويستمتع بالتجمعات التلقائية غير الرسمية التى تشمل الجنسين جميعا . وهو يستجيب لوقع جماعة من لداته يجلسون حول إحدى الموائد فى ندوة للبحث والمناقشة . وهنا يسمح الوضع الذى يتحدى استقلاله فى الرأى لكى يبلو مـدى صموده تجاه الاشتراك فى الجماعة . وهى خبرة تطورية صحية سليمة .

وما دامت له مثل تلك الميول الاجتماعية القوية ، فلم يختار أن يكون انعزاليا مقاتلا بالبيت ! الواقع أنه لا يكاد يستطيع أن يخبرنا وهو يقاسى آلام معضلة نمائية . لقد ظل يدين بالولاء لجماعة العائلة مدة طويلة . ولـكن لديه الآن ميلا جديدا نحو النضج ؛ فهو يريد أن « يشب عن » الاعتماد الزائد عن الحاجة على مراقبة الوالدين وهيمنتهم . وهذا من شأنه أن يخلق مشكلة معقدة وجدانية ، تنطوى على صراع بين الارتباط والانفصال . أنه يصطرع مع تلك المشكلة ؛ وهو ينتهى إلى نتيجتين — فهو لا يريد أن يصحب العائلة عندما يحضرون حفلة فيها نواحى نشاط عامة بالمدرسة ، وإن هو صحبهم فملا لم يشأ أن يجلس معهم . ذلك أن الارتباط والاتحاد مع العائلة يلوح كأنما هو شىء فى حالة إنحطاط دائم !

ولسنا نصف هذا الموقف بقصد السخرية منه . إذ أنه يلذع ابن الخامسة عشرة لدعا حقيقيا إبان مرحلة موجزة معينة من مراحل تطوره الانفعالى . وهو مثال واضح لعدد لا حصر له من المواقف تسببها له مشاعره الغريزية . إذ الحق أن تنبه الذاتى فى تغير دائم ؛ كما أن روحه الاستقلالية فى تقدم ؛ والجماعات المتنافسة تضغط عليه بمطالب متعارضة . وهو فى هذا الموقف الذى رويناه لك من تونا إنما يحافظ على مركزه وهيبته العامة عند لداته وأبناء سنه .

وليس معنى ذلك أنه يحاول إنـكار عائلته . فليس من الضرورى أن يتأثر ولاؤه الأساسى لجماعة العائلة لأن يوجه الآن قدراً متزايدا من الاهتمام لنخبة مختارة من الأصدقاء . وقد صار الآن أقوى فى ملاحظته لخصائص الشخصية ، داخل دائرة العائلة

وخارجها . وربما كان التمكين لصداقة تزداد قوة بينه وبين صبي آخر من الأعمال الشخصية الهامة المتبادلة بينة وبين الناس . وتتحسن فى نفس الحين علاقته بإخوته إلى أعظم حد . فهو يستشعر رضاء تاما بإعجاب الصغار منهم به ؛ وهو أطيب صحبة لمن قاربوا سنه ، كما أنه ربما أحب أخا يكبره سناً حب العبادة وهو يلحظ بطريقة تحليلية وبشكل أكثر جدية سمات شخصية والديه . وهو يحس ألماً مبرحا لأذعا إذا لم يكن والداه على وفاق . وتدل أفكاره هو عن الزواج والحرفة أن مثله العليا عن العائلة كنظام من النظم آخذة فى النضج وأنه لا يتخلى عنها .

ثم إن مطالب الحياة للدرسية يتولد عنها قدر آخر من التخفيف من الأعباء الملقاة على سمات نضج ابن الخامسة عشرة . هذا إلى أنها تظهر أيضا حدود وإمكانيات المدرسة الجيدة والمدرسة الرديئة بالنسبة لهذه السمات . وقد حاول أحد الصغار أن يلخص المسألة فى هذه الكلمات : « أحب البقاء بعيدا عن المنزل — ولكن المدارس هى بطبيعة الحال مدارس ! » ولا مشاحة أن اتجاهات التلميذ عند مستوى الخامسة عشرة كثيرة متعددة مختلفة بقدر تعدد المدارس والتلاميذ أنفسهم . وهناك رأيان على طرفى نقيض : أحدهما يقول : «المدرسة مدهشة — ونحن نحبها » ؛ — والآخر يقول : « المدرسة لا تحتمل وغير معقولة — كل شىء خاطىء » .

وبين هذين النقيضين أنماط كثيرة للمقاومة والقبول وعدد عظيم من العوامل الأساسية المتغيرة . وقد شهد المعلمون مراراً وتكراراً ما يسمى عادة باسم « ركود الخامسة عشرة » . والظاهر أن هذا الركود نوع من عقدة نفسية ذات أعراض — وهى فترة محددة من الثبوط ترجع إلى حالة النقد الذاتى غير الواضح . ولابن الخامسة عشرة طريقة يحاول بها تنقية أفكاره وتحديد وجداناته بغتة . ولكنه يجد ذلك العمل عسيراً جداً عليه ، ولذا فإنه ينحدر إلى حالة الركود على مراحل تدريجية . ولكن الركود شىء مؤقت . والمعلمون المدركون للأمور يميزون الأعراض وينهضون لمواجهة المشكلة . غير أن مراحل الركود التى لا تجد حلا يبددها قد تفضى مع ذلك إلى التردى فى « المهاوى » التى تبدأ فى التكاثر أثناء تلك الفترة العمرية بالذات .

على أن كثيراً من أبناء الخامسة عشرة يحسون بدافع يدفعهم نحو الاتجاه الإيجابى. ومن ثم فهم يستمتعون بحياة الجماعة وأنواع النشاط التعاونية التى تستطيع المدرسة تقديمها . وعندئذ تغدو الحياة المدرسية متنفساً للدافع الداعى إلى التحلل من قيود الخضوع للبيت . فترى بعض التلاميذ تنمو لديهم ولاءات حارة للمدرسة ولأفراد من المعلمين معينين. وهنا أيضا تعلن الفوارق الفردية العلمية (الأكاديمية) منها والشخصية الاجتماعية — عن نفسها وتتيح بذلك مجالا للزعامة والمواهب والقدرات الذهنية . وهنا كذلك تتكشف الميول الجديدة والاستعدادات الكامنة وتظهر فى الاستجابات المختلفة للدراسات الخاصة والمشروعات الخارجة على خطة الدراسة .

ولكن يتبقى مع ذلك طائفة كبيرة من « بطيىء التعلم » الذين لهم ميول غير علمية (أكاديمية) . وهم قوم لهم عقليات مهنية ، وعندهم حاسة مبهمة تدفعهم إلى القيام بشىء عملى يدوى يكون ذا قيمة . إنهم لا ينبذون المدرسة جانبا ، ولكنهم يتلمسون احتراما للذات يحسون أنه يعوزهم .

وتتفق مثل تلك المشاعر مع السيكولوچيا العامة لابن الخامسة عشرة . فهو ذو عقلية جدية ، وهو فى جوهره ليس معاديا للمدرسة ولا معاديا للبيت . بل الحق إنه يبدأ بطريقة غير واضحة وأولية يفكر فى منزل يلجأ فى النهاية إليه وفى حرفة يحترفها وفى سجايا زوجة يسكن إليها أو زوج ، وليس فى هــــذا ما يناقض نزوعه إلى فصل نفسه إلى حد ما عن بيته . وهو على استعداد لتعلم المزيد عن امتيازات المواطنية ومسئولياتها .

ويتضح هذه الاتجاهات التى تميز فترة ما قبل الرشد إلى أن المدرسة ينبغى أن توجه لا إلى الحاجات التطورية الفردية لابن الخامسة عشرة فحسب ، بل وأيضا إلى المجتمع والثقافة التى سيقابلها فى طريقه وتنتظره فى مستقبله المرجو . ومعنى هذا وجوب خلق اتصالات لا تنفك تذهب وتجىء بين المدرسة والفتى والمجتمع . فالمجتمع الموجه توجيها تربويا لا بد أن يمكن المدرسة من أن تزود شبابها بخبرات فى المشاركة والتتلمذ

التدريبي على إحدى الحرف ، وهما أمران لا نحتاج إليهما في شيء قدر حاجتنا إليهما في حضارتنا السريعة التغير . وسمات نضج ابن الخامسة عشرة تستدعي هذا الطراز من التربية الحديثة .

والواجب التطوري لابن الخامسة عشرة يستلزم أيضا قدراً عظيما من التربية الذاتية . فإن فرط حيويته السالف قد حل محله تنبه ذاتي قوى نفاذ وإحساس تام بالاعتماد على الذات . وهو يدرك في الحين نفسه اعتماده المتزايد على الأشخاص الآخرين وهي حالة من شأنها أن تخلق نظاما معقداً من القوى المتعارضة كما تخلق ثالوثا من التوترات . والمشكلة التربوية لابن الخامسة عشرة هي أن يحل جهد طاقته الصعوبات الناجمة عن ذلك معتمداً على إمكانياته الخاصة — مع تلقي المساعدة ! .

هذا ويصبح لسمات نضجه وخصائص سلوكه معنى إضافي إذا درست في ضوء التربية . مثال ذلك أن ميله المتكرر إلى التأمل يتولد عن رغبة في فهم مشاعره هو أو مشاعر شخص آخر فهما أضبط . فإنه ربما انسحب من إحدى الغرف لا لكي يبتعد بشخصه عن الأنظار ، بل ليقلب في عقله شيئا . فإذا كان في حالة مزاجية متشائمة فربما انطلق متثاقلا وقد صمم على شيء ، ولكن الأغلب أن حالاته المزاجية كما أومأنا آنفاً ، أخف ولا تستمر طويلا . فهي تعمل لتحل محل الخبرة المباشرة أكثر . وهي تمكنه من صوغ وجداناته حيث تحولها إلى إدراكات حسية وأحكام . وهو يفر مندفعاً أحيانا لمجرد ميله إلى عدم الاستقرار : ذلك أنه سريع السأم من الشيء المألوف كما أنه حريص على الوصول إلى خبرة جديدة .

وهو لا يبالغ في الحالات المزاجية غير المحتملة . بل هو يفضل أن يفكر . وقد يحدث أحياناً أنه ينهي أفكاره بغتة بفرقعة انتصار من أصابعه ويصيح قائلا بلهجة الانتصار : « لقد وجدتها !! » . وهو يكاد يلتذ باجتراراته حتى لقد يستطيع أن يواصلها في محفل اجتماعي وتنطلق منه على الفجاءة كلمة استهزاء (تريقة) أو قطعة من التعليق التهكمي . وهو قادر على الازدراء الذي تصحبه لغة المبالغة ماذا؟ برامج التلفزيون؟ «إن معظم البرامج زفت» . — الكتب الهزلية ؟ «إني إنما أكره مجرد فكرة قراءة الكتب الهزلية » . — جمع علب

الـكبريت ؟ « شغل صغار ! » ولـكنه مستطيع أيضا أن يستشعر فى نفسه الإعجاب بالآراء وبأبطال الأدب والحياة ويعبر عن ذلك كله .

غير أن تنبهه الذاتى والتماسه للاستقلال توازنها فى الـكفة المقابلة قدرة متزايدة على تقمص الأشخاص والمواقف . وربما استخدم التقليد التمثيلى الساخر لإسقاط آرائه وما ينطبع فى ذهنه عن المعلمين والشخصيات الأخرى التى يعرفها . وربما بعث الحياة فى تلك الانطباعات باتقان دوره وفكاهته جافة كما أنها تؤثر النـكتة . ويمضى كل من مشاهدة العرض الجارى أمامه وامتحان الذات معا جنبا إلى جنب .

وهو حساس بالحدود التى يرسمها خاصة كما أنه عرضة للارتباك والحيرة فيما يتعلق بقواه ومسئولياته . حتى إذا أسلمه ذلك إلى نقص اطمئنانه الذاتى ، أقبل بلهفة على الارشاد والمشورة التفسيرية ، وبخاصة المشورة التى لا تصدر عن دائرة البيت . وهو شديد الاهتمام بشخصيته بحيث يجنح أن يجعل من نفسه عالما نفسيا متعدد الجوانب دون مساعدة من أحد . ولعله قد بلغ سنا يحتاج فيها إلى معرفة موضوعية بالسلوك البشرى والطبيعة البشرية . وما أسرع ما يصبح شخصا له قابلية للتربية بفضل تنبهه الذاتى الذى أصبح ظاهرا فى اتجاهات عديدة .

وإذا وضعنا كل شىء موضع الاعتبار حكمنا بأن ابن الخامسة عشرة شاب معقد إلى حد ما . فهو بالتأكيد معقد وأكثر تعقيدا من ابن الرابعة عشرة السعيد المنبسط المتحمس ، كما أنه لم يصل بعد إلى تـكامل ابن السادسة عشرة الأكثر هدوءاً وسلاسة . ولـكنه يمر فى دور تنظيمها ، كما أنه وهو فى أثناء هذه العملية نفسها يكشف عن تعدد سماته الآخذة فى النضج وعما ينجم عنها من توا ترت فى حياته الداخلية الذاتية . ونحن حين نرسم المصور الخاص به لا نتمثله كصورة راقية مكبرة لابن الرابعة عشرة ، بل بالحرى كابن سادسة عشرة فى دور التـكوين . كما أننا عند ما ننظر نظرة أدق إلى مصور نضج ابن السادسة عشرة ، فسنجد دون ريب أنماطاً عديدة للسلوك كانت إلى حين قريب جدا مرسلة سائبة لا رابط لها . لقد أخذت كثير من جدائل النماء المتبادلة تنتسج بعضها مع بعض أثناء السنة الخامسة عشرة الانتقالية . ولذا فالذى يحدث أن السادسة عشرة تؤدى إلى الوصول إلى عوامل تهدئة واستقرار جديد .

سمات النضج

جهاز الحركة الكلي

ربما دار بخلدنا في بعض الأحايين أن نتساءل :هل كان من محض الصدفة أن يطلق على سن الخامسة عشرة عندنا بالمدارس اسم السوفومور[١] أي طالب السنة الثانيـة ، (أم الواقع أن تلك التسمية المشتقة في اليونانية من اسمى الحـكمة sophos والحماقة moros قد صيغت لتنطبق على الخامسة عشرة ؟ إن الحديث والجدل وهما زبدة التعبير عند ابن الخامسة عشرة يعطيانه التدريب اللغوي الذي يريده ذلك « الحـكيم الأحمق» .

ولـكن المرء منا لا يثب في فترة قصيرة من الزمن إلى أقصى قدرته على الحديث ، كما أنه ليس من الممكن أن تسمح له جميع المناسبات باستخدامها إلى أقصى حد . بل لابد من تعبئـــة القوى الداخلية قبل أن يتحقق الوضع السليم الذي لابد منه لقوة ابن الخامسة عشرة الفريدة في فن المنازعة والمجادلة .

ولو أنك شهدت ابن الخامســة عشرة يدخل غرفة وهو يجر قدميه جرا قد بدت عليه الاستهانة وعدم المبـالاة وتجلت في تعبير وجهه نظرة تائهة بعيدة، مادار بخلدك قط أن مثل تلك القوى تـكمن بين جوانحه . حتى إذا أضاف ابن الخامسة عشرة إلى عدم مبـالاته العامة نغمة عداء وخصومة واحتقار ، كان أول ما يتبادر للمرء الرغبة في عدم الاتصال به كثيرا .

وينبغي أن يمنح ابن الخامسة عشرة شيئا من الوقت . وينبغي أن نسقيه أثناء تحيتنا له من نفس كأس الفتور وعدم المبالاة التي يعامل بها الآخرين . فيصدمه ذلك ويرده إلى جادة التنبــه الذاتي . فيظهر أدبه عند ذاك ويبرز ، ويمكن تقبله بما يستحقه من الأدب .

والتصرف الهادىء لابن الخامسة عشرة وهو جالس في كرسيه ، أثناء المقابلة أو الامتحان ، يدل على أن قوى

---

(١) إن لفظ السوفومور Sophomore يطلق على طلبة السنة الثانية بالمدارس الأمريكية (المترجم)

داخلية قد أخذت تعمل عملها ، وأنه يفكر فى الأمور أو ينظمها فى دخيلة نفسه . وحتى وضعة جسمه الحالية من السيمترية ، أى ميله نحو عمله بجانب واحد من جسمه ، — تشير إلى أنه يعمل على تحديد وجهة لسلوكه .

وقد يبدو ابن الخامسة عشرة فى بعض الأحيان كأنما فقد كل قدرة على الخروج عن حالة الاعتزال . فكأنما لم يعد لديه شىء يفضى به للغير : فهو لا يستطيع أن يجيب إلا فى مقاطع مقتضبة.. أما صوته فهو من شدة الانخفاض بحيث لا تكاد تسمعه ، كما أن وجهه لا تعلوه البتة ابتسامة ولو ضعيفة ولا تعبير عن حزن . فمتى كان ابن الخامسة عشرة (وهو فى الأغلب صبى) فى هذه الحالة المزاجية ، لا يمكن الفوز منه بأى شىء . على أن هذا ابن الخامسة عشرة نفسه الذى يبدو فى مثل هذا العزوف عن الاتصال بالغير والحديث ، ربما عاد إليه دبيب الحياة حين تعمل يداه فى صنع جهاز للراديو أو يدرب عضلاته فى ملعب لكرة القدم .

ومع ذلك فابن الخامسة عشرة يحمى عادة وينشط إذا أعطى الوقت الكافى .

ويكون سلوكه كاشفا بوجه خاص عن نفسه أثناء موقف المقابلة المعيارى الذى يكون فى مستوى معين من العلاقات — والمحايد نوعا ما . فعندئذ ترتسم على وجهه الانفعالات العابرة: فهو فكه فى إحدى اللحظات ومتهكم أو متشكك فى التالية . . وتطيف بأسارير وجهه تكشيرات قد تكون مسلية له ولغيره . وربما تهكم أو هزأ مما تنجزه يداه من أعمال (« شىء عظيم جدا ! ! ») وربما ابتسم لنفسه عندما تتخذ الأحداث دورتها (« انتظر ثانية واحدة ! ! ») وقد يبدو الحزن على أسارير وجهه أحيانا ؛ فتجىء لحظة يبدو فيها كأنما يوشك أن يذرف الدموع . وفمه كثير الحركة جدا . فربما جذب شفتيه للداخل أو مطهما للخارج أو رفع ركنا منهما أو خفضه . وبالمثل يرتفع حاجباه وينخفضان ، إما معاً أو كل منهما على حدة .

وتصدر أجوبته على الأسئلة ببطء ، لأنه يريد أن يصوغ إجابته بعبارة مضبوطه ، وربما نمت تعبيراته الظاهرة عما يجرى فى سريرته من حركة وانفعال داخلى.

وهو يبدأ أولا بالتوقف ثم يضحك قليلا ويشهق ويشرع فى الإجابة ويتوقف ويضحك ثانية ، وأخيراً يقدم جوابا مختلفاً تماما عن الجواب الذى هم بقوله أولا . وربما كشف عما هو فيه من توتر بهرش رأسه أو الحفر فى وجهه .

ولكن أبناء الخامسة عشرة لا يحمون وينشطون جميعاً بمثل هذا البطء أو يجدون مثل تلك الصعوبة فى جمع شتات أفكارهم . فالبنات بوجه خاص يستطعن مواصلة الحديث الودى مع بالغ رشيد، حديث يفيض مده ذهابا وجيئة . وهن يحببن أن يحثن فى مسائلهن الشخصية، وأن يتلقين النصح . أما الصبيان فقوم يتجاوزون فى الأغلب مسائلهم الشخصية الخاصة وينتقلون إلى البحث فى موضوعات أعم وأكبر . فإن عدداً كبيراً من صبيان مجموعتنا أظهروا اهتماما بجهود المعهد وبالامتحان التطورى . وكانوا يريدون أن يعرفوا ما كشفته الاختبارات وكيف كشفت هذه الاختبارات عن شخصياتهم .

والصبيان والبنات يهتمون بشخصياتهم كما أن لهم اهتماما لتلقى المعلومات والاستبصارات . وهم يستجيبون إزاء هذا النوع من البحث استجابة حقيقية مثالية ، وغالبا ما يشكرون المتحدث إليهم عند ما ينصرفون . ولكن ما يكاد يبدو لابن الخامسة عشرة أن المحادث يدس أنفه دسا مباشراً أكثر مما ينبغى فى شئونه الخاصة ، حتى ينكمش عنه ويتباعد .

الصحة

مع أن كثيراً من أبناء الخامسة عشرة يتمتعون بصحة بين الجيدة والجيدة جداً ، فإن أنواع الأمراض التى كثيراً ما تصيبهم تدل على ما يمكن أن يبلغه القلق الداخلى لابن الخامسة عشرة من اضطراب وعمق . فقد يحدث الرعاف أو تبدو لأول مرة الإصابة بزيادة إنتاج الكريات ذوات الخلية الواحدة (المونونيوكليوسس) (mononeuocleosis) ، وهو مرض من أمراض الدم أكثر شيوعا فيما يعقب ذلك من أيام المراهقة .. وربما ساءت حالة حب الشباب عند ابن

الخامسة عشرة بدرجة يحتاج معها إلى العناية الطبية . وربما أصابه الصداع مرتبطا أحيانا ارتباطا ظاهرا بالامساك .

ولا يقتصر الأمر فقط على هذه الأعراض الدالة على تغيرات بدنية نوعية أكثر ، بل إن هناك أيضا بعض دلائل على تغيرات نفسانية شديدة فهذه هى السن التى قد يشكو فيها الأطفال من إصابتهم «بالعمى المؤقت» الذى يصيبهم قرب الامتحان . وقد يحدث أحيانا أن يذكر أحد أبناء الخامسة عشرة أنه يحس كأنما يتمزق عقله بددا أو أنه « قد أوشك أن يذوب ويضمحل » . فى مثل هذه الأوقات تجده ربما حدق ببصره إلى الفضاء وبدا كأنما قد فقد كل اتصال بعالم الحقيقة . ومع أن سلوك ابن الخامسة عشرة « السوى » يمكن أن يكون سلوكا شديد التطرف ، كما تؤكد ذلك أجزاء أخرى من هذا الكتاب ، إلا أنه ينبغى استشارة أحد الإخصائيين فى الطب العقلى ، عند ما تصبح الأعراض باعثة على الانزعاج — للوالدين أو لابن الخامسة عشرة نفسه :

متنفسات التوتر

يشتد التوتر فى ابن الخامسة عشرة ويعبر عنه بعدد جم من الوسائل الصغيرة. وربما مرت يد ابن الخامسة عشرة فقط على وجهه أو لوت شعره ، ولكنها فى الغالب تدل على ما يعتلج فى نفسه من المتاعب والتأزم . فهو يحفر فروة رأسه بأظافره ويهرش الدمامل فى وجهه ويتلمس بشرته . وهو يفقع أصابعه . وإذا كان يلبس خاتما لواه . أو لعله يعبث بمبراته يشحذها أو يكشط بها أو يحفر عن غير وعى منه — فى الأثاث أو يمزق بها الملاءات . (وهو يفضل فراشه ليقوم فيه بعمليات الحل والتركيب ولذلك يكون الفراش عرضة للتلف) . وكأنى بيديه منشغلتين شغلا دائما لا نهاية له ، فهما لا تنفكان تلعبان بشىء من الأشياء . ويثور الوالدان بوجه خاص عندما يعبث ابن الخامسة عشرة بالشموع أو السكاكين على مائدة الغداء أو يلعب بالسكرية أو الملاحة . وتحتفظ بعض الأمهات بمقدار من البندق غير المقشور تضعه فى مكان قريب لتشغل به ابن الخامسة عشرة . وهؤلاء الأمهات يرغبن فى

القيام بتنظيف القـــذارة الناجمة عن قشر البندق ، أملا فى إحلال هذا النوع من النشاط محل طرق أخرى للتعبير عن التوتر كالتدخين مثلا .

ويبدو أن لدى ابن الخامسة عشرة (على حد تعبير علم النفس) عتبة فارقة(١) threshold منخفضة ، فهو يستجيب لجميع أنواع التنبيه . وهو حساس بوجه خاص إزاء الضجيج وربما اضطر أن يغلق باب غرفته عليه لكى يذاكر دروسه . ويبدو أن أخذ الفيتامين ب فى صورة ما ، يرفع عتبة الاستجابة لهذه المؤثرات المتنوعة . وعندئذ يصبح ابن الخامسة عشرة أقل عرضة للتهييج العصبى وتقل شدة حساسيته .

البصر

يميل ابن الخامسة عشرة أن يجيد التنظيم تماما من حيث البصر كما أن مهاراته البصرية تكون جيدة عادة . ويحتفظ أبناء الخامسة عشرة بنفس المقـــدار الأول من طول النظر hyperopia الذى كان لهم فى الرابعة عشرة ، كما أن قدرتهم على التركيز البؤرى تظل على جودتها أثناء أداء الأعمال القريبة بل وحق تصبح أحسن مما كانت عليه . وتتصف استجابات ابن الخامسة عشرة بالثبات والاستمرار فى التحديق وهى من صفات البالغ الرشيد . مثال ذلك أنه فى أثناء القراءة بينما كان نصف المجموعة تقريبا يركزون بؤرة أنظارهم فى الرابعة عشرة على نقطة فى الفضاء أقرب إليهم من الصحيفة المطبوعة ، ويركز النصف الآخر نظره وراءها ، — فإن الغالبية تصبح فى الخامسة عشرة وإذا هى تركز أنظارها على نقطة أقرب إليهم قليلا . وهذه دلالة أخرى على ميلهم إلى أن يقربوا الأشياء نحو أنفسهم أى أن يجذبوا إلى أنفسهم ويتجهوا نحو ذواتهم .

وكلل البصر أكثر الأعراض المرضية شيوعا فى تلك السن ، وإن لم يكن من الضرورى أن يكون ذلك نتيجة لانحرافات ملحوظة فى البصر . ومع ذلك ، تحدث بالفعل انحرافات من أمثال ضعف الضبط الحركى البصرى ، وتوقف

(١) العتبة الفارقة هي الدرجة التي عندها يبدأ منبه فى إحداث استجابة — [المترجم]

إحدى الأعين عن الإبصار ، أو ضعف المزج بين الصور المرئية بالعينين .

ويميل ابن الخامسة عشرة إلى الهدوء التام أثناء الكشف الطبي لاختبار البصر . فهو لا يدلي متطوعا إلا بأقل المعلومات ويبلغ الشيء القليل حتى فى إجابته عن الأسئلة المباشرة عن نواحي نشاطه البصري. وتنقص كمية القراءة عند بعض أبناء الخامسة عشرة بالإضافة إلى ما أصابهم من نقص منذ الرابعة عشرة كما أنها تظل مقصورة على المجلات . ولكن ربما حدثت زيادة ملحوظة فى القراءة حوالى سن الخامسة عشرة والنصف ، يوم يبلغ بعضهم درجة جديدة من الصفاء الذهنى .

وحتى لو أظهر الفحص البصرى لأبناء الخامسة عشرة من انحراف البصر ما يستدعى المساعدة الطبية ، فربما لم يكن ذلك هو وقت تقديمها . وغالبا ما يقع بين ابن الخامسة عشرة وبين الكبار خلاف عظيم ، كما أن استياءه مما يطلب منه فى هذا الصدد ، ربما قضى على أى برنامج للعلاج يحس أنه قادر على الاستغناء عنه . فابن الخامسة عشرة سيرضى بلبس النظارة إن كان ذلك ضروريا ، وإن أحس أنها شيء يضايق ، وربما أكد أنه لا يحتاج إليها فعلا .

التطور البدنى والتنبه الجنسى – البنات

لا تحدث الخامسة عشرة أية تغييرات جديدة تسترعى الانتباه على بدن معظم البنات ، وذلك لأن معظم خصائص النضج البدنى تكون قد ظهرت من قبل . ولكن يبدو أنها تجلب بدلا من ذلك نوعا من الإتمام والصقل النهائى لمظاهر النموالتى بدأت من قبل . وتزداد هيئة البنات قربا من شكل المرأة ، مع زيادة أخرى فى استدارة الخطوط المحيطية ، وهو تطور يكاد يزيد من نضارة هيئة كثير من البنات .

وتستقر دورة الحيض على مدة قوامها ثمانية وعشرون يوما إلى ثلاثين أو اثنين وثلاثين . ويتراوح طول فترة الحيض فى العادة

بين خمسة أيام وسبعة . وربما حصل نقص عام فى حالة التوتر التى تسبق الحيض ، ولكن ربما زاد أيضا عدد مرات الإصابة بالصداع قبل الحيض والدوران الجلدى ، وبخاصة فى الوجه. وتميل ابنة الخامسة عشرة إلى استخدام عدد أقل من الفوط الصحية .

التطور البدنى والتنبه الجنسى ـ الصبيان

يكون الصبى العادى قد بلغ عند الخامسة عشرة حوالى ٩٥ فى المئة من طوله بالغا . ويصبح حجم جسمه من الضخامة بحيث يبدو وجهه الآن أصغر حجما بالنسبة لبدنه كله ، وإن كبرت تقاطيع وجهه فعلا وقويت بدرجة ظاهرة .

ويبلغ عضو التناسل لديه بالفعل تقريبا حجمه عند البالغ الناضج ، وينمو الشعر فى ساعديه نموا كاملا تقريبا ، وربما نبتت بضع شعرات فى منطقة الصدر . ويصير شعر وجه ابن الخامسة عشرة أخشن مع زيادة نموه على جانبى الذقن وفى السوالف أمام الأذنين وانتقاله بالتدريج إلى طريقة الانتشار المعروفة فى لحية البالغين .

والصبيان يتقدمون نحو أنماط النشاط الجنسى الأكثر استقرارا ، كما أن انتصابهم يصبح الآن أضيق حدودا نوعا ما . فهم الآن أقل تأثرا بالمنبهات البعيدة والتى لا صلة لها بالجنس . فربما كان الانتصاب قبلا يحدث نتيجة لتهيج لا علاقة له بالشبق — كالخوف أو الغضب — أو بسبب حركاتهم هم العارضة وهم جالسون يلوون أرجلهم فإن مثل تلك المنبهات تصبح فى الغالب هنا غير كافية . ومع ذلك فإن أنواع النشاط الموجهة كالرقص قد أخذت تسبب الميل إلى الاستجابة الجنسية .

والأمهات يقررن فى هذه السن أنه يقل عثورهن على الروايات الجنسية الخارجة ملقاة هنا وهناك أو مخبأة تحت الوسائد — ولكنا لا نستطيع أن نقطع بالتحقيق فيما إذا كان ذلك يدل على نقص فى الاهتمام بتلك المسائل أو زيادة فى الحيطة . ومع ذلك فربما كان كل ما فى الأمر أن الخيال الذى لا يستعين

بشيء خارجي قد أخذ يصبح منها كافيا بدرجة أكثر ، وذلك لأنه يلوح أن أحلام اليقظة قد أصبحت مصدرا أقوى كثيرا للانتصاب مما كان فى الرابعة عشرة .

والظاهر أن عدد مرات الاستمناء تميل إلى الزيادة قليلا فى سن الخامسة عشرة . ويقل كثيرا فى هذه الأيام عدد الصبيان الذين يحطمهم بشدة الصراع الناشب فى النفس حول ما يزعمونه لهذه العادة من أضرار ، ومع ذلك فإن كثيرا منهم يحسون قطعا بالقلق من جراء ذلك . وقل من أبناء الخامسة عشرة من يستطيع بحث الموضوع مع أبيه بطريقة تنم عن التفكير ، وربما سرى كثيرا عن هؤلاء الصبيان إذا طمأنهم أبوهم وبين لهم أن النشاط المتواصل قد لا ينقص من الباعث على الاستمناء ، ولكنه ربما ساعد على تخفيض انشغال بالهم من أجله وزيادة ضبطهم له .

٢ - العناية بالذات ونهج الحياة اليومية

الأكل

ابن الخامسة عشرة وإن كانت له شهية طيبة ، إلا أنه يحدث له تحول ملحوظ من حيث اهتمامه بالطعام . فهو بنفسه يقول : « كل ما فى الأمر أن الطعام لا يبدو مثيراً للاهتمام كما كان » ، كما أنه يتذكر ذلك الوقت الذى كان فيه « الأكل هو أحب شيء إليه » . إنه يستطيع أن يتذكر الفترة التى كان فيها الطعام هاما لديه بدرجة فظيعة ، وإلى أى حد كان يفكر فى الطعام ، وبخاصة عند ما كان فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة . والآن ربما حدث أحيانا أن ضعف الشهية يسبب بالفعل نقصا فى الوزن . بل إنه قد يكره الزمن المخصص للأكل . ومن المحقق أن هذا التحول لا يصدق تماما على جميع أبناء الخامسة عشرة . إذ أن هناك من لا تزال شهيتهم قوية جداً ، ـ وهم من الد ، ان خاصة ـ فى ساعة الطعام وبين الوجبات ، وإن كانوا فيما عدا ذلك لا يعيرون الأكل إلا قسطا قليلا من وقتهم وتفكيرهم .

وهناك بوجه خاص تغير فى ميل

ابن الخامسة عشرة للحلوى واستهلاكه لها . وربما أصبح من الممكن صرف النظر عن التحليات . حيث أصبحت « المواد السكرية » بوجه عام لا تلقى قبولا ولا محبة . وربما قال ابن الخامسة عشرة إنه لم يذق مثلجة الفواكه والعصير طيلة السنة السابقة ؛ وأنه « قد سئمها وإن كانت لذيذة ممتعة » .

ولابن الخامسة عشرة رأى محدد وقاطع تماما فى شأن ما يجب ، وما لا يجب أن يأكله . وهو واقعى إلى حد ما فيما يذكره هنا . وقد ينفره أحيانا من الطعام الدهن الذى على اللحم أو طعم الهلليون (الأسبرج) الجيلاتينى . ولعل الهلليون والسمك هما الطعامان اللذان يجمع الكل على كراهيتهما بصفة عامة . ولكنه يدرك أيضا أن أنواعا معينة من الأطعمة التى قد يحبها هو ربما كانت ضارة به . وربما كانت حالة حب الشباب لديه ميزانا وبارومترا يكشف عما تناول من قطع الشكولاته . وهو يدرك العلاقة بين الأمرين ويستطيع أن يتحكم فيما يتناوله منها . وهو بالمثل قادر على عمل نظام (رجيم) دقيق لغذائه يتناول كلا من المقدار الذى يأكله أو الأطعمة المعينة التى ينبغى له أن يأكلها أو لا ينبغى له . وربما رغب فى تقليل وزنه أو زيادته لكى يمكن اختياره لرياضة ما معينة .

وأكبر شاهد على نقص ميل ابن الخامسة عشرة للطعام ، هو أنه يصبح أقل إفراطا نوعا ما فى تناول الوجبات الخفيفة . وهو يتذكر الزمن الذى اعتاد فيه منذ سنوات قليلة أن يكون كالحشرة النهمة فيما يتناول من لهنات ساعة النوم ، ولكنه « لا يزيد على ذلك أبداً » . وربما كان السبب فى ذلك أن تناول اللهنة يجعله يظل مستيقظا ، ولكن السبب الرئيسى فى عدم تناوله اللهنات بكثرة أنه لا يكون جائعا . والطبخ الآن أقل إثارة لاهتمام ابن الخامسة عشرة مما كان بدرجة كبيرة . أجل إنه يطبخ إذا اضطر إلى ذلك أو إذا كان جائعا ، ولكن ليس عن رغبة منه أو محبة للطبخ .

النوم

موعد النوم ـ تصبح أنماط سلوك ابن الخامسة عشرة فى النوم أكثر

مرونة بكثير منها قبلا . فهو يستطيع تغيير وقت نومه حسب احتياجاته . وهو وإن كان فى أكثر الأحيان يأوى إلى فراشه بين العاشرة والعاشرة والنصف مساء ، إلا أنه يستطيع الذهاب إليه فى وقت مبكر قد يصل إلى الثامنة والنصف إذا كان لديه موعد فى الصباح الباكر أو كان عليه المرور لتوزيع الصحف[1] . أو يمكنه أن يظل ساهرا حتى الساعة الأولى أو الثانية صباحا ليحضر حفلة رقص ، دون أن يبدو عليه التعب كثيراً .

وهو الآن أيضا أكثر شعورا بحاجته إلى النوم . فهو يعرف متى يكون متعبا ، ومتى يكون «عقله قد أخذ فى الركود» . وهو لا ينفذ دائما خطته فى الذهاب للفراش بإرادته فى ساعة معينة . إذ أنه ربما يظل مع ذلك بحاجة إلى التذكير ، وربما يظل مدة مديدة «يتسكع هنا وهناك دون أن يصنع شيئا» ولكنه يعرف حق المعرفة أنه سيكون عصبيا سهل الاستثارة إذا لم يحصل على قسط كاف من النوم . ومن حسن الحظ أنه بما وهب من وسائل نوم أكثر مرونة يمكنه أن يعوض النوم بأخذ إغفاءة أو بزيادة مدة نومه يوم عطلة آخر الأسبوع .

والعادة أن ابن الخامسة عشرة يستغرق فى النوم دون صعوبة كبيرة جدا . وربما ظل يفكر فى أشياء كثيرة حتى تصبح أفكاره أكثر غموضا ، فيستغرق فى نومه . وربما تذكر كيف تختلف أفكاره ساعة النوم عما كانت عليه فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة يوم كانت له مغامرات غير مهذبة وغير اجتماعية من أمثال الفرار من الأعداء .

النوم — ابن الخامسة عشرة نوام يجيد النوم . فإن هو استيقظ لسبب من الأسباب ، استطاع فى العادة أن يعاود النوم فورا . والأحلام مسألة فردية ، ولكن أحلامه الآن تصبح على

(١) يشتغل كثير من أبناء أمريكا بتوزيع الصحف قبل الذهاب للمدرسة .

الجملة أقل كما أنه غالبا ماينساها . والأغلب أن تطيف به أحلامه قبيل ساعة الاستيقاظ ، وتوشك « أن تبدو أقرب إلى الأفكار شبه الشعورية منها إلى الأحلام العميقة أثناء الليل » . ومن الأحلام مايكشف عن حالة من الجمود ومن العجزعن تحريك الأذرع أوالمشى — أى شعور بالعجز وعدم القدرة على شىء وقد يحس ابن الخامسة عشرة بشىء من الاستحياء فى بعض الأحيان من ناحية قص رؤياه على الناس ، خشية أن تنم عما فى سريرته أكثر مما ينبغى. وإن بنتا فى الخامسة عشرة حلمت بأنها لم تستطع أن تمد يديها لتمسك بثديى أمها سمعت وهى تقول : « حسنا — لاشك أن عالم النفس يستطيع بكل تأكيد أن ينتهز الفرصة ويجعل من هذا الموضوع مشكلة شديدة الارتباك والتعقيد ! » .

الاستيقاظ — ليس الاستيقاظ والنهوض من الفراش مشكلة عويصة جدا على معظم أبناء الخامسة عشرة . فلو تركوا ينامون حتى يشبعوا نوما فإن كثيرين منهم لايستيقظون حتى الساعة التاسعة أو العاشرة . ولكن إذا اضطر ابن الخامسة عشرة أن يستيقظ فإنه يستطيع أن يفعل ذلك وإن أحس بغشاوة تغشى عقله قليلا . وغالبا مايضبط ساعة المنبه ليوقظ نفسه ، وإن احتاجت قلة منهم إلى مزيد من الحث على النهوض من شخص آخر . وهناك عدد كبير لابأس به يستيقظون من تلقاء أنفسهم فى نفس الساعة كل صباح ، كالسابعة صباحا ، وإن كانوا ربما دخلوا فراشهم فى ساعة متأخرة تماما . ولكنهم إذا لم يضطروا للنهوض، فربما عاودوا النوم بسعادة .

الحمام :

إن التقدم إلى مرحلة النظافة التى يمكن الاعتماد عليها إلى حد ما فى الرابعة عشرة أخذت تبدو فيه حركة تقدم أخرى إلى الأمام فى الخامسة عشرة . وهناك بنات كثيرات ممن يحسن تحمل المسئولية يتولين جميع أوجه نظافتهن والعناية بأشخاصهن دون تذكير . فهؤلاء البنات ربما استحممن كل يوم، ولكن بعضهن لايستحممن إلا كل يومين أو ثلاثة . وهن يستخدمن مزيلات الروائح حسب الحاجة . كما

يستخدمن طريقة التدليك بالشامبوه ويصففن شعورهن مرة كل أسبوع . وهن يعتنين بأظافر أيديهن .

والأغلب أن الصبيان هم الذين يحتاجون عموما إلى التذكير بأمر نظافتهم ، وهم الذين يميلون للتلكؤ واللعب — « حسنا لقد دلكته بالشامبوه فى المرة السابقة » ، — أو « لقد أخذت دشاً اليوم بالمدرسة » . ولكنهم على الجملة يستجيبون للتذكير كما أنهم أقل مقاومة وامتعاضا مما اعتادوا أن يكونوا فيما سلف ، وربما كانت العناية بأظافر اليد لاتتم إلافى «آخر لحظة» ، ولكنهم يعمدون فعلا إلى استخدام قصاصات الأظافر ، وإظهار شىء من الاهتمام بالمحافظة على نظافة أظافر أيديهم .

وهناك نغمة جديدة تظهر فى مسالة الاستحمام هى أن ابن الخامسة عشرة يستطيع الاستحمام وسط النهار كلما دعت الحاجة إلى ذلك كشأنه تماما حين يستطيع أن يغنى فى منتصف النهار . ويمثل هذه المرونة يظهر ابن الخامسة عشرة أنه قد سار شوطا طويلا فى بعده عن الوقت الذى كان فيه فى العاشرة حيث يجر إلى حوض (بانيو) الحمام جراً .

الثياب والعناية بالغرفة :

يقل بوجه عام فى الخامسة عشرة الاهتمام بالثياب والحديث عنها . فإن انتشار وتعدد الثياب والشغف بها وهما اللذان تمتاز بهما الرابعة عشرة قد صارا الآن فى حالة تناسب أحسن . لقد قل طلب الملابس الكثيرة . وابن الخامسة عشرة يعرف ما يريد من الموديات والألوان . فأما حبه لما يشتريه بيده فشىء عظيم الأهمية لديه . وربما سأل الآخرين رأيهم فيها ، وخاصة رأى أمه ، ولكنه فى خاتمة المطاف يشترى ما يريد ويرتديه .

وليس ابن الخامسة عشرة متنبها فقط إلى شكل ثيابه ومظهرها من الخارج ، بل هو متنبه أيضا إلى الإحساس الذى تبعثه فيه داخليا . والأمر كما لاحظت إحدى بنات الخامسة عشرة ، « لا أستطيع أن استمتع بوقتى إذا كان شىء من ثيابى غير مضبوط أو إذا كنت غير مرتاحة فيها » . وهناك فى الغالب حب ظاهر لبعض أردية معينة . « إنه يحب معطفه فى هذه السنة ، حتى ليخيل إليك أنه لم يكن له معطف أبدا » . أو ربما كان حبه موجها لقميص معين

أخضر من الصوف . ومهما يكن الأمر ، فإن اختياره مستبعد منه كثير من الألوان الزاهية البراقة ، والأغلب أن يتجه نحو اللونين الأخضر والأصفر. والألوان البهيجة المفرحة من الأسباب التي ربما دارت من أجلها المجادلة بين الصبيان وأمهاتهم . وربما أظهر أبناء الخامسة عشرة ميلا إلى الخجل من كل فاقع من الألوان .

ومع ذلك فإن بعض صبيان الخامسة عشرة يمكن أن يكون لنزواتهم نحو ثيابهم أكبر سلطان عليهم . وهم يتبعون المجموعة دون أدنى تفكير ، فيرفعون ياقاتهم إلى أعلى أولا ، ثم يشمرون سيقان بنطلوناتهم أو يجعلون أبزيم الأحزمة من الخلف . وربما أجريت تغيرات الزى هذه كل أسبوع أو أسبوعين . وربما دارت بخلد ابن الخامسة عشرة بين حين وآخر رغبة في الحصول على شيء خارج تماما عن المألوف كقميص عجيب اللون أو كحذاء راعى بقرأدخلت فيه بعض التعديلات . هنا يضطر الآباء إلى التدخل لاللحيلولة دون إنفاق المال بحمق شديد ، بل وأيضا لمساعدة ابن الخامسة عشرة على إدراك ما يختاره إدراكا أوضح .

والآن يصبح الجميع حتى قليلو الدراية في عملية الشراء أكثر صبرا على قياس الملابس عليهم . فلا يصحب الوالدان ابن الخامسة عشرة إلا في المشتريات الكبيرة وحدها . وابن الخامسة عشرة هو الذى يبت في معظم الأحوال في المشتريات بينما تكون وظيفة الأم هي الموافقة . ويتم الخروج للشراء الآن في الأغلب مع القليل من الخلاف والارتباك . إذ يلوح أن أذواق الوالدين قد تصل إلى درجة طيبة من الاتفاق مع ذوق ابن الخامسة عشرة . ولا يزال ابن الخامسة عشرة واقعا تحت تأثير ما يرتديه الآخرون . ولكن البنات يبدأن في أخذ بعض أفكارهن من المجلات أيضا .

ويقوم ابن الخامسة عشرة بالمشتريات الصغرى بمفرده . والبنات اللاتى كن يلبسن الجوارب (الحريمى) الطويلة في مناسبات معينة فقط بين حين وآخر في الرابعة عشرة لا يفتأن يرتدينها باستمرار في الخامسة عشرة . واختيار الملابس الداخلية هام بوجه

خاص لدى البنات ، وكذلك ما يلبسنه في أيام الألعاب الرياضية .

والعناية بالملابس تتحسن تحسنا مطردا . وهناك بطبيعة الحال الصبيان المهملون إهمالا لا ينقطع . والبنات لا يحسن العناية بثيابهن بصورة عامة فحسب ، بل ربما تقبلن أيضا مسئولية غسل ثيابهن الداخليـــة وجواربهن القصيرة أو الطويلة وكى ملابسهن . ولذا فإن فواتير محلات الغسل والتنظيف تقل عما كانت عليه فى الرابعة عشرة .

وإلى جانب العناية بالثياب تتحسن العناية بالغرفة باطراد . ولم تعد الثياب تلقى فى أرجاء الغرفة بكثرة كما كان يحدث أولا . إذ يتحسن حال بعضهم من هذه الناحية تحسنا عظيما ، ولـكن لا يزال هناك أصحاب الجهود المبددة الذين يواصلون الابقاء على غرفتهم مشوشة جدا . وينزع ابن الخامسة عشرة أن يكون وســـطا فى عنايته بغرفته : « إنها ليست مشوشة ولـكنها ليست مهندمة جدا » .

النقود :

هناك اختــــلاف كبير فى أنواع المصروف فى الخامسة عشرة يرتبط باختلاف المطالب الفردية وباختلاف فـكرتهم عن النقود . فإن المصروف الأسبوعى الذى يتراوح بين دولارين إلى ثلاثة مرض تماما لعدد منهم . وابن الخامسة عشرة يؤدى واجبه حيث يتعقب بعناية كل ما أنفق ويتعرف الأوجه التى أنفق فيها . والمصروف الشهرى الذى يتراوح على وجه التقريب بين عشرة دولارات وخمسة وعشرين يصبح شائعا أكثر قليلا ولـكن قليلا من أبناء الخامسة عشرة يفضلون ألا يحصلوا على أى مصروف محدد بالمرة ، وذلك لأنه يصعب عليهم جدا أن يحسبوا مقدما مقدار ما سيحتاجون إليه .

وهناك الذين يودعون بالمصارف مبالغ كبيرة إلى حد ما ، مصدرها فى العادة ما كسبوه بكدهم ، ولـكن لا يزال هناك المهملون ، والذين لا يعرفون قيمة النقود . ومع ذلك فالعادة أن يظهر شىء من التحسن لو شرع ابن الخامسة عشرة فى اكتساب نقوده الخاصة بنفسه . ذلك أن إدراكه أن النقود تمثل قدراً معينا من وقته وعمله الخاص ،

يعود عليه بالشيء الكثير من انصلاح الحال حتى عند المقتصدين أنفسهم .

وعلى الإجمال ، فإن ابن الخامسة عشرة متيقظ الضمير إزاء النقود . بل إنه ميال حتى أن يكون — على حد قولهم — اسكتلنديا صغيرا (أى بخيلا) ، كما أنه شديد الحرص على أرصدته . فقد بدأ يكتسب حاسة بالقيم لا بأس بها .

العمل :

لا يزال ابن الخامسة عشرة يساعد فى أعمال البيت ، ولكنه لم يعد يساعد بقدر ما كان يفعل أثناء السنتين المنصرمتين . ذلك أنه ليس لديه فى الغالب الوقت اللازم للمساعدة ، كما أنه ليس لديه الميل إلى ذلك . فإنه ربما كان يعتمد على حالة مزاجية يريم عليها الرغبة فى العمل أو الإلهام . وربما يتدخل العمل فى علاقته بأمه ويؤثر فيها . وذلك كما عبرت إحدى البنات : « أنا وأمى على خير حال من الوئام إذا لم يكن هناك عمل » .

وهو يعمل على خير وجه إذا كان خارج المنزل ، كما أنه يستطيع الآن أن يجد عددا من الأعمال التى تناسبه . ويعمل الصبيان كأجراء أو غلمان بملعب الجولف ، أو ينصبون الأمياس فى لعبة الكرة الخشبية المدحرجة أو يعملون بالمتاجر . وهم يستطيعون أن يتغلبوا على مكاره العمل ومشاقه ، من أجل الأجر الطيب الذى يتقاضونه عليه . وربما كان الرسم أحد قدراتهم الجديدة .

٣ — الانفعالات

ما أشبه تقلبات الانفعالات من بعض النواحى بتقلبات الجو ، بما يتغير عليه من أيام مشرقة وأخرى معتمة . وللانفعالات أيضا فصول كفصول السنة . فالخامسة عشرة فصل أهدأ وأحفل بالتفكر والعبوس . وهى أيضا وقت انفعالات يكبحها الضبط . ويتحدث ابن الخامسة عشرة عن مزاجه كأنما هو ذاتية قائمة بنفسها (entity) ولها جوانب مختلفة وكأنما هو مرتبط به ارتباطا محددا .

وكثيرا ما يحس بأنه ليس واقعا تحت تأثير مؤثر متجهم قائم ، بل ويتصرف أيضا على ذلك النحو الكئيب

نفسه . ذلك أنه ربما ألم به التجهم وتقلب المزاج مع شيء من الاستخفاف الساخر . وقد تدوم تلك الحالة المزاجية عنده طويلا جدا بحيث يصبح فى حالة من «الركود» . وهذه الحالة المزاجية الحزينة ، هـذا الاتجاه نحو الكتمان أشبه الأشياء بدخيل متطفل على الحيوية المفرطة عند ابن الرابعة عشرة الخلى البال . بيد أن ابن الرابعة عشرة كان بحـاجة إلى يد تنتشله ولمسة تهدئه وتسرى عنه وإلى أن ينظر إلى الحياة فى صورة شاملة تـكون أبعد طولا وأقرب إلى الحقيقة . فان قوى النمو المتجهة للخارج كانت بحاجة إلى من يربطها بالقوى المتجهة للداخل . كما أن مما يشهد بوجود تغيرات أخرى تحدث فى دخيلة ابن الرابعة عشرة تحوله من صاخب لاجب يقذف بصوته فيما حوله ، إلى ابن خامسة عشرة هادىء لين الحديث خفيض الصوت تتجول يداه على وجهه حتى لتـكاد لا تسمع ما يقول .

ولحظات تقلب مزاج ابن الخامسة عشرة واكتئابه ليست دائما ملازمة له مدة طويلة. فهو يتكلم عن « حالاته المزاجية الحزينة » ـ « إنهـا مجرد اكتئابات طفيفة » ، أى تعاسته التى لاتلزمه إلا « بعض الوقت فقط » . وربما أظهر اتجاهه للانسحاب بالتباعد البدنى ، الذى يماثل تراجعه إلى غرفته يوم كان فى الثالثة عشرة . وإن أعوزته الآن حدة ابن الثالثة عشرة العنيدة الصلبة ؛ وابن الخامسة عشرة فى غنى عن إغلاق بابه بالمفتاح . إذ غالبا ما يكون منشغلا وسـعيدا بهدوء فى وحدته تلك . فليس من الضرورى حتى أن يذهب إلى غرفته لينفرد بنفسه وذلك لأنه لايستطيع أن ينسحب إلى داخل نفسه وسط ما تفيض به غرفة الجلوس من اثتناس كأنما لم يكن هو (أو الغرفة) موجودين البتة . فان هو سئل عندئذ أن يشارك من حوله فربما « تبلد » أو « تجمد » ، وبدا غير قادر على أن ينبس بكلمة . فى هذه الحالة يكون كمن أقام حول نفسه سياجا « لاسبيل إلى اختراقه للاقتراب منه » .

وربمـا مرت بابن الخامسة عشرة أوقات يشعر فيها بأنه متعب تعبا فظيعا أو ميت تقريبا : أوقات من الشبوط العـام والشعور بالارتبـاك واختلاط

الأمور عليه تماما ، فليس عجيبا إذن أن يظهر أحيانا بمظهر البلادة وعدم المبالاة . ذلك بأنه يدرك قلة ما لديه من بواعث . ولكى يقى نفسه فربما أضفى عليها مسحة عامة من الصلابة والتماسك ، أى أنه ربما « حاول أن يطلى نفسه من الخارج بطلاء يبدو فيه صلب العود » حتى لا يظهر للناس مشاعره .

وقد يستطيع ابن الخامسة عشرة أحيانا أن يخرج نفسه من هذه الحالات بالاستياء الفجائى أو بالتصرف الخشن الغليظ . أو لعله حين يشعر أن من الضرورى أن يترك فى النفوس آثارا طيبة ، فعل ذلك بقوة الإرادة والضبط البحت ، وإن « قتله » ذلك قتلا . وتحوله ذلك التحول ، ذلك التخفيف من حدة حالته المزاجية ، يكون أسهل عليه دائما وهو بعيد عن منزله منه وهو بالمنزل .

والتفكر الهادىء لابن الخامسة عشرة هو الذى يستطيع فى بعض الأحيان أن يجردنا من كل سلاح . فإن اتجه هذا الاتجاه العقلى ، أدلى بما لديه من حقائق بكل تواضع قائلا قولته المأثورة : « إنى أعتقد كذا وكذا ... » وهو يجنح نحو التصرف الهادىء حتى وهو يبيعك شيئا بيعا مؤكدا لا هوادة فيه . وخير رفيق لهدوئه هو اتجاهه العقلى نحو التلاعب واستمتاعه بالنكتة الحاضرة .

وابن الخامسة عشرة يحس أن الحياة أحسن وأطيب من بعض النواحى وإن أحس باشتداد التعقيد والمسئولية التى يجلبها تقدم السن فإن المسائل تسير سيراً طيبا لا بأس به ، كما أنه « سعيد تماما » . فقد استجدت أحداث كثيرة ــ منها اشتراكه فى تمثيلية مدرسية ، ومنها اكتسابه قليلا من المال ، وقيامه بنزهة موفقة بالقارب ــ وكلها يمكن أن تملأه بالسعادة الحقة ، بيد أن سعادته تكون من نوع أهدأ .

وهو لا يستشيط غضبا بالكثرة التى تعودها كما أنه لا يفقد صوابه بمثل السرعة السابقة . بل هو على العكس أشد جنوحا للانسحاب ومغادرة المكان أو تجاهل مصدر غضبه ؛

ولكنه لا يزيد أحيانا عن البقاء حيث هو ، والتفكير بينه وبين نفسه دون أن ينبس بكلمة ، حتى تزايله مشاعر غضبه الجنونى . ومع ذلك فإن بعض أبناء الخامسة عشرة أشد ميلا للانتقام وبخاصة مع أمهاتهم ، مع إبداء ملحوظة لاذعة أو ساخرة . ولكن غضبه من المعلم ربما جعله ينظر إليه بوجه جامد أو نظرة باردة ، على أن ابن الخامسة عشرة يدرك أن ذلك قد لا يغير موقف المعلم منه .

ولما كان ابن الخامسة عشرة أكثر استعدادا للبكاء على انفراد ، فربما جاز أن لا يعلم من عداه من الناس عن طريقته هذه فى التعبير عن حالته الانفعالية . وهو (أو بالأحرى هى) أدنى جدا إلى البكاء عند ما يكون غير سعيد أو مثبط الهمة كسير النفس . وربما وجد فى البكاء « نوعا من التنفيس » – أو « وسيلة لإزالة التوتر » . وتنهل الدموع كذلك من عينى ابن الخامسة عشرة تأثرا لما يحدث لغيره من الناس كما تصورهم القصص وروايات السينما .

وليست سن الخامسة عشرة سن مخاوف ، وإن كانت قلة ضئيلة منهم لا تزال تعبر عن مخاوفها من الحشرات والعناكب والأفاعى . وهو عرضة لتذكر المخاوف التى كانت تساوره عادة كالخوف من الاصطدام بشجرة أو التخرشم فى لعبة كرة القدم وما إلى ذلك . وتمر به لحظات من الخوف ، وربما نظر إلى الأماكن المرتفعة بعين المتوجس ، وأحس عدم الارتياح إن وجد فى زحمة الجماهير ، ولكنه لا يتملكه الخوف بشدة .

وليس من المحتمل أيضا أن يقلق بمقدار ما كان يفعل . ذلك أنه أقرب إلى تقبل الحياة على علاتها دون أى قلق . وربما قلق من أجل عمله المدرسى ، ولكنه كما يقول هو نفسه « كلما زدت قلقاً زدت إجادة » . وربما أمكن تبديد القلق الذى يداخله قبل حفلة الرقص بأخذ حمام . والقلق لا يساوره عادة مدة أطول من الغضب أو من حالاته المزاجية. كما أنه يكون فى العادة قادراً على التحكم فيه إذا بذل الجهد لتبديده.

ومع أن ابن الخامسة عشرة ربما كانت له رغبات معينة ذات نوع خاص

(كالحصول على رخصة قيادة سيارة ، أو تملك قدر كاف من النقود أو تحسن فى صحة أمه) ، فإنه لايعد هذه مشاكل. ولعل المدرسة هى مشكلة المشاكل لديه . ولكنه أقل ميلا إلى تحويل الأشياء إلى مشكلات كما أنه أكثر تنبها إلى أن عليه حل كثير من المواقف . كما أنه أيضا لايكثر من التفكير فى الحظ إلا فى لعبة الورق (الكوتشينة). ويصبح من المحقق لديه أن « ماىحدث إنما هو ثمرة طريقتى فى عمل الأشياء » ــ أو «الأشياء أكثر اعتمادا عليك أنت» . وبزيادة تنبهه إلى أن الشىء الكثير مما يحدث له يتوقف عليه ، يبدو أقل حساسية وأقل تأثرا بجرح مشاعره . وهو أقرب لتجاهل ملحوظة أو نقد يصدر من صديق ، وإن كان وقعهما غالبا ما يؤثر فيه « أثرآ عميقا » .

ومع أن ابن الخامسة عشرة ربما كان ميالا إلى التكتم والتباعد عن الناس ، فهو لايميل على الدوام إلى إخفاء مشاعره . وهو يقرر أنه يحاول إخفاءها عادة ولكن هناك أوقاتا يريد فيها رغم ذلك كله أن يعرف الناس حقيقة إحساسه . وهو قادر تماما على نقل حالته الفكرية إلى الناس . وإن فى تعبيره الجامد البارد وتبلده ومشيته الدالفة المتثاقلة وهدوئه ، لما يغنى عن كل بيان فى الدلالة على إحساساته النفسية .

وليس ابن الخامسة عشرة بالذى يغار من الآخرين أو يحسدهم بطريقة سلبية . أجل ربما فضل صفات الآخرين البدنية أو تحررهم من القيود أو ممتلكاتهم المادية على ما لديه منها ، ولكنه لايبدد طاقته العصبية فى تمنى ماليس له . وحسده أدنى أن ينقلب إلى إعجاب ، كما أن لديه القدرة على اختيار مايمكنه الوصول إليه، وما يستطيع مجاراته ومنافسته . مثال ذلك أن قدرة إحدى البنات على الكلام مع الصبيان قد تكون مثار حسد غيرها من البنات لها .

وكذلك الشأن أيضا فى روح المنافسة عند ابن الخامسة عشرة فهى ليست بأى حال أقوى من حسده . فهو وإن أحب أن يعرف وأن يميز ويصبح البارز السباق ، إلا أنه « ليس حامى الأوار فى انتهاجه نهج المنافسة » . فهو لايبذل فى الحقيقة جهدا شاقا جدا ،

بل إنه فى بعض الأحيان لايرغب حتى فى أن يأبه لشىء .

وهناك النطاق الذى قد يتجلى فيه ابن الخامسة عشرة على خير أحواله وهو حاسة الفكاهة عنده . فإنه يصبح أكثر تمييزاً ولعله ينبذ من أشكالها ما يماثل التورية أو الأنواع التى يسهل استساغتها وفهمها من الفكاهات . لقد أصبحت حاسة الفكاهة لديه الآن أصلب عوداً وأصبحت مليئة بالملحة والنكتة التى لاتضحك لداته فقط بل والكبار أيضـا . وهو يستخدم فى بعض الأحيان التهكم أو السخرية ويوجهها بضربة فى غاية المهارة . ولكن الميل إلى القيام بمزاح عملى وهو ضرب المقالب يبلغ أقل درجاته هنا ولا يستمرئه الآن إلا أبناء الخامسة عشرة الأقل نضجا الذين لديهم الآن أفكار وآراء أخصب ينفذونها بمهارة أكبر مما كانوا يقدرون عليه فى سن الثالثة عشرة .

٤ — النفس النامية

لا يفتأ البحث عن النفس وتحقيقها الذي لا نهاية له مستمرا من سن إلى سن . ففى بعض الأعمار كالرابعة عشرة مثلا يكون الصبيان والبنات أكثر استعداداً لقبول الحياة كما يجدونها ، ولتقبل أنفسهم إلى حد ما على علاتها . ولكن ابن الخامسة عشرة أكثر جدية . لقد أصبح يدرك أن ما هو عليه موكول أمره إليه . وربما كان ذلك هو السبب فى أن الأمور كلها تبدو شديدة العسر عليه وفى أنه يواجه الحياة فى بعض الأحيان بمثل هـذه الدرجة من عدم المبالاة بل حتى التبلد.

وليس ثمة أحـد أكثر شوقاً لاكتشاف كل ما يتعلق بنفسه من أبناء الخامسة عشرة . وكذلك لاكتشاف وسيلة توضح له لماذا يشعر بالطريقة التى بها يشعر ، ولماذا يتصرف بها ؟ ولكنه فى أحيان كثيرة جدا يصد الناس عنه ويأبى أن يدلى إليهم بشىء خشية أن يتوغلوا فى فهم شخصيته . فالتفاهم مع الناس الذى هو أحب شىء يشتهيه قد يتسبب هو بالذات فى أحيان كثيرة جدا فى إضاعته من يده . ولو نظرنا إلى ما وراء طرقه الدفاعية الخارجية التى يتحصن بها لوجدناه مشوشا ومضطربا فى أحيان كثيرة جدا ،

وما أسعد حظ ابن الخامسة عشرة الذى يستطيع أن يستخدم اتجاهاته « التهذيبية » ، ليصبح أكثر حذقا ودهاء وأكثر تمييزاً وأكثر ضبطا وفوق كل شىء أكثر تسامحا . ومع أن ابن الخامسة عشرة يتطلع قبل كل شىء نحو نفسه باحثا منقبا ، فإن لديه القدرة على النظر ومعرفة الأمور الخارجية بشكل شعورى بعيدا عن نفسه وأن يكون أكثر تنبها للغير وتفكرا فيهم ورعاية لمشاعرهم .

والاستقلال والحرية هما ضالته التى ينشدها بصورة تحملك أن تزعم أنه لم يحصل على أى قسط منهما . وهو لا يحب أن يقيد بأى قيد ، ولا أن يتلقى أسئلة تسأله عن أحواله وخططه والأصدقاء الذين ينوى أن يقابلهم . وهو خبير بالتوقف عن الإجابة عن الأسئلة كما أنه ينتهى بأن لا يبلغك أى شىء أو يكاد . ذلك أنه لا يرغب أن يجتاح أحد مواطن سره الداخلية .

وهو ينزع إلى التزام الوحدة والانفراد إما بالانطلاق إلى غرفته أو الانسحاب إلى دخيلة نفسه . فهو يستطيع أن يجلس بغرفة مملوءة بالناس دون أن يبدى أى دليل على إحساسه بوجودهم . ويتجلى ذلك على أشده وهو بين أفراد عائلته .

ويخشى الذين أصبحوا أكثر تنبها إلى أنفسهم فى هذه السن ، من أن يسىء الآخرون الحكم عليهم . فهم لا يريدون أن يبدر منهم شىء قد يوحى بمثل هذه الفكرة السيئة . وقد بلغ الأمر بأحد صبيان الخامسة عشرة أن أصبح يخاف شرب اللبن خشية أن يعده الناس طفلا . على أن ابن الخامسة عشرة قد يكون هو نفسه أعدى أعداء نفسه حيث يعطى الناس أفكاراً زائفة عن نفسه فالبنات اللواتى لهن مظهر جامد متباعد ربما أضفين على أنفسهن مظهراً مضللا من الترفع والعنزحة . .

وينزع ابن الخامسة عشرة إلى الرضاء بعمره والتطامن إليه . فلو أنه سئل رأيه فى أحسن الأعمار ، لتبين أن المرء يستطيع أن يحصل فى أى وقت من أوقاته على قدر متماثل من المسرة وأن « كل عمر يقوّم بقيمة ما تضفيه عليه » ولكن لا تزال هناك قلة تنظر خلفها إلى الأيام السالفة التى كانت أحفل بخلو البال . ثم إن هناك أيضاً أولئك الذين

لا يزالون يشخصون بأبصارهم متطلعين إلى السنوات الأخيرة من العقد الثانى والسنوات الأولى من العقد الثالث التى تبدو فيها السيارات والاستمتاع بقدر أكبر من الاستقلال بشكل أكثر اغراء واجتذابا للنفس من العيش فى فترة السن الراهن . بيد أن ابن الخامسة عشرة الأحسن توافقا يجد الآن متعة ومسرة ولا يريد أن يتقدم بسرعة أكبر من التى يمليها الزمن .

وعندما يقلب ابن الخامسة عشرة فكره فى رصيده من المميزات يكون أكثر جنوحا إلى التفكير فى السمات الايجابية لشخصيته منــه فى قدراته الاجتماعية . فهو يتحدث عن عدم ميله للادعاء وطيابة نفسه وحصافته وعزمه . وهو يرى بالمثل أن أخطاءه تعبيرات عن نقص فى بعض ما للشخصية من سمات معينة ومرغوبة . وهو يعرف أنه يحتد وأنه نافد الصبر، وأنه ليس متسامحاً مع الغير بالقدر الكافى أو أنه غير متنبه إلى أفكار الآخرين . كما أنه ربما كان متنبها تماما إلى الانتقادات التى يرميه بها الآخرون كقلة طموحه وكسله ، واتجاهه الذى لا يكون واضحاً بحال من الأحوال .

وابن الخامسة عشرة يبدأ فى جمع آراء محددة إلى حد ما عن نفسه وكيف ترتبط بفرديته الفذة . وبذا ربما تكون نفسه هى طريقة تفكيره ، أو كلامه وما يقوله من قول . ولعلهــا هى انفعالاته ، وبخاصة عندما يغضب ، أو لعلها عيناه لأنهما وســيلة طيبة من وسائل التفاهم مع الناس

ومن أشد رغبات ابن الخامسة عشرة رسوخاً فى نفسه أن يستطيع مسايرة الغير ، وأن يحب الناس بغير تحيز وأن يفهمهم ويكون ظريفا معهم. بل إنه ليحب حتى أن يتلقى دراسته ببلد أجنبى لمجرد الاستزادة من العلم بالناس : العلم بقصتهم الحقيقية . وقد ندهش حين نرى كم يولى ابن الخامسة عشرة من تفكيره لوالديه ، وإن لم يكن على وفاق تام جدا معهما . وهو يتمنى لأمه بوجه خاص أن تتمتع بصحة جيدة . كما أنه يتمنى أيضا أن يظلل الوئام حياة والديه وأن يجدا فى المستقبل من يوجه إليهما العناية الطيبة والرعاية .

والأمن من الأمور الهامة لدى ابن الخامسة عشرة . وهو يتمناه لا لنفسه فقط بل ولوالديه وللعالم كافة . وهو يفكر كثيرا ويمنى بالسلام العالمى كما أنه يأمل أن يصبح فى الإمكان الاتفاق بشكل ما حول مايملأ العالم من متاعب . وهو يشخص الآن يبصره إلى الوقت الذى ربما يفرض عليه فيه أن يخدم بلاده فى ناحية ما إذا نشبت الحرب .

ومع أن بعض أبناء الخامسة عشرة لا يزالون ميالين إلى امتلاك الممتلكات المادية (كجهاز تلفزيون مثلا أو جيتار كهربائى أو سيارة الخ) ويتمنون حدوث بعض التغييرات فى أجسامهم (كالضخامة والطول والعقل) ، فإن كثيرين منهم متنبهون إلى أنهم قد تحولوا عن هذه الرغبات التى كانوا يتمنونها من قبل . لقد كان أسهل عليهم وهم أصغر سنا أن يتمنوا دراجة أو ثروة . ولكنهم الآن يدركون فى الغالب أن النقود والممتلكات ليس لها نفس الأهمية القديمة التى كانوا يزعمون . فهم الآن يفكرون فيما يستطيعون أن يعملوه بأنفسهم . وهم يفكرون فى الحصول على منحة تفوق دراسية أو شق طريقهم اجتهاداً بالمدرسة لإتمام دراستهم الجامعية . فهم يفكرون بلغة المواهب والمهارات ، وربما شخصوا بأبصارهم نحو أهداف تكاد تكون سامية متمنين أن يكونوا فى الطبقة الأولى من مهنة يختارونها — وليس ذلك عن رغبة فى الشهرة بقدر ما هو عن رغبة فى الإحساس بالنجاح فى دخيلة أنفسهم .

ويريد ابن الخامسة عشرة أن يحسن طريقته فى الهجوم للقيام بأى عمل . فهو يبتغى تحسين قدرته على الدراسة ، « أن يفكر بوضوح ويرى الأشياء فى صورة متناسبة لا عوج فيها » ، وأن يركز اهتمامه على أحد الأشياء « دون أن تجرفه الأشياء أمامها » . وهو يريد أن يظل فى حالة تحكم وضبط وأن لا ينحرف عن اتباع الأصول . ولعل رغبته فى التحسن الشديد هى التى تجعله يتردد ويهوى متقهقراً فى مزالق الشبوط وقلة كفاية المواهب .

وربما لا يعرف ابن الخامسة عشرة نوع الحرفة التى يريد أن يحترفها مستقبلا ، ولكنه يولى ذلك شيئا من تفكيره ،

ولم يكن وهو فى الرابعة عشرة يعنى بتلك المسألة ، ولكن المشكلة تلحف عليه الآن بدرجة ما . وتصبح لديه فكرة لا بأس بها عن الاتجاهات التى لا يريدها لنفسه . فإن كلا من مهنتى الطب والقانون تفقدان عددا ممن ظنوا يوما أنهم سيرغبون فى احتراف هاتين المهنتين الكريمتين منذ القدم . أما الآن فعالم الأعمال هو الذى يجتذب كثيرا من الصبيان . وهم يدركون أنهم أوشكوا على تحمل مسئوليتهم المستقبلة كما أنهم يحكمون على قواهم بطريقة عملية أكثر . وتبدأ البنات أيضا ينظرن إلى حياتهن مستضيئات بنور واقعى حق ، كما أن كثيرات يفكرن الآن أن يعملن إلى يوم زواجهن فقط .

ومن أبناء الخامسة عشرة من لا يريدون أن يبالغوا فى التدقيق فى تحديد نوع ما يحتمل أن يختاروه من نواحى النشاط فى الغد ؛ فهم أكثر تفكيرا فى المجال العام الذى قد ينزلون ساحته ويقولون : — « نريد شيئا فى مجال الفنون » — أو « شيئا فى محيط الموسيقى » — أو « بعض أنواع العمل الصحفى » — أو « العمل المسرحى » .

ويفكر ابن الخامسة عشرة فى العمل تفكيرا أكثر واقعية ، وربما رفض حرفا معينة كالطب مثـــلا لأنك « ستكون مضطراً للنهوض من فراشك فى أنصاف الليالى » . ويلوح أن هندسة العمارة تمثل أمنية كبرى لدى كل من الصبيان والبنات ، مع زيادة عـــدد الراغبين فى احتراف علم النفس . فليس ثمة أى عمل من هذه الأعمال يصلح لمن يقل سنهم عن الخامسة عشرة .

ومعظم من فى مجموعتنا من أبنـاء الخامسة عشرة يفكرون فى الالتحاق بالجامعة . وهم على علم تام بالامكانيات المختلفة ، ولكن ليس ثم ما يدعوهم للتعجل فى البت فى الأمر حتى يحين الأوان . فإذا لم يدخلوا الكلية التى وقع عليها اختيارهم الأول ، فإنهم يفكرون مقدما فى بدائل لها تقع غالبا فى مجال الحرف والاحتراف . فإن الكثيرين منهم تجتذبهم الكليات الصغرى . أما كونهـا كلية مشتركة تسمح بوجود الجنسين أو قاصرة على جنس واحد فليس بأمر ذى أهمية . ولكنهم يفضلون على كل حال أن لا تكون شديدة القرب من المنزل .

ويفكر ابن الخامسة عشرة فى الزواج أكثر مما فكر وهو فى الرابعة عشرة ، ولكنه يرى الزواج فى موضعه الحق بالنسبة لنظريته الشاملة للزمن « إن الأمر سيسير فى مجراه الطبيعى »
— « سأتزوج فى الأوان المناسب »
— « لست أرسم خطة لذلك ، ولكنى سأفعل إن وقعت فى الحب » . وهناك عدد من الجنسين لا يريد أن يتزوج وهو صغير السن جدا ، وذلك لكثرة ما يريدون تحقيقه قبل الزواج من موضوعات .

وبينما بنات الخامسة عشرة جميعا يفكرن فى الزواج ، فإن هناك عددا من الصبيان لا تتطلع أبصارهم إليه . ذلك أنهم لا يحبون فكرة التقيد بالقيود . وهم لا يريدون أن يقطع الزواج حبل ميولهم . وقال أحد الآباء إنه يحس أن ولده ربما رضى أن يتزوج إن جاءته بنت برجليها « وكانت كاملة الأوصاف » . وقد نظر بعض أبناء الخامسة عشرة فى أمــور الزواج واستكشفوا أن عدداً كبيرا من الناس ليسوا سعداء فى الزواج .

ولكن شيئا لن يوقف البنات عن مواصلة البحث عن ضالتهن المنشودة. فهن يكثرن من التفكير فى الزواج بأوسع معانيه . وهن يهيئن أنفسهن لتولى إدارة المنزل كحرفة ، وإن كان بعضهن لاتزلن تحببن الجمع بين العمل والزواج . ومع ذلك فإنهن يشعرن بأن الظروف ستحدد خير ماينبغى لهن عمله والأغلب أن بنات الخامسة عشرة يفكرن فى أن يكون الحب أساسا لزواجهن . وليس حسن الشكل هاما جدا . وإن لم يرغبن أن يكون زوجهن « دميم » الصورة أو « بشعها » . وهناك عدد جم من الشروط كالثروة أو الجمال والجنس ليس توفرها فى أزواج المستقبل بأمر ذى بال ، ولكن المهم هو نوع مزاجه . وتريد ابنة الخامسة عشرة أن يكون لها زوج تستطيع أن تقضى معه وقتاً جميــلا ويفضل أن يكون لديه حاسة فكاهة طيبة . وهن يطلبن فى الزوج صفات من أمثال النضج أو العقل أو الرعاية للشعور أو العطف . وأنهن ليتمنين لو استطعن أن يتباحثن فى شئون الدنيـــا مع أزواجهن كما ترجون لو استطاع الأزواج الاتفاق معهن بدرجة ما .

على أن الصبيان إلا يشتدون هكذا فى الطلبات واشتراط الشروط فى زوجاتهم . فهم لايزالون يفكرون فى الجمال — : «ينبغى أن تكون على الأقل مقبولة الشكل ، ولكن ليس من الضرورى أن تكون بديعة الجمال » وهم يريدون أيضا قدرا معينا من الذكاء . وقل منهم من أدرك أنهم يرغبون فى زوجة ذات خلق قوى . ولكن غالبية صبيان الخامسة عشرة يفكرون فى معظم الأمر فيما لزوجاتهم فى المستقبل من قدرة على تدبير البيت . فهم يحبون أن يتوفر فيهن قدر معين من النظافة والتنظيم ، كما أنهم يرجون أن تكون الزوجة ملمة بأصول الطهى .

وابن الخامسة عشرة يفكر قبل كل شىء فى شريكة حياته الزوجية . وهو يتمنى لو مضت فترة بعد الزواج قبل مجىء الأولاد . ويدور عدد من يرغبون فى إنجابهم من الأطفال حول الثلاثة . فكأنه بذلك قد أنقص حق عدد أفراد عائلته إلى عدد أقل مما كان عليه فى الماضى .

٥ — العلاقات بالنـــاس

ابن الخامسة عشرة وإن كان فى شطر كبير من أوقاته شخصا سعيدا إلى حد ما ويحسن مسايرة والديه بدرجة معقولة ، إلا أنه يبدو أحيانا كمن أثار بينه وبينهما حربا باردة بكل معانيها . وقد يخطىء الناس أحيانا فى الحكم على عدم مبالاته أو تبلده فيرون فيه كراهية إيجابية أكثر من أى شىء آخر . ولكن كلماته نفسها تعطيك فكرة عن السبب الذى لايستطيع من أجله أن يسايرهم بصورة أحسن . بيد أن اتجاهه الحقيقى يعبر عنه بوضوح قوله : « إن لديهم فكرة خاطئة » — أو « إنهم ليسوا فى الواقع أحسن منى » .

وكثيرا ما يكون هنـاك اختلاف جسيم بين ما يقوله ابن الخامسة عشرة وما يقرره والداه ، حيث تلحظ أن هذا أو ذاك منهما يصور صورة أحلى من الموجودة فى ذهن الآخر . وكثيرا مايصادفك ذلك التلخيص الصريح الذى يعبر عن علاقة ليست على ما يرام —

يقول ابن الخامسة عشرة : « أفتكر أننا نسير (O.K) معا على خيرمايرام » ، وتقول أمه : «أظن أن المسألة سائرة» فكل منهما يحس بالاخفاق وبما فى الاخفاق من عجز عن عمل أى شىء ، ومع ذلك فكل واحد منهم يأمل أن تصبح الأمور أحسن حالا .

والظاهر أن ما كان للفتى فى العام المنصرم من فرط الحيوية الحافل بالانتعاش والمرح والطاقة التى لا حد لها يزول تماما عند ابن الخامسة عشرة . فالصبيان لم يعودوا يعاملون أمهاتهم بخشونة . إذ هبط الصراخ والزعيق فأصبح حديثا خافتا واستياء من الضجة إذ أن الدوافع والحوافز القديمة لهذا النوع من السلوك تصبح غير معروفة فى الخامسة عشرة .

ومهما يكن الحال فالظاهر أنهم يعبئون طاقاتهم على أحسن وجه وهم بعيدون عن البيت ، وبخاصة فى المواقف الجديدة . وربما لم تكن المدرسة دافعا أفضل كثيرا من المنزل ، وبخاصة عندما توجه إليهم المدرسة مطالب تعادل فى شدتها مطالب البيت أو تفوقها .

ومن أبناء الخامسة عشرة من يتباعدون وهم فى البيت من الأسرة تباعدا واضحا . فهم يتوجهون إلى غرفهم مباشرة بمجرد وصولهم إلى البيت ولا يكاد الواحد منهم يحيي أمه . و ثم آخرون لايعمدون كهؤلاء إلى الابتعاد فورا ، ولكنهم يظهرون بوضوح ما يخالجهم من إحساسات — فهم بين عابس أو منفر أو كريه يصعب العيش معه . وهم يبدون امتعاضهم من أى قيد يقيدهم ، وبوجه خاص من أى تقييد لحرية خروجهم ومدة مكثهم بالخارج .

وربما عمد آخرون إلى انتهاج نهج آخر لشعورهم بأن موقفهم ذاك الذى يولد الاحتكاك — كما هو واضح — والاستثارة والمضايقة ، لن يعود عليهم بأى نفع . لذا يصبحون أكثر تكتما ويتخذون خطة الدفاع ويتحايلون على إخفاء نواحى نشاطهم بصورة ما عن والديهم . وهناك قليل منهم يحسون بأن والديهم وبخاصة الأم ، لن تسمح لهم بالقيام بأعمال معينة ، لذا يسبقون الحوادث ويأتون تلك الأشياء ثم يخبرونها بالأمر فيما بعد . ومقاومة ابن الخامسة عشرة للادلاء بشىء قد

تكون من الضخامة بحيث يصبح الأمر كما لاحظت إحدى الوالدات : « إن انتزاع أى شىء منه يشبه خلع الضرس » .

وتعيش الأمهات مع بناتهن أحسن منهن مع أبنائهن . فإن بعض البنات يحافظن على علاقة طيبة ملؤها الثقة مع أمهاتهن . أجل إنهن لا يخبرنها بكل شىء ، ولكنهن يتباحثن معها فعلا فى الأحـــداث الجوهرية أو فيما يجول بخواطرهن من أمور . وهناك قلة — وإن تكن قلة ضئيلة — يهتممن بأمهاتهن ، بل لقد يجدن المتعة فى مساعدتهن فى أعمال البيت . أما الغليظات الحس اللائى حرمن التفكير فى الغير والاهتمام به فيعرفن تماما كيف ينبغى أن يتصرفن . فهن يعلمن أنه ينبغى لهن أن يكن أكثر صبراً وأوسع صدراً ، وأنه ينبغى لهن أن يساعدن فى العمل المنزلى أكثر مما يفعلن ، ولكن يبدو أنهن غير قادرات على تعبئة قواهن للعمل . « فالأحاديث الطويلة الهادئة » التى تبثهن بها أمهاتهن لا يبدو أنها تحدث تغيرا كبيرا فى الموقف : بل بالعكس ، فهذه الأحاديث تولد الارتباك . وتميل الأمهات ميلا شديداً إلى انتقاد أوضاع أجسام بناتهن غير مدركات أن هذا الإهمال فى أوضاع البدن مقصور بالأكثر على البيت ، كما أنه يرتبط باتجاه ابن الخامسة عشرة الداخلى إلى التبلد . ولا ننسى أن حض الأم لابنتها أن « كونى سيدة » ربما كان فيه من بعض الأوجه شىء من الاطراء ، وذلك لأنه قول يعترف لابنة الخامسة عشرة بأنها عضو بالغ رشيد بين بنات جنسها ، ولكن ابنة الخامسة عشرة لا تأخذ الأمر دائما هكذا . غير أن تحذير ابنة الخامسة عشرة من التحدث إلى الغرباء ربما كان فى هذا الأوان نفسه تحذيرا حكيما ، وذلك لأن بعض البنات ينسين أحيانا ، وإن كن شاعرات بأنه ينبغى لهن أن يكن حذرات ممن يلتقين به يقظات إلى كيفية تصرفهن .

وما أبعد البون بين هذا وبين انتقادات وتحذيرات الأم لابنها البالغ الخامسة عشرة . فهى تنزع إلى الافراط فى حمايته ، فتقترح عليه ارتداء سترته (جاكتته) وعدم نسيان معطف المطر . وربما كانت الحكمة تقضى على

الأم أن تدع ولدها يتحمل عواقب البرد والمطــر ، آملة أن يتلقى من ذلك درسا ، لا أن تعزز فيه نمط عدم المبالاة بحاجاته الجثمانية المنطوى على التمرد والذى يحمله بعض الرجال معهم إلى صميم حياتهم كبالغين . ومع ذلك فعندما يسأل ولد أمه : « أنت تظنين أنى ولد صغير ... أليس كذلك ؟ » ، فقد يسأل نفسه أحيانا : أليس الأمر كذلك حقا ؟ ويدرك أنه لا يزال بحاجة إلى قدر معين من رعاية الأم .

وتشعر الأمهات بتقلقل علاقاتهن بأبنائهن عندما يستطعن أن يبلغن : « حسنا ، نحن لانزال غير متخاصمين » وحتى عنـــدما يحظى الصبى بجميع الحريات التى يحتاج إليها أو حتى بجميع ما يشاء ، فإنه ربما لا يستطيع مع ذلك أن يوجد علاقة طيبة بأمه . وقد كان منطق أحد الصبيان عجيبا شيئا ما حين قال : « إنى على صواب بقدر ما هى على صواب تقريبا ، ولذا فأنا لا أصغى إليها » . ولـكن أباه كان فى رأيه على صواب دائما ، ولذا كان يصغى إليه .

والآباء بصورة عامة يعيشون مع أبنائهم من فتيان الخامسة عشرة خيرا مما تعيش معهم الأمهات . وذلك يرجع فى بعض الحالات إلى أن ابن الخامسة عشرة لا يرى أباه إلا قليلا جدا بحيث لا يتـكون بينهما صراع حقيقى . حتى إذا وضع الأب القانون موضع التنفيذ ، فالعادة أن يذعن ابن الخامسة عشرة . فإن بعض الصبيان يجنحون إلى المبالغة فى الاهتمام ببعض ميولهم كالراديو مثلا على حساب عملهم الدرسى . وقد عرفنا فى حالة كهذه أباً كان يغلق باب الغرفة التى يستمع فيها ابنه الراديو ولا يسمح له بالمفتاح حتى يتم واجبه المنزلى .

وتساير البنات بوجه عام آباءهن خيرا مما يسايرهم الصبيان . ولـكن بعض الآباء يفقدون احترام بناتهم ، إما بسبب تفاهتهم ، أو بسبب قلة فهمهم لحاجات بناتهم الاجتماعية التى تزداد مع الأيام . وبعض البنات يتجنبن آباءهن ولا يكدن يتحدثن معهم . وهناك أخريات يعترفن بصراحة : « ليس هناك أى علاقة بيننا » ، ولا يبدين نحو الأب أى مشاعر شخصية .

وتبدأ الروابط العائلية فى التراخى فى سن الخامسة عشرة . فالصبيان

يريدون غالبا أن يتحرروا من كل من البيت والعائلة عموماً . فإنهم يريدون أن ينطلقوا إلى أى مكان . يريدون أن يكسروا القيود ويأبقوا . وربما راقهم التكوين الاجتماعى فى الرحلات أو لحفل بالشاطىء أو اجتماع عائلى يكون التكوين فيه أقل تماسكا ، ولكنهم عرضة للوقوف جامدين حيال الأقارب الذين لا تربطهم بهم معرفة قوية.

وأعظم المشاكل التى تنشب بين الصبيـــان ووالديهم هى التى تتعلق بالخروج ليلا . فإن بعضهم يريد أن يخرج كل ليلة إن استطاع . وكأنما لديهم رغبة قاهرة للابتعاد . فلا عجب أن يحس الوالدان أنه يجب عليهم أن يمكثوا بالمنزل مدة أطول . ويصبح الحال أصعب عندما يمتنع الابن أو الابنة عن أن يوضح تماما أين هو ذاهب . والواقع أنهم قد لا يكونون أحيانا متأكدين هم أنفسهم من وجهتهم ، ولكنهم قد يكونون فى أحيان أخرى مزمعين ضرب موعد ربما لا يلقى من الوالدين استحسانا .

والمشكلة الأخرى العويصة جدا هى ساعة العودة . ولعل منتصف الليل أو ما يقاربه هو أقصى موعد كان الوالدون يسمحون به فى الرابعة عشرة ، ولكن إذا تناول المرء طعاما فى الخارج بعد مشاهدة السينما أو ذهب إلى حفلة بعد أخرى ليلة عطلة آخر الأسبوع ، فبديهى أن يفلت منه الوقت إلى الساعة الأولى أو الثانية صباحا ./ فما أحكم أولئك الآباء الذين يسنون قواعد معينة مثل « لا مواعيد ولا حفلات إلا فى أمسيات الجمعة أو السبت » ، مع إمكان السماح بحالة استثنائية واحدة هى حضور حفلة موسيقية أو ما إليه من نشاط فى وسط الأسبوع . كما أنه ينبغى لنا أن نعمل فوراً على الالتقاء مع الشاب عند نقطة تفاهم فى مسألة ساعة العودة حسبما تقتضيه أنواع النشاط فى تلك الليلة ، مع جعل الأولى والنصف أو ربما الثانية حدا أقصى . وربما فرض مراهق أكبر سنا على نفسه ساعة أبكر من هذه كثيرا وأقرب إلى منتصف الليل . وتمادى ابن الخامسة عشرة فى هذا الشأن لا يدل بالضرورة على أن هذا السهر سيستمر إلى ما سيعقب ذلك من السنوات

ويحاول بعض أبناء الخامسة عشرة تحقيق رغبتهم هذه فى التباعد بالالتحاق بمدرسة داخلية . فإذا لم يتهيأ لهم بعد الاستعداد اللازم للاستقلال الذى تتيحه هذه الخبرة ، فربما لم يكن التغيير إلا كالاستجارة من الرمضاء بالنار . على أن كثيرا من أبناء الخامسة عشرة قد وهبوا الاستعداد حقا ، ويستفيدون فائدة هائلة من هذه الخبرة التى يعتمدون فيها على أنفسهم . بل الواقع أنهم يبدأون فى تقدير البيت حق قدره من بعيد ويستكشفون كم البيت عجيب ومدهش فإن بنتا فى الخامسة عشرة اشتد بها الشوق إلى اعتزال المنزل والالتحاق بالقسم الداخلى ، وجدت نفسها تفكر فى البيت كل مساء حوالى الساعة التاسعة . وكانت تتصور والديها وقد جلسا يستدفئان أمام نار المدفأة ، أو يشهدان التلفزيون . وكان مجرد التفكير فى البيت الدفىء الوثير يجعلها تحس « بحرارة شديدة فى داخل جسمها » .

ويصبح تحسن العلاقات بين الأخوة الذى زاد ظهورا فى الرابعة عشرة ، ملحوظا ظاهرا الآن فى الخامسة عشرة .

والظاهر أن عمر الأخ الأصغر لم يعد ذا أهمية ، إذ أن لابن الخامسة عشرة طريقة لرؤية ما يلم بذلك الأخ من تحسن . فأنت تسمعه يقول : « لقد أصبح أكبر سنا » — أو « إنها أذكى مما كانت » — أو « إن عقلها يتطور وينمو » . ويحس ابن الخامسة عشرة أنه يساير إخوته الصغار فى العيش أحسن مما كان وأنه يجد معهم فعلا كل متعة ومرح . وربما اشتد انشغاله بتحسين سلوك أخ أصغر منه كثيرا ، ولكنه يستطيع أحيانا مراجعة نفسه بأن يفكر قائلا : « ربما لم يكن ذلك من شئونى » . وهو يتولى راضيا عملية إدخال أخ أصغر منه كثيرا فى الفراش عندما يكون الوالدان فى الخارج . وهو يستطيع أن يساعد إخوته الكبار بجميع الطرق . ويبدى اهتماما بما يفعله أقرب الأخوة له فى السن أو يفكرون فيه . فهو أقرب شبها إلى ترب لهم . وهناك ناحية تعد شطرا من علاقة ابن الخامسة عشرة الحسنة بإخوته الأصغر منه سنا ، هى شعوره الآن أنهم يتطلعون بأبصارهم إليه « قليلا » ، وهى حقيقة ربما لم يكن ليميزها قبلا .

ومع ذلك فان العلاقة بين بعض أبناء الخامسة عشرة وبين إخوتهم الذين يصغرونهم لا تكون على مثل هذه الإيجابية القوية . فيبدو أن علاقتهم لا تتحسن إلا لأنهم لا يلتفتون أدنى التفات إلى هؤلاء الإخوة الذين يصغرونهم وكأنى بهم يتجاهلونهم أو يدورون حولهم لتجنب أى نزاع معهم.

وعلاقة ابن الخامسة عشرة باخوته الأكبر منه حسنة بشكل غير عادى . ومنهم من يرافقون الأخ الأكبر أو الأخت الكبرى ويذهبون جميعاً إلى نفس الحفلات ويثقون فيه (أو فيها) ويفضون إليه بذات نفسهم . وكثيرا ما تتحسن العلاقات بين الطرفين بعد انفصال الأخ الأكبر عن المنزل وبعد أن لا يعود ابن الخامسة عشرة يراه إلا بين فينة وأخرى .

وللأصدقاء أهميتهم لدى ابن الخامسة عشرة . والبنات يقمن اختيارهن لأصدقائهن على أسباب كثيرة تفوق فى عددها أسباب الصبيان . أما الصبيان فالأغلب أن أساس اختيارهم لأصدقائهم الذين من نفس جنسهم هو الميول إلى أنواع من النشاط المتماثلة . ولكن الأغلب أن البنات يخترن صديقة يعجبن بها، وتكون أحيانا صديقة تجيد التحصيل بالمدرسة . وقد تميل البنات أن تكون لهن صديقة يثقن فيها ويفضين إليها بكل شىء ، وبخاصة إذا كن فقدن هذه العلاقة، علاقة النجوى والمشاركة الوجدانية مع أمهاتهن . ولكن المعول هنا هو شعورهن بأن كل ما يخبرن به صديقتهن الحميمة لن يذاع أبداً . وتبدأ البنات تتنبهن إلى عمق الانفعالات وحرارتها ، وربما تحدثن عن مشاعر معارفهن نحوهن بأنها « ضحلة غير عميقة » — أو « فاترة جداً » . ولكنهن قد يسايرن من يكرههن من البنات مسايرة جيدة جدا لمجرد أنهن لا يجدن أحداً غيرهن أو « لا يسعهن إلا ذلك » .

ومع أن هناك نزعة بين عدد من بنات الخامسة عشرة إلى الاقتصار والتركز على صديقة واحدة فى الوقت الواحد ، فإن هناك أيضا ميلا ملحوظا إلى التجمع . والحق أن الجماعات كثيرا ما تكون كبيرة إلى حد ما ، وغالبا ما تشمل ست بنات أو ثمان أو أكثر.

وغالبا ما يتحدثن عن « شلة من الأصدقاء » الذين « يذهبون جميعا فى فى كل مكان معا » . وهذه الشلل ترتاد بوجه خاص أماكن ينتظرن أن يلقين بها الصبيان ، كمحلات تناول الكوكا كولا . وربما كان ما يملأ هذه الأماكن من ضجيج كريها لدى بعض بنات الخامسة عشرة اللواتى يرغبن فى التحدث . لهذا فهن يؤثرن أن يذهبن إلى منازل بعضهن بعضا ، ويحتسين أشربتهن الحلوة هناك ، وينخرطن فى حديث ممتع حول جميع أنواع الموضوعات ، وبخاصة « عما ستتمخض عنه الحياة » .

وليس اهتمام الصبيان دائما على نفس السمو العقلى كالبنات ، ومن هنا يمكن فهم السبب الذى من أجله تختار البنات غالبا صبيانا يكبرونهن يتفقون معهن فى الميول . وينزع صبيان الخامسة عشرة إلى « التجمع » أكثر من البنات وإلى تكوين جماعات وشلل أكبر. وأسهل أساس يجتمعون حوله هو أنواع النشاط المشتركة ، وذلك خاصة لأنهم غالبا ما يكونون ميالين للرياضة . كما أنهم يقولون بطريقة الذكور الحقة عنـدما يسألون ماذا هم صانعون : « إنهم يساعدون بعضهم بعضا فى هذه الأمور وتلك وغيرها » . وهنـا يكمن الأساس الذى تقوم عليه فى المستقبل علاقات الأعمال التى تعيش وتركو على الرغبة فى أداء خدمة لشخص آخر .

والصبيان أقـل اهتماما بالبنات من البنات بالصبيان ، كما أنهم أقرب إلى اختيار أنواع نشاطهم بمعزل عن البنات ، وإن لم يحل ذلك دون ارتياد فئات منهم لمحلات تناول الكوكا كولا . وإذا احتاج الأمر إلى صديق واحد مفرد جنح ابن الخامسة عشرة إلى أخذ أى فرد يجده قريبا منه . ولـكنه إن كان ذا ميول قوية كالاهتمام بالراديو أو السيارات ، اتجه إلى اختيار صديق له ميول مماثلة .

وإذا كان والدو البنات ممن شغل بالهم الاهتمام بأن تكون «الاستقامة» أثناء الموعد رائدا لبناتهم ونمطا لسلوكهن فإن فى إمكانهم الآن أن يطمئنوا حينا من الدهر أثنـاء فترة الخامسة عشرة هذه .. فإن كلا من الصبيان والبنات

ينزعون نزعة واحدة تتلخص فى قولهم « إما أن اتخـذ منهم جميعا رفقاء أو أتركهم جميعا » ، وهم يطبقون هذه النزعة عمليا ، وكثيرا ما يشيرون إلى السنوات القليلة السابقة يوم كانوا يحبون بالفعل فردا من الجنس الآخر حبا جما خاصا ، ويواعدن نفس ذلك الفرد مدة مديدة تمـاما من الزمن ، «ولـكن زمن ذلك قد مضى» . فمهما يكن الأمر فقـد تحول الاتجاه عن القاعدة المنفردة إلى قدر أكبر من المزج بين الجنسين فى جماعات . تقرر إحدى البنات « نحن نتواعد كمجموعة » أو تذكر أخرى « إن كل فرد منا يذهب مع المجموعة كلها ثم يتزاملون اثنين اثنين بعد وصولهم إلى هناك . » ويهز صبى ثالث مثالى إلى حد ما فى تمثيله للخامسة عشرة كتفيه ويقـــول : « ياللجحيم ؛ إنى فقط أذهب مع أى شخص يتصادف ذهابه معى ؛ وألتقى بهم حيث تجتمع الشلة بأجمعها . » ويعبر صبى آخر عن النمط الاجتماعى لسنه ومجموعته فيقول معقبا : «لم أذهب قط إلى حفلة برقص استوجبت أخذ بنت معى . »

وإن مكانا للاجتماع ولاقامة الحفلات ليصبح جزءاً هاما فى حياة فرد من أبناء الخامسة عشرة . ومن ثم يتضح لنا لماذا يقع اختيارهم على محلات تناول الـكوكا كولا أو غيرها من محلات الأكل التى يمكن أن يحتشد فيها جماعات كبيرة إلى حد ما . وقد يستطيع البيت فى بعض الأحيان أن يتسع لهذه الأمور وإن لم يكن ذلك هو الاختيار الطبيعى لابن الخامسة عشرة . لأنه يفضل البعد عن البيت . وهو يؤثر استخدام امكانيات المدرسة الثانوية أو النادى الاجتماعى ، وهو مكان يستطيعون فيه أن يأكلوا ويتحدثوا ، وربما قاموا أيضا بالشىء القليل من « العناق » .

وهذا الشىء الذى يسمونه «العناق» (الذى هو فى الحقيقة تقبيل فى معظم الأمر) موضوع عظيم الأهمية جدا فى تفكير كثير من أبناء الخامسة عشرة كما أنه شىء كثيرا ما يكون علنيا تماما . والبنات شديدات التنبه جدا إلى خطط الصبيان نحوهن ، وتنزعن إلى الاستجابة لهـا بأحد امرين متناقضين على خط مستقيم . فبعض البنات اللاتى يلتزمن جانب الاحتشام ينفرن من بعض الأفعال

التى تصدر عن أصدقائهن فى الحفلات ، بل لقد ينزعجن منها انزعاجا . ومن البنات من يشعرن بضيق شديد من تصرفات صديقاتهن عندما ينفصلن عن المجموعة مع صبى ليتبادلا « القبلات » والواقع أنه إذا كان سلوك إحدى البنات خارجا جدا عن اللياقة ، فربما حرمت عليها الحفلات المستقبلة . أما البنت الأكثر لباقة وكياسة ، فإنها تعمد حين ترى من صبى أنه موشك أن يكون «وقحا» معها ، إلى مواصلة شغله عنها وجعله فى حركة دائمة وسؤاله عما إذا كان يحتاج إلى شراب الكوكا كولا ، إلى غير ذلك من الوسائل . ويجرى بين البنات أثناء حديثهن فى شئون الحياة قدر كبير من النقاش حول التقبيل . وبعض البنات يحسسن بأنه لا ينبغى لهن أن يقبلن صبيا إذا لم يحببنه (وهو أمر يوقف التقبيل إلى حد كبير فى الخامسة عشرة) . وهناك أخريات يقضين وقتهن كله فى المقارنة بين طرق التقبيل لدى مختلف الصبيان ، وكم مرة يقبلون البنات وهم يودعونهن ليلا . وهذا نوع المعلومات الذى لا تتبادله بنت الخامسة عشرة مع أمها .

ويستمتع ابناء الخامسة عشرة دائما تقريبا بما يقضونه من وقت بالحفلات أو أثناء أنواع النشاط الجماعية . وقد يفضلون فى بعض الأحيان عدم الذهاب ، ولكنهم يجدون عادة عند ذهابهم إليها وقتا ممتعا . وهذا يختلف اختلافا ملحوظا عما كان عليه الحال فى سنوات سابقة ، وبخاصة السنوات من الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة ، يوم كانوا يذهبون إلى الحفلة بشوق وتوقع عظيم ويعودون إلى المنزل كالموتى من الإعياء وعيونهم دامعة ، أو وهم فى خيبة أمل على الأقل وحفلات ابناء الخامسة عشرة المنزلية التى تضم حوالى خمسة أزواج إلى سبعة يمكن أن تكون ناجحة جدا . فهم يشربون فيها الكوكا كولا ويأكلون السندوتش ويرقصون ويلعبون الكونشينة ويشاهدون التلفزيون أو يديرون الاسطوانات . وليست هذه فى العادة حفلات كثيرة الضجيج .

ويقول كل من الصبيان والبنات فى تقريرهم عن زملائهم من ابناء الخامسة عشرة إن نصفهم تقريبا يتواعدون ونصفهم الآخر لا يتواعدون . والواقع الملحوظ فى مجموعتنا نحسبها أن معظم

البنات وحوالى الثلثين من الصبيان كانوا يضربون بعض المواعيد على الأقل . على أن بعضهم ممن كانوا يتواعدون قبل الآن قد توقفوا عن التواعد . وربما أعربت بنت « عن اطمئنانها » إلى وفاء أحد الصبيان ، ومع ذلك « ينتهى كل شىء بينهما بغتة . » على أن البنات لا يغالين فى الاطمئنان إلى الصبيان والثقة بهم . فإنهن شرعن يتعلمن « أنهم ليسوا شيئا مدهشا » كما كن يعتقدن يوما ، وأنهم بعيدون عن الكمال . » ولا يمكن الاعتماد عليهم ولكنهم شىء مسلى ، كما أنه يندر فيهم من يمكن الاعتماد عليه . » وليس الصبيان على مثل هذه الدرجة من الصراحة فى الحديث عن البنات ، وكل مايشكونه منهن أنهن « ينفقن النقود كثيراً . »

وحتى ولو كانت البنات لا تواعدن أحداً ، فإن هناك فى العادة شعورا يخالجهن بأن هناك « أفقا ومستقبلا . » وابن الخامسة عشرة « كمن يدع الأمور تجرى فى أعنتها » ، ولكنه من ناحية أخرى يضع نفسه فعلا فى مواقف تعرضه لإلمام الأحداث به . فهو يهتم اهتماماً متزايدا بمعرفة الأمور «وهل تسير فى الاتجاه الصائب » — أم «لا تسير سيرا صائبا . » وهو لا يغضى على شىء ولا يتجاهل . فهو يلعب دوره ويتقبل النتائج .

وإذا تواعد ابناء الخامسة عشرة فكثيرا ما يفضلون المواعيد المزدوجة (بين ولدين وبنتين) ، لأن فى ذلك « متعة وتسلية أعظم كثيرا . » فإما أن يذهبوا إلى السينما أو يلعبوا بالكرة الخشبية أو يخرجوا ليأكلوا معا . كما أن نمط التواعد « عشوائى » — أو « متنوع » إلى حد ما . وابن الخامسة عشرة مستعد لقضاء وقت ممتع بقدر ما يمتد ذلك الوقت .

وجملة القول أن ابن الخامسة عشرة ليس فى الحقيقة شديد الاهتمام بالتواعد . فربما قالت البنات : « إن من يخرجون بالفعل إنما يفعلون ذلك التماسا لشىء يعملونه ، ولكنهم ليسوا جادين فعلا . وربما كان الصبيان أكثر قسوة نوعا ما فى تقديرهم لما يبلغهم عن نشاط أصدقائهم وأفعالهم . «ومع ذلك فالأمر ربما لم يكن إلا مجرد كلام أجوف . وتفاخر حول هذا وذاك وغيره . »

والصبيان أميل إلى أن يصولوا ويجولوا فى الميدان ، فهم ربما تنقلوا بين ثلاث بنات فى وقت واحد ، وربما حتى تحدثوا عن « حريمهم » . وهم يتمضون أحيانا عندما تتواعد بنات من نفس سنهم أو زميلاتهم بالفصل مع صبيان يكبرونهم . وهؤلاء الشاكون هم الصبيان « المتادون للتواعد » ، ولكن من المفهوم أن البنات قد يفضلن الصبيان الذين يكبرونهم ، وذلك نظراً لأنهن لن يخرجن إلا بسوء الاختيار إن انتقين من أبناء سنهن ، هؤلاء الذين لايزال الكثير منهم غير ناضج بصورة واضحة .

٦ ـ الميول وأوجه النشاط

لا يظهر على ابن الخامسة عشرة نفس الميول الواسعة والشاملة التى كان يبديها فى الرابعة عشرة . ولعله يكون قد تخلى أحيانا على امتداد الطريق عن ميوله الأولى كالرياضة والجنس الآخر وعزف آلة موسيقية ، وكل منها ربما كان يبدو فى ذلك الوقت كأنما صار جزءاً طبيعيا منه . وابن الخامسة عشرة أكثر ميلا إلى تقييد نفسه وإلى التركز فى اتجاه واحد . ولكن ليس من الضرورى أنه يتركز بمواصلة التعمق فى أحد الميول . بل هو على العكس من ذلك ربما عمد إلى وضع نمط متكرر كالإصغاء إلى اسطوانة معينة حتى يمل ويصل إلى درجة التشبع وليس التشبع فقط ، بل رد الفعل الإيجابى العنيف . والتشبع ربما كان حقا أحد مفاتيح جهاز الحركة فى ابن الخامسة عشرة . وقد يكون مجئ الراحة والتراخى (زوال التوتر) فى أعقاب ذلك الالتهام والإقبال الشديد شيئا طبيعيا متمشيا مع النظام الأصلى للأمور . من أجل هذا وجب أن يعد عدد من أنواع النشاط عند ابن الخامسة عشرة مصدرا للراحة والتراخى ؛ أو أن يتناول تناولا أكثر إيجابية « كترويح وتروض » .

وعند ما يستطيع ابن الخامسة عشرة أن يقول إنه ينام « للتسلية » ، يتضح عظم معنى التراخى لديه أو « لعله يهدف إلى التراخى » فهو يريد آلات موسيقية متنوعة لكى « يعبث » — أو يتسكع

بها «هنا وهناك» . ولكن ربما لم تخامره حقا الرغبة في تحسين قدرته الفنية إلى فى أخذ دروس . وهو يظهر وصوله القاطع إلى مجال البالغين من حيث الحاجة إلى اليسر والراحة عندما يتكلم عن أيام الآحاد بأنها « مجرد وقت للاستجمام والراحة » .

ويحول بعض الشديدى الولع بالرياضة من الصبيان بؤرة اهتمامهم إلى السيارات ، بيد أن آخرين يزيدون فى أوار اهتمامهم بالالعاب الرياضية ، التى أصبحت منطقة تركزهم التام . وهم يواصلون اهتمامهم بألعاب التنافس الكبرى والسباحة . وهناك زيادة أخرى فى الاهتمام بالجولف والتنس وركوب السفن الشراعية أما الاهتمام بالمشاهدة ، فهو فى زيادة لا تنقضى إما بالحضور الشخصى المباشر أو عن طريق الراديو أو التلفزيون . وقد أضيفت أيضا مشاهدة المصارعة وسباق الخيل وسباق السيارات وسباق عربات البقر إلى قائمة الميول الرياضية التى يرغبون فى مشاهدتها .

وإن اقتراب موعد الحصول على رخصة قيادة السيارات لما يزيد فى شدة ميل ابن الخامسة عشرة للقيادة . فهو يسوق ما وجد إلى ذلك فرصة . ومن صبيان الخامسة عشرة من يبدى ميلا ميكانيكيا يتجلى فى اهتمامه بالسيارات ، وينزع إلى التلكؤ حول الجراجات لالتقاط أى معلومات يستطيعون الحصول عليها . فإن ساعدهم الحظ وكان لهم صديق يكبرهم له رخصة قيادة وسيارة أيضا ، نعموا « بالتسكع هنا وهناك » فى سيارة الصديق مع مجموعة من الزملاء عادة .

وهناك طائفة معينة من الصبيان تبدى اهتماما مستمرا وثابتا بالراديو . وغالبا ما تكون لهم غرفة راديو خاصة يقضون فيها ساعات عديدة ويفسدون بذلك دراستهم . إنهم الآن يدخلون فى دور الاتجاه إلى عمل رسم تخطيطى لأجزاء الراديو ومعداته ، وربما يكون اهتمام قديم مبكر وشديد بالقطارات قد أفضى فى سن الخامسة عشرة إلى ظهور اهتمام ناشط بنماذج الطرق الحديدية ، ذلك أن « العبث بالأشياء » هو الذى به ابن الخامسة عشرة بوجه خاص ينعم .

. وألعاب البيت الداخلية بمختلف أنواعها ينهمك فيها جماعات من الصبيان أكثر مما ينهمك البنات فلعبة الضامة والشطرنج ومختلف أنواع ألعاب الورق أثيرة محببة إليه .

وأنواع نشاط البنات تختلف اختلافا بينا عن الصبيان ، إلا من حيث اهتمامهم المشترك بالتلاقى فى المحافل الاجتماعية . وهناك البنات الرياضيات بشكل قاطع أكثر ، وهن ربما شاركن فى نواح عديدة من الألعاب . على أن الألعاب التى تكون أكثر فردية ، كالتنس وركوب السفن الشراعية والتزحلق على الجليد والتزلج بزلاجة الإسكيه وركوب الخيل هى الألعاب المفضلة على كل ما عداها . وربما شغفت إحداهن بالتزحلق « شغفا جنونيا » ، وربما ظنت أخرى أن التزلج بالإسلكية Ski « أدهش لعبة » اشتركت فيها فى حياتها كلها .

والبنات بوجه عام أقل نشاطا وحركة فهن يحببن أن يخرجن فى نزهات مشى طويلة مع أصدقائهن بقصد الكلام والدردشة أو أى شىء آخر . أو لعلهن يحببن أن « يجلسن فى مكانهن ويتحدثن » فى بيوت بعضهن بعضا . وربما فضلن ذلك على الجو الكثير الضجيج فى بعض أماكن الاجتماعات العامة . ويدور شطر كبير من حديثهن حول الصبيان أو يدور غالبا حول خطط يدبرنها للمستقبل القريب . فإذا لم تتح لهن فرصة التعبير والتفاهم المباشر ، فإن بعضهن يملن إلى قضاء فترة عظيمة من الوقت على التليفون . والبنات أيضا مراسلات مجيدات تماما يواصلن تبادل الرسائل أحسن عادة مما يفعل الصبيان .

والحياة الاجتماعية ، حياة القواعد والذهاب للحفلات والتلاقى فى مخازن الأدوية (الأمريكية) ومشارب الكوكا هى التى تحتل معظم وقت فراغ ابن الخامسة عشرة . ويجد هذا التفاعل مع الجنس الآخر اهتماما حقا من معظم أبناء الخامسة عشرة .

وتتوقف خبرات العمل على نوع المجتمع الذى يعيش الطفل فى كنفه . فابن الخامسة عشرة يريد فى الغالب أن يشتغل ، بيد أنه لا يستطيع الحصول على عمل . فان الصبيان بوجه خاص بحاجة إلى النقود . وتقوم البنات بعمل مشكور جدا بتوليهن مجالسة الأطفال . ومدة الصيف هى التى يضع لها قليل

من ابناء الخامسة عشرة خطة صرف وقتهم فيما يتعلق بالعمل وخبرته ،ولكن هـذا أمر أكثر شيوعا فى السادسة عشرة .

انواع النشاط المستقرة كالمشاهدة والاستماع

يفضـــل الراديو بوجه عام على التليفزيون . وبعض أبناء الخامسة عشرة وبخاصة البنات لايبرحن يدرن «باستمرار» مذياعهن أو الحاكى . وحب الجاز Jazz ، وهى أحيانا من النوع الجنوبى بالتحديد، يفوق الاهتمام بالموسيقى الكلاسيكية جدا . وتؤثر بعض البنات «الأنواع الحالمة» . وابن الخامسة عشرة يحب فى الغالب أن يكون مذياعه دائرا أثناء مذاكرته ، والظاهر أن ذلك لا يؤثر فى تركزه على الدرس . ويبدو أن بعض الصبيان لهم قدرة تامة على متابعة الإصابات التى يحرزها فريقان متباريان فى برنامج رياضى دون فقدان تركزهم على مايدرسون أو يقرأون . فإذا تحدث ابن الخامسة عشرة عن البرامج التى يشهدها أو يستمع إليهـا لم يذكرها بالتخصيص ، بل يصنفها أبوابا عامة « كالرياضة » — أو «المسارح» .

والأغلب أن التلفزيون يشاهد من أجل البرامج الرياضية دون أية برامج أخرى . وقد تكون المشاهدة التى انخفضت فى الغالب فى كل من الثالثة عشرة والرابعة عشرة، قد بلغت الحضيض فى الخامسة عشرة . فنهـم من يقول «لا أستطيع أن أطيقه» — أو «أستطيع الاستغناء عنه» ، أو منهم من يتمنى بيع جهازه إن اتيحت له الفرصة . ويتلخص موقف ابن الخامسة عشرة الذى يمتـاز بالحرص على النقود فى أنه يعد التلفزيون « مضيعة للمال » .

وربما زاد الاهتمام بالقراءة والزمن المخصص لها عنه أثناء السنة المنصرمة ، وإن كان ابن الخامسة عشرة متنبها تماما إلى أنه لا يصل إلى مستوى اهتمامه السابق بالقراءة ، وكان قويا بوجه خاص فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة ، حين كان يسهر جزءا كبيرا من الليل لو أتيحت له الفرصة . وهو لايريد أن يقرأ كتابا ما لم يتأكد أنه سيستمتع به . وربما قاوم بشكل لا إرادى كل قراءة يكلف بها تكليفا .

والغالب أن الصبيان يقرأون بالفعل قراءة إفراط لامزيد عليها فى الموضوعات الفنية . وهم أيضا يغوصون فى القواميس ودوائر المعارف غوصا أعمق من غوص البنات . وقد أخذ نوع القراءة والمقروء يتقدم على وجه العموم نحو دائرة البالغين تقدما ثابتاً إلى حد ما . فحق الميل إلى مطالعة الروايات الجنسية الطائشة الجريئة، ربما داخله الآن تقص حيث يصبح ابن الخامسة عشرة أكثر استعدادا لتقبل الروايات الرومانتيكية . وربما فضلت المجلات على الكتب . ولكن ابن الخامسة عشرة ربما داخله شعور الإثم لأنه قضى شيئا من وقته فى مطالعة قصة قصيرة بإحدى المجلات على حين كان ينبغى له مذاكرة دروسه .

ومطالعة الصحف تتخذ شكل النشاط المنظم ، وإن لم يقرأ معظم أبناء الخامسة عشرة الصحف قراءة مستفيضة . وأهم ما يفضلونه الأخبار والنكت والمضحكات . ولم يعد الصبيان يقرأون أقسام الرياضة بنفس اللهفة التى تعودوها من قبل وليس هناك أثر يذكر للاهتمام بقراءة الكتب الهزلية . أجل إنهم ربما قرأوا أحدها « لمجرد التفكهة إن وقع فى يدى » وبطريقة تشاكل تماما طراز الخامسة عشرة يعودون بذاكرتهم إلى ذلك الوقت (وهو الثامنة أو التاسعة إلى الثالثة عشرة) الذى كان لهم فيه « ولع جنونى بالكتب الهزلية » ولعلهم قد أفرطوا فى قراءتها حتى أصبحوا « يكرهون الآن كل تفكير فيها » .

والاهتمام بالسينما شىء فردى إلى حد ما . فإن بعضهم يذهبون إن « لم يجدوا شيئا آخر يعملونه ، وهو أمر نادر » . وثم آخرون ينقطعون عنها أمداً طويلا ، ثم « يذهبون فى كل آن » . والذين يتعلمون بمدرسة داخلية يجنحون إلى « الدخول فى أعظم عدد من الأفلام الجيدة » يستطيعونه أثناء فترة العطلة . ويذهب ابن الخامسة عشرة بصحبة مجموعة منوعة من الناس وفى ظروف مختلفة . وهم يذهبون فى الأغلب الأعم مع أفراد من نفس جنسهم إما مثنى مثنى أو فى جماعات أكبر . ولكن التواعد المزدوج على الذهاب إلى السينما شىء مألوف إلى حد ما ، كما أنه « أمتع كثيراً » فيما يقول بعض أبناء الخامسة عشرة ، وكان يحدث أحيانا أن أحد أبناء الخامسة عشرة

يرى أن « أخذ موعد للذهاب إلى السينما ضرب من السذاجة والخيابة ».

وابن الخامسة عشرة مدقق إلى حدما فى إختياره للأفلام وغالبامايستضىء فى ذلك بالمجلات . ولكن عددا منهم يذهبون فقط لمجرد الذهاب .

٧ – الحياة المدرسية

عندما يعبر ابن الخامسة عشرة عن وجود اتجاه عدائى لديه نحو المدرسة – شأنه فى غالب الأحيان – لايكون تعليمه عندذلك ميسرا ولا سهلا ولاشك أن عبارة «منطقةركودالخامسةعشرة» نفسها تدل على أن تغيراداخليا قدحدث لابن الخامسة عشرة ، وأن فى الأمر عيبا وخطأ . وكثيرا ما يدهش المعلمون لهذا « الركود » ، وإن لم يعيروه القدر الكافى من الاعتبار فما أكثر المنازعات التى تنشأ بين المعلمين والطلبة . وغنى عن البيان أن زيادة عدد « المنقطعين » عن الدراسة فى أعقاب هذه السنة ، وبخاصة بين الصبيان تدل على الأهمية الحاسمة لهذه السنة وعلى إخفاق المدرسة فى مقابلة التحدى بالترتيبات اللازمة . ولكن ليس مما يدهشنا أن يقول المعلمون عن أبناء الخامسة عشرة إنهم « لغز غامض » . ولامراء أن كثيراً من المعلمين يقابلون بالترحاب كل ضوء يرشدهم إلى فهم أبناء الخامسة عشرة أو كل مساعدة تمدهم بطرائق معالجتهم .

وينزع أبناء الخامسة عشرة إلى العيش جماعات بل حتى جماهير ، ولكن الشلة أو الدائرة الوثق من الأصدقاء ربما لم تكن لديه على ما كان لها من أهمية فى الرابعة عشرة . والمدارس التى لاتزال جمعيات الإخوان والأخوات العلية قائمة بها ربما كان إنتماء ابن الخامسة عشرة فيها إلى تلك الجمعيات أقل أهمية كثيرا مما كان وهو فى الرابعة عشرة – على أنه سينضم إليها مع ذلك ، وينتج مجتمعا مزد هرا وحافلا بالحياة ، ولكن فى الإمكان قيام طرق أخرى للتجمع مرضية أكثر . وابن الخامسة عشرة يفضل كل ما هو جديد وما هو تلقائى وما هو متغير . فهو يحب الجو العرضى الذى يجده بغرفة النادى حيث يستطيع الجنسان أن يتقابلا . وهو يريد أن يجتمع مع الآخرين على منضدة يستطيع أن يجلس إليها ويتحدث ، وأن يتناول شرابا حلوا خاليا من الكحول

ويصغى إلى الاسطوانات ويرقص إن عن له ذلك . إنه يريد مكانا يستطيع أن ينتقل منه وإليه ،وأن يساير الجمهور دون أن تفرض عليه أوضاع تقيده تقيداً شديداً . وابن الخامسة عشرة تابع جيد ، فهو من أجل ذلك شديد المبادرة إلى المسير فى جماعات .

والطلبة الذين يحبون العيش على الحواشى يقفون بمعزل على هامش تلك الجماعات ، وهم من الصبيان خاصة . وهؤلاء هم الصبيان الذين تشغلهم غالبا ميول مختارة كالراديو مثلا ، والذين يتسمون بعلو القدرة الذهنية وضآلة الاهتمام بالبنات — ولو إلى حين . ولكن يوجد أيضا داخل الحواشى صبيان غير ممتازين ذهنيا ، هم السيئو التوافق مع الجماعة . وهؤلاء هم الأفراد الذين لا يمكنهم أن يجدوا مكانهم بين أفرادها ، والذين يجنحون إلى الانقطاع عنها فوراً .

الخامسة عشرة عمر يكون فيه تعريف الأشياء فوق احتمال بعضهم . فأبناء الخامسة عشرة يريدون أن يعرفوا أفكارهم وفلسفتهم ومركزهم فى الحياة . ولكن بعضهم يتخلون عن الكفاح فى هذا السبيل وتثبط همتهم . فهم يبدون كأنما يعوزهم كل شىء : الخطة والقصد والمهارات ومواطن « الانتماء » الاجتماعى . وتصبح المدرسة لديهم سجنا أو محبسا . (ويبلغ بهم الأمر أن يسقطوا هذا الإحساس على ما يرسمون من رسوم وتمتلىء نفوسهم بشعور يقول « إنى أريد أن أخرج من هنا » — أو « يجب على أن أفر » . فإذا لم يتح لهم من يساعدهم على العثور على مكانهم من الجماعة وتبوؤ ذلك المكان أو يعينهم على شىء من التعبير بطريق النشاط ، فلا عجب إذن فى أنهم يبتعدون عن كل نشاط .

وعلى النقيض من هؤلاء وبخاصة عند منتصف السنة الخامسة عشرة يوجد أولئك الطلبة الذين رزقوا التوافقات الشخصية والاجتماعية الطيبة ، والذين لديهم فسحة من الوقت ينفقونها فى الميول المتعلقة بوقت الفراغ ، وقدرة على إظهار الزعامة فى حد ذاتها وبصورة تلقائية . وليس معنى ذلك أنهم أفلتوا من الشكل الخاص بهم من أشكال « ركود الخامسة عشرة » . ولكنهم عندما يصلون إلى منتصف الخامسة عشرة يصبحون مستعدين للتحسن تواقين

إليه . فهم يتحولون إلى الاهتمام بفرقهم المدرسية ويصبحون مستعدين للعمل . أما البنات فعندهن فى الغالب ميل للدراسات الاجتماعية وقدرة هائلة على التحصيل تحصيلا قد يصل حتى إلى المستوى الجامعى . وللصبيان قدرة مماثلة وربما فضلوا أن يقوموا بأبحاث أساسية حقة فى موضوعات من أمثال علم الآثار القديمة أو الأحداث الجارية .

وإزاء ما عليه ابن الخامسة عشرة من ميل إلى التمرد على السلطة وهو فى لجات « ارتباكه » هو « ومجاهدته هنا وهناك » ، يصبح من الأهمية بمكان أن ترسم له خطط كفرد لا كعضو فى جماعة — فإن للجماعة طريقة لابتلاعه وعندئذ يضعف وضعه ككفرد شيئاً فشيئا ، فتضعف من ثم مكانته كشخص. وهنا وعندما تحدث المتاعب فى الخامسة عشرة يزداد اتضاح أهمية عمل تقدير تطورى كامل واف لكل فرد عند سن الرابعة عشرة يوم يكون أكثر اهتماما وتهيئوا للقيام بشىء يتصل بنفسه . لقد كان وهو فى الرابعة عشرة أشوق لفهم نفسه فهما أحسن وللوقوف من خط سير نموه موقف المحاولة والتجريب.

وعندما تظهر عائلة ابن الخامسة عشرة قلة اهتمام بمصالحه وسعادته ، يصير ألزم على المدرسة وأهم كثيراً أن تتخذ موقفا حاسما . فالصبيان المتمردون الذين لا يتقدمون فى دراساتهم ، وبخاصة فى اللغات الأجنبية واللغة الإنجليزية ، والذين يميلون للغياب عن المدرسة ، يتعرضون لخطر الفرار الدائم من المدرسة وهؤلاء هم الصبيان الذين يستفيدون لو أعطيناهم خبرة فى عمل معين لمدة نصف اليوم . فإذا مر صبى فى مثل تلك الخبرة بوصفه صبيا فى حرفة مع اتصالها بالدراسات العلمية التى يتلقاها ، أمكن أن تكون خبرة ذات معنى عملى ومرضية للنفس . وكم سندهش حين نرى كم يتحسن مثل ذلك الصبى فى تركزه على دراسته واهتمامه بها عندما يحصل على خبرة عمل ناجحة . وينبغى أن نجد العمل الصالح لكل صبى ، بل هو شىء ممكن . كأن يعمل مساعدا فى دكان بقال أو عاملا فى جراج أو بمزرعة ، أو ورشة آلات . ويمكن أن يكون اهتمام ابن الخامسة عشرة قويا وأن تكون قدرته على مواصلة الدأب أحسن كثيراً مما لدى أبناء الرابعة عشرة فالأخيرون كانوا يتناولون

العمل فى البداية بحماسة مفرطة ، وما أسرع ما كانت الحال تضطرنا إلى إنقاص العمل إلى مستوى ما كانوا يستطيعون . وابن الخامسة عشرة أكثر استعدادا لتعلم النواحى المعقدة فى أحد الأعمال سواء أكانت هى قواعد الأمن والاحتياط إزاء الماكينات أو العمليات العديدة اللازمة فى عمل إحدى الآلات أو النواحى المعقدة فى بعض مشروعات المزارع مع مسك الدفاتر وحساب الأرباح والخسائر . وينبغى أن تحدد أجور الأعمال الواقعة داخل إطار مثل ذلك التدريب على العمل ، وذلك بسبب الخدمة التى يؤديها ابن الخامسة عشرة من ناحية ولأنه فى حاجة حقة إلى المال ، كما أنه قادر على التصرف فيه .

ولما كان ابن الخامسة عشرة يبدو كأنما هو فى تمرد على السلطة ، فما أكثر ما يتوقف توافقه على الطريقة التى تعامله بها السلطة ومن ثم فلا بد من التغاضى عن بعض ملحوظاته التى تقوم على العناد . وعند ما يتحدى أحد المعلمين وهو يعض شفتيه ويسأله : « ما ذا تصنع لى إذا قلت ما يدور بفكرى ؟ » عندئذ لن يحول دون وقوع الصدام أو حدوث التحدى إلا امتلاء قلب المعلم بأعمق الحب للقيم الإنسانية .

وسن الخامسة عشرة تعد تحديا جسيما للمعلمة ، وإن احتاجت أن تتعلم كيف « تمسك بالمقود » . فالمعلمة التى يحترمها ابن الخامسة عشرة تعطيه المهلة الكافية التى يصبح بعدها قادرا على التلقى والاستيعاب . فينبغى لها أن تكون قادرة على الانتظار قبل بدء الحصة حتى يستقر تلاميذها فى مقاعدهم . وفى بعض الأحيان قد يهدأ أبناء الخامسة عشرة أسرع إذا هى مرت بينهم . وقد يهدأون فى أحيان أخرى على أحسن وجه إذا هى وقفت وانتظرت . ومهما تكن الحال فإن نظرة واحدة منها ربما حملت من المعانى أكثر مما تحمل الكلمات . وربما استوجب الحال استخدام طرق التهدئة هذه يوما بعد يوم حتى إذا قر أبناء الخامسة عشرة أصبحوا قادرين على الالتفات الجيد ، فإذا هم ضجروا ، فربما اقتضت الحكمة السماح لهم بالخروج من الدرس المقرر برهة من الزمن . فإنهم يهدأون عندئذ أسرع إذا نالوا مثل تلك الفترة الفاصلة .

وقد يكون تعليم أبناء الخامسة عشرة شيئا مثيرا ومحركا لنا حق وهم فى حمأة «ركودهم» إذا ووجهوا بالتحدى فى ميدان جديد . فهم يسألون أسئلة كثيرة مدارها : لماذا ولأى غرض . وهم أقدر على التفكير لأنفسهم ، كما أنهم سرعان ما يكتشفون الغلطة التى تحدث فى إحدى المناقشات .

وأبناء الخامسة عشرة يتعلمون بسرعة فى الميادين الجديدة ويحبون أن يستثيرهم مثير جديد كمحاضر خارجى لكى يعطيهم مادة جديدة أو ينحرف بهم نحو زاوية جديدة فى بعض الموضوعات . وهم يريدون الحصول على الآراء وعلى القدر الكافى من المعلومات اللازمة لمناقشتهم . وهم يحبون بوجه خاص ندوات المناقشة غير الرسمية التى يستطيعون فيها أن يعبروا عن آرائهم . ذلك أنهم نظرا لشدة إحساسهم بثقل وطأة المشاكل العالمية ، فإنهم يحبون الحديث ويحتاجون إليه أيضا : والديانات والأجناس البشرية من أحب الموضوعات التى يلذ لهم الخوض فيها ، وبخاصة إذا كانت تلك الموضوعات ذات أهمية حيوية لخبرتهم . وكثيرا ما يديرون مثل هذه الندوات على أساس من الاستشهاد بالبينات . فإذا كانت المناقشة تدور حول الديانة ، فربما أصبح من المهم لكل فرد أن يدلى ببيان عن كنيسته ، منهجها وتاريخها . وأن يذكر شيئا أيضا عن معتقداته هو . وهو يريد أن يناقش معتقداته هو ويوازنها بغيرها بما علم من معتقدات . فكيف يمكن الموازنة بين قصة الخليقة بالتوراة مثلا وبين نظرية النشوء والارتقاء ؟

وندوة المناقشة تهيء الفرصة للأخذ والعطاء السهل . وهو هنا لا يبدو فظا كشأنه عندما يبادر بالحديث فجأة فى مواقف الفصل الأكثر رسمية . فإنه إذا اختلف هناك فى الرأى مع آخر يتلو شيئا ، فربما اندفع فى الحديث تلقائيا . غير أن حاجته هذه إلى التعبير عن نفسه قد يكون علاجها أسهل فى ندوة المناقشة .

ويهتم ابن الخامسة عشرة فى أغلب الأحيان بأى شىء يؤثر فى حياته . فهو يتحول إلى الميل إلى علم الأحياء

(البيولوجيا) إذا هو تعلم منه ما يتصل بالأشياء التى تمس خبرته الخاصة . خذ التعفن مثلا — إنه يود لو عرف لماذا تتعفن النباتات المنزلية . أو لعلك تستطيع أن تستشف ميله للأدب فى بحث إحدى الشخصيات الروائية . فهو يحب أن يفكر فى الأمر الذى دعا الشخص إلى الاستجابة على الطريقة التى حدثت منه . وهو يسائل نفسه : أيتصرف على نفس تلك الشاكلة لو وجد فى مثل هذا الموقف وربما كان المحك النهائى للشخص (الروائى) لديه هو : هل يحب أن يعرفه شخصيا أم لا يحب . (وهذا الموضوع يناقشه مناقشة أوفى المستر هولدن كولفيلد فى كتاب (Catcher in the Rye) تأليف المستر ج. د سالنجر) .

وينزع ابن الخامسة عشرة إلى تقمص الموقف والشخص والفكرة . وهو يتقمص أحيانا عن غير وعى منه معلمة حتى يصبح خطه نسخة مقاربة لخط معلمته وحتى تصبح طريقته فى نطق الكلمات مماثلة لطريقتها مماثلة لا يتطرق إليها خطأ . وإذا كان ابن الخامسة عشرة يقبل ما سمع تقبلا تاما ، جاز أن لا يكون شديد التحدى أثناء تعليمه ، ولكنه على التحقيق أسهل قيادا منه وهو معها على غير وفاق . فعندئذ يتحدث عنها بأنها « مجنونة » — أو « إنها شيء مزعج حقا » أو « وحش فظيع » وربما عد أى إشارة من المعلمة لشئونها الشخصية « مضيعة للوقت » . وقد تكون هذه الأحكام القاسية على المعلمة شيئا عابرا فقط فى بعض الأحيان لا يلبث ابن الخامسة عشرة أن يرى الأشياء بعدها فى صورة متناسبة بشكل أكثر وضوحا عندما يخرج من حمأة ركوده . ولكن ربما حدث أحيانا أن يشتد النزاع بين المعلمة والطالب ويصبح ملحوظا جدا بحيث لا يكون ثمة حل إلا نقله لمعلمة أخرى .

ومع أن ابن الخامسة عشرة ربما تحرك متثاقلا إذا انفرد بنفسه ، إلا أنه يتصرف تصرفا مغايرا لهذا تماما وهو بين أفراد الجماعة ، وبخاصة عندما يخرج من الفصل . وربما قضت الحكمة على المعلمة فى بعض الأحيان أن ترجىء إخراج التلاميذ حتى يمر فصل آخر فى صالات المدرسة .. ويجوز للمعلمة أن تقف لدى الباب لتوقف التيار ، أو أن تلحأ إلى إخراجهم فى صفوف لتكبح

جماح ابن الخامسة عشرة ، وإن كان هذا الإجراء الأخير يثير منه استياءاً كنوع من معاملة الأطفال . فالصبيان بوجه خاص ربما كانوا فى عجـــلة واندفاع جنونى — فهم مروا وسط مجموعة كالسهم المارق دون أن يشعروا بمن حولهم من الناس . وربما احتاجوا عدا ذلك إلى الاندفاع من مكان إلى آخر. ولكن ابن الخامسة عشرة ليس على الجملة كثير الجلبة والصخب فى صالات المدرسة وهناك لاجرم شىء من التدافع والحديث بصوت مرتفع . وهناك شىء من التلاقى بين الصبيان والبنات أثناء الفسح بين الفصول مع ميل منهم « إلى وضع أيديهم بعضهم على بعض » . ولكن النشاط فى الصالات لا يثير فى العادة مشكلة كما أنه تحت ضبط جيد إلى حد ما .

والصبيان على وجه العموم يؤدون أعمالهم المدرسية أحسن من البنات فى الخامسة عشرة . فمن الصبيان الذين كان تحصيلهم ضعيفاً فى السنوات السابقة ، وكان حفزهم عسيراً ، من أصبحوا الآن راغبين فى بذل جهد أكبر وفى إنفاق وقت أكثر فى عملهم المنزلى .

وهم يظهرون تركزاً أحسن من البنات اللواتى تتبدد طاقاتهن فيما يشغل عقولهن فى أشياء كثيرة . ومن هؤلاء البنات من هى مشغولة فى كل لحظة من لحظاتها. فكل شىء يبدو لهن هاما ويحتاج إلى التصرف فيه فورا . ومثل هؤلاء البنات يلوح أنهن لا يستطعن البتة أن يعملن كل شىء . فهن يذهبن هنا وهن يرحن هناك ! ! لابد لهن من الحديث بالتليفون ! ! ولا بد لهن من مقابلة إحدى المعلمات ! ! ! ومع ذلك فإنهن إذا حضرن مؤتمرا قد أعدت ترتيباته من قبل تعثرن ولم يدرين عم يتحدثن ! فهن لا يعرفن كيف يبتدئن الحديث أو كيف يعبرن عما يدور فى عقـــولهن . ومعظمهن يردن فى الحقيقة أن يتحدثن عن الحرف وبخاصة عن الجامعة ، وقد يحدث على حين بغتة والمنـــاقشة دائرة الرحى أنهن قد يضطررن إلى قطعها للقيام بمحادثة تليفونية هامة — هامـــة لديهن ومن المدهش أن البنات لا يزعجهن تحصيلهن الضعيف بالمدرسة ، الذى يرجع فى الغالب إلى تقصيرهن فى العمل . بيد أن مثل هذه الأشياء لا تضايقهن لشعورهن بأن هناك أشياء أهم لا بد من

التفكير فيها وعملها . وهذه الأشياء الأكثر أهمية تشمل حياتهن الاجتماعية.

وتجد كثيرات من المعلمات أن تعيين نصيب محدد من العمل يجعل القيام به يتم على أحسن وجه . ولاتنس أن ابن الخامسة عشرة قادر على القيام بالعمل بغاية العناية . ولكن المعلمة الحصيفة المدركة ينبغى أن « تحاول أن تخرج من المأزق » إن استطاعت ، وأن تدع ابن الخامسة عشرة يختار بنفسه الواجب المقرر عليه ، وقد يكون الواجب المنزلى مشكلة بمعنى الكلمة . وهنا يحاول الوالدون بحكم الغريزة « أن يبتعدوا بأنفسهم عن الموضوع » ولكنهم غالبا ما يتحققون أن ابن الخامسة عشرة يحتاج إلى مساعدة فى التغلب على عقبة الابتداء . والغالب أن ابن الخامسة عشرة يقوم بشغله أحسن إذا امكن وقاية جدول أعماله من كل تشويش ومقاطعة كالطلبات التليفونيه . وقد وجد كثيرون من الوالدين منفعة فى تطبيق قاعدة عدم الرد على التليفون بين السابعة والتاسعة حين يستذكر أولادهم دروسهم ، فاذا طلبهم أى انسان اثناء تلك الفترة فمن الأمكان أخذ رسالته لتنفيذها بعد التاسعة مساء .

ويستفيد ابن الخامسة عشرة إذا هو قلب الرأى مع معلمته حول فترة واجبه المنزلى . وهو يرى أن خير ما يعمل أن يبدأ أولا بمحاولة التغلب على المادة التى تشق عليه أعظم المشقة . وهو فى بعض الأحيان يصبح أحسن تركزا على عمله مع تناوله لمنة (وجبة) صغيرة أثناءه أو ترك له الراديو دائرا . وربما استغل وقته أثناء فترة استراحة باعادة تنظيم كناشته أو القراءة بمفرده . على أن مشكلة ابن الخامسة عشرة الكبرى لا تظهر إلا عندما يعسر عليه فهم الموضوع ، أو عندما تأبى فكرة أن تدخل عقله. فإن هذا يثبط عزمه. وهو يجد صعوبات أيضا فى العثور على أفكاره وبخاصة فى أثناء الكتابة . وينبغى للمعلمين أن يكونوا أكثر تنبها إلى هذه الصعوبة ومن أجل هذا كانت ندوة المناقشات الحرة فعالة الأثر جداً فى الغالب وذلك لأنه غالبا ما يكون الترب هو الذى يستطيع أن يذلل الصعوبات .

ويرغب عدد معين من أبناء الخامسة عشرة فى الالتحاق بمدرسة داخليه ، بل ويفيدون من ذلك ويرجع ذلك أحيانا إلى أن ابن الخامسة عشرة قد أصبح

مستعداً وراغبا أن ينتقل بنفسه ولكن ذلك يكون فى أحيان أخرى لأنه يريد أن « يفلت ويفر». فإذا هو وقع تحت تأثير هذا الحافز فربما وجد أنه غير مستعد لتحمل مسئولياته بنفسه، وعندئذ ربما رغب ثانيا أن يفلت من روابطه التى استكشفها حديثا . ولكن ابن الخامسة عشرة المستعد يجنح أن يقول: « شىء لطيف أن يذهب المرء إلى أماكن جديدة وأن لا يضطر إلى الاعتماد على عائلته بدرجة شديده » . فإذ حل ابن الخامسة عشرة فى وسط جديد، فالغالب أنه يحقق تغيرات مدهشة نحو التحسن فى كل من ناحيتى التوافق الاجتماعى والتحصيل الذهنى .

وإذا عاش ابن الخامسة عشرة فى جو مثير جديد ، تراه أقل ميلا « لتلمس الزلات» منه وهو يعيش فى جو سابق استنفد أغراضه. « والتلمس» كلمة تصف بشكل له دلالته طريقة ابن الخامسة عشرة ، فهو يتلمس فردا ما يحس نحوه بشعور العداء وهو «يتلمس» الأخطاء فى طرائق معلمة بعينها . أو هو يرى ما يعده أخطاء فى عمل المدرسة الإدارى أو نظامها ، ويلتقط تلك الأخطاء ليتناقش فيها . وربما كانت قائمة اعتراضاته طويله كقوله ـ لا يحصل الطلبة على القدر الكافى من الامتيازات؛ ليست الطريقة دعوقراطية بدرجة كافية؛ المعلمات لا تمطين الطلبة مسئوليات كافية؛ الطلبة مضطرون إلى القيام بأشياء كثيرة جدا لأنفسهم . أو لعله إن وجد مشقة فى العثور على أية نقائص أخرى أكثر وضوحا ، فربما شكا بأنه ينبغى أن تتولى إحدى المحاكم أمر حالات الغش. وينبغى للقائمين بالأمور أن يصغوا لما يقوله أبناء الخامسة عشرة ، وينبغى أن يسمح له بان يتناقش فى شكاياته ، ولكن ينبغى أيضا أن لا يسمح له بخرق النظام العام .

وخير من ذلك كثيرا أن نجمع قدرة ابن الخامسة عشرة ونوجهها فى سبيل روح التضامن الجمعى، وليس هناك منشطة تنبه هذه القدرة «روح التضامن المدرسى» أكثر مما تثيرها الألعاب الرياضية . ولا مراء أن شيئا من التجمع اللطيف من الطبيعى صدوره من ابن الخامسة عشرة . فإن هو لم يكن ذا بنية رياضية ، أمكنه أن يكون مديرا لإحدى اللعبات أو زعيما

للهتافة ، أومجرد فرد من النظارة. وهو يستطيع أن يغنى أيضا .

والشىء الوحيد الذى لا يريد أن يعمله هو أن يذهب لأى اجتماع مدرسى مع عائلته ، وهو دون أدنى ريب لا يريد أن يجلس معهم . وهو يسعد إذ ينجو من هذا الموقف المحرج إذا خصصت سيارة أومنيبوس لنقله هو وشلته إلى هذه البرامج المتنوعة . وهو حسن السلوك تماما فى الحافلة (السيارة) . وقد يحدث بين الفينة والفينة أن يقذف صبى من النافذة شيئا يمكن فصله من ثياب إحدى البنات ، ولكن فى الإمكان عادة استرجاع ذلك الشىء وإعادة النظام إلى نصابه .

وابن الخامسة عشرة يستجيب للولاء للجماعة . وهو يحب أن يشترك فى مشروع للفصل ، ولا يزال به حتى يتمه . وإنه ليبذل أحيانا قدرا مفرطا من زمنه وطاقته فى مشروع من هذا النوع كامبة للفصل . وعندئذ يتأثر بقية عمله بهذا المشروع حتى لقد يفقد القدرة على الموازنة بين أعماله . ومع ذلك فإنه لن يرغب فى التخلى عن دوره ، وذلك لشدة تقمصه للجماعة .

والانضمام للجماعة للاشتراك فى ضجيج الفصل طريقة أخرى للتعبير عن تقمصه للجماعة . ولكن اذا عمل شريط تسجيل لضجيج هذا الفصل ، فإن ادارته من جديد تحدث أثرا عميقا جدا فيه ، وعندئذ يصبح مستعدا هو وبقية الفصل لتغيير سلوكهم .

وكثيرا ما يبرز الزعماء فى الخامسة عشرة . فإن نفس الطلبة ربما انتخبوا مرة تلو أخرى لقيادة مجموعة جمة من أنواع النشاط . وهؤلاء هم الطلبة الذين يتصرفون بيسر وسهولة فى مضمار العلاقات البشرية . وعلى عكس هؤلاء على خط مستقيم يوجد لسوء الحظ أولئك الذين يسايرون الجماعة أسوأ مسايرة وينبذون منها .

ومع أن ابن الخامسة عشرة يظهر قدرا أكبر من الاستقلال الفردى فى إختياره لثيابه ، إلا أن الجماعة تجرفه فيلبس ما اتفق من الثياب كالشوامل (الأوفرولات) أو بنطلونات الرعاة الزرقاء اذا سمح له بذلك . وقد يعبرون أحيانا عن نزوات معينة ، وربما جعلوا من زى أو ثوب خاص وسيلة للتعبير عن التحدى . وهنا يحين الوقت الذى

ينبغى لسلطات المدرسة « أن تمسك المقود » وأن تطالب المجموعة بيضع طلبات لها ما يبررها . وأبناء الخامسة عشرة قادرون على اظهار الذوق الحسن فالبنات لا يبالغن فى لبس المجوهرات وقلما شوهدن وهن يتزين على الملأ . وهناك دليل آخر على الذوق هو أن الصبيان لا ينطقون البتة بنكتة « بذيئة » أو يسبون فى الجماعات المختلطة ، ومع ذلك فإن ظهور بنت فجأة وسط جماعة ربما أحدث صفيرا .

وينزع الصبيان والبنات الى المضى معا كمجموعة . فهم يحبون أن يعملوا معا فى لجان . ويصبحون الآن أقل إقبالا على التواعد الفردى وأكثر ميلا الى التواعد فى جماعات . ويندر أن يثبت فردان على ما بينهما من علاقة . فاذا تحاب صبى وبنت ، احترم ابناء الخامسة عشرة الآخرون تلك العلاقة ولم يعاكسوها .

ويعتمد النجاح أو الفشل بالمدرسة فى هذه السنة الخامسة عشرة على عوامل كثيرة . ولكن لو عومل ابن الخامسة عشرة بوصفه شخصا على وشك بلوغ سن الرشد ، قادرا على التعبير عن رأيه الخاص ، فعندئذ تصبح فرص النجاح أكثر احتمالا .

٨ الحاسة الخلقية

لابن الخامسة عشرة حاسة خلقية متحددة أكثر مما كان له فى أى يوم من أيام حياته . وربما تحدث عن قراراته الخلقية بأنها أوتوماتيكية ، ولكنه يطالب الى أقصى حد بأن تكون تلك القرارات من صنعه هو . فهو يريد أن يواصل التفكير حتى يصل بنفسه الى قراراته الخاصة ، واذا وقع اختياره على قرار خاطىء أدرك أنه لم يفكر . وابن الخامسة عشرة أكثر إدراكا للتقاليد وتنبها الى المعايير والى السنن والأصول والى القواعد والى الشرائع الدينية . وهى تساعده على وضع قراراته .

وابن الخامسة عشرة قادر الى حد ما على التمييز بين الصواب والخطأ ، وخاصة من « وجهة نظره » هو أو معاييره هو الفردية الخاصة . وهو يتعرض للشكوك أحيانا ، أو يحدث أن تبدو المشكلة مبهمة مستغلقة قليلا عليه . وعندئذ يحاول أن يفكر فى الأمر

حق يصل إلى نتيجة منطقية . وربما ظل والداه قوة ذات تأثير قوى فى قراره النهائى ، وغالبا ما يقوم سؤال كهذا : « أتوافق ماما ؟ » بدور صمام الأمن الحاسم. وتصبح الأسئلة عن الصواب والخطأ أدق وأضبط ، وغالبا ما يرتبط مدارها بالعادات الاجتماعية . وربما دفع الجهل غرا من أبناء الخامسة عشرة إلى الوقوع فى تصرف خاطىء عن جهالة . فإذا ضحك منه لداته تقبل هو بدوره الدرس الذى ألقوه عليه . ولكن قد يحدث أحيانا أن لا يرغب ابن الخامسة عشرة فى عمل ما يعلم أنه الصواب . وعندئذ يحاول أن يقنع نفسه أو يجر نفسه إلى الوقوع فى الخطأ بلسانه . وتشير مقاومته نفسها إلى أن له نسيجا خلقيا حسنا .

وإن ضميره ليعمل ناشطا إن بدر منه خطأ فاحش . بيد أن هناك أشياء صغرى معينة ربما حاول أن يفلت بها كالذهاب إلى فيلم محظور عليه أو بمقابلة أحد من الناس قد حظر عليه لقاؤه . وليس من الضرورى أن ابن الخامسة عشرة يحاول إخفاء سوء تصرفاته كأخذ شىء دون إذن ، ولكنه ينتظر فعلا حتى يكشف عنها مجرى الحوادث .

وعنـــدئذ يقول الحق عادة دون إحجام . وليس الصدق هو الذى يزعج ابن الخامسة عشرة ، وذلك لأنه ينبغى أن يقول الصدق . بيد أنه يدرك الآن أن التلطف ربما اقتضى أن لا يقال الصدق. ومن ثم فهو يجد أنه يُوافق مع الناس أو يطريهم رغبة منه فى التأدب فى حقهم دون أن ينطق برأيه الحقيق أو اعتقاده .

فإذا بلغ الأمر مسألة قبول اللوم ، فإن فى استطاعتك عادة أن تعتمد على ابن الخامسة عشرة. فهو لا ينتهز الفرصة السانحة ، بل يعترف تماما بنصيبه من التبعة وليس لديه أية رغبة فى تحويل اللوم إلى شخص آخر ، مثلما كان يفعل وهو أصغر قليلا ، كما يتذكر ذلك تماما .

ومع أن كثيرين من أبناء الخامسة عشرة يتجادلون مع والديهم لمجرد المرح والدعابة ، فإن بعضهم أكثر اهتماما بالوصول إلى « التغلب على وجهـــة

نظرهم » منهم بالمجادلة فى حد ذاتها . وابن الخامسة عشرة يرحب بالمناقشة السليمة ولكنه ليس شديد الاستجابة لطريقة الوالدين فى الاستدلال ، وربما جنح إلى أن يستبعد منه فكرة أى تأثير ربما حاول والداه أن يطبقاه عليه .

ولا شك أن معظم الصبيان وبعض البنات قد حاولوا التدخين قبل الآن . والآن يستطيع الوالدون أن يتحققوا ما إذا كان التدخين من الأمور التى يحتمل رسوخها فى نفوس أبنائهم أم لا ، ويميلون إلى حضهم على فعل ذلك داخل البيت إن أصبح ذلك العمل شيئا لا مفر منه . ولم يدخل احتساء الخمر بعد منطقة المشكلات ، وإن قبل بعض أبناء الخامسة عشرة احتساء الكوكتيل إن قدم إليهم بإحدى حفلات الكبار ، كما أن بعض البنات فضلا عن الصبيان قد شرعن فى الاستمتاع بالبيرة . أما احتساء الكبار للخمور فينظر إليه ابن الخامسة عشرة نظرة تباعد وحياد متحدثا عنه بوصفه « شأنهم الخاص » .

ويصبح السباب أكثر اعتدالا مما كان . بل الواقع أن ابن الخامسة عشرة أميل إلى التدقيق فى اختيار ألفاظ السباب التى يستخدمها . إذ الظاهر أنه يعبر عن توتراته عن طريق منافذ أخرى عدا السباب . وربما كره كرها باتا استخدام أى ألفاظ سباب تتصل بالمقدسات .

وليس ابن الخامسة عشرة ميالا للغش ، كما أنه لا يحب أن يرى الآخرين يغشون . وربما لحظ أن للتأخرين فى الترتيب بالفصل أكثر اتجاها وتعرضا للغش ، أو أن الذين كانوا يميلون إلى الغش فى الرابعة عشرة يكونون ضعافا بالمدرسة فى الخامسة عشرة . وهو الآن يحس بالصدمة من أن الأشياء الثمينة التى تترك بالمدرسة قد تسرق . وهو يسأل ذلك السؤال العريق القدم : « لماذا يفعلون ذلك؟ » على أن معظم أبناء الخامسة عشرة أمناء إلى حد ما ، ولما كانوا يعرفون أن أطفالا معينين أكثر تعرضا للتحقيق معهم حول السرقات ، فإنهم يقطعون بأن « السرقة شىء لا يغنى » .

٩ — النظـــرة الفلسفية

الزمان والمكان

تضفى الخامسة عشرة تعريفا أضبط على فكرة الزمن الشاملة غير المحددة التى تتميز بها الرابعة عشرة فيصبح الزمن منهجا وقياسا . وهم يتحدثون عنه بأنه فترة أو شىء تجريدى ، ومع ذلك فهو « شىء محسوس جدا » . وهو يصبح عندهم « فترة من ثوان ودقائق وساعات ومقياسا للفضاء » .

ومع ذلك ، فإن بعض أبناء الخامسة عشرة لايستطيعون تثبيت معنى الزمن بمثل هذا التجريد الشديد . ومع أنهم يرون أن الزمن شىء لا سبيل إلى تغييره ، إلا أنه مع ذلك « يبين الشىء المتغير » . وربما كان « شيئا عابرا » ، أو « أنت لا تستطيع أن تعتمد عليه ، أنت لاتستطيع أن تتصوره » ، ومع ذلك فهو « يواصل مسيره إلى النهاية كجرى الماء » . وبعض أبناء الخامسة عشرة ينسبون الزمن إلى دوران الأرض وطول عمرها . ثم إن بعضهم الآخر يضيفونه إلى ذمة التاريخ .

وزيادة على « تاريخ الزمن » يوجد « الزمن الشخصى أيضا » . وهو كما يقول أحد أبناء الخامسة عشرة « الشىء الذى يضبط مقادير وحظوظ الناس جميعا » .

وابن الخامسة عشرة أقدر على ضبط الزمن مما كان وهو فى الرابعة عشرة . وهو يعرف ميله إلى التأخر ، ولذا فهو « يعرق من خلاله » أو يقدم ساعته مقدما لكى يحافظ على الميعاد . وهو يرى أنه لايحصل أبدا على كفايته من الزمن ، ولكنه يعرف أنه يكون أحسن فى أداء عمله إن ضاق عليه الوقت . وابن الخامسة عشرة لا يحب الكسل . وهو « يحب أن تجىء الأشياء مجتمعة اجتماعا دقيقا ، وأن يشغل كل دقيقة من الوقت الزائد عن الحاجة » . من أجل ذلك يحب ابن الخامسة عشرة أن يؤدى الأعمال ببطء إلى آخر دقيقة ، وإن جاز أن يتعجل عندئذ . انه يفضل لو تعجل قليلا على الجلوس متعطلا لا يفعل شيئا .

على أن الفضاء شىء لا يمكن تثبيته بنفس سهولة تثبيت الزمن . وقد أصبح ابن الخامسة عشرة الآن على شىء من العلم بالمادة والمواد الغازية والقوة الجاذبية. وهو يحاول أن يربط بين هـذه وبين الفضاء (« الفضاء منطقة ليس بها شىء ذو قيمة مادية ، فيها نقص فى المادة » ، أو « الفضاء شىء توجد به المادة أو امتداد هائل من مادة غازية ») . ولكن ابن الخامسة عشرة شديد العناد فى تفسير ما يقصد بالفضاء أو فهم ما يرمى إليه غيره من تلك اللفظة فهو يقول . « الفضاء على كل حال شىء لا يعرف أحـد عنه شيئا . » — أو «لايدرى أحد مدى كبره أو صغره» . ولكن هذا النقص فى المعلومات لايمنع ابن الخامسة عشرة من التعبير عن رأيه أو الادلاء بمعلوماته . وتدور فى ذلك الموضوع أثناء حصة العلوم مجادلات مدهشة كثيرة ، وهو شىء يملأ فؤاد ابن الخامسة عشرة بالبهجة والاغتباط . وهذا الطراز من المناقشة يشحذ شهيته إلى المزيد .

وقد أخذ ابن الخامسة عشرة يصبح أقدر على ضبط اتجاهه المكانى . حتى البنات اللواتى تجلت فيهن فى زمن مبكر حاسة اتجاه (sense of direction) ضعيفة ، قد أصبحن الآن أكثر تنبها إلى موقعهن من الفضاء ، وإن كن لا يزلن يجهلن الجهات الأصلية . وابن الخامسة عشرة يحب السفر ، كما أنه يحب بوجه خاص أن يبتعد عن البيت ، فإن هو تهيأ له الطيران ، أصبح ذلك أحب شىء لديه .

الموت والإله .

ليس من الأمور السهلة على ابن الخامسة عشرة قبول قوى لايملك ضبطها والهيمنة عليها ، كالحياة والموت . وهناك خوامس عشر يمتازون بالواقعية إزاء الموت — «للموت شىء لابد منه» ولكنهم يكشفون فى ثنايا عدم مبالاتهم نفسها عما يملأ نفوسهم من انشغال داخلى وهم يقولون إنهم « يتحاشون فكرة الموت» ، وإنهم « لا يخشونه ولا يتطلعون إليه . » فالموت « شىء موجود معك دائما . فليس بيدك من وسيلة تفعلها إزاءه » . فكأنما يتقبلون الموت بوصفه « نقطة توقف » ، وربما ربطوا بينه وبين اللون الأسود .

ويحاول بعضهم النظر إلى الناحية الفكهة : فيقـــولون : « إن الناس يموتون فى كل آن ، ولذا فسأجد من يؤنسنى هناك » . وعدا ذلك ، فإن هناك آخرين يعكسون فكرة الموت على القتل ويظهرون مافى نفوسهم من كف وإعراض عن مثل ذلك العمل . وذلك كما قال أحد الصبيان « لن أقتل أى إنسان لخشيتى من رب معنوى » . فما أبعد الصبى الذى أوتى القوة المانعة التى تكف مابنفسه من حافز إلى القتل ولولم يكن ذلك إلا عن خوف من قوى فوق إدراكه وفهمه .

أمامايحدث بعدالموت « فسر كبير » مغلق على كثير من أبناء الخامسة عشرة وهم يقولون بصراحة إنهم ليست لديهم « أى فكرة » ، وأن ذلك « شىء العلم به فوق قدرتنا » . على أن فكرة كون الموت « نوما لانهائيا » قدترضى البعض . وحتى أولئك الذين كانوا فيما سلف يعتقدون فى الجنة يجدون هذه الفكرة الآن عسيرة القبول قليلا ما ، وإن أحبوا أن يؤمنوا بوجود شكل ما من أشكال الحياة بعدالموت . ذلك أن تنبههم الفضائى الخاص يعسر عليه أن يضع الناس جميعا إما فى الجنة وإما فى النار . فإن إحدى بنات الخامسة عشرة تتأمل الأمر وتقول : « إنهم يكونون كثرة هائلة من الناس . » وحتى عندما علمت بتحول جميع الأجسام المادية إلى أرواح وهى « شىء لا يشغل حيزا كبيرا من الفراغ » ، فإنها ظلت مع ذلك مضطرة أن تسلم « بأنهم يكونون كثرة فظيعة من الأرواح » .

ومن أبنـــاء الخامسة عشرة من يستمسكون بفكرة ما عن وجود الحياة بعدالموت استمساكا كا هو — على الأقل — القوة بحيث يتكفل ببقاء ذكرى الأموات فى عقول أو ذاكرات من لايزالون على قيد الحياة . وربما لم تستمر هذه الذكرى إلا عند المتصلين بأوثق الروابط بمن غادروا هذه الدنيا ، أو لعلها تحدث بصورة مؤكدة أكثر عن طريق عمل ابتكارى كالذى يخلفه الفنان من ورائه .

وابن الخامسة عشرة غير متحقق من فكرته عن الإله كشأنه حيال الموت . وربما اقتصر فى حله لمعضلته بمجرد قوله إنه لا يدرى أو حتى إنه

لا يؤمن بالله . ومع ذلك فإنه يتردد . فهو يقول « إن القول الفصل فى هذا فيه شىء من الصعوبة » — أو أنه « يبحث عن فكرة عن الله » . وهو يدرك تشككه ، ولكنه يدرك أيضا تذبذبه وتردده وربما استطاع وهو فى حالة من الاستخفاف أن يستنتج أنه «ليس هناك إله» ، ومع ذلك فهو يخاف أن يختبر مدى صدق هذه الفكرة . وفى أحايين أخرى يكون فيها فى حالة إيجابية أكثر ربما أحس « بتدين مفرط » ، ورأى أنه « يحتمل أن يكون هناك إله » . فإذا تغلبت عليه شكوكه مرة ثانية ، فربما حدس « إن الديانة شىء مضحك ، والناس لا يعرفون ، وإذن فهم يخترعونها » .

ومع أن هذا الشك وهذا البحث من الأمور الشائعة فى ابن الخامسة عشرة ، فإن بعض أبناء الخامسة عشرة يستطيعون الاستمساك بمعتقداتهم بقوة . وإنهم ليسلمون بأن « الله قوة عظيمة لا نفهمها » — وربما لم يكن إلا مجرد « الضمير الحسن » وهم « يعرفون أنه لا بد من وجود شىء هناك . وإلا فإنها [أى الحياة] ما كانت لتبدأ » . ولكن الذى يحدث وسط هذا القول الإيجابى بأنهم « يظنون فعلا أن هناك إلها » أنهم يستطردون فيقولون « ولكن يصعب على صعوبة فظيعة أن أعرف ما أظنه أنا نفسى » .

وابن الخامسة عشرة واقعى فى تفكيره . ذلك أنه قد أخذ يعود — ولكن على مستوى أعلى — إلى الآراء والمعانى العامة التى كانت تخامره فى التاسعة والعاشرة . لقد دارت الدورة دائرة كاملة وعاد الطفل إلى الحقيقة فى صورتها الضيقة . فليس عجيبا إذن أن ابن الخامسة عشرة المؤمن لا يتصور الله كروح فقط ، بل كشخص أيضا وليس عجيبا أيضا أن الخامس عشر المتشكك يعسر عليه أن يتصور وجود روح بلا جسد ، ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يؤمن بوجود شخص خارق للطبيعة .

وإن عدداً من متحمسى الرابعة عشرة الذين كانوا يختلفون بانتظام إلى جماعات الشبان وصلوات الكنيسة ، ربما شعروا الآن وعلى حين بغتة بانقطاع علاقتهم بالكنيسة . ذلك أنهم لغير سبب ظاهر لم يعودوا يرغبون فى الذهاب إليها . وهناك مع ذلك

أولئك الذين لا يبرحون يستمتعون بنواحى نشاط الشباب الجماعية ، ليس فقط من أجل البرنامج الاجتماعى ، بل ومن أجل أداء الصلوات . وهؤلاء ربما أمكن توقع مواصلتهم لعلاقتهم بجماعة الشباب أثناء سنى المدرسة الثانوية .

وربما فضل بعضهم صلوات الكنيسة على أنواع نشاط جماعات الشباب . وربما حضر ابن الخامسة عشرة إلى الكنيسة عن رضا إذا تأكد أنه لن يلزم بالجلوس مع والديه . ولو أنه خير لفضل الوقوف فى آخر الكنيسة ، من الخلف . ومع أن ابن الخامسة عشرة لا يختلف إلى الكنيسة فإنه يحب بالفعل أن يشترك فى أجازات الكنيسة الخاصة . بل ربما رغب أن يجلس مع والديه فى مثل تلك المناسبات .

الفصل العاشر

سن السادسة عشرة

مصور النضج

إن للمجال العظيم للتطور البشرى دورتين ثانويتين كبرى وصغرى ، أما الدورة الثانوية الكبرى التى بدأت بالسنة العاشرة فإنها تتم دائرة كاملة فى السادسة عشرة ، ثم تندفع نحو النضج فى فترة خمس سنوات أو أكثر . فالشاب ابن السادسة عشرة يوشك إن هو وقف على أطراف أصابع قدميه أن يرى أفق الرشد ، فإنه هو نفسه فى مرحلة ما قبل الرشد .

والمجتمع يمنحه مكانته ومركزه الأعلى بما تخوله إياه القوانين المتنوعة والعرف والآمال المنتظرة منه . ذلك أن موقف الوالدين منه والمعلمين والمستشارين يمر بتغيرات خفية مستترة إدراكا منهم واعترافا بنضجه المتزايد. ولم يكن لنا مفر من أن نحس هذه التغيرات أثناء المقابلة والامتحان والمحادثات التى جرت عند زيارته السنوية لنا عند سن السادسة عشرة . فلقد كان ما يدور بيننا من أخذ وعطاء أشبه الأشياء بما يجرى بين الأنداد . وموقف ابن السادسة عشرة ممن يكبرونه يوحى فى حد ذاته بأنه صار أنضج وأكبر. فإذا تفاعلت الاتجاهات والمواقف المتبادلة بين الأشخاص من تلقاء نفسها على هذه الشاكلة فربما أمكن أن نفترض أن هناك قوى تطورية فعالة . ولابن السادسة عشرة عقل أكثر رصانة وتماسكا للذات لأنه أصبح أكثر ترتيبا ويخضع لضبط أحسن.

وابن الخامسة عشرة كما أوضحنا آنفا كان الطليعة التى لابد منها . فهو الذى مهد الطريق للتكاملات الأرحب أفقا والأكثر اتزانا لسلوك ابن السادسة عشرة وبهذه الميزة يكشف ابن السادسة عشرة عن اعتماد على الذات أعظم واستقلال ذاتى أعمق .

وتأكيد الذات بطريقة صحية سليمة هو سمته الأساسية . كما أنه عرض من أعراض قواه الكامنة . ولم يكن الأمر كذلك عند مستوى نضج الخامسة عشرة ، يوم كان غالباً ما يبدو متبرما مترددا بل حتى ثائراً متمرداً . ولقد كان له عندئذ روح استقلالى ، أما الآن فإنه قد أحرز بدلا من ذلك الروح حاسة استقلالية . وإنه ليعتبر بصورة آلية (أوتوماتيكية) أن له نصيبا مسلما به من الاستقلال . كما أن ثقته بذاته تكون من قوة الاستقرار والرسوخ بحيث يسلم والداه أيضا بذلك — وهو مثال آخر على التفاعل الحساس الحادث فى علاقات الرشيد بالشاب . لقد كان يقاوم وهو فى الخامسة عشرة ، أما الآن فإنه يكتفى بأن يأمل أن يسير الوالدان فى طريقهما وينتهج هو نهجه . من أجل ذلك قل الاحتكاك ، فهو يقول وكله ثقة « لا تقلقوا من أجلى » .

وهو أكثر تسامحا إزاء العالم بوجه عام . كما أنه ينزع إلى تقبل الحياة على علاتها . فإذا جاءت ضيفة عن غير موعد سابق ، فربما أذهلك باللقاء الودى وبمهارة من هم دون البالغين التى يستقبلها بها ، نافضا كل توتر . وما كان نفس هذا الصبى ليستطيع أن يفعل ذلك وهو فى الخامسة عشرة ، (ونحن إنما نصف هنا اختلافا نضجيا ، وليس اختلافا مزاجيا) . أجل فى إمكان التنبه الذاتى الذى زاد ارتفاعا أو تعمقا فى الخامسة عشرة أن يتدخل تدخلا مؤقتا مع الأنماط المنبسطة (المتجهة نحو الخارج) وذلك بينما يبلغ من اهتمام ابن السادسة عشرة بالناس وميله لهم ، أن يستطيعوا أن يثيروا أو يبعثوا فيه اتجاهات إيجابية واستجابات اجتماعية .

ويكاد ابن السادسة عشرة أن يجعل من ميله للناس فنا يتخصص فيه بعقده أواصر صداقات عديدة مع غيره . وهو أمر يصدق على البنات والصبيان على السواء ، وتنعقد أواصر صداقات وزمالات كثيرة على أساس غير غرامى رومانتيكى . والسادسة عشرة سن حفلات رسمية وحفلات احتساء شراب البرتقال والليمون[1] Punch وحفلات شاطىء (بلاج) وحفلات مرطبات واسطوانات وحفلات رقص رسمية وغير رسمية .

---

(١) Punch عصير يقدم فى حفلات الرقص بأمريكا وهو مزيج من البرتقال والليمون .

وربما تكونت شلل مختلطة من الجنسين قوامها عشرون أو أكثر على نحو غير متماسك تماما لأداء بعض المناشط الاجتماعية دون اهتمام كبير بعمل جدول لها أو إعدادات أولية. وقد ظهر لنا أن ثلثى الصبيان فى مجموعتنا يتواعدون وكذلك جميع البنات تقريبا .

ويوطد الصبيان صداقتهم بإخوانهم الصبيان ، توطيدا يقوم بوجه خاص على الميل المشترك إلى أنواع من النشاط أو الألعاب الرياضية أو الأعمال الخصوصية . وتعقد الغالبية أيضاً صداقات مديدة الأمد ؛ ولكنها غير حامية الأوار . ويذكر معظم البنات أن لهن « ملايين » من الأصدقاء . وقد تكون صداقة البنت للبنت وثيقة حميمة أحيانا بحيث تضايق العائلات . وتتبادل الصديقتان خبايا نفسيهما : « إنها تخبرنى بكل شىء وأنا كذلك أخبرها بكل شىء» ... وأهم عنصر فى أحاديثهن هو البحث فى سمات أصدقائهن من الصبيان .

وصحبة الأصدقاء تفضل فى العادة على صحبة العائلة ، وذلك يرجع من ناحية إلى عدم توفر الوقت اللازم لصحبة العائلة . ومع ذلك فإن ابن السادسة عشرة يحب أن يلتقى بأصدقائه فى بيته . وقد تحسنت العلاقات بالعائلة فعلا ؛ وأصبحت المجادلات أقل عددا . وأخذ يتجلى فى علاقات الوالدين والأبناء والبنات قدر أكبر من التفاهم المتبادل. ومع ذلك فقد قرر أحد الوالدين أن ابنته تصايحت فى وجهه وعيرته بعيوبه ونقائصه . وثمة أخرى ترى أنه ليس من حق أمها أن تفتح خطاباتها . ويحب الصبيان أن يحسوا أنهم يعيشون عيشة مستقلة ؛ حتى إذا ظهر أن هناك مشكلة معقدة لجأ الصبى من هؤلاء إلى أمه يلتمس نصيحتها ومباحثتها فى الأمر ، مفترضا أنها ستعامله كند لها .

وتختلف علاقات الأخوة بعضهم ببعض باختلاف درجات التوافق والوئام بينهم ، ولكنها على الجملة مرضية . ويحب ابن السادسة عشرة الممازحة والضحك . ولعل مماكسة ابن السادسة عشرة للاخوة ومماكستهم له تنطوى على بعض القيم الوظيفية لكل من الطرفين .

وربما لاح لنا فى بعض الأحيان أن ابن السادسة عشرة قد تناسى بيته — بيد أن ولاءه وتعلقه بعائلته لم يضعفا أبداً . وكل ما فى الأمر أنهما لانا قليلا لإتاحة المجال

لخبرات أرحب أفقا تطبعه بالطابع الاجتماعى خارج حدود البيت . ويرحب كثير من الصبيان بالفرصة التى تتيح لهم أن يحصلوا على عمل ذى مسئولية أثناء الصيف وأعمال عارضة أثناء السنة المدرسية. ومجال الاختيار بين مختلف فرص العمل فسيح جداً . وقد أوتى كثير من الصبيان والبنات قدراً من روح المسئولية كافيا لحملهم على العودة إلى مخيم صيفى للعمل كمستشارين . أو لعلهم يحضرون مخيمات ذات أغراض خاصة كمخيم الكنيسة أو مخيم الموسيقى أو مخيم السفن الشراعية أو مخيم الفرنسية. وربما واصلت البنات إظهار قدر معين من التراخى والتوا كل إزاء الأعباء المنزلية ، ولكنهن فيما عدا ذلك من شدة الانشغال بحيث يجىء على الوالدين وقت يقتنعون فيه فى النهاية أن بنت السادسة عشرة ليس لديها أى وقت تساعد فيه أحداً . ومجالسة الأطفال وظيفة محببة للحصول على المال خارج البيت . ومع ذلك ، فينبغى ألا يفوتنا أن بنت السادسة عشرة أخذت تصبح أقدر على ملء الفراغ ومواجهة مطالب الأحداث والطوارىء فى بيتها عند غياب أمها . ذلك أنهن يملن إلى إتقان العمل إذا لم يتلقين توجيهات شديدة التدقيق .

وابن السادسة عشرة يتجه نحو المستقبل اتجاها وطيداً وأكثر رسوخا مما كان وهو فى الخامسة عشرة . ويكاد جميع أعضاء مجموعتنا تقريبا أن يزمعوا الالتحاق بالجامعة أو بمدرسة خاصة ككلية الصيدلة أو مدرسة فنون . وقد ظهر أن الاختيار لم يعد يتأثر بالكلية التى درس بها الوالدان . وقد عبر عدد لا يستهان به من البنات عن إيثارهن لنوع المدرسة التى تسمح باختلاط الجنسين أثناء الدرس .

وقد أسفر استفتاء معهد جالوب الذى أجريناه عن مشروعات الزواج عن تناقض غريب . فإن ثمانين فى المائة من البنات وثمانية عشر فى المائة فقط من البنين يرجون أن يتزوجوا أو يضعون الخطة لذلك . ومع ذلك فإن كثيراً من الصبيان قد ذكروا لنا — أخذا بأسلوب المحافظين — أنهم لا يدرون الآن هل سيتزوجون ، كما أن قلة فقط هى التى أدت بلهجة باتة أنها لن تتزوج . وكانت البنات تؤكدن تلقائيا كعادتهن ضرورة الحصول على الأطفال ، بل لقد يبلغ بهن الأمر غالبا أن يذكرن كم طفلا سينجبن ، مع العلم أن الأربعة هى العدد المفضل فى الأطفال .

وقد وجدنا مفحوصينا أكثر استعداداً للكلام عن الزواج بطريقة صريحة وجادة. وعند ما سئل الصبيان ما هى الميزات التى يقدرونها قدرها فى الزوجة ، أجابوا بطرق مختلفة : « الذكية والجميلة والمقتصدة والهينة اللينة والطاهية الساهرة والمرحة » . وأضاف أحد الصبيان قوله : « المثابرة » وأجابت البنات كسابق عهدهن ، إنهن يرغبن فى زوج « حسن الطبع أو مليح الصورة أو غير أنانى ويساعد فى الأعمال المنزلية ويكون محبالى » . والصفات الإضافية التى تذكر الآن كانت تشمل الآتى : « جاد ويمكن الاعتماد عليه ومخلص وثابت رصين وصبور وليس عصبيا ويعرف ما هو صانع » . وبهذه الإجابات كانت البنات تؤكدن بالغريزة التشديد على العلاقات المتبادلة مع الناس .

وبنات السادسة عشرة يملن إلى معيشة البيت إلى حد ما ، فإن واحدة من كل ستة كانت ترجو أن تجمع بين العمل والزواج . على أن ثلثى البنات أظهرن اتجاها إلى العمل حتى يتزوجن ، « لكى يكون لديهن شىء يعتمدن عليه » أو « لكى يكون لديهن شىء يعملنه إذا ساءت الأحوال » . واقترحت بعضهن أن يقوم زواجها على أساس من المشاركة بين الشريكين المتعادلين . وقد اختارت البنات عشرة أنواع مختلفة من الحرف كانت فى مقدمتها ، الفنان وعالم نفس الطفولة والمعلم .

وبلغ عدد ما ذكره الصبيان واحدا وعشرين وظيفة ومهنة ، أهمها الهندسة والقانون والعمارة والطب . وقد أظهر الصبيان فى مجموعتنا اهتماما جديا بالمسائل المتعلقة بالحرفة والاحتراف . وهم يسلمون مقدما بأن عليهم أن يقوموا فى المستقبل بنصيبهم من العمل فى العالم . ولا شك أن هذا الاتجاه جزء من تأكيدهم الأساسى للذات. على أن ابن السادسة عشرة تقلقه الخدمة العسكرية ، كما أن ما يحتمل من تضاربها مع استعداداته لاتخاذ حرفة ، قد أخذ يقطع عليه حبل تفكيره . ومن البديهى أن أحداث الساعة السياسية والفنية (التكنولوجية) والعلمية الهائلة ، إنما هى لديه أحداث اليوم الجارية . فهى تتحداه وقد تلهب مطامعه . ومع ذلك ، فإن وقعها عليه يكاد يكون تفجيريا ، كما أنها لا تجعل واجبه التطور من الأمور الهينة . ولم يحدث قبل ذلك البتة

فى دورة التاريخ بأكملها أن التفت العالم بمثل هـــذا الاهتمام والاكباب إلى موارد الشباب والتربية .

أما من حيث ابن السادسة عشرة ، فإن من حسن حظه أنه يمر فى مرحلة موائمة من مراحل التطور — كفرد وكعضو فى الثقافة العاصرة . وقد صارت سمات نضجه متوازنة توازنا يبدو أكثر مواءمة مما كانت عليه عندمستوى نضج ابن الخامسة عشرة . فهو مزود بقدر أكبر من الرغبة فى معـارضة أصحاب مذهب الجماعيين [١] والشعبيين ومقاومتهم . وهو أقل استغراقا فى التنبه الذاتى ، كما أن روحه الاستقلالى أقل اندفاعا . وقد صارت له حاسة استقلالية رصينة ستحميه حماية سوية من التقمص المفرط مع الجماعات والعصابات المضادة للمجتمع . وقد تقدمت مفهوماته العامةعن العائلة والحرفة وعلاقاته بالبيت والمدرسةوالمجتمع تقدما مذهلا منذ سن الحادية عشرة ، كما أنها أعدته لنواحى التقدم التالية فى سنوات المراهقة الخمس التالية .

وفى استطاعتنا الآن وقد استنرنا بالمعلومات الصريحة التى أمدنا بها مفحوصونا ووالدوهم ، أن نلمس فى ابن السادسة عشرة طائفة من السمات التى تعد عند مستوى ما قبل بلوغ الرشد أمارات تتنبأ مقدما بما يسمونه باسم العقل الناضج . فأولا وقبل كل شىء يتحكم ابن السادسة عشرةفى انفعالاته تحكما جيدا إلى حد ما . فهو على وجـه العموم ثابت لا يميل يمنة ولا يسرة وهو ليس سريع التأثر : فهو يدارى مشاعره المجروحة ، وهو ليس مستسلما للقلق ولا يستمرىء تقلب الحالات المزاجية بدرجة غير مناسبة . ويندر أن يبكى . ومن عادتهأن يكبح جماع غضبهأو يخادع ويداور من حوله بالتباعد والخروجأو بصورة غير مباشرة بالضحك منهموالسخرية . وهو يحب الضحك ويستمتع به بوفرة فى المحافل الاجتماعية اللائمة . وكثيراً ما يقرر الأبوان المرة تلو الأخرى ، «إنه الآن مرح ودود وانبساطى منطلق وجيد التوافق» .

---

(١) مذهب الجماعيين Totalitarianism مذهب فى الحكم يحصرالأمر كله فى يد الحكومة ويحصر الحكومة فى يد قلة .

وينبغى لنا أن نؤكد اتصافه برعاية مشاعر الناس ، تلك الرعاية التى تعود بالنفع على توازنه وقدرته على معايشتهم ، وهو ذو اهتمام بالطبيعة البشرية ، كما أن مما يزيد قوة ملاحظته شحذا زيادة قدراته على الحكم ، وذلك لأنه كان ينمو ذهنيا مثلما كان ينمو انفعاليا . بل الواقع أنه قد شرع هنا فى تقدير دوافع الناس الشخصية ، سواء منهم لذاته أو من يكبرونه . والآن وقد هبط تنبهه الذاتى ، فإنه يصبح أكثر رغبة فى الاطلاع على وجهة نظر غيره من الناس . وهو يحب أن يحس أنه ينظر إلى الأشياء نظرة أرحب . فاذا سنح الحين المناسب راعك منه تعقيبة كتعقيب الكبار البالغين على أحد المواقف المعنوية أو الخلقية ، كاشفا بذلك عن روح تسامح وإدراك . ألا ترى أن صبى وصف عقوبة ظالمة نزلت بزميل له فى إحدى المدارس الإعدادية ، كيف عقب بطريقة فلسفية « مهما يكن الحال فلا بد لك أن تواجه أمورا مثل هذه » . وثمة آخر سلم وهو يتحدث عن مستشارى المخيمات بأن « منهم من يكون شخصا عاقلا بين لحظة وأخرى ، ولكن ذلك هو المتوقع » . « إن الأشياء لا تجيئك فورا . لذلك فأنت تستطيع أن تنتظر » . فمثل هذه الأقوال التى تنم باخلاص ونقاء سريرة ، إنما هى أدلة على عقل أخذ ينضج . وفى الإمكان تناولها من ناحية كل من قيمتها العميقة والسطحية على السواء ، وذلك لأنها تصدر عن دوافع متحررة ، وتدل على أن ابن السادسة عشرة قد تقدم تقدما ضخما فى تنظيم شخصيته الخاصة . لقد بلغ التنبه الذاتى والاعتماد على الذات والتوافقات الشخصية الاجتماعية فيه توازنا وتكاملا أحسن وهذا حال يجعله وهو فى منتصف مرحلة المراهقة نوعا من الصورة المماثلة لشاب ما قبل الرشد .

ومع أنه لن يحمل نصيبه من تراثنا الثقافى عن طريق مراسم وطقوس شرعت للانضمام إلى تلك الثقافة ، فان الأوضاع التطورية تخلع عليه وضعا خاصا . والسنة السادسة عشرة لها من وجهة نظر التربية والتفقيه فى المبادىء مفهومات بعيدة المدى تتضمن معانى بالنسبة للشباب كله ، البنات منه والصبيان على السواء .

والمجتمع الديموقراطى مضطر أن يلجأ بحكم هذا العصر الصناعى (التكنولوجى) الذي نعيش فيه إلى زيادة الاعتماد على قوانين وسنن المسلك الفردي ليصون حقوق

مواطنيه وسلامتهم . وحتى ابن السادسة عشرة نفسه يبدأ — بما تهيأ له من نظرة واسعة الآفاق — ، في إدراك أهمية سنن وقوانين السلوك المكتوب منها وغير المكتوب. لقد كان وهو في الخامسة يحيي العلم ويقسم القسم . ومنذ ذلك الحين التقى بقواعد جمة وتنظيمات عديدة تتحكم في سلوكه بالبيت والمدرسة فانه ملزم بتقبل القيود القانونية الموضوعة على قيادة السيارة . ثم إن قوانين أخرى تحذره . وربما وضع والده وآباء زملائه سنة تعاونية للحصول على أحسن التنظيمات اللازمة للحفلات وحفلات الرقص وغيرها من أنواع النشاط ، وابن السادسة عشرة يدرك حتى وهو في سنه الحالية ، أن لوطنه حقوقا خطيرة على أبناء الوطن . وقد صيغت هذه الحقوق في العصر الأخير في وثيقة رائعة هي قانون يحدد سلوك رجال الجيش الأمريكيين وهم أسرى حرب . والقانون مكتوب بلغة بسيطة يستطيع كل شاب أن يفهمها كما أنه يعد شيئا أكبر أهمية من مجـــرد قانون عسكرى . » إنه تقييم للمواطنة ، وبحث في المسئولية ومرشد إلى السلوك الأحسن في المستقبل . وينبغي أن ينطبق على المدنيين تطبيقه على العسكريين(١) » .

وتقرير اللجنة الاستشارية الذى صدر مع القانون ذو أثر مباشر على التطور السليم للمراهقين بغض النظر عن الاعتبارات العسكرية . ويسترعى القانون الأنظار إلى أن عدداً عظيما جداً من رجال الجيش من المراهقين أبناء العقد الثانى الذين لم يكونوا يعلمون

---

(١) Code of Conduct for American Service men
افتتاحية رئيس تحرير النيويورك تايمز ١٩ أغسطس ١٩٥٥ ، وتنص المادتان الأولى والأخيرة في ذلك القانون على التالى :

مادة أولى : إنى محارب أمريكى . أخدم في القوات التى تحمى وطنى وطريقة حياتنا ، وأنا مستعد أن أبذل حياتى دفاعا عنهما .

مادة سادسة الأخيرة : لن أنسى أبداً أنى محارب أمريكى مسئول عن تصرفاتى ، قد وهبت نفسى للمبادىء التى حررت بلادى . إنى أومن بربى وبالولايات المتحدة الأمريكية .

إلا النذر اليسير عن الولايات المتحدة ، مثلها العليا وتقاليدها . ويؤكد التقرير حاجة البلاد الماسة إلى حصون روحية وتربوية تصون الأبناء من تغلغل مذاهب العدو السياسية . ولا شك أن المسئولية الأساسية فى بناء مواطنين صالحين أى أمريكيين موالين لوطنهم — إنما تقع على عاتق البيت والمدرسة والكنيسة والمجتمع زمن السلم ، « وذلك قبل أن يدخل أى فتى الخدمة العسكرية بزمن مديد » .

وبهذا التفسير التفصيلى لمشا كل التدريب على المواطنة ، تصبح لمبادىء قانون السلوك أهمية ضخمة فى تربية وإرشاد الشباب المراهق ، فنحن جميعا نعد بمعنى ما محدد ، مشتركين فى واجب حماية وطننا وطريقة عيشنا .

ولا شك أن فتى السادسة عشرة إنما هو رمز يمثل تمقد ذلك الواجب وتحدياته فى ثقافة ديموقراطية . لقد ولد حاملا لسمات معينة لا سبيل إلى التخلى عنها ، سمات فطرية فى أنماط تطوره نفسها . فانه لم يعد طفلا منذ حوالى سن العاشرة وتزايد بمرور الأيام انتقاله إلى شخصية فردية لها كل الحقوق ، وسيواصل النمو خضوعا لقوانين التطور نفسها ، القوانين المتأصلة التى صاغته إلى هذا الحد فى ثقافة وكل إليها باحترام كرامة الفرد وقيمته .

سمات النضج

١ - جهاز الحركة الكلى

الواقع أن ما تتسم به الحياة فى سن السادسة عشرة من يسر وسلاسة تقليدية - شىء يبلغ من شدة وضوحه أن لا يكاد المرء يصدقه . والحق أن جهاز الحركة لدى ابن السادسة عشرة قد أصبح له شكل ممتاز، جيد التكامل لين الحركة. فهو يتناول كل خبرة تسنح له بيسر واهتمام ، بغض النظر عن نوع ميدان الاجتهاد الذى يعبر فيه عن نفسه ، كما أنه يقبل دوره بتعاون طبيعى . ويحيط بابن السادسة عشرة جو من التهيؤ ، وربما قال هو نفسه : « إنى مستعد ، وسأظل كذلك دائما فى المستقبل » .

وهذا التهيؤ ، هذا التوافق والطبيعة فى تعبيره الذاتى الخاص يجعل من ابن السادسة عشرة رفيقاحلو الصحبة. وهو يتقبل المقابلة كموقف حقيق من مواقف الحياة يستطيع أن يستمتع به ويفيد منه . وهو يجلس جلسة متراخية ويتبادل معنا حديثاً لطيفاً هينا . ويجيب بحرية ورغبة فى الإفضاء بما عنده من معلومات . ويحصر التفاته داخل إطار المقابلة،ولا يضيف إليها مواد غريبة غير جوهرية من التى ربما حادت بالمقابلة عن نهجها وزجت بها فى طريق جانبى، وهو ما كان يفعله فى الخامسة عشرة. وهو يجىء إجاباته بيسر وسهولة . ولم يعد الأمر يحتاج إلى فترة تنشيط وحث كالتى كانت ضرورية غالبا فى الخامسة عشرة . كما لم تعد هناك تلك المناقشة الحادة الحامية الوطيس التى كانت أكثر شيوعا فى الخامسة عشرة . ومقابل ذلك غالبا ما تكون إجابات ابن السادسة عشرة سطحية .

بيد أن ابن السادسة عشرة يحب أن تتحداه، وربما قبل حضور المقابلة على هذا الأساس . وذلك كما علقت بنت فى السادسة عشرة : « تبدو الأشياء ضخمة جدا فى تلك اللحظة ، ولكن عندما تحضر المقابلة توجه إلى نفسك بعض

الأسئلة وتحدث نفسك بأن فى القابلة مساعدة عظيمة لك ؟ لأنك تكتشف مركزك بالضبط » . ومع أنهم ليسوا جميعا مفصحين على مثل هذه الشاكلة إلا أن الظاهر أن الغالبية تستمرىء موقف المقابلة ؟ فإذا شكر الفاحص ابن السادسة عشرة على مجيئه ، كان الفتى هو الذى يجيب بقوله : « أنا مسرور أكثر » .

الصحة :

يذكر كثير من أبناء السادسة عشرة تمتعهم بصحة مدهشة أو ممتازة . وربما غابوا عن المدرسة بين حين وآخر ، ولكن ذلك ليس فى العادة لأسباب صحية . وربما أحس ابن السادسة عشرة فى بعض الأوقات أن هناك أشياء أخرى أهم كثيراً من الذهاب إلى المدرسة — كالذهاب لأحد المعارض مثلا .

وربما لم يزل بعضهم يشكو مما يصيب بشرة وجوههم ، ولكنهم مستعدون لبذل كل مايستطيعون من حيث التغذية والعناية بالجلد لتحسين حال تلك البشرة. وكثيرا ما يحدث أن بشرة الوجه تتحسن فعلا فى السادسة عشرة .

ويبدو أن الصبيان شديدو التنبه إلى قدرة رئاتهم . وهم يعلمون أن ذلك عامل هام فى الألعاب الرياضية ، وربما نسبوا طول نفسهم أو قصره إلى مقدار مايستهلكون من السجاير. وربما جرب ابن السادسة عشرة أحيانا قدرته بكتم نفسه ، ويسوؤه أن يكتشف أن عينيه قد غامتا وأنه وقع مغشيا عليه .

متنفسات التوتر :

يظهر أن الشىء الكثير من التوتر الشديد فى الخامسة عشرة يتبخر فى السادسة عشرة . ولكن لاتزال هناك بقية من التوتر يعبر عنها بشىء من قضم الأظافر أو عض البشرة وبرم الشعر أو الدقدقة بسطح القدم . وقد حلت وتبددت إلى حد كبير الاستثارة والقلق اللذان كان ابن الخامسة عشرة يسببهما لوالديه بسبب هذه اللزمات .

البصر :

أصبح ابن السادسة عشرة يواجه الكشف على بصره مواجهة البالغ الرشيد تماما . وتصير إجاباته أدق

وأضبط كما أنه يدرك مواطن نقصه. ويصبح في الإمكان توقيع الكشف الطبي عليه بأسرع من ذي قبل. وابن السادسة عشرة متنبه إلى بصره ويسره الحديث عنه. ويخامره حب الاستطلاع حول الاختبارات التي تعطى له وما يبغى الممتحن اكتشافه. وهو يبتسم حين يدير عينيه أثناء اختبار الجولان البصري شاعرا بأن عينيه لابد أن تبــدوا « غريبتين » وهو يفعل ذلك.

وقد صار الأداء البصري أسلس الآن كثيراً ولم تعد تبدو في المهارات البصرية عيوب السنوات السابقة. والتآزر الحركي جيد. غير أن باختبارات المزج شيئا من الاختلاف يدل على وجود آلية بصرية أكثر مرونة وأقل ثباتا.

ولا يزال معظم أبناء السادسة عشرة محافظين على ما بهم من طول نظر، (+ ٥ر٠ ديوبتر). وليس من المحتمل أن إبصار قصار النظر من الصبيان أو البنات سيزداد قصرا في السادسة عشرة. فإن العلاقة بين القدرة على تثبيت البصر وتركيز بؤرته تتعرض لاسترخاء ومرونة. ويبدى ابن السادسة عشرة يسرا وسهولة في نقل بؤرة بصره من نقطة إلى أخرى. فأما أن في مكنته أن يجعل عينيه تعملان أيضـــا، ولا يستخدمهما فقط مجرد استخدام عارض ــ فأمر يتجلى من ظهور شيء من الانحراف البؤري الوظيفي (١). وهو يظهر ويختفي أثناء الكشف الطبي على البصر، وهذه الاستجابة التي هي أشبه ماتكون باستجابة القبض والاطلاق تظهر المجال والاتساع المتزايدين اللذين هما من أهم خصائص ابن السادسة عشرة.

وربما لم يكن ابن السادسة عشرة ممن يكثرون من القراءة. بيد أنه يقرأ بالفعل مايقرأ بجهد أقل، ومع ذلك فغالبا مايكون إما مشغولا جدا بمطالب المدرسة أو مطالب عمل يستغرق بعض وقته أو بمطالب الحياة الاجتماعية، بحيث لايستطيع الإكثار من القراءة.

وإذا كان ابن السادسة عشرة بحاجة إلى نظارة أو إلى علاج لبصره، استطاع أن يبت في ذلك دون حث من والديه فهو مستعد لتقبل الشيء اللازم.

(١) الانحراف البؤري: هو ما يسمى في طب العيون باسم الاستجمية astigmatism [المترجم]

التطور البدنى والتنبه الجنسى - البنات

ليس هناك فارق كبير بين بنات السادسة عشرة كمجموعة وبين بنات الخامسة عشرة. وربما قل إلى حد ما أثر الليونة والامتلاء اللذين يظهران فى الخامسة عشرة ، كما أن كثيراً من البنات ربما فقدن بالفعل شيئا من وزنهن عند سن السادسة عشرة . ولكن مظهر فتاة السادسة عشرة يبدو أقرب بصورة ما إلى هيئتها . فإن قوى النمو التى ستواصل تشكيل ذلك المظهر فى غضون السنوات المقبلة ستكون قوى أبطأ وألطف من تلك الطاقات الفعالة الظاهرة التى كونت ذلك المظهر إبان السنوات الست الأخيرة .

وتصبح دورة الحيض منتظمة إلى حد ما ولكن طولها نقص إلى ثلاثة أسابيع عند بعض البنات ، فى حين أن مدتها ربما تزيد عند قلة منهن وعندئذ تتراوح بين أسبوع وعشرة أيام ، مع عظم مقدار الدم النازل . والتشنجات أكثر شيوعا فى الأيام القليلة الأولى من الفترة . وقد تشتد هذه التشنجات أحيانا بحيث تضطر البنت أن تعود من مدرستها إلى البيت أو ترقد فى الفراش فترة من الزمن .

وتحس بنات السادسة عشرة إزاء هذه الوظيفة البيولوجية شعورا أقرب إلى شعور الراشدين . فان كثيرات منهن يستطعن الآن شراء فوطهن الصحية الخاصة دون أن يعتريهن أى ارتباك أو خجل .

التطور البدنى والتنبه الجنسى — الصبيان

يدفع ابن السادسة عشرة نموه المتواصل نحو مرتبة النضج ، غير أنه لايضيف ملامح وقسمات جديدة بقدر ما يشكل الملامح التى اكتسبها آنفا والظاهر أن تركيب أعضاء الجسم يتوطد ويرسخ ، بمعنى أن أجزاءه يحدث بينها توافق زمنى بدرجة أكبر . ويصل طول القامة اليوم لدى الولد المتوسط إلى ثمانية وتسعين فى المائة، من طوله المكتمل. على أنه سينمو بالتدريج إبان السنوات

القليلة المقبلة بوصة ونصفا أخرى . ومع ذلك فإن كثيرا من الصبيان قد توقفوا عن النمو توقفا تاما ، فى حين أن بعضهم ممن يتأخر نضجهم ربما أضافوا مع ذلك ست بوصات أخرى إلى طولهم. وحلاقة الذقن حوالى مرة كل أسبوع شىء شائع بين كثير من الصبيان . ويصبح شعر الساقين أكثر غزارة كما أن شعر الصدر يبدأ فى النمو عند بعض الصبيان .

والصبيان الذين كان لهم ميل للبنات قد أصبحوا الآن أكثر اهتماما، كما أن بعضهم أصبحوا الآن أقل رغبة فى الاستثارة الخارجية التى تحدثها الصور العارية والأدب الشهوى الفاسق . ولكن بعضهم يجد صعوبة فى ضبط دوافعهم الجنسية ، ولذا فهم يكثرون من الاستمناء ، ويلتمسون الاستثارة الشبقية فى الصور ويقرأون الروايات الجنسية التى يسهل عليهم جدا الحصول عليها (مع ترك أركان بعض الصفحات الخاصة مثنية) . ويبدو أن كثيرا منهم أخذوا يزدادون استثارة ببعض مصادر الإيقاع المنتظم — كالموسيقى والرقص وحركاتهم هم أنفسهم . كما يظهر أيضا أن أحلام اليقظة قد أصبحت مصدرا من مصادر الاتعاظ أقوى مما كانت فى الخامسة عشرة .

وتنقص على الجملة الدلائل على حدوث الإفراغ الليلى (الاحتلام) . ومع ذلك فان كثيرا من الصبيان لم يمر حتى الآن بهذه الخبرة ، كما أنها ربما نقصت عند الذين كانت تحدث لهم ، ويظل الاستمناء على كثرته التى بلغها تقريباً عند سن الخامسة عشرة . والاحتكاكات البدنية بالبنات ، ومعظمها يكون فى صورة التقبيل والمداعبة ، تزداد شيوعا . وتبلغنا بنات الرابعة عشرة أنهن يجدن شيئا من « العناء » مع هؤلاء الصبيان الذين يكبرونهن ، كما أن بنات السادسة عشرة يصبحن ماهرات جدا فى تلهيتهم عن أنفسهن عند ما يحاول هؤلاء الصبيان الاندفاع فى مسلكهم . ومن سوء الحظ — والشباب الآن يتفيأ هذا النوع الحديث من الحرية الاجتماعية الممنوحة لهم فى عصرنا الراهن — أن البعض ليس من النضج ولا من التمسك بأهداب الخلق بالدرجة التى تكفى

لتبرير هذه الحرية . إذ يعوزهم ضبط النفس كما يعوزهم الإحساس بالمسئولية والخيال لكى يتنبأوا بالأخطار التى تنجم عن المداعبة غير الحكيمة .

وقد أخذ تنبه الصبيان إلى غيرهم من الأشخاص ينطوى على قدر أكبر من الاستبصار . فعدد الذين أصبح لهم علم بمسألة الحيض عند البنات يزداد زيادة عظيمة أثناء السنة السادسة عشرة . كما أن حكم الصبيان على الآخرين قد أصبح كذلك أيضا مضبوطا ومنطويا على الإدراك . والظاهر أنهم يمكنهم أن يعرفوا الصبى الذى يتجاوز المدى فى جرأته والذى هو أقل اهتماما بالبنات أو أقل مهارة فى التعامل معهن . والصبيان الذين لا يحسون الارتياح أثناء مواقفهم الاجتماعية مع البنات أو الذين لا يريدون أن يشتركوا فى حفلات الشراب أو العناق ، ربما قرروا أن لا يحضروها لشعورهم بأنهم قد يكونون مصدر نكد وتنغيص .

٢ – العناية بالذات ونهج الحياة اليومية

كثيرا ما يبدى ابن الخامسة عشرة ذو الشهية الضعيفة شيئا من التحسن فى سن السادسة عشرة . وابن السادسة عشرة أقل صراحة فيما يتعلق بما يكره . بل الواقع أن استجابته للطعام غالباً ما تكون معتدلة إلى حدما . فإنه قد يأكل فقط ليظل على قيد الحياة أو لمجرد أن الطعام موضوع أمامه . وهو لا يفكر كثيرا فى الطعام إلا إذا كان جالسا فى أحد المطاعم أو اقترب موعد إحدى الوجبات ، ولكن هناك بعض أبناء السادسة عشرة (وهم بخاصة من الصبيان) الذين لا يبرحون ذوى شهية جيدة على الدوام . وكثيرا ما تكون البنات متنبهات إلى هذا الفارق فى الشهية بين الجنسين وخاصة عندما يتخذن الأهبة لإعداد غداء « للصبيان » .

ولأبناء السادسة عشرة أطعمتهم المفضلة . ومع ذلك فربما رفضوا ألوانا بعينها من الأطعمة ، بسبب ما يرتبط بها من ارتباطات غير سارة ، مثل اللسان والكلاوى (« لا أستطيع البتة أن أجرؤ على أكلهما ») ، أو بسبب مالها من طعم غير مألوف ، كما هو

الشأن مع الهليون (كشك ألماظ) والباذنجان . على أن ابن السادسة عشرة لا يلبث يوسع رقعة ذوقه بفضل المؤثرات الملطفة والموسعة للأفق التي تأتيه من تناول الطعام بالمطاعم المختلفة في الخارج مع أصدقاء منسجمين وإياه ؛ ويقلع عن الامتناع عن بعض الأطعمة وعن التحيز ضدها . والطعام الايطالي يفضل بوجه خاص ، كما أن الطعام الصيني يتناول أيضا مع شيء من الاهتمام ؛ فقد يحدث أن ابن السادسة عشرة نفسه الذي قد يأكل القليل بالمنزل أو يمتنع عن الأكل بتاتا ربما أقبل على الطعام بشدة في جو اجتماعي بأحد المطاعم .

وابن السادسة عشرة بوجه عام يجعل أكله في حالة توازن . فهو لا يتجه إلى التطرف لا إسرافا ولا إقلالا . وربما أقلّ الأكل في طعام الفطور ، ولكنه يعود في الوجبتين الأخريين فيعوض نفسه عما خفض[١] . فإن جنح وزن جسمه إلى الزيادة أدرك أنه ما عليه إلا أن يخفض مقدار ما يتناول من أطعمة معينة دون حاجة إلى عمل نظام خاص للتغذية (رجيم) . وهو يشعر بأنك تستطيع تدريب نفسك على التخلي عن لذة مؤقتة تنالها بأكل نوع خاص من الطعام لتتجنب « الصراع مع النتائج المترتبة على على ذلك — وهي أمر وأسوأ » .

وليس تناول اللهنات (الوجبات الخفيفة) بمشكل في السادسة عشرة . فإن بعضهم يتناول اللهنات فيما بين الوجبات العادية وغالبا يفضلون تناول اللبن على المشروبات الحلوة . وقد قل بدرجة ملحوظة تناول اللهنات ساعة النوم . ولكن تناولها في المطاعم بعد السينما أو بعد موعد أمر شائع بدرجة ما . كما أن عامل الائتناس لا يقل أهمية عن الطعام . وقد أصبح حب ابن السادسة عشرة الجديد للقهوة واستمراؤه لها شيئا واضحا الآن . ولعله كان وهو في الخامسة عشرة يرجو أن يجرب نصف فنجان أو يتظاهر بالمشاركة بأخذ فنجان خال مع طبقه ، ولكنه الآن يستمرئ طعم القهوة ، وربما آثره على مشروبات أخرى .

ومع أن ابن السادسة عشرة ليس شديد التحمس للطهي ، فإنه يعلم أنه « لن يموت جوعا وفي حوزته موقد بترول » . وينعم الجنسان كلاهما بإعداد الطعام

لمختلف المنتديات الاجتماعية التي تضم أترابهم . فان إحدى البنات تقول «سيمكنك الطبخ لو عرفت القراءة» . على أنها استطردت: «ولكن لابد أيضا من وجود قليل من الخبرة بالطهى وراء المسألة كلها» .

موعد النوم . إن موعد نوم ابن السادسة عشرة كما يقول نفسه ، « أمر يتعلق برمته بى أنا » — أو « حسب فكرى » إنه فى الإمكان أن يترك له أمر ساعة نومه . ويحتمل أن تذهب البنات إلى فراشهن متأخراً عن الصبيان ، فى وقت يتراوح بين العاشرة والثانية عشرة مساء . على أن عدداً أكبر من الصبيان مستعدون للذهاب للفراش مبكرين أكثر من ذلك ، حتى لقد يذهبون إليه فى التاسعة ، إما لأنهم متعبون ويحتاجون إلى النوم أو لأن قواعد الرياضة تستدعى ذلك . وهناك قلة ضئيلة متناثرة هى فى الغالب من الصبيان ، لا تزال بحاجة إلى التذكير بالذهاب إلى الفراش .

وكأنى بكل فرد يكون بنفسه طرائق استعداده الخاصة للفراش . فإن بعضهم يحب أن يستحم فى المساء الباكر ، وأن يستذكر دروسه فيما بعد ، وآخرون يحبون أن يسترخوا على ألحان الموسيقى قبل الاستحمام . وفى حالة الصبيان ربما أصبحت « الحلاقة » جزءاً من استعدادات ساعة النوم . ويتصرف ابن السادسة عشرة كأى بالغ رشيد آخر بالمنزل ، يعنى بشئونه الخاصة ولوازمه . وهو يعلم أنه بحاجة إلى النوم ، وأن عليه تدبير الخطط لتحقيقه . فإن هو أطال السهر فى الخارج ليلة عطلة نهاية الأسبوع ، فهو يعرف أن تعويض ذلك بأخذ قسط أكبر من النوم قد يستغرق حوالى نصف أسبوع ، ولذا فهو مستعد للذهاب إلى فراشه مبكرا فى أول الأسبوع .

وابن السادسة عشرة عرضة للاستسلام لأحلام اليقظة قليلا قبل أن ينغمس فى النوم . والبنات يحلمن أحلام اليقظة حول أصدقائهن الصبيان فى حين أن الصبيان إن ظلوا متيقظين إلى هذا الحد الطويل — فالأغلب أنهم يحلمون

بسيارة جديدة أو بطراز (موديل) قديم يروقهم .

النوم — النوم فى السادسة عشرة هادىء لا يعكر صفوه شىء . والكثيرون يجدون فى الأحلام « متعة ولذة » أو « شيئا موافقا جدا » . وغالبا ما يتحققون أن أحلامهم تتولد عن شىء رأوه أو فعلوه . وغالبا مايستطيعون ربطها بما كانوا يفكرون فيه قبل ذهابهم إلى الفراش . ويحلم الصبيان بالبنات وتحلم البنات بالصبيان ، كما أن كلا منهما يحلمون جميعا « بأشياء عادية فقط . »

الاستيقاظ . — استيقاظ ابن السادسة عشرة فى الصباح أمر عرضى . ويجوز أن يستخدم منبها ، وإن فضل أن لا يستخدم ذلك المنبه ؛ وذلك لأنه يجب أن يضبط ساعته الداخلية البيولوجية ، وغالبا ما يجد أنه يستطيع أن يستيقظ فى حدود ثلاث أو أربع دقائق من الوقت الذى حدده لنفسه . ولكن ليس لديه دافع يحفزه على الخروج وثبا من الفراش . ويكون فى العادة نصف متيقظ عندما يحل وقت استدعائه ، بيد أنه يجب أن يمارس ذلك العطف الودى الوالدى المتمثل فى الإيقاظ . وهو يحب أن يستيقظ ببطء . وربما احتاج أن يدعى مرة ثانية بعد خمس عشرة دقيقة . ولا تزال قلة ضئيلة من الصبيان بحاجة إلى النخس فى أضلاعها ، أو إلى رش وجوهها بالماء البارد ، ولكنهم على عكس ما كانوا عليه صغارا — يعلمون أنهم بحاجة إلى تلك المعاملة الخشنة بل ربما طالبوا بها .

الاستحمام

إن طائفة معينة من أبناء السادسة عشرة ، ولا سيما البنات ينتقلون إلى (طور الاستحمام اليومى) كما تقول إحدى الأمهات . ولكن ذلك لا يصدق عليهم جميعا . فربما انقضت بين الحمامين المتتاليين فترة تتراوح بين يومين إلى ثلاثة ، أو حتى فترة أطول أثناء الشتاء . على أن النظافة تخضع إلى حد كبير لتنظيم ابن السادسة عشرة .

وهم يستمتعون بوجه خاص بأخذ الدش . وسرعان ما تجد مشكلة

الاستحمام حلالها يتمثل فى الدش اليومى بعد الألعاب ، وذلك فى حالة البرامج الرياضية العنيفة بالمدرسة .

والبنات يستسهلن العناية العادية المنظمة بالشعر وأظافر اليدين . بل إن أظافر القدمين نفسها تتلقى اليوم مزيدا من العناية سيما والأحذية الحديثة تكشف عما تكشف من أجزاء القدم . ويعمد الصبيان إلى قص شعرهم كل أسبوعين تقريبا كما أن معظمهم يتقبلون عبء القيام بالحلاقة بحسب ما تدعو الحاجة . فتحتاج قلة إلى الحلاقة كل ليلة ، ولكن هناك آخرين يستطيعون أن ينتظروا بين الحلاقتين المتتاليتين ثلاثة أو أربعة أيام أو أكثر . ويحدث أحيانا أن يضطر والد أن يذكر ولده قائلا : «كيف يمكنك أن تطيق ذلك ! لابد لك أن تحلق» اوالحال واحد فى الأظافر إذ لا يزال هناك أولئك الصبيان الذين يرتبكون أثناء مواعيدهم بسبب أظافر أيديهم القذرة ، والذين يتركون أظافر أقدامهم تنمو حتى (تصبح مثل مخالب الديك .) على أن معظم صبيان السادسة عشرة يتقبلون مستلزمات هذه النظافة الشخصية ، كجزء من حياتهم . وربما قصوا أظافرهم أو شعرهم قصا شديدا حتى لا يضطروا إلى الاهتمام بهذه المسألة مرة أخرى إلا بعد انقضاء فترة من الزمن .

الثياب والعناية بالغرفة

الآن صار أمر الثياب موكولا فعلا إلى ابن السادسة عشرة ، فى كل من ناحيتى شرائها والعناية بها . ويستطيع ابن السادسة عشرة أن «يبدو بالمظهر الذى يريد أن يبدو فيه» ، حتى ولو كان ذلك المظهر «أمرا مدروسا بشكل عرضى أو منظرا مبهدلا .»

ويعرف ابن السادسة عشرة متى يحتاج إلى ملابس جديدة: إما لأن ثيابه القديمة قد ضاقت عليه جدا أو بليت ، وإما لأن مناسبة خاصة ربما استدعت

طاقماً جديدا . وابن السادسة عشرة معقول عادة فى طلباته ، وذلك من شأنه أن يسهل على والديه التعاون وإياه ، يقول ابن السادسة عشرة نفسه إنه لم يعد يعاكس أحدا من أجل الملابس . جريا على سابق « طريقته أيام المدرسة الإعدادية . » وغالبا ما كان حين يعمد إلى المعاكسة يعلم أنه غير محتاج إلى الشىء الذى يعاكس من أجله ، وليس من الضرورى أنه يتوقع فعلا الحصول على ما يريد بهذه الوسائل .

ولا يزال ابن السادسة عشرة يفضل أن يصحبه أحد والديه أثناء المشتريات الكبيرة . ولكنه يفضل أن يدور على الدكاكين بمفرده عند احتياجه الى حذاء أو شىء من هذا القبيل . وربما باتت للأحذية للمرة الثانية منزلة الصداره من ميوله الخاصة بالملابس .

وقد صار عدد معين من الصبيان ممن حصلوا على وظائف طيبة لبعض الوقت ، يدفعون الآن أثمان ملابسهم . أما البنات فلا يستطعن بما يتهيأ لهن من أعمال مجالسة الأطفال (وهى أقل أجورا) أن يدفعن — ولو مع أحسن الظروف — إلا جزءا من ثمن ثيابهن . وابن السادسة عشرة فخور أيضا بارتداء الملابس الجاهزة الرخيصة كما أن البنات يغتبطن بقدرة أمهاتهن على الخياطة ، ومن البنات من هن مستعدات استعدادا جديا لتعلم الخياطة (لأنفسهن) .

والغالب أن تتخلى البنت فى السادسة عشرة عن المبلغ المخصص لملابسها بناء على إلحاحها فى سن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . ذلك أن البنات أنفسهن يتبين لهن فى الغالب أنهن قد أنفقن كل سنت فى المبلغ المخصص لثيابهن ، بل وأنفقنه مقدما فى العادة ، أو يبهظهن القلق حول إنفاق كل سنت ينفقنه . وتفضل معظم بنات السادسة عشرة أن يكون دفع ثمن الملابس بقدر ما يحتجن إليه منها . على أن هناك قلة من البنات مشغوفات بالثياب بدرجة لا سبيل إلى ضبطها على أحسن وجه ، إلا بتخصيص قدر معين من المال لثيابهن . فهن بحاجة أن يعرفن أن لكل شىء حدا .

ومعظم أبناء السادسة عشرة قادرون على العناية بملابسهم الى حد لا بأس به . وتهتم البنات بنظافة بلوزاتهن وكى ملابسهن . وقد أصبح إصلاح الثياب

جزءا من مسئوليتهن ، وخاصة عندما تقذف أمهن الثياب اليهن وهى تقول : « هذه ليست ملابسى . » وتخبرنا ابنة السادسة عشرة فى شىء من الفكاهة المرحة : « ولذا فإنى أضطر إلى إصلاحها . » وبعض الصبيان مهرة فى إصلاح الثياب مهارة البنات . على أن الصبيان لا يصلون الى مستوى البنات فى تعليق الثياب . فهم لا يزالون ميالين إلى وضعها على أحد الكراسى أو تركها على البلاط . ولكنهم يعدون بالتحسن وإن كانوا ينسون . فهم على الأقل راغبون .

والعناية بغرفة ابن السادسة عشرة موكولة اليه بصفة رئيسية . وهناك كثيرون من أبناء السادسة عشرة شديدو التدقيق فى النظافة والنظام ، وهم من الصبيان خاصة . ولكن الأغلب كما جاء على لسان أحد أبناء السادسة عشرة أن تنظيم غرفته أو عدم تنظيمها « مسألة فيها نظر . » ولا يطيل الوالدان الكلام ولو لم يعتقدا أن غرفة ابن السادسة عشرة نظيفة نظافة كافية ، ولعلهم قد أصبحوا يرضون بالأمر على علاته ، بيد أنهم يعلمون أيضا أن ابن السادسة عشرة لا يثبت على حال أمدا طويلا . إذ لا بد أن يأتى فى النهاية وقت التنظيف الكامل ، وإن كانت الأم ربما شعرت أن ابن السادسة عشرة يستطيع تحمل اضطراب نظام الغرفة أطول مما تطيقه هى .

النقود

لا شك أن الطرق العديدة للتصرف فى النقود التى كانت لدى ابن الخامسة عشرة تستمر فى السادسة عشرة . فابن السادسة عشرة يمنح فى التصرف فى النقود مدى أوسع قليلا . فهو يتحدث عن النقود المخصصة « للانفاق الحر » أو التى يفعل بها ما يشاء . وتبدأ قلة فى فتح حسابات بصناديق الادخار وفى إيداع النقود أو سحبها حسبما يشتهون . وحاجتهم الى المزيد من النقود لا تنقضى كما أنهم قد خبروا الشعور « بتجاوز حدود ميزانيتهم » أو « بالإفلاس التام » . على أن كثيرا من أبناء السادسة عشرة يفضلون أن يظلوا مفلسين على الاقتراض على مصروفهم القادم .

ويبدأ ابن السادسة عشرة يدرك قيمة النقود بصورة أقرب إلى وجهة نظر البالغين . وهو على استعداد لتعديل خططه حتى تتوافق ومالية العائلة . وهو

يحاول أن لا يبددها على أشياء استهلاكية كالمياه الغازية . وهناك بين الجنسين بطبيعة الحال المبذرون الذين تمر بهم أوقات يصعب عليهم فيها كبح جماح رغباتهم فى شراء كل ما يروقهم . كما أن هناك ذوو الأذواق المترفة من المسرفين وخاصة فى شراء الاسطوانات والثياب .

وربما بلغت المدخرات بضع مئات من الدولارات أو أكثر على أن يكون هدف ذلك الادخار شراء سيارة ثمينة تهفو إليها النفس . أو لعل المدخرات تنفق فى التأمين الإضافى الذى سيتيح لابن السادسة عشرة أن يقود سيارة العائلة .

العمل :

ابن السادسة عشرة غالبا ما يتوق إلى الحصول على عمل ، يعمل فيه بعض وقته أثناء السنة الدراسية وكل وقته أثناء عطلة الصيف . وهو قادر على القيام بنواحى عديدة من النشاط كاستقبال الناس وإدخالهم إلى أماكنهم أو أن يعمل كمستشار لأحد المخيمات أو أن يشتغل كاتبا بأحد المتاجر ، أو عاملا بإحدى محطات البنزين . وهو يستمرىء عمله فى أغلب الحالات ، ولكن قد يكون الأجر أحيانا هو الذى يحفز اهتمامه بالعمل .

وابن السادسة عشرة معتدل عادة فيما يتعلق ببذل المساعدة للمنزل وربما قام ببعض المهام المنزلية من تلقاء نفسه. على أن عددا من البنات لايحسسن بأى اهتمام بأداء المهام المنزلية ولا يزلن يجدن فى هذا النوع من التكليف إفسادا لعلاقتهن بأمهاتهن . غير أنهن يؤدين مع ذلك بعض الأعمال أداء جيدا جدا ، كما أنهن يكن على خير أحوالهن إذا ساعدن متطوعات غير مكلفات ، كشأنهن فى الولائم .

٣ ـ الانفعالات

إن ابن الخامسة عشرة وإن كان زودنا بجميع الأمارات الدالة على الأشياء التى ستحدث فى سن السادسة عشرة ، إلا أنه قدمها فى الغالب فى صورتها السلبية . لقد أشار إلى المستقبل من بعيد كما أشار إلى الصورة التى يريدها لنفسه مستقبلا « أعرف أنه

يجب على أن لا يكون ما حولى مشوشا هكذا ». ولكن همته ثبطت فى الأغلب الأعم ، كما أنه فقد كل باعث يحفزه وعبر عن نفسه بلسان التمرد أكثر منه بلسان التعاون .

ومن العسير أن تعرف أين ذهبت كل هذه القوى الانفعالية المقلقة التى سبق أن عبر عنها ابن الخامسة عشرة بمثل ذلك الوضوح . بيدأن عملية النماء نفسها هى التى تحتفظ بسر ذلك . لقد أضيف إلى الأمر شىء جديد ، فان النظرة العامة المدركة للأهمية النسبية التى كان ابن الخامسة عشرة يبحث عنها قد تكشفت الآن لناظريه . وكأنما كل الأشياء قد أصبحت مترابطة بعضها ببعض ، وبذلك يبدو كل شىء أبسط كثيراً جدا مما كان . ولاشك أن الخبرة والظروف التى ينبغى أن تمر بكل مسافر تماثل هذه الحالة : فهناك الاستعداد للرحلة والقيام بها والفراغ منها . فإن أصعب خطوة هى الخطوة الأولى التى تبدو فى ظاهرها كأنما تحتاج إلى زمن وجهد لا نهاية لهما يخصصان لإعداد الرحلة . أما الرحلة فى حد ذاتها بكل ما يحتمل أن يتخللها من مشقات وتغييرات فلها مطالب لا بد من أدائها ثم تجىء المرحلة الأخيرة مرحلة الوصول . فإذا بلغ المرء منا مقصده بدا كل شىء سهلا هينا . فكأنما كل المراحل ما بين إعداد للرحلة وقيام بها شىء لا يكاد يكون له وجــود ساعة انبلاج نور الوصول .

وذلك شأن ابن السادسة عشرة بالضبط . فانه يذكر ببساطة أن له « مزاجا متوازنا متعادلا » ، وأن انفعالاته « ملك يمينه » . وتقول أمه إنه « متزن متعادل الطبع جداً » — أو « إنه يعالج الأمور بطريقة واقعية ». وهو يعرف بنفسه أنه أكثر انبساطا وأن لديه ميولا أكثر تعددا وأرحب مجالا .

وقد شرع يعرف أن سر سعادته مرتبط بآخرين غيره . وهو يكتشف أنه « يفكر فى غيره من الناس » . كما أنه يعرف كذلك أنه يصبح مرحا عندما يتواجد مع غيره من الناس .

والحق إن الحيــاة فى نظر ابن السادسة عشرة تصبح « أحسن حالا بمضى الوقت » . ولعل تحققه الشديد

فى الخامسة عشرة من أن الأمر كله متروك له ، وأن مايحدث إنما يتوقف على الطريقة التى يقوم بها بعمله ، ــ قد أخذ يثمر الآن ثماره . ولا يفكر ابن السادسة عشرة طويلا فى سبب تحسن الأمور ، وذلك لشدة انشغاله بالاستمتاع بالحياة . ولكنه لو سئل بطريقة محددة لشرع يتحقق أن الأسباب إنما تستكن فى دخيلة نفسه . فشخصيته هو، هى التى تتحسن ، وهى التى صارت أكثر انبساطا والتى باتت اتجاهاتهـــا أكثر نضجا .

وسعادته حقيقية جـداً ولـكنها غير متدفقة . وهو يتطرف . وقولهم « إنه راض تماما » وصف دقيق للصفة التى تسيطر على سعادته . أجل! قد تمر به لحظاته الحزينة ولـكنها ليست كثيرة ؛ إذ موجز الأمر هو كما يقول أحد أبناء السادسة عشرة : « لماذا الحزن ؟ . لماذا لا تستغل إلى أقصى حد مابين يدك فى الحياة من أشياء وتستمد أعظم قدر من المتعة من كل شىء ممكن ؟ » ولـكنه يحذر أيضا بقوله « لاتقذف بكل شىء جانبا رغبة فى الحصول على السعادة » .

وبالمثل لايرغب ابن السادسة عشرة فى السماح للغضب بأن يستولى عليه . ومن حسن الحظ أنه « لا يجن من فرط الغضب » على جارى عادته القديمة . فهو فى الغالب « سطحى الغضب » أو « مستاء » — أو « نافد الصبر » أو « يائس لا أمل له فقط » . وابن السادسة عشرة عرضة « لحالة من الانعزال » — أو « أن ينصرف مغضبا » — أو « أن ينسى الموضوع كله » . وربما فضل قليل من الصبيان الأقل نضجا والذين لايجيدون التحكم فى غضبهم أن يدخلوا فى مشاجرة حامية ليصفوا ما بينهم من خلافات . وقد حدث مرة أن انتهت مثل هـذه الحالة بكسر ذراع أحدهم ! .

وقلما بكى ابن السادسة عشرة . فالصبيان لايكادون يبكون أبدا ولـكن البنات عرضة للبكاء فى بعض المناسبات وربما بكين ألما من خيبة رجاء حقيقية أو فى تلك الأوقات النادرة التى ربما شعرن فيها بالأسف على أنفسهن . ولـكنهن يعترفن بأن البكاء لايجعلهن يحسسن بأنهن أحسن حالا البتة . والقلم الحزن لابد أن يسيل

دموع طراز معين من البنات ذوات الاستعداد للتقمص الوجدانى ، وهن فى الغالب من السمينات .

وابن السادسة عشرة قليل التأثر بالخوف كما كان شأنه فى الخامسة عشرة. ولم تعد المخاوف القليلة السابقة التى كانت تساوره فى الخامسة عشرة على نفس قوتها الأولى . وربما استمر خوفه من المرتفعات؛ إنه «يكاد يستمتع بذلك الشعور إلى حد ما ، ولكن فى ذلك شيئا من الخطر» وربما شرع خوفه من الثعابين يزول ، بيد أن قليلا من أبناء السادسة عشرة لا يزالون «يحسون شيئا من التهيب» إذا كانوا فى أرض براح واسعة . وثمة خوف أكثر شيوعا فى السادسة عشرة هو الخوف من «المواقف الاجتماعية الجديدة» . وربما لم يبد ابن السادسة عشرة ميلا شديدا إلى المكث بالبيت ، ولكنه قد يحجم عن الابتعاد كثيراً عن قاعدته المنزلية والاضطرار إلى مقابلة عدد جم من قوم لاعهد له بهم.

ولئن حدث أن ألم القلق بابن السادسة عشرة ؛ فلن يكون ذلك أولا وقبل كل شىء. إلا بسبب القلق الذى يتعلق بالمدرسة والنجاح والامتحانات . ولكنه يقيد فى العادة أى قلق يعتريه بقوله : «ولكن ذلك ليس كثيراً جداً» — أو «ليس غالبا» . فقد تحقق الآن أنه «تمشى مع الأمور وسايرها مهما يكن مصدر قلقه ، فالمسألة تنتهى فى العادة بكل خير .» وعلى كل حال فإن كل علاج فكرى لشئون الحياة يعد شكلا من أشكال القلق فيما يرى أحد أبناء السادسة عشرة .

وابن السادسة عشرة بما جبل عليه من ميول مرحة واستخفاف بالأمور لا يرى الحياة مليئة بالمشكلات ، كما أنه ليس لديه أية مشكلات كبيرة تتطاحن مع نفسه . أجل إنه تحدث له «مضايقات كبيرة إلى حد ما» — أو «مشكلات تستمر يوما كاملا أو حتى ما دون ذلك» — أو «مجرد مشكلة فى هذا اليوم وأخرى فى ذاك» . ولكنه لا يكاد يتذكر فيما بعد ماذا كانت تلك المشكلات ، وذلك لأنه غالبا ما يبعدها عن نفسه هازئا منها فى اليوم التالى . ومع ذلك فلو وجد من المشكلات شىء ، فإن نصيب البنات منها أقرب أن يكون ذا صلة

بالمواقف الشخصية والاجتماعية ، على حين أن مشكلات الصبيان تدور فى الأغلب حول السيارة أو الوظيفة .

ومع أن ابن السادسة عشرة قد يبدو غير حساس إزاء ملاحظات غيره من الناس؛ فما ذلك إلا لأنه يستر مشاعره . فهو يلوذ بالهدوء أو « يلتزم الصمت بغاية السرعة » . وربما أجاب بكلمة تهكم وسخرية أو « رد بأقصى ما يستطيع من حكمة وتعقل » . بيد أنه أميل إلى الاحتفاظ لنفسه بمشاعره والانتظار حتى « تتلاشى » . ويستطيع ابن السادسة عشرة أيضا أن يكون حسن التقبل للأمور ، حتى لقد يبلغ به الأمر أن يحب النقد . وغالبا ما يدفعه ذلك إلى التحسن ، وإلى أن يصبح كما يقول : « شخصا أحسن » .

وهـــذا النزوع إلى ستر المشاعر المجروحـة ينطبق أيضا على انفعالات أخرى . ولعل الدافع فى ذلك عدم رغبته فى كشف نفسه ، « لا أريد أن يظن الناس أنى سريع التأثر » ، كما أنه لا يريد أيضا أن يضايق الناس بنوع إحساسه وكيفيته . ولـكنه عندما يكون مع صديق حميم ، فإن الموقف يختلف . والبنات بوجه خاص « يبحن » بانفعالاتهن لصديقة حميمة من بنات جنسهن .

وإن قوة الباعث التى كثيراً ما كانت تعوز ابن الخـامسة عشرة موجودة وجوداً قاطعا فى ابن السادسة عشرة . وليس من الضرورى أن يكون ذلك الباعث تنافسيا ، وإن أمكن أن يكون كذلك . وذلك أن ابن السادسة عشرة يريد أن يظل محتفظا بمستواه فيما هو مبرّز فيه . والصبيان يريدون فى الأغلب أن يجيدوا أداء دراساتهم أو ألعابهم . والبنات يهتممن بثيابهن وبالتعبير عن مواهبهن الخاصة اهتمامهن بمـــواد الدراسة . على أن الجنسين جميعا يحبون أن يكونوا فى الطليعة ، بل لقد يحبون أن يكونوا من الأوائل أو على رأس القائمة بين زملائهم ، ولـكنهم لا يفـكرون فى ذلك على أساس التغلب على الآخرين . إذ الواقع أنهم « لا يأبهون فى الحقيقة بذلك » .

٤ ـ النفس النامية

لقد صارت لابن السادسة عشرة ـ والحق يقال ـ ذات مستقلة : فهو لم يعد محتاجا إلى المطالبة بالحرية والاستقلال . فقد نما حتى أحرزها ، واكتسب « حاسة الاستقلال » : وهو يستطيع الآن أن يدبر أمور حريته . وهو لا يزال مسرفا فى تنبهه إلى هذا الوضع الذى اكتشفه حديثا ، ويريد أن يعبر عن استقلاله تعبيرا مطلقا أو على الأقل بغير مساعدة والديه . وهو لا يريد منهما أية مقترحات ، ولا نصائح . وهو يعتقد أنه يستطيع أن يدبر أموره الخاصة وهو أمر أقرب ما يكون إلى الحقيقة . وهو لا يقاوم والديه بقوة . وكل ما يريده أن يذهبا فى طريقهما ويتركاه وشأنه .

ولعل أحسن وسيلة يظهر بها توازنه وثقته الطبيعية بنفسه ، هى طريقة مقابلته للناس ، فهو ألطف خلقا مع الضيوف ، ولديه أمور يستطيع أن يحدث بها كلا منهم . وإذا كان هو صاحب الدعوة ، كان اليسر والسهولة التى يقدم بها أمه لأصدقائه مجلبة لجو من المحبة القلبية الخالصة التى تستبعد كل توتر .

وإن هو سئل : ما خير الأعمار فى ظنه ؟ لأظهر جوابه المشبع بالرضا « فى هذه الفترة بالضبط » ، إنه يقابل الحياة كما هى . إنه يريد أن يتقبل الحياة كما تجيئه ، وأن يسير فى تيارها ويتقبلها على علاتها ، وهذا تناول ناضج تماما .

ومما يزيد تهيؤه هذا قوة « قدرته على مسايرة الناس الآخرين » ، التى غالبا ما تكون واحدة من أبرز مميزاته . ومن الغريب أنه من جانبه ربما اعتبرها أكبر أخطائه ، وهو يعلم أنه لا يزال يجادل وأنه يكثر من الثرثرة « وينفجر غاضبا » فى الناس ، ويصبح متسرعا قبل أن يدرك ما قال . وهناك عدا ذلك مميزات أخرى وأخطاء أخرى ، ويعرف الصبيان أنهم يمتازون أيضا بقدرتهم الذهنية والميكانيكية ، كما أن الجنسين جميعا يعرفون أن من نواحى نقصهم شأنهم فى الخامسة عشرة ، ضعفهم

الفـردى فى الشخصية : كالنسيان أو الـكسل أو العناد أو الأنانية . والأغلب الأعم أنهم يعتقدون أن الرأس بما حوت من مخ ووجـــه هى موطن الذات (النفس) . ويعد المخ شيئا هاما الأن جميع الوظائف البدنية الـكلية تصدر عنه . ويعد الوجه أيضا ذا أهمية بسبب تفرده الفذ. بيد أن توجيه هذا السؤال « أين تقع ذاتك (نفسك ؟) » ليس له معنى كبير جدا لدى ابن السادسة عشرة . لقد أخذ يفقد وسيلة الإجابة بقدر لا بأس به من اليسر شأنه يوم كان طفلا أصغر. وهو مضطر إلى التفـكير قبل الـكلام. وهو يدرك أن هـذا السؤال عن موطن نفسه « مضحك » و « صعب » فإن من العسير عليه أن يقطع فى ذلك برأى، وأن يفصل أى جزء من الجسد عن جزء آخر . وهو يحب أن يلقى « على الأشياء نظرة أوسع نطاقا » .

وإذا سئل ابن السادسة عشرة أن يتمنى ثلاث أمنيات لم يجد فى ذلك يسرا ولا ارتياحا أكثر من الذى يجده فى تحـــديد فـكرته عن موطن النفس ومقرها ، ذلك أنه يجد هذا السؤال أيضا صعبا عليه ، ولا بد لك من أن تعطيه شيئا من الوقت . ولـكنه لو أعطى فرصـة التفـكير لاستطاع استنتاج الرغبات الثلاث ، وإن كان على يقين تام بأن الحياة تدور على ما هو أكثر من الرغبات . ومع ذلك ، فإنه يتحدث عن طريق تعبيره عن رغباته عما يشغله فى حياته فى المدرسة ، والجامعة ومهنته والزواج والحيـــاة بوجه عام . وربما رغبت قلة منهم فى الحصول على ممتلكات مادية كسيارة مثلا . وربما رغبت قلة أخرى فى السلام العالمى بصورة أضبط وأقطع مما كانت ترغب من قبل . « إذا أمكن لأحد الأقطار أن يثق فى قطر آخر ، كانت تلك الثقة هى الخطوة الرئيسية الموصلة إلى خير العالم قاطبة». ومنهم من ينشغلون برفاهية الآخرين وخاصة عائلاتهم . ولـكن مجموعتنا من أبناء السادسة عشرة كان إعرابها عن الرغبة فى تحسن التعبير الفردى والســـعادة الفردية لنفسها أكثر من تمنى الأمنيات للغير . وليس من الضرورى أن يكون هـذا الاتجاه الأقوى نحو الذات عنوانا على الأنانية ، إذ الراجح أنه يدل على ازدياد معرفة

الذات فى هذه السن بشكل يتيح للفرد أن يكون أكثر تهيؤا للعمل كعضو عامل فى مختلف نواحى الخبرة فى الحياة .

وهذا التنبه الجديد إلى النفس يساعد ابن السادسة عشرة على إدراك أن هـذا ليس الوقت المناسب لاختيار مهنة . فهو يعرف أنه ينبغى له أولا أن « ينتظر حتى يرى عم تتمخض الأمور؟ » . فهو يعلم أن هناك إمكانيات كثيرة ، كما يعلم أنه مرت به فى داخل عقله تغييرات كثيرة أثناء السنوات القليلة الأخيرة . وإن من أبناء السادسة عشرة لمن يفكرون داخل حدود معينة مترابطة كالصحافة ، والإعلان ، والتأمين والقانون . ويدور تفكير بعضهم من السياسة إلى الأعمـــال التجارية إلى الزراعة . وقد عبرت عن ذلك إحدى البنات حيث قالت : إنها تجيئها فكرة جديدة كل أسبوع . فالزمن فى تدفق وسير مستمر ، ومن حسن الحظ أن ابن السادسة عشرة مستعد لأن « ينتظر ويرى » .

والذهاب إلى الجامعة شىء محقق أكثر فى رأى ابن السادسة عشرة ، ولكن أية كلية ؟ — ذلك أمر غير مؤكد تماما . وقد أظهرت مجموعتنا عزوفا عن اختيار الكليات المشتركة بين الجنسين .

وربما فكر ابن السادسة عشرة فى موضوع كليتين محتملتين ، أو ثلاثا فى وقت معا . والصبيان أكثر انشغالا بالناحية المالية للالتحاق بالجامعة ، وربما رغبوا فى تجربة التقدم للحصول على المنح الدراسية . وهم يفكرون أيضا فى موضوع الدراسة المخصصة للمتخرجين .

ولكن الزواج هو أكثر مايشغل البنات . وبعضهن يدركن أن الزواج قد يجىء قبل أن ينتهين من دراستهن الجامعية . وهن على الجملة يفضلن أن يتزوجن بعد الجامعة أو بعد قضاء فترة قصيرة فى العمل . فلو حدث شىء لزوجهن أمكن أن يكون لهن عندئذ « شىء يلجأن إليه ويعتمدن عليه » . وهناك عدد متوسط منهن يرغبن فى الجمع بين العمل والزواج ، وذلك لأنهن يكرهن « فكرة القبوع فى البيت دون عمل شىء » . والبنات إيجابيات

تماما أيضا فى تفكيرهن فى الأطفال . والثلاثة هو عـدد الأطفال الذى يرغبنه فى الأغلب .

على أن الصبيان لايتخذون نحو الزواج مثل ذلك الاتجـاه الإيجابى . فهم « لايفكرون فيه كثيرا » ، وهم يقولون « يحتمل أن أتزوج » ، ولكن ذلك « سيحدث فيما بعد » . وتبدأ فكرة الخدمة العسكرية تستولى على أفكاره ، حتى لقد تمر عليه أوقات لايفكر أثنـــاءها فى كلية ، ولا فى الزواج .

والبنات أيضا منشغلات بالخدمة العسكرية من أجل من يحتمل أن يكونوا أزواجا لهن فى المستقبل . ولكن ذلك لايغير شيئا من تفكيرهن فيما يرغبن توفره من الصفات فى زوج المستقبل . ولم يعد أحد يشدد التأكيد على الحب كأساس للزواج . ولعل مرد ذلك أنه أصبح شـيئا مسلما به . أما الجمال فالتفكير فيه هو أيضا أقل . بل الواقع أن الجمال المفرط قد يحسب معه حساب احتمال ظهور منافس آخر فى المستقبل ، وذلك نظرا لأن البنات يربطن الآن بين سأم الزوج وعدم الأمانة الزوجية وبين جمال الشاب . والذكاء هام ، ولكن ليس مجرد سعة المعلومات . وينبغى أن تكون لدى الفتى « حاسة الحكم » أو « قدر معين فى مجال المعلومات » . ولكن هناك نواح أخرى محببة كأن تكون « مسايرته سهلة — ودودا اجتماعيا — متفهما » وثمة ناحية جديدة وهامة هى « أنه يعرف كيف يتصرف فى الأمور » وأنه « قادر على الوصول إلى مراميه » . وإن فى قول بنت السادسة عشرة إنه يجب أن يكون « مقيما على العهد ومخلصا إلى حد ما » فضلا عن كونه « حسن الفهم لوظيفته وقادرا على الانفاق » ، ليدل على أن لدى بنت السادسة عشرة فكرة ما عن أساس الزوجية الصالحة فهى لاتدخل ميدان الزوجية مغمضة العينين .

على أن الصبيان مع الأسف الشديد لم يولوا زوجاتهم العتيدات فى المستقبل مثل هذا القدر من التفكير . بل الواقع أنه يبدو أنهم لا يمنحونهن من تفكيرهم كشريكات للحياة أكثر مما

كانوا يفعلون من قبل . ولكن الزمن سيتغير وسيوجهون إلى فكرة الزواج وزوجاتهم المحتملات قسطا أكبر من الوقت والجهد .

٥ ـــ العلاقات بالناس

وابن السادسة عشرة وإن كان فى العادة يساير عائلته على أحسن وجه ، إلا أنه لم يعد إلى حالة النشاط والمشاركة التى كانت له قبلا . هو يحب بيته كمصدر ومبدأ لنشاطه ، ولكن ليس من الضرورى أن يحس بأنه مسئول عن ذلك المصدر . إنه يبدو « كالبعيد عن عائلته بطريقة سعيدة » ، وذلك لأنه فى الغالب « تائه فى بيداء أصدقائه ونواحى نشاطهم » . ومع ذلك فهو شاكر لها ما تمنحه إياه من حرية ، كما أنه قادر تماما على تقبل أنواع معينة من القيود التى تفرض عليه ، وبخاصة فيما يتعلق بساعة عودته إلى المنزل من أحد المواعيد ، فإن هو كان بمدرسته بعيدا بالقسم الداخلى ، فربما وجد نفسه يكتب رسائل أكثر مما كان يفعل ، وأنه يتطلع إلى سماع أخبار من بيته .

ويتساير كل من الأبناء والبنات على أحسن وجه مع أمهاتهم دون حدوث أى احتكاك إلا أقل القليل . ذلك أنهم يدركون أنها تتخذ منهم ومن أصدقائهم موقفا متفهما ومعقولا ومليئا بالعطف . ولكنهم يحبون أن يظل البعد بينهم وبينها محفوظا ، وأن يفعلوا « ما يشاءون » . وهم يعرفون « أن من طرائق الأمومة التدخل فى كل شىء » ، وأن « الأمهات يملن إلى الاستطلاع وتوجيه عدد جم من الأسئلة » ، وبخاصة حول أصدقائهم . ومن الأمهات من تبلغ بها الحال أن ترغب فى مواصلة فتح خطابات ابن السادسة عشرة ، وإن كان معظمهن لا يملن إلى إتيان ذلك فى أى سن . ويعرف ابن السادسة عشرة أن مشاعر « الأمومة » هذه مشاعر طبيعية ، ولكنه صريح أو يكاد فى تعريف أمه بمشاعره وأنه يرغب فعلا فى أن يحيا حياته على طريقته هو . وهو لا يرغب فى تلقى نصيحة مباشرة ، بل « إن الاشارة نفسها ليست مقبولة » ، كما جاء على لسان أبناء السادسة عشرة . وليس من السهل على بعض الأمهات ، بل حتى على بعض الآباء أن يتخلوا عن منزلة الحماية ومرتبة النصيحة والسلطة .

ولكنهم كوالدين يسلمون بالفعل بأن ابن السادسة عشرة « له حاسة استقلال لا بأس بها » . والوالدان الحصيفان يكونان راغبين على الأقل فى اختبار ابن السادسة عشرة . وعندئذ يكون ابن السادسة عشرة أكثر ميلا إلى والديه (وبخاصة أمه) التماسا للنصح ، وتقليب الرأى فى الأمور . وهو يتقدم إليها عندئذ كند وقرين أكثر منه أى شيء آخر ، كما يكشف عن نضجه باتزانه وقلة اهتياجه . ويعلم ابن السادسة عشرة علم اليقين أن بعض ما كان يبدو فى ظاهره قيودا « قاسية » فرضها عليه والداه فى الماضى ـ كانت شيئا ضروريا . وهو يدرك أنه حتى فى هذا الوقت « لا يستطيع أن يعمل كل شيء » .

ويميل ابن السادسة عشرة إلى التفكير فى أبيه وأمه معا وكثيرا ما يشير إليهما بضمير « هما » . ومع ذلك فإن الابنة غالبا ما ترى فى أبيها «شخصا لابد من مسايرته ومواجهته» ، فهى تشعر بالوقت الذى يكون فيه متعبا أو حين يكون الكشف عن بعض الأمور مزعجا له . وقد أصبح كل من الأبناء والبنات أميل إلى رؤية آبائهم على وجههم الصحيح ، وتقبلهم على علاتهم . وهم أقرب إلى الازدراء والسخرية من آبائهم منهم بأمهاتهم . ومع ذلك فابن السادسة عشرة يرقب تصرفه مع أبيه ، ويستخدم معه وسائل فنية وربما عمدت بنت قصدا إلى أن تخفى عن أبيها أنها ستخرج مع شاب يدين بعقيدة دينية مخالفة ، لأنها تعلم أن ذلك سيزعجه ويقلقه . ولكن ابن السادسة عشرة يحس أيضا بأن له حرية أكبر فى أن يصرخ فى وجه أبيه بصورة لم يكن يفعلها قبلا . وعندئذ قد يصرح الطرفان بمبادئهما المتضاربة . ومن حسن الحظ أن الآباء وإن كانوا لا يزالون يتحكمون فى أبنائهم تحكما قويا جدا ويحسون الحاجة إلى إلقاء المحاضرات على مسامع ذريتهم فى بعض الأحايين ، إلا أنهم لا تثور نفوسهم فى العادة بحيث يدخلون فى صراع علنى مع أبنائهم وبناتهم .

وحتى أوقات العودة ليلا لا تحدث نفس المتاعب التى كانت تحدثها فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . وربما عاد ابن السادسة عشرة متأخرا إلى حد ما ،

ولكن والداه يكونان أقل تعرضا للقلق ؛ فهما يعرفان بوجه التقريب متى يعود إلى منزله — وذلك فى العادة بين منتصف الليل والثانية صباحا حسب مقتضيات الظروف . وإذ أنه لا يحس الآن بأى ضغط من أحد عليه فإنه ربما ذهب إلى سينما تنصرف مبكرا ، وعاد إلى البيت مباشرة بعد ذلك دون أن يتوقف حتى لأخذ وجبة خفيفة .

والتحسن المطرد فى علاقات ابن السادسة عشرة بإخوته الصغار يخفف أيضا نقطة الخلاف القديمة هذه . ويرجع بعض هذا التحسن إلى زيادة مدة افتراقه عن إخوته فهو يلتقى بهم فى فرص أقل منه آنفا . ولكنه يستمتع فعلا بإعجابهم . كما أنه يكون فى بعض الأحيان قادرا على الاضطلاع بدور الوالدين بصورة يكون فيها أكثر تفهما حين يعقب على أخ أصغر بقوله ، «إن توجيهه عسير قليلا علينا جميعا» . بل لقد يفوق أمه نفسها فى أمومتها بقوله : « الآن أصغى إلى يا أماه ؛ لا تدفعى كيتى دفعا ، فإنها سينصلح حالها تماما » .

وعلاقاته بإخوته الأكبر منه طيبة كعهدها وأحسن مما كانت . والأغلب الأرجح أنه لابد مستشير أخاه الأكبر طلبا لنصيحته . فإذا هما اجتمعا معا ، دل يسر الأخذ والعطاء بينهما والمحادثة الشائقة على أنهما أصبحا بالغين راشدين .

والظاهر أن كلا من الصبيان والبنات يكون لهم عدد ضخم من الأصدقاء . ويبدو أن لدى كل منهم دائما « واحدا أو أكثر يمكنك الاعتماد عليه » . والبنات أكثر ميلا من الصبيان إلى التنزه مع عدد من الجماعات المختلفة . فهن يحببن أن تستمر علاقتهن بأصدقائهن القدماء أو صديقاتهن الجدد أيضا . وكثيرا ما يتحدثن عن أن لهن «عددا جما من الأصدقاء» . والجنسان جميعا يستمتعان بوجود علاقة وثيقة بينهما وبين صديق من نفس جنسهما . والصبيان يصبحون أكثر ميلا للمشاركة فى الأفكار والبت فى الأمور مع أصدقائهم فضلا عن الاشتراك معهم فى نواحى النشاط . ويجىء على لسان البنات « أنهن تجدن من المتعة مع البنات قدر ما تجدن مع الصبيان ، ولكن الجنسين جميعا مهمان » .

فهن يستمتعن مع البنات الأخريات « بالحديث وقيادة السيارات وزيارة المتــاجر » . وهن فى أحاديثهن « يطرقن كل موضوع ، وليس فقط حديث الصبيان والملابس . بل يخضن فى السياسة والأفـكار أيضا » :

والبنات لايفـكرن فى الواقع فى الصبيان طول وقتهن ، كما كن يفعلن أحيانا وهن أصغر سنا . وهن يحببن أن يتواعدن مع « شلة كاملة من صبيـان مختلفين ، منهم من قد تحبه الواحدة منهن أكثر من الآخرين ، ومنهم من تحبه كثيرا جدا ، ولـكن ليس فيهم من تحبه بوجه خاص » . واتجاه بنت فى السادسة عشرة نحو أحــد الصبيان « يكون فى العادة اتجاها ينطوى على الوجدان القوى القاطع » ، ولـكن ربما لا يهمها كثيرا أن لا تراه مرة ثانية . وهى فوق كل شىء آخر لا تريد أن تجعل علاقتها ثابتة ، وأن تضيق على نفسها السبل . بل إنها لقد يعجبها أن تضرب موعدا مع شخص مجهول(١) بين حين وآخر . وما أكثر ما تجد أن صبيا يكون لها صديقا ـ أعنى إنسانا تستطيع التحدث معه ، ويستطيع فهمها ـ أكثر منه شخصا تخالجها نحوه عواطف الحب الرومانتيكى . بل لقد يبلغ منها أن تصف علاقتها بأحد الصبيان بأنها « أفلاطونية » .

والحق أن فى هـذا تحولا عن انهماك الرابعة عشرة فى الجنس الآخر أو عن النزعة الغرامية للخامسة عشرة . وربمـا صنعت فتاة السادسة عشرة جوارب من التريكوه لصديق لها من الصبيان ، وربما قبلته قبلة الوداع ليلا ، بيد أن ميلها غالبا ما يكون اهتماما بالائتناس وطيب المعشر أكثر منه ميلا غرامياً رومانتيكيا . وإذا هو أبدى «شيئا من العاطفة المتأججة» ، وأظهر بعض علامات التهيج ، عرفت أنها قد آن لها « أن تـكشحه » .

والصبيان كالبنات يرغبون أيضا أن « يصولوا فى الميدان » مع الجنس الآخر ؛ ذلك أنهم يجدون أن البنات كثيرات ، وغالبا ما يواعدون ثلاث

---

(١) blind date : موعد مع شخص مجهول يطلبها دون سابق معرفة بل يطلبها تليفونيا .

أو أربع بنات مختلفات . وهم أيضا لا يرغبون بصورة عامة أن « يثبتوا على علاقاتهم » ، وخاصة إن كانوا جربوا ذلك الثبات عندما كانوا أصغر سنا ووجدوا أنه لم تكن له جدوى . فهم لا يحبون ذلك الشعور بأنهم « مقيدون » . ولكن يدهشهم فى بعض الأحيان إذ يرون كم البنات مذبذبات متقلبات وأنهن « يتغيرن هكذا بالضبط » .

وهناك عدد من الصبيان لايلتقون بالبنات إلا فى حفلات الرقص. والظاهر أن هذه الاجتماعات تكون بصورة طبيعية إلى حد ما — إما عن طريق المدرسة أوعن طريق الجماعات الأخرى المنظمة لكنيسة أو جمعية الشبان .

وتحب البنات الرقص أكثر من الصبيان . ولكن ابن السادسة عشرة كابن الخامسة عشرة سواء بسواء فى حبه لرفع الكلفة الذى يسود مقصف (كانتين) المدرسة الثانوية الذى يتلاقى فيه مع أصدقائه . وهو يحب أيضا الذهاب إلى بيوت أصدقائه . والبنات يكن فى الأغلب هن المضيفات . وأبناء السادسة عشرة يحبون ما يظلل البيت من بساطة وعدم تكلف ، ومن انسياب إلى المطبخ . كما أنهم يحبون بوجه خاص الاجتماع الذى يتحول إلى « اجتماع جميل صاخب كثير الجلبة حافل بالناس مع الرقص والغناء فى أحد الأركان والزمالة الطيبة الجميلة حقا حيث يعرف أى فرد كل فرد آخر » .

٦ — الميول وأوجه النشاط

إن أهم ما يميز ابن السادسة عشرة عن غيره استمتاعه بنواحى نشاطه . هو مهتم بما هو « هنا والآن » — العمل الذى يجب أداؤه اليوم . وهو لا يبدد وقته وطاقته فى المقاومة والتمرد كما كان يفعل فى الخامسة عشرة . وميوله وأنواع نشاطه أدنى إلى نمط البالغين كما أن لها مكانا طبيعيا فى حياته . وهو يبدو على الاجمال قادرا تماما على المضى فى طريقه وعمل ماله أهمية لديه .

وقد انتقلت إلى السادسة عشرة معظم الميول الرياضية التى كانت له فى الخامسة عشرة . والصبيان فى ألعاب التنافس الجماعية يتخذون مواقفهم ويجمعون قدراتهم لأداء الألعاب

أداء جدياً . ولعل لاعبي التنس منهم قد أجادوا تدريب أنفسهم بدرجة تكفي لدخولهم في مباريات الدورات العامة. أما الذين لهم اهتمام بالملاحة الشراعية فقد يستمتعون بنواحي التنافس في تلك الرياضة ، بيد أن هذا يجعلهم ينظرون إلى مهاراتهم في قيادة السفن نظرة موضوعية (Objective) أكثر . فإنهم يظهرون ميلا لاكتشاف مواطن الخطأ والصواب عندهم .

ومع أن بعض البنات تواصلن الاستمتاع بالألعاب الفردية ، كما أن قليـــلا منهن يواصلن محبتهن لكرة القاعدة ، إلا أن نسبة متزايدة على الدوام منهن تقلل بالتدريج من الاهتمام بالرياضة بل إن بعض البنات قد يظهرن الفخر بقلة مالديهن من عضلات وقوة .

ولكن الصبيان يريدون من الجهة الأخرى أن يبرزوا قوتهم ، وأن ينموا عضلاتهم. فهم يستمتعون بالأعمال العنيفة كقطع الأشجار وتقطيع الخشب . وهم فوق هذا يريدون أعمالا وأشغالا حقيقية. ومن حسن الحظ أنهم الآن في سن كبيرة تسمح لهم بالتقدم لمثل هذه الأعمال . وهناك إمكانيات عديدة جدا تختلف باختلاف ميول الصبي الخاصة : فربما عمل كاتبا في متجر للبقالة ، أو عامل باب بإحدى دور السينما أو مساعدا بمحطة بنزين أو كاتبا بدكانة اسطوانات أو ميكانيكيا بدكانة راديو. ويستطيع كثير من الصبيان تنظيم شئونهم بحيث يعملون في هذه الأشغال « بعض الوقت » . وقد يكون من حسن الحظ أحيانا أن تستطيع المدرسة تهيئة سبيل خروجهم للعمل « نصف الوقت » . ولكن الذي يحدث في الصيف هو أن حياة كثير من أبناء السادسة عشرة ترتب على أساس العمل « كل الوقت » ، وهو ليس مستعدا فقط لهذا الترتيب بل ويتطلع شوقا إليه أيضا .

وليست الأعمال مهمة للبنات أهميتها للصبيان، وإن كانت البنات أيضا ينشدن الأعمال الصيفية وإنما أهم مايشغل البنات هو الحياة الاجتماعية حياة « الناس والأفكار » فإن مجرد وجود البنت « مع النـــاس والمجتمع والحديث والتمشي للنزهة أو ركوب السيارة » يملأ قطاعاً ضخما من حياتهن . والبنات صريحات جدا في قولهن « لا خير في جماعة من الناس لاتستطيع الاستمتاع

بالفراغ التام وعدم عمل أى شيء » وليس ثم شيء أعظم قدرا لدى معظم بنات السادسة عشرة من مجموعة جميلة من الأصدقاء .

وقد تيسر الآن التغلب فى كثير من الحالات على عدم وجود رخصة القيادة بحيث صارت متاعب النقل وتعقيداته أقل عدداً . غير أن هناك مع ذلك مسائل أخرى تتصل بصلاحية ابن السادسة عشرة لقيادة السيارات بغض النظر عن بلوغه السن القانونية لابد من بحثها ومواجهتها على يد كل من الوالدين وأبناء السادسة عشرة أنفسهم . ومن حسن الحظ أن هناك ميلا إلى العودة إلى حظيرة البيت ورغبة أكبر تبديها المجموعة فى التجمع فيه ، وهى حالة تتمخض عن ضبط أسهل وطبيعى أكثر.

انواع النشاط المستقرة كالمشاهدة والاستماع

يستمر كل من الاستماع للراديو ومشاهدة التليفزيون فى التناقص عند الكثيرين فى سن السادسة عشرة . وأبناء السادسة عشرة يحبون فعلا أن يسمعوا الموسيقى المألوفة سواء أكانت كلاسيكية أم شعبية . ولئن كان بعضهم لايزالون يرغبون أن يظل الراديو دائراً أثناء مذاكرتهم ، فإن هناك آخرين يجدون أنهم إما أن ينهمكوا جدا فى المذاكرة أو فى الاستماع للموسيقى بحيث لايستطيعون الجمع بينهما . والصبيان يشاهدون التليفزيون بدأب أشد وخاصة برامج الأخبار كما أن البرامج الرياضية ، بما فى ذلك مباريات الملاكمة تجتذب التفات الذكور. ولكن التليفزيون ليس تسلية محبوبة فيما عدا ذلك من الأوقات .

وهم يستمتعون بالموسيقى أكثر ما يستمتعون عن طريق الاسطوانات. فإن كثيرا من أبناء السادسة عشرة قد كونوا مجموعة ضخمة يملكونها ، كما أنهم أصبحوا الآن ميالين لجمع الاسطوانات فى أبواب كأنما هم من هواة جمع الاسطوانات ، وهو شيء ربما دخل فيه قطع الجاز الشائعة فى العقد الثالث (أى بعد ١٩٢٠) . ولقد يبلغ الأمر بأحد أبناء السادسة عشرة

أن يجالس الأطفال مجانا ببيت يستطيع أن يصغى فيه إلى مجموعة جيدة من اسطوانات الجاز .

وابن السادسة عشرة يكون خير قارىء لو قيض له الوقت اللازم . وهو يحس أنه سعيد بدرجة هائلة لو استطاع تدبير الوقت ولكنه فى الكثير الغالب يضطر إلى التضحية بشىء آخر ، والنتيجة فى الغالب هى القضاء على مذاكرته . على أنه يذكر أنه لو اتسع له الوقت لقرأ الكتب بجميع أنواعها مثل كتاب الحرب والسلام War & Peace وأنا كارنينا Anna Karenina ، والكبرياء والهوى Pride &Prejudice وتس سليلة دربرفيلز[1] Tess of the D' urbervil'es وفى العبودية البشرية Of Human Bondage وجميع أنواع الكتب الأخرى التى قد يحب أن يفكر فيها ويبحث عنها .

وهناك وقت للمجلات . والصبيان يجدون بصورة أوتوماتيكية الوقت اللازم لقراءة المجلات الفنية (Technical) بتعمق تام . كما أنهم أحسن من البنات فى متابعة الأخبار عن طريق الصحف .

ويكاد الاهتمام بالسينما يقل عما كان عليه فى الخامسة عشرة . فابن السادسة عشرة « إما أن يذهب إلى الأفلام جميعا أو يهجرها جميعا » وربما لم يذهب إلا لأن الذهاب شىء لابد من عمله مع الشلة . وهو لا يحس بأى باعث يبعثه على رؤية أحد الأفلام مرة ثانية . ولكنه يميل للمسرح وسيتحايل بكل الوسائل حتى تستطيع ماليته شراء تذكرة ويستمتع بلذة تحليل المسرحيات . كما أنه يدرك الفرق بين الاثنين عندما يوازن بين واقعية المسرح وشعوره كفرد من النظارة وبين انفصال الأفلام عن الناس وقلة ما بها من حيوية .

---

(١) وهى قصة حافلة بالنواحى الإنسانية الشريفة ألفها الكاتب الانجليزى توماس هاردى وترجمها منذ ١٩٣٨ المرحوم الأستاذ فخرى أبو السعود [المترجم] .

٧ـ الحياة المدرسية

فى امكان القوى التكاملة التى تعمل فى دخيلة ابن السادسة عشرة أن تجعله شخصا مستجيبا للتعليم مثيرا للاهتمام أثناءه . وهو كثيرا ما يتحدث عن سنوات دراسته بالمدرسة الاعدادية بأنها « خير من السنة الماضية . » كما أنه يذكر أيضا أنه يحصل فوائد كثيرة ويستفيد كثيراً من المدرسة .

وهذه هى السن التى يزداد فيها وضوح الاتجاه الذى هو متجه اليه . فأما الذين لهم ميل للدراسة الجامعية فهم مستعدون الآن للبدء فى العمل الجدى ليظهروا أنهم قادرون أن يفعلوا ذلك ويحققوه . وأنهم يستطيعون أن يتفهموا إحدى المواد ويحسنوا التحصيل فيها . أما الذين تستهويهم الاتجاهات التى تغلب عليها الناحية العملية الأكثر نشاطا فيرغبون التدريب على أنواع خاصة من المهارة الفنية فى الحرف التجارية أو الأعمال اليدوية . فاذا لم يكن ذلك قد تيسر لهم من قبل ، فربما كان بعضهم مستعدا للانقطاع والانصراف الى سبيلهم . وهناك جماعات أخرى لها هدف أقل تحديدا . ومن هذه الجماعات تلك التى تضم ذوى النضج البطىء ، ومعظمهم من الصبيان ، وهم الذين لا يصلون الى مستوى التحصيل الجيد ، ولكنهم يبتغون فى مواصلة الجهود لبلوغ المستوى المتوسط للدراسات الأكاديمية . وينبغى أن يمنح هؤلاء الطلبة التشجيع ، والاعتراف بما أحسنوا صنعه ، كما يمنحوا فوق كل شىء الزمن اللازم لنموهم . ولعلهم يحتاجون الى فرصة خاصة لاظهار نبوغهم فى الفنون أو العلوم أو أى ميدان يجيدون فيه أحسن إجادة .

ولا شك أن تنوع الاهداف والسبل المؤدية اليها تلك التى يختارها أبناء السادسة عشرة تجعل مواصلة الحديث فى حدود هذا النطاق ضربا من المحال . وعندى أن عجزنا عن حق محاولة « تحديد » نواحى النشاط لابن السادسة عشرة له أهمية ودلالة فى حد ذاته . وهو يدل على وجود مجال للفوارق الفردية المتعددة عند هذا المستوى المقترب من مرحلة الرشد ، وعلى تعدد أشكال البرامج التى تقدمها النظم المدرسية لمواجهة هذا التعدد فى أنواع الأهداف والحاجات .

٨ ـ الحاسة الخلقية

ان حاسة ابن السادسة عشرة الخلقية أكثر مرونة كما أنها أكثر ثباتا فى نفس الحين ، فضلا عن أن من السهل عليه إلى حد ما أن يصوغها صياغة مضبوطة أو يستخدمها ويطبقها . وهو على الجملة يستطيع « أن يميز فى المعتاد » بين ما هو صائب وما هو خاطئ ، والصبيان كشأنهم قبل ذلك يحسون أنهم يعرفون « بالغريزة » أو بطريقة « آلية » . ويظهر ابن السادسة عشرة شيئا من الدهشة حين يدرك أن آراءه تكاد تشابه آراء والديه . وقد لخص أحد الصبيان الأمر بقوله : « لم أجد حتى الآن شيئا يناقض تعاليم والدى » . أو يقول آخر ، « نحن نتفق ونتمشى معاً على أحسن وجه . » ولكن لا يزال من المهم لدى ابن السادسة عشرة تحديد ما هو صواب أو خطأ بمقتضى ظنه وفكره ، وبمقتضى كيفية ارتباط ذلك به شخصيا . وهو يدرك أن هناك قوانين ومبادئ يضعها الوالدان والكنيسة ، ولكن الشيء المهم لديه هو « كيفية اتباعه هذه أو تلك » .

وقد يحدث أحيانا أن ما كان يظنه صوابا قد يظهر بعد ذلك أنه خطأ . أو لعله إن لم يكن متأكدا أو لم يكن ذا رأى قوى ، فربما جرفه تيار الجمهور أو أصدقاؤه دون أن يستطيع بالضرورة أن يختار أحسن الأمور . ولكنه على الاجمال يفعل ما يرى ، كما أنه يثبت أنه على صواب « فى معظم الأوقات . »

ومع أن ابن السادسة عشرة يقول إن ضميره لا بد أن يضايقه إن هو فعل خطأ « كبيرا » ، فهو لا يجد فى جعبته اساءات كثيرة ومعينة يستطيع أن يذكرها . وهو بالمثل يكاد يتخذ من الصدق نفس الاتجاه العام كما أنه ولا ريب صادق تماما . بل الحق إنه ربما كان فى بعض الأحيان مفرطا قليلا فى صدقه ، مبالغا قليلا فى صراحته . ومن حسن الحظ أنه يبدو أن كلا من والديه وأصدقائه قادرون على تقبل ملاحظاته على شخصياتهم أو أعمالهم . ولكن الظاهر أن ابن السادسة عشرة لا يستشعر فيما يتفوه به من أقوال أى نوع من الكف أو فرط الحساسية .

وأبناء السادسة عشرة صريحون

أيضا فى بحث حقوقهم مع والديهم . وقد تحتدم هذه المناقشات قليلا فى بعض الأحيان ، وإن احتفظ بها داخل نطاق « المجادلة السليمة التى لا غبار عليها» . ولكن ابن السادسة عشرة ربما قال : « إن أنا وقفت بين وجهة نظرها (يعنى والديه) وبين وجهة نظرى ، فإن لذعات ضمائرنا تعمل فى العادة من تلقاء نفسها . »

أما نواحى التدخين والسباب واحتساء الخمر فهى تبدو فى حالة توازن متعادل . فالنزاع حولها قليل على كل حال . ويقلع الآن عن التدخين عدد من أبناء السادسة عشرة كانوا يدخنون فيما سلف . ولكن هناك المدخنون المدمنون ، وهم قلة . وكأنى بهم وقد غاصوا فى تلك العادة إلى قمة رؤوسهم . وربما ظلوا كذلك ما لم تخرجهم من لجاتها (أى العاده) قوة شديدة ، كالوقوع فى شرك الغرام . أما السباب فليس مشكلة عسيرة ، بل هو بالأكثر مسألة فردية . أما احتساء المشروبات الروحية فلم يدخل فى نطاق المشكلات المعضلة عند مجموعة أبناء السادسة عشرة الذين نكتب عنهم . واحتساء الخمر عند الصبيان أكثر منه عند البنات ، ولكنهم يميلون الى الاقتصار على البيرة. وهناك قلة من البنات تقرر أنها ربما شربت « تأدبا فقط » . والصبيان قد يقتصرون على شرب المشروبات الحلوة عندما يكونون بإحدى الحفلات مع بنات أصغر منهم . ومن سوء الحظ أن البنات يتعرضن لبعض المتاعب مع الصبيان الذين يكبرونهن (من أبناء السابعة عشرة والثامنة عشرة) الذين قد يصرون على احتساء المشروبات الروحية فى الحفلات . وهؤلاء الصبيان الأكبر سنا الذين يكثرون من احتساء الخمر قد يفعلون ما يفقدهم احترامهم عند البنات اللواتى يكن أكثر تسامحاً وتحملا « اذا سكرن فقط وهن منفردات مع الصبيان . » وحتى لو حدثت هذه الورطة ، فإن سائق السيارة غالبا ما يعلم أنه الشخص الذى لا يجوز له احتساء الخمر .

وليس الغش بمشكلة فى السادسة عشرة . وغالبا ما تكون أسئلة الامتحان بحيث لا تؤدى إلى الغش . وكما يحذر أحد الصبيان « ما دمت تغش

فلماذا تهتم ؟ وأى نفع يعود به عليك الغش ؟ » ومع أن السرقة ليست معضلة، فإن ابن السادسة عشرة ربما شغل باله بسبب النقود التى تقترض منه ولاترد. وهو يدرك أن هذه الديون ربما لم تذهب من ذاكرة المدين ، ولكنه مع ذلك لايردها وكفى . والسادسة عشرة سن مناسبة لوضع هذا الإهمال الظاهرى للمسائل المالية موضع البحث . فهل يكون هذا التناسى فى رد القروض شكلا مستترا من أشكال السرقة؟ وكيف يمكن مواجهة ذلك وإيقافه عند حد ؟ إن ابن السادسة عشرة يناقش ذلك بصراحته المعهودة وأيضاً بحكمة هى من المظاهر الفطرية لسنه هذه .

٩ ـ النظرة الفلسفية

الزمان والفضاء

لايحاول ابن السادسة عشرة أن يحدد بدقة شديدة فكرته عن الزمن بقدر ما كان يفعل فى الخامسة عشرة . وهو يضم إلى تصوره للفترات الزمنية بداية ونهاية لكل منها كقوله «الفترة بين وقت ووقت آخر » أو « المدة التى تنقضى بين الحوادث » . وهو يرى العلاقات ويدركها . وهو كشأنه فى الخامسة عشرة يفكر فى الزمن كمقياس أو وسيلة للتسجيل « هو مقياس ترتيب الحوادث » أو « طريقة تسجيل الحوادث فى فترة ما » .

بيد أن ابن السادسة عشرة يعيش فى الحاضر ويتطلع إلى المستقبل . والمفهوم العام للزمن لديه يعبر عن حالته الباطنية « الأيام كما تمر بنا » ؛ « إنه حركة الأشياء نحو قدام ، هو التقدم أماما » . وبعضهم أوسع شمولا فى تفكيرهم ، فهم يقولون « إنه مرور الأجيال ــ والناس والحوادث » ــ أو « إنه المسافة والاتساع الذى تتحرك فيه من الميلاد إلى الممات » .

ويعيش ابن السادسة عشرة فى الحاضر تماما وبأوفى معانى الكلمة . فهو يقول « أحب أن أعيش حيث أنا تماما » . وهو يحب أحداث الحياة التى تمر يوما فى إثر يوم . وهو ينظر إلى المستقبل القريب ويتساءل «عم سيتكشف المستقبل ؟ » ، ولكن ذلك لايمنعه من أن يعيش عيشة رغدة فى الحاضر .

والتصرف فى الزمن مسألة فردية إلى حد كبير ، ولكن ابن السادسة عشرة محافظ فى الجملة على مواعيده . وهو يحب أن يكون وسطا فى كل أموره . ذلك أنه الآن أخذ يتنبه إلى حاسة الآخرين بالزمن ، ويغير طريقة تصرفه بالزمن حتى تتوافق مع طريقتهم .

وكما فعل ابن السادسة عشرة بالزمن تراه يحدد الفضاء شأنه فى الخامسة عشرة . وللفضاء أيضا جانباه « فهو المسافة بين شيئين » أو « هو الفترة الفاصلة بين نقطتين » ، ولكن الذى يسحر ابن السادسة عشرة هو فكرة الصورة الكبرى المجهولة عن الفضاء . وهو يتحدث عن « فراغ لا حد له » أو « امتداد هائل من اللا شيئية المطلقة » .

ومع أن الفضاء خال وغير مملوء بشيء ، فإنه يعكس فيه ذاته الانسانية الخاصة حيث يتمثله « وحدة ووحشة » أو لعله يشدد التأكيد على كونه « شيئا لانستطيع رؤيته أو لمسه،أو الاحساس به » أو لعله يتصور الفضاء بان له « القدرة علي احتواء شيء فيه » .

فالفضاء كالزمان ، شيء نتحرك فيه ، ولكنه نوع من موضع أو تحديد للمواضع أو أى نوع من أبعاد تحديد المواضع . وهو يعرفنا « أين موضع الدنيا والأشياء ؟ » .

الموت والإله

ربما تأثر ابن السادسة عشرة بالآراء والأفكار المقبولة والشائعة عن الجنة والنار ، أو ربما كان هذا المفهوم يتمشى مع عملية تفكيره هو نفسه . ومهما يكن الأمر ، فالأغلب أنه يؤمن أكثر من ابن الخامسة عشرة بملكة للدار الآخرة . وربما ظن فى بساطة أن الأخيار يذهبون إلى الجنة وأن الأشرار قرارهم جهنم . أو لعله يظن أن من كتبت لهم الجنة هم النادمون على خطاياهم ، وأن من كتبت عليهم النار لا ياسفون على ما قدمت أيديهم ، بيد أن « هاتين الحالتين بعد الحياة فى الدار الآخرة ، وإحداهما للأخيار والأخرى للأشرار » ، ربما لم تكونا بالضرورة مرتبطتين بمكان يذهب إليه الناس . وربما كانت حتى « هى الحالة التى تعيش فيها ، وكانت

الحياة المؤلمة هى النار والحياة الطيبة هى الجنة » .

وهناك من يقولون « لا أدرى » ومن لم يعيروا هذه المسألة قدرا كبيرا من تفكيرهم أو من هم فى الحقيقة غير مهتمين اهتماما خاصا بها . وثم آخرون يحسون بأن لا شىء يحدث ، ولا شىء أكثر من نوم لا نهاية له .

ومع أن ابن السادسة عشرة ربما لم يكن متأكدا تماما من أفكاره ، فإن تأملاته غالبا ماتقوده فعلابصورةما إلى الاعتقاد بأن الشخص منا يذهب إلى عالم آخر بعد الموت . وربما كانت دار الدنيا منطقة اختبار وامتحان ، وربما كان لها تأثير فيما يحدث له فى العالم الآخر ؛ أو ربما لم تحدث مع ذلك تأثيرا كبيرا . ويظن بعضهم أن الحياة بعد الموت تكون « حياة أحسن وألطف وأبسط » . وربما تصور آخرون حدوث « بدء سيرة الحياة من جديد — نوع من عيش السلام والهدوء ، يشبه ما كان قبل أن يولد الانسان» . وترى إحدى بنات السادسة عشرة « إنك عند ما تولد مرة ثانية ، تنسى الماضى نسيانا تاما » .

ويحتمل أن ابن السادسة عشرة قدجرب وفاة الأقرباء والأصدقاء أكثر منه يوم كان أصغر ، وهو يقتصر على الهدوء التام عندما يموت له أقارب يكبرونه ، ولكنه قد يذهل أو يتأثر تأثرا عميقا عندما يموت صديق له أو ترب من أترابه . وهو يتمنى لو لم يمت الناس الذين يعرفهم .

ومع أن بعض أبناء السادسة عشرة يكون مفهومهم عن الله مفهوما لايشبع رغبتهم فى المعرفة ، أو هم لايستطيعون أن يفهموا أو يتصوروا ماهية الله وكنهه ، فإن آخرين قد أخذوا يعثرون على طريقهم إلى العالم الدينى الخاص بهم . ومع أن قليلا منهم يفكرون فى الله « كشخص أو تمثال » ، فإن الغالبية تذكر أنها لاتظن أنه إنسان حقيقة ولا هو ذو شكل إنسانى . وبعضهم يعتقدون أنه روح ، ولكن غيرهم يظنون « أنه لا هو انسان ولا هو روح » . لقد أصبح عندهم أدنى إلى حاكم مرشد وكائن أسمى وقوة وبأس أو مجرد إحساس . وابن السادسة عشرة على نقيض ابن الخامسة عشرة لايرغب فى تحديد أفكاره لأنه كما يقول: « لوكانت

عندى فكرة محددة لم يكن هو إلها » . وهو يعلم أنك لا تستطيع الحصول على صورة لله ، وأنك لا تستطيع رؤيته . ولكن ذلك لا يقلل من حقيقة وجود الله لديه بأى حال . وقد تجد بين حين وآخر أحد أبناء السادسة عشرة يحس بأن « الله يكون فى بعض الأوقات هنا ، قريبا منا . » ولكن ليس من الضرورى أن ذلك الاعتقاد فى الله يعنى أن الله له تأثير فى حياة ابن السادسة عشرة . أجل إن الله يؤثر فعلا « فى بعض الأحيان » — أو « إلى حد ما » — أو « هو يستطيع ذلك متى احتجت اليه » ، بيد أن ابن السادسة عشرة لم يتكون لديه فى داخلية نفسه أى نوع من المشاعر الدينية التى تمتاز بالاستمرار الشديد الثابت .

●●●●●●●●●●●●

تم الجزء الأول
ويليه الجزء الثانى

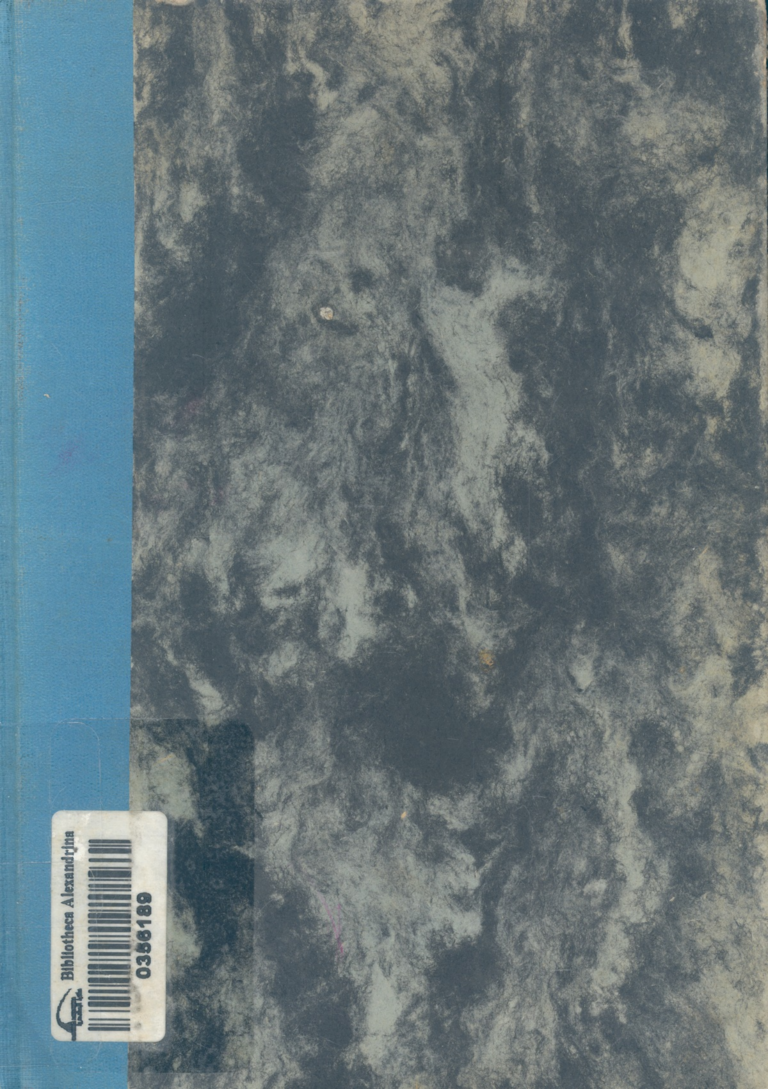
تصويب الأخطاء

فرطت هذه الأخطاء عفواً ونرجو القارىء أن يبادر بإصلاحها قبل مطالعة الكتاب

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٣	٤	عمريا	عمرى
١٥	٤	السلوك	عن السلوك
١٨	٢	تكييف	تكيف
٢٠	٢٣	والجبرية	والجدية
~~٢٢~~	~~٢٢~~	~~السلوك الانطوائي~~	~~السلوك التركزى البلطى~~
٣٩	٤	المفقودة	المعقودة
٤١	٨	مستوردة	مستورة
٤٢	٣	المناقشة	المناقضة
٤٢	١٦	ينطق	ينطبق
٥٠	١٩	عمليلة	عملية
٥٥	٤	المقابلة	التالية
٦٦	١٤	وهو التاسعة	وهو فى التاسعة
٦٨	٢١	أنه يرغب	أنه لا يرغب
٧٣	١٩	الفرنسية يعتبر	الفرنسية فإنه يعتبر
٧٥	١٠	لا	(تشطب)
٧٥	٢١	للكابوس	للكوابيس
٧٨	٢	بعد جنائية	بعد نوبة جنائية
٨١	١٨	فيها	فى دنيا اللطف
٩٢	٢٤	قد	(تشطب)
٩٣	١٨	الفرد الهندى Monopoly	النرد الهندى Parcheesi
٩٤	١٥	المقعد	المنضد
٩٧	٤	وعد	وعدم
١٠٣	١٥	متميزا	متحيزا
١٠٦	١٣	نوعين	(تشطب)
١١٥	١٦	استياعيه	استيعابه
١١٩	١٣	العبط	الغيظ
١٢١	٢١	احد	(تشطب)

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
١٢٤	٣	من	(تشطب)
١٢٩	٢٥	كبير تحـول	تحول كبير
١٣٤	١	جماعى	جمالى
١٤٠	١	تيهاء فى	فى تيهاء
١٤٤	١٨	يحر	يجـرح
١٤٥	٢١	وممتلـ	وممتلـكاته
١٤٦	٥	المهر	المهـرج
١٤٦	١٧	إلى إلى	(تشطبان)
١٤٨	٢٤	تفسيته	نفسه
١٥١	٢٢	فعلا . . .	فعلا أن يملك من المال
١٥٦	١٣	سـويا	معا .
١٥٨	٨	تردت	ردت
١٥٩	٢	الخطيرة	الـكبيرة
١٥٩	١٦	خاص، مفتاح	خاص مع مفتاح
١٩٣	١٨	احرار	احراز
١٩٣	٢٢	ومحاولة	ومما له
١٩٤	١	الأولى وجه العموم	الأولى على وجه العموم
١٩٤	١٢	ذلك	(تشطب)
١٩٤	١٥	المبـكرة فى العادة	المبـكرة مصحوبة فى العادة
١٩٦	٩	الطريق بصفة جدية	الظريق الشاذ بصفة جدية
٢٠٠	١٧	لهفة	لهنة
٢١٤	١٥	على	(تشطب)
٢١٦	١٩	الخاطر	الحاضر
٢٢٤	٢١	التوزيـع	التنويـع
٢٢٨	٦	يفسرون	يقسمون
٢٣٤	٧	يستحببن	يحببن
٢٤٦	٧	الإدماج	التركزالباطنى
٢٤٨	٤	سرية	سوية

صفحة	سطر	الخطأ	الصواب
٢٥٠	٢١	منه فى الثالثة عشرة	منه فى الثانية عشرة
٢٥٨	١	أنه	ومع أنه
٢٥٨	٢٢	فى	فى العادة
٢٦٤	١٨	بمجرد	بمبرد
٢٦٦	١٥	المختلفة	المتخلفة
٢٧٤	١٨	(الديناميكى متحرك) أيهما	شيء ديناميكى متحرك
٢٧٩	١٧	يرد	لم يرد
٣١٨	٢	لقطيين	لفظيين
٣٢٠	٢١	والثانية عشرة —	والثانية عشرة والثالثة عشرة
٣٢٥	٤	والمتع	والمنع
٣٣٣	١٦	بين	ابن
٣٣٣	٢٤	منظبقة	منطقية
٣٣٦	٢٢	يخترق	يختزن
٣٤٢	٢٣	متنكرا :... تنكره	متنكدا . . . . تنكده
٣٥٤	٧	ليعمون	ليعمدن
٣٥٥	١٤	الحادية	الحادية عشرة
٣٦٣	١٠	تفصيلا	تفضيلا .
٣٧١	٢١	معار	معارض
٣٧٤	١٨	ترك	شرك
٣٨١	٨	يقربهم بها	(تشطب)
٣٨٢	١٣	سبعة	توسعه
٣٩٠	٥	منها وهى :مفما سبق الأول	منها الأول فيما سبق وهى :
٣٩٤	٢٠	توجه لا	توجه نفسها لا


Bibliotheca Alexandrina
0356189